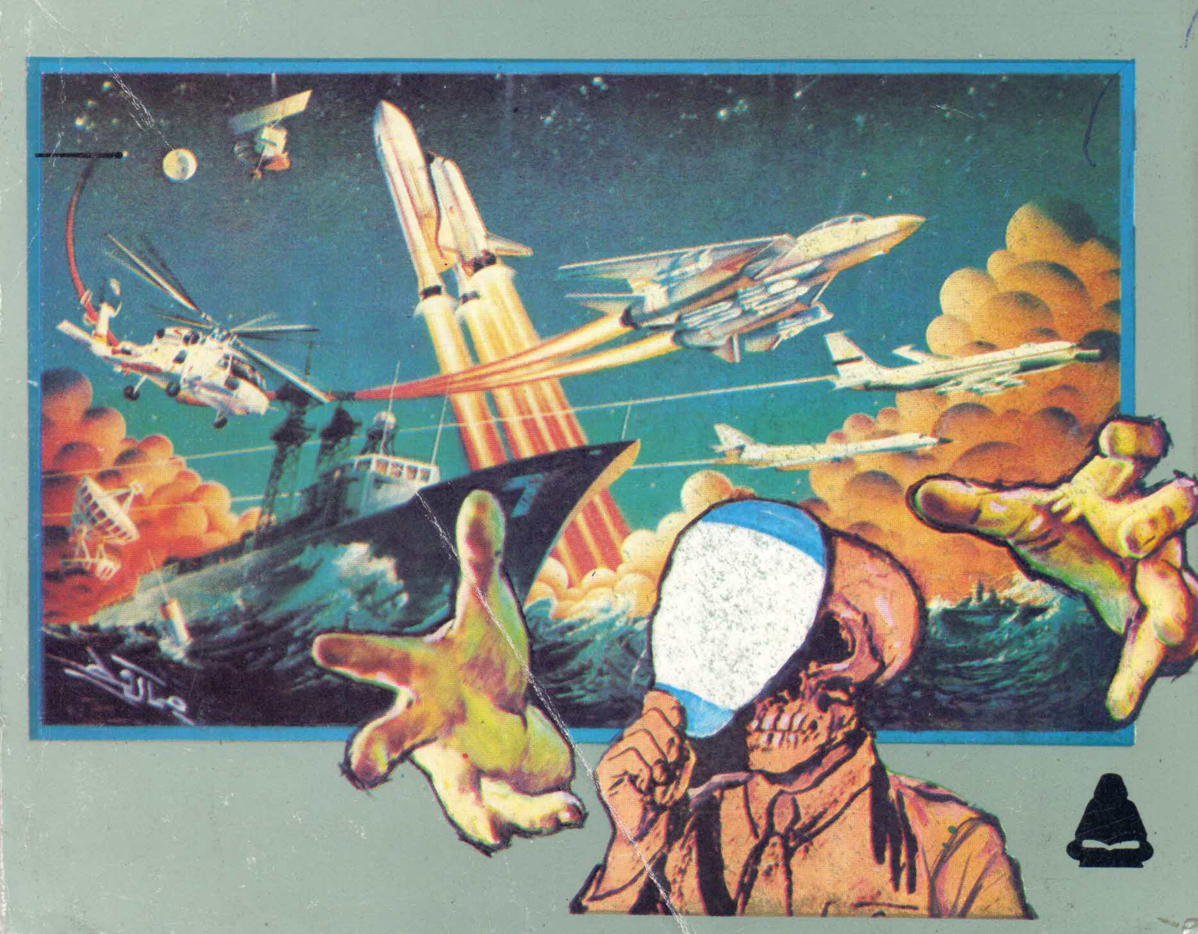
حرب الساعات الست

واحتمالات الحرب الخامسة

عبد الستار الطويلة



احتفالات ذكرى حرب أكتوبر المجيدة كانت ساخنة هذا العام بسبب التوتر الذى خلقته حكومة الليكود ومحاولتها التخلص من كل الاتفاقات التى توصلت إليها حكومة حزب العمل.

من هنا فإن أهمية أن تقرأ هذا الكتاب الذى يحكى قصة انتصار أكتوبر التى كان الكاتب مراسلاً حربياً فيها.. فهو أدق الكتب وأصرحها.. ويملأ بالتفاؤل نفسه القارئ بقدرة الشعب المصرى والشعوب العربية جميعاً.. فلنعش فى تلك الأيام المجيدة ونحرص أن يقرأه بعد حرب أكتوبر الذى يحمل الآن السلاح فى يد وجاروف البناء السلمى فى اليد الأخرى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبد الستار الطويلة

حرب الساعات الست

بيروت

واحتمالات الحرب الخامسة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

الإهداء

الى كل جندي عربي ..استشهد
على الأرض العربية فى فلسطين ..
وسيناء .. والجولان .. فى معركتنا
التى لم تنته بعـد لتحرير الوطـن
العربي من الاستعمار والامبرياليـة
والصهيونية ...

الغلاف من رسم الفنان جمال كامل

يشكر الكاتب وكالة تلستار للإعلان (بسيوني جمعة وشركاه) على تبرعها بتكاليف حملة إعلانية لهذا الكتاب تقديراً للمغزى العظيم لانتصار ٦ أكتوبر .

مقدمـــة ..

هذا كتاب جديد .. وغير جديد في نفس الوقــت !

ففي ٢٦ ديسـمبر ١٩٧٣ سطرت آخر كلمة فى كتابي « حرب الساعات الست » الذى نشرته « الهيئة المصرية العامة للكتاب فـرع بيروت » فـي مارس ١٩٧٤ ..

وانتشر الكتاب بين القرأء في العالم العربي بسرعة غريبة .. رغـم ان دعاية من اي نوع لم تصاحبه .. ولـم يـزف الى القارىء في مواكـب صحفية او تليفزيونيـة ..

بل بدا كما لو كانت هناك « مؤامرة من الصمت » حول الكتـاب كما قال لي احد قادة العبور فى دهشـة .. ومع ذلك نفد الكتاب وبـدأ الناشر يستعد لطبعة ثانيـة ..

ثم .. ثم حدثت المفاجأة الكبرى التي قلبت كـل شيء راسا على عقـب ..

في ٩ يونيـه الماضي استدعاني الرئيس انـور السادات لمقابلته .. وجلست اليه استمع الى اغلى واعذب حديث يحلم اى كاتب ان يسمعه من قائد بلاده .. فما بالك بقائد اشرف المعـارك واشرسها : معركة التحـرر والاستقلال والتقدم الاجتماعي ؟

قال لي الرئيس السادات كلاما كثيرا ملخصه ان كتابي حاز قبولـه واعجابه بجانبيه السياسي والعسكري ..

واضاف انه دهش كيف اني لست خبيرا عسكريا ومع ذلك تعرضت للمسائل العسكرية بمثل ما تعرضت في الكتاب رغم قلة مصادري في تلك الناحيـة .

وبطريقته الودود المعروفة النابعة من عراقة فلاح الارض الطيبـة

الضارب بجذوره الحضارية الى اكثر من خمسة آلاف سنة .. كلفني باعادة كتابة حرب الساعات الست مرة اخرى على ضوء المعلومات العسكرية التي سيتاح لي الحصول عليها فى برنامج من اللقاءات والمقابلات مع قادة الجيش وابطاله بناء على اتفاق بين سيادته وبين المشير احمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة .

* * *

وخرجت من عند رئيس الجمهورية وانا اشعر بجسامة المسئولية ازاء القارىء .. فاذا كان كتابي الاول قد تضمن بعض الاخطاء .. او النواقص .. او حتى الغموض في صفحات متفرقة هنا وهناك ..

فالان والدولة تتيح لى على اعلى مستوى فرصة نادرة لم تتح لكثيرين .. فليس هناك من عذر في كتابي الجديد ..

ومن ناحية اخرى انني وجدت نفسي امام كم هائل من المعلومات العسكرية عن المعركة منذ كانت خطوطا وارقاما على اوراق صغيرة وكبيرة..

وكذلك العشرات من القصص التي صنعها ابطال المعارك في البر والجو والبحر ..

ولو كان هذا الكتاب تسجيلا للقاءاتي ومناقشاتي مع صانعي وابطال العبور لكان الامر سهلا ليس فيه من عناء سوى ضغط القلم على الورق!..

هذه ناحية ..

الناحية الاخرى .. انه قد مضى نحو عام على معركة ٦ اكتوبر .. ونشر الكثير من الكتب في مصر والعالم العربي واوربا والولايات المتحدة والهند ايضا ..

وهذه الكتب تتضمن الكثير من اسرار الحرب .. وبعض تلك الاسرار صحيح .. وبعضها غير صحيح .. والبعض الاخر يجمع بين الصحيح وغير الصحيح ..

ومع ذلك فما زالت هناك اسرار عن حرب اكتوبر لم تذع بعد ولا ينتظر ان تذاع في وقت قريب ..

ويكفي ان حرب ١٩٦٧ لم يذع الكثير من اسرارها الا في عام

١٩٧٤ وان كان الامر قد اختلط في كثير مما اذيع بالتبرير والدفاع عن النفس والتنصل من المسئولية وما زالت الحقيقة تائهة .. بل ازداد الضباب من حولها كثافة !...

كيف يمكن اذن ان نقدم للقارىء جديدا .. وجديدا صحيحا وسط هذا السيل من تدفق الصحيح وغير الصحيح ؟..

بل ان مسئولية جديدة اضيفت على عاتقي في اغسطس الماضي اثناء زيارتي لاوربا .. فقد طلبت مني دار نشر فرنسية معروفة الاذن بترجمة كتابي الاول .. ولكني استمهلتها حتى يصدر كتابي الحالي لانه سيكون اوفى واكمل ..

ثم جاء بعد ذلك وفي ١٣ سبتمبر الماضي على وجه التحديد لقاء طويل بيني وبين الرئيس السادات طرحت فيه وانا أوشك على الانتهاء من كتابي ادق الاسئلة التي لا يستطيع ان يجيب عليها غير قائد الشعب الى النصر وغير القائد الاعلى للقوات المسلحة وسيرى القارىء هذا الحديث مسجلا بالكامل في صفحات هذا الكتاب .

من هنا .. فقد بذلت جهدا كي يكون هذا الكتاب جديدا .. رغم ان قاعدته ــ ان صح التعبير ــ كتاب غير جديد !..

واذا كنت ارجو شيئا في هذا الكتاب فاني ارجو ان اكون قد حققت امرين :

● اولهما قسط ولو متواضع من الثقة التي وضعها في المناضل انور السادات ، تلك الثقة التي تمثلت في تشريفي بالتكليف باعادة كتابة قصة معركة ٦ اكتوبر .

● وثاني الامرين ان اكون قد استطعت تحقيق التزامي بالمسئولية التاريخية ككاتب ملتزم بقضايا شعبه ازاء القارىء .. وازاء مئات الالوف من الجنود المصريين والسوريين والعراقيين والسعوديين والكويتيين والليبيين والاردنيين والجزائريين والمغاربة والسودانيين .. اولئك الذين صنعوا لنا نصر اكتوبر المجيد .. وردوا لنا الروح .. روح البعث الوطني التي حبست في قمقم هزيمة ١٩٦٧ .

* * *

واذا كنت قد وفقت في تحقيق هذين الامرين : ثقة القائد الاعلى لمعركة النصر .. والمسئولية ازاء القارىء والجنود ..

فالفضل أولا وأخيراً للامكانات الضخمة التي وضعتها القوات المسلحة تحت تصرفي ..

وتمثلت تلك الامكانات في برنامج للزيارات الميدانية واللقاءات مع القادة والضباط والجنود .

صحيح اني كمراسل حربي لمجلة صباح الخير عشت في الجبهة تحت لهيب النار .. مع زملائي من المراسلين ..

الا ان زيارة مواقع القتال بعد خمود صوت الرصاص .. تتيح فرصة اوسع واعرض للتأمل .. والحديث .. ومناقشة الخطط .. ومن قبيل ماذا وكيف ولماذا لم يحدث كذا .. و .. الخ ..

والحق ان القادة قد استمعوا لاسئلتي الصريحة في أناة وصبر .. وحاولوا تقديم كل ما يمكن ان يقدموه ..

واعترف اني كنت صريحا اكثر من اللازم عندما كنت اسأل اسئلة تدخل في مجال « الشائك والمحرج » خصوصا بعد ان قمت بجولة في عواصم اوربية غربية للاطلاع على كل ما نشر عن حرب اكتوبر ومناقشة الكثير من المعلقين السياسيين والعسكريين في الصحف ومعاهد الدراسات الاستراتيجية ..

ومع ذلك اتسع صدر قادة وافراد جيش الواثقين لكل ما طرحته من اسئلة وتساؤلات :

اني اشكر السادة ..
المشير احمد اسماعيل
الفريق عبد الغني الجمسي
الفريق محمد علي فهمي
الفريق حسني مبارك
الفريق محمد الماحى
الفريق سعد الشاذلي
اللواء احمد راغب العيوطى
اللواء سعد مأمون
اللواء فؤاد عزيز
اللواء احمد بدوي
اللواء عبد الستار مجاهد
اللواء محمد حسن غنيم

اللواء حسن أبو سعده
اللواء يوسف عفيفي
اللواء عبد رب النبي حافظ
اللواء عز الدين مختار
اللواء طبيب مصطفى الشيتي
اللواء طبيب محمود عبد الرازق
العميد طبيب سيد الجندى
العميد نبيل شكرى
العميد ضياء الدين زهدى
العقيد محمد عبدالله
العقيد فتحي عباس
الاستاذ طاهر الاسمر

والشكر ايضا لعشرات من ضباط البحرية .. وضباط وجنود الجيشين الثاني والثالث والصاعقة ..

واذا كان البرنامج .. واللقاءات التي نظمت لي .. قد استغرقت وقتا طويلا .. فإن جهدا مضنيا قد بذله السادة العميد حسن الكاتب والمقدم عادل يوسف والرائد محمد رحيم لانجاح هذا البرنامج وتلك اللقاءات ..

ولذلك فإني مدين لهم بالشكر والعرفان ..

وبعد .. فياتي دور القارىء الان .. ليتابع ذلك الجهد الذي شارك فيه اولئك جميعا .. في ميدان القتال .. بالعرق والدم والتضحية .. وعلى الورق بالحديث والمناقشة ..

وما زال الدور ينتظرهم .. فى ميدان القتال مرة أخرى .. ليستكملوا قيادة معركة التحرير النهائية .. للارض المحتلة والمغتصبة ..

وآمل ان اقدم للقارىء الفصل الأخير من معركة التحرير .. فى كتاب جديد .. في اقرب وقت بعد النصر النهائي على العدو .

عبد الستار الطويله

مقدمة الطبعة الثانية

نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى شهرين كما نفد كتابى الأول عن حرب أكتوبر الذى صدر فى مارس ١٩٧٤ ، دون ضجة أو زفة اعلامية أيضا .

ولقد سطرت آخر كلمة فى الطبعة الأولى فى ٢١ نوفمبر ١٩٧٤ .

ومنذ ذلك التاريخ ـ وهذه الكلمات تكتب فى أوائل ابريل ١٩٧٥ـ شهدت منطقة الشرق الأوسط او بالأحرى شهد الصراع العربى الاسرائيلى أحداثا وتطورات كثيرة .

ولكن كل هذه الأحداث والتطورات تؤكد فى معظمها سلامة الخط السياسى للقيادة السياسية فى مصر .. هذا الخط الذى شرحه الرئيس أنور السادات فى بساطة شديدة فى حديثه الى مجلة روز اليوسف فى مارس الماضى عندما قال :

« ان السياسة المصرية مثل المثلث .. قاعدة المثلث تمثل المبادئ التى لا نحيد عنها ابدا : جلاء قوات الاحتلال من كل الأراضى العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وتحقيق الحقوق القومية للشعب الفلسطينى .

وهذه القاعدة هى الاستراتيجية .. ثابتة لا تتحرك أما رأس المثلث فهو التكتيك ، الوسيلة .

وراس المثلث هذا يتحرك يمينا أو يسارا أو وسطا لتحقيق الهدف الاستراتيجى الثابت .. »

وتؤكد تلك التطورات أيضا صحة المنهج الذى تناول به الكتاب حرب اكتوبر ودلالتها ومواقف القوى المختلفة منها واحتمالات المستقبل .

فعندما صـــدرت الطبعة الأولى كان الحـديث قد بدأ عن جـولة جـديدة ينوى الدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجيـــة الأمريكى أن يبدأها للتوصل الى فصل جديد للقوات « ينزع الفتيل من الموقف المتفجر فى المنطقة » تمهيدا للتوجه الى مؤتمر جنيف . وفى ذاك الوقت كان الحديث يتردد عن احتمال قيام حرب خامسة فى القريب ..

وكان التساؤل المطروح هو هل ترى يمكن ان تتراجع اسرائيل الى الحد الذى طرحته مصر لفصل جديد بين القوات : حـــد التخلى عن المضايق الاستراتيجية فى سيناء وحقول البترول فى بورديس وبلاعيم .

أن مثل ذلك التخلى يعنى اعلانا عن استعداد الاسرائيليين للمضى فى طريق التسوية السلمية ..

هـذه التسوية التى أعلنت مصر عدة مرات أنهـا تعنى الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية من الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ وتحقيق الأمانى الوطنية للشعب الفلسطينى .

وقد جاء فى الطبعة الأولى بالحرف الواحد « ان التعنت الاسرائيلى ما زال حادا ، فثمة مواقع ثلاثة يتشبث بها الاسرائيليون تماما : شرم الشيخ . معظم الجولان . القدس .

ولا يبدو أن الأمريكيين حتى الآن مستعدون للضغط كفاية على المؤسسة الاسرائيلية للتراجع .

وهذا ما يجعل احتمال « التسوية السلمية صعبا حتى الآن » .

ولقد أعطت مصر الولايات المتـــحدة فرصة جديدة لتطبيق فكرتها من الحل « خطوة بخطوة » مرجعه عند مؤتمر جنيف حتى تدخل الأطراف المختلفة فى المؤتمر أقل توترا ..

هذه كانت وجهة نظر مصر .. وهى وجهة نظرها منذ أن تدخل كيسنجر ودخان المعارك ما زال لم ينقشع عن جبهة سيناء ..

ونجح فى تحقيق أول فصـــل للقوات على الجبهة المصرية .. ثم الجبهة السورية (راجع فصلى دبلوماسية المكوك والثغرة فى هـذا الكتاب) ..

لقد كانت مصر لا ترى بأسا من محاولة كسينجر باعتبارها نضع حركة التحرر العربية فى وضع أحسن .. اذ أن الانسـحاب من مزيد من الأراضى العربية على الجبهات الثلاث كمـا أكد أنور السادات دائما .. وكما تبين بعد ذلك اصراره على ذلك فى مباحثات أسوان بعد ذلك ..

لا شك أنه يضع تلك الحركة في مستوى أفضل ٠٠ ويدفع الى تنشيط الجهود الدولية لحل المشكلة سلميا فى اطار مؤتمر جنيف الدولى ..

وقد عبر عن ذلك صراحة الرئيس أنور السادات فى مؤتمر القمة بالرباط عندما قال ان رفض أى إنسحاب اسرائيلى جـديد من أى أرض عربية يعتبر خطأ فادحا ٠٠

اضف الى ذلك أن مثل ذلك الإنسحاب على الجبهات الثلاث كان سيعطى مصر فرصة ملائمة لاعادة فتح القنـــاة لما فى ذلـــك الفتح من نتائج سياسية واقتصادية على الاقتصـــاد المصرى الذى يعانى من نقص شديد في السيولة المالية اذ لم يتقدم الأشقاء العرب حتى الآن باى حلول جذرية لمثل تلك المشكلة ..

كما ان اســتعادة موارد البترول فى بورديس وبلاعيم كان سيزود الخزانة المصرية بموارد مالية ايضا تحقق نفس الهدف ..

هذاعلاوة على استرداد الممرات ذات الأهمية الاستراتيجية وعلى الجبهة السورية كان مزيد من الانسحاب الاسرائيلى يعنى اعادة توطين السكان في القنيطرة ٠٠ وتخـــلى الاسرائيليين عن مواقع استراتيجية تهدد المناطق التى انسحبت منها القوات الاسرائيلية فى عملية الفصـــل بين القوات الأولى ..

أما الإنســحاب من منــاطق من الضــفة الغربية فانه كان سيطرح بعنف قضية إقامة السلطة الوطنية للمقاومة الفلسطينية لأول مرة على أرض فلسطينية منذ الاغتصاب الاسرائيلى لأرض فلسطين ..

هذه كانت وجهة نظرنا كما قلنا من قبل وليست لدينا حساسية ولا تخوف من أهداف السياسة الأمريكية وكيسنجر بالذات من وراء محاولة الحل خطوة بخطوة ..

فحركة التحرير العربية وخاصة قيادة ثورة ٢٣ يولية قد خاضت معارك عديدة ضد الاستعمار وخاصة الاستعمار الأمريكى ولا يخفى عليها أغراض ولا أهداف السياسة الأمريكية ٠٠

فمنذ بداية حرب ١٩٧٣ ٠٠ لا يخفى على أحد ٠٠ مساندة أمريكا لإسرائيل ٠٠ وقد أكدت القيادة الســياسية عدة مرات أن العرب كانوا يحاربون امريكا فى الأيام العشرة الأخيرة ..

ولا يخفى على أحد أيضـــا أن أمريكا كانت تستهدف اعادة للنفوذ الأمريكى فى المنطقة ٠٠ وباظهار الولايات أنها وحدها التى تملك المفتاح

السحرى لحل مشكلة الشرق الأوسط وتحقيق الأمانى الوطنية لحركة التحرير العربية .

وباستعادة النفوذ هذا يمكن للولايات المتحدة ضمان سيطرتها على مصادر الطاقة (البترول) فى المنطقة .

ولقد استحدث كيسنجر ومن ورائه مجموعة « الامبرياليين الجدد » - الذين سيقرا عنهم القارى فى هذا الكتاب - أسلوبا جديدا وصفه باقامة « سياسة متوازنة » .. وكان يتمتع بتاييد نيكسون فى ذلك .. ولكن هده « السياسة المتوازنة » لم تتفق قط مع اتجاهات الامبرياليين التقليديين الذين يمثلهم أمثال « السناتور جاكسون وجماعات الضغط الصهيونى .

وكان سقوط نيكسون ايذانا باختلال الميزان فى صالح أولئك التقليديين ..

وبدا واضحا أن خليفته الرئيس جيرالد فورد أعجز من أن يواجههم..

وسقطت محاولة كيسنجر فى التوصل الى فصل جديد للقوات .

ذلك أن الاسرائيليين اذا كانوا قد وافقوا على استئنافه محاولته الا أنهم استغلوا الظروف الجديدة فى الولايات المتحدة أحسن استغلال خصوصا أن موعد انتخابات الرئاسة الأمريكية قد اقترب (١٩٧٦) وجيرالد فورد ينوى ترشيح نفسه .. فازداد تعنتهم بصلافة غريبة واكتفوا بتشييعه فى مطار تل أبيب بعبارات الأسف بسبب فشله فى مهمته بعد أن قال بصوت متهدج : انه يوم حزين لاسرائيل وأمريكا ؟..

ان هدف السياسة الاسرائيلية منذ البداية من قبول مبادرة كيسنجر كان العمل على تحقيق فصل بين مصر وسائر دول المواجهة والمقاومة الفلسطينية بعقد اتفاق منفرد ..

وكان الطريق الى ذلك هو ذلك الطلب الاسرائيلى « اللا معقول » والذى أصرت عليه اسرائيل فى سذاجة غريبة وهو اعلان مصر انهاء حالة الحرب مقابل ذلك الانسحاب الجزئى من سيناء فقط !

والمرء يدهش فعلا لذلك الطلب .. وذلك الاصرار.. ويتساءل هل وعت القيادة الاسرائيلية دروس حرب أكتوبر حقا ؟ .. أم هل نسيت تلك الدروس وابرزها سقوط نظرية التفوق الاسرائيلى .. مما يعنى أن الجيوش العربية قادرة على ضرب جيش الدفاع الاسرائيلى الأسطورى ضربات موجعة ؟! أم أنها تحاول اجهاض نتائج حرب أكتوبر وجعل العالم

ينسى انتصار العرب فيها باتخاذ هذا الطريق المغامر برفض مجرد انسحاب جـزئي ؟

اننا نعود مرة أخرى الى أيام الصلف والغرور الاسرائيلي اللذين استمرا في المنطقة أكثر من ربع قرن حتى مُرّغا في رمال سـيناء وأوحال الجولان ٠٠ وهذا نذير خطر يؤيد التوقعات الكثيرة لدى بعض المراقبين السياسيين ٠٠ ان العسكرية الاسرائيلية تريد بل تخطط لضربة انتقامية ضد الجيش المصرى والسورى ٠٠

ولعل سلبية الحكومة الاسرائيلية الحالية إزاء المظاهرات العنصرية الحمقاء والخرقاء التى تجوب المدن الاسرائيلية والقدس بالآلاف تطـالب تلك الحكومة بعدم التخلي عن شبر واحد من أرض الضـفة الغربية مثلا باعتبارها أرض الميعاد لاسرائيل ٠٠

هذه السلبية في الأرجح أن يكون وراءها تدبيرات انتقامية عسكرية غادرة ٠٠

ولعل الدعاية الاعلامية الضـخمة التي أحاطت بهـا الصـحافة الاسرائيلية ، حملة جمع التوقيعات التى نظمتها جماعة ليكود اليمينية المتطرفة لنفس الغرض (أى عدم الانسحاب من الضفة الغربية) ٠ هي تعبئة فى نفس الوقت للرأى العام الاسرائيلى لتلك الحرب الإنتقامية المتوقعة ٠٠ (جمعت جماعة ليكود ٦١٩ الف توقيع أى ٤٠٪ من الناخبين الاسرائيليين) .

ولكن رغم هـذا كله ٠٠ ماذا كان موقف القيـادة السـياسية المصرية ؟ ٠٠

لقد اصرت على موقفها المبدئى ٠٠ وركلت الصـلف والتعنت الاسرائيلى ٠٠ وفى ٢٢ مارس أعلن وزير الخارجية المصرية اسماعيل فهمى فى أسوان فشل مهمة كيسنجر وقال :

« كمـا تعلمون أن جهود كيسنجر انتهت بسبب موقف الحـكومة الاسرائيلية التى تصر على مطالب معينة ترفضها مصر ٠٠ بصفة قاطعة من البداية .

ان سياسة الخطوة خطوة التى كانت تمارسها الولايات المتحدة بعد فشل مهمة كيسـنجر لأسباب ترجع الى الموقف الاسرائيلى قد انتهت .

وبالتالى فان الخطوة التـالية للتحرك هى دعوة مؤتمر جنيف في أقرب وقت وان مصر مع الدول العربية ٠ ومع منظمة التحرير الفلسطينية

سوف تتشاور مع الدولتين العظميين وتطلب منهما بصفتهما يتباومان الرئاسة المشتركة وتطلب اليهما دعوة مؤتمر جنيف للاجتماع فورا ·

وأضاف الوزير « انه منذ البداية كان واضحا أن الحكومة الاسرائيلية قد دفعت بعناصر جديدة · وأثارت موضوعات لم يكن من المفروض أن تناقش فى اتفاقية للفصل بين القوات باعتبارها اتفاقية عسكرية ولكن هذه النقاط التى تطالب بها اسرائيل تدخل فى اطار إتفاقية السلام .

ان مصر رفضت وترفض وسوف ترفض هذا المنطلق وأن انهاء حالة الحرب لن تتحقق أبدا الا بالحل النهائي المتضمن الانسحاب الاسرائيلى من كل الأراضي العربية وقيام دولة فلسطين . وفى ذلك الوقت تستطيع اسرائيل.أن تكون مقبولة في هذه المنطقة وهذا هو معنى القرار ٢٤٢ والقرار ٣٣٨ وهما القراران اللذان تقدم بهما وتبناهما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وكما قلت من قبل ان مصر رفضت انهاء حالة الحرب للأسباب التي أوضحتها وكذلك في الوقت نفسه ترفض كل الصيغ الأخرى التى تقدمت بها اسرائيل بصورة أو بأخرى بهدف اعلان انتهاء حالة الحرب دون النص على ذلك صراحة .

ان الموقف المصرى منذ البداية يقوم على أساس - تحكمه - قرارات مؤتمر الرباط ، وفى كل المحادثات والمفاوضات أوضحنا بصفة رسمية وكتابة للدكتور كيسنجر أن الحل النهائى لن يتحقق إلا اذا شمل كل العناصر التى ذكرتها ، وبالإضافة الى ذلك فإن مصر أوضحت كتابة ورسميا وأصرت حتى فى اتفاقية الفصل بين القوات التى كان من المتوقع تحقيقها أن سوريا اذا هوجمت بواسطة إسرائيل . فإن مصر سوف تتدخل تلقائيا وتمارس مسئولياتها إزاء سوريا ، .ليس هذا فقط ، ولكن مصر ستتدخل إذا واجهت سوريا عدوانا عسكريا أو شبه عسكرى .

وأن مصر سوف لا تلتزم باتفاقية للفصل بين القوات والتى كان من المتوقع التوصل اليها اذا تعرضت سوريا للعدوان ، كما قدمنا كتابة والتزمنا كذلك بأن الفلسطينيين لا بد وأن يشتركوا فى مؤتمر جنيف ، وليس هناك من حل يمكن أن يتحقق الا باستعادة الحقوق الفلسطينية ·

لذلك نعتقد ان الموقف المصرى واضح وضوحا بينا ، كما ان المسئولية فى العجز عن الوصول الى اتفاق ، ترجع الى موقف إسرائيل ومن المؤكد الآن أن الدكتور هنرى كيسنجر قد بذل كل جهوده من أجل النجاح ولكن الموقف الاسرائيلى الرافض للسلام قد جعله عاجزا عن تحقيق هذا النجاح بالرغم من كل جهوده .

وبالتالى فإن الحكومة الإسرائيلية تتحمل كل المسئولية فى هذا

الفشل وكل النتائج المترتبة على هذا المسلك ، ان الدكتور كيسنجر سوف يذيع بيانا فى الساعة الحادية عشرة مساء ، وسوف يغادر اسرائيل غدا الى واشنطن .

وفى النهاية ليس لدى أى تصريح معد كما أننى لم ادع لمؤتمر صحفى ، ولكن الواضح أن مصر كانت مستعدة فى حالة الفشل أو فى حالة النجاح .

انها لحظة تاريخية ، بذلنا كل الجهود من أجل تحقيق السلام ولكن الموقف الاسرائيلى هو السبب المباشر للفشل ، وسوف يحكم العالم على هذا الموقف الرافض للسلام » .

كما اعلن السيد تحسين بشير المتحدث الرسمى باسم الجانب المصرى ان مصر قد تلقت رسالة من وزير الخارجية الأمريكية قبل عقد المؤتمر الصحفى الطارىء لوزير الخارجية المصرى بلحظات وانه نتيجة لهذه الرسالة التى أكد فيها كيسنجر توقف جهوده عقد السيد اسماعيل فهمى مؤتمره الصحفى الطارىء .

وقال السيد تحسين بشير ان على أمريكا أن تبحث الآن كيف تستطيع أن تستمر فى التزامها ببذل الجهود من أجل تحقيق السلام فى منطقة الشرق الأوسط » .

وبهذا الموقف .. سقطت أيضا كل دعاوى جبهة الرفض التى لم تكف لحظة واحدة عن التشكيك فى موقف القيادة السياسية المصرية .

وهذه الجبهة التى أصبحت من فرط لجاجتها ودعاواها الباطلة والفاظها المتكررة المتشابهة أشبه بعواجيز الأفراح اقامت الدنيا وأقعدتها حول ما سمى بالحل المنفرد ..

وهو شىء وهمى .. وقد رددنا عليه فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب عندما قلنا « ورغم كل المحاولات الأمريكية والارجافات والمزاعم عن أن مصر ستقبل حلا منفردا فان شيئا من ذلك لم يتحقق ولن يتحقق .

ولن نناقش هنا هذه المزاعم فهى افتئات على الحق وانكار لتاريخ ماض وحاضر ناصع فى النضال والدفاع عن العرب جميعا .

ومصر هى أكثر بلد عربى قدم تضحيات ومساعدات بالدم والمال من أجل كل بلد عربى من الجزائر الى اليمن الى ثورة لبنان ١٩٥٨ الى شعب فلسطين !!

وتعرض أيضا لهذه الحملات الزائفة كتاب كثيرون .. ومع أن

الأحداث وخبرة التاريخ قد كشفت زيف تلك الاتهامات فانها لم تتوقف .. بل هي ترتدى أقنعة جديدة كل يوم ..

وسنكشف عن هذه الأقنعة في كتاب خاص عن جبهة الرفض هذه تحت الطبع الآن .

وقد كان انور السادات على حق عندما خاطب اولئك المشككين بقوله في خطابه أمام مجلس الشعب في ٢٩ مارس الماضي :

« ولقد استمر عملنا في أسوان سبعة عشر يوما جهدا متصلا كان لابد أن نبذله . وتحملا صابرا كان في مقدور اخوة لنا أن يكفوه عنا حتى تتضح لهم الحقائق .

أما الجهد فقد اقتضانا عملا بالليل وبالنهار ويقظة بالغة .

وأما التحمل فقد كان منانا لو تسلح غيرنا بالثقة بالنفس والثقة باخوة لهم تاكد للجميع صدق التزامهم فتركونا نعمل في هدوء وبغير أن نكون مطالبين باجراء محادثاتنا مع الأطراف الدولية الأخرى أمام ميكروفونات تنقل لهم كل كلمة وكل حرف وكل همسة فيما نقول أو نسمع » !! ..

ولا شك ان فشل كيسنجر طرح سؤالا هاما رغم تعنت اسرائيل .

لماذا لم تضغط امريكا على اسرائيل لقبول حتى ذلك الانسحاب المحدود ؟ .. والانسحاب المحدود من جبهة سيناء فقد كانت المباحثات تدور حول أول انسحاب من الجبهات الثلاث (وهو الطلب الذى قدمته مصر كتابة منذ البداية) ؟ .

ان الملاحظ أن كيسنجر لم يتقدم حتى بصيغ توفيقية بين وجهتي النظر المصرية والاسرائيلية كعادته رغم انه ركز اكثر من أسبوعين لمهمته غير ملتفت الى المصائب التى بدأت تتدفق على الولايات المتحدة وعملائها في فيتنام وكمبوديا !! ..

انه اكتفى بأن نعى فشله الى العالم بصوت متهدج في مطار تل أبيب ..

أما الضغط فلم يفعل شيئا .. بل أكد الصداقة بين أمريكا واسرائيل .. وأعلن فورد أن الحكومة الأمريكية ستحاول اعادة النظر في سياستها في الشرق الأوسط ..

ومما يدعو الى الريبة أنه بعد ذلك الوعد الأمريكي بتغيير السياسة

الأمريكية بيومين فقط صرع الملك فيصـــل برصاصات أمير من الأسرة المالكة قضى ثمانية أعوام فى أمريكا ..

وكان معروفا أن الملك الصـديق التقليدى للولايات المتحدة فيصل قد تناقض معها اخيرا برفعه شعار ضرورة الصلاة فى القدس .. وفصله للريال عن الدولار .. الخ ..

ولم نلحظ تغييرا يذكر ازاء اسرائيل ؟ ..

فهل فشلت مهمة كيسنجر لتعنت اسرائيل فقط ؟ .. أم لتعنت امريكا ذاتها ؟ ..

ان الكاتب المطلع احسان عبد القدوس .. يميل الى الأخذ بالرأى الأخـير فيقول تحت عنـــوان ذى مغزى : هـــل فشـــل كيسنجر أم أدى مهمته ؟ فى جريدة الأهرام / فى ٢٤ مارس الماضى ؟

« الواقع أن الخلاف الأساسى فى كل ما يجرى حولنا بعد ٦ أكتوبر هو خلاف بيننا وبين امريكا حول تقدير مسئوليتها وتقدير موقفها .. فنحن نحمل أمريكا مسئولية كاملة وأمريكا تحاول أن تضع نفسها موضع الدولة المحايدة أو الدولة الوسيطة بيننا وبين اسرائيل » .

ويمضى احسان عبد القدوس فيقول بصراحة تصفع اليمين المصرى المتخلف الذى ملأ الدنيا صراخا عن الحل الأمريكى والصداقة الأمريكية :

« عندما حاربنا فى ٦ أكتوبر كنا نعلم أننا نحارب أمريكا ..

.. أى ان أمريكا بالنســبة لنا دولة محاربة .. تحاربنا .. ثم يستخلص من ذلك قوله :

« ولذلك فالمنطق العربى يرفض التسليم بان فشل كيسنجر فى أن يخطو نحو الســـلام خطوة أخرى يرجـع الى التشـــدد أو الرفض الاسرائيلى .. انما يرجع أساسا الى عـــدم تصميم أمريكا على أن تخطو هذه الخطوة .. بل ربمـــا وصل المنطق العربى الى افتراض أن أمريكا كانت تعلم مقدما بهذا الرفض وارادت أن تنســـب هذا الرفض الى اسرائيل حتى تحتفظ بزى ملاك السلام حفاظا على مصالحها فى بقية العالم العربى » ؟!! .

لقد عشت الأيام السبعة عشرة من مباحثات كيسنجر فى أســوان .. ومن خلال المعايشـــة واللقاءات المتعددة هناك مع الســـياسيين والصحفيين الأمريكيين يمكن أن نحدد التصور الأمريكى لحل مشـــكلة الشرق الأوسط فى النقاط التالية :

* انسحاب اسرائيلى من اغلب الأراضى المحتلة مع ترك مناطق فى يد الاسرائيليين أو تحت اشرافهم بشكل ما وهى شرم الشيخ · بعض مناطق الجولان · اجزاء من الضفة الغربية · أما القدس فان الأمريكيين يقولون صراحة أن اجلاء اسرائيل منها يساوى القضاء على اسرائيل ذاتها !

* وبالنسبة للدولة الفلسطينية .. يريدها الأمريكيون دولة غير كاملة الاستقلال فى كنف شرق الأردن ·· حتى يمكن أن ترتبط مستقبلا بعلاقات تجارية واقتصادية مع اسرائيل..

* يريد الأمريكيون صلحا مع اسرائيل يتضمن علاقات دبلوماسية وتجارية وثقافية وسياحية يبدأ تنفيذها مع بدء تنفيذ الاتفاق .

ومقابل ذلك فان الثمن الذى يريده الأمريكيون .

= أن تغمض مصر عينيها عن عودة النفوذ الأمريكى فى المنطقة . هذا ان أصرت هى على عدم فتح بابها (أى باب مصر) للنفوذ الأمريكى ؟!

وهذا طبعا أمر مضحك ·· اذ لا بد لمن يغمض عينيه أن يحتفظ بعلاقات ودية مريبة على الأقل ·

= انهاء العلاقات الودية بين العرب والاتحاد السوفيتى اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ·

هكذا يفكر الأمريكيون .. ولهذا يخططون .. وهو فكر .. وتخطيط ·· لا يخفى على أحد فى مصر ··

ولقد كانت صلابة مصر فى موقفها ضربة لذلك التفكير والمخطط الأمريكى .. وصفعة للتعنت الاسرائيلى ..

ولكن هذه الصلابة ·· لابد ان تتعزز بأمور أربعة حتى يمكن أن تواجه حركة التحرير العربية التآمر الاستعمارى الصهيونى ··

وهى أمور دعونا اليها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب .. وهى لم تفقد أهميتها ·· بل تضاعفت تلك الأهمية ··

ان تعزيز الوحدة الوطنية وتدعيمها يجب أن يكون فى مقدمة جدول الأعمال ··

ان هذه الوحدة هى السند الرئيسى للقوات المسلحة الباسلة التى خاضت بشرف معارك أكتوبر ·· ويتوقع فى أية لحظة أن تخوض الحرب الخامسة ..

ومن المؤكد هذه المرة أنهـــا ستحرز انتصـــارات أروع من إنتصار اكتوبر وأكمل ..

فهى قد حطمت هيبة وأسطورة التفوق الاسرائيلى ·· وجرب المقاتل المصرى مواجهة الاسرائيلى العنصرى ·· وتغلب عليه وقهره ·· وفى المرة القادمة سيفتك به فتكا مروعا بعد أن سقط جدار الوهم القديم ··

والضمان الأساسى لتعزيز الوحدة الوطنية **هو الديمقراطية** ··

التوسع فى الحريات السياسية ··

وأن الاتجاه لتعدد المنابر فى الاتحاد الاشتراكى هو بداية على الطريق الصحيح لاطلاق حرية التعبير والتنظيم للقوى الاجتماعية المختلفة ··

ان تنشيط دور مجلس الشـــعب ·· هو تعزيز لدولة المؤسسات وتعـــزيز للرقابة الشعبية ولو بشكل نسبى .. وقد ثبت دور الرقابة البرلمـــانية فى كثير من المواقف ·· بعد أن بهت ذلك الدور فى برلمانات سابقة ·

وكما قلنا على صفحات هـــذا الكتاب ان الديمقراطية ممارسة ·· وتتسع بالممارسة والمعاناة ·· فان الجمـــاهير والصـــحافة مدعوة لتلك الممارسة ··

وأولئك الذين يقلقون من استفادة اليمين المصرى من هذه الممارسة للديمقراطية ·· معـــذورون فانهم لم يتعودوا على ممارسة الديمقراطية سنوات طويلة ·· وعاشوا فى وهم أن المجتمع المصرى قد فرغ من تحقيق الاشتراكية رغم أن الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قد أكد أكثر من مرة أننا ما زلنا فى مرحلة الانتقال الى الاشتراكية ··

وذلك يعنى وجود قـــوى اجتماعية فى المجتمع ليس من مصلحتها تطبيق الاشتراكية ··

ومن الأفضل أن يدور الحـــوار ·· والخلاف والتناقض الاجتماعى بطريقة ديمقراطية مكشوفة ·· بدلا من كبته بتعسف وقرارات علوية·· لا تؤدى كما قلنا الى خلق طبقة جديدة استغلالية محل الطبقة القديمة ··

وليس أدل على سلامة هذا المنهج أنه فى ذلك الاطار الديمقراطى·· استطاعت الجماهير الكادحة فى لجنة الاستماع بمجلس الشعب أن تسمع الدولة والمجتمع كله صوتها ضـــد الأصوات اليمينية الغبية التى ارتفعت تطالب باطلاق النشاط الرأسمالى الحر وتصفية القطاع العام ··الخ ·

وفى مواقع أخرى ·· وفى ظروف مختلفة استطاع العمال والطلبة والفلاحون أن يردوا هجمات اليمين ومحاولاته للارتداد بالثورة ··

وصمدت الدولة فى موقفها ازاء تلك المحاولات التى بدت فى تحويل سياســـة الانفتاح الى أداة طيعـة فى صالح دفع المجتمع الى طريق تنمية رأسمالية حرة ··

ان رسالة الرئيس أنور السادات التى وجهها الى الحكومة ومجلس الشعب ·· هى تأكيد للموقع الذى تقفه القيـــادة السياسية من مسالة التطور الاجتمـــاعى ·· ومن الطبقة الجـــديدة ·· ومن الطفيليين الذين طفوا على سطح الحياة كالبثور المتقيحة · ونهبوا وقت الشعب وخـيرات الأمـــة ··

ولذلك لم يكن غريبا ان تآمر اليمين على تلك الرسالة بالصمت ··

ولقد دخل بعض المسئولين فى معارك ضد عتاولة اليمين المتخلف فى ندوات ومساجلات علنية دافعوا فيها عن التقدم الاجتماعى وقال الدكتور عبد العزيز حجازى بصوت عال « لن نترك الشعب للرأسماليين » ! ··

ان هذا الحوار ·· بل هذا الصراع دليل صـــحة ·· وهناك قوى عديدة تتآمر على صحة الشعب ·· وتعمـل على وأد هـــذا القـــدر من الديمقراطية ··

ان القوى العربية الوطنية قد أكدت تضـــامنها العربى عندما إغتيل الملك فيصل ··

هذا التضامن العربى مطلوب اليوم أكثر من أى وقت مضى ··

وقد أحرز ذلك التضامن تقدما خلال الشهور الماضية ·· ففى مؤتمر الرباط ·· تقرر تدعيم دول المواجهـة بالمال لشراء الســلاح ·· ودفعت السعودية ثمنا للسلاح الذى اشترته مصر من فرنسا ··

وتحسنت العـــلاقات وتعززت بين مصر والعراق ســـياسيا وعلى المستويين الاقتصادى والثقافى حتى أن العراق هو أول بلد عربى يعلن فتح أبوابه لاستقبال مئات الألوف من الفلاحين المصريين ·· مؤكدا عروبة كل سكان الأقطار العربية ·· وعندما يسترجع المرء الماضى القريب ·· والدعاوى التى كانت تقال عن «الاستعمار المصرى» ·· عندما كان يطرح أحد فكرة هجرة بعض الفلاحين أو العمال المصريين الى أى بلد عربى ··

يدرك التقدم الذى خطاه التضامن العربى ·· ، فكرة الوحدة العربية · بشكل طبيعى ·· دون تعسف أو املاء ·· انمـــا بوعى وادراك أملتهما تطورات الاحداث واحتياجات التقدم والتطور الاقتصادى العربى المشترك ·

وما زال المستقبل يحمل تطورات أوسع مدى فى العلاقات بين مصر والعراق ··

ونحن نكتب هذه الكلمات وسمة أطراف عربية تركز نشاطها لا فى نقد سياسة مصر بل فى الهجوم والتهجم عليها على غير أسس موضـــوعية وبأسلوب غاية فى التخلف ·

ومثل هذا النهج أثبتت تجـــارب الحياة عدم جدواه الا فى تحقيق شيء واحد هو توسيع الهوة بين الدولة العربية والحط من قيمة أصحابه أنفســهم واضعاف أى أثر محتمل لهم فى التأثير على تطور الأحـداث فى اتجاه بناء ·

كما أثبتت تجارب الحياة أيضا أن رفع أى نظام عربى للتناقض بينه وبين النظام الوطنى المصرى الى مرتبة رئيسية لا يؤدى الا الى دمار ذلك لنظام العربى الأخرق أو عزلته الشديدة عن مجرى الأحداث ·

ومن هنا فان كل القوى الوطنية العربية يمينا كانت أو يسارا عليها أن تعيد تنظيم صفوفها فى أسرع وقت وتناسى الماضى ·

ومما لا شك فيه أن أهم «تكتل» تضامنى داخل الاطار العام للتضامن العربى هو ذلك التكتل بين مصر وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية · وهو التكتل الذى يحمل عبء الصدام المسلح أو المواجهة الدبلوماسية ·

واذا كان الرئيس أنور السادات قد أكد فى خطـاب مارس ١٩٧٥ الى مجلس الشعب أهمية الصداقة العربية السوفيتية واعتباره أنها صداقة مبدئية وليست مرحلية انتهازية ·· ودعا السوفيت الى التحرك ايجابيا من جانبهم لتنشيط تلك الصداقة وتدعيمها ·· فان هناك علامات تؤكد اتجاه البلدين فى طريق تجديد تلك الصداقة والتخلص مما يعود يسبب جمودها ·

ولقد دعونا الى تعزيز الصداقة العربية السوفيتية وهاجمنا محاولات توسيع هوة الخلاف ·· ونقدنا أولئك الذين عمدوا الى ذلك ·

كما نقدنا الاتحاد السوفيتى نفسه على أخطـائه مع مصر من قاعدة الوعى بأهمية الصداقة معه ·

وقد تطورت الأحداث فى اتجــاه تصفية شقة الخلاف بعــد أن تجمد الموقف طويلا ٠

فجاء جروميكو فى يناير ١٩٧٥ وأعلن الرئيس السادات أننا نبدأ صفحة جديدة فى العلاقات المصرية السوفيتية ٠٠ كما أن اسماعيل فهمى وزير الخارجية يسافر أيضا الى موسكو ٠

وبدأ الاتحاد السوفيتى فى استئناف توريد السلاح من جديد الى مصر ٠ وصحيح أنها عقــود قديمة (١٩٧٣ ــ ١٩٧٤) الا أنه استئناف لتوريد السلاح على أى حال ٠٠ وبداية تصحيح لخطأ قديم ٠

وانها فرصة عظيمة أمام الاتحاد السوفيتى اليــوم ٠٠ الذى هو طرف الصداقة المطالب باتخاذ خطوات عملية لتأكيد وتدعيم وتطوير تلك الصداقة لأنه يملك القدرة على السلاح وعلى الآلات أيضا ٠

ان مؤتمر جنيف قد ينعقد قريبا ٠٠ وان دخول العرب مثل ذلك المؤتمر وهم على درجة كافية من القوة العسكرية لكفيل بتدعيم مركزهم فى المفاوضات ٠٠

وكما قلنا فى الفصــل الخاص بالموقف السوفيتى فان الاتحـــــاد السوفيتى كان يمكن أن يحفظ الصداقة المصرية الســـوفيتية من هجمة اليمين العربى لو أنه لبى طلب مصر من السلاح ولما كان قد انتاب تلك الصداقة أية أزمة جدية ٠

ونعــود فنكرر للأصدقاء السوفييت أن أسلوب مد مصر بالسلاح « بالقطــارة » أو رفض جدولة الديون لمســاعدة مصر على تخطى الصعوبات الاقتصادية ٠٠ هو الزاد الأول لليمين المصرى المتربص بالتقدم الاجتماعى فى مصر وبالصداقة مع المعسكر الاشتراكى معا ٠٠

ان مثل ذلك الأسلوب يدعم قوى اليمين ولا يضعفها

وبعد فان التكتيك السياسى البارع الذى اتخذته القيادة السياسية أخيرا لدرء خطر وقوع المشكلة من جديد فى حالة اللاسلم واللاحرب ٠٠

هذا التكتيك الذى جعل القضــية بعد فشل مهــمة كيسنجر حية متقدة فى العالم كله ٠٠ باثارة مصالح أوربا فى فتح قناة السويس ٠ وبعد وجود قوات الطوارىء الدولية ثلاثة شهور فقط أى الى بعد أقل من شهرين من فتح القناة ٠٠

ودعوة الدولتين الكبيرتين الى عقد مؤتمر جنيف وعوتهما الى دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمؤتمر ·· واعلان ترحيب مصر بانضمام دول أوربية غربية الى المؤتمر ·· للمساهمة فى الضغط على الولايات المتحدة واسرائيل والتمهيد لاتصالات عربية عديدة على مستوى القمة ··

ان ذلك يعنى أننا مقبلون على مرحلة شاقة من النضال السياسى··

وهذه المرحلة هى فى حد ذاتها فترة ملائمة لمواصلة الاستعداد العسكرى للانقضاض على العدو وتطهير الأرض المحتلة منه اذا ما ركب رأسه ورفض الانصياع لارادة المجتمع الدولى ··

ومهما بدا النضال السياسى شاقا وطويلا ·· فعلينا ألا ننسى تجربتنا قبل حرب أكتوبر ·· وألا ننسى «ضربة المعلم» التى حققتها القيادة السياسية المصرية فى وقت كان اليأس قد لف الكثيرين بظلامه··

اننا أصحاب قضية عادلة ·· وأصحاب خبرة طويلة متمرسة فى النضال ضد الاستعمار والاحتلال الأجنبى ·· وقد حققنا انتصارات فى نضالنا كان أبرزها انتصار أكتوبر ··

وأمامنا ومن حولنا كل يوم تتوالى أنباء انتصارات الشعوب على الاستعمار مهما طال أجل نضالها كما يحدث اليوم فى فيتنام وكمبوديا ·

واننا المنتصرون ·· ضد هذا العدوان الامبريالى الصهيونى ·· غدا أو بعد غد ··

٣ ابريل ١٩٧٥ — عبد الستار الطويلة

مقدمة من فراش المرض

لقد مر واحد وعشرون عاماً منذ صدر هذا الكتاب الذى تقرأه. وتكتسب أهمية نشره أنه فى هذا العام بالذات كان الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر واسعاً ومؤثراً ومثيراً للاهتمام.. وربما كان ذلك بسبب التعسف والتخريب والإرهاب الإسرائيلى ضد الفلسطينيين واللبنانيين كى تتنصل حكومة الليكود التى تضم اليمين الإسرائيلى المتخلف بالإضافة إلى أحزاب أقرب إلى الفاشية إذ تتشبع بأفكار عنصرية للتوسع والنهب والاغتصاب لأراضى شعوب أخرى وعدم التورع عن قهرها وحرمانها من وجود كيان مستقل لها ذو سيادة مثل الشعب الفلسطينى.

ولقد حدثت تطورات وتغيرات خطيرة جداً منذ أن صدر هذا الكتاب.

فقد استكمل المرحوم أنور السادات تحرير سيناء واستردادها عن طريق المبادرة الجريئة عندما زار القدس وخطب فى الكنيست.. وانتهى ذلك بعقد اتفاقية كامب ديفيد.

وهى الاتفاقية التى كفرت بها أغلب الدول العربية دون أن تقدم بديلاً أو تفعل شيئاً.

أغلب العرب اليوم وعلى رأسهم الفلسطينيون يندمون على رفضهم الاستجابة لنهج السادات خصوصا عندما دعاهم إلى الاشتراك فى مؤتمر دولى

فى مينا هاوس ١٩٧٧ . ثم رأينا العرب يقاتلون اليوم من أجل التوصل إلى بعض مما حققه السادات بالنسبة للفلسطينيين فى معاهدة كامب ديفيد التى أقرت الحكم الذاتى لهم.

وبعد جهد طويل ومباحثات سرية وافق الإسرائيليون على التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية وأعلن الاعتراف المتبادل ثم عقدت معاهدة أوسلو بين إسرائيل والمنظمة.. وقام الحكم الذاتى فعلاً وأصبحت هناك سلطة وطنية فلسطينية بزعامة ياسر عرفات الذى يصارع فى بطولة قوى شريرة أو جاهلة أو لقضية عربية علاوة على إسرائيل نفسها.

ومع ذلك كانت المفاوضات بينه وبين إسرائيل ناجحة فى عهد حزب العمل إلى درجة أن حكومة ذلك الحزب ألغت من برنامجه المادة التى تقول أنه لا يجب الموافقة على إقامة دولة فلسطينية.

وكانت المفاوضات مع سوريا تتقدم.. إلى أن جاءت الكارثة على يد بنيامين نتنياهو رئيس حكومة الليكود أو حلفائها الوثاق.

وتحققت هواجس أنور السادات بشأن موقف الاتحاد السوفيتى واتجاهه للتهادن مع أمريكا إذ تهادن فعلا شيئا فشيئا تم بسرعة مذهلة حتى ركع أمام الولايات المتحدة الأمريكية مهزوزاً مفككا مرتدا عن الاشتراكية التى أعلن زعماؤه بزعامة جورباتشوف أنها فشلت ولا تصلح لحل مشاكل التناقض الاجتماعى.. مما أدى إلى دمار النظم فى أوروبا الشرقية وتخلص بلاد العالم الثالث من أى اتجاهات اشتراكية وعمدت إلى الخصخصة وإعطاء القطاع الخاص مركز القيادة للتنمية.

وحدث بعد عام ١٩٨١ أن اغتيل أنور السادات وخلفه نائبه حسنى مبارك قائد سلاح الطيران فى حرب أكتوبر، وفى عهده استكملت مصر استرداد سيناء بعودة طابا إليها وهى المنطقة التى كانت تدعى إسرائيل أنها ليست مصرية.. ثم أطلق الحريات العامة نسبياً.. وبدأ فى خطة تنمية جبارة بدأت بالإصلاح الاقتصادى الذى قاد فيه مصر بأقل خسائر للشعب المصرى.

وأثبت أن كل تخرصات جبهة الرفض العربية على أن كامب ديفيد قد عزلت دور مصر عن قضية التحرر الوطنية العربية.

إذ لا توجد دولة عربية تسانده، بل وتناضل مع الشعب الفلسطينى والسورى واللبنانى مثل ما تفعل مصر.. فدور الآخرين محدود وشكلى.. بل عندما تفوقت زعيمة جبهة الرفض (العراق) اتجهت بقوتها العسكرية ليس ضد إسرائيل وإنما ضد بلد عربى شقيق هو الكويت.. مما أدى إلى كارثة للعالم العربى والشعب العراقى وانقسم ذلك العالم ولم ننجح فى لمّ الشمل إلا بفضل جهود مصر عندما عقدت قمة عربية ناقصة دولتين مما اعتبر عيباً فى المؤتمر ولكنه على أى حال كان بداية تجمع عربى حول حد أدنى من الاتفاق. واستخدمت مصر المؤتمر الاقتصادى بالقاهرة لعزل إسرائيل وكشف أنها السبب فى عدم الاستقرار وفى المنطقة أمام الرأسمالية العالمية التى تريد الاستثمار فى الشرق الأوسط ولذلك من مصلحتها السلام.

فى نفس الوقت الذى تساعد مصر الحكم الذاتى وسوريا مساعدة جبارة تقوم الدولة بتنفيذ خطة اقتصادية تعتمد على مشاريع جبارة.

باختصار أن انتصارنا فى حرب أكتوبر قد حققت فرصة للبناء والتعمير مما يعطى مؤشرات للتقدم والرخاء للشعب.

ونود هنا أن نجيب على سؤال:

هل هناك احتمال لقيام حرب خامسة؟

لقد ارتفعت نغمة الحرب وتبادل الأطراف عبارات تهديدية.. فهل ستحدث الحرب.

لا أعتقد ذلك لأنه فى الحرب القادمة ستحدث خسائر فادحة للطرفين إذ ستعتمد فى الغالب على الطيران والصواريخ التى ستخرب المدن.. وخصوصاً أن الدول العربية لم تعد تلك التى كانت فى عام ١٩٧٣ بل أقوى تسليحاً.. كما أن إسرائيل الليكود مكشوفة أمام الرأى العام كدولة لا تريد السلام.

ثم هناك مقاومة الشعب الإسرائيلى الذى لا يريد ٥٠٪ من السكان الحرب.

وليس من مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية قيام حرب أخرى إذ لا توجد دول غير حليفة فى المنطقة العربية إلى اتفاق حرب أعصاب.

ونتوقع أن ضغط الشعب الإسرائيلى وبسالة الشعب الفلسطينى وتضامن العرب وتضامن الاتحاد الأوروبى الصريح مع الحق العربى لصالح أوروبا فى المنطقة وبالذات العالم العربى.

هذا كله يرغم الولايات المتحدة على أن تتحرك فى اتجاه أو توجه اسرائيل كى تكون مرنة لتحقيق السلام الشامل الذى يرضى عنه العرب.

بل إن أعضاء من حزب الليكود سيتأثرون ويخافون بعد توتر الجو إذ تسبب نتنياهو فى بعث حملة الكراهية والشعور بالسخط والعداء الإسرائيلى بعد أن كانت الأوضاع قد هدأت.

نقول إنه ولو كانت الأوضاع متردية حاليا فإن ذلك لا يعنى أنه على شفا الحرب رغم أن نتنياهو وعصابته مولعون بتطبيق سياسة حافة الحرب التى كان يتبعها فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكى أعوام ١٩٥٣ و١٩٥٤م.

وغدا يشرق السلام العادل.. وقراءة كتابه حرب الساعات الست يفتح شهيتك للتفاؤل والثقة فى مصر والقدرات العربية جميعاً «ما ضاع حق وراءه مطالب».

عبدالستار الطويلة

بين الأمس واليوم

ديسمبر ١٩٧٣ .. واكتوبر ١٩٧٤ ..

كيف كانت الصورة بالامس .. وكيف هي اليوم ؟..

الحقيقة ان الصورة في الحالين كانت وما زالت مشرقة .. ففي ديسمبر ١٩٧٣ كنا قد ازحنا عار هزيمة ١٩٦٧ .. وبدأت نتائج حرب ٦ اكتوبر تتجمع معالمها في افق السياسة الدولية .

ولخصت مجلة استعمارية عريقة مثل النيوزويك الموقف فى ختام عام ١٩٧٢ بقولها « فاجأت الحرب اسرائيل والغرب ومعظم العرب تماما .. وشهدت صورة الشرق الاوسط تغيرا جذريا بعد ان كانت لوحة ثابتة غير حية طيلة السنوات الست الاخيرة .

وقد اعترف لنا دبلوماسي اسرائيلي بعد ان توقفت حرب يوم الغفران بقوله ان كل شيء قد انقلب راسا على عقب ، وظهر ان عالمنا الصغير الانيق انما صنع من قشر البيض .. »

واضطرت الجريدة المعادية لحركة التحرير العربية وناشرة لحقيقات كتاب حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ الديلي تلغراف الى ان تقيم الموقف في السطور التالية :

« مهما تكن النتيجة النهائية للحرب العربية الاسرائيلية الرابعة فان الرئيس السادات قد احرز بالفعل نصرا شخصيا فريدا . فتلك الساعات الست من ٦ أكتوبر حينما عبر الجيش المصري قناة السويس واجتاح خط بارليف قد غيرت مسار التاريخ بالنسبة للزعيم والدولة والجيش المصرى والشرق الاوسط كله ..

على ان الصورة رغم اشراقها في ديسمبر ١٩٧٣ .. فان بعض ذوى النظارات السوداء كانوا لا يرون اشعة الشروق ..

وانما يندبون على اوضاع مالوفة وعادية في اية حروب .. يحتمل فيها التقدم والتقهقر .. والكسب والخسارة .. في جولات لا تنتهي حتى تتحقق الجولة الاخيرة التي تحسم الحرب وتقصم ظهر العدو ..

ففي تلك الايام .. كانت هناك الثغرة .. وما اكثر ما شدت تلك الثغرة الانتباه عن الانتصار الحقيقي والمغزى الحقيقي ليوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣.

ولكن على اى حال لم يكن بالوسع تجاهل وجود جيش اسرائيلي كامل يحتل مئات الكيلومترات المربعة من الارض المصرية غرب القناة.. بل يحيط بمدينة السويس يحاصرها ويحاول محاصرة الجيش الثالث ايضا ..

وكان هناك جيش اسرائيلي آخر استعاد هضبة الجولان من الجيش السوري واحتل ايضا بضع مئات من الكيلومترات من الارض الجديدة خلف خط ١٩٦٧ .

اما التضامن العربي الذي برز الى السطح اثناء المعركة بصورة اذهلت العالم فقد بدأ في التفكك ..

فالبعض غضب لوقف اطلاق النار واعتبره تقبلا لهزيمة مقنعة .. والمقاومة الفلسطينية لم تكن قد حددت لها خطا استراتيجيا جديدا على ضوء المتغيرات الدولية والمحلية بعد حرب ١٩٦٧ .

والجيوش العربية في مصر وسوريا التي الحقت بالجيش الاسرائيلي خسائر جسيمة .. هي ايضا قد خسرت عتادا كثيرا لم تكن قد استعوضته بعد ..

ويجد الكاتب مادة اخرى لسلبيات اخرى كانت تحيط بالموقف في نهاية عام ١٩٧٣ ..

ومع ذلك صمدت القيادة السياسية لكل حملات الضغط والتشكيك فهي قد تمرست على مثل ذلك الصمود ثلاث سنوات قبل ٦ اكتوبر نفسه ... وكان الوضع قبل ٦ اكتوبر مترديا .. وسيئا فيكفي أن العرب جميعا كانوا يتمرغون في يأس هزيمة ١٩٦٧ ..

واليوم بعدعشرة شهور من ديسمبر ١٩٧٣ ؟.

•ما هي الصورة الان .. وما هي نتيجة صمود القيادة السياسية ازاء تلك الحملات .. وما هي نتيجة استمرارها في النضال باساليب مختلفة ترتكز على قاعدة صلبة هي الانتصار في حرب ٦ اكتوبر ؟..

أن الثغرة قد اختفت .. وحررت الارض غرب القناة .. وفك الحصار عن السويس والجيش الثالث ..

بل اقام الجيش الثالث معرضا لغنائمه على نفس الارض التي دارت فيها معارك الحصار الرهيبة ..

وتراجع الاسرائيليون ثلاثين كيلو مترا شرقي قناة السويس . وجلا الاسرائيليون عن الثغرة السورية .. ورفع العلم على مدينة القنيطرة عاصمة الجولان ..

اما التضامن العربي فقد بدأ يعود من جديد ..

والمقاومة الفلسطينية قد حددت اهدافها تقريبا .. وبدأ الاعتراف الدولي بها يتحقق يوما بعد يوم ..

والجيشان المصري والسوري قد استعادا قوتيهما واصبحا اقوى مما كانا عليه قبل معارك ٦ اكتوبر .

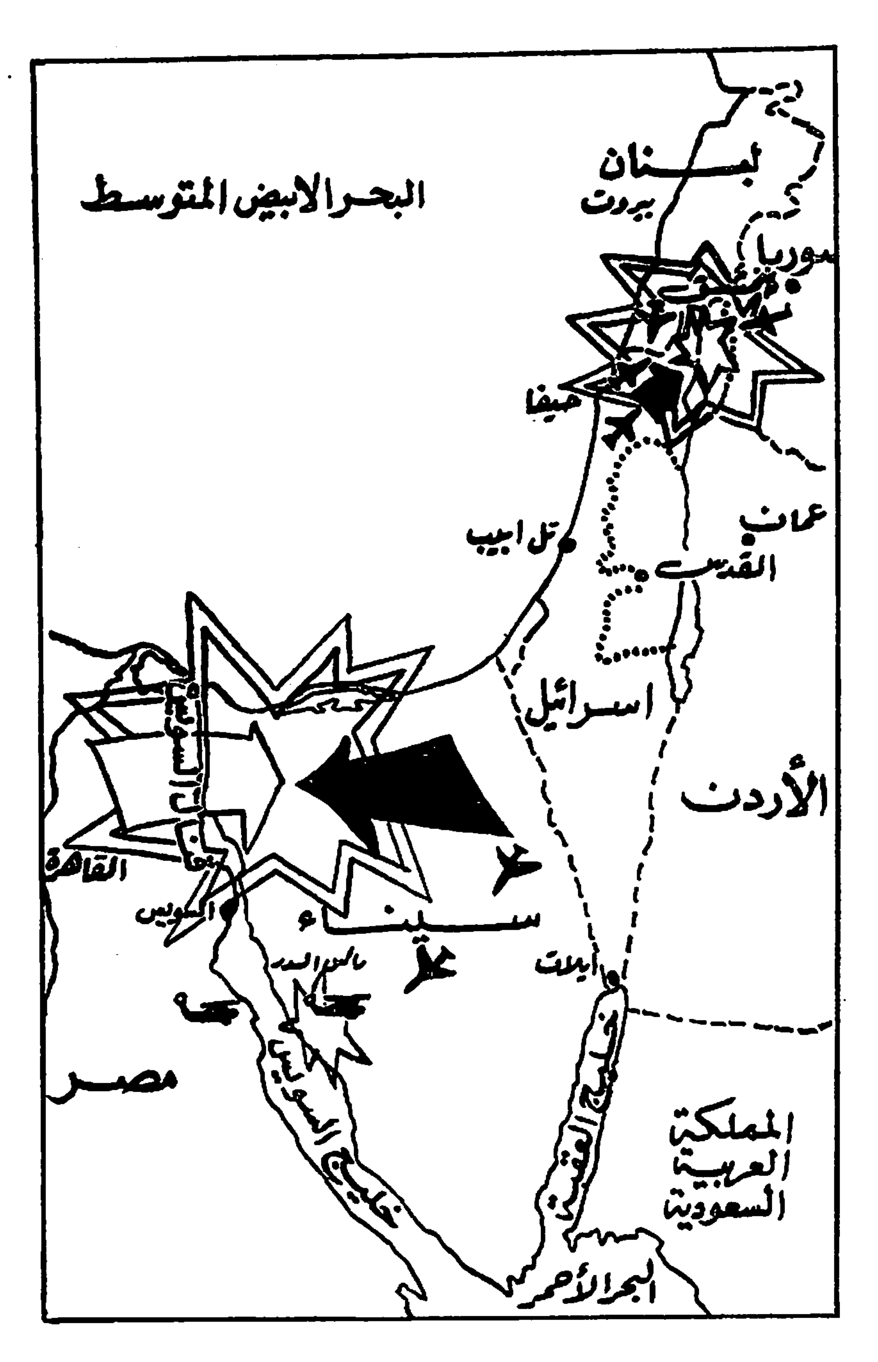
وتستعد دول المواجهة لحضور مؤتمر جنيف بعد تصفية التناقضات .. بينما الاصابع العربية على الزناد مستعدة لمواجهة اي احتمال ..

في ديسمبر ١٩٧٣ كنا في وضع افضل كثيرا مما كان عليه الوضع قبل ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

وفي اكتوبر ١٩٧٤ نحن في وضع افضل مما كنا فيه في ديسمبر ١٩٧٣ ..

ولهذا فانه اذا كان لنا أن نتفاءل فى نهاية عام ١٩٧٣ .. بأن ساعة النصر الكامل قد اقتربت .. فان لنا في عام ١٩٧٤ ان نثق لا ان نتفاءل فقط .. ان هذه الساعة آتية لا ريب فيها .. بفضل قيادة وبطولة الرجال الذين صنعوا لنا انتصارات ٦ اكتوبر ..

هؤلاء الرجال الذين سنقرأ قصة العمل الرائع الذي قاموا به في الصفحات التالية ..



العبور المصري

١

ساعة الصفر السياسية

« ان كل باب طرقته قد أوصد فى وجهى بمباركة امريكية ! لقد نام كل انسان .. ولكنهم سرعان ما سيفيقون ! »

واستطرد الرئيس انور السادات يقول ..

ـ لهذا اذا لم ناخذ قضيتنا بايدينا .. فلن يتحرك احد ..

وعاد آرنو دي بورجريف كبير مراسلي النيوزويك يسأل وقد « راعته » كلمات الرئيس الحازمة ..

● هل لي ان استنتج يا سيادة الرئيس من حديثكم انكم ترون أن الحرب هي الطريق الوحيد .

اجاب السادات :

ـ نعم .. انت مصيب تماما .. وكل شىء فى هذا البلد يعد الان من اجل تلك الحرب التى لم يعد هناك مفر منها ..

جرى ذلك الحديث فى آخر مارس ١٩٧٣ ..

وكنت اقوم بجولة للمرة الثانية فى اوربا الغربية فى ذلك العام ..

ولم تخرج تعليقات الصحف الاوربية فى معظمها والتي تناولت تلك التصريحات عن عبارة مالوفة فى تلك الايام :

« وعاد الرئيس المصرى مرة اخرى يردد احاديثه المعتادة عن شن حرب ضد اسرائيل !!.. » .

وطبيعي اننا نحن المصريين الزائرين او العاملين في اوربا عندما كنا نقرا مثل تلك التعليقات كنا نصاب بالغم والكمد .. فقد انحدرت مكانة العرب بعد هزيمة ١٩٦٧ الى المستوى الذي اصبح العالم يقابل كل حديث عربي عن العزم العربي للتحرير ، مجرد اوهام .. او دخان في الهواء لا يعنى احد بالالتفات اليه او اخذه على محمل الجد ..

ولم تكن ندري حينذاك ان هذا هو عين ما قصده وخطط له قائد المعركة في القاهرة !

وفي كل مرة كنت اعود فيها من رحلة لاوروبا كنت اعود مبتئسا .. احمل في اعماقي شعور المهزوم الذي يحاول جمع اشتات القوة والثقة والوعي المبعثرة في نفسه ليتماسك ويواجه .. وقد كانت تلك المواجهة حتمية ازاء الاصدقاء والاعداء في لقاءات وندوات متعددة في كل بلد اوربي ازوره ..

حقا لقد كان الوضع بالنسبة لنا نحن العرب مترديا هناك بشكل يأكل الوجه كما يقال ..

لقد عشت حرب ١٩٦٧ في اوروبا .. وعشت مع المصريين هناك ايام الهزيمة المرة .. وشماتة الاعداء .. وحزن الاصدقاء ..

ولكن الوضع في الاعوام القليلة قبل ٦ اكتوبر ١٩٧٣ كان اكثر سوءا .. فقد يقبل الناس انك تهزم في معركة ..

وقد يقبلون ان تصبر على الهزيمة شهورا .. او عاما .. وعامين .. لتستجمع قواك لتعاود القتال من جديد لتمحو عار الهزيمة ..

ولكنهم لن يقبلوا مضي عام وراء عام .. وانت لا تفعل شيئا سوى توعد العدو بالويل والثبور .. دون ان تفعل شيئا في الحقيقة .. ان عدم القبول يتحول الى رفض .. والرفض يتحول الى سخرية خالية حتى من الاشفاق ! ..

كنت اتحدث مرة مع وزير خارجية سويسرا في برن في يوم من ايام شهر مارس ١٩٧٣ عن النزاع العربي الاسرائيلي ورددت امامه الكلام المعروف عن اعتداء اسرائيل واحتلالها للارض العربية .. واغتصابها لحقوق شعب فلسطين وتشريدها لذلك الشعب و .. و ..

واستمع لي الوزير السويسري الاشتراكي الديمقراطي طويلا .. ثم ابتسم في النهاية وقال :

ـ نحن في سويسرا وافقنا على قرار مجلس الامن ..

ولما سألته عما اذا كان ممكنا ان تفعل سويسرا شيئا مع المجتمع الدولي لاجبار اسرائيل على تنفيذ ذلك القرار .. صاح قائلا :

ـ بحق السماء .. افعلوا شيئا .. فاوضوا او قاتلوا !..

وما قاله الوزير السويسري لا يختلف عما كنت اسمعه من كل الاصدقاء او حتى من المحايدين .. فى انجلترا .. في فرنسا .. المانيا الغربية .. هولنده .. ايطاليا .. في كل مكان كان الجميع يردد كلاما لا يخرج في معناه عن تلك العبارة المكثفة التي كان يرددها الزعيم الوفدي مكرم عبيد قبل الثورة : انقضوا او انفضوا !!

اما اصدقاؤنا من اليسار الاوروبي فكانوا يقولون :

ـ ماذا تريدون منا ؟.. تريدون تأييدنا لكم ؟.. نحن نؤيدكم منذ عام ١٩٦٧ بل منذ فجر الحركة الوطنية عندكم ..

فاقول :

ـ ولكننا نريدكم ان تتحركوا عمليا لتأييدنا ..

فيرددون في دهشة ..

ـ تحركوا انتم اولا .. انتم اصحاب القضية ونحن نتحرك معكم .. وربما اضافوا :

ـ هل نتظاهر من اجل قضية ميتة مثلا ؟..

الا ترون كيف تتحرك اوربا وأمريكا بل العالم كله من اجل فيتنام .. ولم يمل العالم من التحرك ..

لان الشعب في فيتنام ما مل النضال .. ولا تراجع امام فداحة التضحيات .

فاذا ما تطرق الحديث بيننا عن احتمال شن العرب لحرب تحريرية كالوسيلة الاخيرة اذا ما فشلت كل الجهود السلمية .. كان المرء يصدم عندما يرى هؤلاء الاصدقاء الذين يتبنون قضايا الكفاح المسلح لكل الشعوب التي حملت السلاح من اجل التحرر .. يمصمصون بشفاههم في شك واشفاق ويقولون :

ـ هل تريدون الحرب فعلا ؟. لا نكاد نصدق .. واذا ما حاربتم ألا تخشون الهزيمة الساحقة من جانب الاسرائيليين ؟..

ان رصيد الهزائم العربية السابقة .. وحالة الركود التي سميت باللاسلم واللاحرب كانت المنبع لكل هذه التشككات في القدرة العربية او بالاحرى الجدية العربية .. فقدراتكم لا تقل عن قدرات الشعوب الاخرى .. انتم لستم اقل من شعب فيتنام ولكن المشكلة هي حشد تلك القدرة وتنظيمها كما كان يقول لي بثقة كاملة كارلو بايتا عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الايطالي ومتزعم كل التنظيمات الصديقة والمؤيدة للحق العربي في ايطاليا جامعة كل الاتجاهات السياسية من اليمين الى اليسار..

لم يكن هناك احد يصدق اننا سنقاتل .. او ننوي ان نقاتل .. واذا ما صدقنا البعض فانهم كانوا مقتنعين مسبقا بهزيمة العرب !

وقد حدث في زيارتين لي لموسكو عام ١٩٧٢ في الوفد الصحفي الذي رافق الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء حينذاك ان جرت مناقشات مستفيضة حول هذا الموضوع مع الاصدقاء السوفيت ..

لقد كانوا يؤكدون ان قرار المعركة هو قرار مصري بحت .. تتخذه مصر وقتما تشاء وفى اى ظروف تشاء ..

ولكنهم ما كانوا يصدقون اى حديث عن نية اتخاذ مثل ذلك القرار فعلا ..

وكانوا لا يخفون شكوكهم في احتمال هزيمتنا اذا ما فرض واتخذنا مثل ذلك القرار ، ومن هنا كان تحبيذهم للحل السلمي وان طال الاجل ..

لماذا ايها الاصدقاء ؟..

وكانت الاجابة عجيبة حقا من بلد تبنى كل قضايا النضال المسلح لشعوب العالم من القهر والاستعمار منذ ظهرت الدولة السوفيتية الاشتراكية في العالم عام ١٩١٧ ..

كانت الاجابة التي نتلقاها :

ـ اننا نشفق من تجارب الماضى أن تهزموا ..

● **ولكن هذا تثبيط للهمم ؟..**

يبتسمون في ادب ويقولون

ـ لكن الحقائق المادية الصلبة هي التي نعتمد عليها .. ما جرى عام ١٩٥٦ .. و ١٩٦٧ .. والسلاح السوفيتي الذي لم يستعمل في سيناء..

وبيع لنا مرة اخرى من خلال دول محايــدة وصديقة اذ ليس لاسرائيــل فائــدة منــه ..

وتجر المناقشة الاصدقاء الســوفيت الى حد التشاؤم من ان الهزيمة العربية المتوقعة ستضع الاتحاد الســوفيتي فــي مواجهة ذرية مع الولايات المتحدة **لان من الاسس الثابتة للسياسة السوفيتية عدم السماح للاستعمار والصهيونية ان يسيطرا على المنطقة العربية ويسقطا النظم العربية المتقدمة.**

هكذا كانت نظرة اكثر اصدقائنــا فــي العالم فعالية .. فالاتحــاد الســوفيتي احد الدولتين الكبيرتين في العالم .. وهو الوحيد الذي يمدنا بالسلاح .. ويسـاعدنا في التنمية الاقتصادية التي هي الخلفية الاساسية للحرب المسلحــة .

* * *

اما العرب والمصريون منهم بالذات ، العاملون والدارسون في الخارج فقد عانوا من الشك والتمزق طويلا .. حتى ان الكثيرين منهم قد فقدوا الثقة في كل شيء .. وسقط بعضهم عن طواعيــة واختيار في انشوطــة ابتزاز العقول الــذي تنفذه الولايــات المتحدة والدول المتقدمــة بشكل عام بهمة ونشـاط .

ولا شك ان واحدا من الاسباب الكامنة وراء اندفاع كثير من الخريجين المصريين نحو الهجرة هو محاولة منهم للهرب من الشعور بالمهانة والعجــز ازاء الاحتلال الاسرائيلي للارض العربية .. وبالتالي محاولة تحقيق الذات في عالم رحب يتسع للتكنولوجيا والانا وما تبغيه من رزق حسن ايضا !!..

ولقد كان شيئا مزعجا حقا .. ان يلتقي المرء بالمبعوثين المصريــين مثلا .. الذين يتعلمون في ارقى جامعات بلاد ضحت بالملايين من البشر من اجل النضال ضد الفاشية .. وانفقــت البلايين لترسيــخ قاعــدة العلــم والتكنولوجيا فيها .. **كان مزعجا .. ان تلمس تفشي الافكار الفاشية .. والاوهام القدرية والغيبية بين هؤلاء .. واولئك ..**

ولربما وجدت الكثيرين في « انتظــار جــودو » .. او معجــزة مــن السمــاء !..

وكانوا يصمون الاذان عن اي حديث عن نية وجدية النظام المصري في استعداده للمعركة ضد العدو .. بل ربما ثاروا وتهجموا على من يردد مثل ذلك القول ويتهموه بالعمالة والعيش على فتات اجهزة السلطة والنظام ..

كان التمزق المصري في الخارج .. صورة مضاعفة للتمزق في داخل المجتمع نفسه والذي انعكس في تحركات الشباب والطلبة في الجامعات ..

وفي جو كهذا مفعم باليأس .. انفسح المجال للاشاعات .. وتضخمت الاخطاء والهنات .. وأصبح نشر صورة مرفهة يثير تعليقات ساخرة وقانطة ..

وربما ساعد على مثل ذلك الجو .. الوافدون على اوربا من « الوجهاء الجدد » وما ينفقون في بذخ على الشراء والفنادق الفاخرة والملاهي .. **والجماهير مستعدة ان تتغاضى عن ترف وبذخ الوجهاء الجدد او القدامى ما دام هؤلاء الوجهاء يحققون لها اهدافها .. وخاصة اهدافها الوطنية .. اما بذخ يصاحب عجزا .. فتلك مصيبة تدفع الى السخط فاليأس او الثورة !**

وقد كان طبيعيا والحال هكذا .. ان تحاط بالعدو الاسرائيلي تهاويل « السوبرمان » الذي لا يقهر .. او « العنقاء » ذلك الحيوان الخرافي الذي لا يقوى على قهره الانس من عباد الله ..

وانتشرت النكت وتنوعت .. وذاع الهجو واللغو .. وقد رايت في العواصم الاوربية الغربية والشرقية ايضا الكثيرين من العرب يتداولون متطوعين مقالات كأنها منشورات سرية لصحفي بريطاني اسمه « دافيد هيرست » يحرر في الجارديان .

وهي مقالات سوداء مليئة بكل ما يثير اليأس والقنوط .. وكأن مصر على حافة الهاوية ان لم تكن قد تردت فيها اصلا ..

ومحور مقالات ذلك الكاتب واشباهه : ان مصر لن تدخل حربا ضد العدو لان النظام لا يقدر على مواجهة قوة اسرائيل الهائلة .. ولم يعد امام ذلك النظام « المتخاذل » من سبيل لمواجهة الشعب المصري الساخط على عجز ذلك النظام عن حل المشكلة الوطنية الا اقامة ديكتاتورية سافرة باطشة ..

بل ان صحفا اجنبية محترمة مثل الموند الفرنسية تحدثت فعلا عن فتح معتقلات ومنافي تتسع للالوف فى الواحات الخارجة .. كما تحدثت عن اعتقالات وهمية للعشرات كبداية ..

وبولغ في مغزى اعتقال الطلبة الوطنيين واستبعاد عدد كبير من الصحفيين الديمقراطيين من مجالاتهم الصحفية الى اعمال اخرى ..

هذا الاستبعاد الذي حدث عندما حاولت احدى فئات التحالف الوطني في الاتحاد الاشتراكي العربي خلخلة صيغة التحالف التي وضعها جمال عبد الناصر من قبل ومضى بها في الطريق خليفته انور السادات ، باستخدام منطق البتر والسيطرة بدلا من الحوار على قاعدة من الديمقراطية والندية .

وجاءت المبالغة في تصوير ان مصر تتردى في حمأة حكم الارهاب والحديد والنار ..

وتكونت فعلا لجان في اوربا للدفاع عن الديمقراطية التي نكل وسينكل بها في مصر بعد اتجاه النظام لفرض ديكتاتورية كبديل لمعركة التحرير !

وكان الرئيس انور السادات يعرف بهذا كله ، ويتلقى التقارير من كل المسئولين .. ومع ذلك صمد ..

ولم يندفع الى المعركة التي كان قد اتخذ بها قرارا جديا .. اذاعه على العالم عن طريق النيوزويك كما بينا في مقدمة هذا الفصل .. ولكن احدا لم يصدق ..

وكان السادات يردد عبارة واحدة كلما تعرض لمثل تلك الضغوط الاستفزازية : نحن الذين نحدد وقت المعركة ولن يفرضها علينا احد قبل الاوان ..

واكاد اتصور انور السادات يبتسم .. وهو يقرأ مثل تلك التقارير عن « نواياه الديكتاتورية بدلا من التحرير » .. بل يسعد لذيوع مثل تلك التصورات وانتشارها .. فانها تدخل في خطة التمويه والخداع للعدو متطوعة دون ان يخطط لها او يدعوها احد .. وعلى اى حال من يدرى ؟!..

وربما كانت اقسى تجربة مر بها قائد معركة العبور .. هي تجربة تحرك الطلبة في الجامعات المصرية وقد مزقتهم الغيرة الوطنية فتظاهروا مطالبين ببدء معركة التحرير ..

وتطرف البعض منهم وخرج عن التقاليد النضالية للوحدة الوطنية فاذاع الترهات والاشاعات ونشر مقالات صبيانية غير مسؤولة في بعض جرائد الحائط .. ومع ذلك لم يستفز انور السادات ..

وتقبل ذلك التحرك بتفهم عميق « فنحن في سنهم كنا وطنيين ومتحركين مثلهم » .. وفي مرتين في عامين متتاليين تجاوز بصفته رئيس السلطة التنفيذية عن ذلك الخروج والانتهاك للتقاليد النضالية ، متأكدا من وطنية الحركة الطلابية ، لاعبا بذلك دور رائب الصدع الوطني ومرسيا

تقاليد للمحافظة على الوحدة حتى لو خرج بعض الشباب الوطني المتحمس محدود الخبرة عن تلك التقاليد .

والحقيقة ان من يستقرىء التاريخ السياسي ـ الحديث على الاقل ـ لمصر لن يجد حاكما صمد لضغوط واستفزازات ، وتحمل تهجمات وتخرصات مثل تلك التي تحملها انور السادات .

كان قد اتخذ قراره فعلا ..

وقال في اجتماعه بالطلبة في ٢٥ يناير ١٩٧٢ ان قرار الحرب قد اتخذ .. وليست هذه مجرد كلمات تقال ..

ولكن أحدا لم يستطع استفزازه لاطلاق الرصاصة الاولى قبل موعدها المحدد المناسب .

واعتصم بالحكمة والصبر .. والصمت أيضا !.. واطلق هذه الكلمات كشعارات .. ولكن فات الكثيرين في حمى الشك والقلق ادراك مغزاها الحقيقي ..

في مارس ١٩٧٣ عندما اعلن السادات في خطاب استمر ثلاث ساعات تقريبا انه يعد الامة كلها للمعركة ومن اجل ذلك فانه يعلن تركيز السلطات كلها في يده بموجب التفويض الذي منحه له مجلس الشعب ، فيتحمل عبء رياسة الوزارة بجانب رياسة الجمهورية قائلا ان هذا قدري !

ضحك الكثيرون في اكمامهم . وقالوا تسويف جديد !..

وعندما اعلن تحمله لمسئولية الحاكم العسكري قال كثيرون ايضا :

« ها قد ظهر المستور .. الم نقل لكم ان الهدف من التغيير الوزاري هو اقامة الديكتاتورية ..؟! » .

وعندما كان الرئيس السادات يزور المواقع العسكرية ويحضر مناورات القوات المسلحة مرتديا البزة العسكرية ، ويتحدث الى الضباط والجنود قائلا اننا سندخل المعركة ولن نتوانى عن بذل اية تضحية ..

لم يكن احد يصدق ان ثمة تضحية من اي نوع قادمة في الطريق ! لانه لسنوات ثلاث كان الرئيس يتحدث عن الحرب ولا حرب .. عن الحسم ولا حسم !.

كان ثمة ضباب كثيف حول الحقيقة ، لم يستطع احد ان يشق استاره وتلك كانت قمة البراعة والعبقرية للقيادة السياسية .. هذه

البراعة التي خدعت اقوى جهاز مخابرات لاقوى دولة في العالم الولايات المتحدة . علاوة على جهاز مخابرات العدو الصهيوني الجامع لخبرات العالم كله في التجسس والاستدلال ..

وقد علق الرئيس السادات نفسه على الوعود المتكررة بدخول المعركة ضاحكا بقوله في حديث صحفي : اننا نعرف اننا كررنا الحديث عن الحرب كحكاية الراعي والذئب المشهورة !.

* * *

حرب .. ولا حرب .. حسم ولا حسم .. حرب .. ولا حرب !!.. ولكن .. فجاة .. حرب .. وهي حرب فعلا ..

بعد ظهر ذلك اليوم السادس من اكتوبر .. والعاشر من رمضان .. كان الناس يتجمعون امام الجمعيات التعاونية في طوابير غير منتظمة .. ويتزاحمون من اجل مواد التموين اللازمة لرمضان ..

وفي البيوت جلست ربات البيوت وربما الازواج ايضا يعدون السلطات اللازمة للافطار بعد ساعتين او ثلاث ..

وعلى المقاعد في كافيه ريش .. وقد بدأ بعض المثقفين يخرجون من اعمالهم ويجلسون الى الموائد في المقهى يستأنفون ثرثرات الامس واليوم وكلها تدور حول موضوع واحد هو المعركة ..

وكان خطاب الرئيس في ٢٨ سبتمبر زادا جديدا للحديث حول الموضوع . كانت الكلمات القليلة التي تناول بها المعركة دليلا جدا لانصار التشاؤم ـ وهم الاغلبية في ذلك الوقت ـ على ان ثمة تراجعا جديدا عن الوعود السابقة بخوض المعركة !.

وفجاة بعد الثانية بقليل .. تسمرنا جميعا في مقاعدنا .. وقد ارهفنا السمع والقلوب تدق بعنف .. فقد كان صوت المذيع يملأ لا الغرفة .. بل البيت .. بل كل بيت .. بل كل شارع في مصر .. وفي العالم العربي كله ..

بيان رقم واحد صادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة .. بيان رقم واحد .. هذه هي الحرب اذن ؟؟..

ان المسالة ليست مسالة اشتباكات او انتهاكات متبادلة لوقف اطلاق النار .. كما تعودنا على الاستماع في البلاغات العسكرية ..

ولا هي بداية حرب استنزاف .. فالشعب لا يريد اقل من حرب تحرير .. وقد وعد القائد الشعب بحرب تحرير ..

وها هو القائد قد صدق وعده .. وصنع السادات المعجزة !!.. وحدث ما طال انتظاره .. على طول العالم العربي كله .. بل الدنيا بأسرها .. **ما عدا اسرائيل ..**

ففي تلك الايام كان الاسرائيليون مشغولون بالانتخابات . وحوائط الشوارع في المدن الاسرائيلية قد غطيت بالملصقات عن حزب كذا وحزب كذا .. وكلها احزاب صهيونية ما عدا حزب « راكاح » العنيد الصغير .. وكانت الصحف تتحدث عن مائة مليون دولار هي جملة نفقات الحملة الانتخابية ..

وفي عيد الغفران .. يوم ٦ اكتوبر كان الناس يتزاحمون امام اهم الافلام والمسرحيات في شوارع تل ابيب .. « عين ابن آوى » .. و « قطة على سطح صفيح ساخن » و « نساء مرحات في وندسور » .
«لجنة الاسكان فى الكنيست الاسرائيلي غارقة فى حوار ساخن مع ممثلي عمال الفنادق حول بناء فندق جديد باسم «العال» وكان الخلاف الذي شغل الراي العام هو هل يبنى الفندق على جبل صهيون او في مزارع الزيتون بالكرمل ؟ » .

ولكن عند حائط المبكى بالقدس .. كان بعض المتعبدين يبكون في هستيريا وهم مستندين الى الحائط .

ولكن روعهم ان بعض طائرات الفانتوم مرقت كالسهام فوق رؤوسهم في اتجاه الحدود السورية الاسرائيلية ..

ولم يكن مالوفا ان تزمجر الطائرات في السماء في عيد الغفران .. هكذا .. اللهم الا اذا كان قدوقع شيء غير عادي ..

ما هو هذاالشيء غير العادي ؟.

تساؤل .. فدهشة .. فمخاوف .. فصدمة ..

انها هي الحرب ..

* * *

ولكن اذا كان الاسرائيليون قد فوجئوا تماما بالحرب .. فان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية فوجئت .. ولم تفاجأ في نفس الوقت .

فمنذ يوم ٣ اكتوبر عندما انعقد مجلس الوزراء الاسرائيلي في جلسته المعتادة كل يوم اربعاء كان لدى رئيسة الوزراء عدة تقارير مقدمة اليها من المخابرات الاسرائيلية تتحدث عن حشود مصرية وسورية كبيرة على الحدود . ولكن هيئة المستشارين التابعة لجولدا مايير والذين يشكلون ما يسمى « بمطبخ الرياسة » عللت تلك الحشود بانها مناورات الخريف التقليدية ..

ولهذا فان مجلس الوزراء الاسرائيلي لم يدرس في اجتماعه يوم ٣ اكتوبر سوى تقرير جولدا مايير عن مقابلتها مع كيرسكى المستشار النمسوي حول حادث اغلاق معسكر شناو .

ولكن تقارير المخابرات توالت بعد ذلك يومي ٤ و ٥ اكتوبر عن ازدياد كثافة الحشود العربية مما اضطر جولدا مايير الى جمع نصف اعضاء مجلس الوزراء صباح يوم ٥ اكتوبر بشكل غير رسمي .

وطلبت من الوزراء يومها ان يتركوا عناوينهم احتياطيا في حالة الحاجة الى استدعائهم فورا .

وكاجراء احتياطي تقرر استدعاء بعض وحدات الاحتياطي ، ووضع سلاح الطيران الاسرائيلي كله في حالة تأهب ..

صباح يوم السبت ٦ اكتوبر التقت جولدا مايير بالجنرال موشى دايان وزير الدفاع والجنرال دافيد اليعازر رئيس الاركان ..

وكان الاخير قد اقترح دعوة الاحتياطي العام كله .. ولكن دايان استمهله . وفي ذلك اللقاء .. كان واضحا تماما ان هجوما مصريا سوريا على وشك الحدوث ..

ووضع الثلاثة احتمالين لا ثالث لهما لتوقيت الهجوم :

- اما عند الغسق للاحتماء بالظلام بعد ذلك من ضربات سلاح الطيران الاسرائيلي المتوقعة للطوابير المصرية السورية الزاحفة ..
- واما فجر اليوم التالي السابع من اكتوبر ..

لم يدر في خلد احد قط ان يبدأ الهجوم في الثانية «في عز الظهر» !..

واخطرت الحكومة الاسرائيلية السفير الامريكي بتوقعاتها لهجوم مصري سوري .. وعند الظهر انعقد مجلس الوزراء الاسرائيلي لبحث الموقف العسكري .. وبينما كان دايان يعرض الصورة امام الوزراء .. اقتحم خبر بدء الهجوم العربي عليهم قاعة الاجتماع !.

وكما صرح ضابط اسرائيلي كبير لمراسل النيوزويك في تل أبيب « اعتقد ان المخابرات الاسرائيلية قد علمت منذ اسابيع بالاستعدادات المصرية .. ولكنهم هناك لم يستطيعوا استنباط الاستنتاجات الحقيقية .. من قبل كنا يقظين الى درجة تجاهل صيحة الذئب .. حتى عضنا الذئب هذه المرة !..»

* * *

نجحت تكتيكات انور السادات في خداع العدو اذن ..

ان الحديث المستمر والوعود المتكررة عن دخول المعركة كان مقصودا بها في الاغلب احداث الاثر الذي حدث فعلا .. ان يقع الاسرائيليون في الشرك ان يبتلعوا الطعم فلا يصدقون ان مصر ستدخل المعركة .. ويستنيمون لهذا ..

وقد استناموا فعلا .. حتى لان معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ذكر في تقريره عن حرب ٦ اكتوبر بالحرف الواحد « لقد كانت المخابرات الامريكية نفسها في غفلة ولم يصدق احد مغزى الاستعدادات العسكرية المصرية .. وذلك لاعتقاد رسخ ان العرب لن يحاربوا لانهم لن يكسبوا اى حرب » ..

وروى بعض مساعدي الرئيس السابق نيكسون انه بعد قيام الحرب جلس يدرس ملف الشرق الاوسط في مقره بفلوريدا ..

وتوقف الرئيس السابق عند مستند يتضمن التطورات بالتفصيل عن الموقف العسكري بعثت به المخابرات الاسرائيلية للمخابرات الامريكية ، وكان تقدير المخابرات الاسرائيلية الذي اختتمت به تقريرها بعد سرد شواهد عديدة ان « الحرب بعيدة الاحتمال » !..

ويقول مساعدو نيكسون انه اعاد قراءة الجملة الاخيرة عدة مرات في دهشة والتفت الى الجنرال الكسندر هيج قائلا « شيء غريب » ان يصلوا الى تلك النتيجة بمثل تلك الشواهد والمعلومات !..

ولقد بلغ من براعة التدبير المصري ان تلك المخابرات الاسرائيلية.رفضت المخاوف التي عبرت عنها وكالة المخابرات المركزية الامريكية عن احتمال وجود هجوم مصري وشيك في تقرير قدمته تلك الوكالة في ٢٤ سبتمبر ١٩٧٣ ، وتحدثت فيه عن ان « مناورات » الجيش المصري في تلك الايام

كانت اوسع من اي مناورات جرت من قبل وانها شملت مجموعات مسلحة كبيرة ..

كما لفت التقرير الامريكي نظر المخابرات الاسرائيلية الى أن المصريين قد كدسوا ذخائر واقاموا نظاما للمخابرات والاتصال في جبهة المناورات اكثر ما تحتمله مناورات معتادة لاي جيش في حالة سلم ولا يعتزم شن حرب ...

وربط التقرير بين حالة « الاستعداد » المصري في القناة وبين الحالة المشابهةللقوات السورية عند الجولان ..

ولعل هذا ما دفع كيسينجر وزير الخارجية الامريكي ان يقول بعد ذلك متعجبا كيف ان المخابرات الاسرائيلية لم تستطع معرفة موعد الهجوم « رغم ان ذلك الجهاز (المخابرات الاسرائيلية) يعتمد على وسائل استطلاع واستخبار هائلة وعلى رد توقعي مضاد . فلماذا اخفقوا في هذه المناسبة في تفسير الحقائق التي كانت تحملق في وجوههم ؟! »

* * *

وارتكزت خطة التمويه السياسي البارعة ايضا على التحرك الدبلوماسي الواسع النطاق ..

فمن يوم لاخر كان مبعوثون عديدون للرئيس انور السادات يطيرون الى كل اركان العالم .. واشنطون .. لندن .. موسكو .. نيودلهي .. بكين .. افريقيا .. يناقشون كل مسئول هناك في النزاع العربي الاسرائيلي وقرار مجلس الامن وانتهاك اسرائيل لارادة المجتمع الدولي ..

وتخرج الصحف العربية بين حين وآخر وهي تحمل عناوين ضخمة عما كان يسمى بخطط التحرك الدبلوماسي او السياسي ..

واخبار عن طيران .. وزراء الخارجية السابقين مثل الدكتور مراد غالب والدكتور محمد حسن الزيات .. ومستشار الامن القومي السابق حافظ اسماعيل .. وشخصيات سياسية اخرى مثل حسن صبري الخولي والدكتور اشرف مروان .. وغيرهم ..

وكانت القيادة السياسية تضرب عصفورين بحجر واحد بهذا « التحرك السياسي » :

- تذكير العالم وقادته بالقضية على المستوى الدبلوماسي .
- ايهام العدو ان هذا النوع من خطط الحملات الكلامية هو فقط ما يستطيع النظام المصري القيام به .. وكفى الله المؤمنين شر القتال! . **وكلما هز**

الناس اكتافهم استخفافا بهذا اللون من النضال .. كلما شعرت القيادة السياسية انها حققت هدفها الاساسي ..

* * *

ليس من شك في ان مصر قد واجهت مصاعب عديدة في الحصول على انواع معينة من الاسلحة من الاتحاد السوفييتي سنوات ٧١ و ١٩٧٢ وبداية ١٩٧٣ وسنعرض لهذا في فصل لاحق عن موقف الاتحاد السوفييتي.. لكن لا شك ايضا ان خطة التمويه المصري قد استغلت هذه المسألة استغلالا رائعا في تضليل العدو ..

فقد نشرت اجهزة النظام المختلفة اشاعات وحكايات مبالغ فيها ــ على الاقل ــ عن عدم توافر السلاح اللازم لبدء معركة ضد اسرائيل سواء من ناحية الكم او الكيف ، حتى في الوقت الذي وصل الطرفان المصري والسوفيتي الى اتفاق بتوريد كميات من السلاح في النصف الثاني من عام ١٩٧٢ وبدأ وصولها فعلا .

وجاء وقت كنت ترى فيه المقاهي المصرية والعربية وخصوصاً في بيروت وقد تحول معظم روادها الى خبراء في السلاح يثرثرون عن النقص في كذا وكذا من الاسلحة .

ويقولون بلهجة العالم الخبير ان السوفييت يرفضون تزويد مصر بصواريخ من النوع الفلاني .. بل يقطعون عنها قطع الغيار بحيث تحولت طائراتنا مثلا الى جثث هامدة لا تقوى على التحليق فما بالك بقتال الفانتوم والميراج ؟!

ولاك هؤلاء الخبراء المزعومون في السلاح كلاما كثيرا عن الاسلحة الهجومية والاسلحة الدفاعية واصطنعوا فروقا وهمية بينها كما سنرى في الفصول المتعلقة بالمعركة حيث ان الصاروخ الدفاعي ضد الطائرة لعب دورا هجوميا في نفس الوقت في حرب ٦ اكتوبر ؟!.

بل ان الصحف المصرية ابرزت في احيان كثيرة الاتجاه نحو البحث عن سلاح من الغرب .

وصحيح انه ممكن شراء بعض انواع السلاح من الغرب .. ولكن تسليح جيش باسره بسلاح من الغرب كان يعني ببساطة انه ما زال على موعد المعركة المنتظرة ريثما يتدرب الجيش المصري على الاسلحة الجديدة .

وكان النظام المصري يعرف جيدا ما قاله اليكس هيوم وزيـر خارجية بريطانيا للصحفيين المصريين الذين رافقوا الدكتور عبد القادر حاتم الى لندن عام ١٩٧١ لتقديم آثار توت عنخ آمون في معرض الحديث عن تزويد الغرب للعـرب باسلحـة :

ـ نحن لا نستطيع تسليح جيش كبير كالجيش المصري .. ان تلـك مهمة دولة كبرى مثل امريكا او روسيا .

وفي حديث لي مع الفريق سعد الشاذلي رئيس هيئة الاركان اثناء الحرب وسفيرنا في لندن الان اجرى عملية حسابية بسيطة عما نحتاجـه من زمن لتسليح الجيش المصري من بلد آخر غير الاتحاد السوفييتي .. فكانت النتيجة سبع سنوات على الاقل !.

اذن كان ذلك الحديث عن السلاح والنقص فيه من شانه انه خلـق انطباعا لدى العدو ان واحدا من اسباب عجز مصر عن شن حرب هو عدم توافر السلاح لديها .. اوعلىالاقل عدم الثقة في قدرة ذلك السلاح على مجابهة السلاح « المتقدم الخرافي » الذي تملكه اسرائيل ويتدفق عليها من ترسانة الاسلحة الامريكية بغير حساب !.

وكانت المفاجاة للعالم كله عندما دقت ساعة الصفر .. وقد عبر عن تلك المفاجاة متحدث باسم البنتاجـون الامريكي بقولـه : « **انهـم ـ اي الاسرائيليين ـ لم يكونوا يتوقعون وجود مثل هذه الكمية وذلك النوع مـن الاسلحة السوفيتية لدى المصرين والسوريين ، نظرا لتواصل الشكـوى العربية من ان السوفييت رفضوا ان يزودوا البلدين باسلحة هجوميـة متقدمة كافيـة ..** »

وعندما ذهبت الى جبهة القتال يوم ٧ اكتوبر كان واحدا من اسئلتي للجنود والضباط عن حكاية السلاح ، وكان الجواب دائما :

ـ السلاح اهو .. كتير كما ترى ..

والحقيقة ان ثقة المقاتل بنفسه وبقيادته وبسلاحه كانت تضاعـف من قيمة السلاح كما وكيفا .

اذ لا ننسى انه كان لدى الجندي المصري سلاح متقدم في عام ١٩٦٧.. ولكن كان كالاداة الخرساء البكماء .. ولم يغن شيئا امام تخاذل القيادة.. وعوامل الهزيمة الاخرى ..

★ ★ ★

على ان التمويه المصري لتضليل العدو .. امتد ليشمل العلاقات المصرية ـ السوفيتية ..

وفي الفصل الخاص عن موقف الاتحاد السوفيتي ـ نتعرض بالتفصيل للخلافات والتناقضات بين مصر والاتحاد السوفيتي .

ولكن اجهزة النظام استغلت هذه الخلافات .. وحدث تضخيم ومبالغة حتى لان الكثيرين من العرب انفسهم تشككوا في الصداقة المصرية ـ السوفيتية وجدواها .. وانتشرت مزاعم عن عدم مساندة السوفيت للعرب في معركتهم . واستغلت عملية الاستغناء عن الخبراء السوفيت في يوليو ١٩٧٢ وتجاهل الكثير من عامدين او غير عامدين آذانهم عن قول الرئيس السادات وتأكيده عدة مرات ان تلك العملية كانت مجرد « وقفة مع الصديق » كما يحدث بين الاصدقاء دائما ..

ولقد اصبح معروفا الان **ان واحدا من اسباب الاستغناء عن الخبراء السوفيت هو التمهيد لبدء المعركة بقرار مصري ١٠٠ ٪ وبقوات مصرية مائة في المائة .. فقد كان هؤلاء الخبراء يلعبون دورا بارزا في شبكة الصواريخ وغيرها من الاسلحة الحساسة ..**

ومع ذلك فان حملة التمويه المصرية استفادت كثيرا من هذه العملية.. ـ عملية الاستغناء عن الخبراء السوفيت ـ اذا اثارت تساؤلات عن جدية النظام في تهديداته بالحرب ، اذ كيف يحارب الجيش المصري دون وجود خبراء سوفيت بالآلاف وينتشرون في كل اسلحة الجيش المهمة للتدريب بل لتشغيل بعض الاسلحة ذاتها ؟..

كما ان الجملة قد استفادت ايضا من المزاعم والتشكيكات التي القى بها البعض في الساحة العربية عن ان ذلك الاستغناء قد تم باتفاق سري مع الولايات المتحدة واصدقائها في المنطقة تمهيدا لتسوية سلمية مقابل التخلص من الوجود العسكري السوفيتي .

اذ كان الامر كذلك اذن فليس هناك حرب .. ولا شبه حرب .. بينما الاستعدادات كانت تجرى على قدم وساق لدخول المعركة ..

وعندما حدثت المعركة فعلا .. كانت هناك المفاجأة ايضا .. المساندة السوفيتية بغير حدود في المجال الدولي ومجال التسليح العسكري .. ولقد عبر نفس المتحدث باسم البنتاغون الامريكي غداة الحرب عن رأيه في تلك المفاجأة :

« اننا لم نكن نتصور ان الاتحاد السوفيتي سيقوم بمثل ما قام به بعد الحملات العنيفة ضده في العالم العربي . وبعد ان كانت علاقاته قد فترت مع القاهرة في اعقاب خروج الخبراء السوفيت ..

ومرة اخرى عبر لي جندي بسيط في الجبهة عندما تحدثت معه عن الصداقة العربية السوفيتية فقال في كلمات بسيطة :

ـ يا استاذ .. انتم صدقتم الكلام ده .. الصداقة ما هي عال العال !.. وربت على سلاح الآ.ر.ب.ج. المضاد للدبابات والسوفيتي الصنع !

★ ★ ★

وربما كانت اكبر حركة تمويه سياسي داخلية لتصوير اهل القاهرة للعدو كانهم اهل بيزنطه ، يتكلمون .. ويتكلمون .. في لهو عن اللغة الوحيدة التي يجب ان يتكلموها في مثل ظروفهم : وهي لغة السلاح ..

لقد فتح النظام المصري بواسطة الاتحاد الاشتراكي العربي ومجلس الشعب مناقشة شعبية واسعة ملأت صفحات الصحف حول ما سمي بالمتغيرات الدولية وتفسير الميثاق وآثار التكنولوجيا و.. و..

وتحمس الاتحاد الاشتراكي فاستقدم عددا كبيرا من المثقفين العرب الى القاهرة ليشتركوا مع زملائهم المصريين ـ الذين وجدوا في تلك المناقشات تنفيسا عما في نفوسهم من هم دفين ـ في مناقشة تلك المتغيرات واثرها على معركة التحرير ..

ومطت الكلمات .. وتقعرت التفسيرات .. ونشا ما يشبه « اللك العام » ليقال للعالم ان المثقفين العرب او بعضهم يرون ان ما يسمى بالوفاق الدولي قد يعرقل النضال المسلح لتحرير الارض العربية .. او على الاقل يرغم العرب على « اعادة حساباتهم » من جديد ..

وهذا بالطبع سيستغرق وقتا طويلا لا يعلمه الا الله .. فابشروا بطول سلامة يا اهل صهيون ! ..

ويلاحظ هنا .. ان محمود ابو وافيه رئيس لجنة الاقتراحات بمجلس الشعب والوثيق الصلة بالرئيس السادات هو الذي قاد حملة التمويه البيزنطية هذه ببراعة طوال الشهور القليلة التي سبقت ساعة الصفر مباشرة ..

★★★

وكان زوار القاهرة من السياسيين يسمعون دائما من المسئولين المصريين عن اكتشاف عصا سحرية جديدة سترغم الامريكيين على الركوع والتحرك للضغط على اسرائيل ..

اما هذه العصا السحرية فهي سلاح البترول ..

وقد حدث ان اكتشفت الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ انها ستواجه ازمة طاقة عام ١٩٧٨ ..

والتقطت اجهزة الاعلام المصرية والعربية هذه الحكاية .. وبدات تتحدث عن سلاح البترول ودوره في معركة التحرير ..

وهو سلاح له دوره فعلا كما ظهر فيما بعد .. ولكنه ليس السلاح الاساسي ..

ولكن المسئولين ووسائل الاعلام اثارت ضجة حول البترول .. وفي اغسطس ١٩٧٣ كتب الملك فيصل بنفسه الى نيكسون رئيس الولايات المتحدة حينذاك محذرا اياه انه اذا لم تغير امريكا سياستها الممالئة تماما لاسرائيل فان السعودية ستقلل من صادراتها البترولية لامريكا ..

لقد بدا كما لو ان العرب لا يملكون غير سلاح البترول ويعتبرونه انه السلاح الوحيد القوي الفعال .. اما الحرب فقد اخفاها دخان البترول وغازاته !

***

ولا نستطيع ان نحصر كل مظاهر حملة التمويه وتضليل العدو .. لكننا تحدثنا عن ابرز ملامحها ..

ولا ننسى ونحن نتأملها .. ان مصر قد وقعت قبل بدء القتال بايام الاتفاق مع شركة امريكية لمد خط انابيب بترول السويس ..

وهو اكبر مشروع ترك للامريكيين ان ينفذوه في مصر بعد انسحاب دالاس المشهور من تنفيذ مشروع السد العالي ..

وكان معنى ذلك ان الامور تسير على ما يرام .. فالنظام يفكر في اقامة مشاريع سلمية من بينها خط انابيب يحاذي القناة فهل من المعقول انه ينوي اقتحامها وعبورها .. وبعد ايام ؟!..

***

« ان الإستراتيجية السياسية للعرب كانت بعيدة النظر .. ومعدة اعدادا كافيــا ..

وان المفاجأة التي انجزت في ٦ اكتوبر ورد الفعل الذي احدثته كان واحدا من اكبر الانتصارات السياسية للعرب » ..

في هذه العبارات الموجزة لخص معهد الدراسات الاستراتيجيــة البريطاني تقييمه لحملة التمويه السياسية المصرية ونتائجها ..

لكن السؤال .. لماذا حدث ذلك النجاح ؟ ولماذا كانت الخطة بارعـة الى هذا الحد الذي اثار دهشة العالم كله ..

ان جاك كوبار مؤلف كتاب من حرب الايام الستة الى حرب الساعات الست يحاول الاجابة على هذا السؤال .. فيقارن بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ :

« في عام ١٩٦٧ دبرت اسرائيل عدوانها على العرب في صمت .. في حين ملأ العرب الدنيا ضجيجا عن خططهم واعمالهم ...

وفي عام ١٩٧٣ فعل السادات العكس اذ اعد مخططه في سرية تامة ونجح في ذلك اذ لم يتسرب سوى القليل عن تغيير نوعية الضباط الصغار الذين خاضت قلة منهم حرب ١٩٦٧ .. او عن تعبئـة المصريين المتعلمـين وتجنيد آلاف من خريجي الجامعات في الجيش .. واقامة جهـاز حرب مختلف عن الاجهزة القديمة .. »

ولكن اجتهاد الكاتب الفرنسي لا يفسر كل شيء .. اننا يجـب ان نبحث عن الخلفية والحكمة السياسية وراء ذلك الصمود اولا للاستفـزازات .. ثم وراء خطة التمويه البارعة .. ثم التكتيكات المختلفة التـي عكست قدرة بارعة على المناورة والتقدم والتقهقر من اجل التقدم من جديد فـي حلبة المعركة السياسيـة لا على النطـاق العربي فقط بـل على النطاق العالمي كلـه ..

ان الخلفية ابسط مما يتصور الكثيرون ..

ان طبيعة النظم في ثورات البلاد الوطنية الفتية التي نسميها « العالم الثالث » تصنع للافراد دورا رئيسيا في صنع القرارات . هذه بديهيـة سياسية معروفة ، وهي بديهية ربما كانت ثورة ٢٣ يوليو هي التجسيـد الامثل لهـا ..

لذلك فرغم المصالح الطبقية وتعقد تلك المصالح وتشابكها ، فان دور الفرد الحاكم في تلك البلاد النامية في التاريـخ اكثر بروزا رغـم تعـدد المؤسسات المختلفـة ..

ولا بد عند مناقشة اخطر قرار كقرار الحرب .. ان نضع في الاعتبار المدرسة السياسية الفرد الواقف على قمة السلطة التي تضع القرار ..

وليس ثمة عناء في فهم معالم المدرسة السياسية التي ينتمي اليها انور السادات او بالاحرى التي صنعها في السياسة المصرية .

وهو نفسه قد تحدث عنها ببساطته وصراحته المعروفة ..

ولو ان الذين يجهدون انفسهم في محاولة فهم اسلوب السادات في في القيادة .. عنوا بقراءة كتاب صغير — وليس مجلد — كتبه الرئيس بنفسه منذ اكثر من خمسة عشر عاما .. بعنوان : « **يا ولدي هذا عمك جمال** » . **لتيسر عليهم فهم هذا الاسلوب .**

في هذا الكتاب عبارة قصيرة هي مفتاح المدرسة السياسية للقائد المصري الذي ورث تركة مثقلة من عهد الزعيم الخالد جمال عبد الناصر .. واهمها واكثرها ثقلا هي القضية الوطنية ..

يقول انور السادات في كتابه ذاك ان قادة ثورة ٢٣ يوليو (وانور السادات منهم) بحثوا كيف يحلون مشكلة المشاكل حينذاك وهي مشكلة الاحتلال البريطاني لمصر .

كان امامهم الاسلوب الفيتنامي .. حيث كان الفيتناميون يحاربون الفرنسيين حربا شعبية شاملة ..

ولكن قادة الثورة لم يشاءوا سلوك ذلك السبيل لانه سيتسبب فى اراقة الكثير من الدماء علاوة على الدمار الشامل المنشآت .

فاذا وجدت وسيلة اخرى تتفادى هذا كله فان ذلك يكون افضل طبعا ..

ويمضي انور السادات في كتابه يقول ان قادة الثورة اهتدوا الى وسيلة بسيطة جدا وربما كان هو الذي هداهم اليها ! ..

اذ يقول في عبارة مكثفة : «**فعمدنا الى مكر الفلاح المصري**» وطبقت الثورة هذا الاسلوب .. وكانت النتيجة انها حققت جلاء القوات البريطانية فعلا . وحصلت مصر على استقلالها السياسي فالاقتصادي بن اصبحت قاعدة لحركة التحرير العربية كلها !

وقد تمثل « مكر الفلاح المصري » هذا في مواجهة الانجليز باتباع خطة عملية ذات اربع شعب متوازية :

- المفاوضة مع الانجليز .

● الضغط عليهم بكفاح مسلح محدود كنوع من التهديد باثارة حرب شعبية مسلحة واسعة اذا دعى الامر .

● استغلال التناقض بين الاستعمارين الانجليزي والامريكي .

● تقديم تنازل بالموافقة على مبدا عودة القوات البريطانية في حالة قيام حرب عالمية ثالثة تتمثل في الاعتداء على تركيا وذلك لمدة سبع سنوات فقط ..

ويذكر يومها ان جمال عبد الناصر قال في خطاب له مدافعا عن هذا التنازل ان العالم يتجه نحو السلام ولن تقوم حرب في السنوات السبع القادمة ان شاء الله !..

واستطاعت ثورة ٢٣ يوليو بتلك الخطة ان تنتزع من الانجليز الجلاء في معاهدة ٨ اكتوبر ١٩٥٤ .

ولكن ماذا حدث بعد توقيع المعاهدة ؟

لم يكد يجف مدادها حتى تصدت مصر لمحاولة الاستعمار فرض حلف بغداد ، بل شنت حربا ضد التحالف مع الغرب أصلا !

ويذكر يومها ايضا ان المراهقين السياسيين عللوا ذلك الموقف الوطني الاصيل بأنه نوع من الصراع بين العملاء في الشرق الاوسط حول مركز الاولوية في العمالة للاستعمار العالمي بالمنطقة ؟!

ولم يكد يحل عام ١٩٥٥ حتى وقع قادة الثورة مع جواهر لال نهرو مبادىء البانشاشيلا المشهورة عن الحياد والتعايش السلمي .. **معنى ذلك ببساطة ان مصر قد مزقت التحالف مع الغرب الى الابد بعد توقيع معاهدة ١٩٥٤ بثلاثة شهور فقط ..**

وتلى ذلك سلسلة من المواقف الوطنية المستقلة والسلامية الحاسمة من باندونج الى صفقة الاسلحة السوفيتية الى الاعتراف بالصين الشعبية .. ثم الصدام المسلح مع الصهيونية والاستعمار .. ومعارك الاستقلال الاقتصادي .. و.. و.

نحن مضطرون الى العودة الى بعض صفحات التاريخ الحديث .. وتقليبها لنذكر من لا يريد ان يتذكر التاريخ العريق لقادة ثورة ٢٣ يوليو في مواجهة الاستعمار ..

وانور السادات هو واحد من اولئك القادة الذين استمروا مزاملين للزعيم عبد الناصر حتى وفاته بل هو من اختاره نائبا له قبل ذلك .

ان « مكر الفلاح المصري » يعني الدهاء .. والذكاء الفطري ..

والصبر جنبا الى جنب البساطة والعراقة .. وهـو ليس تفسيرا ذاتيا يتناقض مع العلمية والموضوعية .

وانور السادات الفلاح العريق الذي يضـرب بجذوره الى اعمـــاق الارض الطيبة والذي يتحدث دائما عن تقاليد القرية ..

لم ينفصل قط عن القرية .. بل انه الحاكم المصري الوحيد الـذي تعود لا زيارة قريته فحسب بل العيش فيهـا من حين لاخر .. بل هـو يعقد اخطر الاجتماعات ويبحث اعمق القضايا هناك بين الفلاحين ووسط الحقول جالسـا على تراب الارض الطيبة .. يرتـدي الجلباب والعباءة ويجلس الى الفلاحين في دوار ميت ابو الكوم .. وهو دوار انشاه قبـل ان يكون رئيسا للجمهورية .. يستمع الى صانعي الحياة في الريف .. ويستلهم آمالهم وملاحظاتهم واحلامهم ..

ان انور السادات عمد ببساطة الى « مكر الفلاح المصري » في مواجهة مشكلة الاحتلال الاسرائيلي ..

ولقد ساعدته الخبرة السياسية العريقة التي اكتسبها في نضاله .. الطويـل ..

ان بعض قادة ثورة يوليو مارسوا العمل السياسي في تنظيم الضباط الاحرار فقط .. ولم يحتكوا كثيرا بالاحزاب والجماعات السياسية .. بل لم يعانوا من اضطهاد السلطة بل ربما لم يروا سجنا الا من الخارج ..

ان انور السادات عمد ببساطة الى « مكر الفلاح المصري » في مواجهة السلطة الرجعية الاستعمارية لمناضلي جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية .

لقد احتك وخالط الجماعات السياسية جميعا .. علنية كانت او سرية.. من وفديين واخـوان وشيوعيين ووطنيين مستقلـين ووطنيين فدائييـن واشتراكييـن .. و.. و..

ثم هو قد وقـف في قفص الاتهام .. عـدة مرات .. وذاق مـرارة الحبس في زنزانة انفرادية .. وغير انفرادية في سجون مصر .. سنوات طويلـة ..

هو مناضل عملي .. واقعي .. قدم تضحيات .. حريته .. بـل خاطر بحياته فقد كان راسه محمـولا دائما على كفه اذ كان يناضل فـي جماعات سرية ضد الانجليز وعملائهم وهو ضابط مما يعرضه لمسئوليـة اكبر مما يتعرض له المدنيون .

ثم هو شرد من وظيفته وعالج اعمالا متنوعة .. يتحدث عنها في اعزاز وفخر ..

لقد اكتسب إذن في ماضيه تجربة سياسية واسعة .. جعلته قادرا على الصبر والمصابرة . وهو قد تحدث مرة الى صديق بريطانى فقال : **«كان قدري ان نجارب ولكن الاعتقال بواسطة الانجليز يعلم المرء الصبر» !..**

والتجربة السياسية الواسعة لانور السادات اكسبته مرونة في معالجة مسالة الديمقراطية بالنسبة للجماهير ..

ان من بين التركة المثقلة التي ورثها السادات .. ما عودت عليه الجماهير المصرية طوال حوالي عشرين عاما .. من انها تستدعى للتحرك ولا تترك لها حرية الحركة .. وكانت النتيجة انها تعودت ان تلقى بالمسئولية كاملة على القيادة ..

باختصار نستطيع ان نقول دون مبالغة ان « القيادة قبل السادات قد اعفت القاعدة من التفكير في مصيرها » فالقيادة تحل كل شيء .. وعلى عاتقها يقع كل شيء ..

ولعلنا نذكر اللغط الكثير الذي كانت تروج له مراكز القوى عمدا بعد وفاة الزعيم عبد الناصر عن « **الفراغ الهائل** » الذي لا يستطيع احد وحده ان يملأه .. وكأنما اجدبت التربة المصرية عن انبات قادة .. وكأنما عبد الناصر نفسه لم يكن مصريا ابن مصري .. ومصريا عاديا قبل ان يكون رئيس جمهورية ..

وكان الهدف واضحا من ترديد حكاية الفراغ الهائل هذه وهو استمرار وضع الشعب المصري تحت وصاية تلك المراكز .. بجانب طبعا تحديد سلطة رئيس الجمهورية الذي اختاره الشعب ولم يفكروا قط في اشاعة الديمقراطية .

ان الخبرة السياسية العريقة لانور السادات جعلته يقف من قضية الديمقراطية موقفا مختلفا كيفيا عن معظم رفاق جمال عبد الناصر ..

ومن عجب ان انور السادات نفسه روى انه عند قيام الثورة ناقش مجلسها مسالة الديمقراطية فكان راي عبد الناصر تحقيقها .. بينما كان راي الاغلبية ــ ومنهم السادات نفسه ــ اقامة ديكتاتورية ..

من عجب انه عندما قيض للسادات ان يمارس السلطة كرئيس للجمهورية .. كان هو الذي حطم الكثير من القيود الديكتاتورية وبدأ في اشاعة الديمقراطية في الحياة السياسية ..

ولقد قيل كلام قليل حتى الان عن اثر اشاعة الديمقراطية في مصر في انتصار حرب اكتوبر ١٩٧٣ ..

ولكن لا شك ان الوقفة التقليدية للجماهير المصرية وراء الجيش والنظام عند نشوب الحرب .. وتحمل الجماهير لمشاق المعركة وتضحياتها الجسدية والاقتصادية مرجعه الى الامن والحرية اللتين شعرت بهما الجماهير نسبيا بعد اعوام من القهر والتسلط وانتهاك كرامة الانسان بل عرضه ..

ولقد لمس الاجانب ذلك التغير الذي حدث في مصر .. بعد حركة التصحيح في مايو ١٩٧١ .. وسجله كاتب مثل جاك كوبار في كتابه الذي اشرنا اليه من قبل بقوله « **لقد تخلى شعب مصر عن روح الاتكال على القائد .. وعدم مناقشة الامور .. فقد بعثت الحياة السياسية في مصر ... وشعر كل مواطن فيها بواجبه في المشاركة والمناقشة والمساءلة والحساب .. فعلا لقد عاد الوعي .. أذ احس الجميع بان امور الدولة كافة تعنيهم وتتعلق بهم بصفة شخصية ..**

وبناء عليه بدأ الناس يشاركون باذهانهم وعقولهم ... وليتلفت اي انسان حوله في مصر الان ليرى كيف يناقش الناس اخطر القضايا كانتخاب رئيس الجمهورية وليس الاستفتاء عليه .. وكتعدد الاحزاب .. والسياسة الاقتصادية .. وغيرها دون وجل .. بل ليرى كيف تواجه الدولة واجهزتها اي تحركات ذات طابع جماهيري ولو كانت منحرفة .. وان هذا الذي يجري في مصر الان .. هو تربية سياسية للجماهير بالدرجة الاولى اذ يخرجها من سلبيتها ويعودها الاعتماد على نفسها ..

ومما له مغزى انه رغم الضغوط التي تعرض لها السادات لتقييد الحريات فانه رفض تماما اي تقييد ..

سيذكر التاريخ ان مصر دخلت حرب مصير .. في اكتوبر ١٩٧٣ .. ولم يعتقل وزير الداخلية فيها مصريا واحدا منتميا كان أو غير منتم .

وسيذكر التاريخ ان سلطات الامن قبضت على قضايا لعناصر دينية فاشستية .. ونجا اصحاب الذقون لاول مرة من الاعتقال .. كما كانت العادة من قبل !..

بل ان ظاهرة غريبة حدثت اثناء القبض على تلك العناصر الدينية المتآمرة على نظام الحكم وعلى رئيس الدولة بنفسه .. لقد رفع الحصار عن الشعب المصري كله .. والغيت تأشيرة الخروج التي فرضت منذ عام ١٩٤٩ ..

وسيقرأ ابناء الجيل القادم تاريخ مصر ويعجبون كيف ان رئيس الجمهورية في عام ١٩٧٣ كان يحذر الشعب في خطاباته العلنية من السماح بقيام المعتقلات من جديد ؟!..

ان هذه الحريات الديمقراطية التي تعتبر بديهيات أو اقل من البديهيات تعتبر مكاسب هائلة في بلد حرم من الحريات اعواما طويلة رغم كل التقدم الاجتماعي والنضال الوطني ..

ان السادات بدأ في ازالة السلبية الاساسية في ثورة ٢٣ يوليو .. وكان لذلك انعكاسة على الانتصار في حرب ٦ اكتوبر ..

***

النضال على جبهات متعددة :

تحدثنا عن حملة التمويه السياسي لتضليل العدو .. وعن الخلفية الفكرية وراء نجاحها ..

ولم يكن نشاط القيادة السياسية قاصرا على ذلك فحسب .. بل انها كانت تناضل في نفس الوقت على جبهات متعددة ..

كانت تجرى في صمت اضخم عملية استعداد عسكري لدخول المعركة .. وطرح في مناقشات على صفحات الجرائد والمجلات .. وفي الندوات مسألة الاستعداد لحرب شعبية وتسليح الجماهير .

ولكن السادات كان يدرك ان دخول المعركة ضد اسرائيل يستدعي تكوين وتقوية جيش نظامي حديث اولا .. وجيش نظامي حديث ثانيا ..

فالعدو لا يحتل ارضا مسكونة بحيث يمكن للحرب الشعبية الواسعة ان تكون الاسلوب الحاسم ..

فكما لا يفل الحديد الا الحديد .. فانه لا يقهر الجيش الاسرائيلي النظامي الا جيش مصري نظامي .. مطهر من عيوب جيوش الماضي ..

بعد اولا وثانيا .. يأتي دور ثالثا وهو الجبهة الداخلية التي تستند الى تماسك الشعب فيها بالجيش النظامي .. بل ان الشعب هو الذي يقدم للجيش كل عتاده وسلاحه بتضحياته وانتاجه في مجالات الانتاج المختلفة . كما يمثل التماسك الشعبي صمودا معنويا يشع على المقاتلين ويستقبل منهم الاشعاع بتأثير قانون الفعل المتبادل ..

كما ان دور الجبهة الداخلية يتمثل في مواجهة اي توسع مغامر

من العدو في العمق المصري .. وفي الحقيقة ان كلا من جبهة القتال والجبهة الداخلية مترابطان ومتلاحمان ولكننا شئنا التقسيم الى اولا وثانيا وثالثا لتأكيد الاولويات لا اكثر ولا اقل .

وفي مجال هذا الاستعداد كانت هناك اعمال صامتة وظاهرة ايضا فقد كان هناك الدفاع المدني الذي طور في السنتين قبل المعركة تطويرا لا بأس به . كما كانت هناك فرق للجيش الشعبي والمقاومة الشعبية .

ولا بد من الاعتراف هنا انه لم يكن هناك توسع في تشكيل تلك الفرق وتدريبها .

وقد كشفت الثغرة عن ان عدم وجود فرق مقاومة شعبية في القرى الواقعة غرب القناة مباشرة قد ساعد الاسرائيليين على ادارة ما سمي بحرب « عصابات الدبابات » بنجاح كبير ..

وكشفت تجربة معركة السويس التي سنفرد لها فصلا خاصا في هذا الكتاب ــ كما رواها المصريون والاسرائيليون ــ عن ان تشكيل فرق مقاومة شعبية مسلحة قد ساهم في منع الاسرائيليين من احتلال المدينة .

ولكنا يجب ان نتوقف عند هذه المسالة ونتدبرها بتأمل عميق . لنطرح السؤال التالي :

لو أن القيادة السياسية اشعلت البلاد حماسا في عمليات تنظيم وتسليح للجماهير .. ألم يكن يعني ذلك اننا نقول للعدو جهاراً نهارا اننا داخلون المعركة فعلا ؟..

وألم يكن ذلك يعطيه فرصة المباداة والمفاجاة للقوات العربية ، بينما كانت خطة التمويه السياسي ــ التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية ــ تستهدف مفاجأته واخذه على غرة كما حدث فعلا .

في الوقت الذي كان فيه تقدير القيادة السياسية ان المعركة لا تستوجب هذا التسليح الشعبي الواسع بحكم الظروف والاطراف الدولية التي ستتدخل فور اشتعال الحرب للبحث عن حل ، وهو ما حدث فعلا .

وكما قلنا فان تلك الحرب في جوهرها حرب نظامية غير معزولة عن الشعب وتوحيده والتحامه بقواته المسلحة .

وقد كان مثيرا للاعجاب حقا وحدة الشعب المصري والشعب السوري وحماسهما الذي لا حد له عندما نشب القتال .

لم يكن هناك شك في استعدادهما للتضحية .. وحمل السلاح على الفور ان توسعت الاشتباكات .

***

وكانت هناك استعدادات داخلية من حيث توفير المواد التموينية والوقود والعقاقير الطبية واعداد المستشفيات و.. و.. وقد تم كل هذا في تنظيم وكتمان شديدين في جلسات متعددة لمجلس الوزراء المصري ، كانت تصدر بعدها بلاغات عن مناقشة المجلس في امور كتنظيم المواصلات واعتماد ميزانيات للاقاليم وزيادة مرتبات خريجي الجامعات والمعاهد العليا .. وهكذا ..

والى جانب قيام المجلس بحشد الموارد للمعركة كان يعمل على تدعيم الجبهة الداخلية بحل مشاكل الجماهير اليومية في حدود امكانيات وصد كل شيء للمعركة .

ويذكر في هذا المجال دور وزارة الدكتور عزيز صدقي والجهد الكبير الذي بذلته خلال عام ١٩٧٢ لحل مشاكل الجماهير بالمحافظات بينما النظام يريد كسب وقت لاتمام التجهيزات العسكرية ..

وهكذا عندما نشبت الحرب في ٦ اكتوبر لم تعان الجماهير كثيرا من النقص في المواد التموينية مثلا ..

لقد بدا واضحا ان النظام المصري كان حريصا على تحقيق النصر وفي نفس الوقت تقليل ويلات الحرب بالنسبة للجماهير بقدر الامكان رغم استعدادها للبذل والعطاء والتضحية .

ولكن طالما استطاعت القيادة توفير تلك التضحيات .. فهل نختلق تضحيات من الهواء ؟..

من حسن الحظ ان القيادة المصرية ليست قيادة دون كيشوتيه !

***

اوسع جبهة عربية :

سيكتب المؤرخون الكثير عن براعة السادات في تحقيقه لاوسع جبهة وطنية عربية في تاريخ العالم العربي بصبر واناة ومثابرة في وجه شكوك عديدة مترسبة من الماضي ...وفي وجه كثير من حملات التشكيك والمزايدة .

لقد استطاعت القيادة المصرية تشكيل جبهة عربية مناضلة من الخليج الى المحيط بما فيها موريتانيا .

وجمعت الدول العربية على اختلاف نظمها الاجتماعية في صف واحد لمواجهة اسرائيل .

وكل قدم للمعركة قدر ما استطاع بحكم ظروفه وطاقتـه الثورية .. الجزائر والمغرب وتونس وليبيا والسعودية واليمـن الجنوبيـة الشعبيـة واليمن الشمالية والعراق والكويت وابو ظبي والبحريـن وقطر وعمـان ولبنان والاردن ..

واعجب العجب ان فريقا من الوطنيين العرب بما فيهم قلة من اليسار العربي تصدى لهذه المحاولة وما زال يتصدى لها ويثير حولها غبارا كثيفا . **رغم ان الجميع يعرفون ان من بديهيات الاستراتيجية والتكتيك في معـارك التحرر الوطني محاولة توسيع الجبهةالمواجهة للعدو لتشتمل حتى على بعض الاقطاعيين انفسهم اذا ما ابدوا الرغبة في المساهمة في المعركة ولـو حتى بالوقوف على الحيـاد .**

ان الموضوعة السياسية القائلة « الطرف الذاتي لا نستطيع ان نكسبه فلنحايده » موضوعة مشهورة لماوتسي تونج طبقت في الثورة الصينيـة واثبتت فعاليتها في حرب الصين التحريرية ضد الاحتلال الياباني عندمـا استطاع الحزب الشيوعي الصيني قائد الثورة استمالة عدوه اللدود شيانج كاي شك الى قوى التحالف الوطني ..

وحكاية امير الافغان الوطني مشهورة وضرب بها الرفيق ستالين مثلا عن حتمية توسيع جبهة النضال الوطني في كتابه عن المسالة الوطنية منـذ اكثر من اربعين عامـا ..

فما بالك وظروف عالم اليوم (انتصار حركة التحرير وازدياد فاعلية المعسكر الاشتراكي) تفرض على قوى كانت متخلفة بالامس ان تشارك في النضال الوطني ؟..

والان ألم تحقق سياسة « التجبيه » العربـي التي اتبعها النظامـان المصري والسوري نتائج باهرة ؟..

الم يقطع امراء الخليج العربي البترول عن الغرب ؟..

والم يدفعوا هم وامراء الكويت والنظام السعودي والجزائر امـوالا كثيرة لتغطية بعض نفقات المعركة ؟

اليس مكسبا لحركة التحرير الفلسطينية والعربية الافراج عن الف مناضل فلسطيني بطـل ..

اوليس مكسبا لحركة النضال العربي ان ارض سيناء والجولان قد رويت بدماء جنود كويتيين ومغاربة واردنيين وجزائريين وعراقيين جنبا الى جنب القوات المسلحة المصرية والسورية ؟.

ثم الان .. ما مغزى ان تساهم السعودية في التنمية الاقتصادية سواء بالقروض او المعونات للبلد الذي تحمل العبء الرئيسي في المعركة ضد الصهيونية ؟..

اليس ذلك مكسبا .. لا للنضال التحريري فقط .. بل لقضية الوحدة العربية .. **اذ ان مثل تلك القروض والمعونات من السعودية والبلاد العربية الاخرى تمهد لايجاد السوق العربية المشتركة .. احد اسس القومية العربية ؟...**

ربما كانت المعركة تتطلب المزيد .. وهي بالتأكيد تتطلب المزيد .. وليس يليق ان تساهم رؤوس اموال عربية في تدعيم اقتصاد الغرب .. بينما العالم العربي متعطش الى كل دولار للتنمية ..

ولكن ألسنا على الطريق السليم بفضل سياسة ثورية وناجحة رسمتها وتنفذها القيادة المصرية ؟..

ما هي الثورية اذن في معارك التحرير الوطني .. وما مقياسها ؟..

اليس هو حشد الجنود وتجميع السلاح والمال وغيرهما من الوسائل للضغط على العدو والحاق اكبر الضرر به ؟.

وكل بقدر جهده .. وبقدر وعيه .. وبقدر ثوريته كما قلنا .. وعلى الطليعة الواعية التي تقاتل بجنودها وسلاحها ان تسعى لكسب حتى من يبدي رغبة في دفع مجرد حفنة من الدنانير من أجل المعركة .. او حتى يقول كلمة تشجيع طيبة ، او بالقليل يكف عن التهجم علينا ونحن نقاتل .. وهو اضعف الايمان .. وهوايمان مطلوب على اي حال ونحن في المعركة !

ما معنى اذن ان يهاجم البعض اطراف الجبهة الوطنية العربية المحشودة الان ؟.

ان النقد مطلوب .. ومفيد بمنطق « الصراع في اطار الوحدة » .. ولكن ليس الهجوم والرمي بالخيانة والاستسلام . **هي لعبة مهلكة ذاقت بسببها الامرين كل القوى الوطنية العربية حتى اكثرها تقدما عندما كانت تلبح بعضها بعضا .. والاستعمار يتفرج .. بل يشترك في الارشاد عن الضحايا الوطنية « بالتوكي ووكي » ايضا !!..**

ما معنى محاولة رفع التناقضات الثانوية الآن الى مرتبة التناقضات العدائية ؟..

من المستفيد غير الصهيونية والاستعمار اذا ما انقطع الحبل بين مصر

ودول البترول مثلا .. وانقطع تمويل شراء عدة طائرات ميراج مثلا ؟..

ان البعض يتحسر مثلا على تحقيق بعض دول البترول العربية لارباح طائلة نتيجة رفع اسعار النفط ؟!

حسنا .. ماذا يضير حركة التحرير العربية من هذا الكسب ؟ أليس ذلك استردادا لبعض مال العرب من احتكارات البترول ؟.. واليس بعض هذا المال يدفع لصالح الحرب ضد العدو الاسرائيلي ؟ وهذا ما يعني وما يجب ان يعني قضية المصير العربي وتدعيم النضال من اجل التحرير ، فان ما يواجه الامة العربية كلها من عدوان استعماري صهيوني هو مسالة تتعلق بالشعوب العربية كلها ..

وقد يقال وقد قيل فعلا ان تلك الاموال الطائلة تذهب الى جيوب الامراء ؟..

حسنا .. ان جيوب الامراء افضل من جيوب جون بول والعم سام .. وانها مشكلة داخلية بين هؤلاء الامراء ومن يحكمونهم لتحديد الجيب او الجيوب التي يجب تدخلها تلك الارباح ..

ام يراد منا العودة الى ايام تصدير الثورة والانقلابات والمؤامرات ؟!

ثم لم العجلة والتعجل ..

اليس معروفا انه للنضال الوطني انعكاس على التطور الاجتماعي داخل اي نظم غير متطورة اجتماعيا ؟..

ولا يشذ الحال في العالم العربي .. عن هذه القاعدة السياسية .. الم تكشف نتيجة انتخابات البحرين منذ شهور حيث فاز الوطنيون «المتطرفون» عن تأكيد هذا التفاعل والترابط الجدلي بين النضال الوطني والنضال الاجتماعي ؟..

الا يؤكد طرد ممثل الاستعمار البريطاني العريق في منصبه في ابي ظبي ومعاونه الرجعي ذلك التفاعل ؟..

ان التطور هنا وهناك قد يكون بطيئا .. لكن دعوا عوامل التطور تنضج على نار طبيعية هادئة ..

ومهلا ايها السادة .. فقد جرت ثوروية البرجوازية الصغيرة العجول الكوارث على كل مكان سادت فيه .. وحرفت مسار الثورة هناك ..

وكيف يمكن ان يوافق اولئك الذين يشككون في الجبهة الوطنية العربية التي شكلتها مصر وسوريا على محاولاتنا لكسب اوربا الغربية الى جانبنا او على الاقل تحييدها وهي جزء من الاستعمار العالمي ، وفي

نفس الوقت يرفضون باصرار الدعوة لجمع الصف العربي الوطني في وقت تواجه فيه البلاد العربية معركة المصير ..

لنتأمل في موضوعية ثمار ذلك التلاحم العربي ..

ان الولايات المتحدة كانت تهدد قبل حرب ٦ اكتوبر بالتدخل عسكريا للاستيلاء على منابع البترول العربي اذا ما قطعه العرب عن الغرب . بل ان شاه ايران نفسه صرح في صيف ١٩٧٣ بانه سيقوم بدور الشرطي الدولي لحماية مصالح الغرب البترولية !

كانت النتيجة ان وقفة العالم العربي دفعة واحدة قد شل يد الولايات المتحدة عن التدخل حتى في امارات الخليج .

وقد ادى التلاحم العربي نفسه الى تقوية المساندة السوفيتية للعرب اثناء الحرب .. وقد كشفت جريدة « سي سوار » البلجيكية عن سر هام في تعليقها على الاستعدادات السوفيتية لارسال خمسين الف جندي سوفيتي الى الشرق الاوسط عندما تدهور الموقف بعد قرار وقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر .

قالت الجريدة البلجيكية ان الهدف الرئيسي من العملية كانت تذكير الامريكيين ان السوفييت مستعدون لاستخدام القوة اذا ما انزل الامريكيون قواتهم للاستيلاء على منابع البترول العربية .

وشاه ايران وهو يواجه هذا التلاحم العربي عدل عن تصريحاته وانذاراته القديمة وايد النضال العربي وأشاد علانية ببسالة القوات المصرية والسورية ..

بل استطاعت القيادة السياسية في مصر ان تجعل ايران تساهم في التنمية الاقتصادية عندنا ببعض مدخراتها البترولية .. وان تنشىء خطا لنقل البترول بدلا من الاعتماد على وسائل النقل الاسرائيلية ..

صحيح ان شاه ايران يستفيد من هذه العلاقات .. ويحاول كسب جانب عربي ضد جانب عربي آخر هو العراق ؟..

ولكن ليفكر الشاه كما يشاء وليحلم بما يشاء .. فان القيادة المصرية لم تترك فرصة لتحسين العلاقة مع العراق العربي الا وانتهزتها وبدات العلاقات تتحسن .. وبدا العراق يساهم بمدخراته البترولية في حقل التنمية في مصر ايضا .

وصحيح ايضا ان نظام الحكم في ايران نظام رجعي .. وان ثمة مقاومة باسلة من مناضلين ابطال وشرفاء ضد نظام الحكم هذا ..

ولكن هذه مسالة داخلية تحلها اطراف الصراع الطبقي في ايران .. ولا يحول احتدام الصراع الطبقي في بلد ما عن قيام علاقات جيدة بين الدول على اساس المنفعة المتبادلة ..

ولم يعد احد في العالم اليوم مسئولا عن الثورة العالمية !!.. يصدرها هنا وهناك !!.. ولا يتناقض هذا مع مبدا التضامن ومساندة المناضلين في كل مكان ..

اذا كنا ندرك ان المسالة الوطنية تحجب مؤقتا ما عداها من المسائل حتى مسالة التطور الاجتماعي .. وهذه بديهية سياسية نظرية وواقعية ايضا ..

فلم لا تؤيد الجبهة الوطنية المتحدة العريضة ؟ بدلا من التشكيك والمزايدة غير الموضوعية ؟

وانه لواضح تماما انه لا النظام المصري ولا النظام السوري قد تنازل اي منهما عن اتجاهاته الاجتماعية المتقدمة كثمن لتلك الجبهة الوطنية العريضة .. بل ما زال البلدان يختطان نفس الطريق الخاص بنظامهما الاجتماعي والسياسي ..

ان المعركة لم تنته .. وسيتفجر القتال غدا او بعد غد ان ركب العدو راسه وافشل مؤتمر جنيف .

فلندعم وحدتنا وجبهتنا العربية .. وليعمل اولئك الذين يتشككون في جدواها مع العاملين لتحقيق هذا الهدف الكبير ، الذي يضع اساسا واقعيا للوحدة العربية الديمقراطية المنشودة في المستقبل القريب او البعيد .

***

واذا كان النظام المصري قد نجح في ميدان توحيد الصف العربي فهو ايضا قد حقق نجاحا كبيرا في الجهة الافريقية ، وفي رحاب العالم الثالث الواسعة .

لقد لعبت مصر وليبيا دورا عظيما في كسب افريقيا الى جانب تأييد النضال العربي بدرجات متفاوتة ، افريقيا التي كانت مرتعا خصبا لاسرائيل التي كان يدخلها راس المال الامريكي والالماني الغربي تحت أعلام اسرائيلية .

لقد قطعت اكثر من ثلاثين دولة افريقية العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بما فيهم اثيوبيا الصديقة التقليدية لكل من اسرائيل والولايات المتحدة .

وعملت الجبهة العربية في مؤتمر القمة العربي الاخير على تقليص النفوذ الاقتصادي الاسرائيلي في افريقيا بتقديم المعونات والقروض لدول افريقيا النامية . ولو ان ذلك لم يوضع موضع التنفيذ كما يجب الا انها ظاهرة جديدة ان يدعم العالم النامي بعضه بعضا . .

وهذا في جوهره عزل او على الاقل محاولة لعزل بلاد مستقلة حديثا عن السوق الراسمالي الاستعماري .

وقد احس الاسرائيليون بخطورة هذا الاتجاه كما تدل على ذلك تصريحاتهم المتتالية عن عزلة بلادهم ازاء القارة العذراء ثم هم بدءوا يحيكون مؤامرات وينظمون ضغوطا على دول افريقية للتخلي عن موقفها المساند للعرب .

واقوى الاسلحة التي يثيرها الاسرائيليون لتشكيك الدول الافريقية في جدوى مساندتها للعرب . . هي مسألة اسعار البترول .

اذ ما زالت الدول الافريقية ـ رغم فقرها ومساندتها للعرب ـ تشتري البترول من الدول العربية المنتجة له بنفس الاسعار المرتفعة التي تشتري بها الدول المتقدمة .

على انه يبدو حتى الان ان ذلك السلاح لم تكن له فاعلية اذ ان تصريح وزير خارجية غانا الاخير الذي اكد فيه ان بلاده لم تنتظر مكافأة على مساندتها للعرب في شكل تخفيض لاسعار البترول . . وانها لن تعدل عن هذه المساندة . . ان هذا التصريح يعكس فطنة الدول الافريقية للمكائد الاسرائيلية . ولكن على العرب ايضا الا يكتفوا بالفرجة على المكائد (الاسرائيلية) ورد الفعل الافريقي ازاءها . بل لا بد ان يتخذوا من الاجراءات الاقتصادية ما ييسر على تلك البلاد الصديقة النامية .

اما على صعيد العالم الثالث ودول عدم الانحياز عامة فقد احرز العرب تايدا شاملا في مؤتمر عدم الانحياز في سبتمبر ١٩٧٣ ، ذلك المؤتمر الذي انعقد في الجزائر .

وامتد لاول مرة تايد الحق العربي الى دول امريكا اللاتينية حيث قاد ممثلو حكم الشهيد سلفادور الليندي رئيس جمهورية شيلي الراحل وفيدل كاسترو زعيم كوبا الدعوة بين دول تلك القارة لمساندة النضال العربي ضد

الاعتداء الاسرائيلي . وضربت كوبا المثل بقطعها العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل .

***

ساعة الصفر السياسية :

كل شيء قد اصبح مهيئا من الناحية السياسية .. وقد تطابقت ساعة الصفر العسكرية مع اكثر الاوضاع السياسية ملاءمة لبدء معركة التحرير .

فها هو الرئيس السادات قد نجح على جميع الجبهات : حملة التمويه السياسي .. توحيد العالم العربي .. عزل اسرائيل عن افريقيا .. كسب تأييد دول عدم الانحياز .

وابلغه قادة الجيش ان الجيش على استعداد تماما .. ولم يبق الا الشرارة لينذلع اللهيب .. لهيب معركة التحرير ..

لم يكن باقيا الا استكمال الوحدة الوطنية داخل مصر والقضاء على مظاهر خلخلتها الباقية .

وفي كلمات حاسمة الغى السادات القضايا المرفوعة ضد الطلبة الوطنيين وامر بالافراج عمن كان ما زال سجينا ..

واعاد الصحفيين الديمقراطيين الى صحفهم مرة ثانية .

بدا اذن ان كل شيء على استعداد ..

ومع ذلك لم يصدق العدو ان مصر مقبلة على المعركة فعلا .. رغم ان السادات ذكر في خطاب ٢٨ سبتمبر انه لم يبق امام مصر الا استخدام القوة لتحرير اراضيها .

بل ان الكثيرين من المحللين في داخل مصر والعالم العربي فاتهم مغزى اجراءات الوحدة الوطنية .. وتصوروها مجرد حل لمشاكل داخلية تخفيفا من السخط العام « للتسويف » المستمر في موعد المعركة ..

حتى كان يوم ٦ اكتوبر ..

واليوم ونحن نسترجع الظروف التي بدأ فيها القتال .. سنجد ان النظامين المصري والسوري قد اختارا فعلا اكثر الظروف ملاءمة لبدئه .. كيف ؟

● كان العرب قد كسبوا حرب الدعاية ضد اسرائيل فعلا حتى بين

الدول الاوربية الغربية التي اثارها تعنت الاسرائيليين المستمر ازاء تنفيذ قرار مجلس الامن وما لاح في الافق من تهديد عربي بقطع البترول . ناهيك عن استمرار تعطيل الملاحة في القناة .

كان التعنت الاسرائيلى لسنوات طوال اسلحة ثمينة مضادة لاسرائيل في يد العرب .

كما ان الاجرام الصهيوني على مستوى الدولة الذي تمثل في هجمات عسكرية نظامية على بيروت مثلا وقتل الزعماء الفلسطينيين الشهداء ..

ثم « اعتقال » الطائرات الاسرائيلية لطائرة الركاب العراقية واجبارها على النزول في مطار اسرائيلي بحجة البحث عن فدائيين فلسطينيين ، بينما لم تكن مأساة الطائرة الليبية التي اعتدت عليها اسرائيل بوحشية ونذالة منقطعة النظير قد غابت عن الاذهان .

ان هذه الحوادث واشباهها اثارت الرأي العام العالمي ضد اسرائيل حتى ان الولايات المتحدة نفسها اضطرت الى التصويت على قرار بادانة اسرائيل في مجلس الامن .

● كان هناك موقف مستشار النمسا برونو كيرسكي اليهودي ازاء مركز تجميع اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتي بعد حادث اختطاف الفدائيين لقطار يقل عددا من اولئك المهاجرين .

هذا الموقف الذي اتخذته النمسا باغلاق مركز شناو ، لم تستنكره دولة اوربية غربية واحدة .. مما كان يعني التعبير عن ضيق وتبرم اوربا الغربية باستمرار التعنت الاسرائيلي .

وبمناسبة حكاية معسكر شناو .. **ان جريدة السانداي تايمس البريطانية ذكرت ان كثيرا من المسئولين الاسرائيليين يعتبرون الان ان هذه الحكاية كانت جزءا من الخداع العربي لحرف الانظار عن الاستعداد للانقضاض على المحتلين الاسرائيليين في سيناء والجولان .**

ويستدلون على ذلك بان الفدائيين الذين قاموا بتلك العملية ينتمون الى منظمة الصاعقة .. وهي منظمة مرتبطة بحزب البعث السوري كما يتساءلون كيف ان قائد هذه المنظمة « زهير محسن » كان يدلي بتصريحات دائما ضد حوادث مشابهة كخطف الطائرات ونسف المطارات المدنية .. ثم ها هو يسمح لافراد من منظمته بالقيام بعمل من نفس النوع تقريبا ؟!

الا يمكن ان يكون هناك من اوحى له بهذا العمل لصرف الانظار عن

النية الحقيقية للقيادة العربية المصرية ـ السورية المشتركة بقيادة « الفريق » احمد اسماعيـل ؟..

وتمضي السانداي تايمس فتقول انه اذا كان الهـدف هو حـرف الانظار والخداع فالحقيقة ان الهجوم على مطـار معسكر شناو قد حقـق اهدافه تمامـا .

فليس من المبالغة القول ان اسرائيـل كلهـا حتى صباح قبل بـدء القتال كانت مشغولة بالحكايـة .

فقد كانت هناك مظاهرات .. وبيانات .. ونداءات .. واجتماعات .. ومانشتات الصحف كلها تتحدث عن شناو .. شناو ..

حتى المسئولين في إسرائيل كانوا مشغولين بشناو .. وكمـا بينا ان جلسـة مجلس الوزراء العادية يوم الاربعاء قبل الحرب مباشرة لم يناقش فيها من الموضوعات الهامة غير تقرير جولدا مايير عـن جولتها في اوربـا بسبب قضية معسكر شناو ..

على اي حال لا احد يدري مدى صحة شكوك السنداي تايمس ..

● واخيرا كان واضحا ان كل محاولة على مدى السنوات السـت الماضية للوصول الى تسوية سلمية قد استنفدت اغراضها وعلى حد تعبير الرئيس السادات « ان كل باب دققت عليه اوصد في وجهي بمباركة من الولايات المتحدة » .

ولم يكن ادل على ذلك من ان كيسينجر وزير خارجية امريكا كان قد ابدى عجزه امام السفراء العرب لايجاد حل للنزاع العربي الاسرائيلي عندما بسط كفيه امامهم قائلا في لا مبالاة : **لا تنتظروا مني معجزة !..**

لقد صبر العرب طويلا حقا .. لاكثر من ست سنوات .. وجربوا كـل وسيلة دبلوماسية وسلمية .. ولكن لا جدوى ..

ومن هنا .. كان طبيعيا ـ رغم عظم المفاجأة ـ ان يكون الناس جميعا في انتظار الافطار يوم ١٠ رمضان بعد ثلاث ساعات .. فاذا بهم يفطرون قبل ميعاد الآذان على اعظم الانباء .. على خبر الاخبار الذي طال انتظاره .. بدء المعركة لانهاء الاحتلال الاسرائيلي ..



قضايا أثارتها المعركة

● قبل ان ننتقل الى مسرح المعركة العسكري .. لا بد لاستكمال رسم معالم مسرحها السياسي من ان نتحدث عن القضايا التي اثارتها المعركة لان لذلك تأثيره على تطورات الامور لا خلال الحرب فقط بل بعدها .. في الحاضر وفي المستقبل ايضا ..

والحقيقة ان المعركة اثارت عدة قضايا ، لكن ابرزها قضيتان :

القضية الاولى ما يحلو للبعض بتسميته بالتحريك لا التحرير

والقضية الثانية ما يطلق عليها عادة بتدويل القضية .

وسنتناول بهدوء موضوعي هاتين القضيتين اللتين ارتفع الدوي حولهما كثيرا في مناطق البلاد العربية ومن عناصر هي جزء اصيل من الصف العربي سواء اثناء القتال أو بعده حتى يومنا هذا .

تحرير ام تحريك ؟

غبار كثير اثير حول تلك المسالة التي اتخذت عنوانا جذابا موزونا ذا ايقاع كما يرى القارىء والسامع معا !..

وسنرى بعد قليل انها زوابع مفتعلة او لا ترتكز على اساس موضوعي. فواقع الامر انه ليس هناك تناقض بين التحرير .. والتحريك . او التحريك والتحرير حسبما يشنف الايقاع آذان السامعين !

فالتحرير هو الهدف من النضال .. اي تحريـر الارض العربيـة المحتلة من العدو الاسرائيلي .

والنضال من اجل تحقيق ذلك الهدف الذي هو التحرير له اساليب عـدة .. التحريك هو واحد من تلك الاساليب .

والتحريك يعني تحريك قضية احتلال العـدو للارض بصدم العالـم والعدو نفسه ومن يقفون وراءه لارغام هؤلاء جميعا على الحركة .. على بذل جهد .. على التراجع .. على اتخاذ خطـوات محـددة لتحقيق الهـدف المطلوب وهو جلاء قوات العدوان من الارض المحتلة .

ومن بدائة علوم السياسة ومن خبرات معارك التحرر لشعوب العالـم كلها ان التحرير قد يكون بالوسائـل السياسية ، وقد يتـم بالوسائـل العسكرية ، وقد يكـون بالضغط الاقتصادي ، وقد يكون بهذه الوسائـل جميعا في وقت واحد .

ولقد قيل ان الرئيس انور السادات قد استهدف من حرب ٦ اكتوبر ان تكون حربا محدودة ، بمعنى ان تتوقف الجيوش المصرية بمجرد نجاحها في عبور القناة واقتحام خط بارليف وتثبيت رؤوس جسور للقـوات تمكـن من استمرار الاستيلاء على الضفة الشرقية لقنـاة السويس بعمق عشرة او عشرين كيلو مترا أو بعمق يصل الى الممرات المشهورة في سيناء .

وعند هذا الحد يكون الرئيس السادات قد نجح في صدم العالم .. **وتحريكه** بعد ان ظل في غيبوبة عن القضية سنوات طويلة .

وهكذا تحـت ضغط الانتصار العسكـري المصري الجزئي مقرونـا باستخدام اسلحة اقتصادية كالبترول والارصدة العربية ، يتحرك مجلس الامن والدول الكبرى ـ في وضع يكون فيـه العرب هم اليـد العليا ـ فيرغمون اسرائيل على تنفيذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ الشهير .

ويستدل انصار هذه النظرية على صحة استنتاجهم بانه لم تكد تمـر عشرة ايام على بدء القتال في ١٦ اكتوبر بالتحديـد ، حتى اعلن الـرئيس السادات مستندا الى الانتصار المصري عن مشروع جديد للسلام موجه في خطاب مفتوح الى المستر نيكسـون .

ويستندون ايضا الى قبول وقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر .. وما تلا ذلك من مباحثات الكيلو ١٠١ .. ومع كيسينجر وأتفاقيـة الفصل بـين القـوات ...

هذا ملخص فكرة اصحاب نظرية التحريك لا التحرير .

ولن ننفي هذه النظرية وان كان وجودها لم يلغ تخطيط القيادة العامة للقوات المسلحة لان تطور الهجوم بعد رؤوس الكبارى التي اقامتها .

وقد بدا ذلك التطور فعلا لكن الجيش المصري اضطر للوقوف عن الحدود التي توقف عندها لاسباب اخرى سنراها تفصيلا في الفصول القادمة .

وفي حديثي مع الرئيس انور السادات حول هذا الموضوع — موضوع الحرب المحدودة والتحريك لا التحرير قال ان هذه « عبارات من قبيل التلاعب واصطناع الشعارات .. » ..

واضاف اننا نعلم وندرك ابعاد التوازن الدولي وحساسية منطقة الشرق الاوسط واهميتها بالنسبة للغرب والشرق .

ولذلك فان حرب اكتوبر كانت حربا محدودة ، تضرب نظرية الامن الاسرائيلي في الصميم ، لادراكنا ان ذلك سيتبعه تغييرات هامة تخطو بنا نحو التحرير الكامل للارض .

وفي الامر الاستراتيجي الذي أصدرته للقائد العام للقوات المسلحة حددت له اهداف هذه الحرب المحدودة في اربع نقاط :

● ارغام اسرائيل على الحرب في جبهتين .
● الحاق خسائر بها لم تتكبد مثلها من قبل .
● الزامها بالتعبئة العسكرية اطول مدة ممكنة .
● ايقاظ التضامن العربي بحيث يستخدم العرب ، لاول مرة ، كافة اسلحتهم في المعركة .

وقد تحققت كل هذه الاهداف في حرب اكتوبر واثبتنا للعالم فساد نظرية الامن الاسرائيلية .

وابتسم الرئيس لحظة ، ثم اضاف ضاحكا :

— كنا ونحن اطفال في القرية نتصور ان الملك يلبس قبقابا من ذهب ! وقبل اكتوبر كانت نظرية الامن الاسرائيلية قبقابا ذهبيا من هذا النوع الموهوم . والان يعرف العالم ، كما يعرف اصحاب القبقاب انفسهم ، انه من خشب .. وان تحطيمه ممكن !

● ولكن ... يا سيادة الرئيس .. لماذا اخترتم ان تكون الخطة اصلا خطة حرب محدودة ؟

قال الرئيس :

ـ لا تستطيع اية قيادة ان تضع خطة تتجاوز الظروف والامكانات . ان الشرق الاوسط منطقة ساخنة جدا ، ومجرد تحريك مشكلته يكفي لايقاظ العالم كله ، وكل خطة مسئولة يجب ان تضع في حسابها الظروف الدولية ، والامكانات .

حسنا . . قبل ان نناقش آراء المعارضين « للتحريك » نود ان نطرح بوضوح سؤالا محددا :

ما هو هدف الحركة الوطنية العربية الآن ؟ او بالاحرى ماذا تعني كلمة التحرير .

لنجب على هذا السؤال بصراحة تامة .

انه ليس من الصعب ابدا ان نتبين بسهولة كاملة ان هناك تفسيران بارزان لهذه الكلمة ذات السبعةحروف . . « التحرير » .

تفسير يعني بهذه الكلمة تحرير الارض العربية بما فيها « كامل التراب الفلسطيني » من الاحتلال والاغتصاب الاسرائيلي . وهذا التفسير يربط بين الاغتصاب الصهيوني لاراض فلسطينية منذ ١٩١٧ وبين احتلال الجيش الاسرائيلي لاراض عربية تتبع ثلاث دول عربية (الاردن . سوريا . مصر) في حرب ١٩٦٧ . ويرى انها قضية احتلال واحدة . . اي قضية وطنية واحدة . .

ومن هنا فان النضال والقتال العربي يجب ان يستمرا حتى ازالة الوجود الاسرائيلي من المنطقة اي ازالة الدولة الاسرائيلية واقامة دولة فلسطينية عربية او علمانية تشمل فلسطين كلها .

اما التفسير الثاني فيعني بكلمة التحرير ، تحرير كل الاراضي العربية المحتلة بعد ٥ يونيه ١٩٦٧ فقط ، وعدم التعرض لوجود اسرائيل كدولة موجودة ومعترف بها عالميا . كما ان التحرير يعني ايضا تحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

ورغم ان عبارة « **الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني** » هذه عبارة مبهمة فان كل البيانات الرسمية وغير الرسمية ظلت ترددها دون تحديد .

ومن هنا فانه يجب ان نحدد ما المقصود بهذه « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » .

هنا ايضا يختلف التفسير ..

فأصحاب التفسير الاول يرون ان تلك الحقوق تعني كل ارض فلسطين . اي اقامة دولة فلسطينية علمانية او عربية على انقاض الدولة الاسرائيلية المغتصبة .

اما اصحاب التفسير الثاني فيرون ببساطة ان **« الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني »** تعني اقامة نوع من الكيان الفلسطيني فيما تبقى من ارض فلسطين (الضفة الغربية وغزة) وبالتحديد دولة فلسطينية . وعودة من يشاء من اللاجئين الى مواطنهم الاصلية او تعويضهم تعويضا عادلا حسب مشيئتهم .

واصحاب هذا التفسير انصار الدولة الفلسطينية في هذه الحدود يعتبرون ان ذلك خطوة اولى .. وانها الخطوة الوحيدة الممكنة الان في ظل ظروف دولية ومحلية ايضا .

انها « الممكن الوطني » اليوم .. وغدا في المستقبل يمكن تحقيق الحلم الاستراتيجي الثوري وهو اقامة الدولة الفلسطينية التي تضم المسلمين واليهود والمسيحيين .

وثمة ولولة في العالم العربي من بعض الاتجاهات ضد التفسير الثاني ــ رغم انه ليس جديدا تحمل رايته قوى اصيلة في الصف الوطني العربي منذ سنوات عديدة بل في حركة الثورة العالمية كلها ــ

ويصفون ذلك التفسير بالطريقة المتشنجة التي كبدت القوى العربية الوطنية خسائر عديدة بانه استسلام .. وخيانة .. ومؤامرة لفرض حلول تصفوية وامريكية و.. و..

والحق انه من خلال هذا الخلاف بين التفسيرين حول معنى كلمة التحرير وحدودها .. تنبع معظم التناقضات بين صفوف القوى الوطنية العربية . وتتوالى سهام الهجوم .. طائشة وغير طائشة ..

فمن لا يعمل ويناضل من اجل القضاء على الوجود الاسرائيلي كاملا .. فان اهون الاتهامات ضده هو انه « يحرك ولا يحرر » !..

ورغم اننا سنناقش القضية الفلسطينية كلها في فصل خاص في نهاية فصول هذا الكتاب .. على ضوء نتائج حرب ٦ اكتوبر الا انه يهمنا **هنا مناقشة بعض الاتجاهات التي تتلفع بعباءة الناصرية زاعمة ان النظام المصري يفرط الان في حقوق الشعب الفلسطيني .**

تعالوا نرى حقائق الموقف المصري من تلك الحقوق منذ زمان طويل . **يكفي القول ان جمال عبد الناصر هو الذي قبل قرار مجلس الامن ٢٤٢ الذي يعبر عن التفسير الثاني حتى بشكل غير كامل (مسالة حقوق شعب فلسطين تركت عائمة) .**

والزعيم الخالد جمال عبد الناصر هو الذي قبل مبادرة روجرز التي كانت في ظاهرها محاولة امريكية لوضع قرار مجلس الامن موضع التنفيذ .

وما وضع عبد الناصر في جدول اعمال حركة التحرير المصرية او العربية عموما وهي الحركة التي كان يقودها مطلب تحرير كامل للتراب الفلسطيني اي القضاء على اسرائيل كمهمة واجبة التنفيذ في المرحلة الحالية .

بل ان عبد الناصر نفسه قد صرح عدة مرات بعد عدوان ١٩٦٧ وبالذات لجريدة الموند الفرنسية انه مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع اسرائيل اذا انسحبت من الاراضي العربية المحتلة كلها .

ويعرف زعماء المقاومة الفلسطينية جيدا ان جمال عبد الناصر كان ينصحهم بقبول فكرة اقامة دولة فلسطين فيما تبقى من ارض فلسطين كخطوة نحو المستقبل .

ما خطط جمال عبد الناصر اذن وما دعا وما هدف الى اثارة حرب شاملة مستمرة كحرب فيتنام من اجل القضاء على الكيان الاسرائيلي .

حتى في مؤتمره الصحفي الحماسي الذي هدد فيه اسرائيل والاستعمار في ٢٨ مايو ١٩٦٧ كان حريصا على تأكيد اننا لا نكن اي نية «عدوان» على اسرائيل ، انما اسرائيل هي التي تهدد بالعدوان و «سندافع» عن انفسنا ضده اذا حدث .

اذن ان انور السادات لم يتراجع عن شيء ما .. ولم يسع الى حلول تصفوية مزعومة . عندما يتمسك بتنفذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ بل انه حدد اكثر الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني على اساس انها ليست

مشكلة لاجئين كما جاء في قرار المجلس .. بل على اساس اقامة دولة للشعب الفلسطيني كما تمسك ايضا بضرورة ان يكون الفلسطينيون طرفا . اصيلا مثلهم كمثل اي دولة عربية من دول المواجهة في اي مفاوضات لتسوية دولية للمشكلة .

بل ان السادات استطاع ان ينتزع من النظام الاردني الذي طرد وطارد المقاومة الفلسطينية الباسلة اعترافا ولو جزئيا بان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني دون التنازل عن موقف مصر الاساسي من الاعتراف الكامل الشامل بالمنظمة .

فلم التصايح ولم التمسح بالناصرية واتخاذها كقميص عثمان لمناوأة النظام الوطني في مصر ؟..

نعود بعد هذا الاستطراد الذي كان لا بد منه لنحدد قضية التحريك لا التحرير ..

اذا كان الهدف هو تحقيق الجلاء عن الارض العربية المحتلة كلها .. وتحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بالمعنى الواقعي الذي قصده التفسير الثاني . فلا بد ان نضع في الاعتبار ونحن نسعى لتحقيق ذلك الهدف النقاط التالية :

● ان هناك قرارا بل قرارات من المنظمات الدولية تؤيد حقنا .

● ان النشاط العربي المكثف على طول السنوات الست الماضية قد حظي بتفهم قطاع عريض من العالم للقضية .

● انه ليس هناك نظريا او واقعيا قاعدة حتمية تقول بضرورة اثارة حرب تحريرية شاملة لحل المشاكل الوطنية في كل الاحوال .

● ان مصر بالذات لها تجارب في هذا المجال . فقد حققت استقلالها بضغط سلطة ثورية (سلطة ٢٣ يوليو) على الاستعمار باثارة حرب محدودة في شكل اعمال فدائية بالمعسكرات البريطانية بمنطقة القنال كانت امتدادا لنضال الشعب المصري الطويل الذي كان يتمثل اساسا في مظاهرات واضرابات ثم نضال مسلح محدود ايضا عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ .

بل ان سوريا ولبنان نفسيهما قد حصلتا على استقلالهما السياسي وجلت القوات الفرنسية عنهما بنضال جماهيري واسع مشفوعا بتأييد الشعوب العربية .

اذن لا النظرية ولا الخبرة الواقعية تمنعان من امكانية تحقيق التحرير دون شن حرب شاملة مستمرة .

حسنا .. اذا استطاع النظام المصري او اي نظام آخر في العالم ان يحقق جلاء القوات المحتلة بحرب محدودة ، اليس ذلك شيئا طيبا ؟..

اليس حقن الدماء وحماية ما حقق الشعب من منجزات اقتصادية واجتماعية وحضارية عموما افضل ما دمنا سنحقق الهدف باقل الخسائر ؟..

ان العبرة اساسا بالسلطة .. ما دامت السلطة وطنية وتستهدف بحكم مصالحها حل المشكلةالوطنية فلا يهم الوسائل التيتستخدمها من قتال او مفاوضة او الاثنين معا حسب مقتضيات الاحوال وخبرة الماضي وتوازن القوى في الداخل والخارج .

ولا يخل هذا بحق القوى الوطنية الاخرى ان تنقد وسائل تلك السلطة ولكن تنقدها في اطار التناقضات الثانوية .. لا في اطار الهدم وتمزيق الصف .

***

فاذا كانت حرب ٦ اكتوبر قد استهدفت تحريك القضية اذن فهي حتى الان قد نجحت في تحقيق هدفها دون التفريط في شيء ..

لقد افاق العالم على النزاع العربي الاسرائيلي بعد نوم ثقيل .. وأرغمت الولايات المتحدة على تغيير سياستها ازاء المنطقة كما سنرى ذلك في فصل خاص ..

وتحول كيسينجر الى الهولندي الطائر بين العواصم العربية في محاولات للوصول الى تسوية وجاء نيكسون الى المنطقة ايضا .. واجتمع مجلس الامن .. والدولتين الكبيرتين .. وتقرر عقد مؤتمر جنيف .. وبرزت منظمة التحرير كالممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ..

صحيح ان كيسينجر والولايات المتحدة راوغت وستراوغ .. وستحاول ان تعمل لصالح اسرائيل حليفتها واداتها في المنطقة ..

ولكن ما خوفنا من هذا كله ؟.

ان رأس النظام في مصر انور السادات يحذر الشعب من تصور ان امريكا تقف معنا ؟!!..

ان حرب أكتوبر غيرت فقط من تكتيك الولايات المتحدة .. وهـذا في حد ذاته مكسب كبير لحركة التحرير العربية كما سنرى فيما بعد ..

وان السلطة الوطنية في مصر .. تفاوض الشيطان ذاته وتجلس معـه في غرف مغلقة ولا تهاب الارجافات .. حول تلك الجلسات المغلقـة .. لان السلطة تفاوض ويدها على الزنـاد ..

اننا ندعو للسلام ونحن مدرعون ..

لا نعاني من مركبـات نقص من لقائنا مـع الامبرياليـين والرجعيين والفاشيين فقد مضى ذلك العهـد ..

وقد اصبح العالم يشهد الان لقاءات سرية تعقد بين اكثر زعماء العالم ثورية وتطرفا وبين اكثرهم رجعية ومعاداة للشعوب ..

ان الوضع الان غير ما كان عليه في مرحلة ما قبل ٦ اكتوبر .. اننـا نمارس حملة سياسيـة وقاعدتنـا ليست هزيمة ١٩٦٧ وعجـز ست سنـوات ..

انما قاعدتنا اليوم .. عبور القناة واقتحام خط بارليف .. ومـع العبور والاقتحام عبرنا ودمرنا حاجز الخوف والتردد ازاء العدو فالقتـال اذن اسهل علينا بكثير اذا ركب العدو رأسه ..

وليتذكر اولئك المتشككون والمشككون .. ان ثورة ٢٣ يوليو .. هي ام الثورات في العالم العربي .. وركيزة النضال فيه .. وهي اول ثـورة خطت خطوات لوضع ثمـار الاستقـلال الوطنـي في متناول الجماهـير الكادحة .. واول ثورة بدأت في الطريق الصحيح بعد الاستقلال السياسي وهو طريق تحقيق الاستقلال الاقتصادي .. وذاقت حلاوة الاستقلالـين .. ولا يمكن التفريط في اي منهما .. ولا يمكن للجماهير التي تحملت عبء النضال الوطني لا من اجل الشعب المصري فقط بل من اجل كل الشعوب العربية ان تسمح لأحد بالتفريط في الاستقلال الوطنـي او الاستقـلال الاقتصادي .

***

التدويـل :

المسألة الاخرى التي تلوكها بعض الألسنة في العالم العربي هي مـا يسمونه بالتدويل ويعنون بذلك ان مصر تستبدل حرب التحرير ايضـا لا بالتحريك هذه المرة بل بالتدويـل .

ورغم غموض هذه العبارة ومدلولها الا انها في الاغلب الاعم تعني لدى اصحابها ترك الدول الكبرى تحل مشكلة الشرق الاوسط وتبني لها قواعد للنفوذ في المنطقة وبالطبع ستحلها على هواها الذي قد لا يتفق في الغالب مع صالح الشعوب .

وليس هناك افتئات على الحق وتشويه للسياسة الثورية السليمة للنظام المصري بل للناصرية التي يزعمون الانتماء اليها من اثارة تلك المسالة تحت كلمة مبهمة هي « التدويل » .

ونحن نعرف انه قديما كان الكتاب الموالون للاستعمار في مصر يكتبون في مقالاتهم عبارات مسمومة كهذه : **« الاستعمار الانجليزي والامريكي والروسي »** .

والهدف من هذه العبارة هو حشر الاتحاد السوفييتي بين دول الاستعمار . فكلا من الاستعمار البريطاني والامريكي مكشوف ومفضوح ولا يبحثان عن « شعبية » كما كان المرحوم دالاس مهندس الحرب الباردة يقول .

والهدف طبعا هو تشويه الاتحاد السوفييتي ، هذه الدولة الكبيرة التي برزت بعد الحرب العالمية الثانية على المسرح وتصرفت بطريقة بدت غريبة غير مالوفة بالنسبة للدول الكبرى . اذ ساندت نضال الشعوب والحكومات ضد الاستعمار في عالم يأكل فيه الكبير الصغير عادة !

وكان على الاستعمار ان يعمل على عزل تلك الشعوب والحكومات عن هذا الحليف ليسهل عليه الانفراد بها .

واستخدم الاستعمار كل الاسلحة ، ولكن بمضي الوقت انكشف ان السوفييت ليسوا استعمارا ولم ينهبوا اقتصاد البلاد المستقلة بل بالعكس ساعدوها على بناء اقتصادياتها .

فبدا مناصرو الاستعمار يدقون على نغمة جديدة اسمها « الدول الكبرى » ، اذ لم يبق في العالم الا الدعاة الاغبياء او الاميين السذج الذين يمكن ان يرددوا كلمة « الاستعمار السوفييتي » .

وكثر ترديد عبارة الدول الكبرى هكذا في حزمة واحدة الاستعمارية والمعادية للاستعمار ، استغلالا للشكوك التقليدية لدى الشعوب في نوايا الاجنبي ، واستغلالا لعقدة النقص ازاء التصرفات السيئة للدول الكبرى الاستعمارية في الماضي والحاضر .

والهدف من وضع الاتحاد السوفييتي في سلة واحدة مع الدول الكبرى ، هو ايضا عزل حركة التحرير الوطنية في العالم عن حلفائها الطبيعيين من الدول الاشتراكية مثل روسيا والصين التي يدخلونها ايضا احيانا بين الدول الكبرى .

ان التجربة والواقع قد اثبتنا انه اذا ما ناضل شعب لتحرير نفسه نجد اوتوماتيكيا ان العالم ينقسم الى معسكرين اساسيين : دول تقف ضد ذلك الشعب وعلى راسها في الغالب الولايات المتحدة بالذات . ودول اخرى تقف الى جانب النضال الشعبي ومن بينها الدول الاشتراكية عموما .

وربما طرحت قضية النضال على المستوى العالمي .. فتتخذ القضية طابعا دوليا .. ويدور الجدل حولها .. وتتضارب المواقف ازاءها .. وبقدر قوة اصحاب اية قضية بقدر ما يستطيعون الدفع بها الى صميم اهتمام المجتمع الدولي ، فهذا الاهتمام في حد ذاته يشكل عاملا مساعدا للنضال .. بل انه قد يتطور من عامل مساعد الى عامل حاسم لفرض تسوية ما ..

والشعوب حرة في رفض تلك التسوية او قبولها حسب مدى تحقيقها لمصالحها التكنيكية والاستراتيجية .

ونحن في واقعنا العربي يفرض علينا الواقع في معركتنا التاريخية ضد الصهيونية ان الولايات المتحدة تساند اسرائيل والى وقت قريب معظم الدول الغربية .

كما اننا من ناحية اخرى تقف الى جانبنا الدول الاشتراكية والدول غير المنحازة في تلك المعركة .

ومرات عديدة طرحت القضية على النطاق الدولي لانها اجتذبت اهتمام العالم .. وهددت السلم العالمي شأن اي قضية نضال في منطقة حساسة من مناطق العالم .. والشرق الاوسط ربما كان اكثر مناطق العالم حساسية .

طرحت القضية عام ١٩٤٧ و ١٩٥١ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ... وربما في اوقات اخرى .. كما طرحت قضايا وطنية غيرها ..

هل يسمى هذا تدويلا .. هل يعني ذلك ركوننا الى المجتمع الدولي لفرض اي تسوية ولو اخلت باهدافنا الاستقلالية ؟

هل المفروض ان نطالب الشعب الذي يناضل ان يرفض معونة الاصدقاء بحجة ان هذا تدويل ؟

واين هو ذلك الكوكب الذي يمكن ان يناضل شعب فيه من اجل حريته ويحصر نضاله في قمقم لا يحس به احد ولا ينقسم الناس الى فريقين فريق معه .. وفريق ضده ؟!

ثم الى الاصدقاء المتلفعين بعباءة الناصرية ..

اليس عبد الناصر هو الذي دفع بالقضية العربية الى المعترك الدولي ..

حدث ذلك في مؤتمر باندونج .. وحدث عام ١٩٥٦ .. وحدث ١٩٦٧ .. وحدث في كل المحاولات السياسية التي بذلت لحل قضية العدوان من وساطة يارنج الى اجتماعات الكبار الاربعة .. الخ ..

ثم ان عبد الناصر هو الذي وضع اسس الصداقة مع الاتحاد السوفيتي وعمل على توطيد الصداقة مع الصين .. بل تدخل لتصفية الخلاف بين الدولتين الاشتراكيتين قائلا في احدى خطبه .. اننا آسفون لان هذا الخلاف يضعف حركة التحرر الوطني في العالم كله ؟.

اليس عبد الناصر هو القائل في آخر خطبة له قبل وفاته اني اقول للتاريخ ان الصداقة المصرية ـ السوفيتية هي صداقة استراتيجية .

واليس عبد الناصر هو الذي طار الى الاتحاد السوفيتي طالبا من الاصدقاء الروس ارسال خبرائهم لادارة الصواريخ حماية للعمق المصري ؟..

هل نرفض المعونة السوفيتية وتأييد كل الدول الاشتراكية وغير المنحازة تطهرا من « رجس التدويل » تاركين اسرائيل تتمرغ في هذا الرجس الفانتومي والصاروخي ؟!..

ليس هناك استبدال للنضال بالتدويل ..

ان المعركة تعتمد اساسا على انفسنا .. ونضالنا هو الذي يحرك الدول سلبا او ايجابا ..

والتحرك الذي في صالحنا .. نرحب به .. وما هو ليس في صالحنا ندير ظهورنا له .. ولا شك ان انتصار الجيش المصري في المعركة قد زاد من احترام اصدقائنا لنا ، واجبر الاعداء على التراجع ولو خطوة الى الوراء .

وعندما يتحرك المجتمع الدولي بفضل نضالنا ، فان تحركه يتخذ

اشكالا دولية دبلوماسية كالاجتماعات والمؤتمرات والاتصالات والمباحثات والمفاوضات و.. غير ذلك من وسائل التحرك الدولي المعروفة حتى الان على الاقل ..

ما معنى القاء هذه العبارة الضخمة المبهمة « التدويل » ؟

ان القضية واضحة وضوح الشمس .. والسلطة الوطنية في كلا من مصر وسوريا تدركها جيدا . والشعوب العربية تشارك وتراقب وتؤيد وتناضل .

اننا نريد تحرير ارضنا المحتلة .. وناضلنا وسنناضل من اجل تحقيق الهدف بكل وسيلة .

ومن يقف ليمديدهاليناسنصافحه شاكرين .. ومن يمد يده الينا ليضربنا سنقطع تلك اليد او على الاقل نحاول ذلك .

ومن يقبض يديه عنا وعن عدونا في وقت واحد سنشكره ايضا . ولن تنال منا حملات ومحاولاتطمس الانتصار العربي على العدو التي تشارك فيها اجهزة استعمارية ومشبوهة عدة ..

ولن تثنينا حملات تشكيك صادرة من الاعداء او من الاصدقاء غير الفاهمين ، فتاريخ مصر كله نضال .. بما فيه النضال المسلح .

وعندما دقت الساعة وحلت ساعة الصفر خضنا المعركة بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر الماضي كاشرف واشجع المناضلين بعد ان كان الناس قد يئسوا ..

وفي الصفحات التالية محاولة لتقديم صور من تلك المعركة الملحمية الاولى من نوعها في تاريخ النضال العربي الحديث ...

ومحاولة لتحليل النتائج التي تمخضت عنها تلك الملحمة .

واخيرا محاولة لاستشراف آفاق المستقبل .. القريب والبعيد معا ..

٣

ساعة الصفر العسكرية عندنا ... وعندهم

● في ١٥ يناير سنة ١٩٧٣ ...

دعى قادة اسلحـة الجيش المختلفة . وقادة الفـرق الى اجتماع على مستوى عال من السرية ..

وكان الكثيرون من المدعوين يتصورون انهم حضـروا اجتماعا من تلك الاجتماعات العسكرية التي تعددت لبحث ووضع خطط « لمشاريع » اي لمناورات لقوات من الجيش في بعض المناطق .. وتصدر عنها في النهايـة بعض الصور في الصحف .. يتفرج عليها القراء عادة ثم يقلبون الصفحة!..

وحضر ذلك الاجتماع القائـد الاعلى للقوات المسلحـة الرئيس انـور السادات ..

وفاجأ الحاضرين بقوله ..

ـ لقد دعوتكم لهذا الاجتماع لاقول لكم ... انـه لم يبق مفر مـن الحرب .. واليكم الامر بان تقوموا « بالمهمة »

ثم ادار الرئيس عينيه في الحاضرين وهو ينفث دخان غليونه وقـال في أبوية وحزم معا ..

ـ من لا يريد منكم الحرب .. فليتنح عن مكانه .. وسننقلـه الى مكان آخر يناسبه ...

ولم يتنح احد طبعا .. فقد كان الحاضرون يغلون من الحماس والبهجة .. لولا الوقار العسكري المفروض عليهم لتواجدهم مع القائد الاعلى للقوات المسلحة ..

اضاف الرئيس السادات قائلا ..

ـ حسنا .. ابدءوا من الان في أعداد الخطط التي تحقق تنفيذ المهمة ..

وغادر القائد الاعلى للقوات المسلحة مكان الاجتماع .. لتبدأ عملية الاعداد للمهمة على قدم وساق. كان الفريق سعد الشاذلي (سفيرنا في لندن) رئيسا لهيئة الاركان وقتها .. وكان الفريق عبد الغني الجمسي رئيسا لغرفة العمليات ..

وبدأ الاثنان في تقسيم العمل .. وتنظيم الخطة ...

وكنا نلمس شيئا جديدا .. ان الخطة شارك في وضعها عدد كبير من القادة والضباط .. وعندما كان كبار القادة العسكريين يجتمعون لمناقشة كل المشاكل التي تثيرها عملية عسكرية ضخمة كهذه (العبور والتحرير) كانت تحدث مناقشات حادة وحامية ولكنها موضوعية ايضا . ولقد تحدث المشير احمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة المصرية بتواضع عن تلك المناقشات مما يكشف عن الطابع الجماعي لوضع الخطة التي فاجأت بها مصر اسرائيل والعالم كله فقال :

ـ « ان ما تم انجازه تم بفضل وتخطيط كل قيادة الجيش المصري . قادة الاسلحة وقادة الفرق . وقد كنا في غرفة العمليات نتولى الربط والتنسيق بين الافكار والخطط جميعا . وكان الرئيس انور السادات معنا دائما بفكره ورايه . »

التوجيه ٤١ .

ولنضرب مثلا عن « جماعية » الفكر التخطيطي للمهمة الكبرى .. باحدى الوثائق السرية في حرب اكتوبر ..

لقد كان متوقعا ان المعركة ستبدأ في مايو ١٩٧٣

ولذلك اسرع الفريق سعد الشاذلي بوضع مجموعة من القواعد لتنفيذ المهمة التي امر بها الرئيس السادات في اجتماع يناير المشار اليه من قبل ..

وهذه القواعد تقـع في ١٠٠٠ صفحـة وسماهـا الفريق الشاذلـي بالتوجيـه « ٤١ » ..

ولكن الفريق الشاذلي يحكي لي .. كيف ان القائد ـ اي قائد ـ يمكن ان يضع على الورق خططا.. هذه الفرقة تعبر هنا ، وتلك تعبر هناك .. وترسم على الورق خطا .. أو سهما .. وتستخدم قلما احمر وقلما ازرق .. وهكـذا .

ولكن هذا لا يكفي .

فبعد ان وضعت « التوجيه » سألت احد قادة الكتائب :

كم عدد طلقات مدفع الهاون عند العبور ؟

اجابني ـ المحدد له عسكريا

سألـت ..

ـ كيف سيحملها الجندي ؟

كيف سيصعد الساتر الترابي

وفي كم دقيقة ؟.

هذه التفاصيل غير معروفة وغير مدروسة ..

وكانت النتيجة ان جمعت القيادة عشرين ضابطـا كلفت كلا منهـم بالقيام بعملية تجريبية للعبور معمجموعة من الجنود والضباط .. واكتشـاف المشاكل المختلفة التي تبرز خلال الواقع العملي .. وكل ثمانية واربعـين ساعة كان يحدث اجتماع بهم . ويقدم كل منهم تقريره على الطبيعة للقيادة

وجدت مشاكل جديدة .. لم يكـن يعرفها مـن وضعوا خططـا على الورق مثل قواعد التوجيه « ٤١ » التي لم تكن مشروع الخطة الوحيد الذي قـدم .

ولقد ضربنا بها المثل لنبـرز فكرة التعـاون الشامـل بين الافكـار والاقتراحات المختلفة . حتى ان قادة الفرق والكتائب قد ساهموا في تعديل التجهيزات اللازمة للعبور .. والاسلحة ايضا ..

***

ولا يمكن فهم عملية العبور بتخطيطها .. ووضع ذلك التخطيط موضع

التنفيذ الا اذا رجعنا الى التاريخ منذ هزيمة ١٩٦٧ . فهذه العملية تمتد بجذورها الى سنوات ما بعد الهزيمة من عدة نواحي !

١ ــ ناحية اكتساب مزيد من الخبرة والمعلومات عن العدو .

٢ ــ تدريب القوات المسلحة على مختلف انواع الاسلحة .

٣ ــ واهم من ذلك كسر الرهبة التي فرضتها هزيمة ١٩٦٧ بالنسبة للعدو الاسرائيلي **فان الجندي المصري غالبا لم يلتق بالجندي الاسرائيلي في معارك مباشرة .. انه يرى آثاره ولا يراه هو .. يرى آثاره في حمم النابالم وقنابل الميراج والفانتوم .. وطلقات الدبابات من بعيد ..**

ولذلك كان حتما تدريب الجندي المصري على مقاتلة العدو وجها لوجه ..

***

والقادة العسكريون المصريون يقسمون مرحلة ما بين هزيمة ١٩٦٧ حتى انتفاضة اكتوبر ١٩٧٣ ــ كما يسميها اللواء حسن الجريدلي ــ الى ثلاث مراحل .

- المرحلة الاولى بعد يونيه ١٩٦٧ حتى اواخر ١٩٦٨ وتسمى بمرحلة الصمود

- المرحلة الثانية من أوائل ١٩٦٩ حتى اوائل ١٩٧٠ وهي مرحلة الردع

- المرحلة الثالثة من اوائل ١٩٧٠ حتى اغسطس ١٩٧٠ بعد وقف اطلاق النار وفقا لمبادرة روجرز ويمكن وصف تلك المرحلة بانها ذروة حرب الاستنزاف .

واذا ما استعرضنا المراحل الثلاث .. لوجدنا ان المرحلة الاولى هي المرحلة التي كان الجيش المصري يعاني فيها العذاب المر للهزيمة التي فرضت عليه فرضا .. حيث تشتت الجيش في صحراء سينا يقاسي الجوع والعطش حتى سمته الصحف الانجليزية والامريكية في شماتة جيش العطاشى وجيش الجياع !

كان على القيادة المصرية ان تجمع فلول ذلك الجيش المهزوم .. وتنفخ فيه بعضا من الروح المعنوية العالية بعد الانحطاط المعنوي الشامل الـذي سقط في هوتــه .

وبفضل شجاعة وبسالة الشعب المصري الذي اعلن بصوت مدو للعالم كله رفضه للهزيمة في طوفان هادر بمدن وقرى الجمهورية كلها يومي ٩ ، ١٠ بشكل تلقائي يكشف عن اصالته وثوريته العريقة ..

وبفضل الجسر الجوي للاسلحة السوفيتية الذي انهمر على مصر بعد ٥ يونيه امكن للقيادة ان تتماسك وتثبت على عجـل بعض القوات المسلحـة وتنظمها وتسلحها . لتصمد امام العدو لحماية الضفة الغربية للقناة التي اوكل الى زكريا محيي الدين في ساعات الهزيمة الحالكة الدفاع عنها على رأس فلول مهلهلة للجيش وقوات مقاومة شعبية متحمسة ولكن غير مدربة تدريبـا كافيـا ..

ويروى ان جمال عبد الناصر توجه بنفسه الى احدى المطارات الحربية لاستقبال طائرات الجسر الجوي السوفيتي الأول واشترك في نقل صناديق الاسلحة الى سيارات الجيش .

ويذكر ايضا في تلك الايام ان عبد الناصر قد دفع بحرسه الجمهوري الى القناة لمواجهة العدو الاسرائيلي غير مبال باحتمالات التآمر من جانـب مراكز القوى حينذاك ، وكان يكتفي بحماية نفسه بمسدس يضعه تحـت الوسـادة !

ولقد تحقق الصمود بسرعة غريبة بعد ان امكن تنظيم الجيش بسرعة فائقة .. وأبرز مثالين على نجاح مرحلة الصمود .

معركة رأس العش حيث استطاعت فصيلة من الجنود المصريـين لا يزيد عددها عن ثلاثين جنديا بصحبة ضابطين فقط ان تهزم طابورا مدرعا اسرائيليا كان يزحف من رأس العش لاحتلال بور توفيق استكمالا لاحتلال الضفة الشرقية للقناة . وذلك في يوليو ١٩٦٧ ولـم يكد دخـان الهزيمة ينقشع عن ميدان المعركة .

ثم تدمير المدمرة ايلات. هذه المدمرة التي كانت تمرح في المياه الاقليمية المصرية كل يوم بوقاحة ودون استحياء حتى جاءت اللحظة المناسبة ودمرتها

زوارق الطوربيد المصرية في ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ . ولم تهتز القيادة المصرية ازاء عمليـة الانتقام الاسرائيلية بتدمير منشآت البترول في السويس ..

وانما مضت في اصرار بعد ان استرد الجيش المهزوم معنويته وخطا خطوات اكبر في مجال التنظيم .

مضت القيادة الى المرحلة الثانيـة ..

مرحلة الردع : كان بوسع الجيش المصري بعد عام وبضعة اشهر ان يرد على استفزازات العدو بما كان يسمى حينذاك « التراشق بالمدفعية » ثم التصدي لطيران العـدو ..

بل ان الجيش المصري بدأ يأخذ المبادرة في الهجوم على مواقع العدو في الضفة الشرقيـة .

وهنا نبتت لدى العدو لاول مرة فكرة اقامة خط بارليف .. وانشاه فعلا .. وكان خطا اضعف من الخط « الجديد » الذي اقتحمته القـوات المصرية في اكتوبر ١٩٧٣ .

واستطاعت القوات المصرية (المدفعية والطيران بالذات) ان تدمر ذلك الخط في ثمانين يوما (ويمكن المقارنة هنا بين قوة الجيش المصـري في تلك المرحلة وقوته عند العبور في اكتوبر ١٩٧٣ . لقد احتاج الامر لست ساعات فقط لاقتحام خط بارليف الجديد رغم تفوقه بكثير على الخط القديم .

المرحلة الثالثة . في الحقيقـة اختلطـت المرحلة الثانية بمرحلـة الاستنزاف ..

ان الجيش المصري قدتعود الاغارة بفصائل صغيرة من جنود الصاعقة في البداية لعبور القناة والعودة بأسرى ..

ثم تطور الامر الى ارسال جنود عاديين يخوضون نفس التجربة .. وكان الهدف كسر هيبة العدو في نفسية الجندي المصري الذي هزم مرتـين في حربين متتاليتين ..

ثم كان هناك ضرب المدفعية .. وغارات الطيران المصري ..

كان الهدف الاساسي من حرب الاستنزاف هو استنزاف اسرائيـل فعلا بمواردها الاقتصادية المحدودة وقواها البشرية الاكثر « محدوديـة » فالتعبئة العسكرية المستمرة تنهك قواها ولا شك ..

ووراء حـرب الاستنـزاف كان هناك رجال يعملـون في صمت ..

يجمعون ما توفر من معلومات ويبوبون ما اكتسب من خبرات .. ليخلقوا بعد ذلك هيكلا لخطة التحرير الكبرى ..

وخلال حرب الاستنزاف حدث صدامان رئيسيان بين الجيشين المصري والاسرائيلي .

معركة الجزيرة الخضراء التي احتلها الاسرائيليون ، فطلب قائد القوة المصرية الصغيرة المدافعة عن الجزيرة من القائد العسكري لمنطقة السويس ان يدك الجزيرة بقنابل مدفعيته بصرف النظر عن وجود القوات المصرية .

والذي حدث ان قوات العدو قد دمرت كما استشهد معظم افراد القوة المصرية وإستعدنا الجزيرة الخضراء .

ثم **معركة جزيرة شدوان** التي استردها الجيش المصري ايضا من المحتلين الاسرائيليين . وكانت تلك المعركة نموذجا للتعاون بين القوات البرية (الصاعقة) والسلاح البحري وسلاح الطيران .

وخلال حرب الاستنزاف ايضا استطاعت الميج المصرية ان تحطم اسطورة تفوق الفانتوم في معركة جوية يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٩ . واسترد فيها سلاح الطيران المصري ثقته بنفسه بعد هزائمه في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧

وحاول العدو الذي ارهقته حرب الاستنزاف ان يوقف تلك الحرب بالضرب في العمق فعمد الى ضرب الاهداف المدنية مثل مدرسة بحر البقر ومصنع أبي زعبل واقتحام الطائرات الاسرع من الصوت ضواحي القاهرة .

وكان رد مصر حاسما .. اقامة حائط الصواريخ المروع بعد أن طار جمال عبد الناصر الى الاتحاد السوفيتي في شتاء ١٩٧٠ . واستطاع حائط الصواريخ بالتعاون مع سلاح الطيران المصري اسقاط ١٦ طائرة فانتوم للعدو في شهر واحد هو يونيه ١٩٧٠ .

* * *

وكان ذلك التساقط المتتالي للفانتوم الامريكية عاملا اساسيا في تحريك روجرز وزير خارجية امريكا حينذاك نحو مبادرته المشهورة .

وليس سرا الان ان واحدا من الاسباب التي دفعت مصر الى قبول تلك المبادرة هو البدء في العمل الضخم الصامت الذي استمر من اغسطس ١٩٧٠ حتى اكتوبر ١٩٧٣ .. الاستعداد للمرحلة الرابعة .. مرحلة الحرب الفعلية من أجل التحرير .. ومن أبرز تلك الاستعدادات كان استكمال التسليح الصاروخي للجيش ..

ومع ان المراحل الثلاث التي تحدثنا عنهـا بسرعة .. قد جمعـت الخبرة واكسبت الكثير من الضباط والجنود الثقة من التصادم المباشر مع العدو .. الا انه بقيت خبرات الحروب الثلاثة الماضية ٤٨ـ٥٦ـ٦٧ ترسخ في العقول اسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر !!

وكان لا بد من حرب رابعة .. لتحطيم تلك الاسطورة ..

ولنستعرض المشاكل التي واجهت القيادة المصرية وكان عليها ان تجد لها حلولا مناسبة .

١ ــ قناة السويس كمعبر مائي .

٢ ــ خط بارليف وهو في حد ذاته يثير مشكلتين . حصون الخط ثم السد الترابي .

٣ ــ مفاجاة العدو والتمويه لذلك وهو يثير بدوره مشكلة كيف يفكر العدو ويخطط .

قناة السويس كمانع مائي .

اثناء الحرب .. عندما كنا نعيش في الجبهة مع المقاتلين .. كان كثير من الضباط يرددون وهم يتحدثون عن عملية عبور القوات المصرية لقناة السويس انها اعظم عملية عبور لعائق مائي في تاريخ الحروب .

وعندما كنت اسمع هذا الكلام في جبهة القتال لم تكن تتاح لي الفرصة لمناقشة احد في تلك « المسلمة » .

وان كان ينتابني احساس داخلي بان هذه « المسلمة » لا تخلو من نوع من المبالغة بتاثير نشوة الانتصار العظيم .. وعلى اي حال فانه مغفور في مثل تلك الاحوال مبالغة المنتصرين !.

لقد كنت اقول لنفسي انه اثناء الحرب العالمية الثانية عبرت جيوش عديدة انجليزية وفرنسية وامريكية وروسية انهار عديدة مثل الراين والاودر والموز والدنيبر و... و...

فلماذا هذه الضجة الكبرى حول عبور قناة السويس وهي مجرد مجرى مائي اصغر بكثير من انهار اوربية معروفة ؟.

ولكن على اي حال ان الادميرال ماكولي قائد الحملة البحرية الامريكية التي ساهمت في تطهير القناة اجاب على هذا التساؤل .. عندما ساله احد الضباط المهندسين المصريين مشيرا الى القناة .

ــ لو كلف سلاح المهندسين الامريكي بعبور القناة من الغرب الى الشرق فكم من الزمن يستغرق ذلك العبور في الحرب ؟

اجاب ماكولي بلا تردد

ـ ٤٨ ساعة على الاقل ..

ومعروف ان الجيش المصري عبر القنـاة بدباباتـه في ست ساعات فقـط ..

ان الاسرائيليين لم ينفقوا جهدا وعرقا وملايين الدولارات لبناء خـط بارليف الا لانه سيستند الى مانع مائي ليس له مثيل في العالم ..

والواقع ان المواقع المائية لم تعد تشكل عقبة في طريق زحف الجيوش الآن في عهد البرمائيات وجسور العبور .

ولكن قناة السويس تنفرد عن جميع المعابر المائية في العالم بخواص « ومزايا » تجعلها أصعب مانع مائي فعـلا في وجـه اي جيش يحـاول عبورهـا .

● ان القناة جدرانها غير منحدرة بالتدريج كجدران الانهار او الترع العادية انما جدرانهـا راسية تقريبا (زاوية ميـل ٧٥ درجة) . وهـذه الجدران مكسوة بالدبش والاسمنت علاوة على الواح من الصلب مرتفعـة بحيث تعوق اي شيء يسعى للعبور اذ تصطدم بقاعه ..

اي ان البرمائيات مثلا لا تستطيع العبور الا اذا رفعنا تلك الالـواح المعدنية كما ان اسقاط اي كبار لا بد ان تسبقه في البدايةعملية رفع ذلك « التدبيش » لانه لن توجد فراغات ترتكـز عليها اطـراف تلك الكبـارى وقواعدها في الجهة المقابلة .. لماذا ؟

● لانه على حافة القناة مباشرة يوجد ذلك السـاتـر الترابي الهائـل الارتفاع (عشرين مترا في بعض المواقع) .

وعلى من يريد العبور ان يتسلق ذلك الجدار بأظافره . واذا ما أراد اقامة جسر فعليه ان يثقب ذلك الجدار ليستطيـع تركيـب ذلك الجسر وتمرير المركبات من فوقه ايضا .

كل ذلك تحت وابل من نيران العدو لانه لن يقف متفرجا على عمليـة العبور هـذه !

● وشواطىء الانهار التي عبرتها تلك الجيوش خلال الحروب السابقة انما هي شواطىء ذات ارض منبسطة وسهلة حتى ولو تخللتها تحصينات .

وتصور نفسك مرغما على صعود عمارة ارتفاعها اكثر من ثمانية طوابق « بايديك ورجليك » وتحت ضرب النار من الحصون التي تطـل مباشرة على مياه القنـاة .

ان الانهار التي عبرتها تلك الجيوش كان اكثرها عريضا نسبيا (ما بين

٦٠٠ و ٢٠٠٠ متر) مما يسمح بالمناورة والانتشار امام نيران العدو الذي يتصدى لمنع العبور .

أما قناة السويس فالعرض لا يزيد فيها عن مائتي متر .. وهي مسافة ضيقة تجعل قوات العبور في حالة تزاحم وكثافة مما يسهل على العدو ضربها .

(سترى في الفصل الخاص عن عملية الاختراق الاسرائيلي الى غرب القناة كيف انه كان من الصعب على الجيش المصري ان يلحق خسائر فادحة بالقوات الاسرائيلية في أحد معابرها الثلاثة وهو المعبر الذي أقامته عبر البحيرات المرة لاتساعها .

● احد اسباب المناعة التي يكتسبها اي معبر مائي هو الا يصلح اي جزء فيه كمخاضة للعابرين ..

ففي الحروب السابقة التي عبرت فيها جيوش انهارا وقنوات كانت هناك مناطق غير عميقة الغور يستطيع الجنود الخوض في مائها وهم يحملون سلاحهم .. واحيانا كانت المياه تتجمد من البرد مما يسهل عبورها كمن يعبر اليابس ..

اما قناة السويس فليس فيها سنتيمتر واحد يصلح مخاضة ..
انها عميقة الغور في كل اجزائها (١٨ مترا واكثر احيانا) مما يحتم تجهيز معابر وكباري واستخدام البرمائيات مما يجعلها (اي تلك المعابر والبرمائيات اهدافا سهلة لنيران العدو وخاصة طيرانه .

● أن المعابر المائية العادية لم يكن مقاما على طول شواطئها تحصينات دفاعية متصلة كخط واحد ليس فيه ثغرة لمواجهة القوات المهاجمة .
وانما العادة ان تقام تحصينات بينها ثغرات واسعة يمكن منها التسلل والعبور . اما الشاطىء الشرقي لقناة السويس فقد كان مقاما عليه احدث خط دفاعي في العالم .. متصل التحصينات كما سنرى تفصيلا فيما بعد .. علاوة على الالغام المبثوثة على حافة مياه القناة مباشرة في الضفة الشرقية .

(عندما اخترق الاسرائيليون القناة في الدفرسوار .. لم تكن تواجههم اية حصون او خطوط كهذه على الجانب الغربي منها) .

● التيار المائي في قناة السويس متغير السرعة من مكان لآخر .. فسرعة التيار في الجنوب (عند الجيش الثالث) اعلى منها عند الجيش الثاني لاقتراب الجنوب من خليج السويس .

بل أن سرعة التيار في القناة تتغير كل ثلاث ساعات .

وهذا كله يجب ان يوضع في الحسبان في اي عملية لتثبيت رؤوس كبارى للعبور .

● المد والجزر ايضا يختلف في القناة باعتبارها صلة بين بحرين مختلفين (البحر الابيض والبحر الاحمر) .

والفرق بين المد والجزر في المناطق المختلفة قد يرفع الكبرى او يخفضه الى مستوى ١٢٠ سنتمترا . وهذا يستدعي ايضا اجراء وصلات خاصة في الكبارى . كما يستدعي الالمام بدقة بمواعيد المد والجزر واختلاف مستوياتها .. الخ .

واذا ما تم العبور بواسطة زوارق او معديات فما اسهل على اسلحته في نقط خط بارليف من ان تحصد العابرين حصدا ..

هكذا بنى الاسرائيليون خطتهم على استحالة انشاء الكبارى التي يمكن للمشاة ان يعبروا فوقها ومن ورائهم الدبابات .

خط بارليف والساتر الترابي ...

لن يستطيع المهندسون المصريون اذن اسقاط كبارى الا اذا تمكنوا من تكسير « التدبيش » على الشاطىء الشرقي ..

حسنا .. لنفرض انهم نجحوا .. فكيف يحول الاسرائيليون دون تدفق قواتهم العابرة ؟.

انهم لم يكتفوا بالنقاط الحصينة التي تشكل خط بارليف .. وانما اقاموا ساترا ترابيا .. حائطا من التراب ـ سمكه او عرضه لا يقل عن عشرة امتار وهم قد اقاموا ذلك الساتر من ناتج الحفر والتطهير الذي تم منذ سنوات في قناة السويس .

وقد كان ذلك « الردم » بارتفاع يتراوح ما بين ٦ و٨ متر في القطاع الشمالي من بور سعيد حتى شمال البحيرات ، وبارتفاع من ٨ الى ١٠ متر في القطاع الجنوبي من جنوب البحيرات حتى السويس .

واستغل العدو فترة ايقاف اطلاق النار في تجهيز ذلك « الردم » وتحويله الى جدار ترابي متصل يتراوح ارتفاعه كما قلنا بين ١٥ و ٢٠ مترا كما تم ازاحته حتى حافة ماء القناة مباشرة بميل يصل الى ٤٥ درجة . وذلك لاعاقة تقدم الدبابات والمعدات القتالية اذا ما تمكن المهندسون المصريون من اقامة معابر على القناة ذاتها كما ذكرنا من قبل .

وفوق هذا الساتر الترابي أقام الاسرائيليون اكوام تراب ضخمة يمكن للدبابة ان تقف خلف كل كوم منها على مصطبة .. بحيث لا يبين

منها الا برجها .. ومن هذه المرابض « والـدراوى » تستطيـع الدبابـة ودبابة اخرى تجاورها في مربض آخر على بعد ١٥٠ مترا ان تطلقا النيران متقاطعة من اتجاهين لتغطي سطح القناة تحصد من يعبرها ..

وهكذا تناثرت مصاطب ودراوى الدبابات على طول الساتر الترابـي بطول القناة (حوالى ١٦٠ كيلو مترا) .

والسـاتر الترابي وحقول الالغام ومرابض الدبابات في حد ذاتها كافية لتشكل خطا حصينا منيعا ..

ولكن الاسرائيليين لم يكتفوا بهذا بل ان قوام خط بارليف كان تلـك القلاع الحصينة التي توزعت على طول السـاتر الترابي بواقع قلعة كل ستة كيلو مترات تقريبا .

وهي قلاع يسـميها العسكريون « بالهيئات الحاكمة » لانها انشئت على المحاور الرئيسـية لسيناء في المناطق الصالحة للعبور وتسيطر عليهـا .

وقد انشا الاسرائيليون ٢٧ نقطة او قلعة من هذا النوع .

كيف اقاموها ومن أيـن ؟..

لقد سطوا على قضبان الخطوط الحديدية في سيناء .. وقطعوا من صخر سيناء عشرات الالـوف من الاطنـان .. واستخدموا رمال الوطـن المقدس ومزجوا بين هذا كله واحدث اساليب التكنولوجيا في العالم .. فكان من هذا المزيج كله خط بارليف الاسطوري ..

وهو اسطوري فعلا .. وما من مرة عشت فيها في الجبهة سواء اثنـاء القتال او بعد وقفه ، الا وجدت نفسي منجذبا الى قـلاع الخط ، اتأمـل واتجول فيها ، واطرح عشرات الاسئلة ايضا وكل مرة نكتشف جديدا في ذلك الخط .

وفي اليوم الثالث للقتال .. كنت ادخل احدى القلاع ، ورائحة اللحم البشري المحترق تزكم انفي .

كانت تلك اول مرة في حياتي اشم رائحـة الانسان وهو يحترق .. وطافت بذهني كل قراءاتي عـن افران شواء الانسان التي صنعها النازيون في معسكرات اوشفيتز وبوخنفوالد .

ها انا اشم الرائحة بنفسي الان .. من المحتمل ان اتعرض للشواء بعد لحظات اذا ما سقطت علينا قنبلة الان !!

ولكن لا بد ان اتماسك .. وامنع نفسي من الغثيان .. فنحن فـي حرب .. وانا مراسل حربي اي أمت الى الحرب بصلة ما وان كنـت لا استطيع اطلاق رصاصة مسدس .. ولا بد اذن من خوض التجربة كاملة .

وكان دخان المعركة يتصاعد من الحصن بعد أن استولت عليه القوات المصرية . وكانت مخازن الذخيرة قد تفجرت بفضل الهجوم المصري ورفض عدد من الجنود الاسرائيليين الاستسلام فاحترقوا بنيران الانفجارات منذ يوم واحد .

ولكن الدخان الناتج من احتراق المؤن والعتاد واللحم البشري ما زال يتصاعد من « مزاغل » الحصن خطوطا غليظة كثيفة الى السماء ..

مدخل الحصن الوحيد ثغرة عرضها خمسة امتار فقط تسمح بمرور العربات والدبابات من ناحية الشرق ، اي كي يدخل احد الحصن لا بد ان يكون قادما من اتجاه القوات الاسرائيلية في سيناء .

وهذه الثغرة لها « سدادة » عبارة عن حبل من الالغام من مختلف الانواع . الغام الدبابات والغام للافراد .. علاوة على بعض الحرس الذين يعرفون الممرات الآمنة خلال تلك السدادة الملغومة !

والحصن مقام على مساحة اربعين الف متر في المتوسط .. وبعض الحصون مساحتها اكثر من ذلك ..

وكل حصن يتكون من أربع دشم .. والدشمة بناء من ثلاث طوابق مبني تحت الارض ما عدا نصف الطابق الاول فهو ظاهر فوق السطح لان به « المزاغل » اي الثقوب المستطيلة التي تظهر منها فوهات المدافع على انواعها .. والدشمة مبنية بالاسمنت المسلح الكثيف .. ومسقوفة بقضبان من السكة الحديد وفوق كل دشمة ركام من الصخور والرمال ارتفاعه لا يقل عن عشرة امتار وهذا الركام محاط بشبك من الفولاذ يمنع انهياره .

والطريق من « سدادة » الحصن الى اي دشمة داخلية يمر بسراديب ارضية محاطة بأكياس الرمل بطريقة ملتوية على طريق بيت جحا او اعشاش النمل ... بحيث يصعب على اي مقتحم للحصن ان ينجو من نيران العدو المصوبة من مزاغل الدشم العديدة ، ومن سواتر السراديب نفسها .

ولكل دشمة ولكل طابق فيها ولكل غرفة باب مصنوع من الفولاذ لا يمكن اقتحامه الا بالنسف . ولم ينس العدو ان يجعل سمك السقف بين كل طابق وآخر في حدود مترين من الاسمنت المسلح والقضبان والرمال والاحجار .

ومن هنا فان كل دشمة قادرة على ان تتحمل قصف المدفعية ، وقنابل الطائرات حتى قنابل زنة الف رطل لا تؤثر فيها بفضل كل هذه الاحتياطات التي استفاد العدو فيها من كل تحصينات الحروب السابقة .

وهذه الدشم تنسق فيما بينها عمليات قذف نيران المدفعية المختلفة الانواع وهي نيران متقابلة ومائلة بحيث تشكل ما يسمى بمنطقة قتل تحصد وتحاصر اي مقتحم .

وبالحصن مدافع هاون .. ومدافع من عيار ١٧٥ ملليمتر وهو نوع حديث وخطير من المدافع الثقيلة كذلك الذي تخصص في قصف السويس وسماه الجنود هناك « ابو جاموس » واستولت عليه القوات المصرية سليما وعرض في معرض الغنائم .

وهناك ايضا مدافع من نوع خطر .. هي المدافع الرشاشة التي تعمل ذاتيا بمجرد « ا حساس» اجهزة اليكترونية غاية في التعقيد بحرارة اي انسان يقترب من الحصن .

وهذا النوع من المدافع خصص من اجل القناصة « والمتسللين » المصريين .

وحول كل دشمة ممر على شكل قوس ينتهي طرفاه بمربض للدبابات لتصعد الدبابة لتضرب ثم تختفي عن العيون نازلة في قاع القوس متفادية القذائف المصرية وراء سواتر الدشمة وفي كل دشمة دبابة او دبابتين .

والطابق الاول للدشمة مزود بمصعد كهربائي ببرج للمراقبة . ولما كان القناصة المصريون قبل ٦ اكتوبر قد استطاعوا ان يخربوا الكثير من تلك الابراج فان الاسرائيليين قد اخترعوا وسيلة اخرى مثل « البيريسكوب » في الغواصات ، تليسكوب يصعد اوتوماتيكيا من ثغرة خفية وبجانبه مدفع رشاش !!

وهذا البيريسكوب يستطيع ان يعمل ايضا بالاشعة تحت الحمراء للاكتشاف الليلي . ولما كان الجيش المصري قد استطاع ابطال عمل هذا الجهاز بتسليط ضوء قوي عليه عمد الاسرائيليون الى استخدام احدث الوسائل الاليكترونية وهي الاستعانة باشعة النجوم من السماء لاكتشاف اي اقتراب لافراد من الحصن !

واذا انتهينا من جولتنا بين اسلحة الدمار والموت التي زودت بها تلك القلاع فانه سيثير دهشتنا هذه الاستعدادات الشاملة لاعاشة الجنود الذين يسيطرون عليها ..

ان اماكن مجهزة لمبيت الجنود قد توفرت فيها كل وسائل لا المعيشة كالنوم والاكل بل الترفيه .. فوق الحماية طبعا من النيران والقنابل كما وضحنا .

اجهزة تكييف الهواء موجودة .. والمياه الساخنة والباردة موجودة

واماكن الاستحمام ودورات المياه والثلاجات المليئة بكل انواع الطعام الطازجة والمحفوظة وزجاجات الكوكاكولا والبيرة المثلجة ..

ولا انسى مذاق زجاجة بيرة مثلجة في اليوم الثالث عشر للقتال .. من ثلاجة احد الحصون الاسرائيلية التي وقعت في يد الجيش الثاني ؟!

ومطابخ الحصن تنافس احدث مطابخ فندقي شيراتون وهيلتون ..

وثم مكتبة عامرة بالكتب السهلة القراءة والمجلات ..

وفوق هذا صالة لعرض الافلام السينمائية .. وقد عثرت قواتنا على بعض الافلام الجنسية بين تلك الافلام .

اكثر من هذا فان في كل قلعة تقريبا بوفيه وشبه كافتريا صغيرة للاجتماعات والتسلية . بل في ممرات الحصن وافنيته المختلفة المسورة من الرمل والاسلاك والالغام اقيمت ملاعب لكرة السلة والتنس .

وفي بعض القلاع في مناطق معينة على طول القناة .. زود العدو قاعها بخزانات للنابالم تخرج منها مواسير الى القناة ليتدفق منها النابالم السائل وفقا لنظرية الاواني المستطرقة لتغطية سطح القناة وتحويلها الى جحيم مشتعل بارتفاع ١٢٠ سنتمترا ودرجة حرارة تزيد عن ٨٠٠ درجة .. ويمكن تصور ماذا يمكن ان يحدث لاي قوة عابرة لمثل هذا الجحيم !..

ومع ان مثل هذه الوسيلة الجهنمية اذا كان قد امكن تنفيذها فعلا كانت ستلحق بقواتنا خسائر جسيمة .. الا انه لا يجب المبالغة في قيمتها اذ من المستحيل تغطية سطح القناة المائي كله بالنابالم .. وكانت قواتنا على استعداد حتى لمواجهة تدفق النابالم من النقط الحصينة المذكورة اذا لم تكن قد استطاعت ابطال مفعولها قبل ان يستطيع الاسرائيليون تحريك مسمار واحد في انابيب الجحيم هذه ..

ليس هذا في الحقيقة كل خط بارليف .. ليس القلاع .. وليس الساتر الترابي وليس حقول الالغام والاسلاك الشائكة المكهربة وغير المكهربة .. حتى حافة المياه في القنال فقط .

وانما كانت هناك وراءه خطوط اخرى .. اقل تحصينا حقا ولكنها خطوط مساعدة لعرقلة اي تقدم فالخط الثاني كان خلف الخط الاول بحوالى نصف كيلو متر .. وهو ان لم يكن متصلا ببعضه البعض . الا انه كان مجهزا اساسا للقوات المدرعة لتستطيع المساهمة في ضرب القوات العابرة .

اما الخط الثالث فمجموعة من التحصينات المتفرقة وفق نظام يتطابق مع مواقع اكثر المناطق احتمالا لعبور الجيش المصري .

وبعد حوالى خمسة كيلو مترات عن القناة ..
بعد ذلك اقام العدو مجموعة من الستائر الصناعية والتلال الرملية لتكون اشبه بمصاطب اخرى للدبابات على بعد ١٥ و ٢٠ كيلو مترا شرقي القنال ..
ثم هناك الاحتياطي المدرع والمضاد للطائرات والدبابات على اعماق مختلفة .. ما بين خمسة وثلاثين كيلومترا ..
وطرق وممرات لتسهيل تحرك العدو ..
ولكي يتصور القارىء مناعة حصون خط بارليف هذا .. سندع الارقام تتكلم عما كانت كل نقطة حصينة تشتمله من معدات واسلحة .
في زيارة للنقطة الحصينة عند الكيلو ١٠ جنوب بور سعيد .. سنجد ان بها التجهيزات التالية :
١٧ ملجا (اي مكان يستتر فيه الجنود او ينامون في حماية من القذائف) .
٦ حفر مدافع هاون ١٢٠ مليمترا .
٩ حفر هاون ٨١ مليمترا .
٩ حفر مدفع مضاد للطائرات ٣٠
٢٠ دشمه لمدافع رشاشة عيار نصف بوصه .
٣ نقط ملاحظة .
٩ حفر للدبابات
٨ مرابض للدبابات
٣ ملاجىء تستخدم كمخازن
٣ اكشاك تستخدم للحرب الكيماوية
١ موقع صواريخ ارض ارض
١ مانع سلك ذو ميلين
ـ عدة موانع اسلاك شائكة
١ موقع صواريخ مضاد للدبابات
ـ حقل الغام مختلط بعمق ١٠٠ الى ١٥٠ مترا .
٢ سرية مشاة
١ فصيلة دبابات باتون
٩ مدفع رشاش نصف بوصة
ومدافع هاون وصواريخ وجهاز رادار ودفاع جوي علاوة على مهندسين واطباء وممرضين ورادار اكتشاف التسلل ومياه وطعام لمدة شهر .

باختصار نوع من البروج المشيدة قديما للاعتصام من الموت كما تحكي الاساطير .. ولكن لما كان الموت يدرك المرء ولو كان في بروج مشيدة.. فقد ادرك الموت والهزيمة الاسرائيليين رغم تصريحات دافيد اليعازر رئيس الاركان الاسرائيلي قبل عام واحد من العبور المصري « ان خط بارليف سيكون مقبرة للجيش المصري اذا تجاسر على محاولة عبور القناة » ..

بل ان اصدقاءنا العسكريين السوفيت انفسهم كانوا يرون استحالة اقتحام القناة والخط المنيع .. وقد حدث مرة ان وقف عدد من جنرالات الاتحاد السوفيتي قبل ٦ اكتوبر ١٩٧٣ على الجانب الغربي من قناة السويس يتاملون خط بارليف بالعين المجردة والمناظير المكبرة في الضفة الشرقية للقناة ..

وكان يصحبهم في الزيارة المشير احمد اسماعيل واللواء سعد مامون ومدير سلاح المهندسين ..

وسأل الجنرالات السوفيت مرافقيهم من القادة المصريين :

ـ كيف تفكرون في عبور هذا .. كيف ستشقون طريقكم خلال هذا الساتر الترابي الهائل ؟

ابتسم قائد مصري وسأل الجنرالات الروس بدوره :

ـ هل عندكم وسيلة لشقه ؟.

ضحك الروس وهزوا رؤوسهم وقال قائلهم :

ـ ليس هناك غير القنبلة الذرية !

ولم يكن ذلك بالامر الهزل ..

فعندما زار **الجنرال بوفر** رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية في باريس خط بارليف في نوفمبر ١٩٧٣ بعد وقف اطلاق النار وتجول في قلاعه وحصونه تركزت معظم اسئلته حول نقطة واحدة : كيف عبرتم ذلك الخط .. وفي ست ساعات ؟!

ان الامر بدا وما زال يبدو حتى الان امام جميع المعلقين العسكريين كأنه معجزة ..

والامر معجزة فعلا .. ولكني لا اعني انه شيء خارق للطبيعة انجزته قوى غيبية او تم بطريقة عفوية « بالبركة » .. فاقتحام حصون بارليف المنيعة لم يتم الا بفضل عبقرية وشجاعة الرجال : جنود وضباط القوات المسلحة .

تجمعت كل هذه المعلومات « المرعبة » اذن عن خط بارليف امام القيادة المصرية من خلال عمليات الاستطلاع برا وجوا .

ولم يكن امام تلك القيادة من وسيلة لاقتحام خط بارليف الا بالمواجهة الشاملة فليس من سبيل للالتفاف حوله ، كما فعل الالمان عندما التفوا حول خط ماجينو الفرنسي الاقل مناعة من خط بارليف . وكذلك فعل الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية عندما طوقوا خط سيجفريد الالماني دون اقتحامه.

ولكن لماذا عدم الالتفاف من راس العش ؟

هذا سؤال الح علي دائما وانا في الجبهة وسمعته من كثيرين . ان الاسرائيليين كانوا يحتلون شرق القناة حقا .. ولكن الحقيقة انهم لم يكونوا يحتلونها كاملة فقد كان هناك وجود مصري في الشرق ايضا .. على شريط يمتد من بور فؤاد حتى راس العش (حوالى ٩ كيلو مترات .

وبعد ذلك توجد « منطقة حرام » بين اول نقطة اسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة (النقطة عشرة كيلو ونصف) .

وبعد وقف القتال فييونيه ١٩٦٧ حاول الاسرائيليون في الشهر التالي (يوليو) القضاء على ذلك الوجود المصري في الشرق . وفشلوا كما بينا في الصفحات السابقة .

السؤال هو لماذا لم يبدا الهجوم المصري من ذلك الموقع المصري ؟

وعندما سألت المشير احمد اسماعيل هذا السؤال .. اكتشفت بعد لحظات انه سؤال ساذج .. فهذا الوجود المصري يشغل شريطا ضيقا لا يزيد عرضه عن ١٥٠ و ٢٠٠ متر .. اذ يقع شرقي ذلك الشريط بحيرة عريضة واسعة .. كما ان الارض في ذلك الشريط ارض سبخة لا تصلح لتحركات الدبابات ناهيك عن ان ضيق- الشريط يحول دون امكانية حشد اي قوات للقيام بهجوم ما .. بل انه اذا فرض وامكن حشد مثل تلك القوات فانها ستكون فريسة للمدفعية والطيران الاسرائيلي .

من ناحية اخرى أن ذلك يتناقض مع خطة القيادة التي سنراها بعد ذلك وهي مهاجمة الاسرائيليين على اوسع مدى في خط مواجهة شامل ..

اذن لم يكن ممكنا الهجوم او الالتفاف حول الاسرائيليين من ناحية راس العش كما فعل الالمان عندما التفوا حول خط ماجينو .

***

كيف يفكر العدو ويخطط ؟

اذا كانت القيادة المصرية قد حصلت على كل ما تريد تفصيلا عن تحصينات العدو واستعداداته المادية .

فانها ايضا .. كانت لديها الخبرة من حروب سابقة عن اسلوب العدو في التخطيط العسكري ..

ان العدو الاسرائيلي يعتمد في جيشه على **تعبئة الاحتياطي** ... فليس هناك جيش اسرائيلي عامل يبلغ تعداده ربع مليون جندي موجودين في كل وقت .. انما هناك جيش صغير نسبيا يمكن ان يصبح ربع مليون واكثر باعلان التعبئة .. ومعنى ذلك أن يترك الكثير من المدنيين اعمالهم ويلتحقوا بالجيش .

ومن هنا جاء ذلك الخليط الذي يبدو غريبا في الجيش الاسرائيلي .. جنود محامون واطباء ومديرون ومزارعون وطهاة وعمال فنادق وفلاحون في الكيبوتز .. و .. من كل المهن بجانب اعداد اقل من العسكريين العاملين المحترفين .

وهذا النظام له جوانبه الايجابية وجوانبه السلبية في نفس الوقت ..

★ **جانبه الايجابي** بالنسبة لبلد صغير كاسرائيل انه يقلل من عدد العاملين في القوات المسلحة ويركز « الاحتياطي » في الانتاج الصناعي والزراعي .

★ كما انه من ناحية اخرى يجعل الحرب وظيفة لمعظم المدنيين يؤدونها في الوقت الذي يطلب منهم فيتساوى بذلك جميع الناس في اداء تلك المهمة .

★ وهو يجعل المدنيين ايضا على علم بامور الحرب والتدرب على السلاح بحيث يمكن تجنيد معظم القادرين على القتال في الحرب في اي لحظة .

على ان لهذا النظام جوانبه السلبية ..

● يذكر العميد **حسن أبو سعده** مثلا ان الجندي الاسرائيلي الاحتياطي لديه نقطة ضعف انه انسان يتعلق بالحياة لارتباط معظم ايام حياته بالحياة المدنية . ومثل هذا التعلق بالحياة يحمل الحكومة مسئولية ان توفر له اشياء كثيرة تتطلب نفقات باهظة ابتداء من الجاكته التي تقي من الرصاص الى دروع الدبابة التي تحميه من هجمات الطيران .. والى جانب ذلك تدبير وسائل المعيشة المرفهة ومن هنا فان ذلك الجندي يقاتل ببراعة عندما تتوفر له مثل تلك الوقاية والرعاية .. فاذا ما جرد منها او من بعضها بدا عاجزا نسبيا .

ثم هو ايضا بارع اذا ما وجد عدوه الذي يواجهه مفككا مرتبكا .

● ولدى الجندي الاسرائيلي (قبل ٦ اكتوبر) ثقة هائلة في براعته

ازاء الجندي المصري .. وهذه الروح من الثقة اكتسبها من تجارب اسرائيل مع العرب في الحروب السابقة وكلها تجارب في الحقيقة كانت في غير صالح المقاتل المصري رغما عن انفه ..

ففي حرب ١٩٤٨ لم يتوفر لدى الجندي المصري سلاح مناسب بل كان السلاح ينفجر فيه هو (قضية الاسلحة الفاسدة الشهيرة) .

وفي حرب ١٩٥٦ رغم القوة العسكرية المصرية التي كانت متوفرة فان الجيش كله اعطى ظهره لاسرائيل واتجه الى القناة ليعبرها .

اما في حرب ١٩٦٧ فقد كانت هناك سلسلة من الاخطاء المروعة ادت الى الهزيمة النكراء ..

يقول اللواء محمد حسن غنيم مدير ادارة البحوث العسكرية بالقوات المسلحة :

ان الذكاء الاسرائيلي كان واضحا في حرب ١٩٦٧ وليس ١٩٧٣ .. كيف ؟

عندما احتشدت القوات المصرية في مايو ١٩٦٧ استطاع العدو ان يكتشف عدم استعداد تلك القوات للهجوم فعلا خصوصا ان ثمة قسما كبيرا من الجيش كان في اليمن .. فتأكد الاسرائيليون انها مجرد مظاهرة عسكرية .

وبينما كان العرب يصيحون سنحارب اسرائيل .. سنحارب .. سنلقي بهم في البحر .. كان الاسرائيليون يبدون امام العالم كأنهم المهددون بفتك الفيلان العرب من حولهم بهم .. بينما هم يستعدون للضرب ..

والاسرائيليون كانوا يحضرون للضربة الجوية طوال الاحد عشر عاما التي تلت عام ١٩٥٦ . ودرسوا كل الاهداف بدقة شديدة ..

وبعد الضربة الجوية المفاجئة حدث شلل فكري في القيادة العامة المصرية ثم الامر الشهير بالانسحاب .

ويمضي اللواء غنيم فيقول لي ..

انتهزت اسرائيل فرصة الفوضى التي حلت بالجيش نتيجة الامر بالانسحاب فطاردت الجيش اذ لم يكن هناك قتال بالمعنى الحقيقي الا في مواقع متفرقة وخلعت على نفسها أسطورة القوة التي لا تقهر .

والحقيقة انه في المناطق التي اتيح لقوات من الجيش المصري ان تقاتل الاسرائيليين الحقت بهم خسائر فادحة ان لم تكن قد هزمتهم .

ويضرب اللواء غنيم مثلا بتجربته الشخصية في الحرب (١٩٦٧) فهو احد المقاتلين في منطقة الكونتلا لمدة ٤٨ ساعة صمد خلالها الموقع لهجمات

اسرائيلية شرسة .. حتى اجبرت قوات الموقـع على الانسحاب بقـرار القيادة .

وكان ممكنا ان ينسحب الجيش المصري حتى المضايق الشهـيرة في سيناء ويثبت عندها في قتال عنيد لا يجدي في وقفه ضرب الطيران مهمـا طال امده واشتد قصفه .

واذا كان اللواء غنيم قد تحدث عن الجانب العسكري في اسباب هزيمة ١٩٦٧ . **فان ذلـك لا ينفي طبعا الجـذور السياسية والاجتماعيـة لهـذه الهزيمـة ..**

وقد اضطررنا الى الاستطراد والتوقـف بعض الوقـت عند حـرب ١٩٦٧ لاهميتها وارتباطها الوثيق بحرب ١٩٧٣ التي دخلناها ـ ولم ننتـه منها بعد ، لازالة آثار حرب ١٩٦٧ .

وعلى اي حال فكما قال لي المشير احمد اسماعيل علي القائد العام للقوات المسلحة ان هناك دراسة مستفيضـة لدى القوات المسلحة الان عن اسباب هزيمة ١٩٦٧ ودروسها التي استفاد منها الجيش في حرب ١٩٧٣ ..

ووعد المشير بان تنشر هذه الدراسة يوما مـا للجمهور عن طريـق وسائل الاعلام العادية .

* * *

نعود بعد ذلك الى موضوعنا الاصلي .. وهو ثقة الجندي الاسرائيلي بنفسه بالنسبة للجندي المصـري المستمدة من تجـارب الحروب الثـلاثة السابقة .. ان هذه الثقة كما تبينا لا تقوم على اساس موضوعي كامن فـي تربية وقدرات الجندي المصري الذاتيـة .

ولهذا فأن اكتشاف الجندي الاسرائيلي لعكس هذه الحقيقة يصيبـه بصدمة شديدة وتتجمع هذه الصدمة جنبا الى جنب احتياجه كجنـدي احتياطي للوقاية والرعاية معا .. فتقلل من امكانياته للقتال وتعطي فرصة للجندي المصري للتفوق عليـه .

علام يعتمد النظام العسكري الاسرائيلي ؟

هذا الجيش الاسرائيلي يقاتل وفقا لنمط عسكري معين .. يمكـن تحديده في النقاط التالية :

١ ـ التدرع : وهو ما سبق ان اشرنا اليه ان الجندي يقاتل محميـا في دبابة او سيارة مجنزرة . كما ان المدرعات تستطيع ان تقذف بكميات

هائلة من النيران ضد اهدافها من ابعاد مختلفة ومعتمدة على سرعة الحركة والقدرة على المناورة بدلا من المدفعية الثابتة .

ب ـ الاعتماد على طيران كثيف ومتفوق وذى مدى بعيد . ولا يعني التفوق في الطيران زيادة في عدد الطائرات فقط بل في مدى قدرتها على الطيران .. وحمولتها وكمية النار والصواريخ والامكانات الفنية للطائرة .

كما والاسرائيليون متفوقون في عدد الطيارين ايضا لانهم يستطيعون الحصول على طيارين يهود من كل انحاء العالم وخاصة امريكا . وهم طيارون مدربون جاهزون من حرب فيتنام ، ولا يتكبد الاسرائيليون مشقة في تدريبهم . يكتفون بمنحهم اجورا عالية ، والخزانة الامريكية وخزائن الصهيونية العالمية تدفع !.

اضف الى ذلك ان الاسرائيليين يملكون مجموعة من المطارات الممتازة التي انشأ معظمها الانجليز اثناء انتدابهم أو احتلالهم لفلسطين .

جـ ـ الاعتماد على التركيز ، اي توجيه قوات كثيفة ضد هدف معين او من اجل تحقيق مكسب اعلامي معين . وقد بدا ذلك واضحا في حرب الاستنزاف . ففي معركة الاغارة على نقطة الزعفرانه وجهت اسرائيل ١٥٠ جنديا باسلحة ضخمة وعدد من الطائرات ضد مجموعة قليلة من جنود الحدود .

ثم استحضرت رجال التليفزيون لتصور « احتلالها » لمنطقة في محافظة البحر الاحمر لاحداث الاثر النفسي والاعلامي المطلوب .

ويذكر الفريق سعد الشاذلي انه عندما بعثت به القيادة العامة للقوات المسلحة بعد غارة الزعفرانه تلك لجا الى اسلوب بسيط في مواجهة هذا « التركيز » الاسرائيلي .. فانشأ نقطا قوية متباعدة والغى النقط الضعيفة والدوريات الليلية .

وكانت النتيجة ان كف العدو عن تكرار مثل تلك الهجمات لانه كان يهاجم النقط الضعيفة فلا يجد فيها احدا .. اما النقط القوية فكان يخشى المغامرة بالهجوم المباشر عليها .

ولقد راينا بعد ذلك في سير حرب ١٩٧٣ كيف « ركز » العدو على منطقة الثغرة مضحيا بالخسائر مهما كانت لتحقيق هدفه .

د ـ اعداد قيادة عسكرية متمرسة في فن القتال وتجيد بالذات شن حرب الذعر والحرب الخاطفة . ولا ننسى ان اسرائيل وهي تجمع اناسا من شتات الارض وخصوصا من اوربا حيث خاض الكثير من اليهود الحرب العالمية الثانية سواء على جبهات القتال او « تحت الارض » .. قد جعل

من المؤسسة العسكرية الاسرائيلية مؤسسة عسكرية فعلا.. عملا لا قولا.. اذ تضم عسكريين محترفين مجربين ذوي خبرة .

هـ - ويعتمد النظام العسكري الاسرائيلي ايضا على جهاز مخابرات مركزي يثق فيه العسكريون ويعتمدون عليه اعتمادا بالغا .. حتى لان اية معلومات محدودة تلتقطها قيادة محلية من دورية مثلا .. تعتمد القيادة على ذلك المركز العلوي للمخابرات اكثر مما تعتمد عى نفسها .

(وقد افاد ذلك القيادة المصرية تماما .. اذ ان المخابرات الاسرائيلية المركزية كانت قد اتخذت قرارا بان مصر لا يمكن ان تشن حربا .. ومن هنا فان القادة المحليين لم يعتمدوا على تفسيراتهم هم للمعلومات التي كانت الدوريات الاسرائيلية على الضفة الشرقية تنقلها لهم عن تحركات الجيش المصري التي تنذر بقرب الهجوم . واكتفوا بتفسير مركز المخابرات انها تحركات لمجرد التدريب !) ..

و - واخيرا يعتمد النظام العسكري الاسرائيلي على اعداد مسرح العمليات العسكري والسياسي والاقتصادي اعدادا جيدا ومسبقا .

ويعني هذا ان التخطيط لاي معركة يجب ان يتم من جميع الزوايا سياسيا وعسكريا واعلاميا للاستفادة اقصى افادة من العمل العسكري .

كانت امام القيادة المصرية دراسات مختلفة تتضمن هذه العناصر الرئيسية للنظام العسكري الاسرائيلي بتفاصيل كثيرة مستمدة لا من تجارب الحروب السابقة فقط وانما من معلومات دوريت الاستطلاع المصرية ومن المعلومات التي حصلت عليها القيادة من الاسرى الاسرائيليين في حرب الاستنزاف .

وكان بوسع القيادة المصرية ان تضع عنصرا اخر مواتيا لها بجانب تلك الخبرة بالاسلوب العسكري للعدو .. وهو عنصر **الغرور الاسرائيلي** .

ان تقارير الاستطلاع امام القيادة العامة للقوات المسلحة كانت تكشف عن حقائق غريبة تؤكد ان الغرور الاسرائيلي وصل الى مرحلة « تنذر بالخطر » - على الاسرائيليين طبعا - بل الى حد الاستهانة ..

● مثلا خلال السنتين قبل ٦ اكتوبر ١٩٧٣ لم يفتش الاسرائيليون على موسير النابالم ليتأكدوا انها سليمة وصالحة للاستعمال . ولم يحدث التحرك للتفتيش الا قبل الحرب بساعات .. واسر المهندس الذي كان قد جاء للتفتيش بعد فترة وجيزة من بدء القتال !

● ان الاسرائيليين قد قاموا بعدد قليل من المناورات المخصصة

« للرد » على اي هجوم مصري مما يوحي بانهم ما توقعوا قط مثل ذلك الهجـوم .

● رغم علم الاسرائيليين بتطور الاسلحة المصرية ظلوا يعتمدون على اسلوب الدفاع المتحرك .

واسلوب الدفاع المتحرك يعتمد على احتياطيات عسكرية موجودة في الخلف يحركها الى الامام في حالة الهجوم معتمدا على حماية الطيران .

ولم يضع الاسرائيليون في حسابهم ماذا يمكن ان يحدث اذا اقتربوا من شبكة الصواريخ المصرية اذا ما عمدوا الى ذلك الدفاع المتحرك .. ولم يعملوا حسابا لصائدي الدبابات .

● ان الاسرائيليين تصوروا في البداية انهم قادرون على ضـرب الجيش المصري اذا ما نجح في العبور .. ضربة قاصمة .

● ظل الاسرائيليون في خططهم يعتمدون على الحرب الخاطفة ، واذا كان الغرور الاسرائيلي نتيجة انتصاراتهم السابقة قد دعم هذه النظريـة لديهم فان الضرورة الاقتصادية في الحقيقة تحتم عليهم الاعتماد على ذلك النوع من الحرب .

اذ لا بد للاسرائيليين من انهاء الحرب بسرعة قبل تدخل قوى خارجية او تدخل الدول العربية ذاتها .

كما ان التعبئة العامة تضعف الاقتصاد كما بينا من قبل .

نقاط الضعف في هذا النظام :

ان النظام العسكري الاسرائيلي يصلح في حالة اذا ما كـان في يـد اسرائيل المبادأة .. والمبادأة بالذات امام خصم غافل او غير مستعد .

والمبادأة لا تعني فقط توجيه الضربة الاولى .. فليس كل من يضرب الضربة الاولى يكسب الحرب .. فقد كانت المانيا واليابان اول من بـدأ بالضربة الاولى في الحرب العالمية الثانية .. ومع ذلك هزمتا شر هزيمـة رغم الخسـائر الهائلة التي احاقت بمن اصابتهم الضربة الاولى ..

ولو اننا في مصر عام ١٩٦٧ بدانا بالضربة الاولى لهزمنـا ايضا شر هزيمة . ولكان وضعنا دوليا اسوأ .. فما كنا سنجد الطائرات الاسرائيلية جاثمة على الارض « تقول » الا من يضربني !!..

ان المبادأة لا تعني توجيه الضربة الاولى فقط بل تعني القـدرة على الاستمرار في المبادأة نتيجـة للاستعداد وللتدريـب الطويل واعداد مسرح العمليات جيدا .. وعدم فقد التوازن .

وسنرى فيما بعد عندما نناقش لماذا لم يبـدأ الاسرائيليون بالضربـة

الاولى .. ان القيادة الاسرائيلية قد خشيت ـ وكانت على حق في خشيتها ـ من بدء الحرب ..

اذن لو سلبت اسرائيل المبادأة .. ولو كان من يواجهها ليس خصما غافلا .. واخذ بيده هو زمام المبادأة .. اذن لأصيب النظام العسكري الاسرائيلي بضربة في الصميم .

الامر الثاني ان اعتماد اسرائيل على التفوق الجوي لتعطيل القوات الزاحفة ريثما تجيء قوات الاحتياطي من المؤخرة (نظرية الدفاع المتحرك) نقطة ضعف خطيرة اذا كان الخصم يملك ما يشل به فاعلية ذلك التفوق الجوي .

والامر الثالث .. ان ذلك « الدفاع المتحرك » الذي يعتمد ايضا على القوات الاحتياطية في الخلف يمكن شل فاعليته نسبيا او تعطيله بقوات قليلة من صائدي الدبابات مثلا ..

والامر الرابع ان نظام التعبئة العسكرية الذي يجبر الاسرائيليين على ارسال قواتهم من داخل اسرائيل حتى القناة على طول ٢٠٠ او ٢٥٠ كيلو مترا يعرض تلك القوات لان تضرب بالطيران المصري ..

والامر الخامس انه لو استطاع العرب ان يستمروا في الحرب مدة طويلة لامكنهم تحقيق :

ـ ارهاق الاقتصاد الاسرائيلي ..

ـ استكمال الاشتراك العربي الشامل في المعركة .

ـ اعطاء الفرصة لقوى دولية صديقة للتدخل والضغط على الاسرائيليين .

***

ان ست سنوات من الدراسة والاستعداد لم تضع هباء .. فها هو كل شيء قد توافر امام القيادة المصرية عن قوة العدو المادية .. واسلوبه العسكري .. وتفكيره ومعنويات قواته .. ولم يبق الا رسم الخطة لمواجهة هذه المشاكل جميعا ..

« ست سنوات ونحن نتعرض لحرب نفسية ، كل من مواطنينا يلقي اللوم والمسئولية علينا في هزيمة ١٩٦٧ .. وكل منا يشعر انه لم يكن له ذنب فيما جرى .

عام ١٩٦٧ كانت القيادة داخلة الحرب بهدف التهويش .. مجرد خطة سياسية لا يسندها اي تخطيط عسكري علمي .. كان الهدف الضحك على العدو !

وكان هناك تعدد في القيادات والمسئوليات .

كنا ننتظر اليوم الذي نوضح لاهلنا اننا لم نكن مذنبين .. واننا رجال ومقاتلون اشداء ..

لذلك كانت لهفتنا الى يوم ظهور الضوء الاخضر .. بالوثوب .. بالهجوم » .

محدثي هو اللواء فؤاد عزيز قائد الجيش الثاني وقائد الفرقة التي احتلت القنطرة شرق عاصمة سيناء ..

وهو بهذه العبارات يكشف الحال المعنوية والنفسية لضباط الجيش المصري جميعا .. لقد كانوا يشعرون ان ذاتهم لم تحقق عام ١٩٦٧ .. وان الفكرة التي اورثتها الهزيمة في ذاك العام قد اخفت حقيقة براعة العسكرية المصرية بل طمستها وشوهتها ..

نحن اذن بصدد قيادة جديدة للجيش من القمة الى القاعدة .. وكانت اولى مهام تلك القيادة استعدادا لمواجهة العدو هي ان تنقل معنوياتها العالية الى الجنود .. وكان بعض هؤلاء القادة من الضباط الذين اضطهدوا من قبل وسجنوا او « ركنوا » مثل اللواء يوسف عفيفي قائد الفرقة ١٩ في المعركة واللواء احمد بدوي قائد الجيش الثالث وغيرهما ..

وللمرء ان يتصور كم يكون الحافز قويا عند مثل هؤلاء القادة لكي يؤكدوا ويثبتوا قدراتهم وحماسهم كتأكيد للاجحاف الذي احاق بهم ..

الروح المعنوية :

ولقد اشعل اللواء يوسف عفيفي نيران الحماسة في رجال فرقته معتمدا على العاطفة الدينية ..

كان يضرب لهم الامثلةالتاريخية عن بطولات رجال الاسلام وشجاعتهم في مواجهة العدو .. واستشهادهم في سبيل القضية ..

ويحدثهم عن الاحاديث النبوية المتعلقة بالحرب مثل « الا ان القوة الرمي .. ان اباكم اسماعيل كان راميا ..

ثم يضرب لهم امثلة من التاريخ المجيد للعسكرية المصرية .. وبراعة الجندي المصري في حروب محمد علي .. وغيرها ..

بل انه وضع شعارا من حديث نبوي في مراكز الفرقة المختلفة « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فهم خير اجناد الارض » ..

وعلى طول الجيش المصري عمد القادة الى تعزيز روح التعاون بـين الضباط والجنود .. لما لذلك من اثر في تقوية معنوية الجندي في الاندفاع نحو قتال العدو .. وقد زالت الفوارق المصطنعة بين القيادة والقاعدة ..

في احدى مناورات التدريب التي حضرتها اصيب جندي بضربة من قاعدة مدفع في ساقه واغمي على الجندي .

فانحنى ضابط عليه وخلع حذاءه واخذ في تدليك قدمه وساقه .. افاق الجندي ورأى ضابطه يدلك القدم والساق .

صاح الجندي في تاثر .

مش معقول يا افندم

بعد ذلك قال الاطباء الذين عالجوا الجندي ان مبادرة الضابط لتدليك الساق والقدم قد تسببت في عدم حدوث جلطة للجندي « فالضابط بخلعه حذاء الجندي رفع معنويته بحيث تفتحت الشعيرات الدموية وحالت دون حدوث جلطة في الساق ... »

هذه الحادثة وامثالها اكثر فاعلية في رفع الروح المعنوية بين الجنود من عشرات الخطب ..

ولم يكن تعزيز التعاون بين الضباط والجنود يتأتى ايضا الا بان يضرب الضباط المثل بالقدوة الحسنة دائما سواء في التدريب الشاق او الاجازات او المأكل او اخذ النفس بالشدة ..

ان هناك مئات التفاصيل التي تحدث في الحياة اليومية والتدريبية للجيش .. وتبدو غير ذات اهمية ولكنها في الواقع ذات اهمية كبيرة .. اذ تشكل اللبنات لبناء معنويات الجنود .. الشرط الاساسي للمقاتل خلف السلاح ايا كان نوعه .

خذ عندك مثلا زيارة الرئيس انور السادات المتكـررة للجبهـة .. وزيارة القائد العام للقوات المسلحة .. ورئيس الاركان . ولقاءاتهم بالجنود .. والتحدث اليهم والاستماع الى مشاكلهم .. وتناول الطعام معهم .. كان لهذا كله اثر السحر في رفع معنوياتهم ..

اما الضباط والقادة المحليون .. فقد ركزت القيادة العليا على مبـدأ اشراكهم في وضـع الخطط وتنمية الاستقـلال الذاتـي والمبادرة الفردية عندهـم ..

حكى لي اللواء فؤاد عزيز ان اللواء سعد مأمون بعث له مرة بخطة .. ولكنه ابدى ملاحظاته عليها ٪. وعرض الامر على القائد العام المشير احمد اسماعيل .. فقال .. « دعوه يتحـرك كما يريـد .. » . « تصور بقى تبقى معنويتي شكلها ايه ؟ » ..

التخطيط غير النمطي والتدريب :

كان على القيادة المصرية كي تحقق العبور واقتحام خط بارليف ان تلجأ الى اسلوب جديد للتخطيط والتغلب على العقبات غير الاساليب الاكاديمية .. ومن هنا كان لا بد من ابتكار وسائل جديدة ومعدات جديدة..

مثلا الساتر الترابي ..

ان الاساليب المعتادة هي فتح الثغرات فيه عن طريق النسف بالمتفجرات ..

ولكن اذا استخدمت المفرقعات فمعنى ذلك ان دائرة تاثيرها ستمتد الى حوالى ١٠٠ او ٢٠٠ متر حولها .. ويعني ذلك انها منطقة يجب اخلاؤها من الجنود .. وهذا يعطل العبور .. علاوة على انه يثير ارتباكا على طول خط المواجهة فلا احد سيعرف اية مفرقعات تلك التي « تفرقع » .. هل هي للعدو .. ام لنا .. ولم يكن بد من ان تقيم القيادة سواتر ترابية مثيلة للساتر الترابي غرب القناة في اماكن متفرقة من الجمهورية لاجراء التجارب عليها ..

وجربت القيادة صواريخ ارض ـ ارض .. وقنابل الطائرات لفتح ثغرات في تلك السدود الترابية .

ولم تقل عدد مرات كل تجربة عن عشرين مرة درست نتائجها بعناية كاملة ..

حتى نبتت فكرة استخدام طلمبات المياه ، فقد كان بناة السد العالي يستخدمون تلك الطلمبات لتجريف الرمال بين الصخور في السد الركامي.

جرب سلاح المهندسين الطلمبة في احد السدود الترابية الصناعية .. لكن حجمها كان كبيرا .. وتحتاج الى محطة لتوليد الكهرباء من الوزن الثقيل .. اي ان الاثنين هدف سهل للقصف سواء بالمدفعية او بالطيران ..

اضف الى ذلك ان عملية نقلها الى البر الشرقي للقناة عملية صعبة في لحظات عصيبة تتطلب نقل ما خف حمله وعظم اثره .

جربت طلمبات روسية فلم تجد .

وجربت طلمبات انجليزية فاعطت نتائج جيدة لكن عملية فتح ثغرة في الجسر في ظرف ٥ ساعات تحتاج الى ست طلمبات في مكان واحد ..

ويعني هذا تزاحما يعرض لخسائر كبيرة .

حتى امكن تعديل طلمبة المانية تعطي ٢٤٠ متر مكعب في الساعة ومجهزة بمدفع للمياه .. وكان ذلك يعني فتح ثغرة في الساتر بطلمبتين فقط ..

وبالتجربة كانت طلمبتان تعملان .. وواحدة خلفهما احتياطي .

وقل بذلك عدد الافراد .. ونجحت التجربة لفتح الثغرة في اربع او خمس ساعات ..

وبعد هذه الخطوة كان لزاما تدريب الطاقم الذي سيفتح الثغرة مع الطاقم **الذي** «سينصب» **الكبري** حتى يصبح الطاقمان طاقما واحدا ..

وظل التدريب مستمرا عامين حتى اتقن كل فرد في الطاقم الموحد دوره .. وعرف المنطقة التي سيقوم فيها بدوره ..

علاوة على ان مثل هذا التدريب قد أوجد تعارفا وروحا من الزمالة بين المهندسين ومكنهم من اكتشاف قدرات بعضهم البعض ..

اما الكباري .. فلما لم يكن لدى مصر العدد الكافي من الكباري المطلوبة .. بالاضافة الى معدات العبور الاخرى فان مصانعنا استطاعت ان تصنع ٥٠ ٪ من الكباري اللازمة للعبور .. ولكي نتبين اهمية ذلك فان ثمن الكوبري مليون ونصف مليون جنيه . وهناك كباري يستخدمها حلف الاطلنطي ثمن الواحد منها ستة ملايين جنيه وتركب في ١٢ دقيقة !

وكونت اطقم من الذين يركبون الكباري مكونة من جنود وصف ضباط وضباط .. وتدربت على العملية شهورا طويلة حتى اصبح من السهل عليها ان تنفذ العملية في أسرع وقت وفي اي وقت . وكانت تلك الاطقم تعلم انه اذا لم تركب الكباري فلن تعبر الدبابات ومعنى ذلك هلاك قوات العبور . وانه اذن عليها أن تنتهي من التركيب في ساعات قليلة ..

ولما كان من المحتم التخلص من عقبة الاعمدة او السواتر الحديدية على حافة مياه القناة.. فقد عمد الجيش الى حيلة بسيطة وهي ملء الحافة بالردم حتى مستوى تلك السواتر حتى يمكن تركيب الكباري ..

اما الدبش .. فقد كان على الطلمبات ان تخلخله من مكانه ليسهل نزعه . واذا كان الساتر الترابي على الضفة الشرقية كان عاملا مساعدا لحماية الاسرائيليين وستر تحركاتهم .. فان القيادة المصرية كان عليها ان تقيم مصاطب للدبابات والمدفعية المصرية عالية بحيث تستطيع ان ترى وتصيب ما وراء ذلك الساتر الترابي المرتفع على الضفة الشرقية ، فاستفادت من اكداس التراب الناتجة من تطهير القناة ايضا ..

واقامت سدا ترابيا أجرت عليه مناورات اختراق له ايضا ..

معدات الجنود : بعد هذا كان لا بد من تحديد المعدات التي سيحملها

الجنود الذين سيعبرون القناة ويقتحمون خط بارليف ..وهم سيواجهون مشكلة تسلق السد الترابي .

وكان على الجندي ان يحمل مدفعا وزنه ٨٥ كيلوجراما مثلا فكيف يعرف نقطة التوازن فيه بحيث يصبح هو والمدفع قطعة واحدة ؟

كيف يصعد جندي ساترا ارتفاعه ما بين ١٠ و ٢٠مترا .. وهو يحمل صواريخ « ميلوتكا » والآر . ب . ج . والقنابل المضادة للدبابات .. والبندقية العادية .. والالغام ..والمدافع المضادة للدبابات ؟..

كيف يحمل هذا كله ويتسلق الساتر دون حبال ؟..

واخترعت القريحة المصرية عربات اشبه بعربات « البطاطا » تحمل هذا العتاد .. ويجرها الجندي وهو يصعد .. بينما بعض الجنود كانوا يحملون عتادهم على ظهورهم ..

لقد اجريت تجارب عديدة .. وتدرب الوف الجنود على عمليات العبور والتسلق هذه .. واجريت منافسات وسباقات للوصول الى الرقم القياسي في سرعة الصعود ..

بناء حصون : ولم تكن مهمة الجندي ان يحمل اثقاله .. ويصعد الساتر الترابي فقط .. بل مهمته ان يقتحم حصون بارليف ويقاتل من فيها .. ويستولي عليها .. ولقد اقيمت نقط حصينة تشابه تماما حصون خط بارليف بعد ان تجمعت المعلومات من دوريات الاستطلاع .. وتكلفت هذه الحصون ملايين الجنيهات .. لتدريب الجنود عليها ..

وهكذا لم يقتصر الامر على نقل عشرين مليون متر مكعب من الاحجار والتراب لاقامة السد الترابي ومصاطب الدبابات (الهرم الاكبر احتاج الى مليوني متر فقط) بل الى هذه الملايين لاقامة قلاع لمجرد التدريب ..

وكي يتعلم الجندي القتال في كل الظروف دربوه على القتال الليلي .. وفك السلاح وتعميره في الظلام الدامس ..

التمويه والخداع العسكري :

اذا كانت القيادة السياسية قد برعت في رسم خطة للتمويه السياسي خدعت بها العدو واعمت عينيه عن ساعة الصفر ..

فان القيادة قد برعت ايضا في رسم واحدة من اعظم خطط الخداع العسكرية في تاريخ الحروب .. بل ربما كانت اعظمها على الاطلاق ..

ففي عصر اقمار التجسس الصناعية التي تستطيع رصد علبة سجاير ملقاة على الارض وتحديد نوع تلك السجاير .. وفي عصر ادوات الرصد

والتنصت الاليكترونية.. ناهيك عن الوسائل الكلاسيكية كدوريات الاستطلاع وطائرات الاستكشاف والجواسيس والعملاء .. الخ ..

في هذا العصر يصعب تماما عدم اكتشاف استعداد جيش ما للهجوم على جيش اخر ..

ومع ذلك حدث ذلك في اكتوبر ١٩٧٣ .. ونجح جيش بلد نام هي مصر .. في خداع جيش بلد يزعم الانتماء الى اوربا الاكثر تقدما .. والذي تضع اقوى مخابرات العالم الغربية (والامريكية بالذات) معلوماتها واجهزتها تحت تصرفه ..

ان الضفة الغربية للقناة مفتوحة .. وهي ارض منبسطة .. وكل مصر ارض منبسطة .. ليست هناك جبال او وديان او غابات يمكن اخفاء تحركات القوات فيها ..

فكيف اذن يمكن اعداد جيش « لجب » ـ كما يقولون ـ ثم تحريكه للوثوب على العدو .. الذي يبعد عنه بمائتي متر فقط .. دون ان يتوقع ذلك العدو مثل ذلك الهجوم .. وفي رائعة النهار ؟!

اننا لا نستطيع الفصل بين خطة التمويه السياسي وخطه التمويه العسكري .. ان خطة التمويه السياسي لا شك ساعدت على انجاح خطة التمويه العسكري .. بل يمكن القول دون خوف من الوقوع في مبالغة ان خطة التمويه السياسي كانت القاعدة التي ارتكزت عليها خطة التمويه العسكري ..

ان التمويه العسكري كان يستهدف مفاجأة العدو .. ان نضربه الضربة الاولى ونستفيد بمزاياها .. ان نحول دون ان يأخذ هو زمام المبادأة ويضرب الضربة الاولى ..

وقد بينا في الصفحات السابقة انه حتى لو ضرب الاسرائيليون اولا هذه المرة فلن تتكرر قط مأساة ١٩٦٧ ..

لكن مع ذلك فان للمفاجأة مزاياها .

واتخذ التمويه العسكري اشكالا مختلفة ..

● اكثرت القيادة من اجراء المناورات العسكرية لمختلف اسلحة الجيش وكثير من تلك المناورات كان يجري في منطقة القناة نفسها ، حتى يتعود العدو على عمليات الحشد والاستعداد العسكري للجيش .. ويسمي العسكريون ذلك بالخداع التعبوي الاستراتيجي والتكتيكي .

وكانت الصحف تنشر اخبار تلك المناورات وصور القائد الاعلى للقوات المسلحة يشاهدها مع كبار القادة بالمناظير المكبرة .. ثم تمر الايام

ولا تحدث حرب .. فيضحك الاسرائيليون من « عجز » الجيش المصري عن القيام بشيء غير المظاهرات الاستعراضية .

● ولما كان للسلاح البحري دور كبير في الخطة فان عملية خداع كبيرة قد دبرت .. فبدا ان مدمرات الاسطول المصري تقوم بزيارات ودية لعدد من الموانيء كما ان بعضها سيتم اصلاحه في موانيء بلاد صديقة .

وتم شحن سفن الاسطول بالذخائر تحت ستار القيام بمناورات روتينية وهكذا .

● فوق مصاطب الدبابات التي اقامتها القوات المسلحة على الضفة الغربية للقناة كانت تقبع فوقها الدبابات اياما ثم تسحب وتعود فتصعد .. ثم تسحب وكذلك بالنسبة للمدفعية ..

وظلت تلك اللعبة مستمرة زهاء عام حتى تعود الاسرائيليون على وجود الدبابات والمدافع واخفائها وعودتها ..

وكان الهدف طبعا من وجودها هو حماية قواتنا اثناء العبور بضرب مواقع العدو الخلفية .

● ولتبرير اقامة كباري العبور ، كانت عربات الجيش تنقل الكباري من مناطق الدلتا الى القناة .. ثم تعود بعد ايام لتعيدها الى تلك المواقع .. وقبل العبور بفترة كافية كانت تترك بعضها في منطقة القناة .. وتعود ناقلة عددا منها فقط وهكذا ..

● وكما فعل الاسرائيليون عام ١٩٦٧ عندما اعلنوا عن منح جنودهم اجازات قبل بدء القتال باربع وعشرين ساعة .. اعلن الجيش المصري عن تسريح فرق من الاحتياطي بعد استدعائها قبل بدء القتال بيومين .. بل سبق ذلك بشهور اشاعات كثيرة عن تسريح دفعات باسرها من الجيش .

● ولم ينس الجيش الاعلان عن السماح للضباط بأداء العمرة في الاراضي الحجازية هذا العام وفتح باب قبول طلباتهم وتقدم الكثيرون فعلا ..

● ولما كان الاسرائيليون لا يتوقعون ان يشن المصريون حربا في شهر رمضان باعتباره شهرا للصوم والعبادة والبهجة ايضا .. فقد كان اختيار يوم من ايامه عاملا مساعدا لتاكيد المفاجاة .. هذا طبعا بجانب ان يوم ١٠ رمضان هذا (٦ اكتوبر) كان يتفق تماما مع ظروف مواتية من الناحية العلمية فقد كان يوما ذا ليلة مقمرة كما ان تيار المياه في القناة حسب الاحصاءات والدراسات الخاصة بهيئة قناة السويس كان مناسبا للعبور وتركيب الكباري .

★ واختارت القيادة يوم عيد الغفران الاسرائيلي للاستفادة من حالة الارتخاء العامة التي تشمل الناس في الاعياد ..

● ولكن الاهم من ذلك هو تحديد ساعة الصفر في الثانية بعد الظهر. وهو موعد غريب حقا في بدء المعارك الحربية .

لقد كانت ساعة الصفر في الخطة الاصلية مغرب يوم السبت ٦ اكتوبر .. ولكن القيادة المصرية في آخر لحظة قدمت الموعد الى الثانية بعد الظهر .. وكان ذلك فطنة وذكاء من القيادة حتى اذا ما كان الموعد القديم قد تسرب لاي سبب فلن يسهل تسريب الموعد الجديد في مثل تلك الفترة القصيرة ..

وقد تبين بعد ذلك بعد نظر القيادة المصرية اذ اتضح ان الاسرائيليين خمنوا بالموعد القديم .. وبنوا استعداداتهم كلها للاقاة الهجوم المصري مساء السبت فجاءهم الهجوم بعد الظهر بقليل .. وكانت تلك ساعات ثمينة جدا في صالح المهاجم المصري .

★ ولا بد من الاعتراف الان بأننا عمدنا ايضا الى نفس سلاح الاسرائيليين في حرب ١٩٦٧ . عندما زعموا ان العرب هم الذين بدءوا بالحرب .. لقد كان المخطط المصري ذكيا عندما وضع في الاعتبار رد فعل الرأي العام العالمي .. فاعلن ان الاسرائيليين قد اعتدوا على القوات المصرية في الزعفرانة والسخنة (حيث لا يوجد مراقبون للامم المتحدة) .

ان مصر لا تحتاج الى اذن من احد لتحديد ساعة الصفر لبدء عملية تحرير ترابها الوطني .. والوجود الاسرائيلي منذ ٥ يونيه في سيناء والجولان وغزة والضفة الغربية عدوان مستمر على الشعوب العربية جميعا ..

ولكن للاعتبارات الدبلوماسية الشكلية مكانها .. وليس هناك من بأس ان تراعى مثل تلك الاعتبارات ..

★ وقد عمدت القيادة المصرية الى مجموعة من الحيل للتمويه على قوات العدو التي ترى وتراقب كل شيء على بعد عشرات الامتار ..

مثلا رغم انه قبل بدء الهجوم بساعات قليلة كان الجنود اللذين سيهاجمون قد انتشروا على طول القناة (١٧٥ كيلومترا) .. ولاخفاء نية الهجوم وموعده صدرت الاوامر بنزول عدد من هؤلاء الجنو للاستحمام في مياهها .. كما كان يحدث في معظم الايام .

واستمر هؤلاء الجنود « يبلبطون » في مياه القناة حتى بدأ ضرب المدفعية !

★ كما صدرت الاوامر بجلوس بعض الجنود فوق الساتر الترابي الغربي بجانب مصاطب المدفعية ومرابض الدبابات ومهمتهم مص القصب واكل البرتقال ورمي قشره في اتجاه القناة حتى يراه الاسرائيليون جيدا !..

ان جيشا يمص القصب ويقشر البرتقال لهو جيش يتشمس ولا يمكن ان يكون على وشك الهجوم بعد ساعة .

وقد ظلت عملية مص القصب والبرتقال .. مستمرة حتى بدا العبور

★ وصدرت الاوامر للجنود بتحريم ارتداء خوذاتهم قبل العبور بساعات . لان لموشى ديان قولة ساخرة من الجيش المصري « اننا نعرف ان اعلان حالة التأهب في الجيش المصري لا تعني اكثر من ارتداء الخوذة !.. »

★ واستطاع الخبراء المصريون تدريب الجنود على نفخ القوارب المطاطية دون ان يحدثوا صوتا يسمعه العدو .

★ وبالمنطقة تعمل عدة شركات ومؤسسات مدنية للمقاولات كان على القوات المسلحة ان تستبقيها بآلاتها وعمالها لآخر لحظة .. حتى لا يشك العدو عندما يرى الميدان وقد اخلى فجأة من « بولدوزرات » عثمان احمد عثمان الشهيرة !

وقد ظل العمال والمهندسون المدنيون يعملون في ثبات حتى بعد ضرب نيران المدفعية المصرية وادراكهم ان الحرب قد بدأت .. لقد كانوا شعلات من الحماسة .. وحاول بعضهم من فرط حماسه ان يعبر مع القوات المحاربة !

★ وقبل العبور بأيام قليلة حدثت اكبر خدعة للعدو .. فقد قام عدد من جنود الصاعقة بعمليات عبور يهاجمون فيها مواقع العدو بينما كان البعض الاخر يفسد في هدوء وبراعة خزانات النابالم .. وانابيبه تحت مياه القناة واسفل السد الترابي نفسه .. دون ان يتصور العدو ان هذا هو الهدف الحقيقي من تلك الهجمات المباغتة .

وكانت مفاجأة كبيرة للعدو يوم ٦ اكتوبر عندما وجد تلك الخزانات والصنابير عاجزة عن العمل .. وجاء المهندسون لاصلاحها .

واسرت القوات المصرية بعض هؤلاء المهندسين وهم يؤدون مهمتهم !

★ ثم كان هناك التمويه الاكبر ، فبرغم ان هدف القيادة المصرية كان اقامة خمس رؤوس كباري فقط في مواقع مختلفة على الشاطىء الشرقي للقناة .. الا انها نشرت هجوما شاملا على طول القناة كلها .. بهدف خداع العدو عن محاور التركيز .. واثارة الارتباك في رد الفعل عنده .. لا يدري اين يركز في الضرب كما حدث فعلا مما سنقرؤه في فصول تالية ..

لقد شهدت غرفة العمليات المصرية مناقشات طويلة لم تهمل فيهـا تفاصيل التفاصيل ..

ولذلك جاءت الخطة محكمة مائة في المائة.. وجاءت نتائج تطبيقها بما لم يتوقعه الذين وضعت ضدهم .. ولا حتى الذين وضعوها ..

ولقد كان محقا ذلك الضابط الاسرائيلي الكبيرالذي قلنا انه صـرح لمراسل النيوزويك في تل ابيب : اعتقد ان المخابرات الاسرائيلية قد علمت منذ اسابيع بالاستعدادات المصرية .. ولكنهم هناك لم يستطيعوا استنباط الاستنتاجات الحقيقية .. من قبل كنا يقظين الى درجة تجاهل صيحـة الذئب .. حتى عضنا الذئب هذه المرة !

٤

لماذا لم يبدأ الاسرائيليون بالهجوم؟

● **كيف عض « الذئب » الاسرائيليين كما قال قائلهم لمراسل النيوزويك في تل ابيب ؟.. ولماذا لم يبدءوا هم بالعض ؟..**

في ١٤ سبتمبر ١٩٧٣ رن جرس التليفون في مكتب الرئيس انور السادات .. وكان المتكلم على الطرف الاخر من الخط الرئيس حافظ الاسد ..

امس فقط .. كانت المعركة الجوية الشهيرة بين الطائرات السورية والطائرات الاسرائيلية .

كانت هناك اربعة طائرات أسرائيلية قد اخترقت المجال الجوي السوري .. فخرجت لها طائرات الميج السورية تتصدى لها .. وفجاة ظهر ان هناك كمينا اسرائيليا .. عدد كبير من الطائرات هاجمت الطائرات المتصدية .. وكانت معركة جوية عنيفة خسر فيها سلاح الطيران السوري خسارة كبيرة ..

لقد كان الهدف واضحا .. هو تحطيم ثقة العرب في انفسهم .. فلم يَكن الكمين الاسرائيلي غير حلقة من سلسلة متصلة من الحلقات من الاعتداءات الاسرائيلية التي تهدف الى تأكيد التفوق الاسرائيلي لقمع اي اتجاه يدور في راس اي قائد عربي لشن حرب تحريرية ضد الاحتلال الاسرائيلي .. نوع من العربدة الاسرائيلية على حد تعبير الرئيس السادات ..

ولكن الكمين الاسرائيلي اتى بنتائج عكسية تماما .. اذ ان حافظ

الاسد في مكالمته التليفونية مع السادات كان يؤكد على ضرورة الاسراع بعملية الشرارة .

ودعا الرئيس السادات الى اجتماع عاجل حضره الفريق احمد اسماعيل .. الفريق سعد الشاذلي رئيس هيئة الاركان .. اللواء عبد الغني الجمسي رئيس غرفة العمليات .. واللواء عمر جوهر مدير ادارة التسليح واللواء محمد علي فهمي قائد قوة الدفاع الجوي واللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية واللواء علي محمود قائد سلاح المهندسين حينذاك .. ومع هؤلاء اجتمع عشرة ضباط اخرين .

وفي هذا الاجتماع اصدر السادات تعليماته بتنفيذ العملية « بدر » ومنذ تلك اللحظة بدأ العد التنازلي للمعركة ..

* * *

في صباح اول اكتوبر .. وكان يوم اثنين .. بدأت الدبابات والمدفعية السورية الثقيلة تتحرك من الخطوط الخلفية في جبهة الجولان الى الامام وجها لوجه مع المواقع الاسرائيلية .

وعلى طول خط القناة كانت نقاط الملاحظة الاسرائيلية تلاحظ تحرك القوات المصرية من الخلف الى الامام ايضا .

ولكن نقاط الملاحظة الاسرائيلية في جبل الشيخ التي تستطيع ان ترى الى مدى بعيد عبر الطرق المؤدية الى دمشق ذاتها .. لاحظت ان الدبابات السورية المتحركة انما تتحرك في هيئة تشكيلات دفاعية وليست هجومية .. انه يبدو ان السوريين يستعدون لصد هجوم اسرائيلي يتوقعونه .. لا ان يقوموا هم بهجوم ..

حتى المدفعية السورية المتوسطة المدى كانت مركزة بطريقة تضمن ان يكون مداها في حدود حماية الاراضي السورية وليس ضرب الاراضي الاسرائيلية .

ولقد كان ثمة حشود من القوات السورية على الحدود الاردنية .. ولاحظ الاسرائيليون ان السوريين قد سحبوها واتوا بها الى الجولان .

وفسر الاسرائيليون هذا « النقل » باعتباره بادرة « حسن نية » من جانب السوريين ازاء الاردن التي حل نوع من الانفراج والتحسن في العلاقات معها اخيرا باتفاق مع القاهرة ..

في يوم ٢ اكتوبر دعت سوريا الاحتياطي للالتحاق بالجيش بينما

لاحظ مراقبو الامم المتحدة تحركات للقوات المصرية وخاصة بين الضباط وتشكيلاتهم .

وفي ٣ اكتوبر وهو يوم الاربعاء الذي يجتمع فيه مجلس الوزراء المصري عادة اذيع بيان عن موضوع الاجتماع مؤداه ان المجلس بحث مسالة الوحدة والتعاون مع ليبيا .

***

ظهر يوم الخميس ٤ اكتوبر عقد مجلس **هيئة المخابرات المركزية الامريكية** جلسة سرية في مقر الهيئة في لانجلي بولاية فرجينيا .. وكان الموضوع الوحيد المطروح امام المجتمعين .. هو الاجابة على سؤال واحد **هل ستنشب الحرب في الشرق الاوسط ؟**

لقد كان كيسنجر وزير الخارجية الامريكي يسال المخابرات المركزية كل يوم نفس السؤال .. وكانت تصله اولا باول المعلومات عن تحركات القوات المصرية والسورية على جبهتي القناة والجولان ..

وكان امام اجتماع لانجلي معلومات جديدة .. منها ان الاتحاد السوفيتي قد اطلق قمرا صناعيا للتجسس من نوع اقمار « ساموس » الامريكية .

ومنها ان عائلات الخبراء السوفيت الباقين في مصر قد اعدت نفسها للرحيل .. واليوم بالذات الخميس ٤ اكتوبر ..

وطالع المجتمعون تقارير المخابرات الاسرائيلية عن الاستعدادات المصرية السورية .. فاذا بها تؤكد من جديد **« استبعاد قيام العرب بشن حرب جديدة »** ..

وانتهى الاجتماع بعد الظهر .. بعد ان اتفقت الاغلبية على ان **« خطر الحرب يبدو بعيدا »** .. واخطر كيسنجر برأي المخابرات .. وكذلك اخطر جوزيف سيسكو مساعده والمسؤول عن الشرق الاوسط .

وامام العالم كله في المساء .. كانت العائلات السوفيتية تبارح كلا من مصر وسوريا عن طريق مطاري القاهرة ودمشق .. ومع ذلك فات الاسرائيليين والامريكيين مغزى تلك المغادرة ..

وفي نفس الليلة كانت معدات العبور قد نقلت الى الضفة الغربية للقناة حيث اخفيت في حفرات وخنادق كانت اعدت من قبل وموهت ببراعة ..

وصباح يوم الجمعة ٥ اكتوبر ولم يبق على ساعة الصفر الا ساعات اتخذت المدرعات السورية اوضاعا هجومية .. بينما غطت المدفعية بمداها الاراضي الاسرائيلية من مواقعها على طول حدود الجولان .

***

لماذا كان ذلك « العمى » لدى مخابرات العدو ؟..

اولا لقد كان لدى هذه المخابرات ثقة هائلة بنفسها .. بل ان كل مسئول في اسرائيل كان يثق في تلك القدرة ايضا ثقة لا حدود لها .

الم تستطع تلك المخابرات ان تنظم عملية تفكيك الرادار على الشاطىء المصري للبحر الاحمر ١٩٦٨ والم تستطع قتل قادة المقاومة الفلسطينية الابطال في قلب بيروت عام ١٩٧٣ ؟.. و .. و .. عمليات كثيرة اخرى بارعة ..

وواقع الامر ان هذه الثقة والايمان بقدرة المخابرات الاسرائيلية كانت بمثابة كعب « اخيل » بالنسبة لاسرائيل كلها ..

لقد انطلقت القيادة العربية من هذه النقطة ، واعدت هجومها تحت مظلة عدم تصديق او تصور الاسرائيليين واجهزتهم السرية امكانية بدء العرب لهجوم ضدهم ..

والحقيقة ان تلك القيادة قد لعبت بورقة ذلك العجز العربي المزعوم .. وقد كانت ورقة رابحة ..

ان المخابرات الاسرائيليةفسرت الحشود السورية تفسيرا مركبا طريفا.

انه بعد المعركة الجوية في ١٣ سبتمبر توقعت المخابرات الاسرائيلية ان السوريين لا بد ان يقوموا بضربة انتقامية .. ولكن هذه الضربة لا بد ان تكون محدودة بالطبع .. فما هي القدرة العسكرية السورية ازاء المارد الاسرائيلي ؟!.

لذلك من المعقول ان يحشد السوريون قوات لمثل تلك العملية الانتقامية. لكن الملاحظ ان تلك القوات كبيرة لا تتناسب و « محدودية » تلك العملية .. انها جيوش بأسرها ؟.. فلماذا ؟..

حسنا .. ان السوريين يتوقعون انهم بعد القيام بعمليتهم الانتقامية الصغيرة ان يقوم الاسرائيليون العمالقة بتأديب اهل « ليلى بوت » ــ الاقزام السوريين ! ــ بضربات موجعة وموسعة ايضا .

ومن هنا فان السوريين يقومون بحشد جيوشهم استعدادا لتلقي هذه الضربات الهائلــة .

اما بالنسبة للجبهة المصرية .. فقد كان هناك تفسير آخر غير تفسيرات قيام الجيش المصري بمناورات الخريف المعتادة ..

ان المصريين كانوا يتوقعون ضربة انتقامية اسرائيلية هم الاخرون نتيجة حادث معسكر شناو النمسوي .. وعزز ذلك ما كانــت تنشره الصحــف المصرية يوميا من انباء عن حشـود اسرائيلية تنذر بهجوم اسرائيلي .

وربما عزز هذا الاحساس ايضا لدى الاسرائيليين ان الجنرال دافيــد اليعازر رئيس هيئة الاركان كان مشغولا فعلا فــي الاسبوع الاخير قبــل الحرب باعداد ضربة انتقامية ضد ليبيا .

***

على ان خبر نقل الطائرات السوفتية الخاصة لعائلات المستشاريــن السوفيت من دمشق والقاهرة جعل المسز جولدا مائير تعقد جلسة « مجلس وزراء الحرب » يوم الجمعة ٥ اكتوبر كما هو معروف .. وحضر الاجتماع دايان وجاليلي وبارليف ووزير البوليس .

وقال البعض ان هذا الرحيل يعني بالنسبة لسوريا بالذات انها لن تحارب فهي لن تستطيع شن حرب دون وجــود السوفيت اللذين يعنــي رحيلهم تخليهم عن السوريين !!

وربما فسر الاسرائيليون مغادرة عائــلات الخبــراء السوفيت لمصــر بخشيتها من حدوث ذلك الهجوم الاسرائيلي المتوقع .

ولكن في هذا الاجتماع اقترح رئيس الاركان اعلان حالة التأهب بين القوات الاسرائيلية .

وانذر قادة الفرق المدرعة الاسرائيلية بقرب حدوث هجوم مصــري، سوري .. بل وضع سلاح الطيران الاسرائيلي في حالة تأهب . وصدرت تعليمات بالغاء اجازات الجنود والضباط ..

وهنا يبدو ملاءمة اختيار يوم عيد الغفران لبدء الهجوم العربي اذ ان عملية استدعاء الجنــود والضباط مــن الاجازات كانــت عملية محفوفــة بصعوبات شديدة اذ لم يكن من السهل تحديد اماكنهم .

وفيما بعد ــ بعد قيام الحرب ــ بعد ثورة الرأي العام الاسرائيلــي على حكومته اذيع بيان رسمي في اسرائيل جاء فيه « **ان الحكومة قد عقدت اجتماعا خاصا يوم الجمعة ٥ اكتوبر للبحث في احتمال وقوع هجوم مصري سوري ، ورغم ان الحشود العسكرية كانــت تدل بوضوح على هجــوم**

وشيك الحدوث .. فقد تقرر عدم الدعوة الى النعبئة العامة للاحتياطي ، حتى لا يعطى الراي العام العالمي ذريعة للقول بان اسرائيل تخطط لهجوم على العـرب » .

والواقع انه كان هناك تخبط في القيادة الاسرائيلية .. فبينما كانت الوقائع تفقا عين الاعمى بان الهجوم العربي وشيك ..

لكن ظل افراد تلك القيادة بين الشك واليقين ..

ان رئيس الاركان مثلا صرح بعد اجتماع الجمعة المشار اليـه انه لا يستطيع ان يضمن عدم وقوع الحرب .. اي انه لم يستطع ان يجزم بانها ستقع . وموشى دايان صرح في اجتماع يوم ١٤ نوفمبـر ١٩٧٣ انه لـم يتوقع حربا يوم الجمعة ٥ اكتوبر واضاف انه لم يكن الوحيد الذي لـم يتصور ذلك فاني لم اسمع احدايقول ان الحرب ستنشب غدا ..!

وسيمون بيريز قال وهو خارج من الاجتماع « اخشى ان تقع الحرب » .. اما جولدا مائير فكان شغلها الشاغل هو التنبيه على الوزراء جميعا بان يتوقعوا اجتماعا طارئا لمجلس الوزراء يوم العيد السبت ..

ومن الطريف ان جولدا مائير قد اعطت النور الاخضر للقيادة العربيـة من حيث لا تدري عندما طلبت من كيسينجر ان يبلغ العرب انها لا تنوي بدء الهجوم ضدهم !..

ويروى انه عندما اجتمع وزير الخارجية الامريكي بوزير الخارجيـة المصري حينذاك الدكتور محمد حسن الزيات يوم الجمعة ، كان الحديـث بينهما وديا وناعما .. لم يكن يبدو على الوزير المصري اي قلق او شيء يكشف عن ان العد التنازلي في القاهرة ودمشق يوشك ان يصل الى رقم الصفـر !..

لقد تحدث الوزير المصري عن مبادرة للسلام قبل ان هنري كيسينجر كان قد وعد العرب بالقيام بها بعد اجراء الانتخابات في اسرائيل !

***

ولكن من الثابت انه في صباح يوم السبت ٦ اكتوبر ايقنت القيـادة الاسرائيلية ان الهجوم المصري السوري سيقع لا محالة .. بل ان المصادر الاسرائيلية ذاتها حددت موعد ذلك اليقين بالساعـة الرابعة مـن صباح ذلك اليوم .. عندمـا رن جرس التليفون في بيـت موشى دايان وزيـر الدفاع الاسرائيلي الذي أيقظ بدوره رئيسـة الوزراء في تلك الساعة المبكرة

وابلغها بالخبر .. كما ابلغ رئيس المخابرات العسكرية بمعلوماته ايضا !

وفي السادسة صباحا عقد اجتماع عسكري .. انتقل بعد ذلك فى السابعة الى مكتب رئيسة الوزراء ..

الى هنا .. والسؤال .. لماذا لم يقم الاسرائيليون بضربة وقائية خصوصا ان سلاح الطيران كان في حالة تاهب .. ومن ناحية اخرى ان اسرائيل تعتمد تماما على ذلك السلاح كما بينا من قبل في اسلوب النظام العسكري الاسرائيلي .. وها هي الحشود العربية غرب القناة وجنوب الجولان .. صيد ثمين لقصف ذلك السلاح ؟..

هذا السؤال ما زال بغير جواب .

ان الاسرائيليين اجابوا على ذلك السؤال ـ وشايعهم في ذلك معظم الملقين العسكريين ـ بالآتي ..

● ان وزير الدفاع موشى ديان عارض القيام بتلك الضربة الوقائية بحجة العجز عن مواجهة الراي العام العالمي .. الذي كان قد بدا في التحول ضد اسرائيل لاصرارها على الاستمرار في احتلال الارض العربية ، فكيف يكون الحال لو ان اسرائيل قامت باعتداء جديد على العرب ؟.. ولن يكون بميسور اسرائيل تكرار تلك اللعبة القديمة التي جربتها عام ١٩٦٧ وهي الزعم بان العرب قد بدءوا بالهجوم خصوصا ان اللعبة قد انكشفت بعد ذلك .

● ان هناك مغامرة بخسران تأييد ومساندة الولايات المتحدة اذا ما تبين ان الاسرائيليين كانوا البادئين بشن الحرب ..

ولقد استدعى محررو الصحف الاسرائيلية وادلى لهم مسئول اسرائيلي بتوجيهات مؤداها انه بعد دراسة الاوضاع والمعلومات الاخيرة تقرر على اعلى مستوى سياسي وبعد التشاور مع وزير الدفاع وكبار القادة العسكريين وضع الاعتبار السياسي في المحل الاول . ومن هنا فقد تقرر الا تبدا اسرائيل بالهجوم حتى يكون واضحا من الذي بادر وقرر تجديد اطلاق النار .

هذا هو تفسير المصادر الاسرائيلية ..

وقد يكون هذا صحيحا .. ولكن المتتبع للسياسة الاسرائيلية منذ نشوء اسرائيل .. يرى انها لا تقيم وزنا كبيرا للراي العام العالمي .. وليس ادل على ذلك من استهانتها بها ا الراي في الحوادث المشار اليها من قبل مثل حادث الطائرة الليبية والطائرة العراقية والمعركة الجوية مع سوريا واغتيال قادة المقاومة الفلسطينية في قلب بيروت .. والاعتداءات المستمرة على جنوب لبنان .. الخ .

اما الخوف من خسران تأييد الولايات المتحدة فذلك ممكن تلافيه .. فقد كانت التقارير تتالى لدى المخابرات المركزية بانباء الاستعدادات العربية مما يبرر « الحرب الوقائية » .. كما ان جماعات الضغط الصهيوني في الولايات المتحدة والغرب كله لها تاثير فعال في توجيه السياسة الامريكية.

وفي جميع الاحوال فان انحسار التأييد الامريكي لن يتخذ ابعادا خطيرة تهدد الوجود الاسرائيلي او اصابة قاعدة الاستعمار الامريكي وحليفته باضرار جسيمة .

ما السبب الحقيقي اذن ؟..

ان كثيرا من اسرار حرب اكتوبر لم تكشف بعد ..

ولكن من الثابت ان الاسرائيليين وقد ايقنوا ان الهجوم العربي سيحدث لم يعرفوا بموعده الحقيقي (الساعة الثانية بعد الظهر) وانما ابلغتهم مصادرهم انه سيحدث في السادسة مساء .

ورفضت الحكومة الاسرائيلية تشكيك ايجال آلون نائب رئيسة الحكومة في ذلك الموعد عندما قال « السادسة مساء؟ . هذا غير معقول ، فهم ــ اي العرب ــ بحاجة الى بضع ساعات من النهار ، بعدها يحتمون بالظلام من سلاح الطيران ..

واضاف : ربما لم يكن المقصود الساعة ٦ وانما المقصود الساعة ١٦ (اي الرابعة بعد الظهر بعد الموعد الحقيقي بساعتين) .. » .

فهل كان الاسرائيليون ينوون القيام بضربة جوية وقائية قبل السادسة مساء بقليل لاثارة اكبر قدر من الفوضى والارتباك بين القوات المصرية والسورية وهما توشكان على الهجوم ؟..

هذا احتمال ..

ولكن الاحتمال الاكبر في نظرنا .. هو أن الاسرائيليين كانوا على ثقة لا حد لها بانهم قادرون على سحق المصريين والسوريين ..

بل انهم كانوا يفركون ايديهم ابتهاجا بهذا الاستدراج الجديد .. انها ستكون فرصة جديدة لضربهم ضربة قاصمة هذه المرة بعد ذلك الركود في الموقف منذ عام ١٩٦٧ ..

ان « كعب اخيل » اي الغرور الاسرائيلي .. والثقة بالتفوق .. هذا التفوق الذي وطدته انتصارات ١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ وجولة حرب ١٩٦٧ الى عقيدة راسخة ..

لقد لعب هذا دوره ..

فلننتظر المصريين والسوريين حتى يقعوا في الفخ .. ثم نعلمهم درسا جديدا لا ينسوه .. سيكون هو الدرس الاخير ..

ولقد دلت تصريحات العسكريين الاسرائيليين بعد نشوب القتال على هذا اليقين .. وتوعدوا العرب في تصريحاتهم بسحق ودق العظام .. ووصفوا الهجوم العربي بانه محض جنون مطبق !.

ولقد كان هنري كيسنجر نفسه يشاطر الاسرائيليين هذا الاعتقاد فهو القائل لوزير الخارجية المصري بعد نشوب القتال يوم ٦ اكتوبر : ماذا نستطيع ان نفعل من اجلكم ؟. ان الطيران الاسرائيلي سوف يمزقكم اربا في غضون الاربع وعشرين ساعة التي تلي نشوب القتال !!

ولقد كان وزير الدفاع موشى ديان على يقين بان القوات النظامية والمساعدة الموجودة في الجبهة قادرة على صد الهجوم او الصمود على الاقل حتى يأتي الاحتياطي الذي سيجهز على الجيش المصري والسوري خلال ساعات او ايام معدودة كالعادة !.

ومن هنا فانه امر في الساعة العاشرة صباح يوم السبت ٦ اكتوبر بتعبئة تشمل سلاح المدرعات كله .. الذي يضم صفوة الجيش الاسرائيلي ..

كما امر ببدء تعبئة جزئية للاحتياطي كله .. ثم تعبئة شاملة ضحى يوم ٦ وفقا للطريقة الاسرائيلية في استدعاء الاحتياطي : واحد ينادي عشرة .. وعشرة ينادون مائة .. ومائة ينادون الفا .. وهكذا .. بحيث يتم تعبئة الاحتياطي كله في اربع وعشرين ساعة ..

ثم انه من المتصور ان اسرائيل ارادت ان تثبت للعالم منطقها في التوسع بشأن الحدود الآمنة ، وهي الحجة التي رددتها لتبرير احتلالها للارض العربية منذ هزيمه ١٩٦٧ .

فها هي ترد اعتداء عربيا على تلك الحدود ـ حدود ما بعد ٥ يونيه ـ اذ لو لم تكن تلك الارض العربية المحتلة في قبضتها .. لامكن للعرب ان يهاجموا حدودها مباشرة مهددين الكيان الاسرائيلي ذاته ..

ولم يقع في تقدير القيادة الاسرائيلية ان العكس هو الذي سيحدث اذ ان حرب اكتوبر قد حطمت من بين ما حطمت نظرية الامن الاسرائيلي كلها .. لان نتائج تلك الحرب جاءت عكس ما توقع الاسرائيليون المغرورون جدا !.

* * *

صباح يوم ٦ اكتوبر (يعني ذلك منتصف الليل في نيويوروك) تلقى كيسنجر رسالة جولدا مائير التي طلبت فيها ابلاغ العرب والاتحاد السوفياتي انها لن تبدأ بالهجوم .. ولم يكن لديه ما يثير قلقه .. فأجل كل شيء الى الصباح واوى الى فراشه في فندق والدورف استوريا ممنيا نفسه ـ على حد قوله بعد ذلك ـ بعطلة ممتعة لنهاية الاسبوع ..

وكان الوقت حينذاك في سيناء السابعة صباحا .. صباح يوم التحرير .. ولم يبق الا خمس ساعات الا ثلاث دقائق لانطلاق الشرارة ..

وفي اسرائيل .. ومجلس الوزراء قد اجتمع عند الظهر ..

توجه الجنرال جونين قائد جبهة سيناء الى مقر قيادته .. حيث تلقى اشارة اخرى بان الحرب ستنشب في ذلك اليوم .. وان المصريين « سيحاولون » عبور القناة في السادسة مساء .. بعد التمهيد لذلك بهجوم جوي واسع النطاق ..

ورفع الجنرال جونين سماعة التليفون وطلب الاتصال بالجنرال البرت مندلر قائد المدرعات الاسرائيلي ..

امر جونين مندلر بان يحرك الوية مدرعاته الى الامام .. نحو خط بارليف « وما يكون المساء قد حل الا وتكون قد وصلت .. »

وكانت المفاجاة الكبرى لجونين عندما جاءه صوت مندلر من سيناء ..

ـ لقد حان الوقت فعلا .. ان مدفعيتهم وطائراتهم تقصفني !!..

إنها .. هي الحرب !..

لقد كانوا يتقدمون موجات بعد موجات .. كنا نطلق عليهم النار .. ويتقدمون .. كنا نحيل ما حولهم جحيما ويتقدمون .
لقد كان لون القناة قانيا من الدم .. وهم يتقدمون !

(الجنرال جونين القائد الاسرائيلي
لجبهة سيناء

« لقد خاضت اسرائيل ضدنا اربعة حروب ، كسبت ثلاثا منهـا .. ثم خسرت الرابعـة »

الرئيس انور السادات في حديثه لروزاليوسف

في الفصول التالية سنقدم التفاصيل عن سير معارك حرب الساعات الست .. من البداية حتى اجبرت اسرائيل على احترام وقف اطلاق النار يوم ٢٥ اكتوبر ..

وبعد عام من نشوب الحرب ـ المتوقفة حاليا مؤقتا ـ يمكن ازاحة الستار عن كثير من تفاصيلها .. وتناول تلك التفاصيل بأسلوب بعيد عن الحماس الانشائي .. فانه ما يزال اقوى الاساليب للاقناع هو الاسلوب الموضوعي .. وغير الديماجوجي ..

واذا كان بعض ما يمكن اذاعته اليوم لم يكن متاحا بالامس فان ذلك راجع فقط الى نظرة تتعلق بالامن واسرار الحرب التي لم تنته بعد .. فعلى حد تعبير المشير احمد اسماعيل لي « ليس لدينا ما نخجل منه حتى نخفيه .. حتى اخطاؤنا نواجهها ولا نخجل منها .. بل نعقد المؤتمرات للبحث والتنقيب عنها وتحليلها واستخلاص النتائج منها » .

وربما ما ساعدنا ايضا على ايراد الكثير من التفاصيل هو ما استطعنا ان نتعرف عليه من وجهة نظر العدو الاسرائيلي نفسه .. هذه الوجهة التي لم يكن ميسورا التوصل اليها كلها خلال المعارك او بعدها بوقت قصير..

اننا نعرف الان كيف راي « الجانب الاخر » الحرب .. ولقد حرصنا كما سيرى القارىء على ان ننقل له بموضوعية تلك الرؤية .. ليستكمل تصوره للمعركة فصلا وراء فصل ..

بل اننا طبقنا ذلك بدقة حتى في طور هام من اطوار المعركة وهو الثغرة .. فعرضناها من وجهة النظر المصرية .. ثم قدمنا عرضا لها من وجهة النظر الاسرائيلية المعادية .. ثم عرضنا لراي العسكريين المصريين في تلك الوجهة الاخيرة .. وراي المتخصصين الاجانب ايضا .. وتركنا للقارىء التقدير النهائي ...

وفي الفصول التالية سيطالع القارىء تفاصيل جديدة لم تذع من

قبل عن هجمات مضادة اسرائيلية .. وعـن حصار الجيش الثالـث .. ومعركة السويس.. وسيقرا تفاصيل معركة لم يذع عنها شيء من قبل وهي ما سمي بمعركة « المزرعة الصينية » وهي اسم غريب حقا على معركة تدور فوق ارض عربية فلا يوجد في مصر مزارع صينية ولا يابانية !!..

وسنقرا معا .. الحقائق العارية حول معركة الدبابات .. والخلاف في القيادة المصرية حول التقدم الى المضايق من عدمه .. وما هي الحقيقه في قصة الفريق سعد الشاذلي ..

وربما كانت هذه هي المرة الاولى التي سيطالع فيها القارىء شيئـا عن معجزات الطب العسكري في الحرب الاخيرة ..

سيعرف القارىء هنا بالتفصيل لماذا سمى الرئيس انور السادات الفريق محمد الماحي بالرجل الرهيب ؟..

وسيطالع التقرير السري الذي ذكر الرئيس انور السادات ان مصـر سربته عامدة لتضليل العدو عن حال سلاح الطيران وشبكة الصواريخ ..

وسيقرا تقارير سرية اخرى عما جرى عام ١٩٦٧ .. في القنطـرة شرق للمقارنة بين الماضي والحاضر ..

وفصول اخرى .. عن الطيران .. والصواريخ .. والصاعقة .. والبحرية و.. فالى اللقاء في الصفحات التالية ..

٥

الصَّدمة؟!..

● « المصريون ينزلون الزوارق تحت اقدامنا .. انهم يعبرون الان .. طوفان من المشاة .. ينزلون حاملين صواريخ مضادة للدبابات .. بعض الدبابات تقف على المصاطب .. نيران المدفعية تنصب علينا .. تسقط القنابل قريبا منا .. قريبا جدا .. النيران تقترب ..

قوات مدرعة تستعد للعبور .. اعداد هائلة منهم تقفز وتتقدم حاملة الصواريخ .. ست طائرات هليكوبتر مصرية تمر فوقنا .. لا بد انها تحمل كوماندوز ..

دبابات ت ٥٤ تقف في مواجهتنا وتطلق قذائف .. قوارب اكثر تعبر .. موجة وراء موجة .. انهم ينتشرون في المنطقة كالمروحة .. انهم يرفعون علما لفرقة منهم ..

المصريون ينصبون كوبرى .. ونش اوتوماتيكي ينزل الطوافات ..

افواج من الجنود .. والمدرعات .. والدبابات .. لوريات تحمل صواريخ .. قوافل كبيرة من عربات الجيش والمدفعية ... »

هكذا كان رجال نقط الملاحظة الاسرائيليون يصرخون في هستيريا .. عندما بدأ العبور العظيم .. في اجهزة الاتصال بمقار قياداتهم ..

فعلى امتداد ١٧٠ كيلو مترا لقناة السويس.. وعلى طول ٧٥ كيلو مترا على طول خط وقف القتال بين سوريا واسرائيل في مرتفعات الجولان ..

كانت الحرب قد تفجرت .. آخذة الجنود الاسرائيليين على غرة ..

ففي شرم الشيخ مثلا كان الجنود الاسرائيليون قد انهمكوا معظم الوقت في ذلك اليوم يسبحون في مياه خليج العقبة .. وقد انتزعهم قصف الطيران المصري لمطار « اوفيرا » من الماء بلباس البحر ..

ولم يكن هؤلاء الجنود الاسرائيليون قد اكترثوا بامر حالة «التاهب» الذي صدر لهم يوم ٥ اكتوبر .. واعتبروه واحدا من الاوامر العادية التي تعودوا عليها منذ زمان طويل .. غير مصدقين ان المصريين سيجرءون على شن حرب .. حتى فاجأتهم قاذفات القنابل المصرية ..

بل انهم لم يكترثوا بالتدابير التي اتخذتها السلطات الاسرائيلية ظهر ذلك اليوم نفسه عندما نقلت على عجل العائلات الاسرائيلية المدنية التي كانت تمضي وقتا للاستجمام على شواطىء شرم الشيخ ..

وفي جبهة الجولان عند موقع جبل الشيخ ـ افضل مراكز المراقبة الاسرائيلية ـ كان جنود الموقع قد تلقوا في الصباح امرا بالتأهب ايضا .. ولكنهم ما اخذوا الامر قط على محمل الجد **بل ان الصحفيين الاسرائيليين الذين كتبوا كتاب « التقصير » المشهور ذكروا ان الجنود الاسرائيليين كانوا يسخرون من الدعوة الى التاهب واصفين اياها بانها نوع من التاهب لممارسة العادة السرية !!..**

وعندما بدات المدفعية الثقيلة السورية تدك المواقع الاسرائيلية جرى الجنود الى « ملاجئهم » وبعضهم يرتدي الزنوبة والنعال الخفيفة ..

لقد كان الغرور مقتلهم فعلا ..

ولقد كانت كلمات موشى ديان التي قالها قبل حرب اكتوبر بثمانية شهور تسيطر على افكارهم :

« لدينا الان القوة العسكرية والجيوش التي تتيح لنا ان نطول كل مكان وان نفرض السيطرة الاسرائيلية من قناة السويس حتى الاردن وجبل الشيخ .. ومن ثم فنحن نستطيع تحقيق آمال الصهيونية وان نستوطن كل أرض اسرائيل .. ولن نتخلى عن تلك الفرصة التاريخية التي لم يحلم بها اشد المتفائلين .. » ..

اولم يكتب لهم المراسلون الاجانب من القاهرة يقولون ان اسطورة الجيش الاسرائيلي اعمق في ذهن المواطن العادي المصري مما هي في ذهن الاسرائيليين انفسهم ؟!.

في الساعة الثانية بعد الظهر تماما .. دوت صفارات الانذار في تل ابيب .. وكان ذلك يعني بالنسبة لسكان المدينة وغيرها من المدن الاسرائيلية تاكيدا للشكوك التي انتابتهم منذ الصباح وهم يشهدون حركة

السيارات ودعوة الاحتياطي .. وتدفق الرجال خارجين من بيوتهم بالملابس العسكرية ..

انها الحرب اذن .. وليست تدريبات مالوفة على حالة الطوارىء .. وربما دب الخوف في نفوس الكثيرين .. ذلك الخوف الفريزي من الحرب واهوالها ومتاعبها ..

ولكن كما يقول مؤلفو كتاب « التقصير » ان الاسرائيليين قد اكدوا هذه المرة ايضا بينهم وبين انفسهم انه لا يوجد سبب للقلق وليس هناك ما يدعو الى الخوف ..

لا ينبغي الوقوع في الفزع فالجيش الاسرائيلي لم يكن ابدا اقوى مما هو عليه .. ووضع دولة اسرائيل العسكري لم يكن افضل مما هو عليه الآن .. فاسرائيل في امان تام ! ..

وهكذا مضى الاسرائيليون ينتظرون فقط .. انباء اكتساح المصريين والسوريين الذين تجرءوا على الهجوم .. على اقوى جيش في الشرق الاوسط !.

لقد كانت المؤسسة العسكرية العنصرية والفاشية قد نجحت في تسميم عقلية الشعب الاسرائيلي .. واعاشته في اوهام وضباب السوبرمان الاسرائيلي وسط المتخلفين العرب !! ..

٦

وتحطمت الطائرات الاسرائيلية .. على الأرض ؟!!

● في مركز الملاحظة وكانت الساعة الثانية عشر ظهرا تماما.. جلست.. وقد غمرني شعور بالسكينة الكاملة ..

لقد كانت عقارب الساعة ما زالت بعيدة عن ساعة الصفر .. بساعتين .. ووضعت الساعة امامي ..وانا استعجل دوران العقارب ..

واتصلت بجميع القادة .. واخذت « تمام » .. كل الناس جاهزة.. والمعنويات عالية ..

وبعد ربع ساعة فوجئت انهم يدعوني للغداء ..

وفي الميس تجمعنا وقوفا حول مائدة صغيرة نسبيا .. واتونا بوجبة ساخنة .. لوبيا سوداء .. وارز ..ولحم ..

كان كل شيء يسير سيرا عاديا .. كانما اليوم كالامس .. وقبل الامس ..

وكان الطعام شهيا في فمي على غير العادة .. وأكلت نصيبي كله باقبال شديد .. ثم خرجت .. ووضعت الساعة امامي مرة اخرى ..

وصليت الظهر .. ثم ركعتين لله .. وجلست اقلب في الخرائط التي رايتها مئات المرات .. حتى حفظت كل مليمتر فيها .. وأستطيع ان اشير الى اي موقع باصبعي وأنا مغمض العينين !..

ولكن في اعماقي كانت الصلاة مستمرة .. صلاة اخرى غير الصلاة « الرسمية » ..

هي صلاة يمكن أن تسميها صلاة المسؤلية كقائد وضعه القدر ومنحه شرف قيادة الفرقة الثانية في معركة وطني ..

كان قد بقي ساعة على ساعة الصفر ..

كتب « العميد » حسن ابو سعده قائد الفرقة خطبة حماسية على عجل .. وسجلها في ريكوردر .. وامر ان تذاع على الجنود في الميكروفونات المنتشرة على طول عسكرة الفرقة في الجبهة (وهي الميكروفونات التي كانت تستخدم فيما سمي بحرب الميكروفونات بين مصر واسرائيل على طول خط المواجهة في القناة !).

على ان تبدأ تلك الاذاعة بمجرد صدور الامر بالعبور ..

* * *

في الساعة الثانية بعد الظهر اقتحمت سماء سيناء مائتي طائرة مصرية (في نفس الوقت عبرت خط وقف اطلاق النار على الجبهة السورية سبعون طائرة سورية) ..

« وكم كان منظر طائراتنا جميلا .. طيران بهذه الكثافة رفع معنويات الجنود الف في المائة .. جعلهم يقفزون من الفرح ويهللون ..

لا احد يستطيع ادراك مغزى الطيران الا الذين عاصروا ماساتي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .. عندما كان الجيش كله عاريا من الطيران .. وفريسة لطيران العدو .. ! » ..

وهذا الذي قاله « العميد » يوسف عفيفي قائد الفرقة ١٩ .. يعبر عن شعور كل ضابط وجندي من الذين عبروا القناة .. فربما كانت هذه هي المرة الاولى التي يحارب فيها الجيش المصري والطائرات تحميه !

ولم تكن الطائرات وحدها هي التي تثير حماس الجنود .. وانما قذائف المدفعية التي كانت تصم الآذان ..

ففي نفس الوقت الذي كانت تتم فيه الضربة الجوية المركزة كان « اللواء » محمد الماحي قائد سلاح المدفعية قد فتح ستارة هائلة من النيران من ٨٢ كتيبة مدفيعة اي حوالي اربعة آلاف قطعة مدفعية علاوة على لواء صواريخ ارض ـ ارض متوسط المدى ..

وفوق هذا وذاك كان هناك عدد من الدبابات يشارك في صب نار الجحيم هذه ..

ان ستار المدفعية أسلوب استخدم مرات قليلة في تاريخ الحروب

وابرز ستارة كانت ستارة المدفعية السوفيتية لاقتحام برلين في الحرب العالمية الثانية ..

ولكن ستارة برلين بدأت ستارة ليلية مما يعطي فرصة لحماية المدافع التي تطلقها ، اما الستارة المصرية فقد كانت في رائعة النهار .. ولمدة ثلاث وخمسين دقيقة متواصلة ..

لكن لماذا ثلاث وخمسون دقيقة وليس ستون مثلا ؟..

ان كل شيء في الحرب محسوب بدقة .. ان تدمير خطوط العدو الخلفية وقلاع خط بارليف يحتاج الى كذا قذيفة .. ومعدل اطلاق المدفع كذا قذيفة في الدقيقة ..

فلو تصورنا اننا زودنا سبع دقائق فاننا في الحقيقة سنزيد كمية الذخائر للمدفع الواحد مضروبة في اربعة آلاف مدفع .. وكل شيء بثمنه .. وكذلك اذا انقصنا فترة القصف .

ماذا كان على سلاح الطيران المصري ان يفعل ؟.

كان عليه تنفيذ ثلاث مهمات ..

★ تدمير مطارات العدو في عمق سيناء لشل امكانية قيام هجوم جوي مضاد على القوات التي توشك ان تعبر القنال بعد قليل ..

★ ضرب حشود العدو من الاحتياطي الثاني والثالث من قواته المدرعة وهي القوات التي كان عليها ان تهرع « لاستقبال » اي قوة مصرية تكون قد نجحت في عبور خط بارليف.. استقبالها بنار مكثفة مبيدة طبعا.

★ ضرب مركز القيادة الاسرائيلي في « ام خشيب » .. وهذا المركز ليس مقر القيادة الاستراتيجية في سيناء فقط .. وانما يشتمل على مركز اليكتروني « مشوش » على شاشات الرادار المصرية وارباك حائط الصواريخ المصري المشهور ..

وكان الهجوم الجوي المصري او بالاحرى دقته وجسارة الطيارين المصريين اول مفاجاة للاسرائيليين عن النوعية التي لم يعهدوها في المقاتل المصري .. لقد هزتهم فدائية الطيار المصري الذي انقض بطائرته على مركز القيادة الاسرائيلي يدمره ويدمر نفسه معه ..

ويقول مراسل الفيجارو الفرنسية أن ضابطا اسرائيليا كبيرا قال له تعليقا على جسارة وبراعة الطيارين المصريين في ذلك الهجوم الكاسح :

لقد كان بعضنا في « ام خشيب » يقسم ان هؤلاء لم يكونوا طيارين مصريين !

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : لماذا لم يضرب سلاح الطيران

المصري طائرات العدو في مطاراته وهي جاثمة على الارض كما حدث في عام ١٩٦٧ عندما حدث العكس ؟...

بادىء ذي بدء نستبعد ضرب المطارات داخل اسرائيل .. فان القيادة السياسية خططت منذ البداية الا تضرب اسرائيل في العمق تفاديا لضربات اسرائيلية انتقامية في العمق المصري ..

وهذا امتداد لفكرة « الحرب المحدودة » التي عرضنا لها في فصل « قضايا اثارتها المعركة » ..

من ناحية اخرى لم يكن احد يتوقع في القيادة المصرية ان الاسرائيليين سيتركون طائراتهم جاثمة على الارض دون حماية لتضربها الطائرات المصرية ..

لقد حلقت الطائرات الاسرائيلية التي كانت موجودة في مطارات سيناء ودارت بينها وبين الطائرات المصرية المغيرة معارك ضارية .

ومع ذلك فانه يمكن ان نقول ان **بعض الطائرات الاسرائيلية قد تحطمت على الارض بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر .. بواسطة بعض صواريخ ارض ــ ارض التي اطلقها سلاح المدفعية المصري على مطار المليز ..**

وقد جاء ذلك في اعترافات عديد من الاسرى الاسرائيليين ادلوا باعترافاتهم في اماكن متفرقة بعد اسرهم في اوقات مختلفة من سير المعركة.

لكن نرجىء الحديث عن معارك الجو الى فصول تالية ..

وليفتح القارىء عينيه جيدا .. ويحاول ان يجعل من ذهنه شاشة سينما سكوب بانورامية ليحاول تصور المنظر المثير .. الفصل الاول من الملحمة التاريخية .. العبور ..

٧

الله أكبر.. اتبعوني !

● كان ضباط الفصائل المصرية يصيحون .. كل في جنود فصيلته اتبعوني !..

ورايا ..

ويصيح الجنود : الله اكبر .. ويندفعون وراء ضباطهم .

لقد اختفى من الجيش المصري نداء : تقدم .. ليحل محله نداء : اتبعوني !

القائد في الصدارة دائما ..

كان على جنود المشاة في الجيش ان يعبرو .. ان يكونوا اول من يعبر القناة .. ويقتحم خط بارليف فقد كان من المستحيل ان تعبر المدرعات او تنقل الاسلحة الثقيلة دون الاستيلاء على الخط واقامة المعابر .. وبدأت الملحمة فصولها ..

وفي الثانية وعشر دقائق .. بدأ مئات الجنود ينفخون قوارب المطاط ويعبئونها بالاسلحة في سرعة ولكن باحداث اقل الاصوات .

في الثانية والثلث تماما .. دقت ساعة الصفر .. وزارت ضفة القناة الغربية فجاة بنداءات : ورايا .. الله اكبر .. الله اكبر .

وقفز من وراء الضفة من الخنادق المئات والالوف .. كأنما انشقت الارض عنهم .. يزأرون ايضا ..

الوف القذائف تتطاير فوق رءوسهم عابرة من الغـرب الى الشرق لتدمير العدو الذي ينتظرهم ..

الجنود لا يهتفون فقط « الله معنـا » . وانمـا يغنون ويرقصـون ويصرخون في هستيريا .. اخيرا حلت الساعة المنتظرة ..

ست سنوات وهم ينتظرون هذه اللحظة .. لقد اختزنوا شعورهـم بالرغبة في الثار وتحرير الارض .. وكانوا ينفسون عن رغبتهم هذه باجادة التمرين والتدريب .. ثم هم يقومون بالمنـاورات .. ويلتقون بقادتهـم والقائد الاعلى للقوات المسلحة وليس لهـم من رجاء الا رجاء واحد : دعونا نعبر .. دعونا نمحو عار ١٩٦٧ ..

لم يكن اغلبهم عندما استدعوا الى هذا القرب من شاطىء القناة ورغم وجود هذه الاستعدادات ، لم يكن اغلبهم يصدقون انهم سيعبرون .. انها مثل كل مرة : مناورة ونعود من جديد الى المعسكرات .. وعصر الاجازات والتصاريح لزيارة قرانا !

في الزوارق المطاطية كانت الذخيرة هنـاك .. صواريخ ضد الدبابات ومدافع ضد الدبابات .. وطعام واسعافات اولية . بعض المدافع وزنهـا يزيد عن الثلاثمائة كيلوجرام وكـان على الرجال ان يحملوا هـذا كلـه .. واخطر من ذلك ان يصعدوا به هذا الحائط الشاهق : الساتر الترابي !..

مئات الزوارق تعبر على طول القناة .. فاكثر من ثمانية آلاف جندي يعبرون في الهجمة الاولى .. في خمسة جسور فقط كانت كثافة العابرين اكثر . ولكن العدو ما عرف اين يركـز المصريون هجومهـم في الساعات الاولى .. وفي بعض المواقع عبر الجنود في برمائيات ..

ومع الجنود ركب المهندسون ومساعدوهم .

كان الجنود والضباط الذين عبروا قد اختفوا من قبل في ملاجىء .. .. ووراء سواتر .. تحيط بها شكائر من الرمال ..

وخرجوا منها .. بعد ان القوا بالشكائر في ميـاه القناة .. ورفـع المهندسـون الالغام التي كانت قد وضعت للدفاع .

وكل زورق ركبه عشرة جنود .. كل واقف على قدميه ركب زورقا وفي بعض الاحوال في مراحل متقدمة من العبور .. تصيد الجنود الذيـن لم يجدوا اماكن لهم في الـزوارق اي شيء عبـروا به .. اطارات مـن الكاوتشوك براميل خالية . « جراكن » لحمل المياه .. فلنكات السكـك الحديـد .. اي شيء يستطيع ان يعبر فيه او بواسطة الجنود استخدموه كان الحمـاس منقطع النظير .. ولكن كل شيء كـان يتم بدقة شديدة ..

وكل فرد كان يعرف موقعه تماما .. لقد بدا ان التدريب الطويل .. قد اتى ثماره في تلك الساعة الخطيرة المنتظرة ..

وبدا واضحا ان هؤلاء الجنود من الفلاحين والعمال عندما يدربون ويتعلمون .. ويتوفر لديهم الحافز .. يكونون مثالا للانضباط وتنفيذ التعليمات برباطة جاش .. وبقدرة على التصرف والابتكار معا ! ..

لقد كان هناك جنود خصص لهم دور اعادة الزوارق بعد نزول الجنود منها في الضفة الشرقية .. فكانوا يعودون وبسرعة .. بل في وقت اقل من المفروض ..

ولم يكن على كل الجنود ان يخرجوا من الملاجىء والحفر في وقت واحد .. بل في اوقات منتظمة فوجا وراء فوج .. فكانوا ينفذون ذلك بدقة .. رغم موجات الحماس الهائلة الكفيلة بافساد اي نظام !..

بل ان كل جندي كان يعرف مكان قاربه .. ورقمه .. بل مقعده في ذلك القارب .. وماذا عليه ان يفعل لمعاونة زميله عندما يرسو القارب على الشاطىء ..

وفوق رؤوس الجنود العابرين كانت تلعلع قصفات المدفعية المصرية .. من ستار المدفعية .. ومن الدبابات .. ومن المدافع الرشاشة التي كانت تصب وابلا من الرصاص لحماية العابرين بمجرد ملامسة قواربهم المياه ..

ولكن لم يكن ذلك هو القصف الوحيد .. بل كان العدو يقصفهم ايضا .. كانت هناك نيران للفتك بهم في نفس الوقت الذي كانت هناك نيران لحمايتهم ..

كانت نيران العدو تنصب من مزاغل دشم خط بارليف لاقتناص الرجال في زوارقهم .. واصيبت زوارق كثيرة .. وسقط شهداء .. ولكن يا للعجب لقد كانت الخسارة طفيفة جدا .. في الموجات الاولى للعبور .. بضع مئات بينما كان المتوقع لدى اكثر المتفائلين ان اربعين في المائة من قوات العبور .. ستلقى حتفها وهي تعبر ..

وكان صوت الرصاص الاسرائيلي حافزا اكبر للرجال للاسراع في العبور والجنود يصرخون وهم في الزوارق يتوعدون جنود العدو المستترين في دشم حصون الخط : طيب يا ابن الكلب .. انتظر انا جاي لك ! ..

وعندما تحركت دبابات العدو وراء خط بارليف .. لتحتل مواقعها في مرابض الدبابات على الساتر الترابي .. كانت تنتظرها مفاجاه اخرى غير مفاجاة بدء الحرب نفسها ..

لم تستطع تلك الدبابات الاقتراب من خط المياه .. لان وابلا من صواريخ « ساجر » المضادة للدبابات انهمر عليها من قواعد الصواريخ التي اقامها الجيش المصري على الجانب الغربي للقناة ..

يروي قائد سرية دبابات اسرائيلي للصحفي الاسرائيلي ايلي نافور.. تجربته في تلك الساعة من العبور :

« فجأة شاهدت صاروخ ساجر يطير تماما باتجاه السنتوريون التي كانت الى يميني .. لم اكن على اتصال بها ولم استطع تحذيرها ، فصرخت بصوت عال ، معتقدا ان ذلك قد يساعد على تنبيهها .

وببساطة رايت الصاروخ يقترب رويدا رويدا ويصيبها مباشرة ، ثم رايت الضابط يطير من فوق البرج ، **وكل دبابة وقفت هناك اصيبت .**

بدات اعطي السائق اوامر متناقضة الواحد تلو الاخر : سر الى اليمين .. سر الى اليسار .. قف . سر . الى الامام .. الى الوراء وهكذا ..

ولدى القيادة المصرية تسجيلات عديدة لاشارات استغاثة من بعض قادة الدبابات الاسرائيلية وهم يصرخون في تلك الساعات الاولى من العبور ودباباتهم تصاب صرخات لقادتهم باللاسلكي مثل هذه :

« اذا لم تبادرونا بالطائرات .. لم تبق لنا دبابة واحدة ! »

* * *

وسط هذا الجحيم .. عبرت القوارب المطاطية القناة في عشر .. وعشرين دقيقة ..

وكان في طلائع من قفزوا الى الشاطىء الشرقي المهندسون ورجالهم .. وتعب ضباط الفصائل في كبح جماح جنودهم حتى لا يهبطوا على الفور .. فقد كان على المهندسين أن ينظفوا ممرات من الالغام .. ويقصوا الاسلاك الشائكة .. فمعروف ان الاسرائيليين قد لغموا كل الشاطىء ..

كان هناك سباق مع الزمن .. فالمهندسون يعرفون ان كل دقيقة تأخير معناها اقتراب موعد الهجوم الاسرائيلي المضاد بالطيران .. على الاقل .. وبعد قليل ستتحول المدفعية الاسرائيلية من محاولاتها اليائسة لاسكات المدفعية المصرية الى تركيز الضرب في القوات العابرة .

وكانما الجميع قد اصابتهم حمى السرعة .. لانجاز المهمة .. وصيحات الله اكبر تتعالى في كل مكان ..

وقد حدث في مناطق كثيرة ان القى جنود بانفسهم على حقول الالغام .. يشقون في بطولة نادرة طريقا باجسادهم لزملائهم فيها !

في الوقت الذي كان فيه فريق من المهندسين ومساعديهم يطهرون الارض .. كان فريق آخر يقوم بعملية بدت غريبة جدا في هذا الجو الجهنمي !.

لقد وقف هؤلاء الرجال على حافة القناة وثبتوا مضخات في الماء واندفعت من المضخات خراطيم قوية اشبه بالمدافع .. ووجه الرجال تلك « المدافع » المائية الى حائط التراب الهائل !

وفوق الحائط كانت اعمدة من التراب تندفع الى اعلى اندفاعا لم تستطع المياه ان تكتمه .. وهذا الغبار المثار كان اشبه بساتر عظيم للقوات العابرة ايضا .

وكانت مدافع الماء هذه مثار دهشة الجنود الاسرائيليين في تحصينات خط بارليف كما روى اسراهم بعد ذلك اذ ان كل التجارب التي اجراها الجيش الاسرائيلي لشق السواتر الترابية بمثل هذه الوسيلة قد فشلت تماما .. (كان الاسرائيليون يجرون هذه التجارب لاحتمال محاولتهم عبور القناة الى الضفة الغربية كما حدث بعد ذلك فعلا) .

ولم يكن بوسع المهندسين في جميع الاحوال ان يقفوا على الشاطىء خوفا من « الزحلقة » .. وانما اضطر الكثيرون الى اداء هذه المهمة الشاقة وهم واقفون في القوارب المطاطية .

ويمكن تصور كمية « الروبه » كما يسميها العسكريون ، وهي التراب مختلطا بالماء في ارض صلصالية احيانا ..

ثم ان مستوى المياه ينخفض على طول العملية بفعل عوامل المد والجزر .. اذ ان عملية « التجريف » هذه استغرقت ساعات ..

تدبيش .. وروبه .. وزيط .. وطين .. واسلاك والغام .. وقنابل ورصاص فوق الرؤوس ويصيب الاجساد .. ورفاق سلاح يسقطون .. وشهداء تعوم جثثهم في مياه القناة التي تخضبت بقع منها باللون الاحمر..

والعملية مستمرة .. وعلى المهندسين ان يستمروا في فتح الثغرات ... ويعني هذا ازاحة ما حمولته ستمائة لورى بواقع ثلاثة اطنان في اللورى الواحد اي ١٨٠٠ طن ..

وكان على الفرقة ١٩ مثلا ان تفتح اربعة عشر فتحة شاطئية لراس الكوبري الذي كان عليها ان تقيمه .. فاذا عرفنا ان الفرق الخمس التي عبرت كان على كل منها ان تفتح ١٤ فتحة مماثلة. فتصور كمية التراب التي

يجب أن « تجرف » في سبعين فتحة .. وفي ظل تلك الظروف «الخرافية»!

ان اي خيال مهما بلغت « شطحاته » لا يستطيع تصوير المنظر الا اذا عاش صاحبه ذلك الحدث العظيم « العبور » !

امكن للمهندسين ان يحققوا الرقم القياسي في شق الساتر الترابي في الشمال عند مواقع الجيش الثاني ..

ولكن زملاءهم في الجنوب حيث الجيش الثالث وجدوا صعوبة . ذلك لان طبيعة الارض كانت طفيلية وفي بعض المناطق حدث تكلس فيها كما أن الساتر الترابي كان اعرض وأعلى في بعض المناطق .. مما قلل من فاعلية مدافع الماء .. وبدلا من ان تشق الممرات في ست ساعات احتاج الامر الى ستة عشر ساعة.. واضطروا الى استخدام المتفجرات.. والبولدوزرات ايضا ..

ومن الطريف ان هذا التأخير - غير المتعمد - للجيش الثالث قد افاده في عملياته .. اذ ان نجاح الجيش الثاني في شق الساتر الترابي والعبور قبل ساعتين بل قبل ثلاث ساعات في بعض المواقع من الوقت المتوقع له في الخطة ، قد جعل الاسرائيليين يتصورون ان الهجوم المصري الاساسي يتم بواسطة الجيش الثاني ، وان دور الجيش الثالث مجرد دور ثانوي لتثبيت الهجوم ومساعدة الجيش الثاني في محاولته لتطويق القوات الاسرائيلية من الشمال .

لهذا لم يركز الاسرائيليون على الجيش الثالث في البداية كما ركزوا هجماتهم المضادة على الجيش الثاني .. وهكذا « رب ضارة نافعة » !.

***

كان هناك تنسيق دقيق كما قلنا .. ومع ذلك لم تكن الامور تتوالى على مسرح القتال خطوة خطوة كفصول رواية مسرحية .. انما تداخلت « الفصول » والمهام.. واختلطت المناظر ومع ذلك في اطار التخطيط الدقيق الموضوع سلفا ..

فبينما المهندسون يشقون الساتر .. وفريق آخر منهم يطهرون الارض من الالغام .. يهرع الجنود ومعهم سلالم يلقون بها على الحائط الترابي .. ويصعدون او يصعد زملاؤهم .. وبعضهم يجر عربات صغيرة كعربات حمل المتاع محملة بالذخيرة والاسلحة .. والعربات ثقيلة بما تحمل والرجال يبذلون جهدا وهم يصعدون .. فالصعود منفردا مشقة في حد

ذاته .. فما بالك وهم يجرون معهم هذه المئات من الكيلوجرامات الى اعلى؟ !

ولكن ربما كان هؤلاء الذين يجرون عربات اسعد حظا من اولئك الذين حملوا فوق ظهورهم ذخيرة واسلحة ومتاعا .. ثم لم تكن تنتهي «متاعبهم» بعد الوصول الى قمة الساتر .. وانما كان عليهم ان يدلوا بأسلات معلقة في اوناش صغيرة حملوها معهم .. ليربط فيها الرجال على السفح الاسلحة والذخائر ..والآخرون يرفعون ..

كان على العابرين ان ينقلوا السلاح والذخيرة بأية طريقة الى هناك.. ليستطيعوا تنفيذ المهمة ..

ولم يكن احد يحس بأي تعب .. بل حول الحماس الجنود الى فراشات طائرة .. لا تحس بوزن او ثقل .. وقبل هذا وذاك لا تخاف الموت الذي ينصب عليها من كل ناحية .. بل ينتشر في كل بوصة من الفضاء المحيط بها .. بل الارض ايضا ..

وكانت التعليمات لدى الجنود .. ان اول مفرزة تصل الى قمة الساتر الترابي عليها أن ترفع العلم المصري بأي شكل ..

ولم يرفع العلم الا بضحايا .. ولكنه رفع .. وباصرار ..

وجن جنون الجنود .. وعلى حد تعبير احد الضباط الذين كانوا في الموجات الاولى للعبور : كان رفع العلم بمثابة موسيقى حماسية تعبر عن انبعاث الجندية المصرية من جديد .. بعد ان طمست طويلا ..

وهو تعبير يعكس نفسية العسكريين المصريين الذي سبق وعبر عنه اللواء فؤاد عزيز قائد الجيش الثاني في صفحات سابقة ..

كان ارتفاع العلم على الضفة الشرقية للقناة في تأثيره اقوى من موجات الطيران المصري وهم يرونها تعبر فوق رءوسهم متجهة الى عمق سيناء لضرب المواقع الاسرائيلية ..

وهلل الجنود على الضفة الغربية وتعجلوا اعداد الزوارق او عودتها.. ليعبروا .. والبعض القى بنفسه في الماء ليصل الى الضفة الشرقية سابحا ! ..

***

ولم يكد الجنود او الضباط الصغار وحدهم الذين يعبرون .. وسط هذا الجحيم .. بل كان القادة .. كل القادة .. قادة الفصائل والكتائب والالوية .. وقادة الفرق ايضا ..

في الساعة الثالثة والربع بعد بدء العبور بساعة وربع فقط .. والمهندسون ما زالوا يشقون الطريق الترابي .. اتجه العميد حسن ابو سعده مثلا .. قائد الفرقة الثانية في سيارة جيب وخلفه عربة لوري بمثابة غرفة قيادة متنقلة ..

وما ان اقترب من الماء ، ورآه جنود الفرقة الذين ينتظرون دورهم في العبور .. حتى صفقوا وصاحوا وهللوا :

الله اكبر .. ربنا معاك .. ربنا يوفقك .. النصر لنا .. وتسابق الجميع يريدون العبور معه ..

وقف القائد على مصطبة من مصاطب الدبابات ليشاهد المعركة قبل ان يعبر .. وكان العابرون قد بدءوا يهاجمون قلاع خط بارليف ..

في الرابعة الا سبع دقائق .. كان يعبر في قارب مطاطي عادي .. واثناء العبور اشعل سيجارة له .. واشعل سجاير لمرافقيه من الضباط والجنود ..

والرصاص ينهمر ودوي المدافع يصم الآذان ..

« كان حظي ان اصعد من نقطة عالية في الساتر الترابي .. ومعي متاعي كله ..

توقفت في منتصف الطريق .. فقد جاوزت الاربعين .. والساتر عال كما ترى ..

لكن صيحات الجنود الحماسية وترحيبهم بي كان بمثابة قوة سحرية دفعتني الى اختزال استراحتي .. ومضيت اصعد بسرعة اكبر ..

وفقدت احساسي للحظة باننا في معركة فيها دم وموت وخيل الي اننا في يوم عيد .. او في مباراة رياضية يتسابق الجنود وانا معهم فيها على صعود حاجز عال .. بين الصياح والتهليل !! .

تعثر جندي يحمل جهازا لاسلكيا ثقيلا .. فتوقف وقد اوشك ان يتدحرج ..

رأيته .. فنزلت امتارا .. ومددت يدي ليتشبث بها .. وصعدنا الساتر سويا .. ولكن كان حبلا طويلا من عشرات بل مئات الايدي امتد الى يدي يشدني .. هكذا كانت الروح .. روح العبور ..

وفي الجنوب مثلا كان « العميد » **عبد رب النبي حافظ** يعبر مع جنوده ويقف مع المهندسين الذين كانوا يبذلون جهودا مستميتة بعد ان رأوا قائدهم يقف معهم متعرضا لنفس الاخطار ــ لشق الساتر الترابي في وجه التكلس والطفل ..

وعندما بدا في صعود الساتر .. حاول بعض الجنود حمل متاعه عنه .. لكنه رفض .. وراح يعمل في تثبيت السلالم التي اسندها الجنود على الحائط حتى يساعدهم على العبور ..

وعندما وصل الى قمة الحائط التفت الى اركان حربه .. وتنهد قائلا وهو يضحك والرصاص من حوله يلعلع !..

ـ اهو الواحد عرف كيف تأتي الذبحة الصدرية !..

***

كان كل شيء يسير على ما يرام « وفقا للخطة الموضوعة » ..

لقد كانت الخطة :

ان تعبر قوات مشاة

ان تستولي تلك القوات على قلاع خط بارليف ..

ان يتم اقامة معابر على القناة ..

ان يعبر المشاة مع مصفحات ..

ثم تعبر الدبابات ..

كل ذلك تحت غطاء المدفعية الثقيلة ..

ها هم المشاة قد عبروا .. ثمانية آلاف على طول ١٦٠ كيلومترا .. وليس من نقاط العبور المتوقعة عادة .. وهم وحدهم الآن .. بطولهم واسلحتهم .. دون دروع ؟!..

وكان السؤال الذي طرحه العسكريون الاجانب دائما .. كيف ستواجه قوات المشاة دبابات العدو وطيرانه وقواته المختلفة لعدة ساعات وحدها حتى يتم شق الساتر وادخال الاسلحة الثقيلة والمدرعات ؟.

وفوق هذا عليهم ان يقوموا بعمل عسكري مجيد .. احتلال قلاع وحصون ؟.. ثم منع دبابات العدو من الفتك بهم ؟!..

في احدى المرات قال جنرال سوفيتي لقائد مصري وهما يتحدثان في الامر في احدى المناورات المشابهة على « العبور » ان ذلك امر اشبه بمن يحارب باسلحة الحرب العالمية الثانية عدوا يحارب باسلحة عام ١٩٧٣ !..

فقال القائد المصري ..

ـ ان تعويض الفرق في هذه الحال .. هو معنوية الرجال ..

هز الجنرال السوفيتي راسه قائلا :

ـ معك حق .. فالانسان اكبر راسمال ..

***

عقارب الساعة تدور .. وما زالت الثغرات في الساتر لم تفتح بعد .. والرصاص ينهمر فوق رؤوس الرجال .. وقدرة الاسرائيليين على الاصابة تزداد .

رصاص الإسرائيليين يزداد انهمارا .. وقدرتهم على الاصابة تزداد باقتراب الرجال .. ويسقط ابطال ويتدحرجون الى اسفل .. الى مياه القناة ومع ذلك فالرجال يتقدمون فلا حرب بدون خسائر ..

الله اكبر .. جاي لكم يا اولاد الكلب ..

وكلما سقط شهيد تضاعفت سرعة الرجال في الركض والصعود الى اعلى .

قال اللواء سعد مامون أن سرعة العبور وسرعة الصعود في الحرب الحقيقية كانت اكبر منها في المناورات العسكرية ..

***

فجاة بعد اربعين دقيقة من ساعة الصفر .. اي الساعة الثالثة بعد الظهر تماما .. ظهر سلاح الطيران الاسرائيلي في سماء المعركة ..

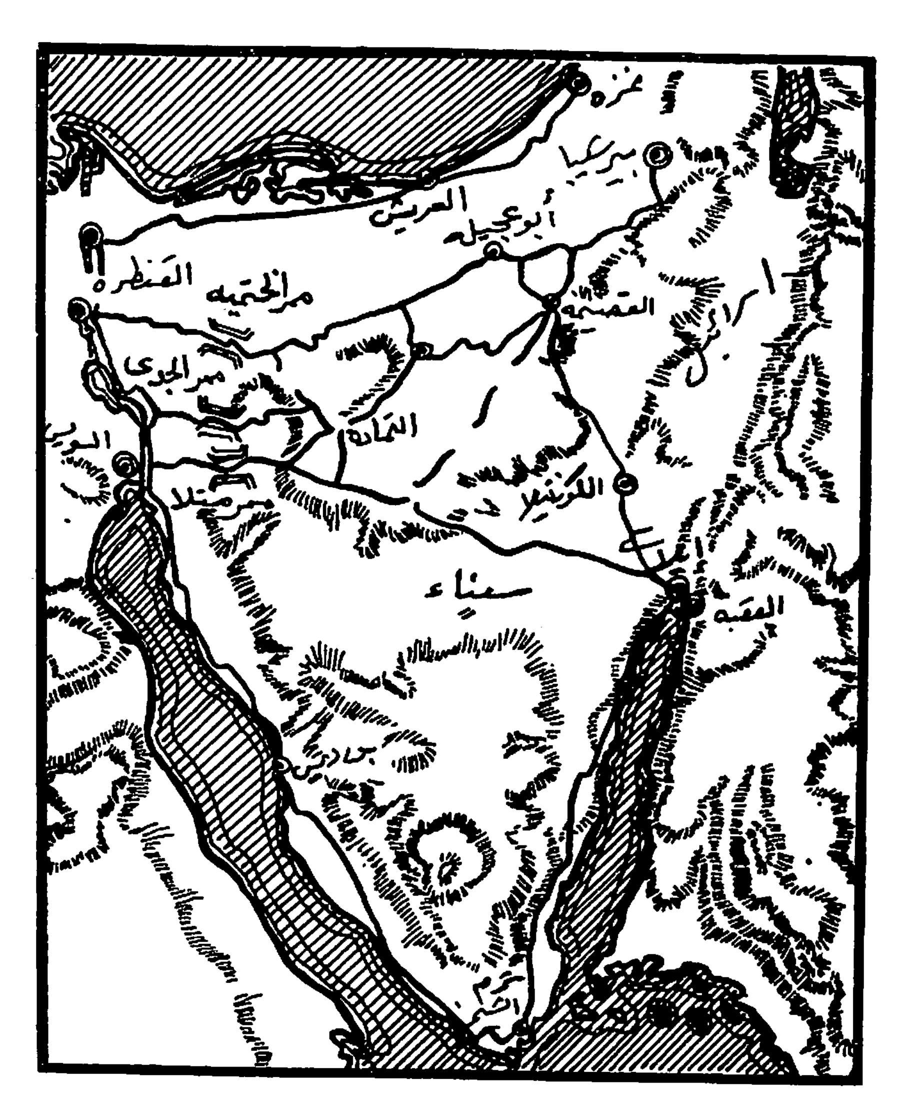
لقد استطاع الاسرائيليون توجيه طائراتهم من مطارات داخل العمق الاسرائيلي نفسه .. وبدءوا في مهاجمة القوات العابرة ..

كان الاسرائيليون يثقون ثقة كاملة في انهم قادرون على سحق الهجوم المصري او كسر حدته على الاقل بطائراتهم . فقد اكتسب سلاح طيرانهم شهرة تكاد تكون عالمية في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

وبينما يؤدي سلاح الجو الاسرائيلي المهمة .. تكون القوات البرية والمدرعة في الطريق حتى تاتي وتصطدم ببقية القوات المصرية المثخنة بالجراح من ضربات الطيران القاصمة .. ومن ثم يسهل على الجيش الذي لا يقهر الاجهاز عليها .

وينفض الجنرالات الاسرائيليون ايديهم من هذه المهمة « الصغيرة » بينما يبتسم العالم اشفاقا على المصريين لارتكابهم هذه الحماقة الجديدة .

هذا هو الاطار التخطيطي ومن ورائه العمق النفسي الذي حكم عقلية قادة اسرائيل العسكريين والسياسيين . وهو ما توقعوا ان تتطور الحوادث على النسق الذي اوضحناه .



الممرات الثلاثة التي تسيطر على سيناء ممر متلا ، الجدي . الختيمة

وهو ايضا الاطار الذي اعترف الجنرال الاسرائيلي ميتا هو بليد بخطئه عندما قال بعد ايام من الحرب « ان اسرائيل اضيرت كثيرا من المبالغة في الثقة بالنفس نتيجة انتصارات قديمة في الماضي .. » ..

ولكن مفاجأة اخرى كانت تنتظر القيادة الاسرائيلية ..

لم يجزع الجنود المصريون لرؤية الفانتوم والسكاي هوك والميراج .. ولم يولوا الادبار .. الى زوارقهم المطاطية ليعودوا ادراجهم الى بر الامان .. الشاطىء الغربي للقناة ..

وانما مضى الجنود يتسلقون الحائط ويشقونه .. ثم كان أول عمل هو رفع العلم المصري فوق السد الترابي .. فجعل ذلك الجنود يقفزون في حماس منقطع النظير الى دشم خط بارليف الحصينة نفسها ويواجهون الدبابات ومدافع الهاوتزر .. واخيرا « الجندي الاسرائيلي » الاسطوري السوبرمان الذي يكفي ان يقال له هذه المدينة فيفتحها على حد تعبير ساخر للنيوزويك ...

وكانت المفاجأة الثانية والمهلكة هي حائط الصواريخ المصري ..

في اول هجوم لطيران العدو .. كان واضحا انه لا يدري اين يركز ضرباته .. لان العبور كان على طول الجبهة .. ومن هنا كانت ضرباته في البداية نوعا من التخبط والتلطيش ..

ولم تستطع كل وسائل خداعه الاليكتروني ان تفعل شيئا : لا ان تشوش على الرادار ولا ان تجتذب الصواريخ .

وفي الساعتين الاولى لطلعات العدو تهاوت خمس عشرة طائرة اسرائيلية .

الجنود العابرون يشهدون تساقط الفانتوم والسكاي هوك فيهللون ويكبرون ويتعانقون من الفرح ..

هذه اول مرة يشاهدون هذا التهاوي « لعنقاء » الجو .. سلاح الطيران الاسرائيلي .

الثقة تملأ نفوسهم .. والشجاعة تتضاعف .. والهجوم يأخذ اشكالا واساليب اكثر جسارة ..

الجنود المصريون يقتحمون الدشم مستخدمين الاسلحة الخفيفة .. والقنابل اليدوية والالغام يلصقونها ببوابات الصلب في الدشم .

الجنود الاسرائيليون بهتوا .. فذعروا .. المصريون فوق رءوسهم !؟.

اين مارد جيش الدفاع الاسرائيلي يحمي خط بارليف .. اسطورة العصر

ها هم الجنود المصريون يقتحمون عليهم حصونهم .. غرفهم المكيفة الهواء .. ويتلاحمون معهم بالمسدس والسلاح الابيض .. حتى الكاراتيه التي تدرب عليها الالوف من جنود الصاعقة في السنتين الاخيرتين ..

وبينما هؤلاء الجنود يقتحمون الحصون .. كان زملاء لهم يتقدمون الى الامام .. ليواجهوا دبابات العدو من الاحتياطي .. وقبلهم كان هناك ابطال من « الصاعقة » انزلوا بعمليات ابرار بطائرات الهليكوبتر .. ليمنعوا تقدم مدرعات العدو الى الامام لصد الهجوم ..

وربما كان افضل تصوير لكيف اقتحم الجنود قلاع خط بارليف أن نستمع الى الاسرائيليين انفسهم اللذين دهمهم المصريون في الدشم .. ولكن قبل ذلك لنرى ماذا فعل الرجال امام الدبابات .. ثم بعد ذلك نقرأ الفصل الخاص : اسرى يتكلمون !

٨

قِلّة تهزم .. جيشاً بأسره!

● عليه ان ينقض كالصاعقة على العدو .. ثم يختفي كالشبح ، وبقدر ما يستطيع جندي الصاعقة ان يضرب العدو ضربات موجعة في الخفاء .. ثم يذوب لينتقل الى مكان آخر حيث يوجد العدو ليصليه نارا حامية .. بقدر ما يحقق ذلك فهو قد نجح في مهمته ..

والانسان العادي قد يتحمل العطش يوما .. ويومين وثلاثه على الاكثر ..

ولكن انسان الصاعقة يمكن ان يتحمل الطعش اربعة وخمسة ايام في هجير الصحراء ..

وانسان الصاعقة وفقا لهذه القدرة الخارقة على الاحتمال يستطيع ان يأكل الثعابين والسحالى والهوام والاعشاب .. ويستطيع ان يسد رمقه بكسرة خبز جافة في اربع وعشرين ساعة ويقاتل في نفس اليوم ..

وهو يستطيع ان يقوم باعمال خارقة في مجال الحركة البدنية كانه لاعب اكروبات ..

ان امامه هدفا واحدا محددا .. ان يدمر العدو .. وقلبه مليء بشيء واحد .. هو الايمان العميق بقضيته .. لا مكان فيه لذرة من الخوف او القلق .. فهو جندي من نوع خاص .. ويدرب تدريبا من نوع خاص .. فلا عذر له ولا مبرر ..

بعد هذا التعريف بالصاعقة .. ماذا كان دورها في المعركة ؟

هذا الدور الذي جعل **اللواء سعد مامون** قائد الجيش الثاني عند العبور يعانق

في حرارة قائد الصاعقة العميد نبيل شكري بعد نجاح العبور .. ويقول له في جذل :

« لقد فعلتم اكثر مما كنت اتصور ! »

ومن قبل قال الرئيس السادات لعدد من ضباط وجنود الصاعقة وهو « يتمم » عليهم قبل العبور باسابيع !

سأكلفكم بمهام شاقة اشفق عليكم من صعوبة تنفيذها !..

ان مهمة الصاعقة ليست احتلال مواقع او ارض .. انما مهمتها .. تدمير .. وارباك .. وصرف انظار العدو ..

للعدو الاسرائيلي كما بينا من قبل احتياطي قريب .. واحتياطي بعيد .. وعلى هذين الفريقين من الاحتياطي (اللذين تقوم قوتهما الاساسية على الدبابات والمدرعات والسيارات نصف جنزير) .. يعتمد الاسرائيليون كما اوضحنا في صد اي عبور مصري ريثما تأتي القوة الضاربة الرئيسية من الجيش الاسرائيلي بعد تعبئة الاحتياطي الاساسي ..

طارت طائرات الهليكوبتر قبل العبور تحمل فصائل الصاعقة ونزلت بعيدا عند المحور الشمالي والمحور الاوسط ومتلا وسدر .. لتواجه الاحتياطي البعيد للعدو ..

وانزلت قوات اخرى عند ابو زنيمه وابو رديس وراس علبه .

والهدف هنا تضليل العدو .. ايهامه ان الجيش المصري سيقوم بعملية « غزو » كبيرة في تلك المناطق .. فيتجه ببعض قواته اليها .. ويخف الضغط على اماكن النزول الحقيقية .

وعززت تلك القوات بقوات اخرى بعد العبور بساعات قبل آخر ضوء .

اما بالنسبة للاحتياطي القريب .. فقد كانت فصائل الصاعقة هي اول الفصائل التي عبرت القناة .. وصعدت الساتر الترابي .. واتجهت على الفور تاركة مهمة احتلال قلاع خط بارليف للجنود المشاة .. اسرع رجال الصاعقة يجرون كيلومترين وثلاثة .. وانتشروا عند الممرات والطرق والمحاور .. على جانبيها .. ومعهم الصواريخ المضادة للدبابات .. وقذائف الآ.ر.ب.ج.. والمدافع الخفيفة على انواعها .. كان على هؤلاء الرجال ان يمتصوا هجوم الاحتياطي القريب .. وتدميره ومنعه باية طريقة من التقدم والهجوم على المشاة المشغولين باحتلال القلاع والمهندسين الذين ما زالوا يشقون الساتر الترابي بمدافع الماء .

ورجل الصاعقة ينجح في مهمته دائما .. لانه حتى لو لم يستطع ان يمنع مرور العدو .. فانه يصيبه بالارتباك .. ويسبب له الانهاك فحتى

اذا واصل تقدمه وصل مشتتا ومضروبا ومثخنا بالجراح بدلا من ان تكون قوته ١٠٠ ٪ ..

ورجل الصاعقة لا يواجه العدو مباشرة .. انما يقترب منه اقترابا غير مباشر ويأتيه من مكان غير متوقـع ..

لنستمع الى ما حكاه اسير اسرائيلي لقائد كتيبة مصري .. قال الملازم مفتال في حديث مسجل :

ـ كنا نتقدم .. بدباباتنا متجهين بسرعة نحو نقطة الفردان .. وفجأة قبل أن نصل بثلاث كيلومترات .. رأيت بقعا تقفز فجأة من الحفر ومـن وراء تلال .. كانوا رجالا يتحركون .. وبعضهم كان يحمل اشياء اشبـه بالصناديق السـوداء . .لم اعرف في البداية ماذا يعني هذا ..

وامرت بتوجيه الرشاش ضدهم .. رغم علمي ان ذلك لم يكن امرا واقعيا فقد كانوا يتواثبون في خفة القطط .. ويرتمون على الرمـال .. ويختفون وراء تبة او تلة ..

ولكنا فعلنا ذلك ..

يا الهي .. ان احدا لم يقل لنا باننا سنحارب جنود مشاة .. لانني بعد لحظات ادركت ماذا يحمل هؤلاء الرجال معهم .. لقد شاهدت صاروخ ساجر في اتجاه دبابة على يسـاري ..

وعندما صرخت يبدو ان احدا لم يسمعني لان صوتي كان مبحوحا .. كنت اصرخ نار .. ورأيت حديد الدبابة ينصهر .. وتنفجر من داخلهــا بفعل الذخيرة فيها ..

وجهت مدفع دبابتي الى الرجال الذين يطلقون علينا الصواريـخ .. انفجرت القذيفة .. اختفوا عن اعيننا فترة .. لكـن مرة اخرى .. رايت صاروخا .. جديدا .. في اتجاهي ..

وشعرت بخبطة .. القذيفة أصابت البرج .. اصيب حامل الذخيرة .. ودمر اللاسلكي .. واستطعت ان اصدر تعليمات بالصراخ المبحـوح والرفس .. ثم رايت الدماء تسـيل من ذراعي ..

بعد لحظات كنا جميعا خارج الدبابة .. وجرينا في اتجاه دبابة اخرى من دباباتنا .. لاحقتنا طلقات رصاص من اسلحة خفيفة ..

التفت خلفي والدماء تنزف مني .. وجدت قائد السرية يزحف على ركبتيه والدماء تنزف من كتفه .. لقد انفجرت دبابته هو الاخر .. قـال لي : « اعط هذه الدبله لزوجتي » وهو يخلعها من معصمه .. بكيت مـن الحزن والقهـر ..

ثم فوجئت بالمصريين .. بيننا يجمعوننا من الارض كما لو كانوا يجمعون ثمارا معطوبة سقطت من الاشجار ..

ولم يظهر المصريون الا بعد ان دمروا ثلاثا من دبابات السرية .. بينما لاذت الدبابات الباقية بالفرار ..

ووضعونا في منخفض بين تلين .. بينما ركع جندي مصري يضمد جراحنا نحن الاثنين .. وقيدوا الثالث السليم بحبل من يديه .. فقد كانوا مضطرين الى تركنا .. ليعودوا يستعدون لمواجهة اي دبابات جديدة من دباباتنا تظهر .. مكتفين من حين لاخر بواحد من جنودهم يلقي نظرة عابرة علينا من قرب ..

لم تكن هناك اي وسيلة لنقلنا الى حافة القناة .. فلم تكن هناك مركبة مصرية واحدة قد عبرت حتى تلك الساعة .. »

ويقول اسير آخر هو الجاويش ليفي في حديث مسجل ايضا وكان واحدا من طاقم احدى دبابات الاحتياطي القريب التي تحركت بعد العبور وواجهت كمائن رجال الصاعقة ..

« لقد اذهلني وانا الذي اشتركت في حرب ١٩٦٧ .. ان ارى الدبابات الاسرائيلية تتراجع الى الوراء .. كانت هذه هي الحرب الاولى التي يحدث فيها شيء كهذا ..

بل بقيت دبابات في ارض العدو ــ يقصد الارض المصرية ــ مدمرة ومصابة وفي داخلها قتلى وجرحى .. دون ان يكون بالامكان انقاذهم .. واللذين قفزوا من داخل تلك الدبابات أما ادركهم رصاص المصريين او كانوا اسعد حظا مثلي فأسروا » .

* * *

نجحت الصاعقة في القيام بدورها .. فقد عطلت الاحتياطي .. قريبه وبعيده .. بحيث تم اقامة رؤوس الكباري وتحملت قوة قليلة صدمة هجمات كبيرة من قوات تفوقها عدة وعددا ..

كما نجحت الصاعقة في تشتيت اتجاهات قوة العدو .. فقد دعم المنطقة الجنوبية بعد نزول الصاعقة في **مضيق سدر** .. بلواء مدرع ولواء مظلات .. اي ان عددا قليلا من الرجال نجحوا في حجز قوات كبيرة في اتجاهات ثانوية ..

ولقد ظل هؤلاء الرجال ستة عشر يوما في ذلك المكان وحدهم يشاغلون

العدو ويحاربونه .. وعندما عادوا .. عادوا سيرا على الاقدام مخترقين خطوطه ..

واضطرت الصاعقة في ظروف معينة رغم انها ليست قوات احتلال كما قلنا الى المساهمة في احتلال بعض النقاط الحصينة في خط بارليف .. كما كانت فرقة صاعقة بقيادة الرائد زغلول فتحي تلك التي حاصرت موقع لسان بور توفيق الذي استسلم واثار استسلامه اهتمام العالم كله.

وفي الفصل الخاص ببطولات الرجال .. سنقرا حكايات اسطورية عن جنود وضباط الصاعقة ..

٩

أسرى يتكلمون ؟!

« رايت خرطوم قاذف للهب يدخل من نافذة الدشمه وبدا لي وانا في حالة من الذهول انه خرطوم مياه .. ثم انبثقت منه النار فجاة .. فحولت ستة من رفاقي الى رماد !.. »

الاسير الاسرائيلي بوسي بيرن

كان الجنود المصريون .. يهجمون على قلاع خط بارليف .. وهم لا يحملون معهم سوى المدافع الرشاشة .. والقنابل اليدوية .. والخناجر والمسدسات ..

قبل هجومهم كانت المدفعية قد دكت تلك القلاع .. واصابتها بأضرار حقا .. ولكن كما قلنا ان هذه القلاع كانت معدة لتحمل قنابل زنة الف رطل.. بيد ان هذا القصف المتواصل قد نجح في احداث ارتباك بين الجنود الاسرائيليين .. وجعلهم يختفون في الملاجىء .. ولكن ذلك لم يمنعهم من استخدام المدافع والرشاشات من المزاغل ..

وقد مكنهم هذا من المقاومة .. وبعض المواقع الاسرائيلية ظلت تقاوم ثلاثة واربعة ايام ..

وقد كانت التعليمات تقضي بتجاوز المواقع التي يتعذر على المشاة اقتحامها .. ومحاصرتها .. ريثما يتم عبور الدبابات ..

ولقد ظن الاسرائيليون في البداية ان **يوم العبور هذا هو بمثابة اليوم السابع من حرب الايام الستة ، واعتقدوا انه تكفي خبطة على صفيحة**

لتطير العصافير مذعورة .. على حد تعبير كاتب اسرائيلي .. ولذلك لم يتصور الجنود الاسرائيليون القابعرن في قلاع خط بارليف ان المصريين سيصلون اليهم في قاع القلعة .. ويذبحونهم ذبح الشاة !..

يحكي رفاق الشهيد الرائد محمد محمد زرد .. كيف اقتحموا احدى نقاط الخط .. لقد جمع الرائد ستة من الرجال .. وتسللوا زاحفين على بطونهم حتى اعلى نقطة في الحصن .. وعثروا على فتحة علوية القوا منها ثلاث قنابل يدوية .. ثم قفزوا وراءها على الفور .. يطلقون الرصاص من رشاشاتهم ودخان القنابل لم ينقشع بعد ..

وقتلوا من بقي حيا من رجال العدو .. في هذا الملجأ .. ثم انتقلوا الى ملجأ اخر .. وهناك اصابت رصاصة من العدو الشهيد زرد نفسه .. فتولى القيادة الملازم سمير عبد الرحمن .. واحد من الرجال الستة .. بينما زحف جندي الى مواقع القوة الاصلية واصطحب مجموعة اخرى هجمت على الحصن من فتحة مقابلة بناء على تعليمات القائد الجديد ..

ومن ملجأ لاجأ امكن تطهير الموقع .. واسر ٢١ جنديا اسرائيليا فيه بينهم ضباط وطبيب .. وقتل اثنى عشر اسرائيليا ..

وفي احدى الهجمات على قلعة من القلاع .. اندفع ضابط شاب الى مزغل من مزاغل القلعة كان يصلي الجنود المهاجمين نارا حامية .. والقى بنفسه على المزغل وسده بجسده بعد ان القى قنبلة يدوية على الجنود اللذين يحركونه ..

ولقد كانت هذه الهجمات جميعا .. عاملا هاما في عرقلة تركيز هجوم تلك القلاع على المهندسين اللذين اوشكوا الان على الانتهاء من شق الساتر الترابي في مواقع عديدة .. واقامة الكباري .. حتى استطاعت اول دبابة مصرية عبور القناة من الغرب الى الشرق فوق احد المعابر عند الكيلو ١٩ جنوب بور سعيد في تمام الساعة الثامنة وعشر دقائق مساء ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ..

ومع عبور الدبابات والسيارات والمصفحات والنصف مجنزرات .. اتخذت المعركة طابعا اخر ..

بدأت تصفية المواقع التي لم يحتلها المشاة وتركوها ..

وواجهت الدبابات المصرية الهجمات المضادة الاسرائيلية ..

كيف تلقى الاسرائيليون عمليات اقتحام قلاعهم الاسطورية ؟.

لقد كانوا يتساءلون .. وهم في حالة ذهول بعد وقوعهم في الاسر :

اين كان هؤلاء المصريون .. انهم ليسوا هم المصريون اللذين عرفناهم ؟!

ومن التسجيلات التي سجلت لهؤلاء الاسرى يمكن ان نرى صورة بل صورا لملاحم القدرة المصرية والتفوق المصري على الجيش الاسرائيلي الذي نجح لا في ايهام العرب والعالم بتفوقه فقط .. بل نجح في اقناع نفسه هو ذاته .. واقناع النفس اصعب من أقناع الغير !..

★ ☆ ★

قبل غروب شمس يوم ٦ اكتوبر بدا احتمال سقوط نقاط خط بارليف في يد الجيش المصري شيئا لا بد ان تواجهه القيادة الاسرائيلية ، فقد اتاحت اجهزة اللاسلكي الموجودة بوفرة في مقر غرفة العمليات الاسرائيلية مع كل نقطة حصينة ان يعرف كل من وجدوا في تلك الغرفة حقيقة الموقف .. فقد كانت شبكة الاتصال موجودة رغم القصف المصري المروع للمدفعية ..

لكن الحقيقة بالضبط لم تكن معروفة .. ويروي احد الضباط الاسرائيليين ان ضابطا في غرفة العمليات صرخ في جهاز اللاسلكي الموجود في الغرفة مخاطبا قائد احد هذه المواقع :

ماذا يجري بحق السماء عندكم ؟..

فرد عليه القائد ..

الافضل ان تسمع بنفسك ..

وانبعثت من خلال جهاز اللاسلكي اصوات طلقات الرصاص متتالية من المدافع الرشاشة التيحملها الجنود المصريون المهاجمون للجنود الاسرائيليين مباشرة في ملاجىء الحصن وسراديبه .

ويروي الاسير **بوسي بيرن** .. قصة مهاجمة المصريين للحصن الذي كان يعسكر فيه في القطاع الجنوبي للقناة ..

وكان بوسي على وشك ترك الخدمة من الجيش الاسرائيلي في تاريخ لاحق لبدء حرب اكتوبر باسبوع واحد .. لكن ٦ اكتوبر ادركه ..

« كنا قد تمركزنا في الحصن منذ ثلاثة ايام فقط ..

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم عيد الغفران .. لاحظت شيئا ما يطير في اتجاهي .. ظننت انها قذيفة افلتت عفوا من مدفعية ولكن اكتشفت بعد ذلك انها صاروخ .. ثم توالت صواريخ .. مع دوي مروع .. وكأن القيامة قد قامت ..

شددت الحبل مستنجدا بقائد الموقع .. الذي صعد الى اعلى .. ليتلقى رصاصة في بطنه ..

ثم لدهشتي بدت امام عيني وكاني في حلم اعداد من المصريين تتسلق الحصن كانه قلعة من قلاع القرون الوسطى ..

وقسم قائد الموقع السرية التي كانت مرابطة في الحصن وعددها مائة شخص في مواقع مختلفة ..

ولكن المصريين هاجمرنا من كل ناحية .. كنا نرد بعضهم في موقع .. فاذا بنا نجدهم من جديد .. وفي مواقع اخرى لا نتوقعها ..

ثم هدأ كل شيء عند المساء فجاة .. وراقبنا ما يجري بعد ان تشجعنا على الصعود .. فاذا بنا نجد دباباتهم تشق الممرات التي صنعوها في الساتر الترابي .. وترابط دبابتان شرق وغرب موقعنا بحيث تصبان نيرانا متقطعة ..

ولم يكن بوسع الدبابتين اللتين ترابطان في موقعنا ان تخرجا منه .. بعد ان انطلق مرة صاروخ ساجر في اتجاه الدبابة التي حاولت ان تصعد..

لكن السكون .. ومرابطة الدبابتين المصريتين اغريا دبابتينا على الخروج .. وحدثت معركة يائسة لفك الحصار عنا .. لكن الدبابتين اصيبتا من صواريخ لا ندري من اين جاءت ..

وقتل حتى الان خمسة عشر جنديا من زملائي ..

وكنا ننادي على القيادة .. لينقذونا .. ولكن مضت ثلاثة ايام تقريبا ولا نتيجة ..

قررت انا وزملائي في الملجأ الذي كنا فيه ان نحسم الموقف بطريقتنا الخاصة ..

وربما كانت النقطة الفاصلة في اتخاذ هذا القرار هو ما شاهدته عندما رأيت خرطوم قاذف للهب يدخل من نافذة الدشمة . وبدا وانا في حالة ذهول انه خرطوم مياه .. ثم انبعثت منه النار فجاة .. فحولت ستة من رفاقي الى رماد .. كانوا امامي كالاصنام المشوهة في نار جهنم .

تقوقعت مع الثلاثة الباقين من زملائي في زاوية بالدشمة ونحن نسمع من النافذة أصواتا عالية تتحدث بالعربية .. واصواتا متتالية لطلقات المدافع الرشاشة ..

خرجنا نحن الاربعة الى مدخل الدشمة نتحسس طريقنا .. راينا جنديين مصريين في سيارة جيب .. وظهرهما نحونا .. هجمنا عليهما نحن الاربعة وخنقناهم بايدينا .. حتى لا يسمع احد استغاثتهما .. وادرنا محرك سيارة الجيب وانطلقنا في اتجاه الشرق .. نحاول الهرب .. بينما نحن في ممرات الحصن .. لقينا عددا من جنودنا يحاولون الفرار من ذلك

الجحيم .. تعلق بعضهم بالسيارة وهي تجري اذ لم نستطع الوقوف خوفا من تعريضها للخطر ..

اصبحنا تسعة الان فوق السيارة الجيب ..

وفجاة .. ونحن ما زلنا في فناء الحصن لعلع الرصاص فوق رؤوسنا .. وسقط خمسة من زملائي .. منهم ثلاثة ممن كانوا معي في الدشمة وشاهدوا الحريق ..

وسمعت اصواتا تطلب مني التوقف والاستسلام .. تملكني الفزع .. تصورت نفسي ساشوى حيا كما حدث لزملائي .. لكني توقفت وانا ارفع يدي الى فوق ..

وها انا في الاسر الان .. حيا .. حتى لم اجرح !.. »

واسيراخر الملازم يائيل .. قائد احدى النقط في القنطرة ..

كان الكثير من جنودنا في الدشم قد اصيبوا بجراح .. وكانت اصوات الانين تثير القلق ان لم يكن الجزع في نفوس من بقوا يقاتلون .. خصوصا ان القتلى حولنا كانوا موجودين وما زالت دماؤهم تنزف .. ثم تجري في مسارب على تراب الدشمة لتتحول الى جداول حمراء متجمدة !

وكان طبيب الحصن عاجزا عن معالجة كثيرين من الجرحى اللذين كانت اصاباتهم بالغة .. والاجهزة قاصرة .. وكان حتما اخلاءهم ولكن كيف .. وكنا نصرخ في اللاسلكي محدثين مستمعينا عن التقليد المقدس لدى الجيش الاسرائيلي بضرورة نقل الجرحى وعدم تركهم في يد العدو .. فقد كان واضحا لنا ان سقوط الموقع في يد المصريين امر وشيك .. وانها مسالة وقت لا اكثر ولا اقل ..

وقد عرفنا ان عددا من الدبابات كان في طريقه لمساعدتنا وفك حصارنا .. لكن المصريين نجحوا في اصابة عدد منها .. ويئسنا تماما من وصول اي مساعدة خارجية ..

اعددنا خطة ذاتية بينما لم يعطنا المصريون فرصة خمس دقائق متتالية نلتقط فيها انفاسنا .. فقد كانوا يقصفوننا من كل اتجاه وبكل وسيلة ..

وكنا نعجب كيف يقتلون بعضنا ويصيبون الاخرين بجراح .. فقد كان ذلك يبدو شيئا مستحيلا بالنسبة لنا ونحن نتجول داخل الحصن قبل بدء القتال !...

واشعر الان .. كم كنا مخطئين في حساباتنا وتقديرنا ..

اننا كنا نشعر بالامن اذ كنا نتصور اننا سنهاجم بقذائف المدفعية او الدبابات او قنابل الطيران فقط ..

لم تكن نعمل حسابا للانسان المتحرك .. الذي يقفز من نقطة الى نقطة ومعه اسلحة خفيفة .. فهو بوسعه ـ كما حدث فعلا ـ ان ينتقل الى فتحة في جدار الحصن .. ويلقي في وجوهنا بقنبلة يدوية ..

وبوسعه أن يلقي بقنبلة دخان في احد ممرات الحصن .. تشكل ساترا لعدد من الجنود .. يقتربون من باب أحدى الدشم الفولاذي .. وينسفونه بالالغام او الديناميت ويقتحمون الدشمة علينا.. ويقاتلوننا وجها لوجه حتى بالسونكي والخنجر !

كانت خطتنا ان نهرب ونلتقط عربتين مجنزرتين كانتا في الحصن .. ونحاول اختراق الخطوط في اتجاه الشرق عبر الكمائن المصرية التي كنا نعرف انها متناثرة هنا وهناك .. حتى نصل الى اول نقطة اسرائيلية على بعد عشرة كيلو مترات شرقي التحصين ..

ولكننا اكتشفنا ان احدى السيارتين كانت قد اصيبت بقذيفة مصرية عطلتها عن العمل ..

وبات واضحا امامي اني لن استطيع نقل اربعين جنديا في مجنزرة واحدة هم اللذين بقوا احياء في الحصن .. ومن بينهم سبعة من الجرحى.. ان ذلك سيكون بمثابة انتحار ..

فوضعنا الجرحى وعددامن الجنود في السيارة الباقية .. وقررنا ان يسير الباقون على الاقدام ..

وفي الساعة الحادية عشرة مساء الاحد ٧ اكتوبر .. تسللنا من الحصن .. وبدأنا في تنفيذ الخطة ..

ولم يكن بوسعنا الا المرور عبر مدينة القنطرة التي كانت تعج بالمصريين ، وتصورنا انهم لن يتعرفوا علينا في « هيصة » الدبابات والمشاة السائدة في المدينة .. وفي ظلام الليل ..

كانت فكرة جنونية .. فالمجنزرة عليها نجمة داوود .. ولكن ماذا كان امامنا ان نفعل ؟.

بعد كيلو متر واحد .. اعترضتنا مجموعة دبابات مصرية .. ولم يحتج الامر لاكثر من دقيقة حتى كانت المجنزرة قد انفجرت بمن فيها وتحولت الى كتلة محترقة .. ولكن احدا من المشاة لم يصب ..

جرينا .. وتمكنا من الافلات ..

لكننا بعد قليل .. اصطدمنا بكمين مصري اخر .. انشق عنه الظلام فجاة ...

صاح احد جنودنا .. في اتجاه المصريين باللغة العربية :

احنا مصريين .. ما تضربش نار !.

وتوقف اطلاق النار لحظة فعلا .. ولكننا ما لبثنا ان سمعنا صوتا في الظلام يقول :

دول يهود .. لهجته غير مصرية .. اضرب نار !..

وتجدد اطلاق النار .. وانطلقت الصواريخ .. وقذائف الاضاءة حتى تحول الليل الى نهار !..

صرخت في رفاقي .. انسحبوا ..

وبدانا نجري ونحن نتفرق ولكن رصاص المصريين ادركنا وسقط منا عدد لا اعرفه ..

ونجحت انا واثنين معي في دخول احد البيوت الخالية في القنطرة وانا اسمع صراخ زملائي الجرحى ..

فرشت خريطة امامي في البيت الذي لجأنا اليه واضات بطاريتي لابحث فيها عن ممر آخر للتسلل الى خارج المدينة المحاصرة ..

وبينما نحن منكبون على الخريطة اذ بدوي الرصاص يتفجر في البيت .. واطفأت المصباح .. لكن سرعان ما اكتشفنا المصريون .. على وميض الرشاشات المتتالي ..

ورفعنا ايدينا .. وهم يشتموننا ..

يا اولاد الكلب .. تضحكوا علينا ..

وقال جندي مصري ..

ـ اقتلهم ولاد الكلب دول ..

لكن في الظلام قال اخر .. لعله قائد الفصيلة ..

ـ لا كفايه .. هاتهم لسيادة المقدم على طول ..

وعند سيادة المقدم وجدت ستة من زملائي ايضا .. وعرفت أن الباقين قد قتلوا او جرحوا .. لم يستطع واحد منا الافلات ! لان الذين استطاعوا الجري .. تاهوا في طرقات القنطرة المظلمة حتى اصطادهم المصريون اما قتلى او جرحى او اسرى ..

وروى اسير اسرائيلي اخر .. قصته .

كان احد جنود نقطة حصينة في القطاع الاوسط .. كان منوطا به جهاز اللاسلكي فيها ..

كان يعلم ان معظم سرايا الدبابات الاسرائيلية التي ارسلت لمعاونة التحصينات قد ابيدت ..

وقائد النقطة كلفه بابلاغ قائد لوائه بانه غير قادر على الصمود .. ولا يستطيع اخلاء الرجال الا اذا وصلته قوة مدرعة .. تنقلهم ..

وكان القائد قد اصيب بجروح بالغة اذ بترت يده .. وتسلم نائبه امر القيادة منه .. ولكنه اصيب هو الاخر .. فتسلم الزمام من بعده اسيرنا جندي اللاسلكي ..

كان يبلغ القيادة في ايجاز شديد : ان ٨٠٠ رجل يهاجموننا .. ثم يعود بعد دقائق يقول :

المصريون في فناء الحصن .. اني مختبىء انا والجميع .. اطلقوا النار بحق السماء .. اي نار من المدفعية على مواقعنا .. لتمنعوا هذا الطوفان !..

ويعود يقول مرة اخرى :

اطلقوا علينا ــ اي المصريين ــ الصواريخ .. وقذائف مدفعية الدبابات ونيران المدفعية الثقيلة .. والاسلحة الخفيفة ..

وصاح مرة يقول :

هم يقاتلون ــ اي المصريين ــ كالشياطين .. يصرخون وهم يلقون القنابل علينا .. لم نر جنودا كهؤلاء في حياتنا .. افعلوا اي شيء .

وقال في بلاغه الاخير ..

المصريون يدخلون !.

وكان حظه ان اسر .. مع ثلاثة عشر جنديا اخرين في الحصن ..

* * *

محاولات الانقاذ اليائسة :

منذ الساعات الاولى للعبور والاقتحام حاولت القيادة الاسرائيلية تحريك دباباتها ومدرعاتها لصد الهجوم .. ولكن عندما تبين استحالة ذلك اصبح الهدف فقط هو انقاذ الرجال في الحصون ..

وقد تمكنت الدبابات الاسرائيلية فعلا من الوصول الى بعض النقاط وانقاذ عدد من الجرحى .. وحمل جثث بعض القتلى (اربع دبابات في احد المواقع مثلا) ..

اما السبب في اخلاء الجرحى والقتلى فقط .. في البداية فهو تصور ساذج من القيادة الاسرائيلية ان بوسعها ان تقضي على الهجوم المصري بعد قليل ومن ثم فان الجنود الاحياء عليهم البقاء للاستمرار في القتال !

لكن الدبابات الاسرائيلية باعتراف الاسرائيليين انفسهم لم تستطع الاقتراب مطلقا من الحاجز الترابي الممتد على طول القناة عند معظم النقط حيث كانت مرابضها معدة سلفا ..

اذ اوقفتها الصواريخ المصرية المضادة للدبابات سواء من كمائن رجال الصاعقة كما ذكرنا من قبل او من الشاطىء الغربي للقناة ..

وفي ساعة متاخرة من ليلة الاحد ٧ اكتوبر وصل الجنرال جونين قائد المنطقة الجنوبية الى مقر قيادته الامامي في سيناء .. واسرع اليه الجنرال البرت مندلر قائد المدرعات فيها ايضا ودرس الاثنان الوضع فوجدا ان هناك مائة دبابة اسرائيلية تخوض قتالا فعليا على امتداد الخط الامامي ولكن التقارير كانت تؤكد انه قتال يائس لانقاذ المحاصرين في التحصينات ..

وعندما اكتشفت القيادة ان المصريين قد نجحوا في نقل خمس فرق الى الضفة الشرقية ومئات الدبابات .. عدلت القيادة عن تفكيرها السابق بابقاء جنود التحصينات الاحياء يقاتلون .. ان صد جيش من خمس فرق يحتاج الى جيش كبير .. كان في الطريق الان بعد استدعاء الاحتياطي..

وظهر يوم الاحد ٧ اكتوبر بعد ان تسلم الجنرالان اريك شارون (مغامر الثغرة فيما بعد) والجنرال ابراهام أدان قيادتيهما في الخطوط الاسرائيلية الامامية .. قررا الخروج لانقاذ رجال الحصون .. واعدا مائة دبابة اخرى لهذا الغرض .

ولكن بعد قليل كما يعترف البروفسور لاكور في كتابه ((المواجهة)) عن حرب اكتوبر ـ وهو كاتب موال لاسرائيل تماما ـ اتضح للقيادة الاسرائيلية ان ثمن محاولات الانقاذ هذه فادح جدا ..)) اذ خلف الجيش الاسرائيلي عندما حاول اختراق طوق الحصار المضروب على احدى النقط الحصينة نحو اربعين دبابة وناقلة جنود مصفحة .. كما اصيبت قوة اكبر في محاولة انقاذ نحو ثلاثين مقاتلا محاصرين » ..

ويروي قائد قوة انقاذ بعث بها الاسرائيليون لاخلاء رجال احد المواقع ..

« استطعت ان اخترق تشكيلا مصريا يتالف من وحدات من المشاة والدبابات التي نصبت كمائن على المحور .. وقد استمرت معركة الاختراق هذه عدة ساعات .. حتى وصلنا .. وما كدنا نجمع الجنود في الموقع .. حتى داهمتنا قوة مشاة مصرية .. ودارت بيننا وبينهم معركة ..

وعندما كنت اقاتلهم .. وكل شيء يشتعل من حولي .. والرجال يصرخون والجنود يقفزون لانقاذ المصابين .. رايت شيئا لم ادركه في البداية .. رايت دبابة ضخمة في حجم غير مالوف بالنسبة للدبابات ..

وقد مرت ثوان عديدة قبل ان اتبين انها دبابة عادية تراكم فوقها عشرات الاشخاص كما لو كانوا ركبوا بعضهم فوق بعض .

كانوا رجال الحصن .. الذين تعلقوا بظهر الدبابة .. وعلى برجها . وامسكوا بكل نتوء فيها .. .

وكان عدد من دباباتنا قد اصيب .. ومررت بينه وهو يشتعل .. وانا اخشى أن تصاب الدبابة العملاقة .. ولم اقو على تصور مقدار الخسارة في الارواح التي ستحدث .. حتى حدث كل شيء في ثوان .. اتاها صاروخ .. من جندي مشاة .. أو من قاعدة صواريخ في الغرب .. لا ادري .. طار الجنود أشلاء في الفضاء .. وانصهر البرج بمن عليه ..

ولم تكن تلك خسائرنا الوحيدة .. بل خسرنا اربع ناقلات للجنود .. وعدنا باربعة فقط انقذناهم ..

فيما بعد قابلت احد آباء واحد من الاربعة كنت اعرفه .. وقلت له : **انه ليحزنني ان محاولة انقاذ ابنك ورفاقه قد كلفتنا خمسة وعشرين قتيلا !..**

★★★

بعد هذا لم يكن امام القيادة الاسرائيلية مناص من العدول عن محاولة انقاذ جنود الحصون .. **واتخذ موشي ديان وزير الدفاع حينذاك القرار شخصيا عندما زار موقع القيادة الامامي : « لم يبق امامنا الا التخلي عنهم .. فليهرب من يستطيع الهرب .. اما الباقون بما فيهم الجرحى .. فليبقوا في الحصون ! » ..**

كان هذا على حد تعبير **البروفسور لاكور** « كفرا بالمبدا وتنكرا لكل ما هو مالوف ولكن لم يكن هناك خيار آخر ! » ..

١٠

نستسلم والا تكون "مسادة ثانية"؟!

كانت اجهزة التصنت المصرية تسجل حوارا بين الملازم اول شلومو أردينست قائد النقطةالحصينة في بور توفيق.. عند المدخل الجنوبي للقناة.

كانت القيادة الاسرائيلية تسأله ..

● هل تستطيع الصمود ..

فاجاب شلومو :

ـ أخشى ان ذلك مستحيل .. فوضعنا صعب ..

القيادة : ماذا تريد اذن ؟..

القائد : اريد الاستسلام ..

القيادة : ليس هناك ما يجبرك على الاستسلام .. فالامر متروك لتقديرك لموقفك ..

القائد : الم تعد فرصة هناك لتغيير القرار ؟

القيادة : هذا مرجعه اليك انت .. اذا قررت الصمود فسنساعدك قدر طاقتنا ..

القائد : هذه المعونة لا تكفي ..

القيادة : ان تلك هي الشروط التي قدمناها للصليب الاحمر .. والامر مرجعه اليك .

القائد : اعتقد أني لا استطيع الصمود .. فالقرار ايجابي حسب الشروط التي وضعتموها .. لقد تقرر الاستسلام اذن ..

لحظة صمت ثم يعود فيقول :
سنضطر الى الافتراق .. آمل ان اراك قريبا وسلامي الى البيت ..
القيادة : هل تريد شيئا ؟..
القائد : اريد العودة الى البيت !
القيادة : موضوع التسليم تم تنسيقه مع فوق (يقصد مع القيادة العليا) .
القائد : حسنا .. والا فسنكون مسادة ثانية (مسادة هو حصن حوصر فيه اليهود ايام الرومان حتى فنوا عن بكرة ابيهم) .
القيادة : سنراكم اذن على الشاشة (يقصد التلفزيون) مرفوعي الراس ..
القائد : لقد وعدوا بالتصرف حسب ميثاق جنيف .. سينقلون الجرحى والموتى .
القيادة : اعط تعليماتك بان يرفعوا رءوسهم .. ويبتسموا .. هل لديك ما تقول زيادة ؟..
القائد : قولوا للعائلات ما حدث .. واطلب من الزملاء ان يهتموا بالوالدين .. ويبلغوهما انني سليم .. الى اللقاء !
القيادة : شيء اخر ؟..
القائد : نعم .. اتصل بأفرات صديقتي بالتليفون واخبرها انني ساحمل بجانب بطاقة الاسير صورتها .. واذا لم تتح لي فرصة الاتصال بها . فاني افهم ذلك ..
القيادة : سنلتقي عندما تعود ..
القائد : كلنا نقدر ما حدث .. **الى اللقاء في تل ابيب !..**

ولو ان ذلك الحوار دار في عام ١٩٦٧ مثلا لما كان الضابط شلومو **قد اختتم حديثه بالقول : الى اللقاء في تل ابيب .. وانما لقال الى اللقاء في القاهرة أو على الاقل في السويس !.. ولكن كان واضحا ان الحرب هذه المرة شيء اخر .. وان كل ما يامل فيه الجنود الاسرائيليون هو ان يعودوا للقاء في تل أبيب .. من حيث اتوا !!.**

ولقد اتيح لي ان اشهد عملية استسلام جنود ذلك الموقع .. استسلام قوات من جيش « الدفاع » الاسرائيلي الذي لا يقهر !

ولكن قبل ان نصف حفل الاستسلام .. ماذا جرى في الموقع حتى اضطر قائده الى التسليم .. واجراء ذلك الحوار المثير الذي سجلناه .. اننا سنروي ما حدث .. من واقع ما ذكره الاسرى السبعة والثلاثون

الذين خرجوا رافعي الايدي من ذلك الحصن امامنا جميعا .. بل امام العالم كله (عن طريق كاميرات التليفزيون) ..

كان ذلك الحصن واحدا من الحصون الكبيرة والمنيعة لخط بارليف.. فقد كانت المياه تحيطه من ثلاث جهات .. ولم يكن هناك سوى طريق ضيق واحد يؤدي اليه .. وكان يضرب السويس باستمرار وبور توفيق خلال حرب الاستنزاف ..

وكان على الجيش الثالث ان يحتله ..

ويقول الملازم **شلومو أردينست** انه تلقى انذارا مسبقا بالهجوم المصري المتوقع يوم ٦ أكتوبر .. اي انه لم يؤخذ على غرة ولذلك اعد جنوده للاشتباك .

ـ « في الساعة الثانية جاءت الحرب اذ تساقطت القذائف بكثرة داخل الحصن .. ودمرت مراكز وسراديب ..

واستمرت النيران الثقيلة نحو ساعتين او ثلاث .. وعندما توقفت لفترة قصيرة وصلت اربع دبابات اسرائيلية الى فناء النقطة .. وقد أصيبت وكان فيها جرحى ..

ولكن بعد قليل لم يلبث بعض جنود الحصن انفسهم ان سقطوا جرحى!

وعندما خيم الظلام استطاع الملازم شلومو ان يتبين عشرة قوارب مصرية محملة بالجنود قادمة في اتجاه النقطة عبر القناة ..

وعندما امر باستخدام المدفع الرشاش الثقيل الموجود في الحصن اكتشفوا انه قد اصيب خلال قصف المدفعية المصرية .. فامر الجنود باطلاق النار على القوارب بمدافع « عوزى » ..

وسقط بعض الجنود المصريين في الماء .. ولكن الاغلبية نجحت في الوصول الى الساتر الترابي .. وتسلقته .. ووصلوا الى النقطة وهم يصيحون « اذبح اليهود اولاد الكلب » ..

واستطاع عدد من الجنود المصريين المزودين بقاذفات اللهب ان يتسللوا الى خزان الوقود القريب من الحصن .. واشعلوا فيه النار .. بينما القى اخرون بالقنابل اليدوية .. والنتيجة كانت مزيدا من الجرحى .. ثم اول قتيل اسرائيلي .

وما كادت تنتهي الليلة الاولى حتى عاد القصف الثقيل ينهمر على الحصن .. واطلق الجنود المصريون نيران البازوكا من مسافة قصيرة .. وقد اكتظت المنطقة بمئات منهم ..

وادرك القائد الاسرائيلي ان النقطة قد حوصرت وعزلت من جميع الجهات ..

« ولكني لم اشك قط في أن قوات الجيش الاسرائيلي ستهب لمساعدتي وفك الحصار عني .. » ..

وقال اسير اسرائيلي اخر : « كنت متأكدا انهم سياتون لانقاذنا » .. وعندما اشرقت الشمس في الصباح (**الرواية ما زالت من افواه الاسرى الاسرائيليين ونحن لا نتدخل الا للصياغة فقط**) .. اكتشف جنود النقطة منظرا مروعا ..

« أن ما تعودنا ان نراه كل صباح .. هو منطقة بيضاء من الرمال .. لقد رايناها صباح ٧ اكتوبر منطقة سوداء .. بسبب حشود المركبات المصرية من كل نوع .. واختفى الرمل الابيض ..

ومن حولنا كانت طوابير الدبابات المصرية والناقلات والمدافع .. وحاملات الصواريخ.. تسير وتتحرك الى الامام صوب الشرق.. ونحن؟.. محتجزون .. عاجزون .. » ..

سقطت آلاف القنابل على الحصن .. وتحت ستارها وصل الجنود المصريون حتى الجدران .. والقوا بالقنابل اليدوية داخل سراديب الحصن الملتوية ..

واقتربت الدبابات وصوبت مدافعها تجاه المدخل ..

« لحظة مخيفة حقا .. » ..

« ولكن الامل بدأ يدب في صدورنا عندما راينا قذيفة اسرائيلية تصيب دبابة مصرية .. وتشعل فيها النيران .. ولكن هذا لم يجد .. اذ سرعان ما تدفقت النيران من افواه مدافع الدبابات المصرية لتدك الحصن من جديد .. وتصيب الدبابة الوحيدة السليمة التي كانت واقفة في الفناء .. »

« مع ذلك لم نفقد الامل من ان احدا سياتي لانقاذنا .. او انقاذ الجرحى على الاقل .. وظللنا نصرخ في اللاسلكي طول الوقت .. النجدة .. النجدة .. ولكن النجدة لم تصل ابدا .. » ..

صباح يوم الثلاثاء ٩ اكتوبر .. امسك شلومو بمنظاره المكبر يتطلع في اتجاه الشمال ليكتشف الموقف على طول خط بارليف .. فرأى كما ذكر هو بعد ذلك « العلم المصري على الموقع المجاور لي .. فهبط قلبي .. وتساءلت علم مصري سيحل بدوره على موقعنا ؟. انه كابوس !!.. » ..

في ذلك اليوم كان تحت امرة الملازم اول شلومو .. عشرون جنديا

سليما .. وعدد كبير من الجرحى .. وقتلى عددهم اكبر ..
وعجز طبيب الموقع عن علاج كل الجرحى .. وبعد ايام اربعة لم يبق عنده شيء من المورفين او اية مادة مخدرة .. ولا حتى ضمادات ..
وبدأت الذخيرة تنفد .. لان شلومو استنفد ذخيرة تكفي شهرا في قتال لا طائل وراءه ..
وكان يدور بين جنوده المنهكين مشجعا اياهم : تفاءلوا .. سيصل الجيش الاسرائيلي .. فرقة تتقدم .. بعد قليل سيلقى المصريون في القناة !.. » ..

بينما كان هو يعطي تقاريره للقيادة .. عن وضعه الميئوس .. حتى جاءته في اليوم الخامس رسالة القيادة : « اذا لم نستطع خلال اربع وعشرين ساعة ارسال التعزيزات العاجلة لكم .. فلكم ان تستسلموا .. »
وكان الذين بعثوا بالرسالة هم اول من يعرف استحالة ارسال هذه التعزيزات .. وأنها لذا وصلت .. فان مصيرها لن يكون افضل من مصير اهل النقطة ذاتها ..

صباح يوم السبت ١٣ اكتوبر .. ظهر ممثلو الصليب الاحمر الدولي قادمين مع الضباط والجنود المصريين في زوارق من الجانب الغربي للقناة..
ورغم أن الاستسلام امام رجال الصليب الاحمر الدولي شيء غير مألوف .. في الحروب اذ لا وقت لاستدعاء ممثلي تلك المنظمة لحضور استسلام فصيلة او كتيبة مهزومة ..

لكن القيادة المصرية اخذت الاسرائيليين على « راحتهم » .. ومن المؤكد انها رأت فيها فرصة اعلامية نادرة لاظهار الجيش الذي لا يقهر على حقيقته .. انه جيش يستسلم فعلا .. امام الجيوش العربية «المتخلفة».
والحقيقة ان هذه كانت المرة الاولى التي يشاهد فيها العالم كله عددا كبيرا نسبيا من ذلك الجيش يرفع راية التسليم البيضاء .
رافقنا نحن المراسلين الحربيين الموكب .. وكان الجنود المصريون غير مسلحين .. وهذا ايضا نوع آخر من « التنازل » قدمه القائد المصري لتيسير الاستسلام على الاسرائيليين في افضل الظروف.. واحتراما لتقاليد الصليب الاحمر الدولي ..
وقفنا امام الحصن .. ومن داخلها .. من ممرات عش النحل .. جاء الملازم الاسرائيلي شلومو .. شاب فوق عينيه نظارة طبية .. ويلوك قطعة من اللادن الامريكي في فمه محاولا التظاهر باللامبالاة .
ولكن عينيه كانتا زائغتين.. يتفادى لقاءهما بعيني الضابط المصري..

وقال ان خمسة من جنوده قد قتلوا في الساعات الاولى من القتال ..

وانه قضى ثمانية ايام في قتال مستمر .. حتى اصيب خمسة عشر رجلا من رجاله الستة والثلاثون وانتظر معونة فلم تأته معونة .. ونفدت كل عقاقيره ومواده الطبية وكذلك ذخيرته .. حتى الطعام اوشك على النفاد ..

واضاف قائلا : انه اخذ اذنا من قيادته بالاستسلام ..

ثم التفت هذه المرة بعينيه الى الضابط المصري .. وقال ..

– والآن سيدي ما هي شروطك للاستسلام ؟

اجاب الضابط المصري الذي كان واقفا طول الوقت يتامل الضابط الاسرائيلي ..

● اولا .. قف انتباه ..

ثم اضاف في صوت هادىء ولكنه حازم :

● ليس هناك شروط .. هذا تسليم غير مشروط ..

اجاب الضابط الاسرائيلي .. وقد اعتدل وتوقف عن مضغ اللادن..

– حسنا .. نحن معكم .. ونود ان نعامل بمقتضى اتفاقيات جنيف.

علق الضابط المصري ..

– نحن نعرف القوانين الدولية جيدا ونحترمها تماما .

وضغط على كلمة تماما .. هذه ..

بينما كان رجال الصليب الاحمر بالتعاون مع جنود الجيش المصري ينقلون الجنود الاسرائيليين الجرحى على نقالات .. وآخرون ينظمون الآخرين في طابور للاسرى بينما اندفع اثنان الى اعلى الحصن يرفعون العلم المصري .. ويصلنا من على الضفة الغربية اصوات الهتاف : الله اكبر .. الله معنا ..

الجنود هناك متحمسون .. وتنتقل الحماسة الينا والانفعال .. وتنهمر الدموع من عيوننا .. وكلنا يتمنى ان نحضر عملية تسليم ذلك الجيش الاسرائيلي العدواني كله .. ليكف اذاه عن شعوب المنطقة جميعا !..

وبينما هذا الهرج والمرج حادثان.. خرج رجل لا يرتدي ملابس الجنود من عش النمل ويرتدي زيا غريبا وشى بوظيفته الحقيقية ..

انه كاهن من كهنة خط بارليف الذين يدعون الجنود لمعرفة الله وهم يعيثون في الارض فسادا !..

وتقدم الكاهن وفي يده كتاب احمر .. وسأل الضابط المصري اذا ما كان بوسعه ان يأخذ الكتاب معه الى مكان الاسر ..

ولم يفهم الضابط المصري ماذا يعني هذا الكتاب الاحمر وما اهميته.

ولكن مراسلا اجنبيا من الحاضرين .. اوضح للضباط ان ذلك الكتاب هو كتاب مقدس لدى اليهود اشبه بالقرآن لدى المسلمين ..

على الفور وافـق الضابط المصري .. وضحكنا .. وعلق واحد منـا قائـلا ..

ـ ماذا يظنون بنا هؤلاء الناس .. هل يسقطون ما عندهم من تعصب وعنصرية على الغير ؟..

وبينما الحديث جار .. شاهدنا من بعد طائرة اسرائيلية تهم بالقـاء قنابلها على بعض مواقعنا المتقدمة في سيناء.. ونظرنا جميعا في اتجاهها.. **ونظر معنا الضابط الاسرائيلي والجنود الاسرائيليون ..**

وفجاة لحق بالطائرة صاروخ دمرها امام عيوننـا جميعا .. ونكس الاسرائيليون بابصارهم الى الارض بينما هتاف الجنود وصيحات الاعجاب تتصاعد من حناجرنا جميعا ..

ومضى الموكب في هدوء .. الى الغرب عبر احد المعابـر المنحدرة .. ثم استقللنا الزوارق الى الضفة الغربية ..

قال ممثل الصليب الاحمر قبل ان نغادره او يغادرنا ..

اسجل اعجابي وامتناني للطريقة الممتازة التي عامل بها الجنود المصريون الجنود الجرحى وهم ينقلونهم عبر القناة في الزوارق ..

وقال ضاحكا ..

ـ هذه رعاية ملائكية !

وضحكنا .. وانـا اعجب من هـذه الصور المتناقضة في الحرب .. قتال وقتلى .. وجرحى واسرى .. ثم رعاية ملائكية .. ثم .. ثم ماذا ؟!

١١

الرّجـل .. وراء السّلاح ؟..

« لا بد ان نشهد للمصريين انه كانت لديهم خطـة دقيقة . وكان تنفيذها اكثر دقة ..

ان الامر بدا كما لو كنا قد اغمضنا عيوننـا وفتحناها فاذا هم قـد انتقلوا تحت النار من غرب القناة الى شرقها .. وفاجئونا صباح السابع من اكتوبر بخمس فرق كاملة امامنا شرقي القناة .. »

الجنرال ناركيس الاسرائيلي

في الساعات الست الاولى .. كانت معركة العبور قد حسمت تقريبا..

فقد عبرنا القناة .. وتسلق جنودنا الحائط الترابي .. واقتحمـوا القلاع واستولوا على خمسة عشر قلعة منها .. وطوقوا الباقـي وبداوا يصدون الهجمات بعد ان اقاموا المعابر ..

وتدفقت فوقها الاسلحة الثقيلة والمدرعات ..

ولذلك لم يكن غريبا ان يطلق البنتاجون الامريكي على حرب ٦ اكتوبر حرب الساعات الست ..

لقد كان العدو والخبراء العسكريون في العالم كله يقدرون ان المصريين اذا ما نجحوا في العبور والاقتحام سيحدث الاتي اوتوماتيكيا :

★ سيخسرون أكثر من نصف القوات العابرة التي لن تقل عن ٥٠ الف جنـدي .

★ بعد العبور لن يتمكنوا من تمرير اسلحة ثقيلة ودبابات الا بعد ٢٤ ساعة على الاقل .

لذلك فان ما حدث كان مفاجأة للاسرائيليين كله .. بل حتى مفاجأة للمصريين الى حد ما .. فيما يتعلق بالخسائر بالذات ..

وعندما نشبت الحرب .. قال مسئول في البنتاجون للصحفي الامريكي ليونيد نورمان مساء ٦ اكتوبر وهو يعقب على الانباء الاولى للعبور المصري لقناة السويس :

ـ لا استطيع ان اتصور كيف يفكر هؤلاء المصريون ؟.. ان للاسرائيليين احسن طيران في العالم !.. ولديهم جنود ممتازون .. ان العرب ببساطة لا يستطيعون ان يكسبوا شيئا بهذه الطريقة .. لا شيء على الاطلاق !

كنت استمع الى هذا « الهذيان » من محطة صوت امريكا مساء يوم ٦ اكتوبر وانا احترق شوقا في انتظار الصباح حتى الحق بالقيادة العامة للقوات المسلحة حيث يتوجه اول عدد من المراسلين الحربيين والمصورين الى الجبهة عن طريق ادارة الشئون المعنوية .

ولقد كنت اتصور المنطق الذي يتكلم به رجل البنتاجون ، فهذا نوع من الناس اعتاد الاعتماد على العقول الاليكترونية في تشوف المستقبل ، والعقول الاليكترونية عادة تنسى شيئا هاما جدا .. وهو الانسان ..

والانسان المصري قد تمدد ماردا هائلا .. وعملاقا كبيرا عندما عبر .. وغرس العلم المصري على حصون خط بارليف ..

ولكن الحق ان الانسان المصري لم يكن قزما وتحول فجأة الى مارد .. انه مارد منذ البداية .. ولكنه كان حبيس قمقم حرمه من فرصة ظهور حقيقية ..

ان الانسان الذي يدافع عن وطنه ويعمل لتحرير ارضه هو مارد .. لو وجد قيادة ولو احسن تدريبه .. تلك بديهية اثبتتها وتثبتها حرب التحرير في الفيتنام .. والجزائر وكمبوديا وانجولا وموزمبيق وارجواي وغيرها ..

والجندي المصري لم تتح له فرصة مواجهة العدو مباشرة والاشتباك معه في قتال ..

في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ ما كان اسرع ما تصدر القيادة السياسية قرارها بالانسحاب ..

ويتحول الانسحاب الى فرار مذعور .. لانه ما من خطة كانت توضع لهذا الانسحاب فان مهارة القادة العسكريين تقاس ايضا بقدرتهم على

تنظيم الانسحاب .. مثلما تقاس بقدرتهم على التقدم واحتلال أرض العدو.
الانسحاب المنظم يعني حماية قوا تالجيش من الدمار .. هذا الدمار الذي هو هدف للعدو المهاجم دائما ..
وفى عام ١٩٤٨ اتيحت لبعض قوات الجيش فرص الصدام مع عصابات الصهيونيين ونجحت في الانتصار عليها بفضل مبادرات فردية لضباط شجعان كان بعضهم بعد ذلك النواة لتنظيم الضباط الاحرار .
ولكن تلك الانتصارات المحدودة اصبحت فى سلة مهملات التاريخ .. وطغى عليها الانتصاران الاسرائيليان الكبيران في ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، او بالاحرى الانسحابان المصريان الكبيران فى هاتين الحربين ..
ولم يلتفت احد كثيراً الى ان القوات المصرية المحدودة التى واصلت القتال لانقطاع الاتصال بها قد الحقت الهزائم بالاسرائيليين وتفوقت عليهم .

***

ما زالت الافكار تروح وتجيء .. فادرت ازرار الراديو الى محطات اخرى احاول معايشة القتال عن طريق الاثير .. حتى يطلع الصباح ..
كان ثمة تشكك وترقب .. في اذاعات العالم .. وهو ترقب ممزوج بالدهشة ايضا .. ولكنك خلال هذه الدهشة تستطيع ان تدرك ان الدنيا كلها تتوقع اعلان هزيمة المصريين والسوريين وانتصار اسرائيل !
كان يبدو كما لو كان في « الجراب حاوي » كما يقولون .. كما او ان اسرائيل ستسحب سلاحا خرافيا من مخزن خرافي كالمخزن ١٣ السري المشهور ايام الحرب العالمية الثانية .. وتدمر هذا التجاسر المصري على عبور القناة !
وأستمع العالم كله في تصديق لجولدا مايير رئيسة وزراء اسرائيل وهي تقول فى حزم وعمق بعد ساعات من بدء القتال :
لا شك لدينا فى النصر .. وفي رأينا ان ذلك العدوان المصري السوري هو نوع من الجنون !
وكان موشى ديان متفائلا ايضا .. كان يقول وهو يختال كعادته كالطاووس بين مراسلي الصحف :
ــ سنرى مصريين كثيرين حقا فى جانبنا شرق القناة .. ولكن سنردهم على اعقابهم !
واضاف قائلا وهو يلوح بيده :
ــ يستطيع سكان تل ابيب ان يناموا جيدا الليلة وكل ليلة . كما ان

الكوبري بين الاردن والضفة الغربية سيظل مفتوحا كالعادة وان اي عربي من الضفة الغربية من العاملين في أسرائيل يستطيع تادية عمله كالمعتاد !

وفي نداء من الجنرال البرت مندلر قائد القوات المدرعة الاسرائيلية في سيناء لقواته عندما بدا قصف المدفعية المصرية ايذانا بالهجوم وقبل أن تصرعه شظية قنبلة اسقطتها طائـرة مصرية مغـيرة على مركز القيـادة الاسرائيلي كما تقول رواية عن مقتله :

ـ انكم سنمنعون العرب من كسب موطىء لقدم .. فدباباتنا وسلاحنا الجوي والمدفعية ستسحق عظامهم ..

* * *

كل هذا والبلاغات المصرية تترى عن التقدم ومواصلة العبور .. واسقاط الطائرات .. والقاهرة لا تنام ..

وحل الصباح المبكر في الرابعة والنصف .. وفي مركز التحرك كنـا خمسة عشر مراسلا حربيـا ومصورا نركـب عربات الجيب في اتجـاه الجبهـة ..

وتذكرت اني كنت المراسل الحربي لصباح الخير ايضا عام ١٩٥٦ .. ولكن ما ابعد الفرق بين اليوم والبارحة .. آنذاك لم امارس تلك المهمة في الحقيقة مع الجيش .. فلم تكن هناك حـرب ولا يحزنون .. كان هنـاك انسحاب لجيشرء رغم انفه .. اما الشعب فقد ظل يحارب في شكل فـرق فدائيين وعدد من الضباط مثل كمال رفعت ومنير موافي .

وواقع الامر اني اصبحت مراسلا حربيا لدى الفدائيين .. وهو نوع من العمل السري اكثر منه حربا نظامية حقيقية كما قرأنا وشاهدنـا في الافلام السـينمائيـة ..

وفي عام ١٩٦٧ كنت في اوروبـا وشهدت رد فعـل العدوان منـذ ارهاصاتهالاولى حتى بعده في سبتمبر ١٩٦٧ .. ويمكن القول اني عملـت مراسلا اعلاميا في ذلك الميدان الهادىء حيث لا رصاص ولا طائرات تحمل المؤن .. وسجلت مشاهداتي في كتابي : « اوربا والعدوان الاسرائيلي » ..

هذه المرة يبدو من هذه السيارات والضباط المرافقين لنا .. وحشـود السـيارات والمدرعات والمدافع التي تسير الى جانبنا على طول الطريـق في اتجاه القناة يبدو ان الامر جد ..

من حين لاخر يوقفنا رجال البوليس الحربي .. ولا يكفي مرافقـة ضباط كبار لنا لا بد من مراجعة اوراقهم واوراقنا ..

ان العيون يقظى مفتوحة عن اخرها .. فالعدو غدار والتسلل جائز في اى وقـت ..

اشعر بخجل لملابسي المدنية .. ولكن ضابط الشئون المعنوية يرى عنى ويعدنا ببذلات عسكرية مطرزة باشرطة : مراسل حربي ..

قبل الاسماعيلية بقليل بدانـا نتنسم انسام الجبهة لاول مـرة .. اصوات مكتومة من بعيد .. اختفاء لاي مناظر لمواطنين مدنيين .. لم يبق الا الكاكي .. ودبابات ومدافع وعربات محنزرة ومصفحـة .. بالوانهـا المموهـة ..

توقفنا عند كشك .. قبل ان ندخل المدينـة حدث شيء غريـب : اشترينا جميعا وبطريقة تلقائية كمية من البسكويت ازدردناها جميعا .. ثم شربنا كوبا من الشاي .. ثم اتبعناها بزجاجة الكوكاكولا .. ثم جلس بعضنا يجتذب انفاسا عميقة من سجايرهم ..

ضحكنا لبعضنا البعض .. وقلنا : نتزود بهذه الاشياء قبل دخـول الجبهة .. نخزنها كالجمل .. فليس ثمة طعام ولا شراب هناك .

وضحك احد الضباط وقال : بل هناك لا شيء وستفاجئون .. سلاح الامدادات قائم بشغله عـال ..

رد واحد منا قائلا ..

ــ ربما كانت شهيتنا مفتوحة لكل هذه الاشياء مثل شهية المقبل على المـوت .

ضحك آخر وقال ..

ــ بل المقبل على الاستشهاد ..

معظمنا لم يكن قد دخل ميدان قتال طبعا من قبل .. بعضنا حقـا مثل زميلي يوسف الشريف المراسل الحربي لروزاليوسف حضر معـارك في اليمـن .. ولكنها كانت معارك من نوع مختلف . اما هنا فصدام مباشر بكل اسلحة الحرب ..

السيارات تتقدم بنا .. وتدخل فى غابات صغيرة من الاشجار .. ثم مدينة الاسماعيلية خرابا وحطاما وانقاضا . المبانى منهارة وشبه منهارة .. كانت المدينة ضحية مراحل القتال المختلفة من الصمود الى الـ دع الى الاستنزاف . ولم تصب الاسماعيلية بطلقة فى حرب ٦ اكتوبر .

نقترب من سد ترابي منخفض نسبيا .. تشقه ممرات مختلفة .. هذا هو السـد الترابى الذي اقامته مصر على الضفة الغربية للقناة لاجراء التجارب المختلفـة عليـه .

على الممرات لافتات من الخشب مكتوب عليها : معبر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ٣٥ وهكـذا ..

عدد كبير من المعابر اقيم اثناء الليل ..

ونفهم بعد قليل أن هذه المعابر لا تعني ان كلها كبـاري وجسور .. البعض كباري حقا .. ولكن البعض الآخر معديات .. والبعض الثالـث مجرد مراسي لزوارق المطاط .

اتخذنا أماكننا وراء قافلة طويلة من العربات تحمل مدافع وذخـيرة وجنودا وتتقدمها سيارات ودبابات مجنزرة ..

مضت القافلة ونحن وراءها ..

على الشاطىء الآخر كان على كل سيارة او دبابة ان تصعد الممر الذي شقته مياه المضخات بصعوبة شديدة فقد كان الممر منحدرا غاية الانحدار ، والصعود على اشد الجبال السويسرية انحدارا او استقامة . !

فجاة سمعنا صفارة .. ليست صفارة انذار وانما صفارة مما يستعمله الحكام في المباريات الرياضية . قال زميل لي :

ـ هذه غـاره ..

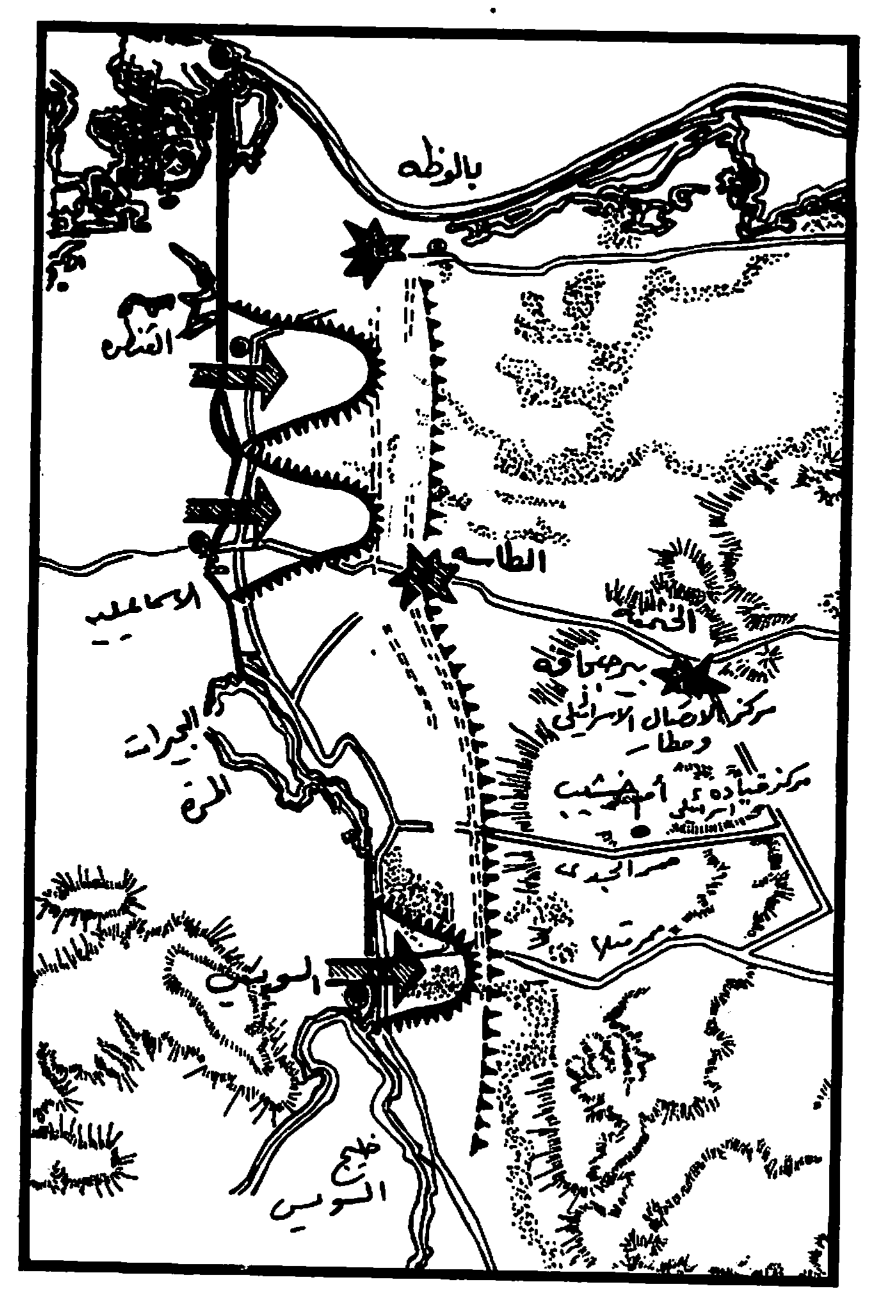
على الفور وجدت نفسي مع كل زملائي في قفزة واحدة من السيارات منبطحا على الأرض .. زئير الطائرات في السماء تمرق بسرعة عاليـة : الفانتوم الرهيبـة .

ادفن وجهي في الرمل اكثر .. اود لو تنشق الارض وتبتلعنـي .. إنها من اللحظات القليلة التي يشعر فيها المرء بامومة الارض .. بأنها خـير حماية .. ان في احتوائها لنا انقاذ من الموت ..

غريب مع ان الاحتواء نفسه في وقت آخر يكون معناه الموت .. والتحلل إلى تراب مثلها .. يحتوي غيره من موتى الاحياء !..

هذا هو الخوف اذن .. انا خائف فعلا .. فعما قريـب ستسقط شظية ان لم يكن قنبلة باسره تنسف رقبتك او تموق جسدك كله اشلاء .. وربما قذفت الطائرة بنهر من النابالم يحرقنا جميعا .. ولن تغن عنك حينذاك التجارب الطريفة التي شاهدتها في تجـارب الدفاع المدني عـن بساطة النابالم وعدم خطورته !

ونسمع دمدمة وقعقعة في السماء .. ورغم ان عيناي مغروستين في التراب والرمل الا اني اكاد اترجم الاصوات الى صور مرئية .. صواريخنا .. تتبع الطائرات في السماء .. طائرة تلقي بقنبلة .. وطائرة تتفجر في الجـو ..



الهجوم المصري ورءوس الجسور حتى يوم ٧ أكتوبر ـ في الشمال الجيش الثاني وفى الجنوب الجيش الثالث والخط المار « بالطاسة » هو حدود رءوس الجسور المخطط الوصول اليها في الأيام الأولى للعبور ويرى فى الخريطة المواقع التى قصفتهـا الطائرات المصرية قبل العبور (الطاسة . بير جفجافة. أم خشيب) . علاوة على بالوظة التى أغار عليها الكوماندوس المصريون بالهليكوبتر

وأسمع ضحكة !.. وضحكات ؟!!..

صوت يقول : مـا تخافوش يا صحفيـة .. صواريخنا بتوقعهـم وتطفشهم ..

هل هي تيارات الخجل التي زحفت فطردت جيوش الخـوف ام ان الخوف كان مفاجاة تغلبت عليها مقاومتي .. لا ادري فالمهم اني وجـدت نفسي استدير بوجهي من التراب لأتامل السماء وما حولي ..

وجوه الجنود باسمة .. وكل منهم على مدفعه الرشاش الكبير او الصاروخي يوجهها الى السماء ..

وما من ذرة خوف او قلق ترتسم على وجوه احد منهم ..

وقمت وقام زملائي معي وتاملنا السماء : اربع طائرات فانتوم تهاجم المعبر .. وهي تحاول جاهدة ان تـروغ من الصواريـخ فترتفع لتلحقهـا صواريخ خاصة بالارتفاع .. فتنخفض حتى لتكـاد تمس السد الترابـي نفسه .. فتلحقـها « كبشة » من صواريخ خاصة بالانخفاض ..

وما بين هذا وذاك تلقـي قنابل .. واضـح انها لا تتفق مع دقـة التصويب فالبعض منها نراه يسقط بعيدا او ينفجـر في الصحراء مثـيرا زوبعة من الغبار ..

ولكن واحدة اصابت .. ها هو ذا المعبر قد اصيب .. او في الحقيقة اصيبت دبابة تعبر فوقه .. طار برجها كماتطير ريشة في الهواء .. وقفز طاقمها يجري على المعبر ومدافعه الرشاشة في يده يطلقها في اصرار على الطائرة المبتعدة

توقفت حركة المرور جميعا على المعبر .. ولم يحدث اي فوضى او ارتباك .. وجدت مجموعة من المهندسين والجنود يستقلون زوارق المطاط ويتجهـون الى « القرصة » التـي تقـف عليهـا الدبابة المصابة وبـدءوا يفككونها .. لا بد من عزل « القرصه » عن الكوبري وتركيب قرصة جديدة خالية بدلا منها فلا يمكن جر الدبابة او الصعود بها ..

والطائرات تنقض تحاول ضرب باقي المركبات .. وضرب الجنـود والذين يحاولون اصلاح المعبر ..

كنت فاغر الفم دهشا .. وانا ارى المهندسين والجنود يواصلـون عملهم . والطائرات تزار فوق رءوسهم والرصاص ينهمر كالمطر .. رصاص الفيكرز المروع دون ان يحنوا حتى رءوسهم كنوع من الوقاية ..

وسقط جندي في مياه القناة .. مال الرجال وانتشلوه بأيديهم وعكف

اثنان على محاولة اسعافه .. بينما مضى الآخرون في العمــل .. حتى انجزوه .

وبعد لحظات كان الجندي الجريح منقولا ناحيتنا في الضفة الغربية حيث نقل الى الخلف في احدى مستشفيات الميدان ..

طالت المعركة ولم تسقط طائرة من طائرات العدو حتى الآن ..

تملكنا الضيق وكاد ينفذ صبرنا .. ابتسم الجنود وهم يصوبــون اسلحتهم الى السماء ..

معلهش طولت المرة دي ..

ولكن زخة من صواريخ سام ٦ لم تمهل الرجال لمواصلة التعليق فقد سقطت طائرتا فانتوم مرة واحدة .. على بعد كيلومترين او ثلاثة ..

ومرت دقائق والطائرات الاخرى تحاول ضرب المعبر .. لكن الصواريخ والاسلحة المضادة للطائرات جميعها كانت تطاردها ..

بعض القنابل تسقط على مبعدة منا .. واحدة منها يبدو أنها سقطت في مياه القنال .. لان عمودا هائلاً من الماء ارتفع كالنافورة ورأيناه مــن على بعد اكثر من ألف متر ..

قال مرافقنا الضابط ونحن ننفض التراب عن ملابسنا ..

ـ ستعود طائرات اخرى .. ولكن اسرعوا بالعبور قبل أن تعود .

***

مش معقــول ..

كان زملائي المراسلين ممن حضروا حرب ١٩٦٧ وهزيمتها .. قــد بدواكما لو كانواقد أصابهم مس من الجنون بمجرد ان وضعنا اقدامنا على الجانب الشرقي من القنال .. كانوا يقفزون ويصيحون .. ويجرون على غير هدى في ارض سيناء .. يــرددون : مش معقول .. نيجــي سينا تاني كيــده ..

وانحنوا في خشوع على الارض يقبلون الرمال ..

وبحركة غريزية وجدت نفسي أسجد .. واقبل الرمال .. ويمتلىء فمي بالتراب .. لاحس باجمل مذاق وتنهمر الدموع من عيوننا في غزارة شديــدة !

ان الكثير يكتب عن الحب والتعلق بتراب الوطن .. وهي عبــارات

تبدو للقارىء عادة انها من قبيل التجريد الكلامي للتعبير عن قيمة القيم وهى حب الوطن ..

ولكن الحقيقة أن المدلول الواقعي لهذه الكلمات يبدو انه لا يتجسم بوضوح الا في حالتين : الحرب .. والغربة ..

إنني لم اولد في صحراء سيناء .. ولم اعمل بها قط ، بالعكس ان لها في نفسي ذكريات سيئة ، فالمرة الوحيدة التي زرتها كنت معتقلا في معتقل الطور الشهير لعدة شهور تعسة ..

ها أنا احثو على ركبتي وتجيش نفسي بعاطفة دونها عاطفة لقاء حبيبة فرقت بيني وبينها سنوات طوال .. فهي عاطفة اعظم من ذلك وتمتزج بمشاعر استرداد الكرامة المهدرة .. والشعور بتحقيق الذات بعد طول انسحاق وتحقيق ثأر من عدو قديم استهان بكل شيء بما فيه نحن العرب .. و .. و .. الكثير من المشاعر .. التي تحتويها كلمة صغيرة هي « حب الوطن » ..

نحن فى سيناء الآن ..

لا أكاد احس اني في صحراء .. وإنما أرى وأشعر إنى وسط حقل من الأبطال .. عشرات الالوف .. مئات الألوف .. لا أعرف العدد ولا يهمني أن أعرفه ..

كلهم مزروعون فى طين مصر ورمالها .. ضاربين بجذور عريقة تمتد الى خمسة آلاف سنة او تزيد .. كلهم ابناء العمال والفلاحين ووكل مصري .. كلهم ابطال .. ليس فيهم واحد إلا وهو بطل ..

وهم يفرزون البطولة حيثما حلوا .. يصيبون كل من يشاركهم معركتهم أو يراهم أو يتحدث معهم بعدوى هذه البطولة ..

البطل في جبهة القتال هو سليل نفس الفلاح الذي مات وهو يحفر القناة بأظافره .. ومع ذلك فكلهم صنعوا المعجزة الخارقة .. بل هم يصنعون الخوارق كل يوم .. ويدهشون العالم كله ..

ماذا بوسع الكاتب أن يقول وهو يعيش في الجبهة بين حقول الابطال هذه ؟ وغابات الصلب .. صلب البشر جنبا الى جنب صلب الدبابة والمدفع .؟! .. كلهم ابناء العمال والفلاحين وكل مصري ..

تحطمت اسطورة العدو الاسرائيلى .. لم تعد هناك اسطورة .. انما جيش لجيش .. كما واجة الجيش الانجليزي الجيش الالماني .. أو العكس بالعكس .. لم يعد هناك في الشرق الاوسط مردة (الاسرائيليون) وأقزام

(العرب) .. لقد أصبح العرب مردة .. أو كشفت الحرب عن حقيقتهم الأصليـة .

هل نقول إن أسطورة التكنولوجيا والتفوق الأليكتروني الذي توهمه البعض واوهموا بعضنا به حتى تصوروا أن التكنولوجيا قادرة على الغاء إرادة شعب قد سقطت ؟

لقد ركزت في أحاديثي مع الجنود والضباط على تلك الحكايـة .. فاكتشفت أننانحن المثقفون وأشباههم في المدينة ومقاهيهـا فقط الذيـن نثرثر ونتمشدق بكلمات ضخمة كثيرة عـن التكنولوجيـا والأليكترونيات السـاحقة الماحقة للانسـان .

بينما الجنود والضباط لا يهتمون بشيء من ذلك .. ولا يتحدثون عنه .. لأن إرادتهم وحماسهم فوق كل شيء لأنهم يؤمنون ان الانسان هو الجوهر .. هو الأعلى . هو الأهم .. الانسان هو أثمن سلاح وهو صانع السلاح ..

في كل موقع مررت به كان الجنود يعرضون لنا ما انتزعوه من أجهزة اليكترونية من دبابات أو مدافع أو دشم للعدو ..

ويقولون :

الحريقة اللي في قلبي من ١٩٦٧ تحرق كل تكنولوجيا ..

ويحملني الهدوء والثبات الذي يملأ نفس المقاتلين المصريين في الجبهة على احناء الراس إعجابا واحتراما .

إنك تفقد إحسـاسـك بأنك في ميدان قتال .. إزاء هذا الثبات والهدوء .. إنهم جيش الواثقين فعلا ..

لا تحس إنك في المعركة إلا عندما تسمع طلقـات المدافع وصلصلـة جنازير الدبابات وهي أحلى الأصوات في الجبهة .. دباباتنا ومدافعنـا وعرباتنا تتحرك وتعمل في الضفة الشرقية لتحرير الأرض المحتلة ..

ليس هناك جندي واحد أو ضابط واحد يزهو بما فعل رغم أن كل واحد قد صنع الأعاجيـب ..

إن الثقة بالنفس قد اشتدت .. ثم هي ثقة راسخة تقوم على رواسخ حضارية عريقة .. لذلك فهي ليست مغرورة ولا هوجاء ..

ومئات من أسماء المقاتلين الأبطال سجلناها للأبطال الذين التقينا بهم في أول يوم ننزل فيه إلى ميدان القتال ..

سرنا معهم .. وركبنا دباباتهم .. وسياراتهم وامتطينا « صهوات » مدافعهم بعد أن زال الخوف من نفوسنا رغم أننا وسط الميدان .. وفرقعة

المدافع تدوي وأصوات اصطدام الفولاذ بالفولاذ تتردد في جنبات الصحراء.
ولكن من يشعر بالخوف وهو وسط هذا الفيض البشري من الشجاعة والحماس ؟!.

اصبحت أمنيتنا ونهار اليوم السابع من اكتوبر يوشك ان ينصرم ان نبقي في الجبهة .. ان نبيت مع الجنود في ملاجئهم .. ان تستمتع آذاننا بأحلى الاصوات وأعذب الانغام .. طلقات المدفعية .. وانفجارات الصواريخ .. كل شيء نسبي حقا .. هنا كل طلقة تعني خطوة في الطريق نحو التحرر . وكل انفجار يعني اندفاعا نحو ارغام العدو على الانسحاب ..

نحن في اليوم الثالث للقتال .. والعجيب اننا نمنا في ساعة متأخرة نوما عميقا .. وعندما استيقظنا بعد الفجر .. كانت السماء تلعلع بأضواء القذائف وفي هذا الجو قدم لنا الجنود ونحن في الملجأ اكوابا من الشاي الساخن ..

على وجه الارض نصف المكشوف .. اراد الضابط نقلنا من سيارات الجيب الى عربات مجنزرة .. قائلا ان مدفعية العدو تضرب باستمرار . قلنا ..

ـ لا .. دعونا نتجول في الجبهة كما نريد .. نرى القتال اكثر على الطبيعة بعد أن اصبحنا معتادين على الجو .. ونتحدث الى الجنود .

ولكن حياتكم في خطر ..

ضحكنا وقلنا ..

ـ اليست حياتك انت في خطر .. هل نحن أقل من هؤلاء الابطال ..

كان واضحا ان الخوف قد فارقنا .. وتملكتنا روح « الوحوش » .. الاسم الذي يطلق على الابطال في الجبهة .. سلام عليكم يا وحش !..

جلست الى عدد من الجنود يديرون مدفعية مضادة للطائرات اغلبهم فلاحون ميكانيكيون .. قائد البطارية ملازم شاب في العشرين من عمره..

قال جندي فلاح يملك فدانين في بهنباي من اعمال محافظة الشرقية .. وهو يربت على احد مدافع البطارية في حنو بالغ ..

ـ هذه المدافع تساعد الصواريخ .. قبل خمس سنوت كانت المدافع المضادة للطائرات هي الاساس .. اما الان فهناك « الدبابير » يقصد الصواريخ ! .

قلت للجندي وقد لفت نظري

● هل نحـن قادرون على صد الطائـرات الاسرائيلية بصواريخنـا ومدافعنا طول الحرب ؟ ..

قال الجنـدي

ما هي قوة اسرائيل الجوية ؟ ..

واجاب على تساؤله بنفسه :

ـ ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ طائرة .. لنقل خمسمائة .. هذا العدد من الطائرات يمكن ان يلقي الفى طن من القنابل كل يوم .. أي في خلال ثلاثة ايام يمكن ان يلقي ما يعادل قنبلة ذرية من النوع الذى القى على هيروشيما..

ومهمة وسائل الدفاع الجوي ان نمنع الاسرائيليين من القاء هـذه القنبلة الذرية ..

ونحن منعناهم في خلال الثماني والاربعين ساعة التي مضت منذ بدأ العبور عن القاء ثلثي قنبلة ذرية ..

واعتقد اننا قادرون .. ما لم ..

وسكت الجندي .. ونظر الى الضابط وعاد ليقول ..

ـ ما لم ينجح الاسرائيليون في ضرب قواعد الصواريخ .

اقشعر بدنـي وانا اتصور .. معنى سقوط قنبلـة ذرية كل ثلاثـة ايام على الجبهة او في العمق .. ولكن دهشتي من سعة معلومات الجندي الفلاح البسيط كانت كبيرة .. فسألته ..

● من اين تعلمت هذا ؟

ضحك ضابط الطاقم وقال :

ـ التدريب .. كل واحد في وسائل الدفاع الجوي عارف المعلومات دي .. التكنولوجيا لم تعد شيئـا مستعصيا على ابنـاء النيل اذن .. وليست حكرا على شواذ الافاق الفاشـست الجدد في تل أبيب ..

والاحاديث مع الجنود تطول وتتشعب والرصاص ينطلق .. ودانات الدانع تنفجر .. ونحن نجري مرة .. ونقفز مرة اخرى في خندق .. او ننبطح ارضا .. ونشاهد .. ونسمع ..

الهتاف في كل تقدم يحققه جنودنا .. الله اكبر .. الله اكبر ..

وهو هتاف شيترك في ترديده الجنود المسلمون والاقباط معا..

انه تعبير عن ارادة مصر .. وطـن مصر ملك الجميـع .. الشعـار الذي طرحته الحركةالوطـ في مواجهته محاولات التفرقة الاستعمارية: الدين لله

والوطن للجميع .. الوحدة الوطنيـــة على أشدها بالحديد والنار والـدم والتضحية الغزيرة .

ومع ذلك فان أحدا في الجبهــة لا يتحدث عــن الخسائر ولا يهمــه الخسائر حتى ولو كانت خسارة حياته هو ..

إنهم يقولون جميعا لا بد من التضحية بكل شيء من اجل التحرير .. وهم لا يفكرون في استئناف حياة عادية قبل انجاز هذه المهمة . بــل ان الواحد منهم يحزن إذا ما اصيب إصابة خفيفة تمنعه من القتال ..

وقد رأيت بعيني وسمعت جنودا جرحى يبكون ويطالبون ببقائهم في الميدان ليواصلوا الحرب رغم إصاباتهم !

وهؤلاء الابطال ليسوا محترفي حرب .. إنهم أبطال واعون .. انهم يعرفون لماذا يقاتلون ويعرفون العدو الذي نقاتله ..

وكعادة الصحفيين بدأت اسأل الجنود واناقشهم « لقياس مستوى الوعي » وكانت الإجابات التي تلقيتها ردودا كهذه :

- سيناء أرضـــي ..
- تعودنا على احتلال العدو لبلادنا .. وتعودنا على طرده منها ..
- احنا بنحارب أمريكا مع اسرائيل ..

واطرح السؤال : ماذا عن الســلاح يا « وحوش » ..؟

يضحكون .. من السؤال ..

ـ السلاح .. أهو زي الرز ..

اذن السلاح الروسي مش وحش ؟..

ضحكون في تعجب ...

ـ ما هو السلاح بيوقع الفانتوم .. ويسيح الدبابة أهو ..

ويجيب جندي آخر ..

ـ الحكاية مش حكاية سلاح اولا .. المهم الراجل وراء السلاح ..

وقال ثالث :

ـ نفس السلاح ده كــان جثـــة باردة في صحراء سينـــاء .. لان احدا لم يستعملــه ! ..

ليس اعظم من الواقع نفسه كمصدر للخلق الاستنتاجات الصحيحـة دون صيغ نظرية منمقة ومتحذلقة !

بعد أسابيع من بدء القتال .. كان الفريق محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي يقول ببساطة في مؤتمر عسكري ضم نواب رئيس الوزراء، والوزراء ورؤساء تحرير الصحف والمراسلين الحربيين وكل قادة اسلحة الجيش ..

كان يقول في بساطة تفسيرا للنجاح الهائل الذي حققه حائط الصواريخ المصري :

« ان كثيرا من المعلقين الغربيين قد قالوا ان سام ٦ هو السلاح السري للمعركة .. حقا ان سام ٦ سلاح عظيم وفعال ..

ولكني اود ان اؤكد ان السلاح السري الحقيقي في حائط الصواريخ هو مسرح الدفاع الجوي .. الجندي والضابط المصري .. باختصار الرجل وراء الصواريخ !..

عندما عدت من الجبهة مساء اليوم الثالث من القتال .. لاكتب لجريدتي في الليل قبل أن اعود الى الجبهة في اليوم التالي .. كان الانطباع الاول والاعمق الذي خرجت به .. هو ان الجيش المصري لا يمكن ان « يقصم ظهره » الا قنبلة ذرية .. لانها ببساطة مغنية مهلكة تبخر الانسان والجماد ..

ان معنوية الرجال شيء خرافي

لذلك لم يكن عجيبا أن دافيد اليعازر رئيس الاركان الاسرائيلي .. قال :

ان لكل حرب مفاجاة .. ومفاجاة هذه الحرب هي الجندي المصري..

لماذا ؟ .. لانه كما قال ضابط اسرائيلي كبير لمراسلي الصحف الاجنبية بعد يومين من القتال :

إن المشاة المصريين .. كانوا في عام ١٩٦٧ يلقون سلاحهم ويجرون .. اما هذه المرة فهم يحاربون بضراوة لا حد لها ! ..

١٢

الحرب ليست نزهة ..

اللواءين.. ٦٠ و ١٩٠

من اللحظات الاولى بدأ الاسرائيليون هجماتهم المضادة ضد «الغزو» المصري ..

ان الانتصارات العربية المستمرة كما كانت تعكسها البلاغات الحربية بواقعية اعطت انطباعا انه لم تكن هناك مقاومة اسرائيلية ذات قيمة .. وان الجيش المصري يتقدم في سيناء بنفس السهولة التي تشق بها السكين قطعة من الزبد ..

وهذا غير صحيح على الاطلاق .. فقد قاوم الاسرائيليون بضراوة رغم عنصر المفاجأة في الهجوم المصري .. ورغم ان الاحتياطي الاسرائيلي العام لم تكن تعبئته قد استكملت بعد ..

ورغم ان سلاح طيراننا قد دمر مركز القيادة الجوية الاسرائيلية في سيناء واثار ارتباكا في مطاراتها .. الا ان الطيارات الاسرائيلية ظهرت في سماء القناة فوق رءوس العابرين تحاول عبثا وقف الزحف المجيد .. وذلك بعد ٤٥ دقيقة فقط من ساعة الصفر .. في الثالثة الا عشر دقائق على وجه التحديد ..

ولقد عرف العابرون بوجود تلك الطائرات عندما رأوا بعض الطائرات تتهاوى في الافق .. فصاحوا : الصواريخ .. الصواريخ !..

لقد استطاع الاسرائيليون توجيه طائراتهم من مطارات داخل العمق الاسرائيلي نفسه وبدءوا في مهاجمة قوات االعبور ..

وكانوا على ثقة تامة انهم قادرون على سحق الهجوم المصري او كسر حدته على الاقل بطائراتهم ..

وبينما يؤدي سلاح الطيران المهمة تكون القوات المدرعة والبرية في الطريق حتى تأتي وتصطدم ببقية القوات المصرية المثخنة الجراح من ضربات الطيران القاصمة ، ومن ثم يسهل على الجيش الذي لايقهر الاجهاز عليها..

وينفض الجنرالات الاسرائيليون أيديهم من هذه المهمة « الصغيرة » بينما يبتسم العالم اشفاقا على المصريين لارتكابهم تلك الحماقة الجديدة في حق المارد الاسرائيلي الأسطوري !

وتكون الكارثة اكثر عمقا وفداحة لان العرب هم الذين بدءوا بالهجوم وتبدو اسرائيل ضحية لعدوان عربي جديد .. يبرر ضمها للاراضي العربية المحتلة بل والمزيد ايضا ..

هذا هو الاطار التخطيطي ـ ومن ورائه العمق النفسي ـ الذي رسمته عقلية القادة الاسرائيليين العسكريين والسياسيين ، وقد كان يقينهم التام بأن هذا هو ما ستتطور اليه الاحداث مع خلافات صغيرة في التفاصيل .. كما دلت على ذلك تصريحات قادتهم المحمومة بعد العبور مباشرة ..

وهذا الاطار هو الذي اعترف الجنرال الاسرائيلي « متياهو بليد » بخطئه بعد ايام من الحرب عندما قال :

« ان اسرائيل اضيرت كثيرا من المبالغة في الثقة بالنفس نتيجة انتصارات قديمة في الماضي » ..

★ ★ ★

لقد كان انتشار الهجوم المصري على طول القناة عامل ارباك كما رأينا بالنسبة للقيادة الاسرائيلية .. اذ لم تعرف اين سيركز المصريون هجومهم لاقامة رءوس كباري كماتقضي بذلك اصول العبور العسكرية .. فلا يمكن ان يكون راس الكوبري الـ ١٦٠ كيلومترا بأسرها ..

وبعد مد الكباري والمعابر . تنبه الاسرائيليون إلى مناطق التركيز الخمسة . فبدءوا يركزون مدفعيتهم عليها .. ثم طلعات الطيران .. من اجل هدف واحد هو منع اقامة المعابر ..

ولقد بلغ عدد طلعات الطيران الاسرائيلي اثناء قيام الجيش الثاني باقامة معابره سبعمائة واربع وسبعين طلعة !.

ولكن الرجال ما وهنوا .. بل استمروا يؤدون مهمتهم .. رغم

استشهاد البعض حتى ان نائب مدير سلاح المهندسين استشهد وهو يشارك الرجال اقامة المعابر بيديه .. فتضاعفت عزائم الرجال ..

في بداية العبور كان العدو مرتبكا فعلا .. لا يدري اين يضرب .. على طول الجبهة .. لذلك كانت ضرباته متنقلة وكثافتها غير مركزة ..

واستغل قادة الفرق هذا الارتباك ودفعوا بقواتهم العابرة الى الامام بسرعة اكبر حتى نجحت في الوصول الى خط المهمة الاولى على عمق حوالي خمسة كيلومترات خلال ثلاث ساعات ونصف ..

ويروي اللواء سعد مامون قائد الجيش الثاني انه « اخطر » عن ذلك التقدم الجيد اذ اعطاه قائد الفرقة الثانية « تمام » بتحقيق المهمة في السادسة الا عشر — موعد الافطار تقريبا — .

وساعد بعض قادة الفرق على ارباك العدو وتضليله .. لتتشتت ضرباته بعيدا عن نقاط التركيز المصرية .. كما فعل اللواء فؤاد عزيز قائد الفرقة ١٨ حينذاك عندما اثار حركة هجوم وانقضاض مبالغ فيها .. مما اوهم العدو ان نقطة التركيز في الشمال هي في تجاه القنطرة شرق .. مما مكن الفرقة من امتصاص هجمات العدو الموجهة اليها فانخفض الضغط على الاتجاهات الحقيقية للعبور التي كانت تقوم بها الفرقة الثانية .

أين قتل مندلر :

ان الفرقة الثامنة عشر تعرضت لهجمات مضادة عديدة ولكنها كانت صغيرة .. اذ كانت تقوم بها سرايا دبابات سرعان ما يصاب بعضها .. وتفر الباقيات رغم ان ست دبابات اسرائيلية استطاعت مرة ان تتسلل حتى حتى وصلت الى حافة القناة .. حتى ادركها قناصة الدبابات ودمروها ..

لكن الفرقة تعرضت صباح يوم ٧ اكتوبر لهجوم كبير نسبيا من جالبها الايمن من اتجاه حوض ابو سماره (مناطق في الصحراء تحمل مثل هذه الاسماء التي لا معنى لها) .

ويعتقد قائد الفرقة اللواء فؤاد عزيز ان الجنرال مندلر قائد المدرعات الاسرائيلي في سيناء قد قتل في هذه المعركة .. ومعروف ان مندلر قد لقى مصرعه فى احدى معارك سيناء حسب البلاغ الاسرائيلي

لماذا ؟..

لأنه بعد فشل الهجمة الاسرائيلية لوحظ أن الاسرائيليين بذلوا ثلاث محاولات للهجوم لاسترداد جثة قائد الدبابات التي احترقت تماما.. في دبابة

القيادة . ولكن أمكن للقوات المصرية ان تعثر على بقايا مهمات في دبابة القيادة هذه يمكن الاستدلال منها على انها تخص القائد مندلر ..

وقام اسرائيليون يوم ٨ اكتوبر بهجوم كبير آخر (حوالى ١٠٠ دبابة ومركبة) جاء من العريش وبدأ يضرب في اتجاهين : طريق الاسفلت عند رمانة .. وفي اتجاه الجنوب .

واستطاعت فصائل الفرقة ١٨ ان تجر دبابات ذلك الهجوم الى منطقة « جلبانه » وهي ارض سبخه لا تصلح لتحرك الدبابات في مناورات واسعة ..

ولكن الفرقة مع ذلك عجزت عن افشال الهجوم .. فاستعانت بسلاح الطيران المصري الذي جاءت طائراته وانفردت بالدبابات الاسرائيلية في اكبر قصف حقق فيه السلاح تدميرا لمدرعات العدو في طلعة واحدة ..

لقد كان الطيارون المصريون ينقضون بصواريخهم على الدبابات الاسرائيلية كانهم في عرض جوي تدريبي وليس حربا .. ولا عجب فالسماء كانت خالية من طائرات العدو ..

ولقد خرج قائد الفرقة من مكمنه غير عابىء بالخطر يتسلى بالتفرج وهو مبهور بهذا المنظر حتى استطاعت الطائرات المصرية تدمير معظم الدبابات والمركبات .

في القطاع الجنوبي :

وفي القطاع الجنوبي تمكنت الهجمات المضادة الاسرائيلية من تعطيل الفرقة ١٩ بقيادة اللواء يوسف عفيفي من الاستيلاء على ثلاث نقط من نقاط خط بارليف (١٤٩ و ١٥٨ ولسان بور توفيق) مدة ثلاثة أيام تواصل القتال فيها بالليل وبالنهار حتى سقطت اخيرا .

٢٦ ساعة عصيبة :

وواجهت نفس الفرقة يوم ٩ اكتوبر هجوما مضادا اسرائيليا عنيفا .. استمر ٢٦ ساعة كانت من احرج الفترات التي مرت بها .. فقد دلت عمليات الاستطلاع ان العدو ينوي الهجوم على الفرقة بلواءين احدهما مدرع والأخر ميكانيكي ..

واخفى قائد الفرقة الخبر عن القادة الآخرين معه .. ولكنه امر بتجهيز المدفعية على طول محور متلا وعيون موسى وهما الطريقان اللذان قد يقترب عليهما العدو .. بحيث اصبح لدى الفرقة ستارة من نيران الايقاف.

كما امر القائـــد بتجهيز سرايا مـن الدبابـات .. اتخذت وضـع الاستعداد .. وامر باقامة حفـر برميليـة ربض بها المشاة بالصواريـخ والقنابل اليدوية .. واعطى تعليمات بالا يخطو خطوة واحدة الى الوراء ..

وجاء الهجوم الاسرائيلي المتوقع .. وفوقه طائرات اسرائيلية تحميه .. وبدأت المدفعية .. المبارزة بالنيران ..

وارتفعت معنويات الجنود عندما راوا الطائرات الاسرائيلية تتهـاوى بفعل حائط الصواريخ ..

كان الامر بالنسبة لهم كتابلوه رائع لسقوط الغرور الاسرائيلـي .. وقفز المشاة من حفرهم البرميلية وهاجموا الدبابات والعربات المجنزرة .. وكانت النتيجة ارتداد الهجوم المضاد الاسرائيلي بعد ست وعشرين ساعة من الكر والفـر ..

مركز قيادة العدو في متلا :

وفي يوم ١٠ اكتوبر هجم جنود الفرقة ١٩ على طريـق متلا بهدف الاستيلاء على مقر قيادة العدو .. وكانت عملية ليلية نجحت تماما وفوجيء العدو باستيلائها على المركز سليما تقريبا .. وكذلك محطـة ضـخ الميـاه التابعة له (ثمنها ٣٠ الف جنيه) ..

فجن جنونـه ..

وقام بهجوم مضاد شرس مدعم بالدبابات والمشاة الميكانيكية وتحـت نيران المدفعية الكثيفة محاولا استرداد المركز ..

وعندما تقدمت دباباتنا لملاقاتـه استطاع ان يوقفها في البداية على طريق متلا وجبل المـر ..

ولكن قائد اللواء العقيد محمد الفاتح كريم تصدى للعدو .. وصمـم على الاستيلاء على جبل المر حيث كان العدو يستخدمه للهجوم على القوات المصرية .. وقصة الاستيلاء على تلك النقطة قصة بطولة استحق عليهـا العقيد بعد ذلك وسام نجمة الشرف ..

لقد قاد فصيلة مترجلة (٣٠ جنديا تقريبا) واتجه هو وقائد كتيبة وقائد الفصيلة على راس هؤلاء الجنود واخذوا يتقدمون سيرا على الاقدام الغرود الرملية والمناطق الجبليـة الوعرة .. ويتسلقـون الجبل متسللين .. حتى باغتوا العدو .. ولم تجد محاولاته الاخيرة في الالتفاف حولهم . وبهذه الطريقة سيطرت الفرقة على هيئة حاكمة حيوية في المنطقة الجنوبية. بعد ذلك واصلت دباباتنا التقدم لملاقاة الهجوم الاسرائيلي المضاد ..

وهنا عمد العدو الى الخبث فحاول استدراج الدبابات الى مدى ابعد مما تبغي التقدم اليه ليوقعها في مصيدة شبكة الصواريخ المضادة للدبابات .. ولكن قائد اللواء فطن الى المناورة الاسرائيلية .. فدفع بسريتين من صائدي الدبابات المصريين .. فهجموا على الدبابات الاسرائيلية .. ودمروا اربعا منها ..

واستشهد الضابطان اللذان كانا يقودان السريتين فوق برجي دبابتين وهما يقذفان داخلهما بقنابل يدوية !

وتراجع العدو .. وقد فشلت خطته في استرداد مركز القيادة في متلا ..

وفي عيون موسى : حدث نفس الفشل للهجوم الاسرائيلي المضاد بعد ان تكبد خسارة خمس دبابات ..

وكانت القوات المصرية التي استولت على قيادة العدو في عيون موسى قد استولت عليه سليما ايضا بمدافعه الست من عيار ١٥٥ مليمترا .. علاوة على عدد من المدافع المضادة للطائرات والدبابات .. علاوة على اجهزة رادار وتكييف هواء وحتى ثلاجات !

الحصن الوحيد الذي لم يسقط :

ومن المعروف ان القوات المصرية قد استولت على كل النقاط الحصينة في خط بارليف ..

ولكن في الحقيقة ان هناك نقطة واحدة لم تستول عليها القوات المصرية .

وهي النقطة التي تقع في طرف قناة السويس اقصى الشمال قبالة مدينة بور فؤاد .. على ساحل البحر الابيض المتوسط .

وهو موقع فريد اذ تحاصره مياه البحر والملاحة .. ويقع على شريط ضيق من الارض السبخة .. واستغرق الاسرائيليون سنتين في بنائه لصعوبة البناء هناك ..

وعندما بدات الحرب قصفت المدفعية المصرية الحصن قصفا شديدا ألحق بدشمه خسائر ..

وعندما نزل المشاة المصريون حاملين صواريخ ساجر وقذائف الا.ر.ب.ج. المضادة للدبابات .. ليواجهوا الدبابات الاسرائيلية « الاحتياطية » التي كانت قريبة جدا من الحصن على عكس نقاط خط بارليف الاخرى .. امكن لهؤلاء المشاة ان يلحقوا خسائر فادحة بتلك

الدبابات .. لكن الاسرائيليين كان بوسعهم تعويض الخسارة بسرعة والدفع بالمزيد منها ..

فجاءت طائرتان مصريتان تدكان الحصن .. واصيب بخسائر فادحة وجاءت المشاة الميكانيكية الاسرائيلية تساعد المدافعين عن النقطة بعد ان ارتفعت شكواهم باللاسلكي .. من القصف المصري .. ومن الحصار الذي احكمه الجنود المصريون حولها ..

واستمر الضرب والحصار .. حتى انهك الجنود الاسرائيليون المرابطون في الحصن وكثر جرحاهم وقتلاهم باعتراف المصادر الاسرائيلية ذاتها ..

وقام الاسرائيليون بهجمة مضادة كبيرة بالدبابات والجنود (١٥ دبابة وخمس سيارات للمشاة الميكانيكية) .. ولم تكن هناك دبابات مصرية تواجه هذا لان طبيعة المنطقة لا تمكن توجيه مثل تلك الدبابات من الغرب الى الشريط الضيق السبخ حيث تقع النقطة .

واستطاع الاسرائيليون تغيير جنودها المحاصرين بجنود جدد .. بعد ان خسروا عشرة من القتلى ..

وحاولت القوات المصرية الاستيلاء على الحصن بواسطة البرمائيات التي قدمت من البحر .. ولكنها لم تستطع تحقيق الهدف ايضا رغم نزولها واشتباكها وجها لوجه مع القوات الاسرائيلية في الدشم بالاسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية .

واسرع الاسرائيليون بارسال تعزيزات من الدبابات والمشاة الميكانيكيين المرابطين قريبا من الحصن ..

وفكرت القيادة المصرية بعد ذلك .. هل تواصل الهجوم للاستيلاء على تلك النقطة ام تتركها حيث ان الاسرائيليين في تلك المنطقة في ظرف موات يجعل لهجماتهم المضادة فاعلية اكثر لاختلاف توازن القوى كما انه ليس لها اهمية استراتيجية في المعركة بعد ان اقتحم خط بارليف كله ؟..

وصدر القرار بالتخلي مؤقتا عن الاستيلاء على النقطة .. وتطورت الامور بعد ذلك في الحرب .. بحيث لم تحاول القيادة المصرية بعد ذلك الاستيلاء على تلك النقطة .

ومما يذكر انه في مباحثات الكيلو ١٠١ للوصول الى اتفاق للفصل بين القوات .. تمسك الاسرائيليون بعدم الجلاء عن تلك النقطة .

* * *

الأمثلة التي ضربناها من قبل عن الهجمات الاسرائيلية المضادة .. تؤكد ان الحرب لم تكن نزهة .. وانما كان الجيش المصري يواجه عدوا شرسا مقاتلا رغم توفر عنصر المفاجاة في الحرب .. كما تبين ان هذه الهجمات قد فشلت جميعا (باستثناء النقطة في اقصى الشمال على ساحل البحر الابيض) .. مما يؤكد تفوق الجيش المصري وقدراته سواء قياديا وتخطيطيا ومعنويا أيضا .

لكن اهم هجومين مضادين قام بهما الاسرائيليون .. هما هجوم اللواء ١٩٠ في الشمال .. وهجوم اللواء ٦٠٠ في الجنوب ..

وكلا الهجومين قد مني بالفشل الذريع على يد القوات المصرية ..

والحقيقة انه مما يثير الدهشة ان اضواء باهرة قد سلطت على هجوم اللواء ١٩٠ .. بينما لم يسمع احد عن هجوم اللواء ٦٠٠ ..

ربما كان السبب أن قائد اللواء ١٩٠ عساف ياجوري قد اسر .. واحيط اسره بضجة خاصة عندما تحدث في التليفزيون ..

بينما قائد اللواء ٦٠٠ لم يؤسر .. ولم يعرف اذا كان قد قتل ام لا ..

ولقد قيل كلام كثير حول من الذي دمر اللواء ١٩٠ .. وذكرت اسماء مختلفة باعتبار انها هي التي حققت هذه المهمة العسكرية البارعة .. حتى أن الحقيقة قد تاهت وسط هذا الفيض من الاسماء ..

ولذلك فقد دقق الكاتب في تحري وقائع هجوم اللواء ١٩٠ بالتفصيل .. صحيح اني كنت في جبهة القتال وقتها كمراسل حربي مع زملائي المراسلين .. ولكنك **في جبهة القتال لا تعرف التفاصيل وخاصة الاسماء اثناء المعركة .. بقدر ما تستطيع ان تعرف بعد انقشاع غبارها ودخانها..**

كما ان وقت القادة وهم يخططون للمعركة بل ويشاركون فيها عملا (وقد راح قادة كثيرون شهداء فيها) لا متسع لديهم « ليدردشوا » .. في التفاصيل .. واهم من هذا وذاك انه اثناء المعركة .. يذوب الفرد في الكل .. ويصبح الجميع جسما واحدا .. كتلة واحدة .. اداة وحيدة تضرب العدو وتضرب منه .. ليس هناك زيد او عمرو .. وانما جيش باسره .. فرقة باسرها .. كتيبة .. فصيلة .. سرية .. يحمل كل واحد فيها روحه على كفه وقد تاه عن اسمه ونسي ذاته ولم يعد يذكر الا فرقته او كتيبته او فصيلته وسريته .

★★★

القصة الحقيقية للواء ١٩٠ :

لم يعرف الاسرائيليون في تل ابيب شيئا عن هزيمة اللواء ١٩٠ .. ان الجنرال جونين بعد ان وصلته التعزيزات الجديدة من الاحتياطي العام .. قرر البدء بهجوم مضاد كبير .. فبعث باللواء ١٩٠ بناء على طلب الجنرال اريك شارون .

ولم تتحدث المصادر الاسرائيلية عن الهزيمة .. وظلت اسرائيل تتكتم الخبر خصوصا ان مصر لم تذع القصة الا بعد ٢٤ ساعة من اسر عساف ياجوري قائد اللواء .

هنا اضطرت اسرائيل الى الاعتراف بالحقيقة .

والاسلوب الإسرائيلي في الهجمات المضادة معروف : محاولة الالتفاف والتطويق من اجناب القوات المهاجمة .

وكان الهدف الرئيسي من هجمة اللواء ١٩٠ هو اختراق الخطوط المصرية والعبور الى غرب القناة .. .

ومن هنا طلب شارون من جونين دفع لواء مدرع جاء من منطقة « بيت دوراس » على الطريق الساحلي حتى منطقة رمانة .. ولم يكن ذلك هو الهدف الحقيقي كما تبين فيما بعد .. وانما كان ذلك التحرك لخداع الجيش المصري الذي كانت فرقته الثانية هي المرابطة في المنطقة ..

وظل ذلك اللواء يتحرك خلال ليلة ٧ و ٨ اكتوبر حتى ظهر امام الفرقة الثانية صباح ٨ اكتوبر في العاشرة ..

ولم يظهر اللواء بكامله .. وانما اندفعت منه سرية دبابات حاولت مهاجمة الجانب الايمن من الفرقة ..

تصدى للسرية قائد احدى كتائب دبابات الفرقة **العقيد فطين دياب** ودمر السرية .

لكن العدو عاد فدفع بسرية اخرى .. فدمر منها ست دبابات .. واذا بسرية اخرى تندفع في اتجاه اخر فتصدى لها العقيد **ابراهيم زيدان** .. فدمر منها اربع دبابات ..

في نفس الوقت كانت هناك كتيبتا دبابات اسرائيليتان تهاجمان الفرقة على الطريق الاوسط ، ودخلتا في معركة مع دبابات الفرقة الثانية التي استطاعت تدمير ٢٢ دبابة منها ما بين الساعة السابعة صباحا والعاشرة مساء .

اثار الموقف دهشة ((العميد)) حسن ابو سعده قائد الفرقة .. كما اثار قلقه .. ماذا تعني عدم مبالاة الاسرائيليين بهذه الخسائر الجسيمة وماذا يريدون بالضبط .

انهم يضربون في اتجاهات مختلفة ، يبدو الا تنسيق بينها .. فتارة من الجانب الايمن .. وتارة من الوسط ..

وطرح في غرفة العمليات بين اركان حربه سؤالا .. كم عدد الدبابات التي تهاجمنا ؟..

ومن اي تركيز للمدرعات يستمد العدو مدده المستمر ؟

وخرجنا بنتيجة : اننا لسنا بصدد هجوم محدود .. سرية او سريتان او كتيبة .. نحن نواجه هجوما كبيرا ..

امر قائد الفرقة كل فرق الاستطلاع بالخروج للبحث .. حتى يحصل على معلومات كافية .

كان يهدف الى استباق القيادة الاسرائيلية وضرب حشودها من الدبابات ان كانت هناك حشود تستعد لضرب الفرقة ..

وعادت قوات الاستطلاع بمعلومات ثمينة ..

ان هناك لواء مدرعا بكامله (اي اكثر من ١١٠ دبابة) موجود على مسافة ١٥ كيلو مترا في منطقة ((هينات)) .

وهذا اللواء يقف في طوابير قصيرة ومدافعة مصوبة في اتجاه الفردان وموتوراته دائرة ..

هذا هو حجم الهجوم اذن .. وكل ما فات كان مجرد مقدمة لشغل الفرق وجس النبض والتعمية عن الاتجاه الحقيقي .

ومع ذلك امر قائد الفرقة بمزيد من الاستطلاع بحثا عن دبابات اخرى مختفية في اماكن اخرى.. ولكن شيئا غير لواء «الهينات» لم يكن موجودا..

عاد القائد فأمر باستطلاع شبكة لاسلكي العدو (اي التصنت عليها فالتقطوا اشارة من قائد اللواء تفيد انه سيبدأ في الهجوم بعد عشرين دقيقة متقدما باقصى سرعة .

ومرت ثلاثة عشر دقيقة ما بين التقاط الاشارة وترجمتها من العبرية الى العربية حتى وضعت امام القائد ..

كانت المشكلة التي تواجهه هي تحديد اتجاه الضربة بالضبط .. ثم ان الوقت قد ازف.. اذ سيهجم العدو باقصى سرعة بعد ٥ دقائق بالضبط.. وسرعة الدبابات في الصحراء لا تعطي فرصة لصده في مثل تلك الدقائق

المعدودة .. اي ليس بوسعه دخول معركة تصادمية والاعداد لها .. مما تتطلبه من مناورة وحركة واعادة تنظيم للقوات في وقت قصير كهذا .

ان طريقة العميد ابو سعده في مواجهة الهجمات المضادة الاسرائيلية منذ بدات الحرب كانت دائما عدم الدفاع الثابت امام تلك الهجمات .

كان يثبت فترة قصيرة لامتصاص الضربة الاولى ..

ثم يعمد الى مهاجمتها بمجموعات اقتناص الدبابات .. وينجح نجاحا باهرا .. جرب ذلك ايام ٦ و ٧ و ٨ ..

ومجموعة اقتناص الدبابات تتكون عادة من جنديين او ثلاثة مدربين تدريبا خاصا لاقتناص الدبابة من مسافات قريبة قد تصل الى عشرة او خمسة عشر مترا لتتأكد من اصابتها فيمقتل .

لم يكن هناك وقت اذن لممارسة الاسلوب الذي تعود عليه القائد في مواجهة الهجمات الاسرائيلية ..

وربما كان مفيدا ان يغير اسلوبه هذه المرة .. بعكس ما يتوقع العدو .

وفكر بسرعة .. فقد كان لا بد من اتخاذ القرار في ثوان .. وقرر « مقابلة » العدو باسلوب لم يتعوده من قبل ..

وهو اسلوب **ارض القتل .**

وتعني ارض القتل .. تجهيز منطقة ما بأسلحة مدمرة تكون في شكل كمائن او حتى ظاهرة .. المهم ان نيران تلك الاسلحة يمكن ان تغطي مساحة ما من الارض محددة بما يشبه السقف .. بحيث تدمر كل شيء في تلك المساحة ..

وتوقعت قيادة الفرقة ان الهجوم الاسرائيلي سيتم من ناحية كتيبة المقدم ابراهيم زيدان لان الى جانبها يقع الفردان وهو طريق عمودي على القناة يؤدي الى نقطة الفردان القوية في خط بارليف .

وكانت تلك النقطة ما زالت نقطة « حية » اي لم تستول عليها القوات المصرية بعد .

كانت تلك المنطقة تعتبر اقل المناطق التي اصيب فيها العدو بخسائر منذ ان بدات الحرب .

كانت القيادة المصرية تستغل سلبية اسرائيلية معروفة وهي الغرور الاسرائيلي . فلقد توقعت ان قائد اللواء « المغرور » سيهاجم مباشرة من على الطريق دون محاولة للالتواء ..

صدرت الاوامر لكل القوات باتخاذ اوضاع **« ارض القتل »** وتقرر ان تفتح كتيبة المقدم ابراهيم زيدان ثغرة كي يمر منها العدو من «امامه» . وكان لتلك الكتيبة تقدير خاص اذ كانت اكثر الكتائب تدربا على التلاحم في معارك الدبابات .

« كان ابراهيم استاذ في هذا الفن » كما يتحدث عنه ابو سعده في اعزاز وافتخار ..

وبدات كتيبة ابراهيم في محاولة جذب العدو الى الفخ .. باطلاق « زخات » خفيفة من الرصاص عليه ..

فبدأ يقترب في اتجاهها .. وبدأ يدخل على جهة عرضها ٣٢ كيلومترا وبسرعة ٣٥ مثيرا زوابع واعمدة من التراب ..

قدرت القيادة ان المدة التي سيستغرقها اللواء حوالي ثلاثين دقيقة على الاكثر ..

وكانت تكفي لتجهيز ارض القتل بسرعة ..

وغطس الرجال في الملاجيء والخنادق .. في شكل دائرة واسعة .. وقد حبسوا انفاسهم مستعدين للحظة الحاسمة .. لحظة تحويل تلك الارض الهادئة الى « أرض قتل » .. الى جحيم مستعر ..

تقدمت دبابات العدو .. وانفجرت بعض الالغام المصرية تحت بعضها وتوقفت .. لكن اللواء استمر في تقدمه .. ودخل في الطبق الهائل .. الذي جدرانه من رجال اقتناص الدبابات المدربين .

وما ان دخل آخر طابور من دبابات العدو الطبق حتى اغلقت الثغرة تماما ..

فوق اللواء كانت عدة طائرات للعدو .. والغريب أنهالم تر الرجال.. اذ كانت الملاجيء مموهة تمويها جيدا !..

ثم صدر الامر باشعال نار الجحيم !

وانطلقت النيران من كل مكان .. من جميع الاتجاهات ..

ونيران من كل الانواع .. مدفعية .. قذائف الار.ب.ج. صواريخ .

وقفز الرجال من خنادقهم .. ليمنعوا اية دبابة من الهرب ..

ضربوا الدبابات من الامام .. ومن الظهر ..

كانت افضل الوسائل هي الالتحام بالدبابة مباشرة للحيلولة بين رصاصها واصابة الرجال ..

ولم يخش الرجال طائرات العدو . التي اندفعت تضربهم برشاشاتها من ارتفاع منخفض .. ولكنها عدلت .. اذ كانت تهدد دباباتهم ايضا ..

كما انها خشيت من الصواريخ التي نجحت في اسقــاط طائرة من الطائرات المرافقة للواء ..

وفي ثلاثة عشر دقيقة فقط .. تم تدمير لواء مدرع بالكامل .. لــم تنج دبابة واحدة .. وهذا شيء نادر في الحروب حقا ..

والآن كيف أسر عساف ياجوري :

ومن الذي أسره ..

كانت دبابة عساف ياجوري هي دبابة القيادة.. وكانت فيآخر طوابير الدبابات .. وعندما بدأ القصف وتبين القائد الاسرائيلي النهاية الحتميــة للوائه بعد ان دخل المصيدة .. حاول الهرب في اتجاه الشرق ..

لكن النقيب عادل القرش الذي كان يركب دبابة من طراز ت ٥٤ اطلق على الدبابة الهاربة قذيفة اصابتها اصابة بليغة ..

قفز عساف ياجوري من الدبابة المصابة واختفى في حفرة هو وافراد طاقم الدبابة ريثما تواتيهم فرصة للتسلل عائدين الى خطوطهم .

وبعد قليل لحق به طاقم ركبة القيادة التي ضربت هي الاخرى وقفز منها الطاقم ..

وظلوا في « حفرتهم » قابعــين حتى لمحهم ضابط استطلاع احــدى الكتائب كانت مهمته « التفتيش » عن الجنود الاسرائيليين الذين يهربون من الدبابات التي كانت تتساقط واحدة وراء الاخرى ..

وابلغ ضابط الاستطلاع قائــد الكتيبة .. الــذي امر بدفع قــوة لمحاصرتهم بقيادة الشهيد النقيب **فاروق فؤاد سليم** .

وجاءتهم عربة مدرعة .. حاصرتهم في الحفرة .. واندفع الملازم ثان **فتحي بخيت (وليس غيره من الأسمــاء التي رددت)** ومعه مجموعة مــن الجنود للقبض على الاسير ، وما ان اقتربوا منه على مسافة مئات الامتار حتى القى عساف ياجوري السلاح ورفع يديه بالتسليم وصاح مطالبا مقابلة القائد المصري ..

واسر ياجورى ومن معه .. ولم يقابله القائد العميد حسن ابو سعده .. الا صباح اليوم التالي .. وبعدها أذيع خبر تدمير اللــواء ١٩٠ وأسر قائــده ..

★★

معركة اللواء المدرع «٦٠٠»

في الجبهة الجنوبية رغم ان العدو تصور في البداية انها « جبهة مساعدة » للجبهة الأساسية في الشمال .. فانه وجه ضدها عدد من الهجمات المضادة منذ البداية .. ثم ضاعف هذه الهجمات عندما اكتشف خطأ تصوره .. وان المصريين خططوا منذ البداية لاقامة خمس رءوس جسور بخمس فرق على طول الجبهة شمالا وجنوبا .

وكان العدو الاسرائيلي يهاجم القوات المصرية بواسطة الطيران بعنف شديد في المراحل الاولى حتى وصلت « الطلعات » الى ٥٠٠ طلعة وقد حدث في بعض الغارات ان القت الطائرات الاسرائيلية ٣٥٠ طنا من القنابل .. ونتيجة لوجود شبكة الصواريخ في الغرب اضطر العدو ان يقوم بهجماته الجوية على ارتفاعات منخفضة (٢٥ مترا) لتجنب تلك الصواريخ .

فكانت القوات المترجلة تلاحق الطائرات بصواريخ سام سبعة (الاسترلا) وغيرها من الاسلحة الصغيرة فالحقت به خسائر جسيمة ويكفي مثلا ان تعرف ان اربعة عشر طيارة اسقطت يوم ٨ اكتوبر في قطاع الفرقة السابعة فقط بواسطة « الاسترلا » والاسلحة الصغيرة .

وجرب العدو بعد ذلك القيام بهجوم مضاد بالدبابات ، فتقدم بأربعين دبابة وهي تضيء انوارها الكاشفة .. الى مواقع الفرقة السابعة التي واجهتها بنار كثيفة من ١٠٨ مدافعا .. مما ارغم معظم تلك الدبابات على الارتداد .. وتجمعت من جديد بعد أن عوضت خسائرها فواجهتها قيادة الفرقة هذه المرة بجماعات اقتناص الدبابات المدربة على ذلك ليلا .. وفشل العدو ..

فاتجه الى القطاع الاوسط .. حيث الفرقة ١٦ التي كان يقودها **العميد عبد رب النبي حافظ .**

وبدأت معركة اللواء ٦٠٠ المدرع الاسرائيلي ..

في التاسعة صباح يوم ٩ اكتوبر بدأ العدو مشاغلة واجهة الفرقة ١٦ بالكامل بهجمات محدودة ــ مجموعات من الدبابات متفرقة .. خمس او عشر دبابات ..

كان الهدف ان تتصور القيادة المصرية أن الاسرائيليين بصدد تدبير هجوم شامل على الفرقة ١٦ باكملها .. وفي هذه الحالة سيكون على تلك الفرقة ان تعمد الى استدعاء احتياطيها وتحريكه في اتجاه الدبابات الاسرائيلية المهاجمة .

فاذا ما تحقق ذلك (سحب الاحتياطي) يكون ظهر الفرقة عاريا ..
ثم يركز العدو بتجميع قواته في كثافة رئيسيــة ويقوم بحركة اختــراق لاضعف جزء ثم يلتف ويطوق الفرقه بعد أن سحبت احتياطيها الى الامام لمواجهة هجوم الدبابات « الموهوم » على طول مواجهة الفرقة ..

قدر قائد الفرقة « العميد » **عبد رب النبي حافظ** الموقف ووضــع استنتاجاته موضع التطبيق فلم يحرك الاحتياطي ..

وبدت « الانساق » الاولى من دبابات الفرقة « تتعامل » مع الدبابات المواجهة للفرقــه ..

وعندما بدا العدو يكثف هجومه في نقطة رئيسية بواسطة اللواء ٦٠٠ كان الاحتياطي في انتظاره ايضا في المكان والوقت المناسبين .. فى منطقة القلب من الهجوم ..

وعلى عكس ما حدث في معركة اللواء ١٩٠ كانت المعركة ضد اللواء ٦٠٠ معركة دبابات في الاساس في معركة تصادمية رهيبة .. اشترك فيها من دبابات العدو ١٦٠ دبابة ..

وقامت مجموعات اقتناص الدبابات بالدور المساعد لا الرئيسي في هذه المعركــة .

واستمرت المعركة عدة ساعات وانتهــت بتدمير ٩٠ ٪ من اللــواء الاسرائيلي ٦٠٠ .

ولكن قائده لم يؤسر .. لذلك لم تثر ضجة كبرى حول تدمير ذلك اللواء .. واســتشهد فى المعركة البطل المصرى **شـفيق مترى سـدراك** وجرح البطل العقيد **عادل سليمان يسرى** صاحب كتاب « **الساق المعلقة** » .

وتلقت الفرقة خطاب تقدير من وزير الحربية على انتصارها في تلك المعركــة ..

★★★

يمكن القول ان كل الهجمات الاسرائيلية المضادة قد فشلت .. كانت القوات المصرية تثبت .. وتقاوم .. بل وتتقدم وراء العدو المهزوم وهــو يفر ان لم يدمر تماما .. وكان الهدف الاساسي منها جميعا هو احداث ثغرة .. والعبور الى الغرب لتطويق القوات المهاجمة ..

وكان ذلك شيئا جديدا على الاسرائيليين .. لقد تعودوا ان رد الفعل المصري الوحيد ازاء اي هجوم اسرائيلي (غير مضاد طبعا لانه لم يحدث أن

المصريين قد بدءوا هجوما ضد اسرائيل من قبل هو الانسحاب ولا شيء غير الانسحاب ..

ولكنهم هذه المرة يجدونهم يقاومونهم .. ويردونهم على اعقابهم .. والقادة دائما في المقدمة .. في المقدمة في صفوف القتال .. وفي المقدمة في صفوف الشهداء ..

ان المقدم ابراهيم زيدان والعقيد فطين دياب اللذين تحدثنا عن دورهما الكبير في تدمير اللواء ١٩٠ .. قد استشهدا بعد ذلك في معركة صد هجوم مضاد عند نقطة المثلثات ٨٩ احدى نقاط خط بارليف الحصينة .

واستشهد معهما المقدم ممدوح عبد الغني ..

فاذا كان الجنود يرون ثلاثة ضباط عظام يستشهدون امام عيونهم في معارك مباشرة مع العدو .. افلا يدفعهم ذلك دفعا الى التسابق نحو الاستشهاد ..

هذا هو ما حدث في معركة صد الهجوم المضاد عن نقطة المثلثات .. وغيرها ..

ولكن الاسرائيليين قاموا بهجوم مضاد ناجح واحد في تلك الحرب .. هو هجوم « الثغرة » .. ولا بد من الاعتراف بذلك ..

ولكن ذلك لم يكن بسبب نقص في شجاعة او كفاءة القوات المصرية .. انما لاسباب كثيرة عديدة سنعرض لها في الفصل الخاص « بالثغرة » .

وربما كان واحدا من اسباب نجاح ذلك الهجوم المضاد هو انهم لم يعمدوا الى اسلوبهم النمطي في هجماتهم المضادة السابقة جميعا . هذا الاسلوب الذي احتاجوا الى قتال استمر عشرة ايام حتى اضطروا الى تغييره .. بعد ان كبدهم خسائر فادحة اذ اوقعهم فيما سماه المشير احمد اسماعيل في حديثه معي « بمفرمة اللحم » .

١٣

صراع بين ارادتين ...

استقر الامر للجيش المصري اذن وثبت اقدامه على الشاطىء الشرقي للقناة .. ولتعزيز هذا التثبيت عمدت القيادة المصرية الى توحيد الرءوس الخمسة للجسور التي اقامتها القوات العابرة ..

اصبح علي كل فرقتين ان تشكلا رأس جسر واحد على مستوى جيش بعمق يتراوح ما بين عشرة وثلاثة عشر كيلو مترا ..

واصبحت الصورة كالاتي :

● رأس جسر الجيش الثاني الميداني : ويشمل الفرقة الثانية والفرقة ١٦ والفرقة ١٨ .

● رأس جسر الجيش الثالث الميداني : ويشمل الفرقتين السابعة والتاسعة عشر .

● واخيرا فرقة المشاة الخامسة التي كان عليها السيطرة على طرق الاقتراب الى رءوس الجسور المشار اليها .

لقد كانت العمليات الحربية في البر تسير لغير صالح القوات الاسرائيلية بالتاكيد ، لماذا ؟ لاصرار الاسرائيليين على استخدام الاسلوب النمطي القديم : سلاح الطيران والمدرعات ..

ولكننا رأينا كيف ان الطيران الاسرائيلي كان شبه عاجز بسبب الصواريخ (التي سنفرد لها بابا خاصا) ، كما ان الدبابات نفسها تعرضت لخسارة جسيمة بسبب الصواريخ ايضا .

اضف الى ذلك ان المدفعية المصرية بعيدة المدى كانت تصلي القوات الاسرائيلية نارا حامية أوقعت بها خسائر فادحة واضعفت من قدرتها على الحركة .

ان معارك كهذه اثبتت أن المشاة من اكثر الاسلحة فعالية .. ولم يكن ممكنا ان يحرز الاسرائيليون انتصارا وهم ما زالوا يقاتلون وهم متدرعون .. وازاء قوات قتالية اثبتت المعارك انها كانت مجهزة ومدربة بشكل يتفوق على الاسرائيليين .

ولقد كان جديدا على الاسرائيليين هذا الثبات الغريب للقيادة المصرية. فانهم عندما حاولوا تعويض هذا الفشل في ميدان القتال البري عمدوا الى شن هجمات جوية في عمق الاراضي المصرية تعززت بعمليات بحرية ليلية فهاجمت الطائرات مطارات في الدلتا ..

لكن لم يثر ذلك قلقا او انزعاجا لدى القيادة المصرية بل الذي حدث ان الاسرائيليين دفعوا ثمنا باهظا من طائراتهم التي سقطت سواء في معارك جوية مع الطائرات المصرية التي تصدت لهم .. او بواسطة الصواريخ .

ورغم ان حاييم هيرتزوج كان يصرخ فاضحا اهداف الهجمات الاسرائيلية المتتالية .. الا ان ذلك الهدف ظل بعيدا عن التحقيق ..

قال هيرتزوج في اليوم الرابع للقتال « ان الحرب التي نخوضها تختلف عن الحروب السابقة .. فالفريقان يقفان وجها لوجه ويتبادلان الضربات ويحاول احدهما انهاك الآخر ويبحث عن نقط الضعف لديه . اننا نخوض حربا استنزافية تمكن خلالها المصريون من نقل نسبة كبيرة من قواتهم الى سيناء . وفي الوقت نفسه يواصل سلاح الطيران الاسرائيلي ضرباته غربي القناة حيث تلزم هذه الطائرات القيادة المصرية بالاهتمام بما يجري غربي القناة . **ان هدفنا هو تحطيم ارادة المصريين القتالية .** »

هذا الحلم ـ حلم تحطيم ارادة المصريين القتالية لم يحدث قط . .
بل ان الذي كاد ان يحدث فعلا .. هو ان تتحطم ارادة الاسرائيليين القتالية .. لقد كادوا يهزمون .. وبدا ان ديان قد اوشك على الانهيار .. كما بدا في المؤتمر الصحفي السري الذي عقده ثالث ايام القتال لولا الولايات المتحدة التي هبت لانقاذ اداتها وحليفتها في المنطقة .

★★★

وسنحكي هنا قصة معركة واقعية جرت في الحرب .. هي نموذج للصراع بين الارادتين في تلك الحرب : الارادة المصرية والارادة الاسرائيلية ،

وهي معركة يسميها المقاتلون معركة « المائة نقطة » ، لان الاسرائيليين قاموا فيها بمائة هجوم مضاد متواصلة في ثلاثة ايام .. وفي كل مرة يخسرون .. وتتكسر هجماتهم على صخرة المقاومة المصرية ..

وهم خسروا تسعة وتسعين هجوما .. تسعة وتسعين نقطة ...

حتى جاءتهم الضربة القاضية في هجومهم رقم مائة .. فتحطموا تماما .. وما عادوا يكررون المحاولــة ...

والغريب ان معركة المائة نقطة دارت في منطقة بصحراء سيناء شرقي قناة السويس بسبعة عشر كيلو مترا .. والمنطقة تحمل اسم النقطة مائة..

وايا كان اسم المعركة المائة نقطة او « النقطة ١٠٠ » فانها معركــة دخلت تاريخ معارك التحرير في سيناء بل ومعارك حروب الصحراء جميعا من اوسع الابواب ..

★★★

وقد بدأت قصة تلك المعركة مع غياب اخر خيط لضوء نهار يوم ٩ اكتوبر .. وكان الهدف هو الاستيلاء على تلك المنطقة التي تعتبر نقطــة ارتكاز واشراف هامة على قطاع كبير في الجبهة الوسطى ..

وقد تمركزت فيها قيادة العدو ودفاعات قوية من الدبابات والمشاة والمدفعية .

وقد عمدت القيادة المصرية الى خداع العدو لاستدراجه .. موهمة اياه ان الهدف هو القيام ببعض مناوشات وليس الاستيلاء على الموقع الذي يشكل هضبة عالية مترامية ..

على طول خط طويل نسبيا بدات دباباتنا ومدفعيتنا في ضرب مواقع العدو .. دون ان تبذل محاولة للتقدم ..

فنزلت دباباته من الهضبة العالية لتتخذ مواقع تحاول فيها الاحاطــة بقواتنا بعد ان طالت مدة الضرب ..

وقد كان القتال ليليا . والخبراء العسكريون قد ملئوا العالم مــن قبل احاديث عن تفوق الجنود الاسرائيليين في القتال الليلي بينما قللوا من قدرة المقاتل المصري على ذلك النوع من القتال .. بل اي نوع من القتال على الاطــلاق ..

وكان لم يمض على عبور الجيش المصري اكثر من ثلاثة ايام او اربعة.. والجنود الاسرائيليون في خط بارليف اذا كانوا قــد بوغتوا بالهجوم فــان احتياطيات العدو الالية فيمــا وراء الخط (على بعد سبعةوعشرين كيلو

مترا . لم يكن لها ان تحتج بالمباغتة .. كانت على استعداد لملاقاة الجيش المصري .. بل وبدات تقوم بهجمات مضادة في مواقع متفرقة من الميدان ..

ليس صحيحا ما زعمه الاسرائيليون ان سبب هزائمهم المتوالية لاحد عشر يوما من القتال انهم كانوا على غير استعداد.. او اخذوا على غرة..

انهم اخذوا على غرة حقا في العبور.. اما بعد ذلك فكانت احتياطياتهم الخلفية سليمة وعجزت فقط في الساعات الاولى بعد ضربات الطيران والمدفعية . بعد ذلك كانت الاحتياطيات المركزية تتوالى عليهم من اسرائيل ذاتها بعد ان جند الاحتياطي العام في ثلاثة ايام فقط .

★★★

عندما راى قائد القوة المصرية ان القوات الاسرائيلية قد اصبحت في وضع ملائم .. امر في الحال « بتطوير » القتال . فصدرت اوامر بالاستيلاء على الموقع ..

قال القائد لجنوده قبل ان يركبوا الدبابات لملاقاة العدو :

عندما تقتربون من العدو .. رددوا قول الله تعالى « بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر .. »

وصاح ضابط القوة : انا ها اطلع قدام الدبابات علشان احميها !.

ووراء الضابط تقدمت عناصر المشاة المترجلة تحمل قذائف الار.ب.ج. والصواريخ المضادة للدبابات وهي تهتف : الله اكبر .. بينما كانت المدفعية المصرية تصب وابلا من النيران المكثفة على مواقع العدو ..

جندي المشاة يهتف وهو يصيب دبابات العدو

«وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » .. الله اكبر

في الساعة الخامسة صباحا كان قد تم استيلاء قواتنا على الموقع باسره .. بينما تناثرت في المنطقة خمس عشرة دبابة اسرائيلية محطمة .. وخمسون قتيلا وجريحا .

بعد احتلال الموقع جرى ما يسمى بتطهيره .. ثم اجراءات التمسك والاستعداد للدفاع عن المنطقة ..

ولم تمض ساعة واحدة .. حتى بدا العدو هجومه المضاد الاول .. استخدم الصواريخ ارض ــ ارض .. ومدافع عيار ١٢٥ مم والهاوتزر عيار ١٥٥ . ردت عليه قواتنا بالمدفعية فاسكتته بعد اربعين دقيقة ..

وكسب المصريون اول نقطة ..

ولكن لم تمض ساعة واحدة حتى بدأ يهجم مرة اخرى مستخدما الطائرات هذه المرة تحمي تحتها كتيبة من المشاة الميكانيكية وراء ساتر من الدبابات .. لا يقل عن ٢٥ دبابة .

★★★

في تناسق كامل .. اشعلت وسائل دفاعنا الجوي السماء حريقا في وجه طائراته .

التفت الدبابات حوله بطريقة تكتيكية بارعة ..

فرت الطائرات بعد ان القت حمولتها من القنابل حيثما اتفق ..

ودمرت اربع دبابات .. وانسحب العدو ..

وكسب المصريون ثاني نقطة

★★★

الهجوم الثالث بعد خمس وعشرين دقيقة ..

عمد العدو هذه المرة الى تجربة التسلل من الخيران (وهي مجموعة وديان صغيرة بين تلال سيناء المرتفعة) ، وجمع خمسا وخمسين مركبة ما بين دبابة وسيارة مجنزرة اي نحو نصف لواء ..

وهنا حدثت اول معركة تصادمية بالمدرعات بيننا وبينه .. والمعركة التصادمية لا تعني تناطح دبابة بدبابة وانما تصادم ومواجهة عن بعد يشمل مدى الانطلاق لمدفعية الدبابة .

هنا حدثت بطولات عديدة .. تكررت دائما في ميدان القتال ..

الرقيب مسعد اصاب دبابته صاروخ امريكي من ماركة « اس. اس » ورغم اشتعال النار داخل دبابته الا انه استمر في التصويب واحكامه حتى قذف الدبابة التي كان يتأهب لضربها .. واصابها .. وقفز من الدبابة بعد ذلك والنار مشتعلة في ثيابه .. وتمرغ على الارض ببساطة .. ونهض ليركب دبابة قائد الكتيبة ويبلغه انه دمر الدبابة الاسرائيلية رقم اثنين في العشر دقائق الماضية منذ بدء المعركة ..

والجندي المشاة عبد العليم يحكي في حماسة ونحن نتفقد آثار المعركة بعد فشل مائة هجوم واحدا وراء الاخر ..

ـ اقتربنا من دبابات العدو على بعد ٨٠٠ متر .. رغم الرشاشات التي كانت تصب علينا نيرانها ..

صوبت الصاروخ واطلقته .. واحدا في الجنزير .. زميلي على بعد خمسين مترا اطلق صاروخا اخر .. اطار برج الدبابة ..

صرخنا من الفرح : الله اكبر ..

افراد طاقمي الدبابتين الاسرائيليتين خرجوا .. رافعي الايدي ثم نزلوا .. يجرون في اتجاه الخطوط الاسرائيلية .. ولكنا اصطدناهم من الخلف ببنادقنا .

* * *

هزم الاسرائيليون وكسب المصريون النقطة الرابعة ..

ولكن العدو عاد يهاجم مرة خامسة .. واستخدم هذة المرة اسلوب « الابرار » اي الانزال بالهليكوبتر .. مساندا قوات مشاة ميكانيكية .. فانزل سيارات مجنزرة ايضا بطاقمها ..

واستمر الضرب المتبادل ..

يحكي لي ملازم شاب اشترك في المعركة .. كان علينا ان ناخذ «وثبة» الى مواقع العدو مباشرة لنصطدم به وجها لوجه ..

كنا نركب عربة مدرعة .. وظهر هدف عبارة عن اربع مجنزرات وصدرت الاوامر من قائد الفصيلة «بالتعامل» مع المجنزرات على مسافة ٢٠٠ متر فقط .. وبالصواريخ .

ركز احد الجنود صاروخه .. دوي يصم الاذان .. بعد لحظات كانت النيران مشتعلة في مجنزرتين والاخريتان تحاولان الفرار .. وجنود مشتعلون يقفزون من المجنزرات ..

عندما اسرعت المدرعتان بالجري .. امر الضابط باطلاق النار .. ثم دوي مروع .. وتشتعل مجنزرة ثالثة ..

في لحظات كنا قد أسرنا ستة من جنود العدو .. كانوا في حالة ذعر لا توصف ..

ثم جاءت الطائرات من جديد .. سكاي هوك وفانتوم ..

ـ ولكننا لاحظنا هذه المرة ان العدو يستخدم عددا اقل من يومي القتال السابقين .. يبدو لي أن الخسائر الفادحة التي اصيب بها جعلته عاجزا عن الخروج بطلعات ٥٠ و ٨٠ طائرة في بعض المواقع كما كان يفعل في الثماني والاربعين ساعة السابقة ..

والحقيقة انه في بعض مواقع القتال في سيناء كانت السماء تظل يوما ويومين لا تخدش صفاءها اية طائرة اسرائيلية .. وكانت بعض المعابر تبدو حينذاك كما لو كانت كباري عادية .. والجنود يمرون عليها كما لو كانوا يتفسحون فوق كوبري قصر النيل .. هكذا كان الانطباع لدى الذين شاهدوا بعض الافلام الاولى التي قدمها التليفزيون عن العبور .

هذه الافلام صورت في اليوم التالي .. لانه للاسف الشديد لم تصور اية افلام عن اللحظات التاريخية للست ساعات المجيدة من الثانية والثلث بعد ظهر ٦ اكتوبر حتى بعد الثامنة .. وهذا خطأ جسيم من الاعلام المصري .

المهم هزم الاسرائيليون وكسب المصريون النقطة الخامسة :

★★★

وخلال يومي ١١ و ١٢ اكتوبر ظل العدو يلقي بقوات في هجوم تلو هجوم ولكنه في كل مرة كان يفشل تماما ..

والتقطت اجهزة الاستماع المصرية حديث طيار لاحدى طائرات الهليكوبتر التي كان يترلها العدو تلك المرات لالتقاط جرحاه يبكي في الميكروفون وهو يبلغ قيادته :

منظر فظيع امامي .. الجثث كثيرة ومشوهة .. والجرحى احتاج لطائرات اكثر .. والمدفعية المصرية ضدنا كالجحيم !.

كان الجنود المشاة الذين كانوا يمثلون كتائب مضادة للدبابات ينطلقون للهجوم مباشرة على الدبابات والسيارات المجنزرة دون خوف .

المقاتل ربيع مثلا قفز من ملجئه بصاروخه المضاد للدبابات وراء دبابة عبرت الخندق واصابها .. ولكنه اصابها بطريقة غريبة ..

ان الدبابة كانت قريبة منه الى درجة لم يكن بوسعه ان يصوب ضدها . صاروخه .. فاستلقى على الارض ومرت الدبابة من فوقه .. وعندما عبرته وقفز وامسك بمؤخرتها وصعد فوقها .. ادركه زميله ابو زيد والتقط المدفع الصاروخي.. الذي اضطر ربيع لتركه ليمسك بالدبابة ..

ادركه زميله ابو زيد والتقط المدفع الصاروخي .. الذي اضطر ربيع لتركه ليمسك بالدبابة ..

ضرب ابو زيد بالصاروخ اقرب دبابة للدبابة التي تسلقها ربيع حتى يحول بينها وبين ان تضرب زميله ..

بينما عالج ربيع برج الدبابة .. وفتحه عنوة ثم القى فيه بقنبلة يدوية وقفز الى الارض يتدحرج ..

سمع صوت انفجار في الدبابة الاسرائيلية .. ولكنها ظلت تجري ..
اذا كانت الدبابة تجري على غير هدى فان طاقمها قد مات .. ولا يهم في هذه الحالة .. وغالبا ما ستنفجر الذخيرة فيها بعد قليل بتأثير النار المشتعلة بفعل القنبلة اليدوية ..

ولكن الدبابة تسير دون تخبط .. ربما مات بعض الطاقم .. والبعض الاخر لم يمت .. واحد مثلا ..

فكر ربيع بسرعة .. جرى الى ابو زيد .. أمسك بالمدفع الصاروخي مرة اخرى واطلقه تجاه الدبابة .. فانفجرت .. وبدأ فولاذها يذوب ..

ويبدو أن ربيع وابو زيد شكلا ثنائيا في موقعة المائة نقطة او النقطة مائة . فقد إشترك الاثنان في ضرب سيارة مجنزرة اسرائيلية كانت تقل اثني عشر جنديا اسرائيليا ..

أبو زيد ضربها بالصاروخ .. وربيع اجهز برشاش على الجنود الذين لم يقتلهم الانفجار وحاولوا الفرار ..

لا عجب ان ايان سميث نائب مدير المعهد الملكي للشئون الدولية في لندن قال « ان الصواريخ الروسية قد اعطت جندي المشاة ما لم يكن يملكه من قبل وهو امكانية هائلة للقضاء على اي دبابة مهاجمة بطلقة واحدة قبل ان تستخدم اي شيء من تسلحها الضخم » .

★★★

فشلت كل الهجمات وكسب المصريون مائة نقطة .. او بالاحرى ٩٩ نقطة .. ثم هزموا العدو بالضربة القاضية .. وكانت الضربة القاضية في الهجوم الاخير عندما فقد العدو اربعة وثلاثين جنديا واثني عشر مجنزرة وسبعة عشر دبابة .. واسقطت ثلاث طائرات هليكوبتر .. علاوة على ما تكفلت به وسائل الدفاع الجوي من طائرات فانتوم وسكاي هوك ..

★★★

وعندما وقفنا فوق الهضبة العالية ومعنا قائد المعركة الضابط محرم .. وعلى مرمى البصر منا مواقع المراقبة الاسرائيلية ، كان كل شيء هادئا كانما لم تدر مائة معركة على هذه الارض لمدة ٧٥ ساعة متواصلة ..
ومن المؤكد انها بقاع قليلة على الارض تلك التي جرت فوقها مائة معركة في مثل ذلك الوقت القصير ..

لكن عشرات الدبابات والمدرعــات والسيارات المجنــزرة الاسرائيليــة المحترقة التي تناثــرت في طــول وعرض المنطقة .. وخــوذات الجنـــود الاسرائيليين الملقاة هنا وهناك يمكن ان تحكي القصة ..

قصة الروح القتالية التي استطاع بها المصريــون ان يحطموا مائــة هجوم مضاد اسرائيلي ..

صحيح ان الجيش المصري قد خسر هو الاخــر دبابــات وسيارات وجنودا لكن المقارنة بين الخســائر هنا وهناك وكانت امام عيوننا .. تكشف عن تفوق الجندي المصري على عدوه الاسرائيلي ..

وكانت معركة المائة نقطة .. او النقطة مائة .. واحــدة من ابــرز العوامل لتحطيم اسطورة التفوق الاسرائيلي الشهيره ..

وعندما نسيت نفسي .. وبدأت اتحرك بهدوء .. وبحرية .. جذبني الضابط من يدي .. وقال ..

تعال ــ المعركة لم تنته .. وربما حاول الاسرائيليون القيام بالهجوم رقم مائة وواحد ! ...

١٤

رجل ضد طائرة ..

« كفوا عن هذا الانفصال مــن تلك الصواريــخ .. هناك حقا عــدة مشاكل .. ولكننا سنتغلب عليها .. سنصفيها بسرعة »

هكذا كان يجيب موشى ديان على اية اسئلة قلقة حول شبكة الصواريخ المصرية المضادة للطائرات ..

وهي اجابة كانت تواكب اجاباته المغرورة قبل ٦ اكتوبر عندما كــان يسال ايضا عما اذا كان هناك تهديد مــن جانب العــرب بالحرب فيقــول ساخــرا :

لا اتوقع حربا في السنوات العشر القادمة ، ولكن اذا نشبت قبــل ذلك ساعود واشرح لكم لماذا نشبت ! ..

ويبتسم الحاضرون لخفة دم الوزير ودعاباته ! حتى عندمــا بدات سوريا تقوي شبكة الصواريخ عندها في يناير ١٩٧٣ باجهزة اكثر حداثة في جبهة الجولان .. وهي شبكة قائمة على صواريخ سام ٢ و ٣ و ٦ لم يثر ذلك قلقا لدى المسئولين الاسرائيليين من ناحية احتمال قيام العرب بحرب قريبة .. بل كان هناك تهوين من فعاليتها .

ومع ذلك كنت تجد مسئولين اسرائيليين يعبرون عن مخاوفهم مــن تلك الصواريخ .. فذات مرة قالت جولدا ماير للتليفزيون الدانمركــي : **ان المصريين قد زرعوا كل الارض صواريخ غرب القناة .. والله وحده يعلم اين يجد المصريون مكانا اخر لزراعة القمح والفاكهة في المنطقة !. »**

ولقد كانت اول مرة جرب فيها الجيش المصري فعالية الصواريخ .. في مناورة كبيرة للعبور جرت عام ١٩٧١ (عام الحسم) اذ قامت فرقة مدرعة بعبور تساندها قوات جوية وتحميها شبكة الصواريخ . وكانت هذه المناورة فرصة لتطوير وتحسين سلاح الصواريخ من النتائج التي كشفت عنها المناورة خصوصا ان تركيب الشبكة لم يكن قد بدا الا حديثا ..

والصواريخ هي العمود الفقري لقوات الدفاع الجوية .. التي تشمل المدفعية المضادة للطائرات ووسائل الاستطلاع اللاسلكي والراداري .. علاوة على الصواريخ . والمفروض ان تشتمل قوات الدفاع الجوي على إسراب من المقاتلات ايضا لتتصدى للطائرات المغيرة ..

ولكن في مصر تقوم بذلك القوات الجوية التي تنسق مع قوات الدفاع الجوي اعمالها في حالة الحرب ..

وكان سلاح المدفعية المضادة للطائرات هو تقريبا السلاح الوحيد الذي اشترك في الحرب العالمية الثانية عندما كانت الطائرات الالمانية والايطالية (احيانا) تهاجم المدن المصرية . وسقط شهداء من رجال السلاح في ذاك الوقت .

واشترك السلاح ايضا في حرب فلسطين .

وفي حرب ١٩٥٦ اضطر كاتب متحيز لاسرائيل مثل ادجار بالانس ان يشيد برجال المدفعية المضادة للطائرات ودورهم في الحاق خسائر بطائرات العدوان الثلاثي .

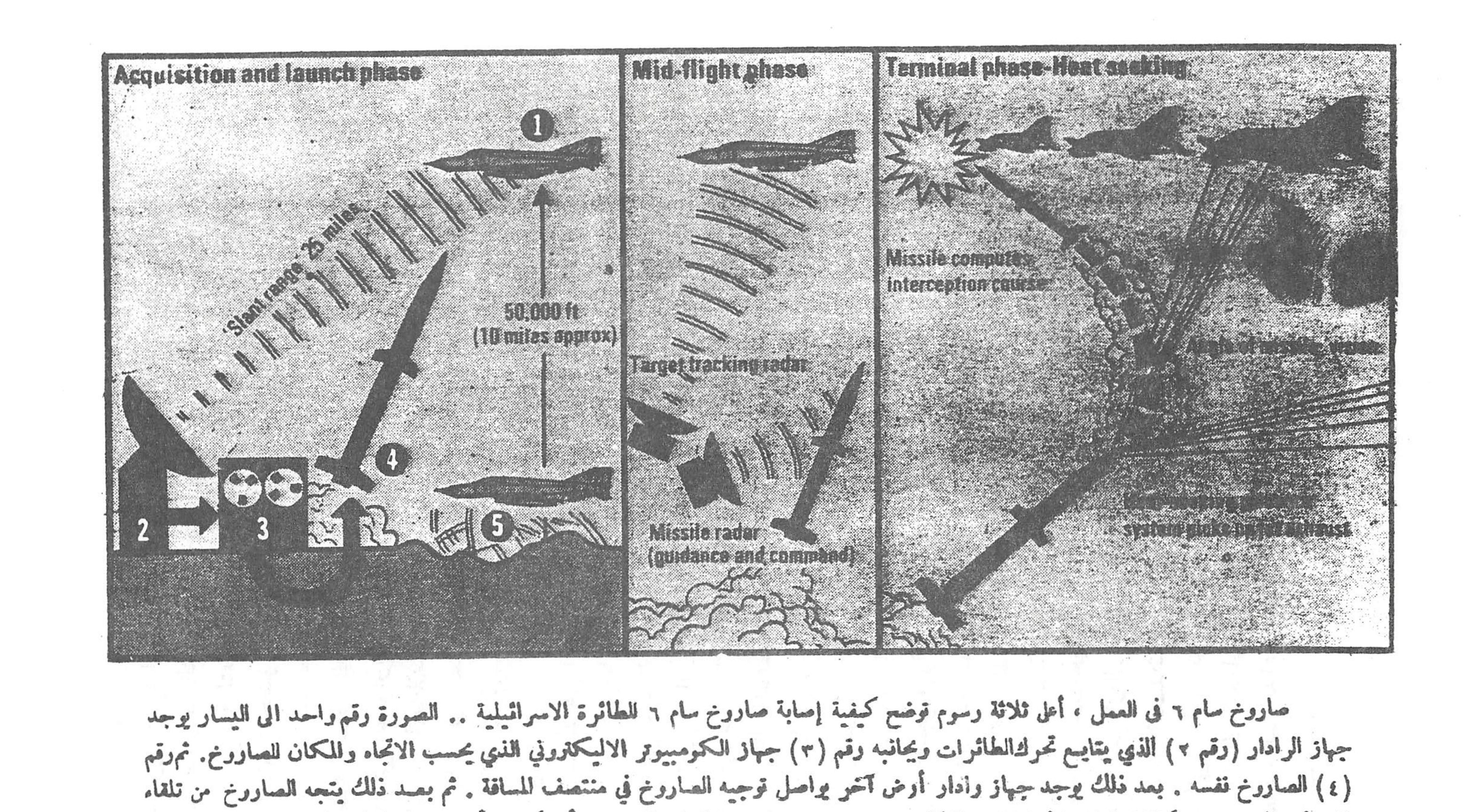
ورغم ان الصواريخ المضادة للطائرات دخلت قوات الدفاع الجوي منذ عام ١٩٦٢ الا ان ذلك كان بكميات محدودة .. ولم تكن قد توافرت التجربة والخبرة بعد ..

وكانت حرب ١٩٦٧ نقطة تحول هامة في تفكير القيادة المصرية .

ان تركيز الدول الاستعمارية على استخدام سلاح الطيران في الحرب راجع الى ان اعداد وسائل الدفاع ضد الطيران مسألة باهظة التكاليف علاوة على احتياجها لخبرات فنية مرتفعة بالاضافة الى ما تثيره غارات الطائرات من ارباك وفزع وتدمير .

وقد اعتمدت اسرائيل على سلاح الطيران لنفس السبب بالاضافة طبعا الى محاولة تعويض نقص العنصر البشري عندها .

ان الاستعمار يفضل دائما عدم الاحتكاك بريا في الحرب بجيوش الشعوب التي تدافع عن نفسها وذلك كان واضحا تماما في معارك كوريا وفيتنام ..



صاروخ سام ٦ في العمل ، أعلى ثلاثة رسوم توضح كيفية إصابة صاروخ سام ٦ للطائرة الاسرائيلية .. الصورة رقم واحد الى اليسار يوجد جهاز الرادار (رقم ٢) الذي يتابع تحرك الطائرات وبجانبه رقم (٣) جهاز الكومبيوتر الاليكتروني الذي يحسب الاتجاه والمكان للصاروخ. ثم رقم (٤) الصاروخ نفسه . بعد ذلك يوجد جهاز وادار أرض آخر يواصل توجيه الصاروخ في منتصف المسافة . ثم بعد ذلك يتجه الصاروخ من تلقاء ذاته نحو الهدف متتبعاً الاشعاعات الحرارية من الطائرة.. ويستخدم سام ٦ للطيران المنخفض أيضاً رغم أن مداه يهبط في تلك الحالة الى ١٥ ميلا.

« عن جريدة السانداي تايمس »

ولم يتعظ الاسرائيليون بان سلاح الطيران الامريكي مثلا لم يحقق اهداف الامريكيين في تدمير معنويات الشعوب رغم استخدام الطائرات ومختلف انواع القنابل بكثافة مروعة ..

★★★

لقد قرر الخبراء الغربيون والشرقيون ان مصر تحتاج الى اثني عشر عاما كي تتمكن من اقامة شبكة صواريخ فعالة . كما قال لي الفريق محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي ..

ولكن القيادة المصرية صممت على انجاز هذه العملية في وقت قصير .. واسرع العمل في اقامة الشبكة عندما بدأ الاسرائيليون في ضرب العمق المصري **وطار جمال عبد الناصر الى موسكو في شتاء ١٩٧٠ في رحلة سرية .. وعاد من هناك باتفاق يقضي بالاسراع باقامة الشبكة على ان يديرها خبراء سوفيت في الحال ريثما يتم تدريب العدد الكافي من المصريين .**

ومن يومها بدات عملية بناء اضخم حائط صواريخ في عصرنا الحديث بالنسبة للمساحة التي بني عليها .. والسرعة التي انجز انشاؤه بها ..

لقد كان ملحمة في تخطيطه وبنائه ..

كان العدو الاسرائيلي يضع القوات المصرية تحت « الميكروسكوب » كما يقولون .. فالضرب مستمر لأية محاولة لبنائه ..

وكم استشهد عشرات العمال المصريين الأبطال وهم يبنون قواعد الصواريخ .. **وايا كان من مآخذ وعيوب في القطاع العام في مصر ، فان من مفاخر القطاع الذي تملكه الدولة انه هو الذي تحمل على عاتقه اقامة وانشاء حائط الصواريخ هذا تحت وابل من قذائف طائرات العدو** فقد كان الذي بناه شركات المقاولات المصرية العامة بتضحيات مجيدة من المهندسين والعمال والفعلة ابناء الفلاحين المصريين ، احفاد الفلاحين الامجاد الذين حفروا قناة السويس باظافرهم ..

★★★

وعن وضع خطة بناء الحائط ثارت مناقشات في القيادة العسكرية .. فقد كانت هناك نظريتان :

هل نقفز ببناء الحائط الى الجبهة مباشرة .. ثم نعود الى الخلف حتى العمق .. ام يقام من العمق وثبة وراء وثبة او حزاما وراء حزام على طريقة الزحف البطيء ؟

وقد تم الاخذ بوجهة النظر الثانية ..
وتعرضت العملية لضربات العدو كما قلنا مما كان يستدعي مجهودات خارقة كبناء مواقع عديدة دفعة واحدة في ليلة واحدة . ثم تجهيزها في ليلة اخرى وهكذا ..
لقد كان الاسرائيليون يدمرون القواعد نهارا .. وفي الصباح التالي يجدون العمال قد اعادوا بناءها ..
وقد اضطرت جولدا مايير الى ان تقول عن هذا « **ان كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب .. كلما دمرنا احداها بنوا غيرها ..** » .
ويقول الفريق محمد علي فهمي كبير بناة حائط الصواريخ في شاعرية غريبة على رجل يصنع قعقعة السلاح ويعيشها :
« في تناسق كامل تم تنفيذ كل هذه الاعمال في التوقيت المحدد وبدقة مثالية كسيمفونية لا نشاز فيها .. »
والذي حدث فعلا انه في صباح يوم ٣٠ يونيه ١٩٧٠ – وهو يوم مسهود في تاريخ قوات الدفاع الجوي – فوجئت الطائرات الاسرائيلية المغيرة بالصواريخ المصرية .. وتحطمت تلك الطائرات في رائعة النهار !
وكرر الاسرائيليون الهجوم بمزيد من الطائرات ومزيد من اسلحة الاعاقة الأليكترونية مع اتباع تكتيكات المناورة والخداع .. والنتيجة دائما كانت مزيدا من الخسائر ومزيدا من الطيارين الأسرى ..
وخسرت اسرائيل ستة عشر طائرة في شهر واحد .. وتوجع ابا ايبان .. في الكنيست الاسرائيلي قائلا : « لقد بدأ الطيران الاسرائيلي يتآكل .. »
واذا كانت البلاغات المصرية قد ذكرت ان خسائر الاسرائيليين من الطائرات في الفترة ما بين ٣٠ يونيه الى ٨ اغسطس اي حوالى شهر كانت ستة عشر طائرة الا ان المستر « بيرجس » المشرف على رعاية المصالح الامريكية ايامها .. ابلغ مسئولا مصريا كبيرا انهم في الولايات المتحدة مندهشون من تقليل المصريين للخسائر الاسرائيلية اذ ان معلوماتهم ان عدد الطائرات الاسرائيلية التي سقطت اكبر من ذلك .
ولقد قدرت مجلة « افيشن وبك » في عدد ١٦ نوفمبر ١٩٧١ خسائر اسرائيل بواحد وخمسين طائرة دمر منهاسبعة عشر واصيبت اربعة وثلاثون طائرة ..
وقد تم استعواض تلك الطائرات من الولايات المتحدة طبعا ..

★★★

في ٨ اغسطس ١٩٧٠ توقف اطلاق النار بناء على مبادرة روجرز .

وقال جمال عبد الناصر يومها لزعماء المقاومة الفلسطينية وهم يسالونه عن سبب توقف حرب الاستنزاف :

ـ اني اريد استكمال حائط الصواريخ

وكان ذلك صحيحا ، ففي ظل اطلاق النار لم يقم المصريون قواعد للصواريخ بل غابة للصواريخ .. على حد تعبير الفريق محمد علي فهمي .

وقبل حرب الساعات الست .. تعرضت كل محاولة اسرائيلية لاقتحام مجالنا الجوي الى ضرب مهلك ..

سقطت طائرة ستارتر كروز للتجسس .. وهي طائرة ضخمة ثمنها خمسة ملايين دولار .. ويعمل عليها طاقم من سبعة فنيين من اكثرهم دراية ودربة .

في الجزيرة الخضراء استطاع جندي واحد مات زملاؤه من طاقم قاعدة الصواريخ كله اثنا الغزو الاسرائيلي للجزيرة .. ان يشغل البطارية ويسقط طائرتين وحده ..

وقصة الرائد شطا يعرفها كل العاملين في بطاريات الصواريخ .. انه استطاع تدمير اربع طائرات للعدو مرة واحدة واستشهد وذاب جسده مع صلب خزنة من خزانات الصواريخ اصابتها قذائف العدو ..

★★★

وعندما بدات الحرب .. كانت الكارثة على طائرات العدو ..

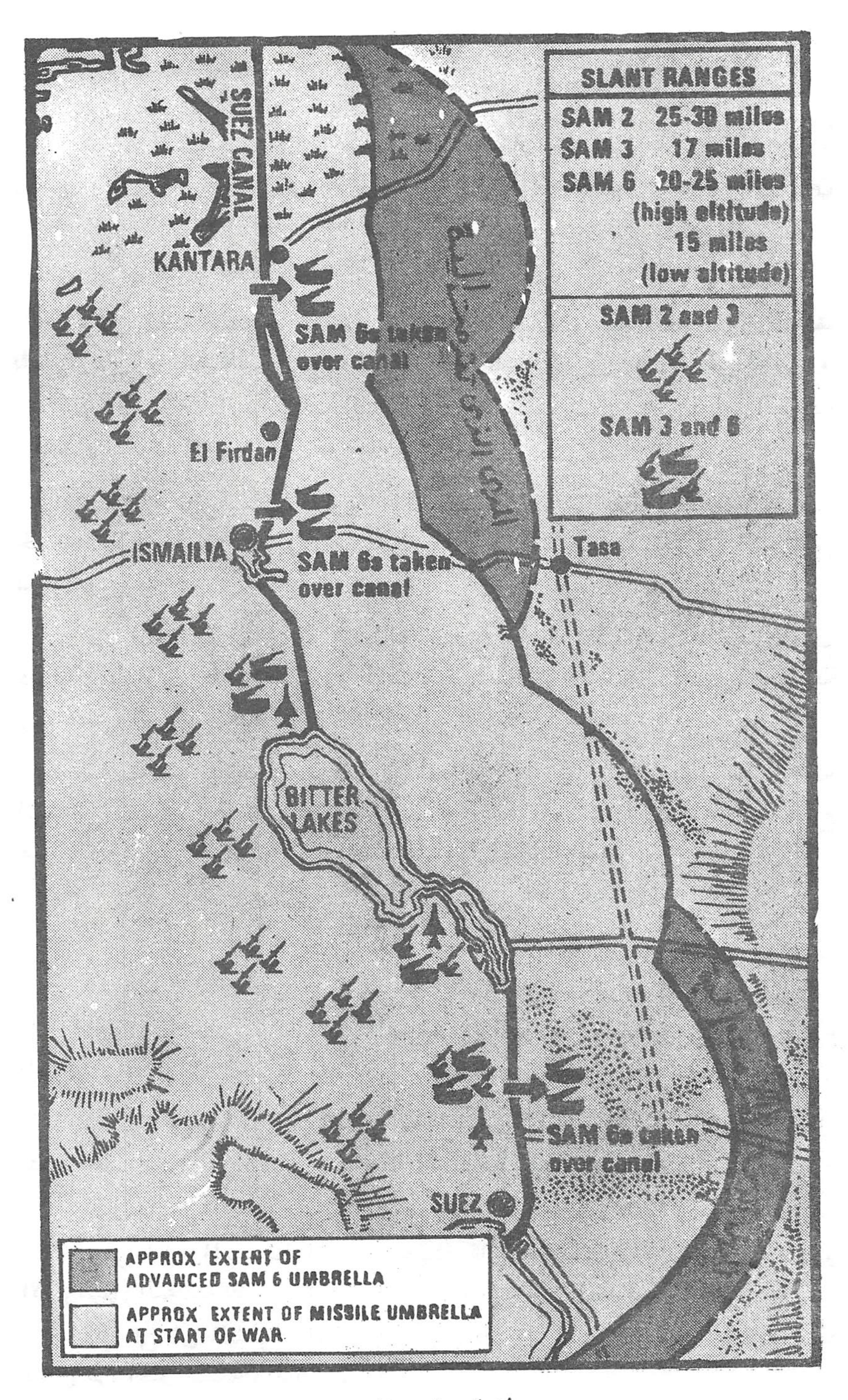
ان الذي حمى قواتنا في العبور وفي التقدم كانت وسائل الدفاع الجوي والطائرات المصرية معا .. كما بينا في الفصل الخاص بالعبور ..

وسئل طيار اسرائيلي اسير بعد ايام من بدء القتال .. عن رد الفعل لدى الطيارين الاسرائيليين بعد هذا التساقط لطائراتهم ..

فقال بالحرف الواحد : ان معنوياتهم لم تحطم ولكنها مهتزة ! ..

وفي احد المستشفيات .. حيث كان يعالج عدد من أسرى العدو الاسرائيلي التقيت بطيار .. وسألته عن قصته مع الصواريخ المصرية ..

قال لي ان الطائرة الفانتوم مزودة بأزرار تنبه الطيار بالاضاءة انه دخل في اطار شبكة رادار ..



مظلة الصواريخ المصرية

ويرى المدى الذي كانت عليه بعد العبور . ثم المدى الذي تقدمت اليه بعد تطوير الهجوم .. ويرى قواعد أنواع الصواريخ المختلفة من سام ٢ و ٣ و ٦ حسب ما نشرتـه جريدة الصانداي تايمس اللندنية .

وعندما تصوب تجاهه صواريخ .. تضـيء لمبة اخرى تنـذره ان صاروخا في الطريق ..

اضاءت اللمبتان .. استطاع ان يتفادى الصاروخ القادم ..

ولكني ما كدت اتفاداه واعتدل بطائرتي حتى وجدت اللمبة تضيء ثم على الفور قبل ان أتمكن من عمل شيء ما أصابني صاروخ جديد .. لكنه لم يصب من الطائرة مقتلا .. قررت الانخفاض لاتفادى الصواريخ .. وقررت القاء حمولتي من القنابل (سقطت جميعها وحمولات الطائرات المرافقـة للطيار في حقول مجاورة لشاوه في الدقهلية والغريب انه لم تنفجر قنبلة واحدة منها وظل سلاح المهندسين يعمل ثلاثة ايام متواصلة تحت ظـل غارات اسرائيلية متجددة لابطال مفعول عشرات القنابل ، بينما كان الفلاحون يتفرجون او يتكئون على قطع من حطام الفانتوم ؟) .

ولكن فجأة ادرك الطيار كما يقول صاروخ سام ٦ .. وانفجرت الطائرة واستطاع الهبوط بالمظلة .

* * *

معركة بور سعيد :

بعد يومين من العبور وقد بدا واضحا نجاح الجيش المصري في اقتحام مواقع العدو .. عمد الاسرائيليون الى عملية انتقامية في نفس الوقت الذي هي فيه تمثل هجوما مضادا .

فاختار مدينة بور سعيد باعتبارها هدفا منعزلا من المعروف انها لم تدخل تماما في شبكة الصواريخ اذ لم يكن بها غير اربعة بطاريات فقط من طراز سام ٢ وسام ٣ . وتعتمـد قوة الدفـاع الجوي فيها على المدفعيـة المضادة للطائرات اساسا ..

وكان العدو يعرف تماما من خبرة حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ايضا : ان المدينة يسهل عزلهـا ..

فليس لها غير طريق واحد من ناحية دمياط .. وطريق آخر من ناحية الاسماعيلية وكلا الطريقين يمكن تدميرهما او قطعهما بقنبلة كما حدث عند تدمير كوبرى « الرسوة » وكوبرى « الجميل » .

كما ان الموقع الجغرافي للمدينة « غاية في السوء » من ناحية امكانية الدفاع عنهـا ..

فالى الشرق تقع قناة السويس ، وفي الشمال البحر الأبيض حيث تستطيع اية طائرات مغيرة ان تطير فوقه على ارتفاع منخفض جدا دون ان تخشى كشفها بواسطة اجهزة الرادار حيث تلعب امواج البحر دور « المشوش » الطبيعي على تلك الأجهزة ..

وفي الغرب توجد بحيرة المنزلة التي لا يفصلها عن البحر سوى شريط ضيق من الارض .

اما في الجنوب فهناك الارض السبخة المشابهة لتلك الموجودة في الشرق عند راس العش .

وصباح يوم ٨ اكتوبر جاءت طائرات اسرائيلية عديدة توالى تزايدها حتى وصلت الى ٩٤ طائرة خلال ست ساعات استمرتها المعركة .. وبديهي ان اربعة وتسعين طائرة تستطيع لا الافلات من بطاريات اربعة للصواريخ بل تستطيع تدميرها ايضا ..

وبفضل براعة وذكاء ضباط الدفاع الجوي في بور سعيد إمكن تدمير اثني عشر طائرة اسرائيلية مغيرة مقابل تدمير بطاريات الصواريخ الاربع ..

لقد اكتشف قائد الدفاع الخدعة التي أرادت الطائرات الاسرائيلية القيام بها ..

لقد عمدت تلك الطائرات الى الانخفاض وهي قادمة من الشرق موحية انها ستنقض في الحال ..

والواقع أن الاسلوب السليم هو عكس ذلك تماما .. اذ مفروض ان على الطائرات ان تقترب وهي على ارتفاع منخفض حتى تتحاشى اكتشاف الرادار لها .. ثم ترتفع فجاة الى الفضاء لتتحقق من اهدافها قبل ان تنقض ثانية وتقذفها بقنابلها او صواريخها بعد تصويب دقيق .

وبعد قليل انكشفت الخدعة اذ وجه العدو ضربته الرئيسية من جنوب بور سعيد وانقسمت طائراته الى مجموعتين : واحدة الى الشرق لضرب مواقع الصواريخ .. والثانية الى الغرب لمهاجمة مواقع اخرى .

وكانت قوات الدفاع الجوي قد استطاعت ان تبث بعض الكمائن من صواريخ سام ٧ التي يحملها الجنود .. فافزعت الطائرات التي عادت الى الارتفاع لتصبح في متناول صواريخ سام ٢ و ٣ .

وهكذا دمرت الاثني عشر طائرة .

* * *

ولم يترك الاسرائيليون المدينة في هدوء بالليل .. انما عادوا يقصفونها على اضواء القنابل المضيئة حتى يحولوا دون اقامة قواعد صواريخ

جديدة .. والقت بالقنابل الزمنية والخداع الشراكيـة وقصفت الطريقـين المؤديين الى بور سعيد فقطعتها عن العالم كما تصوروا .
لقد كان عدد السكان المدنيين في بور سعيد عندما بدات حرب اكتوبر اكثر من عشرين الفا (السكان الاصليون ٣٠٠ الف ..
وفي يومي ٩ و ١٠ اكتوبر بلغ عدد الطائرات التي اغارت على المدينـة ٢١٤ طائرة لمدة ثلاث ساعات فقتل ٢٠٠ مدني وجرح اكثر من ستمائة ..
وطاف عبد التواب هديب محافظ المدينة حينذاك مع الصحفيين من جميع انحاء العالم يريهم آثار الغارات الوحشيـة الاسرائيلية التـي تعدت الاهداف العسكرية وهدمت المساكن والمساجد والكنائس والمدارس وحتى ملاعب الكرة !..
وخلال هذين اليومين كانت قوات الدفاع الجوي تواجه تلك الغارات المروعة بنيران المدفعية المضادة والرشاشات والصواريخ سام ٧ . فترتفـع الطائرات وتستمر في قصف الاهـداف المدنيـة جنبا الى جنب القاعـدة البحريـة .
وبلغ وزن مجموع ما القته الطائرات من قنابل اكثر من ١٥٠٠ طـن يومي ٩ و ١٠ اكتوبر .
ويبدو ان الطياريـن الاسرائيليين انفسهم قد سئموا استمرار القصف ضد الاهداف .. فعند القيادة المصرية تسجيلات للاحاديث المتبادلة بـين بعض الطيارين الاسرائيليين وقيادتهم .

اعطى الطيار تمام تنفيذ المهمة ..
القيادة تدعوه لمعاودة القصف ..
الطيار يصرخ لم تعد هناك اهداف اضربها ..
يغلق الطيار الجهاز ويقول انا عائد الى القاعدة ..

***

ثم كانت المفاجأة الكبرى للاسرائيليين يوم ١١ اكتوبر عندما جاء فـي الصباح في ست عشرة طائرة كان الواضح ان الهدف ـ بعد ان لم تعـد هناك اهداف حسب صراخ طياري الامس ـ هو بث الرعب في نفوس سكان المدينـة ..
ودخلت الطائرات في خيلاء كانها في أستعراض وعلى ارتفاعات عالية عادية اذ لم يعد في حاجتها الانخفاض الى مستوى منخفض فقد « نظفت » المدينة من الصواريخ ..
وعلى حين غرة .. امتلأت السماء بالقنابـل الطائرة (صواريخ سام ٢

و ٣) تلاحق طائرات العدو .. وتهاوت في دقائق لا تزيد عن عشرة اثنتي عشرة طائرة من الست عشر .. وهذا رقم قياسي ..

واستمرت المعركة سجالا بين قوات الدفاع الجوي والطائرات الاسرائيلية او بالاحرى بين اربع بطاريات (اعيد تجميعها) .. وطائرات الفانتوم بكثافة وغزارة رهيبة...

وعندما كانت الطائرات الاسرائيلية تستخدم صواريخ امريكية تتجه الى مصدر الحرارة لتدمير قواعد الصواريخ ، **عمد رجال الدفاع الجوي الى الخداع والابتكار الذي عمدت اليه الشعوب المقاتلة ايام حرب تحرير الصين وفيتنام ..**

اذ كان الرجال يملئون براميل وصفائح فارغة بالكهن المبتلة بالجاز والمازوت ويشعلون فيها النار فتجتذب باشعاعاتها الحرارية الصواريخ الامريكية بعيدا عن بطاريات الصواريخ !

وعندما بدا الاسرائيليون في استخدام الصواريخ الموجهة تليفزيونيا اطلق الرجال ستائر من الدخان حول مواقعهم مما تعذر على الطائرات ان ترى المواقع .. كما ضلت الصواريخ ذاتها طريقها .

بل عندما كانت اجهزة البطاريات الاليكترونية تفسد .. بحيث يتعذر على بطارية الصواريخ ان تعمل بكفاءة كان المهندسون المصريون يعمدون الى التمويه حتى لا يشعر العدو بما حدث .. فكانوا بوسائلهم الخاصة يستطيعون الاحتفاظ بمصادر الاشعاع الكهرومغناطيسي واشياء اخرى اليكترونية معقدة لا تهم القارىء .. بحيث ان الصواريخ ظلت تنطلق وان كانت غير موجهة دون ان يفهم العدو الحقيقة ريثما يتم اصلاح البطاريات .. وقد نفعت هذه الحيلة اذ كان بعض الطيارين يلقون بحمولاتهم من القنابل في البحر خشية الاقتراب من قواعد الصواريخ .

ولكن لا بد من الاعتراف هنا انه في الايام الاخيرة قبل وقف القتال.. بعد الثغرة .. كانت سماء بور سعيد شبه مفتوحة للعدو اذ لم يكن يدافع عنها ضد غاراته الوحشية غير المدفعية المضادة للطائرات لان كل الصواريخ ركزت في منطقة الثغرة .

وكان عبثا ان تنقل بعضها الى بور سعيد في ذلك الموقع الذي كانت اسرائيل تهاجمه يوميا بمتوسط ٦٤ طائرة .. (بلغ عدد الطائرات التي هاجمتها خلال الحرب ٩٥٠ طائرة تقريبا) .

كان هجوما جنونيا ضد لا اهداف .. هجوم بربري .. ضد المدنيين لا اكثر ولا اقل .. ومع ذلك لم يجد لا في تحطيم الروح المعنوية لاهل

بور سعيد .. ولم يؤثر شيئا في سير المعركة .. وانما دفع الاسرائيليـون ثمنا فادحـا .

***

ليس سرا اذن ان الاسرائيليين ركزوا في غارات كثيفة وعديدة محاولين تحطيم شبكة الصواريخ المصرية .. وتحطيم الطائرات المصرية في مطاراتها ولكن هذه المحاولة فشلت .. ولم تحقق نجاحا الا عند الاختراق الاسرائيلي في غرب القناة .. ولفترة محدودة وفي منطقة محدودة .. كما سنـرى بعد ذلـك .

فقواعد الصواريخ لم تحطم ..

والطائرات المصرية ما من طائرة واحدة تحطمت على الارض .. ان ما تحطم منها تحطم في معارك جوية باسلة مع طائرات العدو او عند الاغارة على مواقعه .. وتلك قصة سنراها في فصل تال .

***

ولقد كانت الخسائر الفادحة التي لحقت بسلاح الطيران الاسرائيلي من جراء الصواريخ المصرية مفاجأة لا للعدو وحده بل للعالم كله .

ولقد كان ما اذهلهم ليس فاعليـة هذه الصواريـخ في حد ذاتها .. فالمعلومات عن تلك الصواريخ وتركيبهـا في الاغلـب الاعم معروفـة لدى الدوائر الغربية على الاقل من خبرة حرب فيتنام حيث سبق استخـدام الكثير من انواع تلك الصواريخ ضد الغارات الامريكية الوحشية الكثيفة .

لكن مصدر الذهول **كان هو الدقة والاحكـام اللذيـن بديا في توجيـه المصريين لهذه الصواريخ واصابة طائرات العدو بها .. علاوة على السرعـة التي اقيم بها نظام الدفاع الجوي كله .**

. ان الحرب ضد غارات الطائرات حرب اليكترونية معقدة من الدرجة الاولى ويجرى العمل فيها بواسطة اجهزة متقدمة

ومن هنا ظهرت معجزة حرب اكتوبر .. **وهي الرجل ضد الطائرة ..** الرجل بصاروخه .. الرجل بصاروخه ضد الفانتوم والسكاي هوك .

يتربص لها في حفرته حتى اذا ما اقتربت منه الى مدى عشرات من الامتار فقط .. استطاع ان يصيب منها مقتلا .

ان شعار هؤلاء الرجال الصاروخ الواحد بطائرة .. واذا افلت منـه الامر مرة فهو لا ييأس بل يزداد حماسة ويعمل على تحقيقه في المرة التالية حتمـا .

ان طائرات العدو تستخدم احدث الاساليب التكنولوجية والاجهزة الاليكترونية لاكتشاف مواقع الصواريخ ذاتها .. ومخابىء الرجال المتربصين للطائرات . فهؤلاء الرجال لا يتعاملون مع طائرات ساذجة .. او طيارين سذج .

وهنا يحدث في الحقيقة سباق بين المقاتل البشري المصري والاسرائيلي .

فلو اكتشف الطيار الاسرائيلي باجهزته المعقدة مكان الرجل الصاروخي .. ففي استطاعته ليس الافلات من صاروخه فقط .. بل بتمكن من ضربه .. لذلك عندما تنقل الاجهزة الاليكترونية المصرية الدقيقة للرجال المعلومات عن الطائرات القادمة .. عليهم ان يتفهموا المعلومات بسرعة .. ويتخذوا القرار في اقل من ثانية .

ولا بد من الضرب في لحظة محددة .. وفي زمن محدد .. والا افلت الصيد .

ولقد اكدت نتائج حرب ٦ اكتوبر ان الصيد لم يستطع الافلات الا في مرات نادرة ، وان الطائرات الاسرائيلية كانت تتهاوى بكثرة مذهلة .. جعلت مراقبا من مراقبي الامم المتحدة يقول ذات مرة للصحفيين « ان كل تقاريرنا من السويس توضح انه من كل خمس طائرات اسرائيلية تصاب ثلاث منها بالصواريخ المصرية .. وتضطر الطائرات الناقية الى القاء حمولتها عشوائيا .

وكتب مراسل التايم الامريكية أثناء الحرب يقول « ان سلاح الطيران الاسرائيلي الذي كان فعالا عام ٦٧ قد شلت فاعليته تقريبا بحائط الصواريخ المصري » .

ان الدفاع الجوي يمكن تشبيهه بجسم الانسان .. له حواس للرؤية مثل الرادار والاجهزة الاليكترونية .. وما يسمى بالرادار البشري او الحزام الاسود .. وهو مجموعة من « الناضورجية » يترصدون بالعين لطائرات العدو .

وهؤلاء الرجال .. كانت لهم فاعلية حتى ان العدو كان يحاول الاغارة على مواقعهم خصيصا .

ويعتمد الدفاع الجوي كما اوضحنا من قبل ضد طائرات العدو على ثلاث وسائل :

★ الطائرات المقاتلة .

★ والصواريخ بانواعها المختلفة التي تصيب الطائرات المرتفعة والمنخفضة ايضا .

★ ثم المدفعية المضادة للطائرات .
وعندما تكون الطائرات المقاتلة مشتبكة مع الطائرات المغيرة فانه من الطبيعي ان تتوقف الصواريخ والمدفعية المضادة عن العمل تفاديا لاي اصابة تصيب طائراتنا الدافعة .
من بين ما يدرس عالميا حاليا مثلا .. قدرة وسائل الدفاع الجوي المصري على ابطال مفعول ما ابتكره الامريكيون لمقاومة فعالية سلاح الصواريخ .. بصواريخهم المضادة جو - ارض شرايك المشهورة .
لقد ثبت بفضل براعة رجال الدفاع الجوي عندنا نقص فعالية تلك الصواريخ .. بل ثبت ايضا امكان اضعاف اثر القنابل التليفزيونية الامريكية التي استخدمها الاسرائيليون ..
ان المسالة كما قلنا هي مواجهة بين العقول .. وتنعكس تلك المواجهة في استنباط ابدع الوسائل والاساليب الفنية مهما كانت بسيطة .
ومدار ذلك الصراع الجبار بين الادمغة .. روح الانسان ودوافعه للقتال .
ومن خصائص الحرب الالكترونية ان اي رد على وسيلة يوجد لها ردا .. والرد الجديد يوجد ردا وهكذا ! .
ولذلك كان الفريق محمد علي فهمي محقا مائة في المائة عندما قال ان السر العميق وراء نجاح الدفاع الجوي هو مقاتل الدفاع الجوي هو الانسان المصري .
المقاتل .. الصلب .. الواعي .. الهادىء الاعصاب .. الذي لا ترهبه زمجرة الطائرات وارتفاعاتها المنخفضة (احيانا ۳۰ مترا وهي تصب وابلا من النيران ..
ان ذلك المقاتل يتحول الى شيطان ارضي .. يواجه شيطانا جويا .. محصنا في مركبة كبيرة تحمل الموت .. واحيانا هذه المركبة مدرعة .. فبعض طائرات الهليكوبتر الاسرائيلية كانت اشبه بدبابة ذات دروع تطير في الهواء .
المقاتل محمود مثلا .. كان موقعه فوق احد المعابر على القناة ..
جاءته طائرتان تهاجمان المعبر .. وكان عليه ان يسقط واحدة منهما .. وعلى زميل اخر له ان يسقط الاخرى .. حسبما اصدر لهما القائد من تعليمات ..
ودمدمت الطلقات في اتجاه الطائرتين .. فالقت واحدة منهما قنابلها بعيدا عن الهدف واستطاع محمود اسقاطها ايضا بصاروخه .

ولكن الطائرة الثانية التي كانت من نصيب زميله .. استطاعت ان تلقي قنبلة بجانب البحر .. اصابت شظاياها زميله فاستشهد واصيب محمود نفسه . وانهال عليه ركام من الاتربة .. حتى دفن ثلاثه ارباعه .

ولكن محمود تحامل على نفسه والدماء تنزف منه وتختلط بالتراب.. وصوب صاروخه في « المرمى المؤثر » .

وانطلق الصاروخ واصابها .

ولم يغمض محمود عينه الا بعد ان رأى الفانتوم تتهاوى عن بعد .

وعندما افاق في المستشفى كان اول سؤال ساله .. الطيارين ماتوا .. والا اسروا .؟

والمقاتل احمد .. كان عليه هو وجماعته ان يرابطوا الى جانب احد المعابر ايضا يوم ٦ اكتوبر لحمايته من الضرب .

ولم يكن هناك خندق او حتى ساتر رملي يختفي خلفه هو ورجاله .. بل كانوا مكشوفين « عراة » .. اي « في الخطر » .

وكان جزء من جماعة احمدقدواصل تقدمه مع القوات العابرة ليستمر في حمايتها في اثناء هجومها .. وجزء اخر يربض في المؤخرة لحماية القوات التي تنزل للعبور .

باختصار كان رجال احمد .. رجال الدفاع الجوي في كل مكان .. وجاءت اربع طائرات فانتوم .. لتهاجم المعر .. واستطاع احمد بتكتيك جديد ما زال سرا حتى الان . ان يسقط هو وجماعته الطائرات الاربع جميعها قبل ان تتمكن واحدة منها من القاء قنبلة واحدة ..

والتكتيك الجديد يعتمد،كما فهمت،على خداع العدو عن اتجاه الضربة .. ولم استطع ان افهم اكثر من ذلك ؟!

ان العدو نفسه يعتمد على الخداع وهذا طبيعي فالحرب خدعة !

فقد تاتي طائرة من طائرات احد تشكيلاته من اتجاه الشرق مثلا لتغطي زحف باقي التشكيل من الغرب .

وقد يأتي على ارتفاع عال جدا .. ثم يغطس فجاة .. اي ينقض .

وقد تأتي طائرة .. لا تلقي بقنابل .. وتمر .. وتاتي خلفها طائرة اخرى هي المفروض ان تلقي بالقنابل .

وقد تحاول طائرات للعدو ان تستغل عين الشمس والسواتر والارتفاعات الجبلية ..

ولكل هذه الوسائل وسائل مضادة .. وعلى رجل الدفاع الجوي ان يتوقع استخدام العدو لهذه الاساليب الخداعية جميعها قبل ان يبدا الهجوم ! ويكون مستعدا لاستخدام ما في جعبته في الحال ..

وقوات الدفاع الجوي .. شريان الحياة بالنسبة لها هي شبكة الاتصالات بين القيادة والدفاع جميعا .. خصوصا شبكة الانذار ..
وكل رجل في الدفاع الجوي يعي هذه الحقيقة .
بل ويستشهد في سبيلها .
وقصة الشهيد حجازي معروفة لكل الرجال .
كان حجازي واحدا من الرجال الذين يواجهون بصواريخهم طائرات العدو ..
وحدث ان اصيب خط الاتصال بين موقعه ومصدر الانذار بقذيفة مباشرة من مدفعية العدو .
وعلى الفور تحرك حجازي .. لاصلاح الخط تحت وابل من قذائف العدو المنهمرة ..
واستطاع اصلاحه فعلا .. ولكنه استشهد بعد لحظة من اصلاحه ..
ولولا ما فعله الشهيد حجازي .. لامكن لطيران العدو ان يغير على المواقع .. دون ان يصيبه صاروخ واحد ..
والمقاتل عبد السيد .. كان واحدا من رجال الدفاع الجوي الذين عبروا في اول موجة ..
وخلال عمله .. سقطت قنبلة من قنابل العدو .. فاصابته شظية في عينه اليسرى ..
نقل الى المستشفى وربطوا له عينه بعد عملية قصيرة .. وقال له الطبيب انه يلزمه ان يبقى في المستشفى خمسة ايام على الاقل .. ولكنه رفض .. قائلا : تكون الحرب خلصت !
وعاد الى موقعه في الجبهة في نفس اليوم وعيناه مربوطتان ..
واستمر في قيادة جماعته . وتمكن من ان يسقط خمس طائرات ..
وبعد وقف القتال .. ذهب الى المستشفى لاتمام العلاج بعد ان كانت عينه قد ساء حالها نتيجة اصراره على عدم استكمال العلاج !
قال لي المقاتل عبد السيد .. لقد كانت اسعد لحظاتي ان ارى طائرة للعدو تتهاوى .
لقد كانت هذه البطولات والدقة والبراعة مثار دهشة العالم ..
ومن هنا فان حملة تشكيك ضخمة قد بذلت لتشويه هذه البراعة بترويج مزاعم ان وراء تلك البراعة الخبراء السوفيت .
ذكرت مجلة التايم الامريكية في ٢٩ — ١٠ ضمن مقال « العرب ضد

اسرائيل .. » « ان القوات العربية لم تحقق هذه المنجزات والنجاحات بدون الاعتماد على المساعدات الخارجية .

صحيح ان المصريين كانوا يصوبون صواريخ سام السوفيتية ضد الطائرات الاسرائيلية الا ان المهمة الاصعب والمعقدة وهي القيادة والسيطرة وادارة اعمال القتال لنظام الصواريخ انما كانت في يد الخبراء السوفيت » .

ولسنا في حاجة طبعا الى تكذيب هذا فمعروف ان الخبراء السوفيت منذ جاءوا الى مصر في عام ١٩٧٠ بناء على طلب رئيس الجمهورية قد ساعدوا على تدريب أطقم كاملة على قيادة وادارة اعمال الصواريخ علاوة على البعثات العسكرية المصرية الى موسكو وامرها معروف للدنيا كلها .. وانه عندما قررت مصر الاستغناء عن الخبراء السوفيت في يوليو ١٩٧٢ كان لدينا الاعداد الكافية من الخبراء والضباط المصريين ذوي الكفاءة العالية في الادارة والتنظيم علاوة على القيادة . هذه القيادة التي دائما كانت في ايدي مصرية في جميع الظروف حتى منذ دخلت اول صواريخ مصر عام ١٩٦٣ .

لقد اثبتت حرب اكتوبر ان لدى مصر واحدا من عدد يقل عن عدد اصابع اليد الواحدة من اعظم قادة الدفاع الجوي في العالم كله .. وهو الفريق محمد علي فهمي ..

وهذا ليس تعصبا مصريا .. وانما هو واقع موضوعي دلت عليه نتائج الحرب ضد اقوى سلاح جوي في الشرق الاوسط وهو السلاح الجوي الاسرائيلي المزود باحدث الطائرات ايضا في المنطقة .

لقد ظل الاسرائيليون يعيشون في تصور انه طالما لم يستطع المصريون احراز تفوق على سلاحهم الجوي المتفوق فانهم لن يهجموا على اسرائيل اذ لن تكون لديهم طائرات كافية لتوجيه ضربة قاصمة لسلاح الطيران الاسرائيلي والقواعد الجوية في اسرائيل .. على حد تعبير المعلق درو ملتون في جريدة هيرالد تريبيون .

لم يضع الاسرائيليون في حسبانهم قط ان نيران الدفاع الجوي الارضية يمكنها شل التفوق الاسرائيلي في الطيران .. بل ان نيران الدفاع الجوي يمكن ان تلعب دورا هجوميا في الحرب ، كما ظهر عندما كان الجيش المصري يطور هجومه .. فتقفز معه البطاريات المحملة بالصواريخ .. او كتائب « الرجل ضد الطائرة » ..

بل حتى المعلومات التي كانت لدى القيادة الاسرائيلية حول قدرة قوات الدفاع الجوي كانت مضللة لحسن الحظ ..

تقارير مزيفــة :

لنقرأ معا .. ما جاء في مجلة النيوزيك في ١٩ ابريل ١٩٧٣ !

في واشنطون والقدس قوبلت في هدوء تحركات الرئيس السادات حيث ان اسرائيل اوضحت ان قواتها الجوية لن تتردد في اكتساح المصريين ومحوهم حتى لو فكروا في حرب محدودة .

واسرائيل قادرة على تحقيق ذلك بكل يسر وسهولة ، اذ هناك تقرير حديث في ورقة بريطانية رسمية يفيد ان طاقما سوفيتيا للصواريخ من الخبراء قد عاد حديثا من زيارة استطلاعية في مصر حيث قام بالتفتيش على نظام الدفاع بالصواريخ ، **وادهشته حالة الاهمال وسوء الصيانة التي اكتشفها في ذلك النظام .**

« وقد علق السوفيت على ذلك بان الاسرائيليين يمكنهم والحالة هذه اكتساح طول وعرض البلاد العربية بدون مقاومة . كما يمكنهم اكتساح الدفاعات الجوية المصرية بنفس السرعة التي تم بها هذا العمل في عمليات يونيه ١٩٦٧ » ..

هكذا كانوا يفكرون ويتصورون ؟!.. وكانوا ايضا يبتلعون طعم التقارير السرية المزيفة التي كانت تسربها مصر لتعمية العدو وتضليله كما اشار الى ذلك الرئيس السادات اخيرا .

ولقد سألت الفريق محمد علي فهمي عن مدى القوة الحقيقية للطيران الاسرائيلي والتي كان على قواته أن تواجهها فأجاب :

اذا تصورنا ان السلاح الجوي الاسرائيلي ـ ذراع العدو الطويلة ـ يحتوي على ٥٠٠ طائرة قتال تستطيع أن تلقي في طلعة واحدة حوالى ٢٠٠٠ طن من المتفجرات ، اي انها تستطيع في خلال ثلاثة ايام قتال ان تلقي فوق الجبهة ما يعادل اول قنبلة ذرية القيت على هيروشيما (٢٥ ك / طن).

هذه القوة الجوية الكبيرة والتي كان العدو يفخر بقدراتها ويعتبرها سلاحه الرئيسي في تاديب كل من يتجاسر ويحاول ان يدافع عن ارضه السليبة والذي مكن اسرائيل من العربدة في المنطقة كما قال رئيسنا انور السادات ، هي التي كان على قوات الدفاع الجوي ان تواجهها وان تمنعها من مهاجمة اهدافنا الحيوية كما كان عليها ايضا توفير الحماية للقوات البرية والبحرية والجوية من الهجمات الجوية الاسرائيلية .

واساله مرة اخرى هل كان يتوقع رد الفعل الاسرائيلي بعد العبور بأربعين دقيقة فقط .. وكيف واجهته قوات الدفاع الجوي ؟ فأجاب :

حقيقة ان اول رد فعل جوي جاء بعد ٤٠ دقيقه من بدء هجومنا

وهو زمن صغير يدل على درجة استعداد العدو الجوي العالية الا انه هاجم بدون خطة مسبقة ودفع طائراته هنـا وهناك على طـول الجبهة لمهاجمـة القوات التي نجحت في العبور ولكن في خلال الـ ٣ ساعات الاولى للقتـال كانت قوات الدفاع الجوي قد اسقطت له أكثر من ١٥ طائرة فانتوم وسكاي هوك بخلاف ما اصيب او اسقط بعيدا عن مواقعنا وقد عم الارتباك في قيادة السلاح الجوي الاسرائيلي نتيجة فشل الاسلحة الاسرائيلية جو ـ ارض في تحقيق اهدافها .

وهكذا استطاع ابطال القوات البرية تحت مظلة الدفاع الجـوي ان يعبروا القناة وان يقيموا الجسور والمعابر وان يدخلوا في معارك ناجحـة ضد العـدو .

وفي الصباح الباكر لثاني ايام القتال ٧ اكتوبر كانت هناك ٦٨ طائرة فانتوم وسكاي هوك في طريقها لضرب المطارات المصرية الامامية . وقبل ان تصل الطائرات الى اهدافها اعترضتها مقاتلاتنا واطلقت الصواريخ ارض ـ جـو عليها وتم تدمير ١٨ طائرة ولم ينجح العدو في تحقيق مهمته رغـم محاولته الاقتراب من اهدافـه على الارتفـاع المنخفض واستعماله لوسائل الاعاقة والشوشرة .

وبالرغم من فشل هجمة العدو الجوي التي اراد بها ان يكرر خطـة اخراج القوات الجوية من المعركة والتي نفذها بنجاح عام ١٩٦٧ الا انه لم يقتنع تماما بعدم جدوى هذه المحاولات الا بعد ان استنفد كل الاساليـب والتكتيكات المستخدمة فـي محاولة مهاجمة مطاراتنـا . فمـع استمرار العدو الجوي في مهاجمة قواتنا البرية والمطارات استمـرت قوات الدفـاع الجوي في انزال الخسـائر به وكان اول تصريح لياريف يوم ١٠ اكتوبر حيث قـال : « ان شبكـة الدفاع الجوي المصري قد اسقطت عددا كبيرا مـن الطائرات الاسرائيلية وان اسرائيل ستحاول معالجة هذا الموقف » .

وكانت نتيجة الخسـائر في طيران العدو ان اهتـزت ثقة الطياريـن الاسرائيليين بانفسهم . وعندما اسأل قائد قوات الدفاع الجوي عـن رأيه في الفرق بين الصواريخ السوفيتية والصواريخ الامريكية .

فيقـول :

اننا لا نتحيز « عمياني » لسلاح ضد سلاح ، اننا لم نستخدم الاسلحة الامريكية حتى يمكن مقارنتها ، فالمقارنة ليست مقارنة نظرية ، بل لا بد ان تكون مقارنة نظرية وعملية .

لقد استخدمنا نظريا وعمليا السلاح السوفيتي فأثبت كفاءة ممتازة في الحـرب .

ويمكن القول ان الامريكيين لـم يكونوا مركزيـن في انتاج الصواريـخ وتطويرها بقدر تركيزهـم على الطيران لمـا هو معـروف من اعتماد الدول الاستعمارية على الطائرات في مواجهتها للشعوب .

اما الاتحاد السوفيتي فهو قد ركز على الوسائل الدفاعية اللازمـة لمواجهة الطيران.. وقد احدثت تلك الوسائل بفضل حسن استخدام رجالنا لها انقلابا في التقديرات العسكرية . وعلى اي حال ان تجربة حرب اكتوبر قد شحذت همة الامريكيين لتحسين وتطوير وسائل دفاعهم الجوي ..

عيني .. على الطائر في الشبكة !

خمس طائرات اسرائيليـة تمـرق فوقنا كالسهام .. على ارتفـاع منخفض .. لتتفادى صواريخنا .. وهدفها ضرب المدرعات المصرية فـي موقعها في القطاع الاوسط من سيناء ...

وكالعادة انبطحت على الارض .. فقد كنا على بعد كيلو مترين فقط تقريبا من المعركة المحتدمة .

واستدرنا بعد لحظات لنرقب المعركة في السماء .. ولم تكن المعركة بين طائرات وطائرات .. وانمـا بين الصواريـخ وقذائـف المدفعية .. والفانتوم وسكاي هوك ..

.. ونحن نرقب طائرات العدو .. اننا نكاد نتصور ان الشغل الشاغل الآن لطياريها هي كيف يفلتوا .. احيانا كنت اتصور الطائرة اشبه بذبابـة تتخبط في شباك عنكبوت .. الصعود والهبوط لا يفيد في الخروج مـن الشبكة .. وتبدو السماء الواسعة والكون اللانهائي هذا ولا شك كثقـب ابرة امام الطيار وهو يحاول الافلات وتنفيذ مهمته العدوانية ..

المهم سقطت طائرة سكاي هوك .. وكالعادة بعيدا ..

انك تتخيل الطائرة وهي تتهاوى كما لو كانت ستسقط احيانا فـوق راسك .. او على الاقل قريبا منها .. وربما احرقتنا « هبوها » . فالطائرة المنفجرة في السماء عندما تسقط تسحب معها قدرا كافيا من الهواء السـاخن جدا .. الكفيل بحرق الانسان .

وقمنا من على الارض دون خوف نصفق ونهتف لسقوط الطائرة .. ومن بعيد كان الطيار يتهاوى بمظلته نازلا كانه في نزهة عسكرية .. وامسك جندي مغيظ بمدفعه الرشاش يريد تصويبه نحو الطيار .. فمد ضابط شاب يده على طرف المدفع وقال له ..

ــ هدي نفسك .. الاحسن ناخذه سالما ..

ومضى الضابط يحاور الجندي ويقنعه ان الهدف تدمير قوة العدو ان بالقتل او بالاستسلام الذي هو افضل لانه سيوفر الذخيرة !

سرحت بخواطري .. بعيدا الى ذلك الطيار ..

لو ان الجندي قتله لما اسفت عليه .. ولما قلت له انك تنتهك قوانين جنيف ..

ما الذي يدفع ذلك الطيار الى ان يأتي الينا ويعتدي علينا .. ليس له عذر.. فطوال ست سنوات على الاقل.. يسمع ليس منا فقط بل من كثيرين جدا خارج بلاده .. من البلاد الاصلية التي قدم منها هو او ابوه ان اسرائيل معتدية على بلاد عربية وتحتل ارضا عربيا وان هناك قرارا من مجلس الامن وعشرات القرارات من الامم المتحدة المدينة اسرائيل لها بوجودها .. كلها تطالب اسرائيل بالجلاء عن الارض العربية المحتلة ؟ ..

ليس لهذا الطيار من عذر .. لان في بلاده نفسها مواطنين اسرائيليين يقولون له نفس الكلام .. ولهم جرائد مثل « الاتحاد » وهاعولام هازيه .. تقول هذا الكلام ..

لماذا لا يتمرد هذا الطيار .. كما تمرد طيارون امريكيون في حرب فيتنام ؟ ..

وايقظتني من خواطري .. لكزة من زميلي المستلقي بجواري وهو يقول ..

ــ بص .. بص ..

ولاقل من ثانية لم ادرك ماذا ارى .. وماذا سيحدث ..

طائرة فانتوم بالغة الانخفاض في طيرانها في محاولة للهرب .. وبدا لنا ان مستوى الانخفاض ادنى من ارتفاع الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقنال والطيارة تندفع .. في اتجاهه .. تندفع ..

في اجزاء من الثانية .. وقلبي يدق في عنف .. وانفاسي محتبسة .. حدث الاصطدام الحتمي بالحاجز الترابي لخط بارليف ..

وكان دوي .. وتراب .. وانفجار ككرة من نار او قطعة من الشمس سقطت ارضا ! ..

كان منظرا لا ينسى ! ..

قال لي قائد الفصيلة وهو يبتسم .. بينما عدنا نتنفس .. ونلهث من الفرح لهذه الضحية الثانية لصواريخنا ..

ــ اهو الطيار ده مات من الخوف .. من سام ٦ ! ..

طيارتان من خمسة فقط .. محصول ضئيل هذه المرة ! ...

محدثي كان ضابطا شابا على رأس حفنة من الجنود يعملون على بطارية من المدفعية المضادة للطائرات ..
وكنت جالسا الى جانبه وهو يأكل سندوتشا من البقسماط الجاف والجبن « المشكلت » .. كان يحدثني عن معارك البطارية ضد طائرات العدو .
فجأة حدث شيء غير متوقع .. جسم لامع حف حفيفا في الهواء .. وانقض على يد الضابط الممسكة بالسندوتش .. اندفع الدم كالنافورة يلوث الطعام ومؤخرة المدفع .
تملكني الجزع والذعر .. كدت اصرخ .. اشار الضابط على فمه ببساطة يدعوني الى الصمت . قائلا بصوت خافت :
يجب المحافظة على الروح المعنوية للجنود !
لاحظ احد الجنود الدماء وهي تسيل من يد الضابط وساعته مدلاة من رسغه . اجرى له الاسعافات الاولية بسرعة .
كان يبتسم في وجهي وهو يقول : سأعود اليهم بعد ايام هؤلاء الكلاب !

ثقافة .. صاروخية ..

وكي تكمل الصورة عند القارىء .. لا بأس من ان يقرا معنا .. بعض المعلومات عن الصواريخ التي استخدمت في حرب ٦ اكتوبر .. بما فيها الصواريخ التي دمرت دبابات العدو ومدرعاته ..
ان مجموعة الصواريخ التي استخدمتها القوات المصرية والسورية لسحق التفوق الجوي الاسرائيلي هي الصواريخ المضادة للطائرات من انواع سام ٢ . سام ٣ . سام ٦ . وسام ٧ وذلك في ارتباط وثيق كما قلنا بالمدفعية المضادة للطائرات التي توجهها شبكات الرادار المنتشرة .
أما بالنسبة للدبابات والمدرعات والسيارات المجنزرة فقد استخدمت هذه القوات الصواريخ « سنابر » و « ساجر » بالتعاون ايضا مع المدفعية المضادة للدبابات التي تطلق قذائف عبازة عن عبوات مفرغة مثل الار.ب.ج وقذيفة ب . ١ . وهذه المدافع عديمة الارتداد .
واستخدم الجيش السوري في معارك الجولان الصاروخ « فروج » ارض – ارض لضرب اهداف اسرائيلية في الميدان .
وهذه الصواريخ جميعها سوفيتية الصنع .
والصواريخ ٢ و ٣ معروفة وكتب عنها الكثير بل ان منتجات استهلاكية

كثيرة في مصر مثلا أطلق عليها اسم سام ٢ و سام ٣ و سام ٤ ايضا !
والمهم هنا ان نلم المامة سريعة بصاروخي سام ٦ و سام ٧ لما كان لهما من اثر فتاك بالطائرات الاسرائيلية في سماء كل من مصر وسوريا .

الصاروخ سام ٦ :

هو صاروخ موجه ارض ـ جو يركب في مجموعة ثلاثية فوق شاسيه دبابه ويطلق من فوقها . ومن هنا فهو ليس في حاجة الى قاعدة ثابتة . ويمكنه مصاحبة القوات المدرعة والميكانيكية والتنقل من مكان الى اخر بسرعة ومرونة كبيرة . وهو مخصص لاعتراض الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة مهما كانت سرعتها عالية .

ويبلغ طوله تسعة عشر قدما ويعمل بالوقود الجاف ويستطيع اصابة الطائرات وهي تطير على ارتفاع لا يزيد عن ارتفاع الشجرة وحتى ارتفاع احد عشر كيلو مترا ! .. ويبلغ مداه الافقي نحو ثلاثين كيلو مترا وهو مجهز برأس متفجر ذي نظام توجيهي بالرادار كما انه مجهز بجهاز حساس للحرارة يقوده الى محرك الطائرة النفاثة شديد السخونة . كما ان جهاز توجيه بالاشعة الرادارية يستطيع ان يقوده نحو الطائرة برغم محاولات عرقلة هذه الاشعة بالجهاز الاليكتروني المضاد المزودة به االطائرة المهاجمة وخاصة الفانتوم .

ويزيد من فاعلية عدم قابليته للتشويش المضاد ان ترددات موجاته الرادارية يمكن تغييرها بسرعة .

وتقول مجلة التايم الامريكية في عدد ٢٩ اكتوبر ١٩٧٣ « انه ليس لدى الولايات المتحدة او اسرائيل اي سلاح مشابه لسام ٦ والصاروخ الامريكي « هوك » الموجه بالرادار المستخدم بواسطة الاسرائيليين فعال ضد الطيران المنخفض ولكنه غير قابل للتشويش المضاد » .

كما قالت المجلة ايضا انه تم اسقاط اربعين طائرة اسرائيلية خلال اليومين الاولين من القتال قرب القناة معظمها اسقطها سام ٦ المذكور .

كما انه اسقط عدد كبير من طائرات الفانتوم والسكاي هوك فوق مرتفعات الجولان بينما كانت تحاول تدمير القوات السورية هناك .

سام ٧

هو صاروخ موجه ارض ـ جو يحمله جندي ويطلقه من فوق الكتف مثل البازوكا ضد الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة .

والمعلومات التقريرية المتاحة عنه تفيد الى ان طوله يبلـغ ١٢٥ سم وقطره سبع سنتيمترات فقط ويبلغ مداه الافقي ٢٥٠٠ متر كما يستطيـع ان يصيب الطائرات من ارتفاع ٥٠ متراحتى ١٥٠٠ متر .

ويتجه نحو الطائرة عن طريق جهاز تحسس للحـرارة الصادرة عـن محركها وبالاشعة تحت الحمـراء .

ويسمى هذا الصاروخ احيانا باسم « سترلا » اي السهم .

وقد سبق استخدامه بفاعلية عظيمة في فيتنام ضد طائرات الهليكوبتر الأمريكية كما استخدم ايضا في المراحل الاخيرة من حرب الاستنزاف بمصر عام ١٩٧٠ .

ويجري اطلاقه عادة في مجموعات من ٨ الي ١٢ صاروخادفعة واحدة او بصورة فردية ، وهو في حالة اطلاقه فـي مجموعات يصبح من الصعـب للغاية التخلص من ملاحقته ويصير كانه « طائر من جهنم » يلاحق الطائـرة على حد تعبير احد رجال البنتاجون لمراسل النيوزويك (٥ نوفمبر ١٩٧٣)..

وقد قدرت المصادر الامريكية ان خمسين في المائـة من الطائـرات الاسرائيلية التي اسقطت خلال الحرب الأخيرة قد تـم اسقاطها بواسطـة مختلف أنواع صواريخ سام .

أما بالنسبة لصواريخ الدبابات فهي سنابر وساجر .

صاروخ سنابـر

كان هذا الصاروخ موجودا لدى الجيش المصري خلال حرب ١٩٦٧.

ويتم توجيهه بسلك متصل بجهاز للتتبع البصري للهدف وهو مجهز براس متفجر يحمل عبوة متفجرة تجعل قوة القذيفة واحدة بالنسبة لأي مسـافة يطلق منها الصـاروخ ضمن مداه الأقصى وبدون ان يكون لزاوية اصطدامها بجسم الدبابة تأثير فيها ايضا من حيث فاعلية الخرق للدرع .

ويبلغ طول الصاروخ سنابر ١١٣ سم وقطـره اربعـة عشر سنتمترا ووزنه ٢٢ كيلوجراما تقريبا وينطلق بسرعة ٣٢٠ كيلو مترا في الساعة .

ويتراوح مداه بين ٥٠٠ و ٢٣٠٠ متر . ويستطيع اختـراق دروع تصل في سمكها الى ٦٠٠ ملليمتر .

ويمكن اطلاق ذلك الصاروخ من فوق سيارة او مصفحة خفيفة . وفي هذه الحالة تركب على المركبة الالية ثلاثة صواريخ فوق قواذف خاصة بها.

ويستخدم الصاروخ المذكور الوقود الجـاف .

وهو يعادل تقريبا الصاروخ الفرنسي (س ــ س ــ ١٠ . والصاروخ الألماني الغربي (كوبرا) اللذين كانا لدى الجيش الاسرائيلي عند نشوب حرب ٦ اكتوبر بالاضافة الى الصاروخ الفرنسي الاخر الأكثر تقدما س-س-١١ .

الصاروخ ساجـر

صاروخ موجه ضد الدبابات ايضا لم تستخدمه القوات العربية عمليا قبل حرب اكتوبر .. يتم توجيهه سلكيا ايضا . وهو اصغر حجما من صاروخ سنابر واكثر تقدما منه .

وليس هناك معلومات مؤكدة عنه ولكن الامريكيين يرجحون أن طولــه يبلغ ٧٥ سم وقطره ١٥ سم . ويحمل فوق مصفحات خفيفة في مجموعتين بكل منها ثلاثة صواريخ تحت سقف مصفح يخفيها اثناء الوضع غير القتالي، ويحميها عندما ترتفع منصة الاطلاق الى اعلى في حالة اتخاذها وضع اطلاق النار . وتقول « التايم » الامريكية ان هذا الصاروخ بالتعاون مع « سنابر » قد تسببا في تدمير ثلث عدد الدبابات الاسرائيلية التي كانت مشتركة فــي القتال والبالغ عددها الاجمالي حسب تقدير المجلة ١٩٠٠ دبابة اسرائيلية .

وهذا يعني ان تلك الصواريخ السوفيتية الصنــع والموجهة بأيــدي الجنود السوريين والمصريين قد دمرت اكثر من ستمائة دبابة اسرائيلية خلال العشرة ايام الاولى من الحرب .

المدافع المضادة للطائـرات :

الى جانب الصواريخ من نوع سام .. لعب المدفع السوفيتي الصنــع « زيس يو ــ ٢٣ » دورا هاما ..

وهو مدفع للطائرات ذاتي الحركة يتألف من اربع مواسير عيــار ٢٣ ملليمترا ومركب على برج متحرك في جميع الاتجاهات فوق شاسيه دبابــة ومجهز برادار ويصل مداها الفعال ضد الطائرات الى ارتفاع ١٢٠٠ متر .

ويبلغ معدل سرعة اطلاق كل ماسورة من مواسيره الاربع ١٠٠٠ طلقة في الدقيقــة .

اي انه يستطيعان يطلق دفعة واحدة نحو٦٤ طلقة في الثانية الواحدة. ومع تزامن نيرانه مع تلاقي موجات راداره مع الهدف .

ويتميز هذا المدفع بدقة نيرانه للغاية وكثافتها وبقدرته على الحركــة والمناورة . وتقول مجلة « افياشين ويك » الأمريكية في عددها الصادر ٢٢ اكتوبر١٩٧٣ ان فاعلية ذلك المدفع كانت كبيرة للغاية وأنه يأتي في المرتبة التالية

مباشرة لصواريخ سام ٦ و سام ٧ بالنسبة للطائرات الاسرائيلية التي تم اسقاطها في الحرب .
ويتيح ذلك المدفع للتشكيلات المدرعة والميكانيكية قدرة ذاتية عالية على الدفاع الجوى .

صاروخ فروج ٧

وهو صاروخ ارض ـ ارض كما قلنا ، وقد ذكرت المصادر الاسرائيلية ان سوريا قد استخدمته في اعداد قليلة في قصف بعض مستعمراتها .
ويبلغ طوله تسعة امتار وقطره ستين سنتمترا ومداه حوالي ٦٠ ــ ٧٠ كيلو مترا . وتحمله سيارة كبيرة لها مقطورة عليها الصاروخ ثم تتوقف ويتم رفع جهاز اطلاقه بالزاوية المطلوبة ثم يجري اطلاقه وهو يسير بالوقود الجاف .
وهو صاروخ حديث من نوعه وظهر للمرة الأولى علنا عام ١٩٦٧ في اثناء عرض عسكري عام في موسكو .
وكانت تقارير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني تشير الى وجود عدد من هذه الصواريخ لدى كل من مصر وسوريا .
ويقول الكاتب محمود عزمي المحرر العسكري لمجلة الطليعة المصرية وجريدة السفير اللبنانية ان حرب اكتوبر قد برزت « كحرب الصواريخ » التكتيكية والصغيرة وان قيادات عسكرية عالمية عديدة تعكف حاليا على دراسة معارك ٦ اكتوبر المجيدة لتستنبط منها الخبرات المستفادة على ضوء نتائج استخدام الأسلحة الصاروخية الجديدة التي استخدمت فيها بفاعلية.

وحائط الصواريخ .. في سوريا ..

في زيارتي لسوريا في شهر ديسمبر ١٩٧٣ لمتابعة تجميع مادة هذا الكتاب على الطبيعة .. التقيت بكتيبة بطارية صواريخ .. في جبهة الجولان .. حيث كانت الجبهة مشتعلة بمعركة جديدة من المعارك التى لم تكن لتتوقف كل يوم تقريبا في ذلك الوقت .
ولم تكن المجموعة التي جلست اليها تعكس لي الثقة المفرطة التي ملأت نفس الجندي العربي عموما في سيناء .. وفي الجولان ، فحسب .

بل ان شيئا جديدا قد اصبح واضحا .. وهو الثقة بالسلاح نفسه .. وبفاعليته ..

ان اتقانهم لاستخدام السلاح .. وتجربتهم العملية في تدمير اكبر قدر من قوة العدو قد بثت في انفسهم تلك الثقة .. وعمقها ايضا ..

قال لي ضابط الوحدة .. وهو يضحك ان الحديث الذي يدور عادة بين جنود وضباط كتائب الصواريخ هو شيء كهذا ..

● ماذا ستفطر اليوم يا ابا خالد ..

ـ انا صائم .. والله ..

● اذن سيفوتك الافطار الرائع الذي ينتظرنا ..

ـ ايش .. جبن .. عسل .. زيتونة ؟ .

● لا .. فانتوم ..

ـ سيدي .. الفانتوم ثقيلة على معدتي .. جربتها امس .. سافطر اليوم ميراج ان شاء الله ..

● لك حق تغير يا خيي !

والتفت الي قائد كتيبة الصواريخ قائلا ..

ـ المغاوير لهم حق .. فقد أسقطوا ٥٩ طائرة اثناء المعركة .. ومن يومين تسللت طائرة فانتوم فاسقطناها فكان المجموع ستين طائرة ! ..

قلت يعني هذا انكم كنتم موفقين في مهمتكم .

فقال ان دليل التوفيق لا يكمن في عدد الطائرات التي اسقطت فقط.. اذ ان اي طائرات تجرؤ على القدوم الى هنا فمعنى ذلك اننا سنسقط طائرات اكثر . لكن المهم انه ما عادت تاتي طائرات الى هنا .. خوفا مما يصيبها من هذه الكتيبة وهذا هو النجاح الحقيقي فمهمتنا منع الطيران المعادي من اختراق اجوائنا او ضرب قواعدنا .

والواقع ان حائط الصواريخ السوري حقق نتائج رائعة ..

وسمعت هناك حكايات عديدة .. مثلا .. بطارية صواريخ حاصرت طائرتي فانتوم .. ضربوا الاولى فسقطت .. دهش طاقم البطارية وهو يرى طيار الطيارة الثانية التي لم تصب بعد يقفز بالمظلة من طائرته . كان واضحا انه توقع ان تضرب طائرته هو الآخر فآثر السلامة ..

كان رقيب البطارية سعيدا جدا الا انه كان يتحسر .. كان يريد ان « يستلم » الفانتوم جديدة سليمة ما دام قد تركها الطيار ولكنه يعرف ان مصيرها السقوط بعد نفاذ الوقود ! .

مثل آخر ، ان القوات العراقية التي كانت تساهم في المعركة كانت تعمل وتتقدم في الميدان بثقة شديدة في ان الطيران المعادي لن يتمكن من الاقتراب بها وفي بعض الأحيان كانت هذه القوات لا تبالي بالتمويه المعتاد الذي تمارسه اية قوة عسكرية .. طبعا كان ذلك بسبب شجاعة الرجال العراقيين لكن ايضا بسبب الثقة في فاعلية الصواريخ .

وكان ذلك طبعا في بعض الاحيان فلم تكن الحرب بالنسبة للجيش العراقي نزهة .. فقد حدث كثيرا ان كان هدفا لطائرات العدو وخصوصا بعد ان كان ينجح ذلك العدو في ضرب قواعد الصواريخ السورية .

وحكاية اخرى عن مازق وقعت فيه بطارية صواريخ اخرى ..

دخلت ثماني طائرات فانتوم مجال الصواريخ .. انطلقت الصواريخ لتصيب طائرتين .. يبدو ان الطيارين الاسرائيليين لم ينبهوا الى سقوطهما اذ ظلت الست طائرات الأخرى ماضية في طريقها دون مناورات ..

اسقطت البطاريات طائرتين أخريتين ..

بدات الطائرات الاربع تنسحب .. وفجاة في نفس اللحظة ظهرت ثلاث طائرات اسرائيلية اخرى من الاتجاه المعاكس الذي تركز فيه بطارية الصواريخ نشاطها .. اي من الخلف ..

وكان على البطارية ان تتحول بسرعة كبيرة الى ١٨٠ درجة .. ودارت الأجهزة بسرعة .. والثواني هنا ذات اهمية كبرى ..

واطلق الافراد صاروخا .. ولكن لم ينطلق الصاروخ .

تجمد الطاقم .. وتملكهم الجزع .. ستدخل الطائرات الثلاث .. وربما رجعت الأربع .. التي ستتشجع عندما ترى هذا المدد .. وتضرب القوات ..

ولكن بعد ثانية أو ثانيتين بدتا دهرا بالنسبة لنا .. انطلق الصاروخ .. وتبعه ثان .. واستدارت الطائرات تتخبط بين مختلف الاسلحة في الجبهة.

والروح التي تتملك طواقم الصواريخ في سوريا على هذا المستوى :

سألت جنديا اسمه عبد المعطي يحمل شهادة ثانوية ويدرس في الجامعة ..

● ماذا يحدث اذا اطلقت قاعدتك صاروخا ولم يصب هدفه ؟

اجاب بثقة

ـ لا بد ان يصيب

● واذا لم يصب

الاجابة بحسم :

ـ اكون انا فاشلا .. اكون جاهلا بقواعد الاطلاق ..

وهم يرفضون تصديق ان الصاروخ يمكن ان يفلت طائـرة .. فهذه فرص نادرة وفي حالات خاصة جداً .. ولا حتى تشويش العدو يجدي وقد جرب كثيرا لكن الطائرات الاسرائيلية كانت تسقط .. « ان لدينا وسائـل وأجهزتنا وخبرتنا التي تساعدنا على التعامل مع هذا التشويش .. وهذا من الدروس المستفادة من الحرب » كما قال لي قائد كتيبته .

وفي جديث مع العقيد الركن علي الصالح مدير ادارة الدفاع الجوي السـوري :

قال انه رغم نجاح العدو في دخول الاجواء السورية رغم الضربات التي اصابته فان ذلك النجاح لا يمثل شيئا .. اذ انه « مجـرد محاولة مـن الطغمة العسكرية الاسرائيلية لرفع معنويات ما تبقى من طياريها المأجورين والمرتزقة وكذلك ايهام شعبهم بان يد الاخطبوط التي بترت لا تزال قادرة على الحركة » .

ومضى العقيد غلي صالح يقول :

ـ انني استطيع القول انه لولا ا لامداد الخارجي لاسرائيل بالطائـرات والطيارين المرتزقة بعد اليوم الرابع للمعركة . لم يبق اي معنى لشيء اسمه سلاح الطيران الاسرائيلي ..

ويروي العقيد علي صالح كيف انه فـي اول اشتباك بين طائـرات العدو الاسرائيلي والدفاع الجوي اسقطت تسع عشرة طائرة خلال الثـلاث دقائق الاولى ..

كما انه ابلغ ذات مرة ان ثماني طائرات اسرائيلية اغارت على قواعـد للصواريخ .. فاسقطت تلك القواعد خمس منها دفعة واحدة .. فما كـان من الطيارين الثلاثة الباقين الا ان قفزوا من طائراتهـم دون ان تصاب تلك الطائرات عملا بحكمة « راس الذنب الطائر » ! ..

هذه هي الروح التي يتحلى بها ابطال الدفاع الجـوي السوري .. وهذه هي الثقة التي يمنحها حائط الصواريخ وفاعليته للمقاتلين وهي وان بدت ثقة مبالغ فيها بعض الشيء الا انه يجب الا ننسى فعلا انه لولا المدد الامريكي لانهار سلاح الطيران الاسرائيلي كله تماما .

كيف يرون الاسرائيلي كمقاتل ؟

يجيب كلهم اجابات لا تخرج عن انهم كانوا يتوهمون ان الطيار الاسرائيلي اسطورة فاكتشفوا انه ليس اسطورة على الاطلاق وان كان بارعا .

ان مستوى الطيار الاسرائيلي لم ينخفض عن مستواه ١٩٦٧ « ولكننا نحن الذين تغيرنا » على حد قول ضابط سوري لي ..

وبالتالي فان الظروف التي كان الطيار الاسرائيلي يقاتل فيها قد تغيرت . والذي غيرها هو المقاتل السوري .

فارق كبير بأن ياتي الطيار الاسرائيلي ليقصف ولا يقاومه احد الا بعض مدافع م . ط (مضاد للطائرات وبين ان يملك السوريون اسلحة حديثة متطورة يتقنون استخدامها ..

هنا اصبح « الجندي الاسرائيلي مطالبا بالتخلي عن طمانينته » على حد تعبير الضابط السوري .

من ناحية اخرى اكتشف السوريون من خبرتهم ان ما كان يذاع عن ان الطيار الاسرائيلي دقيق في اصابة الهدف هو مجرد اشاعة كاذبة .

وقد كانت هذه الدقة موجودة عندما لم تكن توجد مقاومة .. فالجو « خال » بالنسبة له ..

من الطبيعي عندما يلقي بست عشرة قنبلة على قافلة من الدبابات فيصيب بعضها حتما .. ولكن كم يصيب اذا رمى قنبله او اثنتين ؟!..

« لقد رأيناهم في ظروف جديدة .. وكانوا طيارين عاديين ! » ..

١٥

سر الرجل الرهيب !؟

وصفه الرئيس انور السادات بانه رجل رهيب مثل سلاح المدفعية الذي لعب دورا خطيرا في الحرب .. وهو حقا من ادمث الرجال وارقهم حاشية .. ولكنه ورجاله ارهبوا العدو .. حقا .. خلال حرب الاستنزاف .. ثم في حرب الساعات الست ..

احدى مفاجآت حرب اكتوبر هي المشاة الذين يحملون الصواريخ .. يحكي ضابط اسرائيلي وقع في فخ اولئك « الشياطين » على حد تعبيره في احدى معارك صحراء سيناء فيقول :

ــ كنا نتقدم .. وعلى بعد رأيت نقطا داكنة متناثرة بين كثبان الرمل.. ولم اعرف في البداية ماذا تكون ..

وعندما اقتربنا اكثر « منها » .. تصورت انها جذوع اشجار اذ كانت لا تتحرك ومبعثرة على الارض امامنا ..

سألت الدبابات المتقدمة عما تكون « هي » ..

اخيرا صاح قائد طاقم دبابة امامية ..

يا الهي .. انهم ليسوا جذوع شجر .. انهم رجال !

ولثوان لم افهم ماذا يفعل رجال هناك وهم في حالة سكون كهذه بينما دباباتنا تتقدم تجاههم ..

وفجاة تفجر الجحيم من حولنا .. سيل من الصواريخ اندفع ضدنا.. والنتيجة ان عدداً كبيراً من دباباتنا قد اصيب .. حقا لم يحدث شيء لي من قبل كهذا ! ..

صائدو الدبابات هؤلاء الذين الحقوا خسائر فادحة بالعدو الاسرائيلي وادهشوا العالم .. هم جزء من سلاح المدفعية .. فليست المدفعية بقاصرة على المدافع الضخمة التي تقصف العدو .. وانما تضم المدفعية المضادة للدبابات .. كما تضم ايضا ما يسمى بالمدفعية الصاروخية وهي الصواريخ ارض — ارض .

★ ★ ★

وسلاح المدفعية المصري من اعرق اسلحة الجيش .. ويرجع تاريخها الحديث الى عهد محمد علي .

وظهر اول آلاي مدفعية في الجيش المصري عام ١٨٢٥ وفي ١٨٣٠ انشىء آلاي ثان .. ثم ثالث ١٨٣٥ ثم رابع عام ١٨٨٢ .

وانشئت اول مدرسة للمدفعية عام ١٨٣١ وعين مدير فرنسي لها هو دي سيجورا . وبعث محمد علي ببعثات الى فرنسا للتدرب على استخدام المدافع بل واقام مصانع لصناعتها .

وللمدفعية المصرية تاريخ عريق في الاشتراك في معارك عديدة ..

في معركة « تربت » في ٢٤ يونيه ١٨٩٣ بين محمد علي وتركيا .. امكن للمدفعية المصرية صد الهجوم التركي المفاجيء ليلة ٢٤ يونيه ، وكانت المدفعية تحتل اوضاعها في ارض مرتفعة ومشرفة على مواقع الاتراك ..

وقبل ذلك كانت المدفعية قد شاركت في معركة « نوتيه » في ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ بل كان لها الفضل الاول في الانتصار على الاتراك ايضا .

وفي نفس العام استخدم ابراهيم باشا المدفعية في اسكات مدفعية العدو وتدمير مواقعه في معركة « ميلان » في شهر يوليو .

وتاريخ المدفعية المصرية معروف في محاولة صد الهجوم البريطاني عام ١٨٨٢ على الاسكندرية ثم في نضال عرابي الباسل ضد الاحتلال في المعارك المختلفة . وقد شهد القائد الانجليزي « هنت » بان الطوابى المصرية ظلت تقاتل حتى تهدمت كاملة على الضباط والجنود فيها واستشهدوا على مدافعهم !

ومن الطريف هنا .. ان نذكر على اي حال ان التاريخ يقول ان اول مدفع استخدم في التاريخ **هو مدفع عربي في الاندلس في القرن السادس**

ابان المعارك بين « الفرنجة والعرب » . اذ استخدمه العرب اثناء حصار الفرنجة لهم في احد الحصون .

وقد جاء ذلك في كلا من دائرتي المعارف البريطانية والروسية .

★ ★ ★

اما في حرب اكتوبر ١٩٧٣ .. فقد ذكر **الرئيس انور السادات** في حديث له عن المعركة ان المدفعية المصرية الرهيبة قد لعبت اخطر الادوار الى جانب الصواريخ . . «ان قائد المدفعية في الميدان هو الفريق محمد الماحي الذي يعمل معي الان كبيرا للياوران ، رجل رهيب مثل مدفعيته . انه هادىء صامت يتحدث في همس .. **وقد تلقى مني التعليمات بضرب العمق في اسرائيل اذا بدأت** . وكانت تعليمات تفصيلية حاسمة .

انه رجل رهيب فعلا .. كنا في غرفة العمليات وكنت اصدر اليه الامر بضرب المواقع المحددة بآلاف الاطنان من القذائف ويتلقى الامر في هدوء ، ويعود لي بعد دقائق وفي هدوء هامس يتقدم بورقة صغيرة ويقول في صوت غير مسموع : تم التنفيذ .

وينصرف كانه لم يفعل شيئا .. وكانه لم يقلب مواقع العدو راسا على عقب ! .. »

فكيف قلب سلاح المدفعية مواقع العدو راسا على عقب ؟..

آلهة الحرب :

ان مهمة المدفعية هي تقديم المعونة اللازمة (وهذه المعونة في شكل نيران طبعا ! الى الاسلحة المختلفة من مشاة ودبابات لتمكينها من تدمير العدو والوصول اليه والاستيلاء على الاهداف الحيوية المقررة في الخطة .

ومن هنا فان المدفعية تصوب نيرانها ضد اسلحة العدو ومواقعه ومراكز قيادته وقواته البشرية المحتشدة او الملتجئة في ملاجىء .. المهم عليها ان تكبده خسائر فادحة حتى تمهد الارض لسائر الاسلحة .. وعليها ان تمتد بذراعها الى احتياطيات العدو ايضا لتمنعها من التحرك ..

وكذلك فان المدفعية سميت في بعض المعارك بآلهة الحرب .. ومن أبرز ادوارها التاريخية التي اكتسبت فيها مثل ذلك اللقب معركتي برلين والعلمين .

وفي حرب اكتوبر حشد اكبر عدد من المدافع في تاريخ معارك الشرق الاوسط (حوالي ٤ آلاف قطعة كما ذكرنا من قبل) واستمر الاطلاق ٥٣ دقيقة

على مواقع العدو وحشوده واحتياطاته بمعدل ١٧٥ قذيفة كل ثانية . وقد ذكرت مجلة شتيرن الالمانية ان المدفعية المصرية قد صبت على خط بارليف كمية غزيرة من النيران بصورة لم يشهدها من قبل وان الجندي الاسرائيلي قد اذهلته المفاجاة تماما ..

ولكن كيف امكن حشد هذا العدد الهائل من المدافع دون ان يراه العدو ؟.

لقد وضعت خطة خداعية على اعلى مستوى في القيادة العامة حتى ان البعض من تلك المدافع لم يتحرك الى مرابض القتال الا في ليلة المعركة ، والبعض لم يرفع ستائر التمويه المتقنة الا في الخمس دقائق الاولى السابقة على بدء القصف .

وقد عبرت المدفعية المصرية بعد ذلك مع القوات العابرة الى الضفة الغربية ودكت مواقع « تموين الذخيرة » التابعة للعدو .. وقصفت احتشادات دباباته لعرقلة الهجمات المضادة .

وقامت المدفعية بدور آخر خارج عن دورها التقليدي .. لقد **ساعدت على فتح ثغرات في حقول الالغام في الضفة الغربية** بقصف الارض مباشرة فتتفجر الالغام المدفونة ويفتح الطريق امام العابرين .. وهذا طبعا كان مساعدة عظيمة للمهندسين الذين كان عليهم القيام بهذا العمل .. اذ ان مساعدتهم قد اختصرت الوقت اللازم لتهيئة الظروف للعبور ولنصب الكباري .

بل ان المدفعية قد ساهمت ايضا في منع انابيب النابالم من العمل اذ اطلقت على مواقعها قذائف كانت تدمرها وتهيل التراب عليها فتحول بينها وبين ان تشتعل .

ومن مهام المدفعية ايضا الضرب في عمق العدو .. وكما قال الرئيس السادات ان تعليمات تفصيلية كانت معطاة لقائد سلاح المدفعية لضرب اسرائيل في العمق بصواريخ ارض – ارض اذا ما بدأت هي بضرب العمق المصري ..

وقد كان الاسرائيليون يعرفون جدية هذا التهديد المصري الذي تسنده تلك الصواريخ الموجودة والمؤثرة فعلا بحيث تصل الى كل مدينة في اسرائيل.

ولقد استخدمت المدفعية المصرية تلك الصواريخ لضرب بعض المطارات الاسرائيلية في عمق سيناء وقد راينا من قبل كيف ان تلك الصواريخ قد حطمت ست طائرات كانت جاثمة على ارض مطار المليز .

ثم سنرى في فصل لاحق كيف استخدمت هذه الصواريخ في الثغرة.

وكان على المدفعية المصرية ايضا ان تدمر مدرعات العدو ، وهي في ذلك تستخدم « المواسير » اي المدافع التقليدية ضد الدبابات او التطور الأخير لها وهو الصواريخ الموجهة ضد المدرعات .

وعندما وصلت تلك الصواريخ من الاتحاد السوفيتي اول مرة كان تقدير الخبراء السوفيت ان تدريب الجندي المصري على استخدامها يحتاج الى عام كامل .. **لكن القيادة المصرية صممت على انهاء ذلك التدريب في ستة شهور فقط .**

ان استخدام الصاروخ الموجه ضد الدبابة يحتاج الى قوة اعصاب هائلة من الجندي فهو يواجه ضربا مستمرا من العدو في نفس الوقت الذي يعمل على توجيه مسار الصاروخ .. هذا طبعا غير الكفاءة العالية المطلوبة في تفهم اسس التكنولوجيا والاليكترونيات .

ومما يذكر انه بعد انتهاء الدورة التدريبية لاول دفعة من صائدي الدبابات اقيم « يوم للرماية » لاختبارهم حضره كبير الخبراء السوفيت . فكانت النتيجة ٩٠ ٪ .

ولم يتمالك كبير الخبراء من ان يلتفت الى الفريق الماحي وقال له : **يمكنني ان اقرر الآن ان مستوى جنودكم يصل الى مستوى قواتنا المسلحة ان لم يتميز عنها ! ..**

لم يكن ذلك في الواقع مجاملة او مبالغة .. فقد اثبتت حرب اكتوبر كفاءة الجندي المصري الممتازة في استخدام الصواريخ المضادة للدبابات ..

لقد استطاع بعض الرجال ان يصيدوا عشرين وثلاث وعشرين دبابة بصواريخهم مثل البطل المعروف عبد العاطي الذي هو جندي من جنود المدفعية .

ذكر روبرت ستيفنز الخبير الانجليزي في صحيفة الاوبزرفر البريطانية في ٢١ اكتوبر ١٩٧٣ على لسان البريجادير « كنت هنت » نائب مدير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية « اعتقد ان حرب الشرق الاوسط قد غيرت بالفعل افكار عديدة عن الطائرات والدفاع الجوي والدبابات **ووسائل المدفعية المضادة للدبابات كما اصبح تفوق الدبابات الاسرائيلية في المعركة موضع شك كبير . »**



ولا احد ينسى في مصر والعالم كله از عبء حرب الاستنزاف ومنا قبلها كان واقعا على المدفعية .. عندما كانت تصدر الصحف تحمل في

صدرها عناوين التراشق بالمدافع عبر القناة ..

والواقع ان سلاح المدفعية قد تطور بعد ١٩٦٧ كسائر الأسلحة الأخرى .. فقد كان حال السلاح بعد هزيمة يونيه حال « يرثى لها » اذ لم يكن لدينا الا بضع عشرات من قطع المدفعية بعد ان دمر اغلبها في سيناء كما قال لي الفريق محمد الماحي ..

ومع ذلك فانه من بين الخطط السريعة التي وضعت على عجل لمواجهة اي مغامرة للعدو بعد وقف اطلاق النار في يونيه ١٩٦٧ .. رصت تلك القطع القليلة على الضفةالغربية على مسافات متباعدة لتقصف العدو ان حاول العبور .

وفي مدى قصير كانت مدافع ومعدات جديدة تصل من الاتحاد السوفيتي حتى استعاد سلاح المدفعية تكوينه .. وكان يدفع بها على الفور الى القناة لمواجهة خرق العدو وقف اطلاق النار ، **وقامت المدفعية في تلك الفترة بالدور الرئيسي في مراحل الصد والردع والاستنزاف .. اذ انها كانت السلاح الوحيد الذي يمكن ان يصل الى عمق العدو يوميا بل في كل ساعة** . فسلاح الطيران مثلا لم يمكنه في تلك الايام ان يقوم بغارات يومية على العدو .. لما يتطلبه اعداد الطيارين من وقت علاوة على تواجد العدد المناسب من الطائرات نفسه .

وكانت المدفعية تحمي عمليات العبور الصغيرة والقصيرة المدى التي كانت فصائل من المشاة تقوم بها ..

وعندما أقام العدو خط بارليف الاول كانت المدفعية المصرية هي التي دمرته . واضطر العدو في فترة وقف اطلاق النار بعد مبادرة روجرز الى بناء خط بارليف الثاني الذي أصلته المدفعية نارا من الجحيم يوم العبور ايضا . بعد تجارب عديدة على نقط مشابهة اقيمت في الغرب وتكلف اقامتها ملايين من الجنيهات ..

وللمدفعية شهداء كثيرون .. فهي هدف دائم لطائرات العدو .. ولمدفعيته ايضا .. ان العدو دائما يحاول اسكات البطاريات المهاجمة ..

وعندما ذكر الرئيس السادات في أجتماع له بالصحفيين المصريين اثناء حرب الاستنزاف قصة جنود المدفعية الذين ماتوا على مدفعهم وانصهر حديد المدفع مختلطا بأجسادهم الطاهرة انما كان يحكي قصة واقعية واحدة من ملاحم استشهاد ابطال المدفعية .

وقد صمد هؤلاء الابطال-لقنابل الالف رطل التي كانت الطائرات

الاسرائيلية تلقيها عليهم في جبهة القتال .. وماتوا على مدافعهم دون ان يتركوهــا ..

وداست أجسادهــم جنازيــر الدبابات الاسرائيليــة وما وهنــوا او تراجعوا .. ابدا . وسنعود نرى في معركة الثغــرة الدور البطولي الــذي لعبته المدفعية .

واذا كان الفضل فيما شهدت به الاعداء .. فاننا ننقل هنا ما ذكره قائد اسرائيلي في كتاب حرب « كيبور » : اذا كانت قد كتبت لي النجاة في تلك الليلة ـ يقصد ليلة العبور ـ فان ذلك كان معجزة . اذ ان المدفعيــة المصرية لم تكف عن قصف مواقعنا وتدمير تحصيناتنا ..

وجاء في نفس الكتاب على لسان قائد اخر : لقد تعرضنا لستار مــن النيران لا يمكن وصفه فقد انصبت من كل جانب الصواريخ وقذائف المدفعية الثقيلة واحترق كل شيء من حولي وكان الرجال يقفزون من دباباتهم مــن الذعــر !! »

١٦

لا يفل الطائرة إلا الطائرة

في شهر ديسمبر ١٩٧٢ وعلى وجه التحديد في الحادي عشر من ذلك الشهر وزعت وكالة أنباء يونايتدبرس الامريكية خبرا على جميع صحف العالم ووكالاته جاء فيه :

« ذكر في تقرير سري اعده سلاح الطيران المصري ، وقد وزع ذلك التقرير على عدد محدود من المسئولين ان حالة سلاح الطيران سيئة للغاية، فأربعين في المائة فقط من اسلحة القوات الجوية وكذلك ستين في المائة فقط من الطائرات المصرية المقاتلة هي في حالة صالحة للقتال .. »

وأضاف التقرير ان العوامل المسئولة عن هذا التردي لحال سلاح الطيران هو الصيانة الرديئة ونقص قطع الغيار من الاتحاد السوفيتي ..

وأضافت اليونايتدبرس في النبأ الذي وزعته « يتضح من التقرير ايضا انمصر فقدت خمسين طائرة مقاتلة على الاقل منصنع سوفيتي وذلك في التدريبات منذ حرب الاستنزاف . ومعنى ذلك ان مصر التي كان يقال انها تملك ٥٢٣ طائرة قبل تلك الحرب تملك الآن من ٤٠٠ الى ٤٥٠ طائرة فقط منها ثلاثمائة فقط جاهزة للقتال » ..

وقد تكررت اخبار صحفية اخرى عن ضعف مقدرة الطيران المصري مثلا كتب صحفي ايطالي في جريدة كوريري دي لاسيرا في ٢٣ فبراير ٧٢ يقول بالحرف الواحد « تعترف مصادر عسكرية مصرية بصراحة ان مصر تعاني من نقص في البنزين وقطع الغيار. وهناك طيار واحد فقط لكل طائرتين

وتجثم الطائرات الحديثة الاسرع من الصوت كاحجار لا يوجد من يقلبها .
وقد تحطمت في الشهور الاخيرة الخمسة ثلاثون طائرة اسرع من الصوت في التدريبات .

وهكذا نشرت اخبار كثيرة في صحف عديدة عن سوء حال سلاح الطيران المصري .. **وفيما بعد كشف الرئيس انور السادات في حديث صحفي مع مجلة الاسبوع العربي اللبنانية ان تقرير اليونايتدبرس المشار اليه قد سربته مصر عن عمد لخداع الاسرائيليين .. وقد بلغ العدو الطعم فعلا كما ذكر كتابهم بعد حرب اكتوبر كما بلع « تقارير » اخرى مزيفة كهذه .**

وهذا الخداع وللتخبط عند العدو هو الفرق بين ما كان يجري من قبل وما حدث في ١٩٧٣ .

في عام ١٩٥٦ مثلا احتاج الامر الى ان يصعد رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر بنفسه الى سطح بيته ليكتشف ان الطائرات المغيرة من طراز كانبيرا تحلق في سماء القاهرة تمهيدا للانقضاض على المطارات المصرية ..

هكذا اعلى قمة في البلد لم يكن عنده علم ببدء الغارات الجوية على البلاد ، لا اجهزة تنبيه تعمل .. ولا وسائل اتصال تبلغ .. لا شيء وانما يحتاج راس الدولة الى الصعود الى السطح للاكتشاف بهذه الوسيلة البدائية !

اما في عام ١٩٦٧ فكانت الكارثة اعم واشمل .. كما هو معروف .



تعود الجنرال هود قائد سلاح الطيران الاسرائيلي ان يسمي طياريه « بنسور الشرق الاوسط » .. وكان العالم يصغي الى هذا الكلام باحترام ولا شك .. الم يستطع هذا السلاح ان يقضي على مثيليه في الشرق الاوسط حتى دون معركة او يحزنون .. وانما قضى عليهما في عقر داريهما .. وهما جاثمان على الارض في مطارات مصر وسوريا عام ١٩٦٧ ؟...

الم يقرأ الجنرال هود تصريحات غريبة لبعض المسئولين العرب يعتذرون فيها عن عدم اطلاق الطيارين العرب ضد الاسرائيليين حفاظا على حياة الطيارين ؟!!..

كأنما الشعوب العربية تنفق عشرات الالوف من الجنيهات لتعليم ابنائها وتدريبهم كطيارين للدفاع عنها .. ثم بعد ذلك يتحولون الى مجرد دمى نحافظ عليها من العبث ؟..

وكانما الطيار العربي الذي امتلات نفسه شجاعة وحماسة ووعياً بدوره في أي حرب تحريرية .. بعد ان يتعلم هذا كله ويعيد نصدمه بأن نجمده في ثلاجة بحجة المحافظة عليه ؟!...

ولكن الجنرال هود غفل عن عامل تطور الزمن .. وتفاعلات التاريخ.. فلم يعد احد يقول للطيارين العرب سواء في سوريا او في مصر او في العراق او في الجزائر او في ليبيا وغيرها كلاما كهذا ..

لقد اصبحوا يستمعون الى كلام كهذا :

ان الطيار البريطاني كان عليه ان يواجه وحده اربع طائرات المانية في معركة بريطانيا ١٩٤٠ . ومع ذلك انتصرت القلة البريطانية على الكثرة الالمانية .

ان الفيتناميين في فيتنام الديمقراطية كانوا يواجهون بطائراتهم الطائرات الامريكية المغيرة على هانوي وهايفونغ بنسبة واحد لتسعة .. اي ان كل طائرة فيتنامية من طراز ميج ١٧ او ١٩ في الغالب .. كان عليها ان تنازل في الجو تسع طائرات امريكية ابتداء من الفانتوم حتى القلاع الطائرة ف ٥٢ ! ...

والجنرال هود لم يحاول ان يدرس بعناية .. لماذا حدثت كارثة ١٩٦٧ للطيران المصري ..

ان العيب لم يكن عيب الطيارين المصريين .. ولكن المسئولية كلها ترجع الى الاسباب الجذرية لهزيمة ١٩٦٧ كلها .. وليس هنا مجالها ..

ويحكي اللواء حسني مبارك قائد سلاح الطيران كيف ان المطارات المصرية عام ١٩٦٧ كانت محدودة العدد للغاية ..

وغير محمية بما فيه الكفاية ..

اما الطائرات فكانت جاثمة في العراء دون اي غطاء ..

ومنذ عام ١٩٦٧ .. والعمل يمضي على قدم وساق لاحداث تطويرات جذرية في سلاح الطيران المصري ..

● انشئت مطارات اكثر .. ورغم ان العدو اثناء حرب الاستنزاف كان يحاول ضرب تلك المطارات (فهو يراها طبعا على الاقل بواسطة الاقمار الصناعية) . الا انها انجزت جميعا ..

● حميت الطائرات المصرية بدشم خاصة نتيجة افكار مصرية مائة في المائة .. حتى ان حلف وارسو قد درس تلك الوسائل ليستفيد بها ..

● درب الطيارون المصريون تدريبات عنيفة على اهداف حقيقية .. لسنوات طويلة .. كما دربوا على الطلعات السريعة .. واذا كان الاسرائيليون

قد فاخروا العالم بأن الطيار عندهم يستطيع الطلوع بالطائرة في دقيقتين ونصف فان طيارنا قد أصبح قادرا على تحقيق ذلك بل واقل منه (دقيقتان) !

★ ★ ★

وكما كانت معركة راس العش في يوليو ١٩٦٧ هي اول انتفاضة للجيش المصري بعد هزيمة يونيه .. كذلك في نفس الشهر انتفض سلاح الطيران المثخن بالجراح القاتلة .. وقامت عدة طائرات قليلة من طائراتنا .. وقصفت مواقع العدو الاسرائيلي في اعماق شرق سيناء .. وضربته ضربا موجعا ردا على غارة له كما تبين في البلاغات الاسرائيلية وتعليقات المتحدثين الاسرائيليين انفسهم . وكانت تلك الغارة المصرية في ذلك الوقت حيث كانت مرارة الهزيمة في الافواه .. رمزا لاستمرار المقاومة المصرية واصرار الشعب على تخطي الهزيمة وبناء قوات مسلحة تثار لهزيمة ١٩٦٧ غير الطبيعيةوكان قائد سلاح الطيران في ذلك الوقتالفريق مدكور ابو العز .

★ ★ ★

وجنبا الى جنب وسائل الدفاع الجوي كان سلاح الطيران يطارد اي غزو اسرائيلي لسمائنا .. وتجربة حرب الاستنزاف بالذات اكدت ان الطيار المصري .. ند للطيار الإسرائيلي بل يفوقه في معارك عديدة ..

وكان المحك الاكبر لهذا هو معركة « شدوان » .. حيث قامت الطائرات المصرية بدك الجزيرة على محتليها الاسرائيليين متصدية في نفس الوقت للطائرات الاسرائيلية التي كانت تحمي الهجوم الاسرائيلي .

ونجحت الطائرات المصرية في مهمتها ..

ولقد قيل كلام كثير قبل الحرب عن عدم استعداد الطيران المصري لان السلاح ينقصه الميج ٢٣ والميج ٢٥ و .. غيره من هذا الكلام ..

وقيل كلام كثير في التشكيك في قيمة الميج ٢١ امام الفانتوم (الشبح) الرهيبة ..

ولا احد يستطيع الحكم ما اذا كان ذلك الحديث كان من قبيل التمويه العسكري .. لخداع العدو .. ام هو نوع من الدعاية بهدف تثبيط العزائم للشعب واثارة اليأس في نفسه من محاربة العدو .. ام هو ثرثرة جهلاء مدعين على مقاهي القاهرة وبيروت ؟ ! ..

لا احد يدري ..

ولكن الشيء الذي درى به كل عربي .. بل وكل انسان في العالم

انْ الطيران المصري .. والطيران السوري .. كانا على كفاءة عالية مفاجئة بالنسبة للجميع ..

كما ان الطيارين المصريين والسوريين بالميج ٢١ بل الميج ١٩ و ١٧ .. قد استطاعوا ان يتغلبوا على العدو في معارك جوية عديدة ..

★ ★ ★

وعندما كان العدو يغير على مطاراتنا .. كان يلقي بقنابل زمنية ..

وبعد الغارة يهرع المهندسون والفنيون الى اصلاح المطار .. وقد اكتشفوا الوسائل الملائمة للاصلاح حتى لا تتكرر ماساة ١٩٦٧ عندما كان يعني ضرب المطار تعذر استخدامه على الاطلاق ..

احيانا كانت تنفجر قنابل زمنية .. اثناء عملية الاصلاح ويسقط لها ضحايا ..

لم يكن احد من المهندسين او الجنود يذعر فيجري .. انما يواصلون العمل في ثبات وبسرعة حتى يمكن ان تقوم الطائرات وتضرب العدو ..

حدث مرة .. بينما كانت طائرة تستعد للقيام من الدشمة .. للاشتراك في صد غارة للعدو على المطار نفسه ..

الطيار قد ادار المحرك .. واستعد للانطلاق .. بينما كان العامل الميكانيكي يرفع الحواجز من امام العجلات ..

فجاة تدحرج شيء من خارج الدشمة الى داخلها .. واصطدم بعجلة الطائرة .. نظر الميكانيكي الى الشيء .. جحظت عيناه .. لقد كان قنبلة زمنية .. ربما انفجرت الان ...

في ثبات .. ودون ان يشعر الطيار .. انحنى الميكانيكي على القنبلة واحتضنها في صدره مغطيا عليها بذراعيه في قوة شديدة .. وجرى الى الخارج والقى بها على السطح .. ثم عاد ..

واشار للطيار بان يطير ..

وعندما سال العمال زميلهم لماذا كان يحتضن القنبلة بقوة .. قال انه كان يخشى ان تنفجر في اي لحظة داخل الدشمة .. فتدمر الطائرة بشظاياها فحاول ان يتلقى كل صدمتها بجسده اذا انفجرت .. هكذا صور له ذهنه وحماسه للتضحية ..

عندما قاتلت الميراج الاسرائيلية الميراج الاسرائيلية ! :

هل يمكن تصور ان الطيارين المصريين قد استطاعوا ارباك الطيارين

الاسرائيليين الى حد ان جعلوا الميراج الاسرائيلية تقاتل الميراج الاسرائيلية؟..

لقد حدث هذا في معركة شرقي البحر الابيض المتوسط ..

جاءت اثنتي عشرة طائرة ميراج اسرائيلية للاغارة على بور سعيد .. تلقتها خمس عشرة طائرة ميج مصرية .. فوق البحر ..

ودارت معركة .. بدت فيها ضراوة الطيارين المصريين .. فقد استطاعوا اسقاط خمس طائرات ميراج .. في اقل من عشر دقائق .. بينما سقطت طائرة مصرية واحدة !

استدارت باقي الميراج للعودة .. وبدات تطير نحو الشرق .. بينما اتجهت الطائرات المصرية نحو الغرب ..

بعد لحظات استمع قائد التشكيل المصري .. من قيادته تساؤلا .. هل تشتبك حاليا مع طائرات العدو ..

اجاب الطيار بالنفي ..

قال مركز القيادة لكن طائرة استطلاع تقول ان هناك معركة جوية على بعد ٥٠ كيلو مترا من موقعك ..

اشار قائد التشكيل لسربه بالاتجاه لمعاونة الطائرات المصرية المشتركة في تلك المعركة ..

وكانت المفاجاة عندما اقترب ان وجد الميراج الاسرائيلي يتقاتل مع الميراج الاسرائيلي وطائرة ميراج تسقط فعلا ..

ان بعض الطيارين الاسرائيليين اصابهم الذعر .. من الهجوم العنيف للطيارين المصريين والخسائر التي احاقت بهم .. واختلط الامر على بعضهم فخيل اليه ان طائرات اسرائيلية هي طائرات مصرية ..

ان الطائرة هدف متحرك، ويعني ذلك انها قادرة على المناورة والانتقال من مكان الى اخر .. فلو دخلت في منطقة صواريخ وهي اهداف ثابتة تقريبا .. امكنها باعتبارها قادرة على الحركة ان تحاول التهرب من شبكة الصواريخ بالارتفاع او العبور .. بل يمكن للطائرة ان تلعب دور المهاجم لقواعد الصواريخ ذاتها باستخدام صواريخ مضادة كما راينا في فصل سابق.

وليس ضروريا طبعا ان تنجح الطائرة في الافلات من الصواريخ .. ولكننا نقصد ان نبين ان لديها فرصة لهذا النجاح .. اكثر من الفرصة التي تواجهها اذا ما تصدت لها طائرة .. وطائرة قوية يحركها طيار مدرب..

هنا يتحقق المثل القائل **لا يفل الطائرة الا الطائرة** ..

ان الطيار يذعر اذا ما واجه طائرة معادية بالشرطين اللذين ذكرا .. قوة الطائرة وقوة قائدها .. ولن يستسلم الطيار طبعا للذعر والا لما كان

طيارا مقاتلا .. ولكنه سيحتاج الى مجهود لضبط اعصابه .. وسيحتاج الى المزيد من المناورة .. وربما عجل بالقاء حمولته من القنابل ليستطيع المناورة والتفرغ لقتال غريمه . وربما تخلص من خزانات البترول الاضافية فحمولة القنابل تجعل الطائرة تطير ثقيلة كالبطة . ولقد كانت الفترة ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ فرصة كبيرة لتدريب الطيارين المصريين وتدريب القادة على تقدير الموقف واتخاذ القرار وفرض السيطرة .

وقد تكلف ذلك كثيرا طبعا . ويكفي أن نعرف ان الطيار قد يكلف تدريبه الذي يستمر ثلاث سنوات بعد تخرجه من كلية الطيران حتى يصبح طيارا مقاتلا حوالى نصف مليون جنيه بما في ذلك متوسط خسائر الطيران في التدريب ..

فتدريب الطيارين له تضحياته ايضا من الارواح والطيارات . وقد اثبتت معارك الجو في أكتوبر ان الطيارين المصريين لا يقلون كفاءة عن الطيارين الاسرائيليين بل تفوقوا عليهم في بعض المعارك . وواقع الامر ان الطيارين المصريين ربما كانوا القسم الوحيد من قوات الجيش المصري التي واجهت القوات الاسرائيلية وجها لوجه في قتال مباشر قبل حرب ١٩٧٣ !

ففي حرب ١٩٥٦ حدث ان تقاتلت بعض الطائرات القليلة المصرية مع الطائرات الاسرائيلية ..

وخلال حرب الاستنزاف حدثت عدة مواجهات بين الطائرات المصرية والطائرات الاسرائيلية .

اي كانت هناك بعض الخبرة .. بطياري العدو وطائراته .. اي ان حاجز الرهبة من الطيار الاسرائيلي « العنقائي » كان قد كسر منذ زمن .

ولكن الطيارين المصريين مع ذلك كانوا مشبعين بالرغبة في ازالة ما علق في اذهان الناس من انهم لم يقاتلوا العدو وانما حطمت طائراتهم على الارض واحتفظ بهم مجرد ضباط يرتدون الملابس الانيقة كما اشتهر عنهم انهم سهروا في حفلة صاخبة ليلة ٥ يونيه ١٩٦٧ فذهبوا الى مطاراتهم وهم يتثاءبون !!

ومن هنا كانت تلك الروح الفدائية الغريبة التي كانت طابع تصديهم للطائرات الاسرائيلية وطابع هجماتهم على الاهداف التي طلب منهم تحقيقها .

لقد ضربوا في الطلعة الاولى في ساعة الصفر :

مطارات المليز وتمادا وراس نصراني ، وعشرة مواقع صواريخ ارض جو طراز هوك ومواقع مدفعية بعيدة المدى وثلاثة مواقع رادار ومراكز توجيه

واندار ، ومحطتا ام خشب وام مرجم للاعاقة والشوشرة ، وضرب هاتيـن المحطتين كان له اثر كبير في اعاقة هجمات العـدو المضادة لفترة ثمينة ، وثلاثة مناطق شئون ادارية ثم النقطة القوية شرق بور فؤاد .

ولم يتوقف ضرب اهداف العدو في سيناء على تلك الطلعـة يوم ٦ اكتوبر بل استمرت طائراتنا تضرب مطارات سدر والطور وتجمعات العدو وقواته وقصة ضرب اللواء المدرع الاسرائيلـي في فرقة اللـواء فؤاد عزيـز ذكرناها من قبل في فصل سابق ..

ان العادة ان قواد الجيوش البرية يلحون في طلب القوات الجوية في الحروب فلا يجدونها في كثير من الاحوال ..

ولكننا في حرب اكتوبر كنا بصدد حالة غريبة .. قائد القوات الجوية الفريق حسني مبارك يدق جرس التليفـون من حين لآخر لقواد الجيوش هل تريدون مساعدة الطيران .. هل .. هل ؟!..

لقد كان الطيارون في غاية الحماسة .. وكـان السلاح يريد تحقيـق ذاته .. ويحطم اسطورة التفوق الجوي الاسرائيلي باية طريقة ..

ومن حقائق معركة الثغرة .. انـه لو كانت هناك استعدادات بريـة ومدرعة بكفاءة القوات الجوية لامكن حصر الثغرة وتدميرها في الايام الاولى كما سنرى فيما بعد .

وخلال الفترة من ٧ الى ٢٠ اكتوبر لم يكف العدو عن محاولاته لضرب المطارات المصرية في القطاميه . المنصورة . طنطا . شبراخيت . الصالحية. قويسنا . جناكليس . ابو حماد . بنى سويف . بير عريضة .

وكانت طائرات العدو ينفذ الكثـير منها من حائـط الصواريخ رغـم الاصابات الجسيمة التي تلحق بعدد منها ..

هنا تتوقف الصواريخ عن العمل لتبدا الطائرات في اكمال مهمة الاجهاز على طائرات العدو ..

واشترك سلاح الطيران المصري في اكثر من خمسين معركة جويـة منها ثماني معارك كبرى سقط فيها للعدو حوالى تسعين طائرة شمال الدلتا وبور سعيد وفايد والسويس .

وطائرات الهليكوبتر التي نقلت قوات الصاعقة الى الخطوط الخلفية لمواجهة احتياطيات العدو .. هي طائـرات تابعة للقـوات الجوية . وقد استشهد عدد من طياريها وهم يقومون بهذه المهـمة الخطيرة ليس فقط في النقل بل في استمرار مد قوات الصاعقة بالعتاد والذخيرة لفترة طويلـة من ايام قتالهم ..

ونود ان نلفت النظر هنا ان سلاح الطيران قد دخل الحرب ونصف طائرات الهليكوبتر التي يملكها معطل بسبب نقص في قطع غيار تملأ بالكاد صندوقين يمكن ان تحملهما طائرة عادية من بين ما تحمل من معدات على حد تعبير الرئيس انور السادات في حديثه معي .

لكن هل كان سلاح الطيران المصري على استعداد للرد على غارات العمق الاسرائيلية اذا حدثت ؟ ..

سؤال وجهته للفريق حسني مبارك قائد القوات الجوية .. فاجابني بالايجاب .. واضاف ان الاسرائيليين كانوا يعرفون تلك الحقيقة .

اذن ما معنى تلك الاحاديث عن عدم وجود طائرات هجومية بعيدة المدى عندنا وغيرها من الاحاديث ..

اجاب : الطائرة الدفاعية يمكن ان تلعب دورا هجوميا .. وضرب العمق في اسرائيل يمكن ان يتم من اماكن كثيرة تمكننا من ضرب تل ابيب نفسها لو ضربوا القاهرة .

ما الفرق بين الطائرة الامريكية.والطائرة السوفيتية ؟

يقول الفريق حسني مبارك أن العامل الاساسي هو الانسان الذي يقود الطائرة . معنويته . تدريبه . فضيته .

ومع ذلك فالطائرات السوفيتية متقدمة جدا في بعض انواعها . لكن دائما هناك سباق بين الدول في تطوير الطائرات بحيث ما هو حديث ليوم يصبح قديما غدا ولذلك فان السوفيت قد استحدثوا الميج ٢٣ ثم الميج ٢٥ و ٢٧ . ولا احد يدري .

ولم تكن انتصارات قواتنا الجوية بلا ثمن .. فقد خسرنا في معارك الجو ما لا يقل عن ١٢٠ طائرة .. واستشهد عدد كبير من طيارينا في المعركة .. ولكن ذلك لم يؤثر في معنوية الرجال .. فهذه هي الحرب ..

ويكفي انهم قد انتصروا على العدو في معارك كانت نسبة طائراتنا فيها الى طائرات العدو واحد الى اثنين او واحد الى ثلاثة مع الطيارين انفسهم :

★ في احدى القواعد العسكرية قص علي الطيار « قدري » واحدة من تلك المعارك .

في منطقة تكثر فيها الجبال حتى انها تعرقل كثيرا امكانية الكشف الراداري .. فيمكن دائما تدبير ما يسمى بالكمائن الجوية .

كنت اطير بطائرتي مع طائرة اخرى .. في تلك المنطقة .. ارشدتنا شبكة الرادار الى اقتراب طائرتين معاديتين منا .. استعددنا للقائهما .. ثم اشتبكنا معهما .

وفجاة كما «لو كان الله قد الهمني » قلت لنفسي لماذا لا يكون هنا كمين ؟ .. وفعلا بعد ثانية واحدة رايت أربع طائرات اسرائيلية سكاي هوك وراءنا .. وهي تأخذ موقع استعداد لاطلاق الصواريخ ضدنا .. قمت مع زميلي بما يسمى « دوران قتال عنيف » مفاجىء في نفس اللحظة التي انطلقت فيها صواريخ الطائرات الاربع .

كانت النتيجة أن الصواريخ اصابت الطائرتين الاسرائيليتين الاوليين .. وهوتا على الارض .. وتمكن طيار ان يقفز بالكرسي .

وتأهبنا للقاء الطائرات الاربع .. التي جن جنونها عندما اكتشفت ما حدث .. ولكننا بمناورات ذكية استطعنا اسقاط طائرة اخرى لم يتمكن طيارها من القفز .

★ ويروي الطيار عاطف قصة اخرى .. وبالمناسبة كل قصص الطيارين عن معاركهم لها وثائقها التي تؤكدها من صور وتسجيلات .

يوم ٧ اكتوبر ١٩٧٣ كانت خطة الطيران الاسرائيلي هي تكرار ما حدث عام ١٩٦٧ .. اي تدمير الطائرات المصرية على الارض وتخريب المطارات . ولذلك فان اسرابا كثيرة من الطائرات الاسرائيلية بدات صباح اليوم التالي لبدء الهجوم المصري في الاغارة على مطاراتنا .

وفوق كل قاعدة جوية مصرية كان هناك ما يسمى بالمظلة .. اي دوريات من الطائرات على اهبة الاستعداد للاشتباك مع العدو .. ولا تهبط دورية جوية قبل ان تصعد اخرى .

في السادسة والنصف صباحا كان « عاطف » يقود دورية جوية فوق احد مطاراتنا .

حل موعد هبوطه لصعود دورية اخرى .. لكن في نفس الوقت تلقى انذارا باقتراب طائرات العدو للهجوم .

واندفعت اربع طائرات مصرية تواجه الفانتوم .. وكان على عاطف وتشكيله الا يستخدم « الحارق الاضافي » لتوفير الوقود ومعنى ذلك ان تكون سرعته اقل كثيرا مما تستطيع طائرته ان تحققه .

ومع ذلك استطاع التشكيل المصري في لحظات ان يسقط طائرة فانتوم ويصيب طائرة اخرى .. واضطرت الطائرات الاسرائيلية كلها ان تلقي

بحمولتها من القنابل خارج المطار لتغرس حقول الفلاحين بعشرات القنابل .

وعندما نزل عاطف بطائرته توقف محركها على الارض لنفاد الوقود تماما .

وليس هناك في سلاح الطيران المصري طيار بطل واحد .. بل كلهم ابطال وانما تتفاوت درجات البطولة لا اكثر ولا اقل .

وعندما اعود لاسال الطيار قدري .. عن معنى البطولة .. يقول انها تحدث عندما يكون الانسان في موقف حرج جدا ويستطيع ان يقوم بعمل ما من شانه انقاذ زملائه او تشكيله مع يقينه مقدما انه يقتحم خطرا داهما يصعب عليه النجاة منه في الغالب .

ويبتسم قائلا :

ـ كلنا ذلك الرجل !

واسال .. السؤال الذي تعودت سؤاله للجنود والضباط على ارض سيناء .

هل يشعر الطيار بالخوف .. ومتى يعبر حاجز الخوف ؟

فاتلقى اجابات عديدة .. متشابهة .. في كل القواعد الجوية التي زرتها .. تلخصها اجابة الطيار حسن .

ـ كل واحد منا له اسرة .. زوجة .. ولد .. ام .. اخت .. يفكر فيها طبعا .. لكن عندما يدخل من كابينة الطائرة .. ولو لطوارىء فقط على الارض .. ينسى كل شيء .

انه كمن يركب شيطانا .. يمسك بقرنيه .. ليوجهه الى قتل شيطان اخر واجهه .. وهو ان لم يكثف ارادته وقوته ويركز عقله في امساك قرني الشيطان .. فسيقتل لا محالة وسيخذله شيطانه ويدمر الاثنان .

ان الشيطان ـ اية طائرة ـ قد تطير بسرعة ضعفي سرعة الصوت .. ولا بد لفكر الطيار ان يسبق سرعة الشيطان .. والا حدثت كارثة .

ويحكي طيار اخر .. مسئولية قائد التشكيل .

صحيح ان الطيارات عندما تتشابك في الجو يصبح كل طيار مسئولا بالدرجة الاولى عن هزيمة خصمه والحفاظ على نفسه .

لكن قائد التشكيل .. يقع على عاتقه بالاضافة الى ذلك متابعة كل طياري تشكيله .. واصدار التعليمات لهم .. وتحذيرهم من هجمات مفاجئة لطائرات العدو .

وهو في هذا كله اشبه بلاعب الاكروبات او البهلوان .. يرتفع الى

اعلا بسرعة اكثر من الف كيلو متر في الساعة .. ويخفض باكثر من ذلك سرعة طائرته من ١٣٠٠ كيلو متر الى ٦٠٠ دفعة واحدة .

وتصور ما يحدث لك على الارض عندما تفرمل السيارة فجاة وهي على سرعة خمسين او ستين كيلو .

لا تستطيع ان تتصور اذن الضغط الذي يحدث للطيار في الجو من جراء هذا الانخفاض او الزيادة المفاجئة الهائلة في السرعة !

ولذلك يقولون ان مدة خدمة الطيار قصيرة .

ولان الطيارين صفوة .. صفوة من اللياقة البدنية .. وصفوة في القدرات العصبية والذهنية .. وصفوة في فهم التكنولوجيا .. فهم يعيشون مع بعضهم البعض في القواعد الجوية كما لو كانوا مجموعة من علماء الاكاديمية تسيطر بينهم روح التعاون والزمالة والالفة والاحترام والصداقة ايضا .

ولقد لفت نظري الروح الرائعة التي تربط بين اسرة الطيران جميعا .

ان قائد كل قاعدة جوية يكاد يعرف كل شيء عن كل طيار يعمل معه . حياته الشخصية . مشاكله . عائلته .

ومثل هذه الروح ضرورية .. وحتمية بين النسور المقاتلة .. اذ تحدث آثارا ضخمة في الحرب . فبالتعاون مع وسائل الدفاع الجوي كما بينا يمكن حماية وطن بأسره ..

وفي سوريا :

ان كل مراسلي الصحف في العالم .. قالوا ان تسلية الشعب السوري المفضلة كانت التفرج على المعارك الجوية في سماء دمشق .. وتساقط اشباح الجو (الفانتوم) و « نسورها » ..

وقبل حرب ٦ اكتوبر كان السوريون يتحدون الهجمات الجوية الاسرائيلية مهما كان عدد الطائرات الاسرائيلية المهاجمة .. اذا ما هاجم الاسرائيليون بستين طائرة مثلا .. لم يتراجع السوريون عن مواجهتهم ولو بثلاثين طائرة ..

ولم يكن السوريون يخفون خسائرهم .. في المعارك الجوية مع اسرائيل حتى لو كانت خسائرهم اكثر من خسائر الاسرائيليين ..

وكثيرا هي البلاغات السورية عن اسقاط خمس طائرات اسرائيلية مثلا وسقوط سبع طائرات سورية ..

وفي حرب ٦ اكتوبر كان الطيارون السوريون مشبعين بالرغبة في الانتقام والثأر .. وكانوا قد جربوا التصادم مع الطيارين الاسرائيليين كثيرا وفي معارك كبيرة .. كان آخرها معركة الستين طائرة اسرائيلية التي هاجمت سوريا قبل الحرب بفترة قصيرة ..

وعندما زرت سوريا لم يكن السكان يبالون بحالة الظلام السائدة ليس في شوارع المدينة فقط .. بل في البيوت والاحياء .. بعد ان دمر العدو بعض محطات توليد الكهرباء .. في اطار خسارة المائتي مليون جنيه استرليني التي كشف عنها وزير الاقتصاد السوري للعالم .. وبدأت الحكومة تنظم عملية توزيع الكهرباء .

هذا الحي اربع ساعات في اليوم .. منها ساعتان في الليل .. وذاك الحي ست ساعات .. وذاك الشارع يوم ويوم .. وهكذا ..

ولم يدمر العدو محطات توليد الكهرباء فقط بل ايضا مصفاة حمص الشهيرة للبترول ..

ومع ذلك فان الناس لا تبالي بافتقاد الكهرباء .. وافتقاد الغاز للتدفئة في هذا الشتاء القارس ..

وكل حكاياتهم حول سلاح الطيران .. والخسائر الفادحة التي احاقت بالطيران الاسرائيلي.. واسر الطيارين المتهاوين بالمظلات في شوارع دمشق..

ان المواطن العادي في دمشق يأخذك بيده ليريك اثار الدمار الذي احدثته الطائرات الاسرائيلية في العاصمة العربية العريقة .. حتى اصبحت تلك المناطق المضروبة في ابي رمانة والمركز الثقافي السوفيتي وبيت ممثل الامم المتحدة وغيرها اشبه بالمناطق السياحية .

وهم ايضا .. يتحدثون عن خسائر سلاح الطيران السوري .. ويرونها شيئا طبيعيا ويبدون استعدادهم لمزيد من التضحية .



وعندما كنت في دمشق .. سمعت الكثير ايضا عن قصص ابطال سلاح الجو السوري الذين اصبح بعضهم كنجوم السينما .. وبعض هؤلاء الابطال قد منح اوسمة من الدولة ..

وهؤلاء النجوم قد اصبحوا هدفا دائما لمراسلي الصحافة من كل انحاء العالم .. حتى قررت القيادة تحديد هذا اللقاء .. لان وقتهم اصبح مشغولا بهذه الاستقبالات !

والحديث مع بطل جوي... غير الحديث مع بطل بري .. فالجندي في البر عادة تجده مشعثا .. متربا تبدو عليه اثار المعركة فعلا ..

اما الطيار .. فغالبا ما يكون مرتديا بدلته الفضائية .. أنيقا .. حليقا . يبدو وكأنه قادم من امام المرآة على الفور !.. وليس من ميدان قتال ! .

وربما ساعد على هذا الانطباع عندي وعند غيري .. انه لا يتيسر للمرء سواء كان مراسلا حربيا او غيره ان يرى الطيار وهو يقاتل ..

انه من السهل ان ترافق جندي مشاة في دبابة او سيارة .. اما الطيار فليس ذلك سهلا ..

كانت هذه الافكار تطوف براسي .. وانا ادخل القاعدة الجوية السورية لالتقي ببعض الابطال ..

الطيار علاء الدين عابدين .. شاب وسيم ضاحك الوجه .. لا يزيد عمره عن ٢٦ عاما .. شهرته انه اسقط خمس طائرات فانتوم ..

وهو يعتقد ان علاقته بطائرته الميج كعلاقته بزوجته .. ان طائرته عزيزة عليه جدا .. ويهتم بكل التفاصيل المتعلقة بها ..

« لاني ادمر بها العدو » .. على حد تعبيره

وعلاء الدين عابدين لم يسقط طائرات الفانتوم الخمس واحدة وراء واحدة في معارك جوية مختلفة ..

انه اسقط ثلاث طائرات فانتوم مرة واحدة .. اي في معركة واحدة.. وهو يقول عن نفسه ببساطة ..

ان الامر بسيط وليس فيه شيء غريب .. فما انا الا واحد من عديد من الرجال الذين آمنوا بوطنهم واجادوا استخدام سلاحهم ! ..

ويحكي لنا علاء بعض معاركه ..

ـ كنا مكلفين بحماية طائراتنا المقاتلة القاذفة بينما كانت تقصف قطاعات للعدو كانت تتجمع في جبل الشيخ عندما ابلغنا عن وجود اهداف معادية في الجو ، فتصدينا لها .

ودخلت مع احدى طائرات الفانتوم في قتال جوي .. واستطعت بالمناورة ان اجعلها ترتطم باحدى التلال دون ان اطلق عليها اية قذيفة ..

ثم انتقلت الى هدف اخر كان يحاول ملاحقة احدى طائراتنا فاصبته بصاروخ . ونجا الطياران بنفسيهما من الطائرة الى حيث تنتظرهما قواتنا البرية والشعب بفارغ الصبر ! ..

هنا ابلغني احد زملائي الطيارين ان طائرة فانتوم تحاول اتخاذ وضع استعداد خلفي لتطلق صواريخها على طائرتي ..

فأبلغته اني سابقي نفسي طعما لها وامرته بالاطلاق عليها واسقاطها ففعل ذلك بنجاح ..

ما زالت القصة لم تتم فصولها ..

بعدها شاهدت طائرة تحاول العودة بعد تساقط تشكيلها ، فدخلت معها بمناورة تمكنت فيها ان اضعها في وضع ملائم لتصبح هدفا لي وتمكنت من اسقاطها ، والعودة انا وجميع افراد التشكيل الى القاعدة التي انطلقنا منها . ! ..

هذه حكاية علاء الدين مع الطائرات الفانتوم الثلاث التي اسقطها ..

وهو يعلن امكانية تحقيق ذلك مرة اخرى اذا توفر تعاون كامل بين افراد التشكيل ..



والنقيب محمد الحميدي وعمره ٢٥ سنة فقط .. ومتزوج وله ولدان ..

سألته .. ما اذا كان قد شعر بتهيب وقلق بالنسبة لطائرة الفانتوم قبل ان يلتقي بها فأجاب بصراحة ..

ـ قبل التماس المباشر مع العدو يشعر الانسان بقلق طبيعي ازاء ما يجهله .. ولكن الاحتكاك الحقيقي جعلني اكتشف شخصيا مدى المبالغة والتهويل في قوة سلاح العدو وكفاءته .

واسأله ..

● هل تتفوق الفانتوم على الميج ٢١ ؟ اريد ان اعرف خبرتك في الموضوع

اجاب

ـ ميزات الفانتوم يمكن التغلب عليها بمميزات الميج ٢١ . والطيار يظل العامل الاول والاخير في المعركة .

هكذا حسم طيار سوري اسقط خمس طائرات فانتوم جدلا عقيما بين رواد المقاهي في القاهرة ربما لم ير الواحد منهم طائرة فانتوم او ميج في حياته الا على صفحات المجلات ! ..

● ما رايك يا صديقي في الطيار الاسرائيلي.. هل هو عملاق الجو؟..

اجاب بصدق ..

ـ انه طيار ذو خبرة .. ولكن قيمة خبرته تتضاءل في المعركة امـام اصرارنا على القتال بعنف .

في بداية الاشتباكات كان ينظر الينا كاهداف سهلة المنال تحت تأثير دعاياته النفسية . ولكنـه شيئا فشيئا اكتشف العكس .. فأصبح رغـم امكانية بعض طائراته للبقاء في الجو مدة اطـول .. يهرب من الاشتبـاك احيانا ..

واصبح الطيار الاسرائيلي يعرف اليوم مستوانا .. وانتقل القلـق اليـه هـو .

★ ★ ★

والنقيب قاسم الزغبي عمره ٢٦ سنة .. وهو قد اسقط ست طائرات فانتوم، لا خمس فانتوم وواحدة ميراج .. بل وتمكن من اصابة واحدة غيرها ولكنها لم تسقط ..

ان الزغبي تعرض لتجربة قاسية .. عرف فيها طعم الخوف ولكـن « شجاعة الأنسـان تبرز في استمراره عبر لحظات الخوف .. » على حـد تعبيره .. نستمع اليه يحكي قصة التجربة القاسية التي انقلب فيها مـن شبه هالك الى مهلك لعدوه !

في احد الاشتباكات مع طائرات الفانتوم المعادية دخلت في معركة مع طائرتـين ..

وبدا القتال باتجاه لاعلى حتى ارتفاع سبعة كيلومترات حيث تسنى لي ان اضع نقطة التسديد على الطائرة المعادية وارميها ..

لكني بعد ان اسقطتها فعلا انطفا محرك طائرتي .. فابلغت عن ذلك بالراديو .. واخذت تعليمات بمغادرة الطائرة ..

لكني لم انفذ وتباطات .. وحاولت ادارة المحرك في الجو ..

في الوقت نفسه كانت احدى طائرات الفانتـوم قد استعـدت خلفي لتصيبني .. واستطاعت أن تصيبني فعلا ..

وبدات النار تتصاعد من طائرتي ..

لكني تابعت القتال بالطائرة واستطعـت بالمنـاورة ان استدير خلف الطائرة المعادية التي ضربتني وان اسقطها .. وقفز طياراها بعد لحظـات بالمظلات !

واسالـه :

هل تغير الطيار الاسرائيلي عن حرب ١٩٦٧ ؟

ويجيبني :

لا .. انا خلال طيراني وكل طيار مثلي .. نفكر في شيء واحد .. ارضي .. ووطني .. وعشيرتي .. الذين يعقدون الامل علينا في التحرر..

اما الطيار الاسرائيلي فهو طيار معتد مغتصب ..

وكل من الطيارين السوريين .. يشعر انه ليس بطلا .. ان كل واحد منهم يقول كلاما كهذا الذي قاله الطيار الحميدي :

أحب ان اقول لك بصدق اني جزء من مجموعة تماثلني في القدرة .. ولكن الظروف القتالية التي صادفتني هي التي سمحت لي بتحقيق مـا قمت بـه

وأضاف قائلا ..

واذا كنت في نظر الناس بطلا .. فكلنا ابطال .. ولست افضل من اي منهـم ! ! ..

١٧

تحرير مدينة بالضّغط على الأزرار !

في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ سال المشير احمد اسماعيل اللواء فؤاد عزيز كيف ستحرر القنطرة شرق .. اجاب قائد الفرقة ١٨ : ساضغط على ازرار بمجرد صدور الامر !

شعور غريب ذلك الذي انتابنا ونحن ندخل مدينة « محررة » .. عندما أخذونا الى مدينة القنطرة شرق التي قال عنها البلاغ المصري انها اكبر مدينة في سيناء ..

ربما لم نحس ونحن في صحراء سيناء المحررة بمثل ما احسسنا به ونحن نجوس خلال القنطرة شرق .. ها هي مدينة فعلا .. الوطن مجسدا في جدران وبيوت .. ومقاهي محطمة حقا وقد تناثرت مقاعدها وتبعثرت كانها الشظايا . وهذا مسجد طارت مئذنته وكنيسة سقط صليبها ..

والمدينة خراب .. ولكنها مدينة .. هنا اناس كانوا يعيشون ويذهبون الى اعمالهم في الصباح .. والاولاد تذهب للمدارس .. والشبان الصغار يغمزون للفتيات بعيونهم .. والنساء يجمعن البرتقال في بساتين الضفة الغربية عند القنطرة غرب ...

ثم في ٨ يونيه ١٩٦٧ احتل الاسرائيليون المدينة ..

وارتفعت اللافتات في الطرق والشوارع باللغة العبرية ترشد الى

الطريق .. الى المحافل والمرافق .. وعلى باب البلدية كتبوا لافتة باللغة العبرية .. بلدية القنطرة شرق ..

المدينة لبست اردية الحداد السوداء .. ولفها الحزن والكمد ..

الصورة مختلفة .. كل شيء قد حدث في أربعة ايام .. بدات الحرب في ٥ يونيه .. وعندما كانت فوات الجيش المصري تتجه الى غزة والعريش ايام ٣ و ٤ يونيه كان الشبان في المدينة وقد ملأ صدورهم الحماس يخلعون ثيابهم المدنية ويرتدون ثيابا عسكرية ويرافقون قوات الجيش النظامي الى العريش .

ثم اربعة ايام فقط او اقل .. كانت الصدمة ..

اختفت البسمة من على الوجوه لتحل محلها الدهشة الواجمة .. الجنود الذين كانوا يدقون الارض بأقدامهم ويثيرون عاصفة من التراب كتلك التي تثيرها سنابك الخيل الزاحفة في جراة .. وقد عادوا حفاة .. يجرون في ذعر . وهم ايضا مدهوشون كيف حدث هذا .. ولماذا ؟ ..

وعبر الشبان والنساء والرجال والاطفال القنطرة شرق .. الى الغرب ..

ويحكي لي طاهر الاسمر رئيس المدينة حكايات « يشيب لها الولدان » من هولها كما يقولون ..

كان الجنود الاسرائيليون يصفون الجنود المصريين المنسحبين صفوفا .. ويقف الضابط الاسرائيلي ويصوب بندقيته او مسدسه أو مدفعه الرشاش .. يقتل الارقام الفردية من الصف .. عسكري رقم واحد ورقم ٣ ورقم خمسة وهكذا ..

نوع من تسلية الفاشست الجدد بارواح الاسرى .. هؤلاء الاوغاد الذين تصايحوا بالامس على حجز سوريا لاسماء الاسرى الاسرائيليين!!...

ويروي لي عم محمود وهو من القلائل الذين بقوا في القنطرة شرق طوال احتلالها .. حكاية اخرى عن تلك الايام السوداء ..

كانت الطيارات الاسرائيلية تصب النابالم صبا على فلول الجيش المصري وهي تنسحب .. لم تكن تحارب .. وانما تتجه مجردة من السلاح بل حافية القدمين .. عطشى جائعة نحو الضفة الشرقية للقناة لتعبر لتعود الى مصر .. ومع ذلك كانوا يصبون عليهم النابالم ليحرقوهم حرقا ..

و .. وعشرات الحكايات عن فظائع اولئك الاسرائيليين .. وان المرء ليعجب كيف ان رد الفعل المصري والسوري كان رقيقا وانسانيا بشكل عام .. ولكن ليس هناك عجب .. فهؤلاء المصريون والسوريين يمتدون بجذورهم الى اعماق حضارات انسانية بعيدة بينما اولئك اليهود الذين اغتصبوا

اسرائيل ليسوا اكثر من شذاذ آفـاق يحاولون تجميـع اشتـات حضارات مختلفة في حضارة جديدة مفتعلة ..

جاءت الدبابات الاسرائيلية وحاصرت المدينة واحتلتها ..

هرب الناس .. لم يستطيعوا ركوب القطار لان كوبري الفردان كان قد دمر .. فعبر البعض القناة سباحة . والبعض وجد زوارق ، بل عبر البعض على الواح من الخشب !

وكانت مناظر مؤسية مثل منظر الام التي تركت وليدها ثم عـادت لتأخذه فلم تجده .. هذا المنظر المالوف في كل الحروب تقريبا ..

واصبحت البلدة خاوية معتمة ..

ولكن بقي فيها عدد قليل .. ربما بضع مئات يتناقصون باستمرار . اذ كان الاسرائيليون ينقلون من يشكون في علاقته من اهل المدينة بالقوات المصرية الموجودة على الضفة الغربية الى الشرق او الى العريش .. ومع ذلك ظلت جذوة المقاومة مشتعلة .

كان اهل المدينة يزعجون السياح الذين كانـت اسرائيل تاتـي بهم لتفرجهم على المدينة المصرية المحتلة .

واستطاعت المقاومة السرية فيها ان تفجر عدة مخازن ذخيرة للجيش الاسرائيلي بعد أن اصبحت المدينة مركزا عسكريا هاما ..

تقريـر سري

ولربما كان من المهم مطالعة تقرير سري قدمه طاهر الاسمـر رئيس مدينة القنطرة غرب عن تلك الفترة . وترجع اهميته انه يكشف لنا الفرق بين الامس واليوم ..

وهي صورة لقطاع من الهزيمة عن مدينة القنطرة شرق التي سقطت في يونيه عام ١٩٦٧ .. وتحررت في اكتوبر ١٩٧٣ ..

جاء في التقرير السري :

في صباح الاربعاء ١٩٦٧/٦/٧ استقبـل المستشفي بمدينة القنطـرة غرب اولى الحالات من سيناء .

ـ في مساء اليوم نفسه قذفت طائرات العدو منطقة جباسات البلاح وتم اسعاف الجرحى ونقلهم الى المستشفى بعد الانتقال لموقع القذف الجوي والتاكيد من تنفيذ المواطنين لتعليمات الدفاع المدني .

ـ وفي المساء ايضا فوجيء مجلس المدينة بعبور الآلاف من اهالـي القنطرة شرق نساء واطفالا ورجالا بالقاء انفسهم في قناة السويس وفـي القوارب واللنشات وهم في حالة ذعر شديد .. ولم يكن هناك اي ترتيب

او خطة لايواء هذا العدد الضخم .. ونجح المجلس في ايوائهم اذ فتح لهم المساجد والمدارس ومركز الشباب وقدمت لهم كافة الخدمات وامكن السيطرة على الموقف . القضاء على الذعر الذي أصاب بعض الجنود وخوفا من انتقاله الى اهالي مركز القنطرة غرب وتم السيطرة والتهدئة رغم القذف الجوي وهلع مواطني القنطرة شرق .

في صباح الخميس ١٩٦٧/٦/٨ .. زاد عدد المواطنين والجنود القادمين من القنطرة شرق وفي الساعة ١١٫٣٠ صباحا قذفت طائرات العدو مدينة القنطرة غرب مما ادى الى ترك بعض المواطنين مدينة القنطرة غرب الى القرى والعزب الخلفية ..

ـ وبديء في تشكيل المقاومة الشعبية من ابناء المدينة في حين لم يكن السلاح قد وصل بعد ؟! .. واستمر تدفق الجنود بلا تنظيم وكان كل فرد يترك سلاحه ، وزاد القصف الجوي والمدفعي من العدو ..

كيف احتلت مدينة القنطرة شرق عام ١٩٦٧ ؟

● في الساعة ٣٫١٥ مساء نفس اليوم ١٩٦٧/٦/٨ واثناء تواجدي في المكتب حضر احد موظفي المجلس واخبرنا باقتراب القوات الاسرائيلية من اطراف مدينة القنطرة شرق .. ودخل العدو القنطرة شرق وقصف مدينة القنطرة غرب بدباباته وهاوناته ورشاشاته وطائراته ـ وتركتها جميع الاجهزة الادارية والتنفيذية والعسكرية والسياسية ..

● في تلك اللحظات الحرجة والصعبة التي كانت المدينة فيها خالية تماما من جميع الاجهزة ـ ولم تكن هناك اي قوات للدفاع عن المدينة وكانت احدى المعديات سليمة على الضفة الشرقية للقناة ولم تنسف كزميلتها التي نسفها المهندسون العسكريون بالضفة الغربية .

● كان من الممكن ان يستعمل العدو المعدية السليمة الموجودة بالضفة الشرقية للعبور بها للضفة الغربية . وكان العدو موجودا بعرباته النصف جنزير امام الجمرك على المياه مباشرة

● ولولا التصرف السريع من مجلس المدينة الذي نظم اربعة عشر من العاملين بمجلس المدينة وبعض المواطنين والوقفة الشجاعة للدفاع عن المدينة باسلحة تركها بعض الجنود الشهداء رغم صعوبة الموقف وحساسيته البالغة ..

● وامكن استعمال عربة مدرعة استشهد طاقمها كانت موجودة على

ضفة القناة واطلاق النيران على العدو والاشتباك معه برشاشات واسلحة العربة ـ وتراجع العدو بعد ان نجحنا في اشعاره بوجود مقاومة مسلحة بالمدينة .. (قام المجلس بتسليم العربة المدرعة الى الشرطة العسكرية في صباح الجمعة ١٩٦٧/٦/٩) .

● وفي هذه اللحظات وفي الساعة ٥،١٥ مساء نفس اليوم وصل القطار القادم من بور سعيد والمتجه الى الاسكندرية مشتعلا بالنار بعد ان ضربه العدو بالنابالم عند قرية الكاب وكان مزدحما بالركاب المهاجرين من بور سعيد ـ ووقف على رصيف محطة القنطرة ـ وعلى الفور قام المجلس باسعاف ونقل الجرحى بواسطة عربات نقل من هيئة القناة الى المستشفى الاميري بالاسماعيلية وتهدئة روع الركاب ونقلهم الى طريق المعاهدة وتسهيل نقلهم الى الاسماعيلية بواسطة عربات النقل .

● ثم قام عمال المجلس وبعض المواطنين باطفاء عربات السكة الحديد المشتعلة وبذل جهد كبير في الاطفاء تحت ظروف القصف والاشتباك مع العدو بهاوناته ورشاشاته من عرباته المدرعة ودباباته .

● تعطلت التليفونات وقطع الاتصال الخارجي نظرا لترك موظفي وعمال السنترال لوجوده على ضفة القناة .

● تم استعمال خط تليفون هيئة قناة السويس من مكتب الارشاد على ضفة القناة امام العدو رغم هذه الظروف الخطيرة والالاف يفرون من الموت والعدو على بعد امتار واستمر المجلس في تبليغ الموقف اولا باول الى السيد الفريق اول مرتجى الذي كان موجودا بالاسماعيلية والسيد الفريق صلاح محسن والسيد محمد مبارك رفاعي محافظ الاسماعيلية والسيد مشهور احمد مشهور رئيس هيئة القناة بالاسماعيلية والسيد محافظ بور سعيد واعطائهم الموقف تماما وبأمانة ، ادت الى اثار كبيرة بعد ذلك .

● كذلك طلبنا اسلحة للعبور للضفة الشرقية للقناة ومهاجمة العدو .

● وبعد الاشتباك المستمر من العاملين وبعض المواطنين الـ (١٤) مع العدو باسلحة بعض الجنود الشهداء وعندما بدأ الظلام يحل انسحب العدو الى الخلف في القنطرة شرق وثبت المجلس في مكانه ولم يترك شاطىء القناة .

● وقد استعمل المجلس جهاز لاسلكي رئاسة الجمهورية والذي تركه العاملون عليه والذي كان موجودا بالمدينة وتبليغ الموقف العام للمسئولين

بالقاهرة فقد كانت توحي الصورة بان مدينة القنطرة غرب قد سقطت مع العدو لولا تصرفات المجلس الحكيمة بتصحيح الوضع وابلاغ الصورة الصحيحة بعدم سقوط القنطرة غرب .

● ونتيجة اتصالاتنا بالجيش والتأكيد بعدم سقوط القنطرة ـ دخلت احدى تشكيلات القوات المسلحة مدينة القنطرة غرب الساعة ١٠٣٠ صباح يوم الجمعة الموافق ١٩٦٧/٦/٩ بقيادة العقيد صبري النجدي (كتيبة مشاة والنقيب بشر (كتيبة صاعقة) .

وقام المجلس بارشادهم الى مواقع العدو (في شرق القناة) وساعدهم في احتلال المواقع الدفاعية .

● ولم يكن يوم الجمعة ١٩٦٧/٦/٩ بأقل من يوم الخميس .. فبعد ان استقبل المجلس القوات المسلحة التي دخلت المدينة في الساعات الاولى .. خصص ـ لقيادة التشكيل العسكري جزءاً من مبنى مجلس المدينة ـ وجزءا آخر لشئونه الادارية وساعد المجلس التشكيل في تجهيز واختيار اماكن لنقط استطلاعية وحفر واعداد مواقع اسلحته . وكان قائد التشكيل في هذا الوقت هو اللواء الشاذلي ـ وقواته كانت مقيمة بالمجلس .

● ونتيجة للقصف الجوي واحداث القطار وترك اهالي القنطرة شرق مدينتهم اقفلت التجار محلاتها وتركت المدينة . فقمت بفتح بعض منها بمعرفة المجلس وتعيين عمال فيها .

● ونظرا لحالة الذعر التي دبت بين عمال الفرن الذين تركوه قام بعض من عمال المجلس بتشغيل الفرن وبيع الخبز للمواطنين وافراد القوات المسلحة العائدين من سيناء والمواطنين الذين كانوا يفدون من القرى والعزب الخلفية للمركز وكذلك تم احضار العاملين بسرعة حتى تعود الحياة طبيعية بمحطة مياه وكهرباء السكة الحديد لتغذية المدينة بالمياه والكهرباء حيث كان مرفقا المياه والكهرباء تحت ادارة السكة الحديد واشراف المجلس .

● يوم الجمعة ١٩٦٧/٦/٩ .. حان موعد صلاة الجمعة ـ فكلف السيد رئيس المجلس احد العاملين بالمجلس بالصلاة بالمواطنين بالمسجد الكبير بوسط المدينة رفعا للروح المعنوية بعد ما تركه العاملون بالمسجد .. وكان ذلك من ضمن اجراءات اعادة الحياة للمدينة رغم اللحظات الخطرة ـ وانعكس ذلك على افراد القوات المسلحة .

● في ١٩٦٧/٦/١٠ قام مجلس المدينة بالتعاون مع المخابرات الحربية المصرية بارسال بعض اهالي سيناء والمقيمين بالقنطرة غرب الى صحـراء سيناء لارشاد التائهين من افراد القوات المسلحة واحضارهم بعيدا عن اماكن العدو ونقلهم الى الضفة الغربية بواسطة قـوارب الصيـد ـ من الكـاب والقنطرة والبلاح ـ وتقديم العلاج والطعام لهم بالاضافة الى جمع ونقـل السلاح والذخيرة من الصحراء وتسليمهـا للمخابـرات الحربية المصريـة (العقيد علي احمد ـ الرائد مدحت) وفي خلال يومين تم نقل اكثر مـن ثلاثة آلاف جندي .

وكان يتضح لنا اكثر فاكثر ازدياد اعداد الجنـود الشاردة باعـداد كبيرة للغاية وظروفهم سيئة للغاية وكان بعضهم يغرق في القناة وبعضهـم يعبر الى الضفة الغربية سباحـة .

● في ١٩٦٧/٦/١١ اقتـرح السيد محافـظ الاسماعيليـة ارسال بعض الاطباء لعلاج الجنود في الضفة الشرقية للقنـاة .. وامكن بمعرفـة المجلس بلا اي مساعدة خارجية من اي جهة مدنية او عسكرية تدبير زورق لعبور الاطباء الى الضفة الشرقيـة للقناة للاتصـال بالجانب الاسرائيلي . واتصل الاطباء بالجانب الاسرائيلي منتدبين عن مجلس المدينة وعرضوا على الجانب الاسرائيلي مهمتهم في المساعدة لعلاج الجنـود .. وذلك للوصول الى الهدف المطلوب وهو استقبال الجنود العائدين ..

● وفي الايام الاولى لاستقبال الجنود العائديـن والمواطنـين باعداد كبيرة طلب العدو ضخ المياه من القنطرة غرب للقنطرة شرق .. والا سيوقف عمليات التسليم .. وقد وافق السيد رئيس المجلس على هذا الطلب بعـد عرض الامر على السيد المحافظ وموافقة الجهات العليا حتى يمكن استمرار استقبال الجنود وقد استمر ضخ المياه لمدة ٢٠ يوما .

● وبذلك امكن استلام اكثر من (١٣٤١٠ ثلاثة عشر الفا وأربعمائة وعشرة من الجنود العائدين بجانب ثلاثة آلاف مدني مـن سيناء والقنطرة شرق .

● بحصـر الاسر المتبقيـة بالقنطـرة شرق تبين ان عددهـم كـان يبلغ ٢٥٠ اسرة مكونة ١٥٠٠ (الف وخمسمائة فرد) .

● وقد تمت اعاشتهم بضخ المياه وارسال الخضروات والمأكولات .

وتم ارسال مندوب بنك التسليف وفتح مخازن القنطرة شرق وصرف الدقيق والتموين لهم وذلك تحت ظروف الاحتلال الاسرائيلي ، لاعاشة مواطني سيناء من (البدو) وتوزيع الدقيق عليهم والمواد التموينية

● صدر قرار بالتصديق على تعيين السيد رئيس مجلس مدينة القنطرة غرب قائدا للمقاومة الشعبية في قطاع القنطرة (من رأس العش شمالا للفردان جنوبا) .

● تم وصل السلاح والذخيرة والالغام والقنابل للقطاع وارسل ٢ مدربين من الجيش لتسليم وتدريب افراد المقاومة الشعبية .

● وفي يوم ١٩٦٧/٦/٢٩ شكلت ٧ قطاعات للمقاومة الشعبية من ابناء القرى والعزب التابعة لمركز القنطرة وفي قطاعات :

أ ـ المدينة ـ الكاب وام خلف ـ البياضية والحرش ـ الرياح وعزبها ـ الجزيرة وعزبها ـ البلاح (مصانع جباسات البلاح ـ والعزب المجاورة .

● قامت هذه القطاعات فورا باستلام السلاح والذخيرة وحفر المواقع الدفاعية واحتلال المواقع الموضحة بالخطة الموضوع .

● قامت هذه القطاعات والمزارعين باستقبال القوات المسلحة ومساعدتها في حفر المواقع واعداد المخابىء اللازمة لها .

● وقد عاد بقية المزارعين الى قراهم وعزبهم واستأنفوا زراعة اراضيهم مما ساعد على رفع الروح المعنوية للقوات المسلحة الموجودة بالمنطقة .

● قامت المقاومة الشعبية بمدينة القنطرة بحفر خنادق ودشم على القناة مباشرة بين سرايا القوات المسلحة لسد الثغرات والربط بينها بالتنسيق مع القيادة العسكرية بالمدينة ـ وكان يتم الاحتلال لهذه المواقع في اخر ضوء والانسحاب منها في اول ضوء اليوم التالي (مع مراقبة تحركات العدو ـ وكتابة تقارير وتقديمها للقيادة) .

● تم تدريب جميع قطاعات المقاومة الشعبية بالقرى والعزب .

هكذا كانت الصورة عام ١٩٦٧ ..

والقنطرة شرق هي اقرب المدن في سيناء الى الدلتا المصرية بل هي

المدينة الوحيدة الواقعة على شرق قناة السويس ونصفها الاخر هو القنطرة غـــرب ..

ومن هنا كان تحريرها ذا اهمية سياسية كبيرة .. لم يكن في تخطيط القيادة المصرية من البداية تطويقها مثل بعض نقاط خط بارليف وتركهـا كجيب .. بل كانت الخطة الاستيلاء عليها باسرع ما يمكـن للاثر المعنوي الكبير الذي تحققــه .

والقنطرة شرق فوق قيمتهـا السياسية فهي محور هام على ساحـل البحر الابيض اي من يحتلها يسهل عليه التقدم في اتجاهه .. ومن هنا فان الاسرائيليين قد اقاموا بها تحصينات كبيرة .

ففضلا عن نقاط خط بارليف الحصينـــة الاربع المتجاورة التي تشكل في حد ذاتها عائقا ضخما في وجه اية محاولة لاحتلال المدينة ، فان العدو قد جهز المدينة من الداخل بتحصينـــات متنوعة من الملاجىء والدشم وكمائن المدافع واحاطوها كلها بسـاتر ترابي .. وكان بالمدينـــة مخازن للذخيـــرة والطعام والمياه تكفي لمقاومة حصـار يستمـــر ثلاثة اشهـــر اذا لم تستطـــع احتياطياته الرابضة على بعد قريب فك ذلك الحصار .

وكان على القوات المصرية في الغرب ان تضع في اعتبارها ان الضفـــة الشرقية للقناة حيث مدينة القنطرة شرق اعلى من الضفة الغربيـــة اي تسيطر عليها سيطرة كاملة كما ان منطقة القنطرة غرب ارض زراعية سهلة منبسطة ولذلك كان بوسع « ناضورجي » العدو في الابراج مشاهدة كل شيء على مدى خمسة عشر وعشرين كيلو مترا ..

كان الموقف صعبا امام الفرقة ١٨ التي انيط بها مهمة الاستيلاء على القنطرة بجانب مهامها الاخرى التي كلفت بها الفرق الاربع الاخـــرى التي عبرت القنـــاة ..

ولذلك كان اللواء فؤاد عزيز محقا عندما اجاب المشير احمد اسماعيل وهو يسأله كيف ستحرر المدينة فاجاب ساضغط على الازراربمجرد صدور الامـــر ..

لقد كان يعني .. ان الامر يحتاج الى معجزة .. الى قوة اليكترونية خارقة ولكنه قبل هذا كـــان يعني انه واثق من قدرته وقـــدرة قواته على تحقيق تلك المعجزة !.

وعندما حلت ساعة الصفر .. عبرت قواته واحتلت مواجهة نقطتين عاليتين ثم اندفعت القوات تحكم حصارا حول القنطـــرة .. واستغرقـــت الدورية الاولى التي بدأت الحصار خمســا وثلاثين دقيقة فقط ..

ثم بدات القوات الرئيسية تقتحم المدينة من شمالها وجنوبها ..
وبعد ثلاث ساعات ونصف تلاقت القوتان المهاجمتان من الشمال والجنوب حسب التوقيت المخطط سلفا .

ولكن بعد ١٨ دقيقة قام العدو بهجوم مضاد .. ورد الهجوم بعد أن وصل العدو لمنتصف المدينة ..

وفي المساء بدأ هجوما مضادا كبيرا من ٤٥ دبابة وعدد من المشاه الميكانيكية ..

وقد استطاعت الفرقة ١٨ ان تبيد الجناح الايمن للهجوم الاسرائيلي ولكن بضعة دبابات استطاعت اختراق المقاومة المصرية ودخلت القنطرة .. حيث كانت القوات المصرية قد نجحت في ابادة الهجوم الاول الذي كان قد وصل الى منتصف المدينة .

ولكن الاسرائيليين استطاعوا مع ذلك اضعاف احكام الجيش المصري لسيطرته على القنطرة بنجاحهم في ضرب المعابر وخاصة الكوبري المواجه للقنطرة مما خفض عدد الدبابات التي تعبره الى السبع .
وفي نفس الوقت قام بهجوم مضاد جديد مستخدما الانوار الكاشفة للدبابات ليشل الرؤية .

لكن مجموعة بقيادة المقدم ناجي الحبشي تصدت لذلك الهجوم المضاد ودمرت ستا من دباباته وحرقت يد المقدم ناجي في ذلك الهجوم وحصل على نجمة سيناء بعد ذلك ..

خلال هذه الهجمات المضادة للعدو على القوات التي احتلت سيناء كانت القيادة المصرية مصرة على عدم اعلان احتلالها .. لانه كما قال لي المشير احمد اسماعيل كانت القيادة تعتبر ان كل هجوم مضاد بمثابة عودة للاسرائيليين الى الاستيلاء على القنطرة ما داموا يدخلون شوارعها ..
وفي النهاية بعد حرب شوارع استمرت يوما كاملا امكن تطهير القنطرة شرق من قوات العدو واعلن تحرير القوات المصرية لها .. وتم تطهير النقطة الحصينة الثالثة التي كانت مقر البلدية .
وبلغت خسائر العدو في القنطرة ١٩ دبابة و ١٣ مركبة نصف جنزير وقتل واسر حوالى ٣٥٠ جنديا من جنود العدو .

★ ★ ★

وقد ساعد الاستيلاء على مدينة القنطرة شرق على صد هجمات اسرائيلية كبيرة تمت بضغط من الجنرال شارون الذي كان يطالب بالحاح ضرورة ضرب القوات المصرية باقصى ما يمكن من القوات للحيلولة دون تعميق رءوس الكباري .

بينما كان الجنرال صموئيل جونين قائد المنطقة الجنوبية يرى تأخير الضربة المضادة الشاملة الى بعد وصول الاحتياطي الاستراتيجي المدرع .
لكن شارون تجاهل تعليمات جونين واندفع بقواته المدرعة في اتجاه القناة وسار بتلك القوات حوالى مائتي كيلو متر على الجنازير بعدما تعذر عليه الحصول على عدد كاف من ناقلات الدبابات .

وقد هاجم الاسرائيليون بمائتي دبابة لكن قبضة القوات المصرية على القنطرة مكنتها من افشال الهجوم بل والحاق خسارة ١٢ دبابة من دبابات العدو مما أجبره على الانسحاب شرقا لاعادة تنظيم قواته . وما اسرع ما كان ينظمها ويعاود الهجوم اذ بدأ في اليوم التالي هجوم اللواء ١٩٠ الذي حكينا قصته .. والذي استطاع جناح قوات الفرقة ١٨ بقيادة عزيز غالي بعد تحرير القنطرة مساندة هجوم الفرقة الثانية على ذلك اللواء والفتك به .

★ ★ ★

وقد ذكر البلاغ الحربي الذي صدر بعد تحرير القنطرة ان الشعب قد شارك القوات المسلحة في تحرير المدينة .

وهذا صحيح .. ولكن لا يجب المبالغة في عددهم . بل ان عددا كبيرا من المدنيين الذين شاركوا في تطهير المدينة جاءوا من القنطرة غرب بعد سقوط المدينة ولعبوا دورا بطوليا .

لقد فوجىء اهالي المدينة القلائل الباقين بشيء لم يتوقعوه قط في مثل ذلك الوقت من النهار بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر .

جنود مصريون يعبرون ويقتحمون نقاط خط بارليف عند المدينة .

فتحمس الناس وهجموا مع الجنود بطريقة تلقائية دون ان يكون معهم سلاح . حمل بعضهم الاحجار .. حمل بعضهم حتى اكياس الرمل يلقي بها على الجنود الاسرائيليين .

ودخل بعضهم مع الجنود المصريين في سراديب عش النحل يبحثون عن جنود العدو المختبئين كالفيران المذعورة .

قال لي عطاالله متري الترزي القديم في البلدة : بايدي دول خنقت جندي اسرائيلي في اودته بالدشمة !

ويحكي لي الجندي سمير الذي كان ميكانيكيا في دسوق :

ونحن نطهر المدينة من القوات الاسرائيلية .. رايت بناية عالية طار سقفها .. وكنت اتصور انها خالية من العدو .. ولكني لمحت خيال شخص يتحرك داخل احدى النوافذ .

القيت قنبلة يدوية في مدخل المبنى .. فجاة انطلقت الرشاشات علي من عدة اماكن .. رقدت على الارض .. وبدات افكر : لا بد ان عددا من الجنود وليس واحدا فقط موجودون داخل البناء .

كان عدد من زملائي قد جاءوا .. بعد ان سمعوا صوت الرشاشات فاقتحمنا المبنى من كل الاتجاهات .. حتى من عمارة مجاورة وقفز بعضنا الى داخله ..

كانت النتيجة قتل تسعة عشر جنديا من جنود العدو واسر ثلاثة عشر .. فقد كان بالمبنى اثنان وثلاثون جنديا اسرائيليا .

★ ★ ★

ولقد اشرنا من قبل الى ان عددا من اهالي القنطرة غرب قد هرع الى القنطرة شرق بمجرد سقوطها في ايدي قوات الفرقة ١٨ .. واشترك مع تلك القوات في تطهير المدينة ..

والذي حدث بعد تحرير القنطرة ان رئيس مدينة القنطرة غرب طاهر الاسمر (سكرتير عام محافظة بور سعيد الان) قد اصبح رئيسا للقنطرة شرق ايضا . واذا كان اهل القنطرة غرب قد لعبوا دورا اثناء نكسة ١٩٦٧ .. قرانا عنه صفحات سابقة .. فان الصورة كي تكمل عن تحرير القنطرة شرق لا بد أن تشمل دور اهالي تلك المدينة في الغرب .. ومعظمهم من الفلاحين وعدد من موظفي الحكم المحلي ..

لنقرأ ايضا تقريرا سريا عن ذلك الدور قدم للمسئولين ..

منطقة القنطرة غرب تقع في محورين للعمليات العسكرية المحور الشمالي الذي كانت في مواجهته ٧ سبع نقط حصينة والممتد من الكاب حتى جنوب جزيرة البلاح (قطاع الفرقة ١٨ مشاة) والمحور الاوسط الممتد من جنوب جزيرة البلاح حتى الفردان (حدود مجلس المدينة) والاسماعيلية (الفرقة الثانية مشاة في مواجهتها ٤ اربعة نقط حصينة منهم اثنين في

القطاع المواجه للمجلس . ومن هنا كنا نعيش في قلب معركة العبور وعمليات العدو في الهجوم المضاد وغاراته المكثفة .

● ان معظم قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ومرابض الدبابات ومواقع المدفعية والطرق العسكرية والمدقات التي انشات كلها تواجدت بين المزارعين ووسط زراعاتهم وحدائقهم وكانوا خير حماةلها قبل العبور كما كانوا اشجع حماة لها وتامين ظهرها رغم كثرة الغارات الجوية التي بلغت اكثر من ٢٥ طلعة في اليوم الواحد وقد تعرضوا لمحاولات العدو للنيل من قواتنا والتاثير عليها بين الارض الخضراء .

● لقد كان للخطة الناجحة والالتحام الكامل والثقة المتبادلة بين الادارة المحلية وحوالى ٤ اربعة آلاف مواطن تواجدوا في فترة التحرير بالمنطقة ابلغ الاثر في الالتزام بتعليمات واوامر الدفاع المدني والشعبي وتعليمات الوحدات العسكرية وكان لكل فرد في المنطقة واجب مكلف به سواء في مجالات الدفاع المدني أو الدفاع الشعبي او الخدمة الوطنية .. وقد قام المجلس ببعض الاجراءات التي تضمن سلامة المواطنين والتزامهم بالخطة الموضوع .

● وقد استدعى الامر للسيطرة والمتابعة لتنفيذ الاجراءات المطلوبة والتعليمات بسرعة **ان تتحول الجمعيات الزراعية الى وحدة قيادية لها كل الصلاحيات لخدمة المنطقة والتعاون بين كل منها عند الضرورة بانشاء لجنة قيادية مكونة من :**

١) المشرف الزراعي مدير الجمعية
٢) امين وحدة الاتحاد الاشتراكي في الوحدة
٣) رئيس مجلس ادارة الجمعية الزراعية
٤) المشرف التعاوني للجمعية الزراعية
٥) مزارع يمتاز بالقدرة على الحركة ويعين مشرفا للدفاع المدني في المنطقة ويحوز ثقة الجماهير .

وقد استطاعت تلك القيادات المحلية القيام باجراءات لربط النضال الشعبي بالنضال العسكري النظامي فقررت :

★ عدم صرف اي خدمات من الجمعيات الزراعية الثلاث الموجودة في المنطقة للمزارعين الا بعد التاكد من ان كل فرد له حفرة او خندق امام منزله او ارضه تحميه من الغارات الجوية وله واجب في فصائل الخدمة العامة مدرب عليها ومجندمن اجلها كاصلاح طرق وترع او اطفاء حرائق .

★ عدم صرف اي تصاريح اقامة او سحب التصريح لاي مواطن يقصر في اداء اي واجب مكلف به وقد التزم الجميع بالتعليمات .

وكانت النتيجة انـه :

● رغم آلاف القنابل المحرمة دوليا (قنابل البلى) والقنابل الاخرى زنة ألفي رطل والقنابل الزاحفة وقصف الطيران والمدفعيات على جنودنا بين المزارعين او على المزارعين بين الجنود فانه لم تحدث خسائر بالارواح ما عدا بعض الخسائر المادية التي لم تؤثر في ادارة الجميع هنا .

● وبرغم قسوة الحياة المعيشية وعدم وجـود سكن صحي لائـق للعاملين بمجلس المدينة واجهزة الخدمات فان العمـل في مجلس المدينـة استمر ليل نهار واعطى ذلك بلا جدال او فخر الشكل الكامل لوجود حكومة صغيرة بين المواطنين والجنود والتفت حوله جميع اجهزة الخدمات التـي عملت بكل كفاءة ووفرت جميع الاحتياجات وحاز على احترام وثقة القيادات العسكرية المختلفة قبل العبور واثناءه وبعده .

ومن هذا كله يمكن ان نصل الى نتيجة اكيدة ومؤكدة . . ان هذا القطاع تواجد في قلـب المعركـة وعايش وتعايش مـع جنودنا قبـل العبـور . . **كما عبروا خلف جنودنا لتقديم الوجبات الساخنة والخبز والمساعدة فـي حمل صناديق الذخيرة مما جعل العدو يركز في اثناء عمليات الهجوم المضادة في الفترة قبل ايقاف النيران بعنف شديـد على المنطقـة كما هو ثابـت عسكريـا .**

● استمر فرعا الجمعية المركزية للجملة والجمعية الاستهلاكية فـي العمل وكان الامداد مستمرا بالمواد التموينية اللازمة والدقيق بالرغم من وجود مخبز واحد بعين واحدة وليس لديه القـدرة لخدمـة المستبقـين والمواطنين والجنود الذين ازداد عددهم في المنطقة الا انه امكـن بالعلاقـة الوثيقة بين المجلس وعمال المخبز والتوجيه والتوعية المستمرة لهم ورعايتهم وتشجيعهم الاثر الكبير في توفير الخبز في المواعيد المقررة وبالكميات المطلوبة كلما امكن حيث ان مئات الجنود كانوا يعبرون مـن الشرق للحصول على الخبز والمواد التموينية وكثير من الاحيان قدم المواطنون والعاملون كثيرا من استحقاقاتهم من مقرراتهم التموينية الخاصة بهم لافراد القوات المسلحة .

ــ وكذلك امكن توفير المواد البترولية والكيروسين والاحتياطي اللازم لاسوأ الظروف في حالة عزل المنطقة من الجمعيـة التعاونية للبترول فـي

صهريجين قد تم انشاؤهم قبل ٦ اكتوبر ١٩٧٣ وتحصينهم وادى ذلك الى خدمة عربات المجهود الحربي التي كانت تلجأ في حالة الطوارىء الى هذا المخزون ويتم استعواضه فورا .. وكذلك كان يتم امداد المخبز وماكينة الطحين وماكينات الري بالسولار .

● قامت الوحدة الصحية بالاسعافات الاولية لعدد سبعين حالة اصابة لجنودنا العابرين وافراد الدفاع الجوي بكفاءة تحت اشراف المجلس.
– وكانوا ينقلون الى الوحدة بعربات القوات المسلحة التي كانت تتركهم وتعود الى مواقعها شرق القناة او غربه .
– بعد اسعافهم كلفت عربة الاسعاف الموجودة بالمنطقة بنقلهم الى المستشفى .

● تعرضت المنطقة الى عدة حرائق بلغ عددها ١٢ حريقا نتيجة قصف العدو او اطلاق الصواريخ المصرية المضادة للطائرات او سقوط الطائرات ولتواجد القوات وسط الحقول بالقرب من قناة السويس كان اطفاء الحرائق كان يتم بسرعة كبيرة بواسطة عربة الاطفاء بالمنطقة ومتطوعي الدفاع المدني وافراد الخدمة العامة مستعينين بكل الوسائل الممكنة والمتوفرة .. وكان اهم الحرائق :

– في ١٩٧٣/١٠/٩ طلب السيد المحافظ استقبال عربتين مطافيء متجهتين الى بور سعيد للمساعدة في الاطفاء وتسهيل ماموريتهم .. وكلف متطوع من المجلس بمصاحبة العربات حتى بور سعيد .. وادى واجبه هناك وعاد .

● في ٧٣/١٠/١١ سقطت طائرة مصرية مصابة على بعد ٥٠٠ متر من مقر غرفة عمليات المجلس الساعة ١،١٠ ظهرا ورغم شدة الانفجارات واشتعال الحرائق بالمنطقة نتيجة لوجود ذخيرة وطلقات بالطائرة .

● قمت بقيادة عمليات الاطفاء تشجيعا لجنود الاطفاء والمتطوعين وبذلت محاولات لانقاذ الطيار وكان لسرعة السيطرة على النيران واطفاؤها اثر كبير في عدم امتداد النيران الى المساكن للمزارعين والمناطق المجاورة .

● في ٧٣/١٠/١٨ اصيبت قاعدة صواريخ مضادة للطائرات بالبلاح على بعد ٢ كيلو متر شمال شرقي مقر المجلس .. وقاعدة صواريخ اخرى مضادة للطائرات على بعد ٥٠٠ متر غرب مقر المجلس نتيجة ضرب مركز من طائرات الفانتوم والميراج والمدفعية ١٧٥ م واشتعلت فيها النيران

واستشهد بعض الجنود .. وقد تحركت عربة الاطفاء وافراد الدفاع المدني الى كلا القاعدتين ورغم تسرب الغاز من الصواريخ المصابة ، ووجود قنابل زمنية وقنابل البلى والقنابل الزاحفة الا انه تم اطفاء الحرائق بسرعة .. ولم يتوقف العمل لحظة وتم نقل المصابين على الفور بعربة الاسعاف .. وابلغ قائد مكتب مخابرات شمال القنال بالموقف ساعة حدوثه .

● لما كانت ترعة بور سعيد هي الشريان الرئيسي لامداد بور سعيد بالمياه فان تعرضها لاي اصابات كان يستوجب سرعة التبليغ وسرعة الاصلاح .. بجانب التبليغات اليومية عن منسوب المياه التي كان يتم تبليغها من المجلس يوميا الى تفتيش ري الاسماعيلية واهم الاحداث في هذا القطاع هي :

– عند بداية الاشتباكات جاء الى المجلس سبعون عاملا كانوا يقومون بتطهير الترعة من الحشائش ضمانا لارتفاع منسوب المياه وسألوا ماذا يمكن ان يعملوا لخدمة المجهود الحربي سواء هنا وفي الاسماعيلية .

وبالاتصال بمهندس الري اعلن احتياجه لهم ، كل هذا والضرب مستمر . وكان العمال متحمسين للبقاء للمساهمة في المعركة بأية طريقة.

– في ٧٣/١٠/٩ ابلغنا السيد سكرتير عام المحافظة بان الترعة اصيبت عند الكيلو ١٤ جنوب بور سعيد وطلب تدبير عمال ومتطوعين للتوجه الى منطقة اصابة الترعة .. ورغم القصف الجوي تقدم الكثيرون من المتطوعين والعمال اللازمين وفي الساعة ٦،٤٥ مساء نفس اليوم وصل السيد مهندس الري وقد رافقه الى منطقة القطع متطوع من مجلس المدينة .. وتمت معاينة القطاع ليلا تمهيدا لاصلاحه وتوفير المواد اللازمة لذلك .

– وقد تم ذلك على وجه السرعة وبكفاءة عالية رغم الظروف القاسية واستمرت عمليات الاصلاح كلما استدعى ذلك .

– واثناء عودة مامورية معاينة موقع اصابة الترعة وجد ١٥ خمسة عشر فردا من شركة النيل العامة لانشاء الطرق والكباري محصورين في المنطقة بين التينة وراس العش ولا يجدون اي سبل للمعيشة منذ بدأ القتال .. فتم نقلهم فورا الى منطقة ابو خليفة وانضموا الى المجهود الحربي لمعاونة القوات العابرة .

وفي مثل تلك الظروف فان اليقظة مطلوبة من تسلل العدو او جواسيسه مما يستدعي السرعة في تتبع اي حوادث اشتباه واكتشاف الحقيقة خوفا

من حدوث اخطار مروعة .. خصوصا اننا ابلغنا باحتمال قيام العدو بعمليات ابرار او اختراق خلف المنطقة التي يعيش فيها المواطنون .

ورغم عدم وجود أسلحة مع المواطنين في بداية المعركة فانه حدث اجتماع بهم فورا لتوضيح وسائل العمل لمواجهة اي عمليات ابرار . كتعطيل العدو لعمليات قطع الترعة او اشعال الحرائق ، وضرورة عدم سير المواطنين فرادى بل جماعات . وعين حراس من الاهالي على بعض المناطق البعيدة عن الملاحظة والمراقبة باسلحتهم الشخصية (**لاحظ انه قبل المعركة كان ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية كان قد اصدر قرارا باباحة حمل السلاح للمواطنين جميعا فقط عليهم اخطار مركز البوليس بذلك**) .

وشملت المنطقة روح من اليقظة والحماس . وقد حدثت بعض الحوادث نسجلها هنا .

● وصلت احدى وحدات الشرطة العسكرية من القاهرة .. ولعدم معرفتها بالمنطقة نتج عن ذلك بعض السلوك المشبوه مما جعل افراد الدفاع المدني وبمعاونة المواطنين احضروا جميعا من موقعهم الى غرفة العمليات ليلا وتم التأكد من شخصياتهم بالاتصال بقيادة فرع الشرطة العسكرية بالقوات المسلحة .

● في ١٧/١٠/١٩٧٣ الساعة ٦٤٠ مساء ابلغتنا الشرطة العسكرية بأن احدى وحدات كوماندز العدو استولوا على عربة جيب رقم ٧٧٧٦٤ حيث قتلوا سائقها وطلبوا المساعدة في التعرف على جميع العربات التي تمر بالقطاع .. وتم تبليغ جميع الوحدات الزراعية والمزارعين والمواطنين وافراد الدفاع المدني للتأكد من جميع العربات الموجودة بالقطاع او المارة .

● في ٢٣/١٠/١٩٧٣ الساعة ٦٤٠ مساء ابلغتنا الشرطة العسكرية بالمنطقة عن اشتباهها في احد الضباط الذي يقوم بمد خطوط ملكية لتحريك دبابات لاحتلال مواقع بالمنطقة وطلبت المساعدة في التاكد من صحة شخصيته. فتم التحرك السريع مع مجموعات افراد الدفاع المدني وتم محاصرة المنطقة التي بها الضابط ومرافقوه والعربات التي معهم واحضروه الى غرفة العمليات بعد حدوث بعض المناوشات كادت ان تؤدي الى اطلاق النيران بينهم وبين الشرطة العسكرية حتى تم الاتصال بالمخابرات العسكرية والتاكيد من شخصياتهم ووحداتهم العسكرية .

★ ★ ★

ها هي القنطرة شرق قد عادت الى الوطـن الام .. وفيها وقبلهـا واثناء احتلالها كان ذلك التاريخ في الشرق والغرب (في التعمير الجديـد ستصبح القنطرة شرقا وغربا مدينة واحدة يصل بينها نفق) ..

كانت كل تلك التجارب الانسانية ..

ان الجدران فيها تحكـي قصصا .. فهي قد شهـدت الاحداث .. واشتركت أيضا في صناعة تلك القصص والاحداث.. فقد كانت ساترا لبشر يتقاتلون .. الجماد هنا مختلط بالانسان .. بالحياة ..

ومن هنا .. فان الاثر الذي تتركه زيارة مدينة محررة ، اثر عميـق وغريـب ..

فمن حولنا .. كانت آثار المحتلين وبقاياهـم .. زجاجات كوكاكـولا فارغة .. علب بيرة من الصفيح .. جرائد اسرائيلية .. اكياس من محلات تل ابيب .. دخان يتصاعد من دبابات محترقة .. وجنودنا ذاهبـون .. متقدمون يركبون دباباتهم وسياراتهم ويتقدمون ..

هذه اول حرب مدن يخوضونها .. وقد نجحوا في « الامتحان » !..

ان تحرير القنطرة هو « بروفه » تحرير العريش ورفح وغزة .. كما قال لي ضابط حديث السن من السيدة زينب ..

حقا .. ان لحظة الانتصار تساوي الف عام !

وننحني على الارض نجمع ذكريات مما خلفه الاسرائيليون وراءهم ..

واكتشفنا اننا لسنا وحدنا الذين نجمع بعضا من مخلفاتهم .. وانما كل جندي تقريبا في الجبهة يحمل شيئا .. خوذة .. زجاجة فارغة .. طلقة مدفع او بندقية ..

وقد كان تملك الجنود لكل هذه الاشياء يشعرهـم اكثر ان الجنـدي الاسرائيلي ليس هو الاسطورة او المارد .. انه جندي مثلـه مثل جنـود جيوش العالم جميعا .. يمكن ان يكون له مخلفات .. ويمكن ان يقتنـي عدوه بعضا من تلك المخلفات ..

ورغم اني بعيد كل البعد عن هواية جمع « العاديـات » او التحف او التذكارات من اي نوع كان .. الا اني وجدت نفسي انحني .. واجمـع ايضا مخلفات الجيش الاسرائيلي .. ربما لتمحو من بين اهلي واصدقائـي ايضا اسطورة ذلك الجيش !!..



١٨

معارك سطح .. لأول مرة في العالم ..

« .. ان لنشات الصواريخ المصرية مثل البط في المواني .. لا خوف منها اذ تستطيع قواتنا الجوية المتفوقة ان تشل اي تحرك لتلك اللنشات » هكذا تحدثت الجيروليزم بوست الاسرائيلية بصلف .. وغرور عن البحرية المصرية وكان ذلك في عام ١٩٦٧ قبل العدوان الاسرائيلي .. عندما كانت الاحاديث تدور عن احتمال وقوع الصدام بين العرب واسرائيل .

وعندما نشبت حرب يونيه ١٩٦٧ لم تساهم البحرية المصرية فيها .. لانه لم يكن هناك دور لها في عملية الاستعراض العسكري الكبيرة التي جرت في تلك الفتــرة ..

وطبيعة الحرب أو حتى الاستعراض في البحر تختلف عنها في البر.. فالغواصة كي تعد للقتال او استعراض القتال تحتاج الى يومين مثلا .. بينما الدبابة يمكن اعدادها في ساعة أو اقل .. وهكذا .

ومن هنا فان العمل «الكبير» الاساسي الذي قامت به البحرية المصرية اثناء حرب ١٩٦٧ هو انها تتبعت حاملة الطائرات الامريكيــة « انتربيد » وهي تمر في القناة !

وكانت البحرية تقوم بدوريات ساحلية حتى العريش ..

ويذكر للبحرية ايضا في تلك الحرب ان رجـــال الضفادع البشريــة الاسرائيليين عندما تسللوا الى الاسكندرية كانت لنشات البحرية المصرية هى

التي قبضت عليهم .. بل ان الغواصة التي انزلتهم ضربت (ولا يدري احد مدى اصابتها بعد ان اطلقت طوربيداً على سفينة مصرية اسمها طارق .

لقد ظلت السفن الحربية المصرية راسية اذن كالبط في المواني .. لكن رغم انفها وليس بسبب تفوق سلاح الطيران الاسرائيلي او غيره .. انما لسبب بسيط هو ان احدا لم يطلب منها ان تعمل شيئا .. ولم يكن لها دور في اية خطة ان كانت هناك خطة من اي نوع عام ١٩٦٧ .

ولكن اول فرصة واتت البحرية المصرية لتؤكد وجودها وبالذات لنشات الصواريخ كانت .. بالضربة الممتازة للمدمرة ايلات

وخلال حرب الاستنزاف قامت البحرية بعمليات دلت على براعة وجسارة ايضا .. كما حدث في عملية التسلل ثلاث مرات بواسطة الضفادع البشرية الى ميناء ايلات لاحداث دمار فيه . وتردد الضفادع البشرية على موقع واحد امر نادر في الحرب البحرية .

★ ★ ★

وربما كان رجال البحرية هم اول افراد القوات المسلحة الذين علموا بان ساعة الصفر قد دنت قبل اي قوات اخرى في الجيش ..

ذلك لانه يمكن القول ان العد التنازلي للعبور بدأ منذ اللحظة التي تحركت فيها قطع الاسطول المصري في اتجاه باب المندب ـ تلك النقطة الاستراتيجية الهامة ـ لاغلاقه في وجه الملاحة الاسرائيلية والسيطرة على منافذه بالتعاون مع جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وجمهورية اليمن الشمالية وذلك باعتراض السفن التجارية المبحرة في اتجاه البحر الاحمر وتفتيشها للتأكد من حمولتها ووجهتها .

من ناحية اخرى بدات الغواصات المصرية في بث الالغام على طول امتداد الساحل الغربي لسيناء للحيلولة بين الاسرائيليين وبين نقل بترول ابو رديس للاستفادة منه في المجهود الحربي .

وكانت تلك اول مرة يستخدم فيها سلاح الالغام من اي طرف من الطرفين على تعدد الحروب بين العرب واسرائيل .

كانت خطة متكاملة تهدف الى التأثير الاستراتيجي على اسرائيل
واستكملت اول نشوب القتال بفصائل من الضفادع البشرية قامت بغارات على ابار البترول في بلاعيم .

كان المخزون من البترول عند اسرائيل لا يكاد يكفي سبعين يوما ..
ولو استمرت الحرب والحصار محكما عليها هكذا .. لحلت بها كارثة .

★ ★ ★

عندما دقت ساعة الصفر .. كانت نيران مدفعية البحرية في الطليعة ايضا .. القطع البحرية المتمركزة في البحر الاحمر بدات تقصف الاهداف الاسرائيلية المنتشرة في مواجهة مدينة السويس ، وعلى الشريط الجنوبي لشبه جزيرة سيناء . وفي البحر الابيض عهد الى القطع البحرية فيه ان تقصف بمدافعها الضخمة الأهداف الاسرائيلية البعيدة عن مدى نيران مدفعية الميدان وذلك لمساندة عملية عبور القوات البرية العاملة في القطاع الشمالي .. وقد اشترك في هذه العمليات ــ عمليات القصف ــ حوالى خمسون قطعة بحرية من بينها مدمرات وغواصات وزوارق حربية مسلحة.
كما ان بعض وحدات مدفعية السواحل البعيدة المدى على مدخل القناة في بور سعيد .

كانت هناك خطة عمل واضحة .. اشتملت ايضا خلاف ما سبق بيانه على مهمتين :

المهمة الاولى ان على القوات البحرية في حالة الدفاع ان تعمل على المحافظة على السواحل المصرية وتامين الموانىء وخطوط المواصلات وتامين وصول الامداد والمواد الاستراتيجية .

والمهمة الثانية في حالة الهجوم فعلى الاسطول المصري مهمة قطع خطوط المواصلات البحرية الاسرائيلية ومنع وصول المدد الاستراتيجي الى موانئها سواء تلك الموجودة في البحر الابيض مثل حيفا واسدود ويافا . او في البحر الاحمر في ايلات وشرم الشيخ وجميع مراسي خليج السويس.

★ ★ ★

وفي الحرب اتبع الاسرائيليون خطة ذات شعبتين :

- محاولة جذب قواتنا البحرية الى كمائن مدبرة للانفراد بها وضربها.
- قصف مواقعنا البحرية والموانىء المصرية المختفة بهدف تدمير ما يمكن تدميره او على الاقل القيام بحملات دعائية .

وقد اعتمد الاسرائيليون اساسا في خطتهم على الزوارق المسلحة

بالصواريخ واستخدموا صواريخ جبرئيل الموجهة التي تفوق بعض الصواريخ السوفيتية المزودة بها بحريتنا عليها .

ولكنهم ـ اي الاسرائيليين ـ استخدموا زوارقهم بمرونة كبيرة كما عمدوا الى ان يستظلوا دائما بحماية سلاح الطيران في معظم تحركاتهم البحرية .

ويمكن القول ان البحرية المصرية قد افشلت خطة الاسرائيليين ذات الشعبتين .

فلم تقع في كمائن بل الذي حدث ان الاسرائيليين وقعوا في كمين كبير في رشيد سنحكي قصته فيما بعد .

من ناحية اخرى ان الزوارق الاسرائيلية قد اجبرت في كل المعارك التي بدات الهجوم فيها على الانسحاب بعد ان قاتلتها القوات البحرية المصرية ببراعة وباحدث الاساليب القتالية مستخدمة الصواريخ الموجهة سطح ـ سطح من نوع « ستايكس » بفعالية ودقة كبيرة منزلة بالزوارق الاسرائيلية خسائر جسيمة .

ويمكن القول ان البحريه المصرية دخلت لاول مرة معارك بحرية حقيقية في حرب مع اسرائيل مستخدمة فيها المعدات والتجهيزات والاسلحة المتقدمة والمتطورة .

ولا بد ان نضع في الاعتبار ان البحرية الاسرائيلية لجات الى اسلوب الهجوم في حماية الطيران بينما لم تظلل البحرية المصرية في معظم الحالات اية وحدات طيران .

لقد قاتلت البحرية المصرية حقا في بعض المعارك قريبا من السواحل في حماية الصواريخ الموجهة ضد الطائرات .. ولكن معارك كثيرة دارت وهي « عارية الراس » .. وخاضتها ببسالة وبراعة .

مساء اليوم الثالث للحرب حاولت لنشات الصواريخ الاسرائيلية مهاجمة الاهداف العسكرية على الساحل المصري بين دمياط والبرلس ، وفوق اللنشات كانت تحلق ستطائرات هليكوبتر مسلحةبالصواريخ الموجهة جو ـ سطح . وقد شكلت هذه الطائرات حماية كبيرة للنشات وكانت معركة غير متكافئة حقا ومع ذلك استطاعت اللنشات المصرية صد لنشات اسرائيل وحالت بينها وبين ضرب الاهداف التي قصدت ضربها .

ويقول الخبراء العسكريون ان تلك كانت اول معركة بحرية في العالم من نوعها .. اذ استخدم الفريقان المتحاربان فيها الصواريخ الموجهة

البحرية : سطح ـ سطح بذلك الحجم وبالتكتيكات التي استخدمت في المعركة .

وفي اليوم الخامس للمعركة دارت معركة بحرية في خليج السويس بين اللنشات الاسرائيلية واللنشات المصرية .. وفي هذه المعركة خسر الطرفان خسارة متكافئة .. ولكن اللنشات الاسرائيلية لم تستطع تحقيق اهدافها .

ومرة اخرى في سابع يوم للقتال عادت اللنشات الاسرائيلية الى نشاطها في البحر الاحمر اذ حاولت مهاجمة ميناء الزعفرانه الواقع شمال خليج السويس ، فتصدت لها السفن الحربية واللنشات ..

وكان هدف الاسرائيليين ضرب منشآت ميناء الزعفرانة والاهداف العسكرية المحيطة به . ولكنهم فشلوا في تحقيق الهدف .. واضطرت لنشاتهم الى الانسحاب .. بعد ان تكبد الطرفان خسارة عبارة عن غرق عدد من اللنشات المصرية والاسرائيلية .

واثناء الثغرة .. عمدت البحرية الاسرائيلية الى زيادة نشاطها .. ولكن الملاحظ انها تحاشت تماما القيام بالنشاط الحقيقي المفروض ان تقوم به وهو فك الحصار عن باب المندب حيث شلت حركة الملاحة الى ميناء ايلات ..

ذلك لان قادة البحرية الاسرائيليين يدركون ان دخول معركة في تلك المنطقة سيعرض بحريتهم الى الدمار .. اذ لا بد ان يهاجموا بقطع بحرية كبيرة وليس لنشات .. وفي مجال القطع الكبيرة هم خاسرون قطعا ..

هاجمت اللنشات اهدافا على طول الدلتا مستهدفة قواعد الصواريخ ايضا .. ولكنها فشلت تماما .. عندما تصدت لها اللنشات المصرية واغرقت بعضها .

ولكن اخطر الهجمات كانت تلك التي قامت بها وحدات كوماندوز اسرائيلية نقلتها لنشات الصواريخ ، وقد هاجمت تلك الوحدات قاعدة للكوماندوز البحري المصري في راس غارب ، كما هاجمت وحدات اخرى ميناء الغردقه ..

وقد عززت لنشات الصواريخ هذه الهجمات ودارت معارك حامية انتهت بهزيمة الاسرائيليين وانسحابهم تاركين اعدادا من القتلى والجرحى .

وقامت لنشات الصواريخ الاسرائيلية ايضا بهجوم على « ابو قير » على الساحل الشمالي ونشبت معركة بحرية حامية بينها وبين الوحدات البحرية المصرية تعاونها اجهزة الدفاع الساحلية ..

وقد خسر الاسرائيليون في هذا الهجوم اكبر عدد من اللنشات خسروه في المعارك البحرية على طول حرب ٦ اكتوبر ، ولم يستطيعوا اصابة هدف واحد بصاروخ واحد ..

كمين رشيد :

استطاعت القوات البحرية ان توقع الاسرائيليين في كمين دفعوا فيه ثمنا غاليا ..

ابلغت نقاط المراقبة ان عددا من زوارق الطوربيد الاسرائيلية في طريقها الى رشيد ..

امر قائد القوة البحرية بخروج لنشين مصريين يسيران متباعدين .. وعلى مسافات بعيدة من رشيد ..

لم يفطن القائد البحري الاسرائيلي لهما ..

ودخلت زوارقه تتهادى الى رشيد .. وفجأة اقترب زورقا الصواريخ المصريين واطبقا على الزوارق المهاجمة بقذائف صاروخية انطلقت في وقت واحد ..

وكانت النتيجة ان اغرقت ثلاثة زوارق اسرائيلية من الزوارق المهاجمة .. وانسحب الباقي ..

وبميزان الحساب للنتائج التي حققتها القوات البحرية بقيادة الفريق فؤاد ذكرى .. يمكن تلخيص تلك النتائج فيما يلي :

- مساعدة قواتنا على العبور .
- نقل بعض قواتنا البرية (الصاعقة البحرية للاغارة على مراسي الشيخ ريحان وابو دريه وبلاعيم لازعاج وحدات العدو .
- صد الهجمات الاسرائيلية والحاق خسارة كبيرة بالبحرية الاسرائيلية .
- منع مائتي سفينة كانت تدخل ميناء ايلات الاسرائيلي كل شهر بحصار باب المندب . ويعني ذلك بالدرجة الاولى حرمان اسرائيل من البترول الذي كان يصل اليها من ايران .

وكان هذا الحصار يعني ايضا ضربة لنظرية الامن الاسرائيلي اذ ان التشبث بشرم الشيخ لا قيمة له اذ بوسع مصر ان تجعل من تلك المنطقة منطقة ميتة بغلق باب المندب حيث تقصر « الذراع الطويلة » الاسرائيلية

عن الوصول الى هناك ! هذا غير ان البحرية قد ضربت شرم الشيخ نفسها بالصواريخ ثلاث مرات .

● استمرت الملاحة مع مصر مستمرة والمواد التموينية والاسلحة تصل بانتظام طوال فترة القتال .

● حمت البحرية شواطىء مصر من تسلل الضفادع البشرية .

● غرقت الناقلة الاسرائيلية « سيروس » حمولة ٤٥ الف طن في خليج السويس كما غرقت قاطرة بفعل الالغام المصرية .

ومن اسرار حرب اكتوبر ان البحرية قد استخدمت سلاحا سريا لاول مرة استطاعت ان تشل به فاعلية النقطة الحصينة في خط بارليف شرق بور فؤاد . وهي النقطة التي ذكرنا من قبل انها النقطة الوحيدة التي لم تستول عليها القوات المصرية التي اقتحمت الخط الاسرائيلي . ان هذه النقطة كانت تهدد بور سعيد مثل نقطة عيون موسى التي كانت تهدد السويس .

ان صحيفة التايمس البريطانية ذكرت ان البحرية استخدمت سلاحا سريا لمنع هذه النقطة من العمل . فمن يدري ما هو ؟..

لكن الشيء الذي يدريه الجميع ان البحرية قد قامت بدورها في المعركة جنبا الى جنب مع سائر قوات الجيش الاخرى .. واكتسبت خبرات جديدة ستكون رصيدا جديدا مضافا في اي معركة في المستقبل القريب او البعيد مع العدو ..

١٩

البطـــل .. هو الإنسان العـادي !

سلم نفسك يا كوماندوس .. سلم نفسك حتروح فين ؟..
كان صوت الميكروفون يدوي زاعقا بين جنبات الجبـال والصخور .. وصاحبنا يحمل فوق كتفيه زميله الجريح ينزف دما .. وهو يتردد بـه بين جنبات المنخفض الضيق الذي احاطت به المرتفعـات .. وفوقه تئـز طائرة الهليكوبتر الاسرائيلية الكبيرة ومنها ينبعث صوت الميكروفون ..

عبد المنعم وهو مجرد رقيب في الجيش المصري .. ما زال مصرا على الجري هنا وهناك باحثا عن ملجأ .. عن مكان يحميه .. من رصاص تلك الهليكوبتر المتوقع في اي لحظة .. انها تلعب معه لعبة القط والفار .. لماذا لا يطلق عليه الطيار او اي جندي في الطائرة الرصاص ؟ .. انهم لا شك يريدونه حيا .. ليسـالوه عن باقي زملائه .. اذ ان ذلك العدد المحدود من زملائه رجال الصاعقة قد اثاروا قلق الاسرائيليين وازعجوهم اي ازعاج .. نربما كانوا فرقه .. ربما كانوا ابرارا للاحتلال .. ربما .. المهم اين هم وكم عددهـم ؟..

ولم يكن هناك في ذلك المنخفض في ذلك اليوم غير عبد المنعم وزميلـه شكري .. منذ ساعات كانوا مجموعة من عشرة .. استطاعوا ان يقضوا على خمسـة وعشرين جنديا اسرائيليا كانوا في ثلاث عربات مجنزرة.. دمروا منها اثنتين واصابوا الثالثة .

ولكن بعد اقل من ساعة كانت تحوم فوقهم ثلاث طائرات هليكوبتر ..
وكانوا في ارض مكشوفة.. فاصلتهم نارا وصواريخ.. فسقط شهيدا من سقط .. وتبعثر الباقون .. وكان عبد المنعم وشكري معا .. وفجاة اصيب شكري .. فسقط يتلوى من الالم .. انحنى عبد المنعم عليه ..
ولم يكن هناك وقت لاسعافه فان هليكوبتر العدو تحوم فوقهم .. وتضرب ..
فحمله .. ودماؤه الحارة تسيل فوق عنقه .. وهو يجري ويتردد بين ذلك الركن .. وتلك الصخرة .. ثم بدا الميكروفون يزعق ..
شكري جريح .. وينزف .. ولكنه لكز عبد المنعم في رقبته .. وقال:
يا عبد المنعم سيبني انا لوحدي .. وشوف لك طريقه ..
قال عبد المنعم : ازاي اسيبك ..
قال شكري بواقعية غريبة ..
لو فضلت كده .. حنموت احنا الاثنين .. انا فوق كتفك من دمي النازف .. وانت حيصطادك الاسرائيليون ، لو زهقوا من عدم تسليمك لنفسك .. شوف لك طريقة واجري .. دور على زملا ئنا ..
انها ثانية واحدة او اقل هي التي يتخذ فيها المرء القرار .. القرار الخطير .. ان عبد المنعم طافت براسه افكار مثل كيف يتخلى عن زميله شكري .. الذي سياسره الاعداء في احسن الظروف .. ولكن كلام شكري منطقي .. اذ حتما سيموتان معا او يؤسران معا ان ظل الوضع هكذا ..
ولكن اذا ترك شكري .. يستطيع ان يجري .. ان يروغ من الطائرة ماذا يفعل .. انها هي الحرب .. واخلاقيات الحرب .. شكري سيؤسر حتما .
توقف الى جوار صخرة .. ووضع شكري برفق على الارض ..
وبسرعة اجرى له اسعافات اولية فضمد الجرح في أعلى الساق .. ثم اخرج كل ما معه من سجاير واعطاها له .. وباكوات اللبان (الصاعقة يمضغون اللبان في الصحراء لاستجلاب اللعاب بدلا من الماء) .. ثم انتهز فرصة ابتعاد الطائرة لحظة للدوران .. وجرى في اتجاه معاكس ..
صاعدا صخرة عالية .. وقفز منها في الجانب الاخر ..
ومشى .. بعيدا ودوي الميكروفون يصل الى اذنيه .. ثم سكوت..
وكان كل ما يشغل ذهنه هو الا يسمع صوت طلقات نار .. كان يصلي ويبتهل الا يسمع .. لانه كان يتوقع ان يؤسر زميله لا ان يقتله الاسرائيليون.
كان عليه ان يبحث الان عن الطريق الى قاعدة نزوله هو وزملاؤه ..
وحدد موقعه وادرك انه على بعد خمسة كيلو مترات ..

وعند وادي بعبع .. لمح من بعيد عربة للعـدو .. فاختفى حتى لا تكتشفه ولكنها عندما اصبحت قريبـة منه .. وجـد ان باستطاعته أن يقصفهـا بقنبلـة يدوية كانـت معه .. وقـد كان .. الا ان جنديـين اسرائيليين ممن كانوا فيها قد نجيـا ولاذا بالفرار فـي اتجاه قاعدتهمـا للابلاغ عن المهاجمين المصريين ..

ولكن المعركة قد جذبت جنديين مصريين كانا هما الآخران قد تبعثرا من فصيلتهما .. فالتقى بهما عبد المنعم .. وكان الثلاثة يختفون ثلاثة ايام بالنهار كي لا تكتشفهم طائرات العدو التي تبحث عنهم .. ويسيرون بالليل ..

وكانوا يعيشون على اكل الاعشاب وطبخ العجـين وامتصاص الزلط الذي يجمعونه عند الفجر وقد علق به الندى .

واخـيرا وصلوا الى قاعدتهم الاصليـة حيـث وجدوا ماء وطعامـا واسلحة .. فحملوها .. وظلوا سائرين عشرة أيام اخرى حتى وصلوا الى الخطوط المصريـة .

هذه قصة جندي عادي .. ينتمي الى عائلة عادية ايضا ..

اما قصة النقيب عبد الحميد .. فهي ايضا نموذج لبطولة الرجـل العادي وتحمله من الصعاب والمشاق الكثير دون ان يتصور ان ذلك شيئـا مخالفا لطبيعة الاشياء ..

لقد كان عبد الحميد قائدا لمجموعة من الصاعقه ايضـا كلفت بالاتجاه في عمق العدو لحرمان قواته الاحتياطية من التقدم ..

ونجحت المجموعة في مهمتها .. ولكن العدو هاجمها بقوات كبـير وسقط في القتال عدة شهداء .. وتفرقت المجموعة كما يحدث عادة ..

ومشى عبد الحميد على رأس عدد من زملائه لمحاولة جمع الباقين ..

واصطدموا وهم في الطريق بسيارات للعدو .. دمروها وقتلوا من فيها في كمائن نصبوها .. ضربوا العدو بالنهار .. وفي ضوء القمر .. كانها مسـالة روتين .. في كل وقت .. « لا يمكن للواحد منا مهما كـان بيحاول يهرب يشوف العدو ماشي .. ولا يضربوش ! » ..

سقط منهم جريح .. وهو عبد الرءوف .. وحملوه .. وتناوبوا في حمله .. وقطعوا به خمسة عشر كيلو مترا بعد ان قاموا باسعافه .. وكان مصابا في جنبه .. وكلما التأم الجرح تمزق مرة اخرى بسـبب الحركـة وهم يحملونه صعودا وهبوطا في الصحراء وعبر الصخور والاحجار .

ثم نفذت المياه .. ولم يعـد يجدى الحصى .. والنـدى .. حتى الحشـائش لم تعد موجودة ..

هنا الامل يكمن في العثور على بعض البدو ..
وتحقق الامل فها هما بدويان يقبلان عن بعد .. كما تجري الامور في السينما !.

اختفت المجموعة فربما كان وراء البدويين عددا من اليهود ارغماهما على السير حتى يكونا كمينا للقوات المصرية المتفرقة في الصحراء .

واطمأن عبد الحميد فتقدم من البدويين وحياهما ..

كان لا بد من التهويش بعض الشيء .. حتى يضمن عدم خوف البدويين وترددهما فاليهود يملئون المنطقة فالمجموعة تعرف انها وراء خطوط العدو .

افهمهما الضابط ان مجموعته جزء من فرقة كبيرة تسيطر على المنطقة وانهم اسياد الموقف وفقط هم ينتظرون الاوامر للاستيلاء على المنطقة بأسرها !

وهنأهم على عودة سيناء .. ثم تساءل قائلا بطريقة عابرة عما اذا كان لديهم ماء وطعام ! .

وامعن الضابط في محاولة ايهام البدويين فنادى على احد جنوده قائلا : يا محمد .. روح قل لحضرة المقدم كذا وكذا ..

اختفى محمد في الجبل فترة قصيرة من الوقت وعاد يقول .

- يا افندم بلغت حضرة المقدم كذا وقال كذا وكذا ..

من ناحية اخرى اخذ البدويان يؤكدان مصريتهما .. وانهما لا يعملان مع اليهود .. وطلبا ان يذهبا لاحضار الطعام والماء على ان يعودا بعد ساعتين لخشيتهما من ان يلتقي بهما الاسرائيليون وبصحبتهما جنود مصريون ..

وافق الضابط ولكنه قال انه ومجموعته سيتابعانهما عن بعد ..

وفعلا .. سار كل شيء على ما يرام ..

وبينما هم في الطريق بالليل .. حدث شيء غريب .. سمع الضابط عبد الحميد من ينادي في الظلام قائلا :

- يا عبد الحميد .. نقيب عبد الحميد ..

من انت .. وكيف عرفت اسمي في الظلام ..

كانت مجموعة اخرى من الصاعقة يقودها صديقه الضابط مجدي ..

ورات اشباحا في الظلام فنادى مجدي عبد الحميد عل وعسى يكون هو !

لا يمكن التعبير عن شعورنا بعد خمسة عشر يوما ونحن تائهين في

الصحراء .. وفي معارك مستمـرة .. وجرحى .. وقتلى سقطوا مـن زملائنـا ..

بعد ان حصلوا على الطعام والشراب من القرية .. قرءوا الفاتحة مع البدو .. لا من شاف .. ولا من درى ! ..

أكل الجنود وشبعوا .. عليهم ان يركزوا على القتال .. بعـد ان ضمنوا الحياة ! تشمموا مواقع العدو .. زرعوا حولها الغاما .. نصبـوا كمائن .. اشتبكوا معه .. اوقعوا به خسائر .. وسقط منهم شهداء ايضا ..

عبد الرعوف كان قد شفي بعض الشيء .. اشترك في المعركة .. ففتح الجرح مرة اخرى ..

ما هذا يا عبد الرعوف ..

ـ ما فيش حاجة يا افندم شوية دم ..

وبدأ عبـد الرءوف يتبول مـن الجرح من جديـد .. ولكنه كـان متماسكا .. وابطال المجموعة في السير .. حتى تساعده على الشفاء ..

كان الوقت اواخر ديسمبر .. والبرد رهيب جدا في الصحراء .. ولم يكن لديهم ملابس ثقيلة .. فقد تمزق كل شيء ..

اخيرا لم يكن امامهم الا ان يرتدوا ملابس اخرى لشهداء بعد دفنهم . وكانوا يتحركون ليلا على هدى النجوم ..

ودائما يصطدمون بالعدو كلما رأوه ..

وفي ٢٢ ابريل وصلوا الى قرب الخطوط المصرية .. كمنوا ليلا .. حتى يتأكدوا من طريقهم في الصباح .. بعد ان كادوا يدخلون في موقـع اسرائيلي لولا ان سمع احدهم عبارات عبرية من راديو ..

وعندما اشرقت الشمس .. وجدوا انفسهم قريبين من نقطة عليهـا علم ازرق .. علم الامم المتحدة ..

ولم يكونوا قد عرفوا شيئا عن اتفاقية الفصل بين القوات .

ومع ذلك خشوا ان يتقدمـوا الى قوات الامـم المتحدة .. فظلـوا يدورون .. ويتحركون .. على طريقة الوثب .. من مكان لاخر مستترين بالكثبان الرملية .. حتى وصلوا الى النقط المصرية عند الظهر ..

قف من انت ..

تقدم ..

وكانوا في القاهرة قد فقدوا الامل في عودة تلك الكتيبة .. وكانوا يتصورون انها قد ابيدت .. ولذلك كانت فرحة بين زملائهم لا تعدلهـا فرحة عندما عادوا ..

وهم قد عادوا يتحدثون .. لا عن بطولاتهم هم .. بل عن بطولات شهدائهم ..

تحدثوا عن بطولة النقيب سمير البهي .. الذي كان ضابط اشارة بالكتيبة ..

وعندما حاصرهم العدو .. في قاعدتهم وبدأ ضرب النار .. شارك سمير في مقاومة هجوم العدو .. واصابته رصاصة في البداية في ساقه.. فاستمر في الاشتباك ..

ولكن دانة انرجا (قنبلة كبيرة مثل قذائف البازوكا) .. اصابته .. ابتلع شفرة الاشارات .. وهو يموت .. وكان مشهدا لا ينسى .. وقد اختلط الدم بالورق في فمه باللحم المزق بصوته يحشرج .. الله اكبر .. تحيا مصر ..

والحكايات كثيرة .. عن بطولات الرجال في كل اسلحة الجيش : مشاة .. بحرية .. طيران .. مدفعية .. الخ . بحيث ان كلمة البطولة في الحقيقة لم تعد تعني شذوذا عن المجموع .. فالمجموع كانوا ابطالا حقا ..

ولا يستطيع ان يشعر المرء بمعنى هذه البطولة تماما اثناء الحرب .. وانما يمكن ان يحس بها .. بعد وقف اطلاق النار .. وقد عشت مع الابطال ..

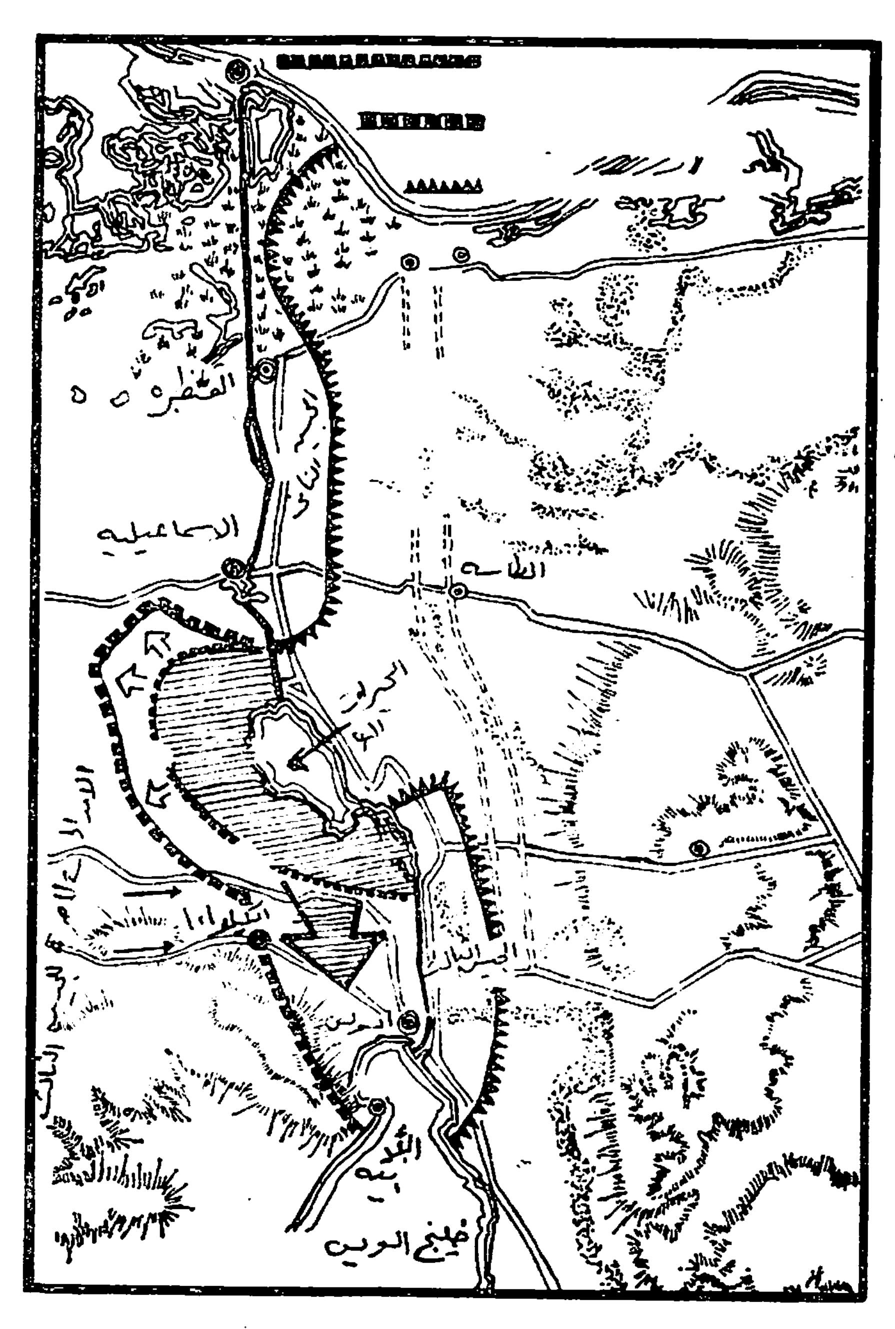
صبيحة يوم وقف اطلاق النار .. ٢٣ اكتوبر ..

والحياة مع المقاتلين تحت ظلال وقف اطلاق النار .. غريبة على المراسل الحربي الذي عايشهم والمعارك محتدمة : القنابل تدوي كهزيم الرعد في جنبات الصحراء .. والطائرات تتهاوى محترقة بعد ان فجرتها الصواريخ السحرية مع صيحات الله اكبر .. الله اكبر ..

في الحرب : الرصاص هو الذي يتكلم .. وصوت « الفنبر » على حد تعبير الجبرتي .. يطغى ويعلو على كل صوت .. وملهم الكتابة هو ذلك الصوت .. ومدادها هو ذلك الرصاص ..

بعد آخر طلقة .. فثمة وقت للحديث بين البشر .. ووقت لمط الكلمات وتمديدها .

الجنود هنا يتكلمون وقد نشروا غسيلهم على الاسلاك الشائكة



مواقع الجيش المصري في الشرق . وحدود الثغرة الاسرائيلية .

حدود الثغرة في ٢٢ أكتوبر عند وقف اطلاق النار هي القوس المخطط .

حدودها بعد انتهاك وقف اطلاق النار وإجبار اسرائيل على وقفه مرة ثانية في ٢٥ أكتوبر هي القوس حتى ميناء الأدبية .

وفوهات المدافع .. وبعضهم اشعل حطبات جمعها من الرمل والكثيب ليصنع شايا ساخنا حرم منه طوال المعركة ..

ولكن وهم يتكلمون .. الاصابع لا تفارق الزناد .. والعيون يقظى مفتوحة على آخرها .. وتلمع بالغضب .. والثقة معا ..

الغضب لان القتال قد اوقف .. وايقافه كان على حين غرة .. والحقيقة ان وقف القتال كان مفاجأة لمصر كلها ..

ويوم أعلن وقف اطلاق النار .. بذل الضباط المصريون جهدا كبيرا لالزام الجنود باحترام امر وقف الاطلاق .. ونفس بعض الجنود عن غضبهم باطلاق الرصاص في الهواء ..

ان معنوية الجنود كانت فوق الكمال .. وكانوا يودون الاستمرار في القتال حتى تحقيق التحرير الكامل .. وهم قد « عجنوا العدو وخبزوه » وعرفوا نقاط ضعفه واساليبه مكره وخداعه وغدره ..

سقطت الاسطورة .. بل كل الاساطير .. وتذوق الجنود طعم الانتصار .. لاول مرة .. على عدو يعتبر نفسه امتدادا للحضارة الاوروبية المتقدمة .. وسليلا لشعب الله المختار منذ غابر الزمان ..

وعيون الجنود تشع بالثقة .. لانهم رغم غضبهم لوقف القتال .. الا ان ثقتهم في قياداتهم لم تهتز .. ان القائد الذي وعدهم بالعبور .. قد انجز وعده وبفضل قيادته واستعداداته المتأنية .. قد مكنهم من قهر العدو .. فهو ان اوقف القتال اليوم فهو يوقفه وقفة المقتدر والقادر على استئنافه .. ولا بد ان الحكمة السياسية قد املت عليه قبول ذلك الايقاف .. وفي النهاية « نحن على استعداد .. وجاهزون تحت الطلب .. » على حد تعبير اللواء حسن ابو سعده قائد الفرقة الثانية .. ونحن نتحاور حول وقف اطلاق النار ..

نفس الجنود الذين عبروا .. وحطموا الاسطورة قادرون على استئناف القتال في اي وقت .. واستكمال عملية التحطيم .. التحطيم للعدو هذه المرة لا الاسطورة فالاسطورة قد اصبحت في خبر كان !

ما زالت بعض العربات المجنزرة يتصاعد منها الدخان .. ومن حين لاخر تصل الى اسماعنا اصوات مكتومة لطلقات ..

كنا على الشاطىء الشرقي للقناة .. وقال احد الضباط ..

ــ الاسرائيليون انتهكوا وقف اطلاق النار .. وفي ثغرة التسلل في الغرب .

● متـى ؟ ..

ـ فجر اليوم .. اي بعد اقل من سبع ساعات من وقف اطلاق النار

● ولماذا لا تردون ؟ ..

ـ القوات المحاصرة لهم هي التي ترد .. اما نحن هنا على الجانب الشرقي لا بد من ادارة مدافعنا تجاه الغرب لضربهم .. ومعنى ذلك الغاء وقف اطلاق النار .. واشتعال الحرب من جديد ..

لم يكن احد في جبهة القتال يبدي اهتماما كبيرا او قلقا عن حكاية الثغرة (كانت حتى ذلك الوقت توصف بانها ثغرة نفذ منها بعض المتسللين) .. بينما كنا نحن في المدينة لا حديث لنا عن شيء غيرها ..

وقد ادهشني هذا الهدوء والثبات لدى الضباط والجنود .. ان الامر بالنسبة لهم لا يعني الا نوعا من « الكر والفر » كما هي الحرب عادة ..

يتحرك المرء في الصحراء .. في ظل وقف القتال .. دون تحرج او خوف . ومع ذلك فان الضباط يصرون على الا نسير في شكل تجمعات كبيرة فالعدو غدار .. فربما انطلقت قذيفة هاون .. او دانة مدفع بعيد المرمى .. او ..

يجذب انتباهنا ازيز طائرة تطير على ارتفاع منخفض ..

ـ هي طائرة اسرائيلية .. تمرق فوق خطوطنا ..

المدفعية تنطلق .. تدور الطائرة وتلوذ بالفرار نحو الخطوط الاسرائيلية .

وفي عربات الجيب .. والعربات المدرعة والمجنزرة .. وفي أركان التلال .. وسفوحها .. في الخنادق والملاجيء .. وفي ظل دبابات للعدو محترقة يلذ لنا نحن الكتاب ان نغوص فيما نسميه بالاعماق .. اعماق المقاتلين ..

ففي اثناء المعركة يتلاشى الحاجز بين الظاهر والباطن .. ويسقط الحائط بين السطح والعمق ، فالمقاتل يصبح شخصا واحدا .. كتلة واحدة ، ظاهرها كباطنها .. لا مجال هنا للاوعي وللا شعور وغيره من المسميات ..

هنا الوعي فقط .. الوعي التلقائي والغريزي ايضا ..

وربما متاثرا بقراءات ادبية لاريك ماريا ريمارك وتولستوي وغيرهما ممن كتبوا عن الحرب والسلام ..

وربما مدفوعا بهذا الحب العمق والتقديس الهائل لذلك الانسان

البسيط العملاق : المقاتل المصري .. هذا الحب الذي نمى خلال مزاملته أيام معاركه المجيدة .. ربما دفعني ذاك الحب الى محاولة الاقتراب منه .. من الداخل .. في ظل وقف القتال ..

ربما لهذا او ذاك او غيرهما من الاسباب اخذت أفتش بين المقاتلين جميعا عن شيء : شيء اسمه الخوف .. ولكني في الحقيقة كنت ابحث عن شيء غير موجود ..

هل يخاف الجندي وهو يحارب ! ..

واذا ما خاف .. متى يعبر الجندي حاجز الخوف على الحياة ؟ .

احس انا شخصيا وانا مغروس في ذلك الملجأ العميق تحت الارض وسط غابة من الشجعان والابطال ان سؤالي استفزازي .. ولكن الجنود والضباط لا يستفزون .. بل يضحكون ولكن في غير سخرية ..

ويقول لي ضابط كبير .. بلهجة هادئة وواثقة ..

ــ لو رأيت الجنود وهم يطيرون طيرانا للعبور .. لوجدت الجواب على سؤالك .. كانوا يغنون وينشدون وهم في زوارق العبور ..

وكانوا في نفس الوقت يستعجلون العبور .. يعني يستعجلون لقاء العدو .. بما يصحبه من رصاص .. فهو ليس في انتظارهم بالورود !..

قلت اعلم هذا .. ولكني اريد ان اعرف الامر من الداخل ..

عندما يواجه الجندي المعركة .. رصاص الدبابة .. رصاص الرشاش . رصاص الفيكرز .. الا يخاف .. الا يحاول الفرار .. او يشله الخوف ؟ ..

في عام ١٩٦٧ .. كان يخاف .. لماذا ؟.. لان الامر بالانسحاب قد هدم روحه القتالية .. فد هيأه للهزيمة .. بل أكدها له هو .. اذن يتبنى شعار : انج سعد فقد هلك سعيد ! ..

لقد قالوا له ان سلاح الطيران المصري قد دمر على الارض .. وانت الان فريسة عاريه للميراج الاسرائيلية .. فانسحب .. انج بنفسك .. هنا تحول الجندي المقاتل الى مواطن عادي .. غير ذي قضية .. مواطن يهرب من اسد او ذئب يطارده .. لقد اصبح الجندي اعزلا رغم وجوده في دبابة او مصاحبته لمدفع .. اعزل من روح القتال .. جردته منها قيادته بامر الانسحاب ..

هنا في القتال ١٩٧٣ .. الامر مختلف .. الجندي يقاتل .. حتى عندما لا يتوافر له الغطاء الجوي .. حتى عندما تصب الطائرات

الاسرائيلية وابلا من القذائف .. انه كما رايت يركع .. او ينام على ظهره ويصوب مدفعه أو صاروخه لها دون خوف او وجل ..

روح القتال .. لصيقة بالجندي .. لم تفارقه .. عنده قضية . يقاتل من اجلها .. وامامه قدوة .. تضحي من القادة ..

في عام ١٩٦٧ كان بعض الضباط يركبون الجيب ويهربون تاركين جنودهم .. فقد تمزق الانضباط مع تمزق روح القتال ..

اما اليوم فالجنود يرون المقدمين والعقداء والعمداء واللواءات يصعدون الساتر الترابي بنفس المتاع والذخيرة على الحبال .. تحت وابل من النيران .. مثلهم مثل الجنود تماما ..

ويرون رائدا بحريا يخلع طوق النجاة الخاص به ويعطيه لجندي تمزق بالرصاص طوق نجاته والجميع يقفزون من لنش يحترق ويغرق .. هنا يفدي القائد حياة الجندي بحياته هو ..

من المؤكد ان الجندي شانه شان اي انسان .. يحب الحياة .. وربما تملكه الخوف في اول مرة يواجه فيها وسائل الدمار والقتل .. ولكن من الذي يقهر فيه شعور الخوف ..

الوعي .. والقدوة .. الوعي الذي سماه اللواء سعد مامون بأنه البناء المعنوي وليس الشحن المعنوي .. فالشحن عملية مؤقتة .. اما البناء فيتم على مهل وفي أناه .. فيثبت اكثر واعمق ..

هي لحظة فقط .. ينخزك فيها شعور الخوف .. كانها مسمار حاد .. وانت وشطارتك مع هذه اللحظة .. فقد تدوم لاقل من ثانية .. لاقل من لمح البصر .. وقد تدوم دقيقة .. وقد تدوم على طول !..

وقد كان كل جنودنا شطارا جدا ..

ستة اعوام .. من الانتظار .. والتدريب .. والتوعية .. خلقت من الجندي مقاتلا « وحشا » .. يقهر اي تردد او خوف ..

ومناظر مطاردة الجنود للدبابات يريدون اصابتها .. غير عابئين بالرصاص المنهمر اصبحت مناظر عادية في حرب الصحراء .. ولم تعد آيات الشجاعة الخارقة ..

امام سيارة نقل عسكرية كبيرة وقفت اتحدث مع رقيب اول .. ذو شوارب ضخمة .. صورة كلاسيكية للعسكري القديم المحترف .. وهو فعلا قد قضى عشرين عاما وهو محارب في الجيش ..

ـ كانت مهمتي نقل الجنود في قوافل من السيارات حتى حافة القنال .. ثم ينزل الجنود ويعبرون في زوارق المطاط ..

نزل الجنود من السيارات وهم يقفزون بسرعة وصيحات الفرح تملأ المكان .. الله اكبر .. ولكان الارض كلها تؤذن الله اكبر ..

ولا يكاد ينزل ركاب زورق حتى يقبلوا الارض .. ويندفعوا الى الامام .. والقوارب تذهب وتجيء وتذهب بسرعة لتنقل مزيدا من الجنود..

على البر الاخر .. بحلول المساء .. راينا دبابات العدو قادمة الى مرابضها .. ومن غرورها كانت مضيئة كشافاتها .. لا تخشى الضرب ..

وبدأت اول دبابة تطلق الرشاشات على العابرين ..

كان جندي .. يقفز من اللوري .. سمع الضرب .. وشاهد جنديا يندفع الى الزورق فيسقط مجندلا بالرصاص في الماء ..

رأيت الجندي الشاب يتوقف .. يتردد في الجري .. نحو الزورق.. قلت له وانا اربت على ظهره :

ــ ايه الحمل تقيل عليك .. تعال اشيل معاك الذخيرة للقارب ؟...

انتفض الجندي ونظر في عيني نظرة سريعة .. وجرى بسرعة ناحية القارب .. وهو يرفع سلاحه في الهواء : الله اكبر ..

وجندي آخر .. خرج مع زميله .. صديق له طوال الست سنوات التي قضياها معا في الجيش .. متلازمين .. حتى في أجازاتهما متلازمين فهما من ابناء قرية واحدة ..

اطلقا صاروخا ضد دبابة .. اصاباها في الجنزير .. لكن الدبابة رشت بالمدفع .. سقط صديق حسين ..

استمر يجري وراء دبابة اخرى .. اطلق عليها ..

بعد نصف ساعة كان مع زملائه يركن ظهره الى سيارة مجنزرة مصرية يشرب من الزمزمية جرعة ماء لاول مرة بعد ١٤ ساعة منذ بدء العبور ..

ولحظة الشرب .. كانت لحظة تامل خاطفة ..

ــ حزنت لزميلي الذي استشهد .. صديق عمري .. وفرحت ايضا .. لاننا عبرنا ..

ولكن طعم الحزن في جبهة القتال غير طعم الحزن في الجبهة الداخلية ! في المدينة .. الحزن في الميدان سريع وخاطف .. وصاحبه يحوله الى طاقة غضب وحقد لتدمير العدو .. انه حزن بناء .. انه طاقة جديدة للقتال ..

واذا ما عبر المقاتل حاجز الخوف .. وثق في نفسه .. ووثق في سلاحه .. ولقد اذهلت براعة المقاتل المصري في استخدام السلاح كل

المراقبين العسكريين وفي مؤتمر صحفي تحت الارض .. سال صحفي اجنبي قائدا عسكريا مصريا :

● هل يرجع سر تلك البراعة الى انكم في الجيش استعنتم بخريجي الجامعات في الاسلحة المتقدمة تكنولوجيا ؟ .

قال القائد المصري وهو يخرج بنا الى سطح الارض مستعرضا معنا بعض دباباتنا :

– معظم الطواقم من الجنود ابناء العمال والفلاحين .. من اعماق الصعيد ومن الوجه البحري ..

والجنود الذين يحملون الصواريخ المضادة للدبابات وغيرها من الاسلحة الدقيقة في وسائل الدفاع الجوي .. معظمهم لم يتلقوا الا قسطا محدودا من التعليم .. مجرد القراءة والكتابة وعلمناهم نحن في الجيش قواعد وفنون الحساب والرياضة ! ..

ومضى القائد يقول :

– لم تزد نسبة الجامعيين في الجيش عن السنوات الماضية .. بل معظم المجندين منهم تحولوا الى ضباط احتياط ..

وتدخل مراسل صحفي فرنسي في الحديث قائلا ان جامعة السوربون منحت جائزة الدكتوراه لضابط في الجيش الاسرائيلي كتب رسالة عن المقاتل المصري ملاها بالاكاذيب عن عدم قدرة ذلك المقاتل .. كان ذلك في عام ١٩٦٩ ..

وضحك القائد العسكري المصري في ثقة وقال :

– اظن جامعة السوربون عليها ان تمزق تلك الرسالة الان !.

٢٠

معركة الدبابات: الهدف والنتيجة؟!

عندما صدر البلاغ الحربي صباح يوم الاحد ١٤ اكتوبر معلنا انه في تمام السادسة صباح اليوم بدأت قوات الجيش المصري في تطوير هجومها في اتجاه الشرق طبقا للخطط الموضوعة وان دباباتنا ومدرعاتنا تتقدم على طول خط المواجهة ..

كان ذلك ايذانا لا ببدء ما وصف بعد ذلك باشرس معارك الدبابات فقط ، بل كان ايضا بداية لتطوير حاسم في خطة الجيش المصري بالنسبة للمعركة .. فكما سبق واوضحنا ان خطة القيادة كانت الثبات بعد توسيع رءوس الكباري لتلقى العدو على « طريقة مفرمة اللحم » ..

وكانت قد جرت مناقشات في القيادة العامة للقوات المسلحة حول احداث ذلك التطوير بعد تثبيت رءوس الكباري مباشرة .. بمعنى التقدم راسا الى الممرات مستغلين فرصة عدم اعداد الاحتياطي الشامل لاسرائيل اعدادا كاملا ..

ولقد كان الراي قد استقر على البدء في تطوير الهجوم يوم ١٥ اكتوبر .. لكن الضغط الاسرائيلي المتزايد على الجبهة السورية قد جعل القيادة المصرية تعجل ببدء الهجوم فبدأته فجر يوم ١٤ اكتوبر ..

والواقع انه يمكن القول ان الهجوم بدا في يوم ١٣ اكتوبر .. فبعد ظهر ذلك اليوم السبت ١٣ اكتوبر ابلغت نقط المراقبة الاسرائيلية قياداتها انها تشاهد سحابات ضخمة من الغبار متجهة على طول القناة في اتجاه

المحور الاوسط .. وهذه السحابات من الغبار ترجمتها عند العسكريين ان ارتالا من الدبابات والمدرعات تتقدم وتثيرها ..

وفي ذلك اليوم شنت الفرقة المدرعة ٢١ بمساندة من فرقة المشاة الميكانيكية ١٦ هجوما على القوات الاسرائيلية العاملة في القطاع الاوسط من الجبهة .. وكان يقودها الجنرال اريك شارون .

وقد دارت معركة هائلة بالدبابات للسيطرة على الطريق الرئيسي المؤدي الى ممر الجدى ، **وفي هذه المعركة خسر الطرفان المتحاربان خسارة كبيرة في الدبابات والارواح ولكن الاسرائيليين في النهاية تراجعوا .**

وعلق الجنرال شارون على قسوة تلك المعركة بقوله « لقد حضرت معارك كثيرة لكنني لم اشهد في حياتي اعنف من هذه المعارك .. انها هذه المرة حرب حقيقية فعلا ! »

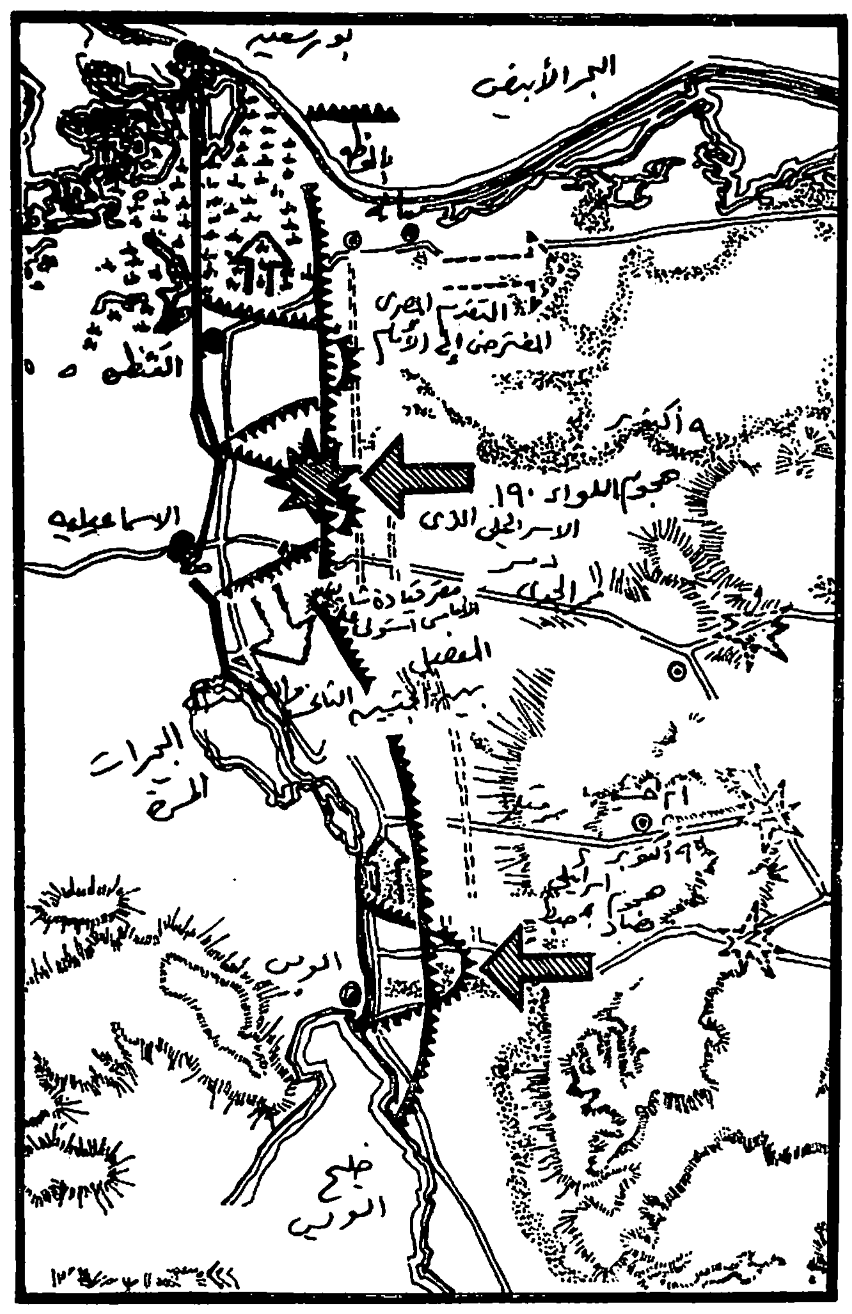
والحقيقة ان شدة المقاومة الاسرائيلية في تلك المنطقة تكشف عن تركيز القوات الاسرائيلية باتجاه الشمال والجنوب من القطاع الاوسط تمهيدا للهجوم المضاد الكبير الذي عرف بعد ذلك باسم « الثغرة » .

صباح يوم ١٤ اكتوبر يوم البداية الحقيقية لمعركة الدبابات على طول خط المواجهة فاجأت ازمة قلبية اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني ونقل الى المستشفى .

وتولى قيادة الجيش بدلا منه اعتبارا من صبيحة يوم ١٤ اكتوبر اللواء تيسير العقاد رئيس اركان ذلك الجيش واصبح هو مسئولا عن تطوير الهجوم في معركة الدبابات ثم عين اللواء عبد المنعم خليل قائدا للجيش الثاني يوم ١٦ اكتوبر . وكان قائدا لهذا الجيش من قبل في عام ١٩٧١ .

وهذه التواريخ مهمة .. كما سنرى بعد ذلك ونحن نتناول معركة الثغرة .. وقد قال بعض المراسلين الاجانب ان اللواء سعد مأمون قد اصيب بالنوبة القلبية حزنا على خسارة الرجال والدبابات في معركة الفرقتين ٢١ و ١٦ .

وقد سخر اللواء سعد مأمون من هذه التفسيرات قائلا ان اي قائد لا يتوقع الخسارة والتضحية في الحرب ليس بقائد .. وانه رغم الخسارة في تلك المعركة وهي شيء طبيعي فقد اضطر العدو للتراجع علاوة على انه خسر خسارة مروعة في قواته ومدرعاته ..



المدى الذي وصل اليه الجيش المصري في سيناء ما بين ٦ و ١٢ أكتوبر ، ويلاحظ المفصل بين الجيشين الثاني والثالث وأن مقر قيادة شارون الأمامي قرب المفصل استولى عليه الجيش المصري في ٩ أكتوبر ، ويلاحظ اتجاه الزحف المصري بالسهم العلوي المنقط الذي كان مقترحاً القيام به بعد العبور .

واضاف ضاحكا : لماذا لا يكـون المرض بسبب الارهاق في العمـل مثلا ؟.. لماذا يكون الحزن .. وعلى اي حال ان اي قائد لا بد ان تكون لـه مشاعره تجاه رجاله الذين يعتبر هو مسئولا عنهم وعن حياتهم ..

★ ★ ★

نعود الى معركة الدبابات ..

لقد بدا الهجوم البري الشامل كمـا قلنا في الصبـاح المبكر يوم ١٤ اكتوبر .. وكان الهدف الوصـول الى الممـرات الاستراتيجية التي كـان متوقعا ان يتمسك الاسرائيليـون بها لضرورات استراتيجيـة معروفـة . فالواقع ان الاستيلاء عليها يفتح الطريق الى سيناء .. ويساعد على حسم نتيجة الحرب برمتها .

بدا التمهيد للهجوم بقصف مكثف من المدفعية لمدة تسعين دقيقة على مواقع ومدرعات العدو .

وكانت اكثر من ثلاثمائة دبابـة مصريـة قد عبرت من الغـرب الى الشرق فاصبح لدى الجيش المصري حوالى الف دبابة هناك ..

وبدا الجيش الثاني في الشمال الهجوم مستهدفا التقدم باتجاه الشرق على الطريق الاستراتيجي الشمالي ..

واندفعت وحداته المدرعة تطارد فلول الدبابات الاسرئيلية المتراجعة من معارك الامس لاخراجها من منطقـة « المثلث » الواقعـة الى الشمـال الشرقي من « القنطرة » .

اما في جنوب تلك القوات .. فقد تحركت وحـدات اخرى تابعـة للجيش الثاني وبدات هجومها على القوات المقابلة لمدينة الاسماعيلية بهدف الوصول الى ممر « الختميه » .

ودارت في تلك المنطقة معارك كبيرة بالدبابات .. اذ حاولـت القوات الاسرائيلية صد هذه الهجمات لكنها فشلت واجبرت على التراجع .

اما في القطاع الجنوبي فبدات في الوقت نفسه وحدات تابعة للجيش الثالث هجومها على محورين رئيسيين :

المحور الاول في اتجاه الشرق للوصول الى ممر متلا .

والمحور الثاني في اتجاه الجنوب فـي محاولة للوصـول الى بـار البترول الواقعة في يد الاسرائيليين منذ هزيمـة ١٩٦٧ (**تحصل اسرائيـل من تلك الآبـار على حوالى مليـون دولار كل ثلاثـة ايام حسب تقديـرات الخبـراء**) .

ولكن لما كانت تلك المنطقة تدخل في اطار الاستعداد الاسرائيلي لفتح « الثغرة » .. فقد اصطدمت قوات الجيش الثالث بمقاومة اسرائيلية عنيفة جدا واستمرت المعركة سبع ساعات اشتركت فيها جميع انواع الاسلحة .

فقد شاركت الطائرات القاذفة المقاتلة المصرية فيها اذ هاجمت خطوط العدو ومواصلاته في العمق وكذلك هاجمت المدرعات الاسرائيلية ومطار « الماليز » لتدمير اجهزة الاتصال والشوشرة التي اعاد الاسرائيليون انشاءها بعد ضربها في الغارة الاولى يوم ٦ اكتوبر .

وقد كان الهجوم الجوي المصري قاسيا .. **وسمع العالم لاول مرة عن اشتراك طائرات الميراج الليبية في الحرب عندما تقدمت اسرائيل باحتجاج شديد اللهجة الى فرنسا في نفس اليوم حول هذا الموضوع .**



وقد حقق الهجوم المصري واحدا من اهدافه .. من اليوم الاول .. هدف تخفيف الضغط على سوريا .

فقد انتقل الجهد الاكبر لسلاح الطيران الاسرائيلي الى جبهة سيناء للمشاركة ضد الهجوم المصري . وبدات طياراته تضرب القوات المصرية كما تضرب المعابر وطرق المواصلات وقوافل الدبابات والمركبات .

بينما اتجهت طائرات اخرى تركز على ضرب مطارات الدلتا في المنصورة وطنطا والصالحية . ثم بدات في ضرب قواعد الصواريخ .

وسقط للاسرائيليين عدد كبير من الطائرات بسبب الصواريخ ، وايضا في معارك جوية مع سلاح الطيران المصري الذي تصدى لها عندما حاولت الهجوم على المطارات .

وضربت الطائرات الاسرائيلية في ذلك اليوم بور سعيد ايضا .. واشتبكت معها الطائرات المصرية واسقطت عددا منها .

وفي المساء كان حاييم هيرتزوج الاسرائيلي يقول في التليفزيون متجهما:

« ان التقديرات بان المصريين كانوا ملزمين بالوصول الى مرحلة الهجوم كانت بالفعل صحيحة .

ومن السابق تقييم الهجوم المصري الذي يبدو حسب كل الدلائل انه كبير جدا .. وعلى جبهة واسعة .

لقد كانت قواتنا مستعدة لمواجهة الهجـوم . ونأمل ان نتمكن مـن الصمود امام القوات المصرية المهاجمة . فالمنطقـة بالتأكيد مغطاة بالغيـوم والغبار نتيجة للصراع الدائر . ويمكن القول اننا دخلنا في سيناء الى احدى المراحل الخطيرة في الحرب .. »

★ ★ ★

في اليوم التالي .. خفت حدة المعارك قليلا .. ودارت في مواقـع متفرقة .. وبدأ الجيش المصري يعزز مواقعه الجديدة التي اكتسبها مـن معارك الامس .. فاقام الاستحكامات وزرع الالغام ومـد اسلاكا شائكـة انتظارا لوثبة اخرى تقوم بها القوات في اتجاه الممرات بعد تعزيزها وتعويض ما خسرته في معارك الامس ..

ويوم ١٦ اكتوبر دارت المعارك ايضا .. ثم يوم ١٧ ازدادت المعركـة عنفا واطلقت وكالات الانباء عليها وصف « اشرس معارك الدبابات منذ معارك الحرب العالمية الثانية » ..

وظهرت تقديرات لعدد الدبابات المشتركة فيها (ما بين ١٤٠٠ و١٦٠٠ دبابة وهو نفس الرقم الذي اشترك في معركة العلمين عندما رد مونتجومري بهجوم كاسح قوات روميل) .

وكانت شراسة المعركة ترجع بالدرجة الاولى الى محاولـة القـوات المصرية اغلاق الثغرة التي كان الاسرائيليون قد بدءوا في فتحها مساء يوم ١٥ اكتوبـر .

واستمرت المعركة ايضا يوم ١٨ اكتوبر .. وحتى وقف اطلاق النار لم تتوقف المعركة رغم قتال الجيش المصري في الغرب ضد القوات الاسرائيلية التي اخترقت قناة السويس الى الغرب .

هذه باختصار اطوار المعركة منذ بدايتها حتى توقف القتال ..



لماذا لم يتقدم الجيش المصري الى الممرات ؟

لن نستطيع تقييم معركة الدبابات تقييما موضوعيا سواء من ناحيـة الهدف او النتيجة الا اذا عرضنا للخلاف في وجهات النظر داخل القيادة المصرية حول هذا الموضوع .

وهو خلاف لم يعد خافيا ، وقد كان « كتاب حرب الساعات الست في يوميات مراسل حربي » للمؤلف هو الكتاب الوحيد بين الكتب المصرية التي كتبت

عن الحرب الذي اشار في ديسمبر ١٩٧٣ الى ذلك الخلاف بالتفصيل وصدرت بعد ذلك كتب اجنبية عديدة تحدثت عن ذلك الخلاف بل ونسب مؤلفو كتاب السانداي تايمس وجهتي النظر الى قادة عسكريين وقالوا ان الخلاف كان بين المشير اسماعيل والفريق سعد الشاذلي .

فماذا كانت وجهتي النظر .؟

كان الوضع في سيناء يتلخص في الاتي :

● استطاعت القوات المصرية ان تحسم معركة إقتحام خط بارليف في ست ساعات كما اوضحنا .

● كما استطاعت ان تثبت رءوس الكباري الخمسة في يومين او ثلاثة .

● وتمكنت من التوغل لكيلومترات عديدة في ثلاثة او اربعة ايام .

● بينما الاحتياطي الاسرائيلي الكامل لم يعبىء الا في ثلاثة او اربعة ايام .

وحائط الصواريخ اثبت فعالية في ردع الطيران الاسرائيلي .

لماذا توقفت القوات المصرية ولم تتقدم بسرعة منتهزة حالة الارتباك وعنصر المفاجاة الذي اضعف من رد فعل القوات الاسرائيلية ولم يجعل لها السيطرة على ميدان القتال ؟

انصار نظرية استمرار التقدم يطرحون القضية كالآتي :

★ كان مقدرا ان يخسر الجيش المصري نصف قواته العابرة على الاقل وهي تعبر القناة وتقتحم خط بارليف . ويعني هذا بلغة الارقام خسارة تتراوح ما بين عشرة آلاف وعشرين الف جندي .

★ اذا كانت الخطة الاصلية هي العبور والاقتحام مع التضحية بهذا العدد من الشهداء ثم تثبيت رءوس جسور ونقل فرق اكثر وعتاد اكثر ، وهذا بالطبع يستغرق وقتا . ثم بعد ذلك التقدم واحتلال الممرات . بعد ان يكون قد تم تثبيت قواعد صاروخية لحماية ذلك الزحف .

اذا كانت تلك هي الخطة الاصلية ، فقد كان واجبا تغييرها بعد ان حدثت نتيجة غير متوقعة وهي ان الخسارة في العبور كانت طفيفة جدا بالنسبة لما كان محتملا حدوثه .

★ وهذا التغيير يعني استغلال حالة الارتباك التي سادت العدو وعدم استكمال استعداده والاندفاع الى الامام لاحتلال الممرات حتى لو بعدت القوات المصرية عن حماية الصواريخ مؤقتا .

★ والخسائر التي ستحيق بالقوات نتيجة انكشافها للطيران الاسرائيلي لا تزيد عن الخسائر التي كانت متوقعة في عمليتي العبور والاقتحام لخط بارليف . علاوة على ان الطيران المصري بالاضافة الى الطيران العربي الذي لم يكن قد اشترك في المعركة ولم يشترك بعد .. كان سيساعد على توفير غطاء جوي حتى يمكن نقل قواعد صاروخية جديدة الى الضفة الشرقية .

★ ويرى أصحاب هذه النظرية انه لو كانت قد نفذت هذه الخطة «الجديدة» لكان وضع الجيش المصري افضل بحيث كان يتعذر على الاسرائيليين تنفيذ عملية الاختراق اذ كان عليهم اختراق الجيش لمسافة تزيد عن اربعين او خمسين كيلو مترا بدلا من اختراق لمسافة خمسة عشر كيلو .

★ كما ان عبور المرات كان سيفتح الطريق امام الجيش المصري لتحرير سيناء كلها وغزة ويعطي لمصر يدا عليا اكثر في اي مفاوضات دولية تحدث لحل مشكلة الشرق الاوسط .

★ اضف الى ذلك ان مثل هذا الهجوم الشامل للجيش المصري كان سيخفف وطأة الهجوم على الجيش السوري في الجولان بل سيتيح لذلك الجيش والجيش العراقي وباقي القوات العربية على تلك الجبهة ان تقوم بهجوم مضاد شامل يضع الاسرائيليين في مأزق ويرغمهم على التراجع .

ويستدل انصار هذه النظرية على صحة وجهة نظرهم بما نشرته بعض الصحف الامريكية ذاتها عن هذه الفكرة .

فقد نشرت مجلة النيوزويك مثلا ان بعض رجال المخابرات الامريكية ذكروا انه كان ممكنا للمصريين ان يندفعوا في الايام الاولى للقتال للاستيلاء على المرات وكان ممكنا نجاحهم .

« لقد كان لدى المصريين خمس فرق ميكانيكية وفرقتان مدرعتان . وكان ممكنا لهم اختراق الدفاعات الاسرائيلية التي كانت ما زالت ضعيفة ويمكنهم تدمير المدرعات والمدفعية الاسرائيلية . »

وقالت مجلة التايم ايضا ان المصريين قد فشلوا في ان يستغلوا الفرصة المواتية في سيناء لهم بعد النزول للتقدم نحو ممر متلا مثلا .

وطرح حاييم هرتزوج المعلق الاسرائيلي بعد الحرب تساؤلا لماذا لم يتقدم المصريون في الايام الاولى للقتال .

هذا ملخص اصحاب نظرية التقدم الى الامام ..

★ ★ ★

اما اصحاب النظرية المخالفة فيقولون :

★ ان الجيش المصري لم يجمد وضعه بعد العبور . فقد اصطدم منذ اللحظات الاولى باحتياطيات العدو التي دفع بها الى المعركة على الفور . وخاض معارك ضد لواءات مدرعة مثل اللواء ١٩٠ وتقدم الجيش المصري رغم ذلك الى عشرين كيلو مترا داخل سيناء في بعض المواقع .

★ انه كان من الضروري توفير الحماية الصاروخية لاي تقدم بعد ذلك فان التوغل في سيناء دون تلك الحماية يعرض القوات المصرية لخسائر فادحة من ضربات سلاح الطيران الاسرائيلي الذي كانت الولايات المتحدة تعوضه اولا باول عن النقص في الطائرات والطيارين المرتزقة .

اما القول بان سلاح الطيران المصري والعربي كانا كفيلين بحماية القوات المتقدمة فهذا صحيح الا انه لم يكن سليما التركيز على تلك الحماية بالطيران لان ذلك يعني ترك العمق المصري مكشوفا الى حد كبير لهجمات الطيران الاسرائيلي المتوقعة في الداخل كمحاولة منه للضغط على الجيش المصري المتقدم .

★ كما ان الخسائر المتوقعة دون حماية الصواريخ ستكون جسيمة واكثر من الخسائر المتوقعة عن العبور والاقتحام لخط بارليف لان الاسرائيليين سيكونون في وضع دفاعي ممتاز عند الممرات . مما سيمكن مدرعاتهم بجانب سلاحهم الجوي من الحاق خسائر فادحة بالجيش المصري المهاجم .

★ أن هناك مبالغات حتى في تقدير الصحف الامريكية لارتباك العدو وعدم استعداد احتياطييه لان هذا هو المبرر الذي حاولت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية تقديمه للراي العام في اسرائيل والراي العام العالمي لتبرير الهزائم المتتالية التي منيت بها القوات الاسرائيلية في الاسبوعين الاولين للقتال . فالواقع ان العدو بعد يومين على الاكثر كان يدفع بقوات كثيرة للقتال . بل انه في معركة الدبابات المشهورة التي بدات في اليوم التاسع من القتال دفع الى الميدان بدبابات اكثر عددا من الدبابات المصرية التي كانت وقتها في جبهة القتال .

★ اما القول بتخفيف الضغط على الجبهة السورية فقد كان ذلك في حسبان القيادة المصرية دائما .. بل انها في بعض مراحل القتال شددت من الهجوم على العدو لتخفيف ذلك الضغط .

★ ومن ناحية اخرى فان تقدم الجيش المصري حتى الممرات بعمق خمسين كيلو مترا لم يكن ليمنع العدو من تنفيذ عمليات تسلل وامرار بالهليكوبتر على الضفة الشرقية او حتى الغربية للقتال .. وبالعكس ان انتشار الجيش المصري على مساحة ضخمة كهذه ١٧٠ كيلو مترا بطول القناة × ٥٠ كيلو مترا عمق في سيناء كان يعطي للعدو فرصة افضل للانزال خلف الجيش في الوقت الذي يكون فيه في مركز المدافع الافضل عند الممرات .

★ اذن فقد كانت الخطة الاصلية هي الافضل . التي كانت تقضي بالتقدم الى عمق مناسب في حماية الصواريخ ثم حشد القوات ونقل قواعد صاروخية جديدة الى الشرق ثم الهجوم على العدو للتقدم نحو الممرات.. ومن هنا كانت اهمية الجسر الجوي السوفيتي لحمل الاسلحة وبخاصة صواريخ سام ٦ .

وهو ما حدث فعلا ، فقد كان الجيش المصري يستعد لذلك الهجوم وبداه فعلا .

★ ★ ★

هذا هو ملخص حجج اصحاب النظريتين .. ولكل نظرية حججها الوجيهة .

ولقد ناقش من قبل الكاتب المطلع الاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الاهرام السابق هذا الموضوع مع المشير احمد اسماعيل وساله عما اذا كنا « تقليديين » اكثر من اللازم في تلك الحرب ام لا واجاب المشير يومها ونشر رايه في جريدة الاهرام .

وقد ناقشت نفس الموضوع مع المشير احمد اسماعيل .. بالتفصيل وكان سؤالي الاول :

● لماذا لم يتقدم الجيش المصري بعد العبور واقامة رءوس الكباري نحو ممرات سيناء المشهورة لاحتلالها واكتفى باحتلال مساحة على طول الشاطىء الشرقي للقناة بعمق ما بين عشرة وخمسة عشر كيلو مترات ؟.

اجاب المشير احمد اسماعيل :

لاول مرة في تاريخ العسكرية المصرية تخرج توجيهات سياسية مكتوبة للقائد العام للقوات المسلحة بجانب التوجيهات العسكرية توضح طبيعة المهمة والعملية .

وليس ثمة مجال الآن لنشر تلك التوجيهات .

ولكن ليس سرا ان نقول ان واحدا من اهم تلك التوجيهات هو الحاق اكبر خسائر ممكنة بالعدو .. مع تقليل خسائرنا قدر الامكان .. بصرف النظر عن مساحة الارض التي تحتلها قواتنا .

ان الهدف هو ضرب نظرية الامن الاسرائيلي ، كسر التفوق الاسرائيلي الاسطوري المزعوم ..

وقد نجحنا في تحقيق ذلك ..

قلت :

● هذا حسن .. ولكن اذا كنا قد نجحنا في الحاق خسائر فادحة بالعدو وهو ما اعترف به الخصوم قبل الاصدقاء سيظل السؤال يلح .. لماذا لم نتقدم الى ابعد .. ان كتاب السانداي تايمز يقول مثلا : ان المصريين اضاعوا انتصارهم الذي احرزوه في الاسبوع الاول من الحرب .

ــ كان هناك امامنا طريقان .. او اسلوبان :

اما نتقدم بعد ان اقمنا رءوس الكباري .. الى الامام .. وسنتعرض عندئذ الى خطرين :

ــ سنكون تحت رحمة سلاح الطيران الاسرائيلي الذي هو متفوق عن سلاح الطيران عندنا .. من ناحية الكم والكيف اي عدد الطائرات ونوعيتها . ان طيارينا اثبتوا انهم متفوقون عن الطيارين الاسرائيليين .. ولكن يبقى تفوق الطيران الاسرائيلي . هذه مسألة يجب الا ينساها احد عند مناقشة حرب اكتوبر .

ــ من ناحية أخرى ستطول خطوط مواصلاتنا الى داخل سيناء .

قلت :

● اما كان ممكنا نقل شبكة الصواريخ او حائط الصواريخ من الغرب الى الشرق لحماية تقدمنا ؟

ــ ممكن لكن هذا يأخذ وقتا .. ومرتبط ايضا بالمدد والعون الخارجي .

واستطرد المشير يقول :

ــ نعود الى الطريقين امامنا ..

الطريق الثاني هو ان نقوم بعملياتنا العسكرية على مراحل .. اي نتقدم على طريقة الوثبات ..

اننا طبعا نتوقع ان يقوم العدو بهجمات مضادة بمجرد اطلاق الطلقة الاولى للعبور ، وقد حدث ذلك فعلا .

كانت مهمتي استدراج العدو وانا ثابت في موقعي ..

لا داعي لان اخرج من مواقعي وادخل معه في معركة تصادمية بعيدا عن حماية الصواريخ ..

وقد نجحت هذه الطريقة .. فدمرنا له اللواء ١٩٠ مثلا ودمرنا الوية اخرى في الجنوب جزئيـا ..

وقد سمى الاسرائيليون هذه الطريقة « مفرمة اللحمة » .

ولقد كنا نتقدم ونوسع خطوطنا وعمقنا هذه الخطوط ببطء حقا ولكن بثبـات ..

● ولكن البعض يقول انه كان متوقعـا ان نخسر فـي العبور نصف القوات التي عبرت اي اكثر من عشرين الف جندي .. بينما الذي حـدث اننا خسرنا بضع مئات فقط .. لماذا لم نتقدم ولم تكن نخسر ما كـان مفروضا ان نخسره عند العبور ؟

ـ الحرب ليست مغامرة .. وانما حسابات .. وانه من الاستخفاف بعقول وارواح الناس ان نقول انه كان لا بد أن نخسر عشرين الفا في جميع الاحوال .. رغم انه بوسعي ان احقق اهدافي دون هذه الخسارة الجسيمة .

ان الاعداد المتزايدة من قتلى الاسرائيليين واسراهم هي خير دليل على نجاح تكتيك « مفرمة اللحمة » هذا .

ثم اننا كنا نتقدم ايضا ونوسع ما اكتسبناه من ارض .. وكنا اعددنا انفسنا لتطوير الهجوم والقيام بوثبة اوسع واعمق في سيناء بعد أن درسنا اسلوب العدو وفهمنا تكتيكه وطباعه .

واستطرد المشير يقول :

لو اتبعنا هذا الاسلوب المغامر وخسرنا قوات عديدة في سيناء لمـا كان بامكاننا ان نحاصر الثغرة كما حاصرناها فعـلا بعد اسبوع واحد مـن حدوثهـا .

● هل لي ان افهم كيف حدثت معركة الدبابات الشهيرة ؟

ـ قلت لك اننا كنا نعد انفسنا لتطوير الهجوم .. وقد كانت خطتنا بدء هذا التطوير يوم ١٥ اكتوبر .. لكننا بكرنا الموعد يوما واحـدا وذلك لتخفيف الضغط على الجبهة السورية .

من ناحية اخرى كان الاسرائيليون قد بدءوا يحصلون على المدد مـن الولايات المتحدة ومنذ يوم ١١ اكتوبر بدا الجسر الجوي الامريكي ..

فعززوا قواتهم للقيام بهجوم مضاد كبير .

● لماذا تعتبر هذه المعركة من اشرس معارك الدبابات في التاريخ .

– لانه اشترك فيها في معارك تصادمية (اي دبابات تواجه دبابات اكثر من ١٦٠٠ دبابة ... وحدثت فيها خسائر جسيمة للعدو ..

● وخسائرنا نحن ..

– نحن لم ننكر قط اننا ايضا خسرنا .. ففي الحرب يخسر الطرفان المتحاربان فقط ان الارقام التي ذكرها بعض الكتاب الاجانب مبالغ فيها .

● هل كسبنا في تلك المعركة .؟

– نعم رغم خسائرنا فقد كبدنا العدو خسائر مروعة .. كما تقدمنا ايضا بضع كيلومترات الى امام علاوة على تخفيف الضغط فعلا عن زملائنا في سوريا .

● تقول بعض المراجع الاجنبية اننا اخطانا في معركة الدبابات هذه باننا لم نستخدم المشاة من حاملي الصواريخ الذين يدمرون الدبابات كما تعودنا على استخدامهم منذ بداية الحرب واثبتوا فعاليتهم .

– ان اية قيادة لا يمكن أن تستخدم اسلوبا واحدا في الحرب دائما.. لقد كان استخدام المشاة مفاجاة للعدو في البداية .. ونجح .

ولكن بعد بضعة ايام كان لا بد من تغيير التكتيك ..

وسأضرب لك مثلا بالعبور ذاته ..

اننا نعلم ان العدو متفوق علينا جويا كما قلنا .. فاتبعنا عدة وسائل للتغلب على هذا التفوق ..

كان عبورنا على طول خط المواجهة ١٧٠ كيلومترا فاضطررنا العدو الى توزيع قواته الجوية .. وبعثرة دباباته حيث لا يعرف نقاط التركيز .

ثم هي بعد ذلك سقطت في شراك شبكة الصواريخ .

وايضا لم اتحرك بسرعة الى عمق يبعد عن هذه الشبكة ..

بعد أن استقررنا .. بدانا نغير التكتيك .. وهو انتظار العدو ليأتينا ونضربه ..

بعد ذلك بدانا/نتقدم .. لتطوير الهجوم .

★ ★ ★

واذا كنا قد انتهينا من عرض معركة الدبابات .. اطوارها .. والحوار الذي ادى في النهاية اليها .. فكيف كانت المعركة تدور من الناحية الميدانية .. لماذا كانت اشرس معارك الدبابات .

ولكن قبل ذلك .. لا بد ان نضع في الاعتبار عدة عوامل اساسية ونحن نقيم المعركة :

اولهما ان تدفق الاسلحة الامريكية كان قد تزايد مما عوض الاسرائيليين عن كل دباباتهم التي فقدوها وسنرى تفصيلا حجم الجسر الجوي الامريكي فيما بعد بينما تعويض القوات المصرية كان محدودا نسبيا .

ثانيا : ان الاسرائيليين استخدموا اسلحة جديدة مثل الهليكوبتر المزود بصواريخ تليفزيونية لضرب المدرعات .

ثالثا : ان سلاح الطيران الاسرائيلي وجد فرصته الذهبية لضرب المدرعات المصرية وهي تبعد عن حماية مظلة الصواريخ فلم يكن نقل شبكتها من الغرب الى الشرق يتم بالسرعة التي تكفل توفير الحماية اللازمة .

رابعا : ان الثغرة التي فتحها الاسرائيليون في ١٦ اكتوبر قد جعلت القيادة المصرية تتجه الى مقاومة الخطر الداهم الجديد في الغرب اكثر ..
ومع ذلك فان المنتيجة النهائية للمعركة حسب تقديرات كل المعلقين العسكريين .

★ ان الطرفين قد خسرا خسارة جسيمة في الدبابات والمدرعات . وان خسائر الاسرائيليين وحدهم في معركة الدبابات لا تقل عن اربعمائة دبابة تقريبا ، واكثر من الفي قتيل وجريح .

وهذه الخسائر حتى لو كانت الخسائر المصرية مثلها تمثل خسارة اكبر بشكل فادح بالنسبة لاسرائيل . انها بالنسبة لعدد السكان تساوي ستين الف قتيل وجريح اسرائيلي على الاقل ! ...

★ ان القوات المصرية كسبت ارضا جديدة فقد تقدمت قوات الجيش الثاني كيلو مترين جديدين في بعض المواقع . والمواقع التي لم يحدث فيها تقدم لم تتراجع فصيلة مصرية واحدة عن شبر واحد من الارض .

وعندما تأكد توقف اطلاق النار في ٢٥ اكتوبر كانت القوات المصرية ترابط على بعد تسعة كيلو مترات غرب الممرات الاستراتيجية في سيناء (متلا . الجدى . الختمية) وتسيطر على مساحة من الارض فيها تقدر بثلاثة آلاف كيلو متر مربع من مجموع ستين الف كيلو متر مربع هما مجموع مساحة شبه جزيرة سيناء .

★ ★ ★

شاهد عيان لحرب الدروع

اتيح لي ان اشهد اياما من معركة الدبابات ..

وفي هذه الحرب كانت المرة الاولى التي اتيح لي فيها إن ارى دبابة عن قرب .. ان اتاملها .. والمسها .. واركبها .. واستمع الى شروح اكيف تعمل .. ثم اراها وهي تقاتل ..

وطالما عجبت وتساءلت .. وانا اتامل هذه المركبة التي تجمع بين القوة الغاشمة وارقى تطور في فن الميكانيكا .. ولا عجب اذ كيف تستطيع ان تصنع مركبة ثقيلة جدا (ربما خمسين طنا من الفولاذ) وبعجلات جرار زراعي .. ثم تجعل هذه الكتلة التي تبدو صماء قادرة على الحركة بل والمناورة اماما ويسارا ويمينا واستدارة ؟..

ليس هذا فحسب بل ان الذين صنعوا الدبابة زودوها بمدفع رهيب ثقيل ايضا قادر على توجيه طلقات تدق دروع دبابات اخرى او اية اجسام سميكة بضغط يساوي ضغط خمسين طنا على السنتمتر الواحد . بسرعة خيالية !

اما داخل الدبابة .. فستجد مقاعد جلدية يحشر فيها طاقمها المكون من اربعة .. وعندهم مخزن للذخيرة .. ونظام للتهوية .. واجهزة للتصويب واحكامه ..

ان ادارة مركبة معقدة وثقيلة كهذه يحتاج الى مهارة .. والهجوم بها والدفاع يحتاج الى مهارة .. ليس عجيبا اذن ان رجال الدبابات في الجيش الاسرائيلي يعتبرون اهم افراد في الجيش .. يعتبرون « الصفوة » ..

دروع الدبابة تحميها .. ولكن الى حين .. او الى حدود معينة .. فاذا ما اطلقت عليها قذيفة من قرب معين فان اية دروع في اي دبابة لا تجدي .. (اقصى سمك للدرع حتى الان ست بوصات) .

بل ان اطلاق قذيفة على دبابة من مسافة قريبة معينة لا بد أن تخترق سمك درعين من سمك اية دبابة ..

ومن هنا تاتي البراعة في قتال الدبابات من تحديد الموقع الذي تضرب منه دبابة اخرى ..

كيف تحمي دبابة نفسها من هجوم دبابات الاعداء اذن ؟

كلما تفوق مدى اطلاق مدفع الدبابة على مدى دبابات العدو كلما

كانت فرصتها في اصابة تلك الدبابات افضل . وفرصتهـا في النجـاة كذلـك . .

ولكن افضل وسائل الحماية هي اخفاء الدبابة لنفسها عـن العدو ولذلك فان قائد اي مجموعة من الدبابات يبحث اولا عـن منخفضات مـن الارض يستتر فيها ولا يبدو الا مدفعه . .

ومن هنا فان ذلك القائد غالبا ما يعمد الى الظهور براسه في برج الدبابة ليرى انسب المواقع للتواري . ذلك لان افضـل البيروسكوبات في اي دبابة في العالم الان لا تكشف الارض جيدا . .

★ ★ ★

بدات معايشتي مع معركة الدبابات عندما كنت في الجبهة يـوم ١٦ اكتوبر اي بعد بدء المعركة بيومين . .

وكنت قابعا على سرير « سفري » في مقر قائـد كتيبة من كتائـب فرقة من فرق الجيش الثاني تحت الارض . . بينما هـو يتلقى اشارات تليفونية عن سير العمليات . . وتعليمات من قائد الفرقة . . وامامه خرائط يخطط عليها باقلام زرقاء وحمراء . .

من حين لاخر كنا نتحدث . . واصوات القنابل المكتومـة تصل الى آذاننا رغم اننا تحت الارض . .

كان الضابط يقول لي ان الاسرائيليين على وشك القيام بهجوم مضاد كبـير . .

وسالتـه :

● لماذا لا نقوم بالهجوم الكبير المنتظر لدفع قواتنـا الى الامام . . في طريق العريش . . والممرات . .

لم يجيبني الضابط ولكنه مضى يقول

ــ ان العدو قد غير تكتيكه من روميل الى مونتجومري .

ومونتجومري هزم روميل بالهجوم الكثيف . . دفع بمئات الدبابـات مع ضرب مكثف من المدفعية . . ضد روميل . .

وامسك الضابط ورقة وقلما . . وسماعة تليفون الميـدان على اذنـه وقـال :

ــ العدو يضرب بور سعيد كما تعرف في الشمال ضربا مكثفا . . لا بد ان وراء ذلك عملية ابرار .

وهو قد تسلل في الغرب عند الدفرسوار .. (حتى ذلك الحين كـان الضباط المصريون في الجبهة يتصورون ان عملية اختراق الجبهة المصرية في الجنوب مجرد تسلل لفرق كوماندوس اسرائيلية) ..

الخطة واضحة .. بور سعيد في الشمال والدفرسوار في الجنوب..
ثم لا بد اذن للعدو من ان يشن هجوما في الجبهة الشماليـة ضد الجيش الثاني بهدف رد ذلك الجيش على اعقابه حتى شاطىء القناة الشرقي وظهره الى خط بارليف الـذي أقتحمه منذ اقـل من اسبوعـين وبدأ في نسف حصونـه ..

ثم يحتل العدو بور سعيد بعملية ابرار .. ويوسع ثغرة التسلل عند الدفرسوار والنتيجة احتلال الضفة الغربية للقنـاة .. وحصار الجيش كله ثانية وثالثة !

عند ذاك تكون « اللعبة قد انتهت » .. بهزيمـة الجيش المصـري بأبشع مما حدث عام ١٩٦٧ ..

ويستطيع الاسرائيليون « الذين لا يقهرون » ان يلتفتوا الى العالـم واوروبا الغربية بالذات ويقولون :

ها هي قناة السويس في ايدينا الان .. هذه القناة التي **ارقتمونـا** بضغوطكم بحجة ان احتلالنا للضفة الشرقية يحول دون فتحها .. ها هي ذي الضفة الشرقية والغربيـة في ايدينـا .. فتعالوا نطهرها ونفتحهـا لكم ولنـا !! ..

ومضيت في تصوراتي والجفاف يزحف شيئا فشيئا الى حلقي .. مع تداعي افكاري السـوداء ..

ثم يقول الامريكيـون وهم يهزون ايدي عملائهم وحلفائهم الاسرائيليين شاكرين لهم هذه « العلقة » الجديد لحركة التحرر العربية التي تقودهـا مصـر ..

ــ الان نستطيع ان نستريح من هذه الانظمة الوطنية العربية في مصر وسوريا والعراق وغيرها .. بفرض الشروط التي نراها ..

بينما كان قلبي يدق بعنف .. وقد تملكني الخوف .. ادهشـني ان الضابط الذي كان يحكي لي خطة العدو ــ كان يقرؤها كانما من كتاب مفتوح ــ دون ما اي قلق او توتر .. فسألتـه :

وهل تظن العدو ينجح ؟

رد علي بهدوء وثبات وهو يبتسم ابتسامة عريضة ..

ــ لا .. ولا في المنـام ..

واستطرد يقــول ..
ـ جرى ايه .. ألم تكتب انت من قبل ان الجيش المصــري بعد ان جئت الجبهة لا تقهره الا القنبلة الدرية لانها ببساطة تبخر الانسان ؟ ! ..
كنا نسمع ازيز الطائرات .. فقد كان سلاح الطيران الاسرائيلي ينشط نشاطا غير عادي ..
لقد كانت معركة الدبابات التي بداتها مصر لتطوير الهجوم .. فرصة للاسرائيليين ايضا للقيام بهجوم مضاد شامل بعــد ان أعدوا الاحتياطــي تمامــا ..

ولم يقيض لتلك المحاولة النجاح سواء بالدبابات او بالطيران اذ كــان ذلك السلاح قــداصيب بضربات قاصمة سواء على الجبهــة المصرية او السورية .. وكما قال احد مراقبي الامــم المتحدة لمراسلي الصحــف الاجنبية وهم يزورون جبهة القتال :

« ان كل تقاريرنا توضح انه من كل خمس طائرات اسرائيلية تهاجــم الخطوط المصرية .. تصاب ثلاثة منها بالصواريخ المصرية » ..

في تلك الايام بعد ١٥ اكتوبر .. كان الضباط المصريون من مرافقينا في الميدان يشيرون الى الطائرات الاسرائيلية وهي تهاجم .. قائلين ..
هؤلاء طيارون غير الذين اعتدنا ان نواجههم .. لا بد انهم اشتركوا في حرب فيتنام .. ولا بد ان لديهم اجهزة اليكترونية جديدة ..
كان الضرب من ارتفاعات عالية جدا .. وليس عشوائيا في معظــم الاحوال وكانت القدرة على المناورة والمراوغة اكثر ..
وعلى الرمال تناثرت قنابل جديدة لم تظهر من قبل في المعركــة .. اكياس يسمونها « كونتينرز » مليئــة بعشرات القنابل الصاروخية التــي تنفجر جميعها بعد ان تتناثر في جميع الاتجاهــات .. بعضها ينفجر فــي الحال .. والبعض بعد زمــن ..
وكانت هناك قنابل « سمارت » التي توجه على شاشات التليفزيون في الطائرة .. واستخدمت الطائرات الجديدة معدات اليكترونية جديدة للتشويش على الرادار والقذائف الصاروخية .. ولكن خبــراء الجيش المصري حققوا معجزة حقا .. بابطــال مفعــول ذلك التشويش باساليــب تكنولوجية عالية جدا في اقل من ٣٦ ساعة ..
وتؤكد تجارب الحروب انه اذا كانت مواقع العدو وعتاده من مدفعية ودبابات وغيرها تتمركز في مناطق مفتوحة مكشوفــة ليس فيها مواقــع

طبيعية لاخفاء وستر تلك المواقع فانه من الممكن تحطيم تلك المواقع بنيران المدفعية والدبابات والصواريخ والطيران ..

اما اذا كانت مواقع العدو متمركزة في مناطق غير مكشوفة كأن تكون خلف سواتر من المرتفعات او في خنادق طبيعية عميقة وذات طابع عمودي على الجبهة ، فان من اعسر الامور تحطيم تلك المواقع بنيران وقذائف المدفعية او غيرها . وبالتالي يصعب اختراقها ..

هذه هي تجارب الحروب .

فكيف كان الوضع عندما بدأت معركة الدبابات ؟

كانت القوات المصرية قد احتلت ما بين ١٤ و ١٧ كيلو مترا في عمق سيناء على طول خط القناة .. وهذه المنطقة .. مسطحة ومكشوفة بينما كانت قوات اسرائيل مخبأة جيدا خلف منحدرات ومرتفعات واخوار عديدة .. وبعضها كان يستتر وراء تلال وكثبان رملية متحركة .

وهذه كانت ميزة ولا شك للجيش الاسرائيلي ..

ولكن الدبابات المصرية تقدمت وتقدمتها سحب من الغبار الكثيف وصوت الجنازير الفولاذية يصطدم بالصخور والاحجار ويدوي في الصحراء في تلك الساعة المبكرة من الصباح .. وهي تجري بسرعة ثلاثين كيلو مترا في الساعة مندفعة الى خطوط العدو ..

ولقد سمعت ذلك الوصف .. ولكني رايته بعيني في احدى جولات تلك المعركة ..

وقد اعمى غبار الصحراء الرؤية المجردة .. وملأ التراب افواهنا وقد تحولت الصحراء المنبسطة امام عيوننا الى سحابات متحركة من الغبار والدخان .. تتخللها شعلات نار متفجرة من دبابات أصيبت بقذائف من انواع مختلفة ..

وسيارات مجنزرة مصابة .. ورجال منها يقفزون ..

وبعد دقائق بدأت معركة تصادمية ..

العادة ان حرب الدبابات تجري في مدى ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ متر .. هي التي تفصل بين الدبابات المتحاربة بعضها البعض ..

في هذه المعركة حدث التصادم ولم يكن يفصل بين الدبابات اكثر من ٤٠٠ أو ٦٠٠ متر .. فمن هنا كان تاثير القذائف في الدروع مروعا ! ..

وفي مثل تلك الحال تكون الدبابة التي تتمكن من اطـــــلاق الطلقـة الاولى على دبابة اخرى هي المنتصرة ..

كان المنظر هكذا يبدو من بعيد .. تجرات .. وانتقلت الى مكـــان اخر اكثر قربا .. ولجانا الى خندق .. وفيه وقفت وراسي منحنيـــة على الرمال وعلى عيني منظار مكبر أمسكت به اشهـد مـا يدور امامـي عن قرب ..

امامي اربعة دبابات مصرية استطاعت بحركـة التفاف ومنـاورة أن تحاصر ثلاث دبابات اسرائيلية .. كانت الدبابات قريبة جـدا من بعضها البعض حتى ان دبابة اسرائيلية سنتوريون حاولت المنـاورة فاصطدمـت مباشرة وهي مندفعة بدبابة مصرية ت ٥٤ .

ها هو برج دبابة مصرية يطير بقذيفة مباشرة اسرائيلية .

قال مرافق الضابط ..

ـ لا تجزع .. فاطارة البرج ليست مقتلا للدبابة ..

دقائق قليلة والدبابات الاسرائيلية الثـلاث .. اصيبت بضربـات مصرية مباشرة .. واحدة في بطنها .. والثانية في الجنزير .. والثالثـة في جنبها الذي تحول الى حديد مصهور ..

طاقم دبابة اسرائيلية من الثلاث يقفز .. اثنان منهما النار مشتعلة في ظهورهما .. منظر مروع ان ترى انسانا يشتعـل .. لكـن رصاص الرشاشات المصرية انقذهما من عذاب الموت حرقا .. كان واضحا ان طاقمي الدبابتين الاخريتين قد مات داخل الدبابتين .. احرك المنظار كمن يشهـد شريطا سينمائيا توقفت يداي عند منظر التقطته عيناي ..

قفز طاقم دبابة باتون أمريكية من دبابتهم التي اصيب جنزيرها .. في محاولة منهم لاصلاح الجنزير ..

اتجهت الرشاشات المصرية اليهم .. اصيب واحـد .. كف الثلاثة الباقون عن محاولة الاصلاح واسرعوا يجـرون وتعلقوا بدبابة اسرائيليـة كانت تجري .. واختفوا عن عيني خلف دوامة من الغبار ..

اثناء المعركة .. حلقت ثلاث طائرات فانتوم .. تلقي بتلك القنابـل الجديدة .. وانبرت لها الصواريخ .. بعيدا في الافق تهاوت واحدة محطمة على بعد اميال منا ..

قال الضابط في رنة أسف ..

ـ يا خسارة ان الطيار قد تمزق مع الطائـرة .. كنا نريده حيـا لنأسره .. نريد ان نعرف اي نوع من الطيارين هؤلاء ..

قلــت ..

مؤكد امريكي .. ولكنه سيقــول انه اسرائيلي .. ولن نستطيـع اثبات الحقيقــة !

في اليوم التالي ظهرت في الميدان دبابــات باتون امريكية مــا زال شحم المصانع يضفي لمعانه على دروعها ..

لقد دفع الاسرائيليون في تلك المعركة بمائتي دبابة باتــون جديدة .. عندما اسر بعضها .. كانت عداداتها تنبيء بانها لم تقطع اكثر من ١٢٠ كيلو مترا .. هي المسافة بين العريش وميدان القتال ..

الطائرات الامريكية الحاملة للمعدات لم تستح الولايات المتحــدة ان تجعلها تهبط في ارض مصرية محتلــة باسرائيل .. مطار العريش .. حيث كان ينتظرها طواقم من الاسرائيليين .. ومستشارون عسكريون امريكيون « متطوعون » يرشدون الجنود الى كيفية تحريك الدبابــات ذات التعديلات الجديــدة ..

وتندفع كل دبابة باثنين فقط .. السائق والرامي .. مع ان طاقــم الدبابة عادة اربعة .. كان الاسرائيليون يحاولون كسب الوقت .. وتعويض خسائرهم الفادحــة ..

في احدى المواقع .. كان لواء من دباباته قد حوصر .. ولما فشل في فك الحصار .. انتهز فرصة الظلام وعمد الى الانسحــاب .. من ثغــرة ضيقة بعد قتال ليلي شرس ..

وترك ٢٥ دبابة محطمة وعشرات من جثث القتلى .. وسبعة سيارات للمشاة الميكانيكيــة ..

ومنظر الدبابة بشع في حد ذاته .. انها كتلــة صماء من الحديــد تشبه حيوانا خرافيا ينشر الموت والدمار في كل مكان .. ولكــن منظــر الدبابة المصابة في بطنها وقد انصهر فــولاذ ذلك البطن .. ابشع .. ان الفولاذ المصهور اشبه بامعاء ملتوية برزت من بطــن مبقورة !

في موقع اخــر تقدمت دبابات العدو .. ثمانون دبابة .. اعترضتها كتيبة من مشاة الفرقة الثانية .. واستطاع جنود المشاة المجـردون من اي دروع بنيران الار.ب.ج .. والصواريخ ان يدمروا سبعا وعشرين دبابة.. وارتبكت دبابات العدو .. حتى لان ست عشرة دبابة من دباباته اندفعت الى حقل الغام اسرائيلي فدمر منها اربع دبابات اخرى بالغــام اسرائيلية !

وهو منظر مهيب جدا .. ان ترى المشاة المصريين عقب كل معركة يحطمون فيها دبابات للعدو باسلحتهم « الخفيفة » .. يقفزون صائحين : الله اكبر ..

ويتعانقون .. ثم ينطلقون وراء دبابات العدو وفلوله بقذائفهم ..
والانسان المقاتل في المعارك الفعلية .. يبدو احيانا في صور متناقضة بالنسبة لنا نحن المدنيين ..

ان الجندي المصري الذي يقذف بنفسه في مقدمة الدبابات ليطارد دبابات العدو بقذائفه .. دون مبالاة كمن يطارد غزالا او أرنبا شاردا .. ثم الذي يقفز من الفرح عندما يصيب بقذيفته دبابة يحيلها الى حديد مصهور تنصهر مع اجساد جنود العدو .. هذا الجندي نفسه .. رايته وهو يجري بين عدد من الدبابات الاسرائيلية المصابة .. ليواصل اصابة غيرها فاذا به يرى بعض الطاقم يقفز والنار مشتعلة في ثيابه او مصاب بجراح في كتفه .. **والجنود الاسرائيليون يصرخون في جزع : لا تقتلني يا مصري ..**

ويركع الجندي المصري .. الى جانب الجندي الاسرائيلي المصاب .. اما يهيل الرمال على النيران المشتعلة في ثيابه ليطفئها .. او يضمد جراح الجندي الاسرائيلي مما معه من اربطة وعقار خاص به هو ! ..

ثم يأتي جنود مصريون اخرون تحت وابل من النيران الاسرائيلية .. ليحملوا على نقالات هؤلاء الجنود الاسرائيليين الجرحى !

وأدردش مع ضابط .. فيقول لي ..
هذه هي الحرب .. الهدف هو تدمير قوة عدوك .. وهذا التدمير يأتي سواء بقتله مباشرة او باسره .. والعسكري الجريح .. هو طاقة مدمرة .. اذن تحقق الهدف ..

ولكن الاسرائيليين قد ارتكبوا ابشع الجرائم ضد اسرانا في حرب ١٩٦٧ أماتوهم من الجوع والعطش .. قذفوا بهم من الهليكوبتر .. تسلوا باطلاق الرصاص للتدرب على الرماية عليهم .. بل انهم اتوا ببعض مجنداتهم ودربوهن على اطلاق النار على اسرانا .. الا تتملككم نزعة للانتقام ؟ ؟

قال الضابط ببساطة ..

ـ الانتقام الاكبر هو الانتصار ..

شعرت بالزهو .. وانا اسمع الضابط الشاب .. يكشف حضارة عريقة تضرب بجذورها الى اكثر من ستة آلاف عام .. في عبارة واحدة ازاء همجية الفاشست الجدد .. الصهاينة ..

★★★

وقصص البطولة في معركة الدبابات هذه كثيرة .. وتملأ مجلدات .. والكاتب يحار في تسجيل ايها للقارىء !

قصة المقاتل بطرس مثلا الذي استطاع ان يدمر بمدفعه الصاروخي دبابتين .. وهذا رقم قياسي في حد ذاته .. فاطلاق صاروخ واحد واصابة دبابة به عمل بطولي في حد ذاته .. اما صاروخين متتاليين فهو معجزة ..

صعد بطرس فوق ظهر الدبابة الثالثة لتدميرها من البرج .. اطلقت عليه دبابات اخرى للعدو رشاشاتها ..

استلقى على دروع الدبابة يحتضنها .. ويعالج في اصرار فتحة البرج ونجح .. فجذب مسمار القنبلة اليدوية والقاها .. وانفجرت الدبابة الاسرائيلية .. ومضت تترنح بعد أن مات طاقمها .. ولكن بطرس مات ايضا .. برصاص الرشاشات الاسرائيلية ..

عبدالله زميل بطرس يحكي لي القصة ويقول ..

غير بطرس كان ممكن ان يقفز من الدبابة بعد ان حاصرته رشاشات العدو .. أو على الاقل بعد ان يلقي بالقنبلة داخل البرج كان ممكنا أن يقفز . ولكنه انتظر حتى يتأكد من انفجار القنبلة والا القى واحدة غيرها واستشهد .

وقصة البطل خيري وهو مقاتل من قريتي سنتريس منوفية .. الذي كان يقود دبابة مع ثلاثة من زملائه .. ورأى من على بعد « قولا » من سيارات العدو يحمل مواد تموينية وذخيرة ..

واراد خيري تدمير « القول » الاسرائيلي .. ولكن نيران دبابته لا يطوله .

فاندفع بدبابته ولكنه اكتشف ان امامه حقل الغام لا بد ان يعبره قبل ان يدرك « القول » الذي سيبتعد عن مرمى مدفعه .. فلم يبال .. واندفع بالدبابة في حقل الالغام دون ان يعترض عليه احد من زملائه الثلاثة الاخرين من طاقم الدبابة ..

وكان طبيعيا ان ينفجر لغم .. ولكنه لحسن الحظ لم ينسف الدبابة بل اوقفها .. ومن وسط حقل الالغام صوب خيري مدفعه الى قول السيارات الباقية عن الحركة .. واصطاد السبع سيارات جميعا .. واضرم فيها النار ..

وظلت دبابة خيري محاصرة في حقل الالغام .. حتى جاء بعض زملاؤه الذين ساروا على آثار الدبابة وانقذوه هو وزملاؤه .

كان خيري يحكي لي القصة ونحن واقفون بجانب دبابة ت ٥٥ .. وربت خيري على الدبابة في حنان كمن يربت على جواده الكريم .. وقال باعتزاز ..

ـ دي دبابة عندها اصل !

وقصة الفصيلة التي يقودها ملازم لا يزيد عمره عن عشرين عاما .. سعد .. التي اشتهرت في القطاع الاوسط بانها فصيلة « الغبار » ..

كانت براعتها تتركز في ميدان القتال .. في اثارة الارتباك بين فصائل الدبابات الاسرائيلية بهدف تقريب تلك الدبابات من بعضها البعض حتى يثار عامل جديد للارتباك هو الغبار ..

فمن أصول الحرب الميكانيكية في الصحراء تباعد المركبات الالية عن بعضها البعض بما لا يقل عن ١٥٠ مترا .. تحاشيا للغبار الكثيف الذى يسبب انعدام الرؤية ويجعل المركبات فريسة للضربات خصوصا من المشاة الراجلة ..

لقد كانت الفصيلة التي يرأسها ملازمنا الشاب تتخصص في اثارة هذا الارتباك حتى تثور سحابات من الغبار .. تعمي قائدي الدبابات عن فصيلة المشاة ليصيبوا منها .. ـ من الدبابات ـ مقتلا بسهولة اكثر !

★★★

في يوم ٢٢ اكتوبر قبل وقف اطلاق النار بساعات ركبت سيارة مجنزرة مع ضابط مصري كبير ..

وكانت قنابل المدفعية تنفجر من حولنا .. وكل انفجار يسبب سحابة هائلة من الغبار الرملي تسقط على سيارتنا .. بينما تصفر الشظايا المتطايرة فوقها .. ومن حين لاخر كان بعض تلك الشظايا يصطدم بسقف السيارة .. فيحدث دويا مخيفا مرعبا !

كان ثمة دبابات وعربات مصرية محطمة حتى من حرب ١٩٦٧ ايضا .

ولكن كان هناك عدد اكبر من دبابات وعربات مجنزرة ومدرعات اسرائيلية .. بعضها قد ذاب صلبه وانصهر .. وجثث الاسرائيليين محترقة .. واختلط بعضها بالصلب المصهور ..

وصلنا الى تبة عالية .. صعدتها سيارتنا .. وما كدنا نصل فوقها.. حتى وجدنا انفسنا .وجها لوجه أمام ست دبابات اسرائيلية ..

وعندما نقول وجها لوجه نعني ان بيننا وبينها اكثر من الف متر .. ولكن الف متر في حرب الدبابات لا تعني شيئا ..

على الفور بدأ الضرب ..

الى جانبنا اصيبت سيارة مجنزرة مصرية وانفجرت في لهب مخيف ..

وفي هدوء مثير امرنا الضابط الكبير بترك السيارة .. والزحف على بطوننا الى اقرب خنادق مصرية ..

انا اتدحرج على المرتفع في حركات سريعة لا احس بشيء .. اتخيل ان انحداري على سفح المرتفع يقيني من قذائف الدبابات الاسرائيلية .. ولكن القنابل تتساقط من حولنا .. واسمعها والتراب الذي تثيره يملأ فمي واذني كلما انفجرت وانا اتدحرج متقلبا على الرمال ! ..

أخيرا وصلنا الى خنادقنا .. قفزنا وانا لا اكاد اشعر في خندق..

ورغم اني كنت تحت مستوى سطح الصحراء بمتر على الاقل .. الا اني كنت اضغط على رمال ارضية الخندق برأسي كلما أخترق اذني صوت انفجار قنبلة في مطار قريب منا .. حتى امتلأ فمي بالتراب كما حدث دائما كلما انبطحت على وجهي في ارض الميدان اذا ما قامت غارة او بدأت القذائف في الانهمار ..

لكن الجديد في هذه المرة .. اني حاولت ان احفر بيدي تحت وجهي لاغطس اكثر ! قلت للضابط الكبير وانفاسي تخترق حجب الرمال والتراب ..

ــ من حظنا ان الانفجارات في كل مكان الا هنا .. سننجو قطعا ما دامت لا تصيبنا قنبلة مباشرة ..

ربت الضابط الكبير على كتفي مشجعا .. وخجلت من نفسي .. فمددت ذراعي اعانق كتفه ثم قبلت ذراعه وقد كففت عن تغطيس نفسي بعد ان « عداني » بشجاعته وثباته !

ثم .. ثم سمعنا صوت طائرة نفاثة تطير على ارتفاع منخفض ..

قال الضابط : هذه فانتوم .. انه يتجه لينقض علينا مباشرة ..
لا بد ان ارى المنظر .. وليكن ما يكون .. رداء الخوف قد انخلع ..
استدرت على ظهري في بطن الخندق .. لارى الفانتوم الكريهة .. وهي تطير على انخفاض شديد ..
صواريخ .. صواريخ سام ٦ .. تتجه نحوها .. الطيار يلقي بالحمولة .. انفجارات مروعة .. وتراب كثيف .. لكن لم يفتني ان ارى اروع منظر رأته عيناي في تلك اللحظة .. الصاروخ الاول افلت الفانتوم.. والثاني اصابها بضربة مباشرة .. فانفجرت على الفور .. اختفى طائر الموت البشع .. وتحول الى اشلاء .. قطع من الحديد والالومنيوم واي نوع من المعادن .. ساخنة متفحمة .. وقد تفحمت معها اشلاء الطيار .. ثم بردت .. وبعد ٢٤ ساعة كانت تلك القطع تحتل غرف مكاتب جريدتي.. كذكرى لهزيمة الاعداء !
سكت صوت القذائف لحظات .. اشار الضابط لي بالنهوض .. نهضنا .. وكان الظلام قد حل .. ركضنا ونحن منحنون وقد اضاءت مركبات القتال الميدان بانوارها الباهرة بعد ان حل المساء .
وجدنا عربتنا المجنزرة سليمة لم تمس .. في مكانها على بعد مائتي متر .. بعد ان ابتعدنا كيلو مترين .. بدات اتحدث مع الضابط ..
هل تعرف ماذا حدث ..
قال : في ملجأ القيادة سنعرف ..
في الملجأ قال لنا قائد الكتيبة .. ان الاسرائيليين قد خسروا اربع دبابات من الست التي رايناها عند التبة العالية .. وخسرنا نحن سيارة مجنزرة ودبابة واحدة ..
وقال الضابط الكبير ..
اننا قادرون على الاستمرار في هذا المعدل .. وان كانت هناك خسائر اكثر لنا في بعض المواقع .. ولكننا هزمنا الاسرائيليين .. وقادرون على الحاق هزيمة دائمة بهم .
ومصمص بشفتيه في اسف وهو ينظر الى الساعة .
ـ ولكن بعد ساعة واحدة ..سينفذ امر وقف اطلاق النار لكن وقف اطلاق النار او لا وقف : لا خوف على مصر .. بعد سقوط قلعة التفوق الاسرائيلي !

٢١

هل الجندي الاسرائيلي جبان ؟!

« لقد بنيت الروح القتالية للجندي الاسرائيلي على تجارب اسرائيل مع العرب في الحروب السابقة وكلها تجارب لا توضح صفات المقاتل المصري الحقيقية .

ويقاتل الجندي الاسرائيلي جيدا وبامتياز عندما تتوفر له الوقاية شبه الكاملة .. »

اللواء حسن ابو سعده قائد الفرقة الثانية اثناء العبور



الجندي الاسرائيلي لا يستطيع مواجهة الجندي المصري وجها لوجه..
وعندما حدثت المواجهة خسر الاسرائيلي تماما ..
لماذا : لان الجندي المصري يقاتل من اجل ارضه ..
اما الاسرائيلي فمضلل بواسطة رجال السياسة وتفسير خاطىء للكتب السماوية .

ولقد ملأته قيادته ثقة فيها وفي اسلحته ، وقد جعلته هذه الثقة يعتقد انه لن يموت وسينقذه جيشه حتما قبل ان يقتله المصريون !
وانهار ذلك كله في المعركة .. فلم يستطع الثبات ..

من ناحية اخرى ان الجيش الاسرائيلي يضم فئات مختلفة من اليهود شرقيون وغربيــون .
وقد لاحظنا في الحرب ان المؤسسة العسكرية تضع اليهود الشرقيــين في الخطوط الاولى للقتــال ..

اللواء فؤاد عزيز قائد الفرقة التي احتلت القنطرة شرق.

★★★

لقد كانت القضية التي طرحها الاسرائيليون دائما على العالم .. هي ان الجيش المصري جيش غير مقاتل .. لقد ثبت في حرب ١٩٧٣ ان الجيش المصري جيش ليس مقاتلا فحسب بل على درجة عالية من الكفاءة .. لا يقل عن الجندي الاسرائيلي بل تفوق عليــه .

العميد ضياء الدين زهدي ـ اكاديمية ناصر العسكرية

★★★

اثبت طيارونا انهم لا يقلون كفاءة وخبرة عن الطيار الاسرائيلي .
وكانت شجاعة طيارينا شيئا خارقا في الحرب .. ولكن يجب عــدم التقليل من قوة اعدائنا وقدراتهم .

الفريق حسني مبارك قائد القوات الجوية ..

★★★

ليس ادل على الذعر الذي ملأ نفوس الجنود الاسرائيليين من صيحة احد جنودهم في موقع من مواقع خط بارليف « يا الهي ان الامر يبدو وكأنه زحف بجيوش جرارة مثل جيوش الصين .. ان مئات بل آلاف المصريــين يعبرون القناة نحو حصوننــا ! »

ومقتل الاسرائيليين كان غرورهم القائم على نظرية الامــن .. وعلى اسطورة الجيش الذي لا يقهــر ..

اللواء محمد حسن غنيم مدير ادارة البحوث بالجيش

رايت شبابا يموتون ولا احد منهم صرخ قبل ان يسقط : « ما اجمل الموت في سبيل الوطن » او يعيش السلام والامن . انما هم بكوا « يا امي » كالاطفال واحدهم يورام قال : لا تخبروا زوجتي .. ستغضب على مدى الحياة » !. اراد ان يقول « اموت دون ان اعرف اذا كنت احرزت في آخر المطاف السلام والامن » ..

يهونتان جيفن ـ ضابط اسرائيلي في حرب ١٩٧٣

★★★

هل كان الجيش المصري يحارب جيشا من الجبناء .. وهل كان الجيش السوري يحارب جيشا اسرائيليا مذعورا ايضا ؟ ..

ان الذين كتبوا مثل ذلك الكلام بحسن نية .. او عن جهل .. قد اخطئوا خطا فظيعا .. لانهم من حيث لم يكونوا يدرون قد اغمطوا قدر قواتنا العربية المسلحة .. وصوروا الامر كما لو كان نزهة عسكرية .. فما دام الجنود المصريون والسوريون يحاربون جنودا اسرائيليين جبناء .. اذن ليس في الامر براعة .. او شجاعة من اي نوع ..

وعندما كنا نلتقي بالضباط والجنودفي الجبهة .. وتتاح لهم فرصة قراءة بعض الصحف التي نحملها معنا .. ويرون فيها .. العناوين والحكايات عن خوف وجبن وذعر الجندي الاسرائيلي .. كانوا يضحكون منا .. ويندهشون في نفس الوقت ..

ـ الجيش الاسرائيلي ليس جيشا جبانا.. وليس جيشا ضعيفا.. بل جيش مسلح باسلحة كافية.. ويستطيع استخدامدباباته وطائراتهومدفعيته بكفاءة .. ولا يمنع هذا ان يصاب بذعر اذا وجد من هو اقوى منه والقادر على تدميره ..

والجندي الاسرائيلي .. حارب ويحارب كثيرا بشراسة .. لاستعادة مواقعه او كي لا يتزحزح عنها ..

هكذا كان الضباط والجنود يقولون لنا .

● ما هي الحكاية اذن ؟

ـ الحكاية ببساطة انه ثبت من المعركة ان الجندي العربي امهر وابسل من الجندي الاسرائيلي ..

وكما قالت التايم الامريكية « كل طلقة كان المصريون يطلقونها وتصيب كانت ترفع الروح المعنوية وتدمر اسطورة التفوق الاسرائيلي .. وكما قال احد المعلقين الغربيين : ان العرب من احسن المقاتلين في العالم طالما هم يحققون انتصارا .. »

والمتحدث بلسان البنتاجون الامريكي قال في دهشة بعد أيام من بدء القتال :

« ان الجنود المصريين والسوريين كانوا مسلحين جيدا ومدربين تماما .. لقد وقفوا بثبات على الارض ، وخندقوا في خنادقهم وصوبوا ببراعة اسلحتهم من كل نوع ضد الاسرائيليين .. »

لقد كان هناك وهم عريض بعد سنة ١٩٤٨ وتضاعف اكثر في ١٩٥٦ ان الجيش الاسرائيلي جيش لا يقهر .. او على الاقل لا يقهره العرب ..

وهو وان كان لم يصطدم في قتال بعد باي جيش غير الجيوش العربية لاختبار قدراته.. فان قادته المغرورين مثل موشى ديان هددوا ذات مرة بعد حرب ١٩٦٧ بقدرة ذلك الجيش على محاربة الاتحاد السوفيتي نفسه ! بل انه خلال حرب اكتوبر الماضي نشر عملاء الصهيونية اشاعات ان اسرائيل تتصدى للسفن السوفيتية الحاملة سلاحا لسوريا ومصر لاغراقها في البحر !

وعاش الاسرائيليون انفسهم على هذا الوهم وصدقوا انفسهم .. ولهم العذر في ذلك التصديق .. فهم قد استطاعوا في ثلاث حروب متتالية ان يهزموا الجيوش العربية ويرغموها على الانسحاب من فلسطين ومن سيناء والجولان والضفة الغربية ..

ولقد دابت الدعاية الصهيونية وانصارها على تأكيد ذلك الوهم وتضخيمة بتصوير ان هؤلاء الثمانين او المائة مليون عربي ان هم الا « كومة من القش » .. وجود عاجز عاطل ازاء ثلاثة ملايين يهودي في اسرائيل ! .. بمعنى انه صور للمواطن الاسرائيلي لتضخيم ذاته وتأكيد تفوقه من باقي البشر ان المعركة هي بين ثلاثة ملايين اسرائيلي ومائة مليون عربي .. وان الثلاثة ملايين هزموا المائة مليون .. ويبدو الامر اعجوبة فعلا .. وربما كان هذا الفهم الخاطىء نفسه يقع فيه الكثير من العرب مما يتسبب لهم في تعذيب وتمزق نفسي مروع ..

ونستمع الى عبارة مالوفة من الكثيرين : لو كانت انجلترا وفرنسا او امريكا .. هي التي هزمتنا لكان الامر هينا .. اما ان تهزمنا دولة صغيرة مكونة من ثلاثة ملايين فهذا هو الشيء المهين ! الحقيقة ان هذا سقوط في

شباك الدعاية الصهيونية .. او ترهات بعض الكتاب الذين يعزلون بين الولايات المتحدة واسرائيل ..

أن الثلاثة ملايين اسرائيلي هم تجسيد للصهيونية العالمية الرجعية العنصرية والقوية ايضا .. اقتصاديا وسياسيا .. ومن ثم عسكريا ..

والثلاثة ملايين اسرائيلي ايضا .. راهنت عليهم الصهيونية والمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ليكونوا وقودا في جيش الدفاع عن المصالح الامبريالية في العالم العربي بحكم الحلف الوثيق بين الصهيونية والاستعمار ..

ومن هنا فالمائة مليون عربي لا يواجهون في الحقيقة دولة من ثلاثة ملايين فقط .

وهذه الحقائق في اسرائيل لا تكشف للجماهير الاسرائيلية وانما يحاول كشفها عدد قليل من الواعين .. هم اليسار الاسرائيلي الحقيقي .. قليل العدد .. قليل النفوذ ..

من هنا فان الجندي الاسرائيلي مشبع بوهم التفوق .. على العربي .. علاوة على التشبع بوهم تاريخي قديم عن شعب الله المختار .

كما ان الاضطهاد التاريخي الذي لحق باليهود في اوروبا — وليس في العالم العربي — منذ مئات السنين .. قد ركب نفسية اليهودي تركيبة خاصة .. في اعماقه شعور المضطهد المستعد لخربشة الهواء نفسه من اقل نسمة ! .. « فالنسمة » عنده استفزاز .. ومن هنا فهو ذا نفسية مريضة مليئة بالتوتر والعدوان ..

ولقد استطاع الكثيرون من اليهود ان يذوبوا في الشعوب التي ينتمون اليها .. ويتخلصوا من معظم تلك التركيبة المعقدة ..

ولكن اولئك اليهود الذين نجحت الصهيونية في اجتذابهم الى اسرائيل .. هم اكثر اليهود اصابة بتلك العاهة النفسية .. هم اكثر اليهود عنصرية وتعصبا واقترابا من الفكر الفاشستي ذاته ..

وليس ادل على ذلك من تقبلهم وتنفيذهم لفكرة اغتصاب ارض اخرين .. لاقامة وطن لهم عليها .. بل وذبح هؤلاء الاخرين اذا ما قاوموا هذا الاغتصاب كل هذا في اطار وتبرير ديني « وايدولوجي » ! .

والغريب ان هذه العقلية العنصرية الفاشية قد عانى اصحابها عذابا مروعا على يد العنصريين الفاشست الالمان .. ومع ذلك فهم يحيون الفاشية في الشرق الاوسط ويتلاحمون مع احط نظم الحكم العنصرية

الفاشية المدانة من العالم كله بما فيها امريكا وهي حكومات جنوب افريقيا وروديسيا وغيرهما من بقايا بيض القرن السادس عشر بل الاكثر منهم تخلفا ..

ولا يقتصر الامر على الانتفاخ بشعور الجنس او العنصر المتفوق ..
ولا على عقدة الاضطهاد عند اليهودي الصهيوني التي تجعله اكثر عدوانية وشراسة ولكن ايضا هو مشبع بواقع الخبرة العملية في ثلاثة حروب متتالية خاضها ضد العرب ٤٨ ـ ٥٦ ـ ١٩٦٧ انه قادر على الحاق الهزيمة بالجيوش العربية .

وقيادته ساعدت على تنمية هذا الشعور لديه ، ولم يحدث ان شرحت الدولة للشعب او للجيش الظروف الحقيقية التي كانت وراء شل القدرة القتالية للجندي المصري ..

بل بالعكس استمروا يؤكدون له ان ذلك الجندي فلاح متخلف .. تعيد الهمة .. لا يجيد استخدام السلاح .. ولا يعرفه .. ونشروا له كتبا ملفقة من نوع « وتحطمت الطائرات عند الفجر » التي توضح له ان الضباط المصريين جماعة من العابثين اللاهين الذين يعالجون امور النساء اكثر من امور الحرب وهكذا ..

ومن المؤكد ان خطة التمويه السياسي والعسكري التي تحدثنا عنها في فصول سابقة قد اكدت للعسكري الاسرائيلي ما اقنعه به قادته ..

ثم عندما دقت الساعة .. اصيب الجندي الاسرائيلي بصدمة .. لقد انقشع ضباب الزيف والاوهام .. وظهر المقاتل المصري بارعا .. شجاعا .. قادرا على استخدام السلاح المتقدم ..

ان ركاما هائلا لتلك التركيبة النفسية العفنة والمتخلفة قد انهار فجاة ..
واحدث هذا رد فعل ولا شك في البداية .. ارتباك .. واضطراب .. وذعر .. ازاء الروح الفدائية المقتحمة للجندي المصري ..

فرددت صحراء سيناء لاول مرة صيحات الجنود الاسرائيليين ..
ـ لا تقتلني يا مصري ..
ـ لا تقتلني .. انا مصري من الفجالة ..
وفي ساحة الجولان ـ لا تقتلني انا عراقي من شارع الرشيد ـ .
هذه ناحية ..

الناحية الاخرى ان الجندي الاسرائيلي تعود على ان يقاتل من داخل دبابة او مدرعة او سيارة مجنزرة او نصف مجنزرة .. وهو تعود ان يجري مطاردا غيره من الجنود .. يلهب ظهورهم بالنيران .. ويحصدهم .. او يأسرهم بالمئات والالوف ..

هذه المرة اضطر الجندي الاسرائيلي الى القتال المتلاحم .. وجهـا لوجه .. وعندما استطاع المشاة المصريون أن يثقبوا دباباته .. ويجبـروه على النزول .. والقتال حتى بالسلاح الابيض .. وهو في القتال المتلاحم كان يهزم في الغالب ..

ان القتال المكشوف عدو الاسرائيلي رقم واحد .. وهذا طبيعي من شعب تلعب الاعداد البشرية للسكـان دورا رئيسيـا في تكوين الدولـة وتثبيتهـا ..

ولهذا فانهم حرصوا في خط بارليف كما اوضحنا على ان يكون نوعا من البروج المشيدة ..

ان التحصينات في « موقع الشجرة » مثلا في سيناء شيء لا يوصف، وسترى فيها كيف ان الاسرائيلي متعلق بالحياة . حتى انهم نقلوا اليـه الحياة المدنية في ميدان القتال ..

ومن الطريف ان جنودنا بعد اقتحامهم خط بارليف عندما رأوا هـذه التحصينات وقارنوها بتحصيناتهم البسيطة جدا .. كانت معنوياتهم تزداد ارتفاعا .. كما تتضاعف استهانتهم بالعدو ..

ومن ناحية ثالثة ان الست سنوات الماضية قد نجحت القيادة خلالها ان تدرب الجنود والضباط .. بحيث عندما تجمعت الروح المعنوية العالية زائد التدريب الجيد امكن للجندي المصري والسوري ان يتفوق على عدوه الاسرائيلـي ..

وليس ادل على ذلك انه في سوريا مثلا استطاع طيارون سوريون ان يدمروا طائرات الفانتوم بطائرات الميج ١٧ .

وقبل الحرب كان هناك كلام كثير عن تخلف الميج ٢١ بالنسبـة للفانتوم .. لقد اثبت الطيارون المصريون قدرتهـم على منازلة الفانتـوم والحاق خسائر باسرابها اكثر مما تقدر الفانتوم على الحاق الخسائر بهم .

لماذا ؟ التعويض عن الفارق التكنولوجي هنا ياتي من المعنوية العاليـة بالاضافة الى التدريب العالي ..

★★★

صحيح ان الاسرائيلي لديه ما يحارب من أجله .. فالصهيونية قـد اقنعته واقنعت شعب أسرائيل كله أن العدو امامكم والبحر من ورائكم .. وليست النظم التقدمية فقط هي القادرة على تعبئة شعوبها ورفع معنوياتهم وخلق قضية يقاتلون من اجلها فالنازية في المانيا قد ربت جيلا باسره على

التضحية والبذل من اجل حفنة من الاحتكاريين امثال كروب وتيسن .. وخلقت لهم عقيدة ضالة مثل تفوق الجنس الآري والمانيا فوق الجميع .. الخ .

واستطاعت المانيا الصغيرة بالنسبة للعالم كله (٨٥ مليونا) ان تحارب الدنيا كلها .. بما فيها الولايات المتحده والاتحادالسوفيتي .. واستطاع الجيش الالماني النازي الرجعي المتحمس جدا والمتعصب جدا لدرجة الهوس ان يدوخ جيوش الحلفاء جميعا بل وشعوب العالم ويصيبها بأفدح الخسائر التي عرفت من قبل في تاريخ الكرة الارضية المعروف كلها لاكثر من ثلاث سنوات متواصلة ..

ليس الشعب الاسرائيلي كشعب فيتنام الجنوبية مثلا متناقضا مع حكومته وثمة ثورة داخلية تحولت الى حرب أهلية . ان هذه مرحلة لم تحدث بعد وان كان ليس مستحيلا حدوثها يوما من الايام بفعل التناقضات السياسية والاجتماعية الحتمية على مسار التطور التاريخي .

ان الصهيونية كدعوة عنصرية قد نجحت في تضليل ثلاثة ملايين يهودي هم سكان اسرائيل وملايين اخرى في ارجاء العالم .. بدعوتها .. وعبأتهم بافكارها الفاشية المتخلفة واستغلت كل الاعتداءات والتوترات التي اثارتها هي ضد العرب لحشد هذا الشعب صفا واحدا وراء اضاليلها ..

والذين يتصدون لهذه الموجة العنصرية الفاشية من الاسرائيليين انفسهم يعملون في ظروف غاية في الصعوبة لانهم يعملون وسط بشر متعصب يصفونهم بالخيانة . وما زالوا قلة وتاثيرهم في المجتمع الاسرائيلي محدود .

ومع هذه التعبئة الفكرية للاسرائيليين .. فانه من الممكن التغلب عليها .. وتصديع هذه الوحدة والتماسك.. اذا ما توحد العرب ايديولوجيا وعسكريا . واصبحوا ذا فاعلية في تدمير قوة العدو العدوانية .

والعرب اذ يتوحدون فكريا فانما يتوحدون حول مبادىء غير عنصرية او فاشية .. وانما على مبادىء ثورية متقدمة وابسطها مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها .. ورد العدوان عليها ..

وتجربة حرب الساعات الست تكشف عن هذا وتؤكده بجلاء ..

في كل حرب هزم فيها العرب .. كانت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية تخرج منها مدعمة النفوذ وقد ارتبطت بها الجماهير الاسرائيلية ارتباطا اقوى مما كان ..

واذا ما تذكرنا حرب ١٩٦٧ .. الفترة قبلها كانت التناقضات الاجتماعية تمزق اسرائيل .. اضرابات ومظاهرات .. وجاءت الحرب فالانتصار الاسرائيلي يحدث التماسك والتأييد غير المحدود للعدوانيين .

ماذا حدث هذه المرة ؟ .. عندما هزم الاسرائيليون وتكبدوا خسائر فادحة لاول مرة في تاريخهم ؟ ..

انه رغم نجاح المؤسسة العسكرية في اختراق الخطوط المصرية الى غرب القناة .. وما احاط ذلك من دعاية اعلامية هائلة .. فان ذلك لم يمنع حدوث انقسام في صفوف تلك المؤسسة ، واختلف اللصوص العنصريون مع بعضهم البعض مثل الصراع بين شيمون سافيرا وموشى ديان .. حتى لان جولدا مايير قالت : « نحن نحارب العالم كله وروسيا .. فلا نريد حربا بين اليهود ! .. » وعلى حد تعبير مجلة النيوزويك الامريكية فان جولدا مايير « **لتصفية الثورة الداخلية قررت تشكيل لجنة تحقيق على مستوى عال** عن كيف اديرت الحرب من خمسة رجال برئاسة رئيس المحكمة العليا سيمون اجرانات » .. واصدرت اللجنة تقرير اجرانات المشهور وان كانت لم تنشره كاملا .

لماذا هذه الثورة ؟ ..

ان مجلة التايم الامريكية تجيب على هذا السؤال بقولها :

« لمدة اسبوعين اجبرت الجيوش العربية والسورية والمصرية اسرائيل كي تحارب حربا هائلة في معارك طاحنة دمرت المئات من الدبابات وقتلت الالوف من الرجال ..

لم تكن هي الحرب التي تود اسرائيل ان تحاربها .. وليست الحرب التي يمكن لها الاستمرار فيها » ..

وقالت الموند الفرنسية :

الاسئلة ارتفعت في اسرائيل في كل مكان .. لماذا مات ٢٠٠٠ اسرائيلي . لماذا لم تكسب الحرب ؟ .. من الملوم ؟ ..

وعلى الصعيد الداخلي . حدث حزن ومناحة ومندبة داخل اسرائيل على قتلى الحرب وجرحاها .. وحدثت مظاهرات معادية للحكومة من اناس عاديين بسبب خسائر الحرب وسقط موشى ديان واريك شارون .. بل ورحلت جولدا مايير نفسها .

ونشر ذلك في صحف العالم .. وعرض على شاشات التليفزيون .. لم يكن هناك داخل اسرائيل احساس بالاستشهاد بالنسبة لهؤلاء القتلى .. بل

ان الصحف الاسرائيليـة نشرت رسائل من اهالـي القتلى يعلنون سخطهم على قتلهـم ..

بينما في العالم العربي .. لم يحدث شيء من ذلك .. ان كل أسرة فقدت جنديا في الحرب .. اعتبر ذلك شرفا وفخارا لها .. لانه شهيـد قضية عادلة .. ولم تحدث لا مناحات ولا مآتـم ولا مظاهرات بسبـب خسائر الحرب في سوريا ومصر والعراق والمغرب والاردن ..

بل ان الشعوب العربية كانت وما زالت مستعدة للتضحية بملايـين الشهداء للتحريـر ..

★ ★ ★

من الخطأ اذن ان نتصور ان الجندي الاسرائيلي جبان .. او غـير كفء .. وربما كان هذا الاعتقاد الخاطيء قدتولـد في نفوس الكثيريـن بسبب الانتصارات السريعة للجيشين المصري والسوري في الايام الاولى من الحرب .. فقد كانت تلك الانتصارات مفاجاة لهم انفسهم على طول مـا عاشوا هم انفسـهم في « وهـم الجيش الاسرائيلـي الذي لا يقهر » ..

وهذا الاعتقاد الخاطيء هو الذي أوجد رد فعل من شعور بخيبة الامل عند هؤلاء عندما استطاع الاسرائيليون تنفيذ عملية الاختـراق الى غرب القناة . حتى ان البعض تصور ان ذلك الاختراق راجع الى خيانة ما .. كانما لا يمكن للاسرائيليين ان يكسبوا معركة الا نتيجة خيانة ؟! كانهم ليسوا بجيش كفء

لقد قام الاسرائيليون مثلا بست عشرة هجمـة مضادة في القطـاع الشمالي للجيش الثاني .. وفي احدى تلك الهجمات نجحوا واستـردوا نقطة على السـاتر الترابي في الضفـة الشرقية للقناة .. ولكن الهجوم رد على اعقابـه ودمرت الدبابات كلهـا .. وقتل جنودهـا .. وكانت ست دبابـات !

وفي احدى الهجمات نجحت دبابتان اسرائيليتان في الوصول الى بعد مائتي متر من مقر كتيبة من الكتائب . حتى دمرهما جندي واحد بالقذائف المضادة للدبابات ..

وعند القنطرة استطاع الجيش الاسرائيلي تدمير معبرين .. وشيد بدلا منهما في ساعة .. وهكذا ..

ولقد لمست بين الضباط والجنود سواء في مصـر او سوريا نظـرة

اخرى .. نظرة واقعية غير نظرتنا نحن المدنيين البعيدين عن ساحة القتال ..

فالضابط يعتبر ان الحرب سجال .. كر وفر .. يكسب موقعا .. ويخسر موقعا ينتزعه العدو منه ..

والمسألة الرئيسية التي يعنى بها تدمير اكبر قدر من قوة العدو العسكرية في الافراد والمعدات ..

لذلك لا يجزع القائد العسكري عندما تتقدم دبابات العدو الاسرائيلي .. أو تحتل موقعا .. فهو يحارب ضد جيش مدرب وقوي.. وليس ضد فريق من الصبية يلعبون ..

وللذلك لا أنس ما قاله قائد عسكري مصري كبير لي مرة في معرض التعليق على الاختراق الاسرائيلي لغرب القناة ولم يكن وقف القتال قد حدث :

ـ نحن كسبنا خمسة رءوس جسور على الشاطىء الشرقي للقناة .. والاسرائيليون كسبوا جسرا واحدا على الشاطىء الغربي.. والمعركة مستمرة. وسترى انا سنهزمهم ..

واستطرد القائد المصري قائلا :

من قبل كانت الصورة ان الجيش الاسرائيلي مارد هائل والجيوش العربية قزم لا حول لها ولا قوة ازاء ذلك المارد .. الان الصورة ان الجيش العربي ند للجيش الاسرائيلي وقد تفوق عليه .. وسنتفوق عليه دائما اذا ما استمرت الحرب حتى لو هزمنا في موقعة مرة ومرتين .. تذكر إننا جيشان ندان .. مع وجود عوامل في صالحنا تضمن لنا الانتصار النهائي ...

ونختتم هذا الفصل بعبارات مما كتبه يهونتان جيفن الضابط الاسرائيلي والصحفي بجريدة معاريف في تل ابيب وواحد من مؤلفي كتاب التقصير الستة اذ يقول تحت عنوان : غسيل المخ :

« ست سنوات ابتسموا في ظلال آلات التصوير ، ولا يلائمهم اكثر من اسم «حزب العمل» .. لان نشاطهم بيننا كان في الحقيقة واسعا وجذريا.. غسلوا ادمغتنا الى ان بدانا نصفر لحن « الجسر على نهر كواى » . حتى في اوج ساعات الاحتفال الكبير غسلوا ادمغتنا بالماء والصابون وبالصحف والراديو والتليفزيون .. والتليفزيون عندنا لعبة جديدة من صنعهم .. وقد لعبوا فيها حتى النهاية المرة .. »

ويقول ايضا :

اقسم اني ساهرب من هنا .. ساهرب بعيدا .. ساهرب حتى البحر واقــول .

لا اريد ان اسقط بين كراســيكم

انا خائــف .

انا خائــف .

اريد ان احيــا

ما اجمل الحياة من اجل بلادنا !

انا حي وميت في آن واحد .. وفي فمي طعم « زبل » الخيل المالح.. وكل اصدقائي تقريبا قتلوا او جرحوا .. ولا شيء يهمني اقل ممــا اذا كنا انتصرنا او خسرنا .. لا اريد ان اسمع النتائج .. حياتي ليســت كرة قدم . انا حي .. ولكن ما مات بي لن تستطيعوا اعادته الى الابد !!..

★★★

٢٢

الجبهة الثالثة ـ الشعب الفلسطيني في المعركة

« انكم تقومون الان بدور الجندي المجهول بكل عظمته الـذي يقاتل بصمت ويستشهد بصمت من اجل شعبه وامته »

ياسر عرفات في بيانه للشعب الفلسطيني في يوم العبور

لقد انتظر الشعب الفلسطيني ذلك اليوم .. يوم بدء الحـرب ضد المغتصب الاسرائيلي .. فلقد ظلت المقاومـة الفلسطينيـة التعبير الوحيـد الشريف عن بسالة ذلك الشعب وعنـاده واصراره على تحريـر ارضـه .. تحارب خلال السنوات الست الماضية بعد هزيمة ١٩٦٧ وقبلهـا بعامين .

وقدمت تضحيات .. من الشهداء سواء على يد الاسرائيليين أو على ايدي بعض الانظمة العربيـة ..

وكلما طال انتظار النظم الوطنية العربية المتقدمة لساعة الصفر .. كلما عاني النضال الفلسطيني نفسه من وطأة ذلك الانتظار خصوصا بما ينتجه من تفاعلات ومؤامرات ضـد حركة المقاومة الفلسطينية ذاتها .

ومع ذلك ظلت المقاومة تناضل ضد المحتلين الاسرائيليين رغم تقليص امكانياتها وقواعدها التي يمكن ان تثب منها على العدو .. **ولكنها اصرت وظلت على اصرارها متجـاوزة كثيرا من الخلافات الايديولوجية والاتجاهات المغامرة والصراعات التـي لا تخلو منها اية حركـة وطنية فـي العالم ..**

فما بالك وحركة المقاومة الفلسطينية تنفرد بظرف شاذ جدا وهي انها في الاغلب الاعم لا تقوم في وطنها .. على ارض محددة تملكها وتقاتل فيها بين شعبها اللهم الا في الضفة الغربية وغزة ؟

وعندما انطلقت المدافع العربية في سيناء والجولان كانت المقاومة الفلسطينية من اسعد فرق النضال الشعبي العربي . على حد تعبير جريدة لوموند الفرنسية لان الحرب ضد اسرائيل « فرصة عظيمة امام الفدائيين الفلسطينيين لتصعيد فاعليتهم القتالية بعد فترة من الركود » ..

وقد اذاع ياسر عرفات القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية بيانا وجهه الى جميع المقاتلين في داخل الاراضي المحتلة وخارجها بعد ان زار بعض مواقعهم في ٦ اكتوبر ظهرا . (كان عرفات احد القلائل الذين يعرفون ساعة الصفر .

وجاء في البيان :

ان المزيد من الضربات لخطوط مواصلات العدو ومراكز تجمعاته ومرافقه الحيوية داخل الارض المحتلة وحدودها امر هام وحاسم خصوصا وانكم تقومون الان بدور الجندي المجهول بكل عظمته الذي يقاتل بصمت ويستشهد بصمت من اجل شعبه وامته » .

واذا كان كثير من الكتب التي كتبت عن حرب اكتوبر لم يتحدث تفصيلا عن دور الشعب الفلسطيني في تلك الحرب فان كتاب مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية قد شرح باسهاب مفيد ذلك الدور .. « الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة « وقائع وتفاعلات » .

★★★

والدور الفلسطيني في الحرب كان تحت قيادة فلسطينية مستقلة تنسق مع القيادات العربية الاخرى ..

وبالرغم من تواضع الاسهام الفلسطيني في معارك الحرب الرابعة ، قياسا الى حجم القوى المتحاربة وفاعلية اسلحتها المختلفة ، فلقد كانت له فاعلية وحيوية بالغتين . فاحد الشعارين المعلنين لحرب تشرين هو : اعادة الحقوق الشرعية والوطنية للشعب الفلسطيني . وبالتالي كانت الحرب اعلانا مدويا عن الجوهر الاساسي للصراع في المنطقة ، الا وهو قضية الشعب الفلسطيني السياسية .

من هنا كان الاسهام الفلسطيني في حرب تشرين ، ذا مدلولات سياسية خاصة ، اكثر منه ذا مدلولات عسكرية . وأولى هذه الدلالات واهمها ، ان

الفلسطينيين ما زالوا في المعركة ، جوهر الصراع وجذوته المشتعلة ابدا ، وثانيها ، انه عبر القتال الفلسطيني يتواصل الحضور السياسي للشعب الفلسطيني وتتاكد هويته الوطنية المستقلة . اما ثالثها ، فهي ان استمرار لاحتلال وقهر وطنية الشعب الفلسطيني وانكار حقوقه ، لن يرد عليها الا باستمرار القتال الفلسطيني ومضاعفة حدته .

وليس ادل على ما هدف اليه القتال الفلسطيني في حرب تشرين وميزه سياسيا ، من تلك النتائج المباشرة للحرب في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين . فقد ادت حالة النهوض الوطني والسياسي للشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة ، الى انتظام اعرض الجماهير الفلسطينية خلف شعارات سياسية محددة ، تعبر عن اعز امانيها الوطنية في هذه المرحلة ، الا وهي اقامة السلطة الوطنية الفلسطينية فوق كل ارض فلسطينية يتم انتزاعها من قبضة الاحتلال . فالى جانب خوض جماهير الضفة والقطاع ارقى درجات واشكال الكفاح الوطني ، وانخراط اوسع طبقاتها في ذلك بصلابة ، حددت برنامجها السياسي المرحلي من خلال الشعار الذي عم الارض المحتلة : « لا للاحتلال ، لا لعودة النظام الهاشمي ، نعم لمنظمة التحرير الفلسطينية » . وبذلك اكدت جماهير الارض المحتلة عمق استجابتها للنتائج الايجابية لحرب تشرين وتحسسها الوطني المرهف لاهداف وغايات القتال الفلسطيني في هذه المرحلة وضمن موازين القوى الحالية .

الدور القتالي الفلسطيني في الحرب

قياسا الى حجم القوى التي حاربت في تشرين ، وقياسا الى الاسلحة والمعدات الحربية المستخدمة في تلك الحرب ، فقد كان الاسهام الفلسطيني فيها مختلفا بنوعيته . فقد اسهمت قوات الثورة الفلسطينية بدور له اهميته وخطورته البالغتين ، بالنظر الى طبيعة الدور والمهمات القتالية التي اسندت اليها في الخطة العسكرية العربية من جهة ، وتلك التي تحددت من خلال المهمات المنوطة برجالها وكوادرها داخل الا ض المحتلة .

صحيح ان قوات الثورة الفلسطينية التي فتحت الجبهة الثالثة على الحدود اللبنانية ــ الفلسطينية ، قد قامت بدور مختلف عن طبيعة حرب الانصار ، الا ان المهمات الاساسية لكافة قوات الثورة وكوادرها

تحددت من خلال نداء القائد العام لقوات الثورة ، الا وهي « حرب العصابات » ومشاغلة العدو وضرب مراكزه الحيوية وخطوط مواصلاته .

★★★

ان القوى البشرية الفلسطينية التي شاركت في القتال ، وبالنظر الى طبيعة دورها واماكن تواجدها ومراكز انطلاقها ، ليست محددة على وجه الدقة ، كما انه لا يمكن حصرها كما هو الحال في القتال النظامي والجيوش النظامية . ومع ذلك يمكن القول ، ان الاطار العام الذي يحدد مدى الاسهام البشري الفلسطيني في حرب تشرين يتكون من عنصرين اساسيين

الاول . قوات فصائل حركة المقاومة الفلسطينية وقوات جيش التحرير الفلسطيني . وقد قدر مجموع هذه القوات بخمس وعشرين كتيبة موزعة على الجبهات الثلاث : السورية والمصرية واللبنانية . ويمكن القول ان هذا الجزء الاساسي من قوات الثورة ، قد ساهم بجهد عسكري مختلف باختلاف ظروف كل جبهة على حدة . فحين قاتلت قوات جيش التحرير المتواجدة في سورية ومصر ، ضمن الخطة العسكرية النظامية ، قاتلت قوات الثورة وفصائلها على الجبهة اللبنانية قتال العصابات بكل ما لها من مهمات وادوار مختلفة .

الثاني : قوات الثورة ومناضلوها وكوادرها داخل الارض المحتلة كلها. وبالنظر الى تواجد مناضلي الثورة هؤلاء بين الجماهير الفلسطينية التي ارتفعت معنوياتها بالحرب ، فان بعض ما نفذ من عمليات داخل الارض المحتلة كان بمبادرة فردية ، وهو امر زاد من رصيد القتال الفلسطيني في الحرب واعطاه طابعه المميز وحضوره السياسي الطاغي .

القتال على الجبهة اللبنانية

بعد حملات النظام الاردني العسكرية ضد المقاومة الفلسطينية عامي ٧٠ ـ ١٩٧١ ، غدا جنوب لبنان مركز تجمع وتواجد اساسي لقوات الثورة الفلسطينية . ومن جهة اخرى ، اتاحت طبيعة الارض الملائمة لظروف حرب العصابات وقرب التجمعات السكانية للعدو من الحدود ، ظروفا موضوعية لتركز الوجود الفلسطيني في جنوب لبنان وسهولة انطلاقه .

ولقد قدرت قوات الثورة التي قاتلت على هذه الجبهة بحوالى عشرة كتائب مكونة من مختلف قوات فصائل الثورة الفلسطينية بنسب متفاوتة .

ولم يقتصر القتال هنا على الوحدات العسكرية المتواجدة في قواعد انطلاقها ، بل شمل مجموعات كبيرة من قوات الميليشيا العسكرية التابعة لقوات الثورة التي جرى نقلها على وجه السرعة الى جنوب لبنان . كما انخرط في صفوف القوات الفلسطينية عدد من المتطوعين الذين وفدوا خلال سير الحرب من بعض الاقطار العربية واهمها العراق وبعض اقطار الخليج العربي كذلك ساهمت القوى والاحزاب الوطنية والتقدمية اللبنانية في تعزيز هذه القوات عن طريق ارسال مجموعات مسلحة الى الجنوب .

وكان حصيلة القتال الفلسطيني على هذه الجبهة مائة وستين بلاغا عسكريا اصدرها الناطق العسكري الفلسطيني خلال سير العمليات الحربية. وشملت ساحة المواجهة المنطقة الممتدة من الساحل الغربي حتى نقطة التقاء الحدود السورية ـ اللبنانية في سفوح جبل الشيخ . وقامت قوات الثورة اثناء ذلك بما مجموعه ٢٠٧ عمليات عسكرية ٢٣ في المائة منها عمليات قصف مدفعي وصاروخي ، ٢٣ في المائة عمليات تفجير ، ٢٢ في المائة عمليات هجوم ، ١٣ في المائة كمائن ونحو ١٢ في المائة اشتباكات و ٧ في المائة اغارة وقنص . ويدل حجم ونوعيات العمليات المنفذة هذه على تضاعف مقداره ١٥ مرة خلال الحرب عنه في الاشهر السابقة . (جميع هذه النسب والارقام منقولة عن كتاب : الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ـ وقائع وتفاعلات ، الصادر عن مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية) .

وذكرت بيانات الثورة الفلسطينية سقوط ٥٩ شهيدا و ٤٣ جريحا من المقاتلين اثناء قيامهم بمهماتهم داخل الارض المحتلة .

من ناحية اخرى حاولت اسرائيل التقليل من حجم وفاعلية قوات الثورة الفلسطينية على هذه الجبهة . الا انها اضطرت تحت وطأة ضربات الثوار الفلسطينيين الى تهجير المستوطنين من القرى والمستعمرات الحدودية ، الامر الذي اضاف اعباء اخرى كبيرة على تنظيم جهدها الحربي اثناء القتال . وقد اعترف يوسف تكواه ، مندوب اسرائيل لدى الامم المتحدة ، في مناقشات مجلس الامن في ٢١ـ١٠ـ٧٣ ، بان ٤٢ مستعمرة اسرائيلية قد هوجمت من قبل قوات الفدائيين وان ٢٠٢ اشتباكا قد وقع منذ بداية القتال .

وخير ما يلخص الوضع الذي شهدته الحدود الفلسطينية ـ اللبنانية اثناء سير العمليات الحربية ، ذلك التقرير الذي بعث به مراسل وكالة الصحافة الفرنسية في الارض المحتلة من مستعمرة المطلة ، حيث قال : **« انه في الوقت الذي تدور فيه المعارك الكبيرة على جبهات القتال فانه يجري قتال على نطاق اقل ولكن لا يقل ضراوة حول هذا المكان ... انه في كل ليلة واحيانا في النهار يقوم الفدائيون بقصف المواقع الاسرائيلية والمستوطنات بصواريخ كاتيوشا ... ان تلك الاوضاع المتردية متفشية في جميع المستعمرات الاسرائيلية في الشمال »** .

القتال على الجبهة السورية

حددت طبيعة القتال النظامي على هذه الجبهة ، دور ومهمات القوات المتواجدة فيها . وهي بالاساس قوات جيش التحرير الفلسطيني ، غير انه الى جانب هذه القوات ، عملت بعض فصائل حركة المقاومة باسلوبها العصابي الخاص ، كما حاولت العمل من الجبهة الاردنية .

وتقدر قوات جيش التحرير التي عملت على هذه الجبهة تحت امرة القيادة العسكرية بخمس كتائب . انيط ببعضها الدفاع عن مواقع ارضية على الجبهة واحتلال المواقع المسيطرة والحساسة فيها ومواصلة صد قوات العدو . اما الواجب الرئيسي الذي انيط بهذه القوات ، فهو مهمات الاستطلاع والعمل خلف خطوط العدو . وكانت قوات جيش التحرير قد جرى اعدادها وتهيئتها لهذه المهمات ، كقوة مظلات . ولقد قامت هذه القوات بالفعل بالانقضاض من الجو على مواقع وحصون العدو وبعض التلال ذات المواقع الاستراتيجية كما حدث في تل الفرس يوم ٧ ـ ١٠ ـ ١٩٧٣ . وقامت كذلك بالاغارة على مواقع العدو ومرابض دباباته ، خاصة خلف خطوط العدو القتالية ، وذلك كما حدث في تل الشعار يوم ١١ ـ ١٠ ـ ٧٣ ، تل المال وتل مطوق يوم ١٢ ـ ١٠ ـ ٧٣ ، وتل شمس وتل شحم يوم ١٦ ـ ١٠ ـ ٧٣ . كذلك قاتلت قوات جيش التحرير (قوات القادسية) في معركة تل ابو الذهب .

وكانت حصيلة هذا القتال على الجبهة السورية سقوط ٤٤ شهيدا ومفقودا بينهم ستة من الضباط ، وذلك الى جانب ٦٥ عنصرا جريحا وقع خمسة منهم في الاسر .

القتال على الجبهــة المصرية

اقتصرت المشاركة على وحدات قوات عــين جالوت التابعــة لجيش التحرير الفلسطيني . وقد كانت هذه القوات تحت أمرة وتصرف القيــادة العسكرية المصرية ، فاسندت لها واجبات قتالية كوحدات مشاة خفيفــة مثلها في ذلك مثل مختلف وحدات المشاة المصرية .

١ ــ انتشرت هذه القوات في المنطقة الواقعة بين كبريت وكسفريت ، اي جنوبي الدفرسوار على امتداد نحو ٢٥ كيلو مترا في مواجهة البحيرات المرة . وبعد ان عبر جسم القوات الرئيسية من الجيش الثالث الى شرق القناة ، بقيت قوات عين جالوت مع مؤخرة الجيش ووحداته الاداريــة ، الى جانب وحدات عربية اخرى (كويتية) تقوم بمهماتها الدفاعية خلف منطقة العبــور .

٢ ــ أشتركت مجموعات من هذه القوات في « عمليات خاصة » خلف خطوط العدو لقنص الدبابات او الاغــارة على مرابض مدفعية العــدو او لضرب قوافله وآلياته المتحركة .

٣ ــ اسند للقوة كذلك واجب مراقبة قــوات العدو . ولهذا قامــت بدفع بضعة مجموعات متقدمة الى مناطق انتشارها الامامية في الشمــال للقيام بمهمات استطلاعية . وقد امكن لتلك المجموعات التبليغ بالفعل عــن البدايات الاولى للخرق الاسرائيلي في الدفرسوار ، يوم ١٦ ــ ١٠ ــ ١٩٧٣ .

وبالرغــم من نجاح الخرق الاسرائيلــي وتوسعــه يومي ٢٢ ــ ٢٣ ــ ١٠ ، بقيت قوات عين جالوت صامدة في مواقعها ، الامــر الذي دفــع بالعدو الى استخدام المدفعية ضدها كما قصفها بالطيران بقنابل من عيــار ٥٠٠ رطل . واستخدم كذلك ضدها القنابل الكيماوية . غير ان وحــدات عين جالوت تصدت للاندفاع المدرع الاسرائيلي بالالغام والاسلحة الفرديــة المضادة للدروع وحاولوا تأخير تقدمه على الطريق الواقع بــين البحيرات والمرتفعات الجبلية . كذلك قاوموا محاولة العدو للنزول من الجبال عبــر وادي الجاموس . وقد امكن لاحدى كتائب القواتالفلسطينية هذه ان تؤخر ، بعد قتال ضار ، تقدم القوات الاسرائيلية على هذا المحور لمدة ٧٢ ساعة ، من يوم ١٨ ــ ٢٢ ــ ١٠ ــ ١٩٧٣ .

وبعد ان صمدت هذه القوات لمدة ثمانية ايام بعد الاختراق الاسرائيلي،

تلقت يوم ٢٤ ـ ١٠ برقية تحية لثباتها وامرا بالانسحاب جنوبا باتجاه مدينة السويس ، نظرا لكثافة الهجوم المعادي . وشاركت هذه القوات مرة اخرى بالدفاع عن السويس وصد محاولات العدو المتكررة لدخولها .

ويذكر ان وحدات قليلة قاتلت الى جانب قوات عين جالوت على الجبهة المصرية ، من المتطوعين الفلسطينيين ووحدات ضفادع بشرية تابعة لحركة فتح . وقد سقط من بين هؤلاء ثمانية عشر شهيدا ومفقودا . اما قوات عين جالوت فقد سقط منها ٣٠ شهيدا و ٧٠ جريحا وعدد اخر من المفقودين .

القتال على الجبهة الاردنية

ان طول حدود المواجهة بين الاردن واسرائيل والبالغ ٦٠٠ كيلومتر ، يخلق ظرفا مواتيا للعمل بالتكتيك العصابي لبعثرة قوات العدو وخلخلة صفوفه . وكان هذا الظرف مواتيا بصورة افضل خلال حرب تشرين حيث حشد العدو على الجبهتين السورية والمصرية كل قواته الرئيسية ولم يستبق على طول خطوط المواجهة مع الاردن اكثر من لواءي مشاة . غير ان الحكم الاردني لم يكتف بعدم فتح خطوط النار مع العدو والاسهام في حرب تشرين بجدية وفاعلية حقيقيتين ، بل عمل على اغلاق هذه الحدود في وجه قوات الثورة الفلسطينية لمنعها من العمل ضد اسرائيل . وهو الامر الذي جعل اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تصدر في اليوم الثالث للحرب بيانا تتهم فيه النظام الاردني بالتواطؤ .

والى جانب ذلك قامت اللجنة التنفيذية بجهود لاقناع الحكم الاردني بدخول خمسة الاف فدائي للقيام بعمليات محددة في الارض المحتلة عبر الحدود الاردنية . وقام وفد من المنظمة بزيارة عمان يوم ٩ ـ ١٠ واجتمع برئيس الحكومة الاردنية لهذا الغرض . غير ان هذه المحاولات لم تجد نفعا ولم تغير من مواقف الاردن . غير ان منظمة التحرير عادت فكررت محاولتها بارسال وفد اخر الى عمان يوم ١٥ ـ ١٠ ليواجه هذه المرة بكلام صريح من قبل رئيس الحكومة الاردنية وفحواه « اننا لن ندخل الحرب مع اسرائيل وان مسالة دخول الفدائيين للارض المحتلة لن تكون قبل دخول الاردن الى المعركة » كما روت المصادر الفلسطينية .

غير انه بالرغم من كل تلك الصعوبات نجحت بعض الوحدات الفدائية بالوصول الى اهدافها بالارض المحتلة ، واعلن العدو من جانبه عن ذلك ، فقد اعلن ناطق عسكري اسرائيلي في اليوم التالي للحرب عن قصف احدى المجموعات الفدائية لثلاث مستعمرات اسرائيلية في غور بيسان بالصواريخ . كما اعترف بقصف مستعمرتي غادوت وشامير . واعلن عن قصف مدينة سمخ جنوبي طبريه يوم ١٥ – ١٠ بالصواريخ الثقيلة . واعلن الاسرائيليون في وقت لاحق انه تم نسف مضخة المياه ومجمع الكهرباء في ايلات . وقد سقط على الجبهة الاردنية خمسة عشر شهيداً وجريحا فلسطينيا .

المقاومة داخل الارض المحتلة

مع بداية القتال ظهيرة يوم ٦ تشرين الاول (اكتوبر) اصدرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بيانا دعت فيه العمال العرب في الارض المحتلة بمقاطعة معامل ومزارع العدو ، حتى لا يتاح له المزيد من زج قواه البشرية في ارض المعركة . وقد اجمعت التقارير التي وردت من الارض المحتلة فيما بعد ، بما فيها تقارير الصحف الاسرائيلية ، ان مقاطعة العمال العرب كانت شاملة خلال فترة سير العمليات الحربية . وقد تجلى نداء منظمة التحرير هذا ليس فقط بمقاطعة العمل العربي في مصانع ومعامل العدو بل في عدد من المظاهر الاخرى ، من بينها المنشورات التي عمت مدن الضفة والقطاع بتوقيع الجبهة الوطنية الفلسطينية والداعية الى مقاومة الاحتلال. كما اضربت المدارس وسارت بعض التظاهرات في عدد من المخيمات جرى خلالها قذف مراكز الشرطة بالحجارة . كما امتنع العرب عن التعامل بالليرة الاسرائيلية ، ونجح بعض اصحاب سيارات النقل في عدم تسليم سياراتهم الى الجيش الاسرائيلي ولجأ بعضهم الى تعطيلها . ومن ناحية اخرى شهدت سجون ومعتقلات العدو العديد من التمردات من قبل الفدائيين الاسرى لدى العدو ، الامر الذي دفع بسلطات السجون الاسرائيلية الى التنكيل بالمناضلين المعتقلين في سجون بئر السبع ان اثنين منهم هما : حسين محمد طه حسين ، ومحمد الشخشير قد استشهدا نتيجة عمليات التعذيب تلك . كما قامت سلطات الاحتلال خلال فترة الحرب باعتقال اكثر من ٥٠٠ مواطن عربي لخشيتها من احتمال تحركهم ضدها ، واضطرت كذلك الى اعلان الضفة الغربية منطقة عسكرية مغلقة .

اما على الصعيد العسكري فقد اصدر الناطق العسكري الفلسطيني في الفترة الواقعة بين ٦ ــ ٢٤ ــ ١٠ ــ ٧٣ بلاغات عسكرية تتضمن ما مجموعه القيام بـ ٧٨ عملية عسكرية ، كان من اهمها ما اعترف به الاسرائيليون في اليوم التالي للحرب ، وهو الهجوم الذي شنته احدى المجموعات الفدائية على معسكر للمظليين في « الكويدره » . وقد اعتمدت اغلب تلك العمليات على وسائل التخريب البدائي مثل القاء المسامير في الشوارع وحرق المزروعات والمحاصيل في المزارع التابعة للمستوطنات الاسرائيلية القريبة في مناطق جنين وطولكرم ، وفك مسافات طويلة من قضبان السكة الحديد في غزة وسيناء ، وقطع اسلاك الكهرباء والهاتف ، بالاضافة الى القاء قنابل المولوتوف على عدد من دوريات وسيارات العدو .

وقد انعكست الروح المعنوية العالية التي تركتها حرب تشرين بين جماهير الارض المحتلة في طبيعة تنفيذ كثير من المهمات العسكرية . وخير دليل على ذلك ما قام به أحد الفدائيين يوم ٨ ــ ١١ ــ ١٩٧٣ ، بالانقضاض على احد الجنود الاسرائيليين امام بنك لؤمي في رام الله وقتله بالسكين .

ان ما قامت به قوات الثورة الفلسطينية خلال حرب تشرين يظل فوق ذلك كله من طبيعة مهام ودور الجندي المجهول في كل الحروب الوطنية الكبيرة . وقد أهلها هذا الاسهام المرتفع المستوى والدرجة ، الى تعزيز ثقة جماهير الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، كقيادة شرعية وحيدة تعبر عن أمانيه الوطنية وتعمل لاجل تحقيقها ، ضمن رؤية ثورية واقعية صادقة .

٢٣

العرب يقدمون الشهداء لا الكلمات..

● **في يوم ٧ اكتوبر اي في اليوم الثاني للحرب صدر بلاغ في بغداد** يكشف النقاب لاول مرة عن مساهمة العراق ببعض قواته المسلحة في المعركة ، اذ ذكر البلاغ ان سربا من اثنتي عشرة طائرة عراقية من طراز « هوكر هنتر » المقاتلة القاذفة يشترك في القتال في جبهة سيناء .

وكانت تلك اول مرة يجري فيها الاعلان رسميا عن وجود وحدات مقاتلة عراقية في مصر ..

وفي نفس اليوم صدر بيان رسمي من الحكومة العراقية يعلن عن وضع كافة وحدات الجيش العراقي تحت تصرف القيادة المشتركة المصرية السورية .

وكان يوما عربيا مشهودا هذا السابع من اكتوبر اذ توالت البيانات من البلاد العربية واحدا وراء الآخر تعلن مساهمتها بالدم لا بالمال فقط .. **فحكومة الكويت** اعلنت ايضا ان القوات الكويتية التي يقدر عددها بلواء مشاة والمرابطة من زمن في جبهة القناة تشترك في القتال .

واعلن في القاهرة عن وصول وحدة جوية **جزائرية** للاشتراك في القتال .. اما في **الرباط** فقد اعلنت الحكومة رسميا انها في طريقها لارسال وحدة قتالية جديدة من الجيش المغربي لتعزيز اللواء المغربي الذي يقاتل حاليا في الجبهة السورية جنبا الى جنب مع الجيش السوري .

واعلن **السودان** ايضا حالة التأهب بين قواته المسلحة كما ذكر بيان ان قوات مسلحة سودانية سترسل للمشاركة في القتال . وفي **الاردن** اعلنت

الحكومة حالة التعبئة العامة ووضعت الجيش الاردني في حالة تأهب قصوى .. وعندما حاولت طائرات اسرائيلية اقتحام المجال الجوي الاردني تصدت له وسائل الدفاع الجوي الاردنية واجبرتها على العودة من حيث اتت .

وفي اليوم الرابع صعد العراق مشاركته في المعركة فاعلن عن وصول طلائع القوات العراقية الى الجبهة السورية ، كما اعلن عن مشاركة الطائرات العراقية في القتال جنبا الى جنب مع طائرات سوريا .

في اليوم الخامس اعلنت **تونس** على لسان زعيمها الحبيب بورقيبة اعتزامها ارسال كتيبة تونسية قوامها ٩٠٠ رجل الى الجبهة المصرية وانها ستتحرك في اية لحظة . كما اعلن ان **الجزائر** ارسلت وحدات جوية اخرى الى مصر .

واعلن ان قوات من **المملكة السعودية** تشارك في القتال جنبا الى جنب مع القوات السورية ايضا ..

وتحركت قوات أردنية من خيرة قوات الجيش الاردني للقتال في جبهة الجولان .. وقدرت مصادر عربية حجم تلك القوة في اليوم التاسع للقتال (١٥ اكتوبر) باربعة آلاف وخمسمائة جندي وضابط تعززها مائة دبابة .

واعلن ايضا ان **العراق** قد بدأ في تجنيد الاحتياطي لارسالهم الى الجبهة بعد ان اصبحت القوات العراقية حوالى ١٨ الف جندي واربعمائة دبابة وعدة اسراب جوية وعدد كبير من مدفعية الميدان بعيدة المدى ..

* * *

وهكذا لم يقدم العرب هذه المرة كلمات .. او نقودا فقط .. وانما قدموا الدم .. **وسقطت حواجز اليمين واليسار .. فاستشهد السعودي والاردني والمغربي جنبا الى جنب مع السوري والعراقي والمصري ..**

وقتلت القنابل الاسرائيلية اي عربي يحمل السلاح ..

لم تقل القنبلة الاسرائيلية هذا يميني ، موال للرأسمالية والاحتكارية العالمية فلا اقتله .. وذاك معاد للرأسمالية فلا بد من ازهاق روحه ! انما قتلت القنبلة الاسرائيلية الصهيونية المصنوعة في الولايات المتحدة الامريكية الجميع ، وكان الجسر الجوي من الولايات المتحدة يحمل السلاح احدث انواع السلاح واشدها فتكا لتزويد القوات الاسرائيلية به .. والاستعمار الامريكي يعلم علم اليقين ان هذا الرصاص سيصيب صدور

جنود سعوديين من البلد الذي يمتلك الامريكيون بتروله .. كما سيصيب جنودا اردنيين من البلد الذي يتلقى معونة من امريكا .. و ..

ذلك لان العرب جميعا تعالوا على خلافاتهم وتناقضاتهم ووقفوا حول مسالة محددة جدا .. وهي طرد قوات العدوان الاسرائيلي من الارض العربية المحتلة . وتطور الموقف الى اتخاذ موقف مضاد لمن يؤيدون العدوان.

وساهم كل طرف في الجبهة العربية الموحدة حسب قدراته .. وحسب طاقته .. وقبل هذا حسب وعيه .

بعض الدول العربية قاتلت مباشرة مسخرة قواتها ومواردها لطرد العدو الذي يحتل ارضها (مصر وسوريا بالتحديد) .

وبعض الدول كما رأينا قدمت قوات مسلحة .. تفاوتت في قوتها .

والبعض قدم مالا .. وثمة ارقام تقريبية عن مقدار الدعم المالي الذي تلقته مصر تدعيما للمجهود الحربي من دول عربية اثناء الحرب :

المملكة العربية السعودية دفعت ٣٠٠ مليون دولار
الكويت دفعت ٢٥٠ مليون دولار
ليبيا دفعت ١٧٠ مليون دولار
قطر دفعت ١٠٠ مليون دولار
ابو ظبي دفعت ١٠٠ مليون دولار

هذا غير ان الجبهة العربية اتخذت موقفا بشان البترول .. سيأتي الحديث عنه فيما بعد ..

لكننا سنستعرض الان الدور العسكري للبلاد العربية في المعركة ..

دور الجيش العراقي

ان الموقف العراقي منذ نشوب حرب اكتوبر تميز بالايجابية والفعالية رغم ان الحكومة العراقية لم تعرف ببدء الحرب الا من الاذاعة ..

ورغم ان فرقتين تقريبا ساهمتا في القتال في جبهة الجولان .. واشتركت القوات العراقية في صد الهجوم على طريق سعسع وسقط شهداء عراقيون كثيرون في تلك المعركة ..

ورغم مساهمة الطيران العراقي على جبهتي سوريا ومصر ..

ورغم ان الدبابات العراقية قد قطعت اكثر من الف كيلو على « الجنزير » لتلحق بالجبهة السورية للمساهمة في المعركة ..

رغم هذا فان الاعلام العربي لم يعط العـراق حقـه في ابراز ذلك الدور .. الذي كان ابرز دور في المساهمة الفعلية في القتال من حيث عدد القوات والعتاد والشهداء جنبا الى جنب مع الجيشين اللذين تحملا العبء الرئيسي للمعركة وهما جيشا مصر وسوريا .

ان الصوت « منخفض » في الحديث عن تلك المساهمة ..

ومما لا شك فيه ان هذا الاغفال لدور العـراق لا يساعد على تدعيـم الجبهة العربيـة ..

ولكن من حسن الحظ ان القيادة العراقية قد اثبتت ارتفاع مستوى تقديرها الوطني فوق مثل هذه الامور ..

فرغم الخلافات والفتور في العلاقات بين العراق وبين بعض الـدول العربية قبل المعركة (بالذات بين حزبي البعث في سوريا والعراق .. الا انه عندما حلت ساعة الصفر ، تجاوزت السلطة العراقيـة هـذا كله .. وتقدمت للدولـتين المقاتلتين تعرض كل المساعدات بل المساهمة الممكنة .

لقد اتصل احمد حسن البكر رئيس جمهورية العراق تليفونيا فـي اليوم الاول لبدء القتال .. بكل من الرئيسين انور السادت وحافظ الاسد مؤكدا لهما مساندة العراق للبلدين في المعركة .

وفي نفس اليوم عقدت القيادتان القومية والقطرية لحزب البعـث العربي الاشتراكي ومجلس الثورة في بغداد اجتماعات اتخذت فيها قرارات بالنسبة للمساهمة في المعركة .

وتلا ذلك في منتصف الليل اجتماع للجنـة العليا للجبهة الوطنيـة والقومية التقدمية ويقودها حزب البعث وتضم الحزب الشيوعي العراقـي والناصريين والقوميين واتفقت اللجنة على تدابير سريعـة وفعالة لمواجهـة المو قـف .

واتبع العراق تكتيكا سياسيا ذكيا من اجل صالح المعركة التي تقرر خوضها .. ومن ثم تستلزم حشد طاقاته كلها فيها .

من هنا فان مجلس الثورة العراقي قد اتخذ قرارا اعلن فيه ضرورة عودة العلاقات الدبلوماسية مع ايران ..

وجاء في بيان مجلس الثورة العراقي :

« أن المعركة التي تخوضها الامة العربية اليوم هي اشرف المعارك وهي القضية الاولى التي تتقدم بمحتواها التحرري ، وضمن هذه المرحلة كـل الاعتبارات الاخرى .

ولما كان العراق يتحمل مسئولية قومية المعركة فانه يتوجه الى الجارة ايران بالدعوة الى اعادة علاقات حسن الجوار والتعاون وحل المشكلات القائمة وفق روح الجيرة وروح الروابط الاسلامية التي تجمع بين الشعبين العراقي والايراني ومصالحهما المشتركة » .

واكد البيان استعداد الحكومة العراقية لارسال وفد يمثلها لهذا الغرض الى طهران واستعدادها لاستقبال وفد ايراني .

(يلاحظ هنا ان تلك الخطوة الذكية اثارت سخط الدوائر الاستعمارية في المنطقة . فاوعزت الى بعض الدوائر والصحف المشبوهة في منطقة الشرق الاوسط باثارة قضية جديدة سموها (بنجلاديش العربية) مؤداها ان دولة عربية (المقصودبها العراق) تنوي الاعتداء على الكويت وان هذا الاعتداء يوعز به الاتحاد السوفيتي .

والهدف من ذلك واضح طبعا ، اذ انه في الوقت الذي يهدىء فيه العراق من اجل المعركة القومية ازماته مع جارته غير العربية ايران .. يحاول الاستعمار ان يختلق ازمة تعكر الصفو بينه وبين جارته العربية الكويت التي اختلطت دماء ابنائها مع دماء ابناء العراق على ارض الجولان ضد العدو المشترك الامبريالية والصهيونية !

علاوة طبعا على الهدف الآخر الخالد لدى تلك الدوائر وهو التشكيك والنيل من الصداقة العربية السوفيتية .. هذه الصداقة التي اكدت حرب اكتوبر حيويتها واهميتها القصوى للعرب ..)

ولكن اذا كانت تلك الدوائر المشبوهة قد بدات تلك الحملة في اعقاب وقف اطلاق النار في اكتوبر ١٩٧٣ .. فان الكتاب الشرفاء قد انبروا لكشفها وفضحها .. **والان بعد مرور عام من تلك المرحلة فان « المؤامرة » المزعومة اتضح زيفها .. والعلاقات بين العراق والكويت طيبة .. بل ان التوتر الذي ساد العلاقات بين مصر والعراق بعد وقف اطلاق النار قد انتهى وتحسنت العلاقات بين البلدين ودخلا في اطار تعاون اقتصادي..و..**

والبترول ايضا .

وللعراق وجهة نظر بشان استخدام سلاح البترول .. وهو تأميم ملكية شركات البترول لصالح العرب .. وقد امم فعلا الحصة الشائعة في شركة نفط البصرة المحدودة والعائدة لشركتي ستاندرد اويل اوف نيوجرسي اوكسن وموبيل اويل كوربوريشن الامريكيتين في اليوم التالي لبدء القتال .

وقد دعا بيان صدر من مجلس قيادة الثورة العراقي الاقطار العربية وجماهيرها وكل قوى الثورة العربية في كل مكـان الى ضرب المصالـح الامريكية وتصفيتها نهائيا وتاميم مصالحها البترولية بصورة خاصة .

كما دعا الاقطار العربية ايضا الى وقف تصدير البترول الى الولايـات المتحدة وكل دولة تساند العدوان الصهيوني .

كما دعا الجماهير العربية وقواها الثورية المناضلة الى التصدي الحازم لكل من يوفر للعدو الامبريالي طاقة العدوان واسباب الحياة .

وفلسفة العراقيين في هذا واضحـة .. ان امريكـا تدعم اسرائيـل بالسلاح والمال والمساندة السياسية لكي تكون حارسا لمصالحها في المنطقة ، وسوطا لالهاب ظهر من يهدد تلك المصالح من قوى الثورة العربية .

لذلك فان الوسيلة العملية هي تأميم تلك المصالح الامريكية وعلى راسها البترول. فان المال والسلاح اللذان يقدمان لاسرائيل هما في الحقيقة من اموال العرب التي يستولي عليها الامريكيون من بترولهم !.

وليس هناك من حاجة لتاكيد ان هذا هو المنطق الثوري الوحيد الذي يتفق مع مصالح الشعوب العربية ..

وهو ليس منطق العراقيين فقط بل منطق مصر ايضا .. منطق ثورة ٢٣ يوليو الذي وضعته موضع التطبيق في كثير من الاحوال..

ولا يتعارض مع هذا تحقيق ذلك الشعار علـى خطوات .. حسب توازن القوى في المعركة بين العرب والامبريالية ..

★★★

اما بالنسبة للقوات المسلحة العراقية .. فكما قلنا لقد اعلن الناطق العسكري العراقي في اليوم الثاني للقتال :

« ان قواتنا الجويـة المتواجـدة في منطقـة القناة كـان لها شرف الاشتراك في المعارك منذ بدايتها ، ويفخر ثوارنا بان يرووا بدمائهم ارضنا الطيبة في سيناء لتطهيرها من الصهيونية والاستعمار » .

« كما بدأت قواتنا الجوية بالمشاركة الفعالة في الجبهة الشمالية منذ ٧ تشرين الاول ١٩٧٣ » اي في اليوم الثاني للمعركة .

معجزة عسكرية عراقيـــة

اما كيف استطاعت القوات العراقية ان تتخذ احتياطاتها ، وتنتقـل في سرعـة خيالية من العـراق الى جبهـة القتال في الجولان فأمر جديـر بالتسجيل .

ولقد وصف ضابط عراقـي دخول القوات العراقية المعـارك فـور وصولها الى الميدان فقال :

« ان قواتنا تجاوزت في معركتها الكثير من شروط واساليب الدخول في المعركة .. واختصرت الزمن ، لان قوانـين المعارك تنص على ان يتـم التحضير والتحشد قبل المعركة .. ولكن الذي حدث أن قواتنا تحشدت مرة واحدة واخذت مواقعها في خط الشروع رأسا .

ورغم ان الجيش العراقي كان بعيدا عن ساحة المعركة ، وكان الوصول الى الساحة قد ارهق الجنود بسبب السهر والسفـر المتواصل ، ولكـن القطعات المحاربة دخلت المعركة فور وصولها ساحة القتال ، وكان الجنود على اشد ما يمكن ان يكونوا من الحيوية والاندفاع والنشاط ، مما ادهش قوات العدو وجعلها في حالة ذهول وارتباك لانها لم تكن تتوقع ان يدخل العراقيون المعركة بهذه السرعة المذهلة » . واضاف انه في احدى المعـارك تسللت طائرتان للعدو وحاولتا قصف مواقع القوات العراقية ، وكان على احد عناصر الدبابات ان يتولى استطلاع الموقف ، ولكنه بادر الى اطـلاق نيرانه الكثيفة على الطائرتين مباشرة ، وكم كانت دهشـة الجميع حين وجدوا ان الطائرتين من نوع ــ فانتوم ــ ، وان اليقظة واستعمال السلاح الخفيف كانا اسرع من اي سلاح اخر .. وتم اسقاط الطائرتين بالفعل » .

وقال الضابط العراقي : لقـد فشل العدو فـي قصف القطعـات العراقية بكل ضراوته وعنفه ، ولم يحقق شيئا ... وكان الجندي العراقي في المعركة يتمتع بكل كفاءة الجندي القتالية ، وكانت روحه العالية دافعـا قويا في الثبات والجلد .

مما لا شك فيه ان المسافة التي تفصل الجيش العراقي عـن ارض المعركة هي مسافة بعيدة مهما حاول التخطيط التقليدي تقريبها ، فانـه ضمن منطق الحرب تبقى بعيدة .. الا ان منطق المشاركة الثورية هو الذي حرك الجيش العراقي بالسرعة القصوى وغير المتوقعـةوارسله الى الجبهة. من وجهة النظر العسكرية كان ثمـة دوائق تحـول دون وصول القـوات العراقية الى ميدان المعركة بسرعة واشتراكها الفعلي بالمعارك .. ولكـن من

وجهة النظر السياسية والقوميـــة ، فانه كـان بامكـان القيادة فـــي العراق ، في سبيل الوصول الى نتائـج مقبولة ومرضية حتى من قبـل الشعب ، **ان تبعث بالجيش حسب المنطق العسكـري التقليـدي والى ان يصل تكون الحرب قد انتهت تقريبـا ، وبذلك تثبت انهـا شاركـت ولا يستطيع احد ان ينكـر ذلك لانها بعثت فعـلا بالقطعـات الى الجبهـة .** اضف الى ذلك انه كان بامكان القيادة ان تنحي باللوم على المشاركين بالحرب في الجبهتين لكونهم لم يخبروها ولم يدعوها للمشـاركـة في الحرب لكـي تسرع في حشد قواتها على الجبهة ، وبذلك تستطيع القيـادة أن تتهـم الانظمـة المشاركـة بان عدم مشاركـة الجيش العراقي كان بسبب عدم اعلام القيادة العراقية بساعة الصفر ، وبذلك يكون موقف القيادة فـي العراق موقفا منطقيا ضمن التصور الاعتيادي والكلاسيكي .

لقد تجاوز الجيش العراقي كثيرا مفهوم التحرك التقليدي في المساهمة في المعركة .. وهكذا دخلت القوات العراقية المعركة فور وصولها وقبل ان يتم اجراء العمليات العسكرية اللازمة لتهيئتها للاشتباك العسكري الحي . وهي العمليات المتعارف عليها عسكريا بانها تشمـل ، التحشد ، المثابة ، الانفتاح ثم الهجوم .

في اليوم الرابع، وفي وقت الغروب بالضبط كانت الوحدات العراقية تندفع بسرعة وكثافة عظيمتين على طول الطريق المؤدية الى الجبهة .. بينما كانت القوات السورية والمغربية ، تحاول جهدها بالحديد والدم ان توقف الزحف الاسرائيلي المتقدم من القنيطرة نحو العاصمة السورية دمشق .

معركة سعســع

وفي اليوم الخامس بدا الموقف حرجا بعد الهجمات الاسرائيلية المضادة. القطاع الشمالي المؤدية الى دمشق ، كانت القوات السورية منهمكة فـي معارك ضارية على القطاعين الاوسط والجنوبـي ، **وقد كلف اللـواء المدرع العراقي صد الهجوم الاسرائيلي المدرع الزاحف نحـو دمشق ...** ودارت معارك دامية وشرسة على مـدار ثلاثة ايـام بلياليهـاالمتفجرة بـين الجيش العراقي وقوات العدو وسجلت فيهـا القوات العراقيـة بطولات خارقـة ومعجزة .. بطولات اذابت الحديـد امـام عنادهـا وصمودهـا وكان الجنود العراقيون يستمرون في القصف العنيف متجاوزين الارقام القياسية في القصف المتواصل حتى اصبحت المدافع حمراء كاللهب .

كان اللواء العراقي وحده يقاوم ثلاثة الوية مدرعة معادية ، وببسالة نادرة استطاع ان يجبرها على التراجع حتى ان كثيرا من سكان المناطق القريبة من موقع القتال رووا كثيرا من الاساطير المعبرة عن بسالة هذا اللواء وايمانه ، ودوره في الدفاع عن دمشق .

بطولات نادرة

ولم يقتصر دور المقاتلين على القتال النظامي . فقد كانت تقوم بعض العمليات الليلية علي يد افراد يتنافسون في الحاق الاصابات والاضرار بمواقع العدو .. وكثيرا ما عاد بعض هؤلاء الافراد بخرائط تفصيلية لمواقع العدو وتمركزاته مما سهل عملية قصفهم .

كما قام بعض الجنود العراقيين مع رفاق لهم من السوريين بعمليات انتحارية مذهلة ، حملوا فيها المتفجرات اللاصقة وتوجهوا نحو دبابات العدو ففجروها ، واستشهدوا

اما في معارك الدبابات فكانت كل دبابة عراقية تواجه ثلاث دبابات معادية. وكان بعض الجنود يتركون دباباتهم بعد نفاذ ذخيرتها ، ويهجمون بالاسلحة الخفيفة على افراد دبابات العدو ، فيسيطرون على دباباتهم «السنتوريون» ويوجهونها ضدهم ... وقد نقل العراقيون فيما بعد ٢٠ دبابة الى دمشق..

وفي اليوم التاسع من الحرب على الجبهة السورية .. استطاعت دمشق ان تنام بهدوء بعد ان سكتت اصوات مدافع العدو التي كانت تؤرقها..

وفي اليوم التاسع ايضا كان العدو قد مني بهزيمة ساحقة اجبرته على تعديل قياداته العسكرية .

وقال وزير الاعلام السوري : ان القوات المسلحة العراقية تقاتل ببسالة وبطولة نادرة وتتحمل مسؤوليتها بجدارة في معركة التحرير مع العدو الصهيوني . ان « الحرب طويلة » و « ستستمر القوات العربية في القتال » .

وخلال معارك الدروع في الايام الخمسة الاولى لالتحام القوات العراقية مع العدو تمكنت من تحرير عدة قرى سورية .

وظلت المدفعية العراقية بعد ذلك تمطر مواقع العدو وابلا من قنابلها ، مما اربك صفوفه وحد من حركته وانتقل بفضل ضغط الدروع والمدفعية والطائرات الى اتخاذ مواقع الدفاع ، بعد أن كان مهاجما .

وقد وصف قائد عسكري سوري ما فعله مقاتلو الجيش العراقي بانه « انقاذ لشرف العروبة » .

معنويات قتاليـة عاليـة

والشيء الذي يدعو للفخر والاعجاب معا ، ان ساحة القتال شهدت تلاحما فريدا بين المقاتلين فقد خاض الجندي وضابط الصـف والضابط والقائد المعركة جنبا الى جنب وبتسابق مشهود في الاقـدام والالتحـام بالعدو .. وروى مسؤول عسكري عربي كيف ان المقاتل العراقي لا يكتفي باصابة دبابة واحدة فقط ، بل يظل يتقصى اثار العدو ليوقع بـه خسائر اخرى .. وقد اصيب نتيجة ذلك العديد من المقاتلين العراقيين الشجعان. والرائع في امر المصابين انهم كانوا يستعجلون الاطباء في معالجتهم لينضموا لرفاقهم من جديد .. احد هؤلاء المقاتلين اصاب خمس دبابات اصابـات مباشرة واشعل فيها النيران ، ولم يتراجع الا بعد اصابة دبابته وهو يلاحق الدبابة السادسة التي نالها في اللحظة الاخيرة . وهكذا ترى الصورة واحدة في جبهة القنال وجبهة الجولان . انه المقاتل العربي الشجاع الذي حطـم اسطورة الجيش الذي لا يقهر !

وقد كتب مراسل احدى الصحف العراقية في الجبهة الشماليـة يصف سير المعارك فقال : « في القطاع الاوسط مـن الجبهة الشماليـة بالقرب من هضبة الجولان ــ حيث نوجد الان ــ ، تشتبك قطعات عسكرية من جيش العروبة في العراق مع قوات العدو الاسرائيلي ... ففي الوقت الذي كانت فيه القطعات العراقية تتقدم نحـو هضبة الجولان ، اغـارت طائرات العدو على قطعاتنا العسكرية واستمر القصـف كثيفا ومركـزا . لكنني لاحظت الارتباك وعدم الثقـة في القصف بوضوح ، وحيـث تفشل محاولات سلاح الجو الصهيوني ، تندفع قطعاتنا العسكرية بزحف منتظـم وبطولي نحو الهضبة ويحدث اشتباك بسلاح الدبابات والدروع . والاحظ صوت الاهازيج العراقية المعروفة التي يردده الضباط والجنود ، يكـاد ان يعلو على صوت المدافع والقنابل . كفتنا هـي الراجحـة في القتـال . دبابات ودروع العدو تتفتت كقطع الحلوى . وقد تمكنا ، نحن اعضاء الوفد الاعلامي في الجبهة الشمالية من الدخول الى احدى دبابات العدو بعد ان تركها طاقمهـا وفر هاربا ، وقد جمعنا كل محتويات الدبابة المهجورة مـن اشرطة للعتاد وحقيبة خاصة باحد الجنود فيها بطاقته الشخصية ودفتـر ملاحظات وماكنة حلاقة وسجائر .

جـواز المرور :

ولقد شكل العراقيون مع بقية القـوات المتحاربة منـذ اليوم الاول لوصولهم الى الجبهة حاجزا عسكريا كان له دور ساطع في تحويل مجـرى المعركة وتحديد نتائجها .

واطلق الصحافيون والملقون العسكريون على هذا الحاجز اسم حاجز « حاجز اللهب » الذي لم تستطع الطائرات الاسرائيلية اختراقـه دون ان تفقد كل ثمانية منها اربع طائرات على الاقل ....

كما نشر الخبراء العسكريون تقاريـر اشادوا فيها ببسالـة القـوات العراقية وكفاءتها وحسن استخدامها للاسلحة المتطورة الحديثة .. ولهذا السبب استطاعت القوات العراقية ان تحرر عدة اماكـن وقرى سورية .

اما الطيارون العراقيون فقد اشتركوا في عمليات شبه انتحارية دلت على كفاءة عالية وتدريب متفوق .

وقال مراسل صحفي عراقي في الجبهة : كنا قد وصلنا قبل قليل ، وفي منتصف الطريق بيننا وبين المحاربين الشجعان توقفنا قليلا لنسمـح لرؤوسنا ان تستدير وتتابع عيوننا سقوط طائرتين اسرائيليتين اصابتهمـا وسائل الدفاع الجوي . ان منظر الطائرات الاسرائيليـة المتهاوية اصبـح مالوفا لدينا . نحن هنا .. في الجبهة ، **لا نواجه اسئلة : انا صحفي عراقي، هذا هو جواز مرورنا الى قلوب المحاربين** . الجنـود بشكـل خاص اكثـر المتحدثين حماسا واعظم ترحيبا بلاقوننا بمعنويات عالية . انهم يبتسمون . لصوت المدافع. للقذائف المتساقطة في صفوف العدو. يبتسمون لكتل اللهب الاحمر التي كانت في الارض المحتلة طائرات . وتحولت فوق ارضنا الى حطام . والشيء المهم في القضية ان المقاتل العراقي كان يحمل لواء قضية قومية ذاد عنها باقتناع وايمان فكانت همته واقدامه ينطلقان من هذا المنظار، فلذلك جاءت ضرباته موجعة للعدو ومؤثرة في مواقعه . فالذين اتيحـت لهم فرصة معايشة مقاتلينا عن كثب وعبر مواقع القتال نفسها احسوا ان هؤلاء المقاتلين من طراز جديد لم يالفوه من قبل .

وعن المعارك الجوية التي دارت في الجبهة الشمالية يحدثنـا طياران عراقيان : قال واحد منهم : عندما كنت في احد المواقع بالجبهة الشمالية شاهدت اربع طائرات صهيونية القت واحدة منها فقط حمولتها بعيدا عـن الاهداف المقررة لها . اما الاثنتان الاخريان فقد اسقطتا فورا بينما حاولت

الرابعة الهرب . ولكن مقاتلاتنا لاحقتها واسقطتها . وقال الطيار الثانـي : ان معنويات الطيار الصهيوني معدومة تماما الان ومحطمة . لقد كنت فـي احدى المهمات عندما تصدت لنا اربع طائرات معادية من نوع ميراج ، ولم تكد تشعر هذه الطائرات ان معنا حماية جوية حتى ولت الادبار هاربة فنفذنا مهامنا بنجاح وعدنا سالمين . وقال الطيار : وفـي مهمة اخرى اصيبـت احدى طائراتنا المقاتلة على خط النار تمكن طيارها من القفز بالمظلة وعـاد في المساء الى موقعه سالما . وفي هذه الاثناء تسلمنا امرا يقضي بتنفيـذ مهام جديدة . وابى ذلك الطيار الذي عاد لتوه من المعركة الا ان يشترك في المهام الجديدة مدللا بذلك على البسالة التي يتصف بها نسورنا في المعارك.

وكتب مراسل صحيفة « الجمهورية » العراقية الى الجبهة الشمالية قائـلا :

يجمع الكل هنا على ان انتقال القطعات العراقية الى الجبهة الشمالية سيسجل في التاريخ على انه مفخرة رائعة بالنظر للسرعة الهائلة التي تمت بها وللكفاءة التي اتصفت بها وللمواظبة التي استمرت ليل نهار خلافا لكل المحاذير والاعراف العسكرية . ومن قصص بطـولات محاربـي القـوات المسلحة العراقية ما حدث اثناء تحرير منطقة ـ كفر شمس ـ فبينما كـان طاقم احدى دباباتنا يخوض المعركة مع بقية الدبابات والجنود نفدت ذخيرة تلك الدبابة فما كان من امر الطاقم الا ان اصدر امره لبقية افراد طاقمـه بالقفز الى دبابة سنتوريون « سليمة كان العدو قد تركهـا في اليوم السابق في ساحة المعركة . ثم لحق بهم الى الدبابـة التـي كانت بكامل اجهزتهـا وذخيرتها . ولما كان قائد الطاقم مدربا على قيادة هذا النوع مـن الدبابات الذي كان مستخدما في الماضي في الجيش العراقي فقد نجح هو ورفاقه في صد الهجوم المضاد ثم الاندفاع في مطاردة الدبابات العدوة المندحرة » . ان معارك السبعة ايام الاخيرة من نهاية النصف الاول وبداية النصف الثاني من شهر تشرين الاول ١٩٧٣ على طول الجبهة الشمالية ، تعتبر من اعنف المعارك التي دارت بين القطاعات العربية والقـوات الصهيونية . وكانـت تعزيزات العدو لقواته وبفعل الضربات المتلاحقة التي تنزلها به القـوات العراقية الشجاعة باستمرار » .

الكتيبة الاسطورة

ان هنالك ثمة كتيبة عسكرية عراقية اطلق عليها لقب : الكتيبة .. الاسطورة . وهي تحمل الحرف : (ق) .. ترى كيف استحقت هذه الكتيبة لقبا ضخما كهذا ؟

تحت شعار (النصر او الشهادة) اندفعت هذه الكتيبة مغادرة موقعها في ارض عراق الثورة باتجاه جبهة القتال . مختصرة زمن الانتقال وفق الاعراف العسكرية الى فترة قياسية سيقف العالم امامها طويلا ويدرسها الباحثون العسكريون بامعان .

وفي اول لحظة لوصولها لم تنتظر دقيقة واحدة لتنظيم احتياجاتها بل واصلت اندفاعها نحو خط المواجهة الامامي وبكل شوقها للقتال . وهناك قاتلت خمس ليال وخمسة ايام متوالية احرزت خلالها انتصارات كبيرة واسر العديد من الدبابات والمجنزرات المعادية .

ونسال قائد الكتيبة وافرادها : كيف استطعتم الصمود كل هذه الفترة .. وكيف حققتم النصر ؟ ويأتينا الجواب : اما عن الصمود فاننا قد حملنا شعار « النصر او الشهادة » وعزمنا على الاستبسال ازاء كل التضحيات . والحرب عملية حية كالكائن الحي . انها تلين وتنداح وتهدي النصر للجبهة التي تعقد العزم على ان تناله !!

العراقيون يشتركون في الدفاع عن دمشق :

تضمن التقرير الخاص بحرب تشرين الذي اقره المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي فقرة عن مشاركة الجيش العراقي في الجبهة الشمالية وتثبيتها والمساهمة في انقاذ دمشق من احتلال الصهاينة بعد مرور ٣ ايام على القتال وفيما يلي هذه الفقرة .

« بعد ان اقتحمت القوات السورية في اليومين الاول والثاني من المعركة مساحات من أراضي الجولان وجدت نفسها ودون حسابات متوقعة من جانب القيادة السورية محاطة بشبكة معادية من الدفاعات الصاروخية الارضية المقاومة للدروع بالاضافة الى السلاح المدرع للعدو مما انزل خسائر جسيمة جدا بالقوات المدرعة السورية .

وعندما اجتاز العدو صدمة الضربة الاولى وتمكن من حشد احتياطيه

شن على القوات السورية هجوما مضادا جعلها تتراجع حتى اصبح العدو على مشارف مدينة دمشق وباتت الجبهة بكاملها معرضة لانهيار خطير .
فان احتلال دمشق كان سيؤدي الى كارثة عسكرية وسياسية بالنسبة للحرب .. تلك الحرب التي لا يكون لاحتلال الارض والمدن اهمية حاسمة في نتائجها الاستراتيجية .

لقد وصلت طلائع القوات المدرعة العراقية وفي الوقت الذي كانت دمشق فيه مهددة بالاحتلال الوشيك وفي البيت الذي كانت الدوائر الرسمية وقسم كبير من الاهلين يعدون فيه العدة لمغادرة دمشق بتبليغ رسمي من الحكومة السورية ، وكما اعترف بذلك مسؤولون سوريون فاستطاعت باستبسالها ان تدفع العدو الى الوراء كما استطاعت القوات العراقية بتدفقها المتزايد ابان المعركة وبعنفوانها القتالي الذي شهد به الاعداء قبل الاصدقاء ان تثبت الجبهة الشمالية امام هجمات العدو الواسعة والهستيرية والتي زج فيها بقدرات عسكرية هائلة . وبعد تكامل القوات العراقية على الجبهة كانت قد استعدت تماما للمباشرة بهجوم شامل على الجبهة لتحرير الجولان . وكانت ساعة الصفر المقررة لذلك الهجوم هي الساعة الثالثة من صباح يوم ١٠/٢٣ ، غير ان الحكومة السورية طلبت تاجيل الهجوم ثم اعلنت في يوم ٢٤ موافقتها على وقف اطلاق النار .. »

القوات الكويتيــة :

في هضبة الجولان صرح قائد القوات الكويتية بانه يرى أن الارض السورية عزيزة عليه كارض الكويت تماما .
وقال أن هذه المعركة غرست بذور الثقة في المقاتلين ورسخت عزائمهم كما زعزعت افكار القادة الاسرائيليين ، ومن الطبيعي ان الصورة كانت ستكون افضل في المعارك القادمة .
واذا كان هذا ما يقوله قائد القوات الكويتية ، فماذا يقول الجنود العاديون ؟

المقاتل منير خضران يقول :
ان المواطنين في الكويت كانوا يودعون القوات وهي تتجه الى سوريا بالاناشيد الوطنية والزغاريد الحماسية .

واجاب مقاتل اخر وهو مليس محمد علـي على سؤال ما اذا كـان متزوجا فقال :

ـ متزوج ولكن شعوري الان ينحصر بالتفكير في كيف سنلاقي العـدو وندمر قواتـه .

وان الحكومة الكويتية ترعى اسرنا جيدا بحيث يدفعنا ذلك الى حصر تفكيرنا في مواجهة العدو .

اما المقاتل جاسم جساوي فيقول ان المواطنين فـي الكويت راقبـوا الاحداث بشغف واهتمام لان معارك تشرين الاول كانت بالنسبة لنا بدايـة العمل العسكري الصحيح حيث شاركت القوات العربية مع بعضها البعض في المعارك ضد العدو الصهيوني .

ومن المغـرب :

المقاتل فروج عبد الرحمن يعمل راميا على مدفع دبابة مـن القوات المغربية التي كادت تدخل القنيطرة ..

استطاع ان يدمر دبابتين في دقيقتين تقريبا في الجبهة ..

ـ عندما كانت دبابتي تتقدم في اليوم الاول للمعركة وكنت ضمـن راس الحربة للقوات المغربية المتقدمة .

لمحت نـيران دبابـة معادية ترمـي على دبابـة زميلـي الذي كانـت دبابته تجاور دبابتي .. ادرت برج دبابتي .. ورميت نحو الدبابة المعادية بسرعة وفجرتها بالضربة الاولى .. وتمكن اثنان من جنودها من الخـروج فضربناهم بالرشاشات . في نفس اللحظة كانت هناك دبابة معادية اخرى تخرج من مكمنها واستعدت لتضربني .. فسددت عليها بسرعة وضربتها .. وانفجرت ايضا ..

وقال المقاتل حسن وليت وقد كان قائد كتيبة مغربية ان المعركـة وحدت بين العرب بعد ان عرفوا نوايا العدو التوسعية ومطامعه .

وانه لا يفرق بين السوري والمصـري والسعودي والاردني والمغربـي والكويتي . لقد جمع العرب المصير المشترك فوقفوا في وجه الخطر الزاحف صفا واحدا لتفويت الفرصة على العدو الصهيوني ومن هم وراءه .

ومن السعوديـة :

يقول الرقيب بشير عيد انه لا يعتبر نفسه سعوديا بل « انا عربي قبل كل شيء فقد كنت من بين المتطوعين الذين جندوا انفسهم للالتحاق بجبهات القتــال . »

ويحكي عيد الرقيب قصته مع دبابات العدو .. فيقول :

ـ عندما امرت بالتقدم باتجاه خطوط العدو كنت اعمل على مدفع ٢/د لحماية سلاح المدرعات الصديق .

وعندما وصلنا على مقربة من العدو واصبحنا معــه وجها لوجه لــم اشعر بالخوف بل نسيت نفسي وكنت في غاية الحماس ورباطة الجأش .

كان املي الوحيد هو لقاء العدو والاشتباك معه .

وعند ظهور الدبابات المعادية اطلقنا نــيران مدافعنا المضادة للدروع واستطعت ان ادمر ثمانية دبابات وفر الباقي بينما غطت انسحابها مدفعية ميدان ثقيلة كانت تقصف من العمق .

ومن القوات السعودية ايضا تحدث المقاتل حسن مبــروك جمعان . فقــال :

ـ اني اعتز وافتخر لوجودي على الارض العربية السورية ولوقوفي بجانب المقاتلين السوريين لان ذلك فرض على كل عربي .

اسرائيل عدوة العرب جميعا ونواياها العدوانية واطماعها التوسعيــة لا تنحصر في سوريا او مصر . وانما تتعدى ذلك لتشمل الوطن العربــي كله من هنا ومن الشعور القومي جاء الرد الحاسم وهو زج طاقات الامــة العربية لتحطيم غرور اسرائيل .

والمقاتل السعودي احمد عابد عسيري يقول بعد ان جرح : لقد كانت امنيتي ان اسقط شهيــد ! ..

وبعد .. فتلك صور .. او بعض صور من المساهمة العربية بالدم في المعركــة ..

وقد كان ممكنا ان تكون المساهمة العربية اكبر من ذلك .. من ناحية عدد الجيوش والعتاد والاسلحة لو طال امد الحرب اسابيع وشهورا ...

لان طول مدة الحرب كان سيتيح للدول العربية التي حددت موقفها بالمساهمة في القتال الفعلي الفرصة الكافية لتعبئــة قواتها واستدعــاء احتياطيها ونقل وحداتها واسلحتها الى الجبهة ..

هذه حقيقة لا شك فيها ..

وهي احدى دعامات « القوة الدولية السادسة » التي اطلقها معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني على العرب بعد حرب ٦ اكتوبر ..

ولكن على اي حال .. يستطيع الادب العربي بعد فترة من الزمان .. ان يكتب الكثير من القصص الرائعة عن البطولات العربية في المعركة ضد آلة الحرب الجهنمية الاسرائيلية ، هذه البطولات التي هوت بنظريات التفوق الاسرائيلي ..

ولكن هذه البطولات ستذهب سدى ان لم يتخذ منها القادة العرب اساسا لتوحيد الصف العربي وتمتينه .. تمهيدا لوحدة عربية ديمقراطية تجمع العرب جميعا في دولة موحدة قوية تحقق الرفاهيه للانسان العربي .. وتحقق له التحضر الانساني الكامل .. وتلعب دورا في دفع البشرية نحو التقدم والسلام الشامل .

٢٤

البترول العربي في المعركة

● وكما بذل العرب دماءهم في سبيل الانتصار على العدو الصهيوني.. فقد اجمعوا لاول مرة على استخدام سلاح البترول في المعركة . وقد لعب ذلك السلاح دورا هاما وايجابيا رغم انه ـ لم يستخدم بكامل قوته ـ سواء في فترة المعارك العسكرية او في الفترة التي تلت وقف اطلاق النار .

في بداية الحرب .. دعت بعض الدول العربية المنتجة للبترول الى عقد مؤتمر لبحث دور البترول العربي في تلك الحرب ..

وفي ١٧ اكتوبر عقد مؤتمر وزراء البترول ..

وكان امام المؤتمر ثلاث اقتراحات :

١ ـ قطع البترول عن الولايات المتحدة نهائيا وسحب الارصدة من المؤسسات المالية الامريكية . وتاميم المصالح الامريكية وقطع العلاقات الدبلوماسية معها .

٢ ـ قطع البترول عن الولايات المتحدة وسحب الارصدة .

٣ ـ تخفيض انتاج البترول بنسبة خمسة في المائة شهريا وحجب البترول قدر الامكان عن امريكا .

وانتهى مؤتمر الكويت بتبني الاقتراح الثالث ، اي خفض الانتاج بمعدل خمسة في المائة شهريا والى حين جلاء القوات الاسرائيلية عن الاراضي المحتلة . ويشمل هذا الخفض جميع الدول ، عدا الدول الصديقة والمؤيدة للعرب والتي تمارس ضغطا على امريكا واسرائيل .

وترك المؤتمر للدول المنتجة استعمال هذا الخفض من الانتاج بالشكل الذي تراه مناسبا . وتوجيهه نحو الولايات المتحدة بالذات .

ولكن بعد قليل نتيجة تصاعد المطالبة الجماهيرية باستخدام كل الامكانات في المعركة وتعززت هذه المطالبة بانكشاف مواصلة واصرار الولايات المتحدة على تدعيم اسرائيل .

فقامت بعض الدول العربية المنتجة للبترول بتخفيض انتاج النفط الى ١٠ ٪ ثم الى ٢٥ ٪ . وهذه النسبة الاخيرة هي التي اقرها آخر اجتماع لوزراء البترول العربي .

ومنذ ذلك الوقت بدأ العالم في الغرب يشعر بأزمة البترول فعلا . وقبل الحرب عندما لمست الصحف الغربية جدية العرب في الدعوة لاستخدام سلاح البترول في الضغط على الغرب شكل الرئيس الامريكي السابق نيكسون لجنة من خبراء الولايات المتحدة على البترول العربي وبحث امكانية قيام العرب بممارسة ضغط على امريكا لدفعها الى « تفهم » وجهة النظر العربية .

كانت تلك مهمة اللجنة التي شكلها رئيس الولايات المتحدة . فبماذا خرجت ؟ لقد اصدرت اللجنة تقريرا جاء فيه انه « ليس للعرب القدرة على ممارسة اي ضغط على الولايات المتحدة » . لماذا ؟

« لان نسبة البترول العربي في مجموع ما يستهلك في الولايات المتحدة لا تتعدى الستة في المائة » ..

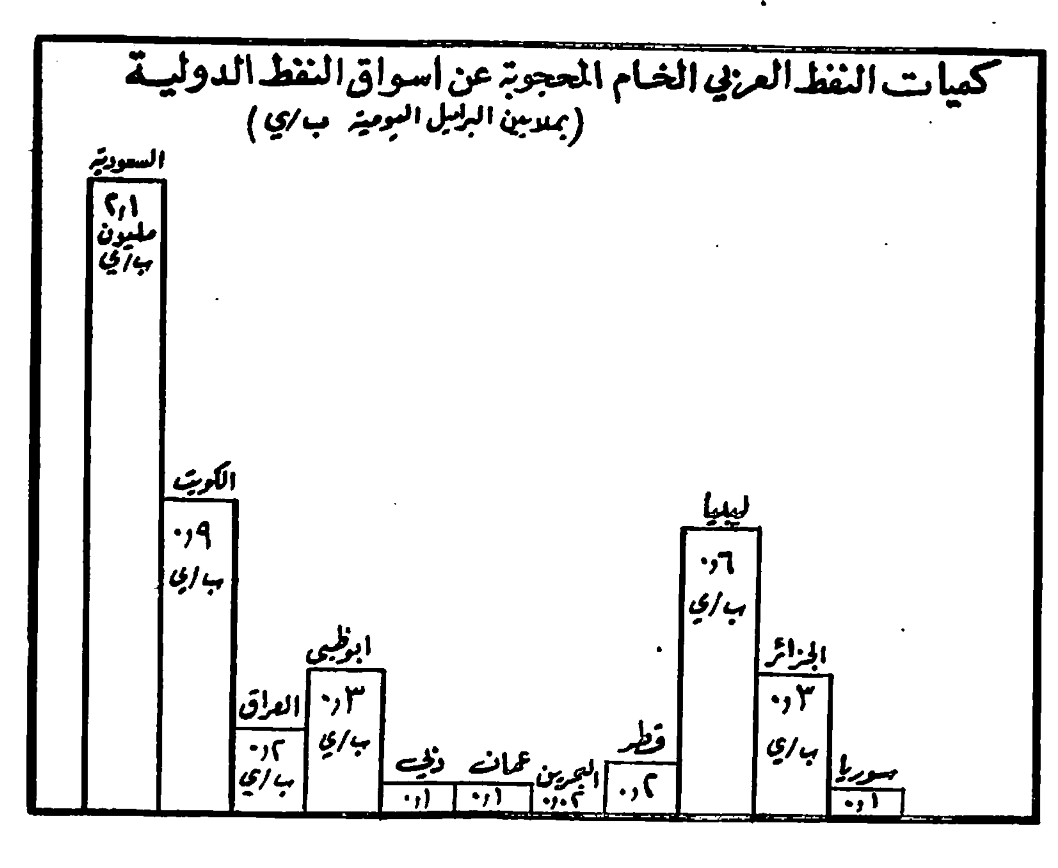
عند ذلك استنام الراي العام الامريكي لهذا .

وبسرعة بدات وسائل الاعلام الاسرائيلية والصهيونية في العالم تردد رأي اللجنة الامريكية وتستند عليه في مطالبة امريكا والدول الغربية جميعا بتجاهل تهديدات العرب باستخدام البترول كسلاح سياسي ضدها .

ولكن ما حدث بعد ذلك كان مخالفا لتقارير اللجنة التي اعتمدت ولا شك كالعادة على العقول الاليكترونية التي لا تشعر بالبرد او الدفء !

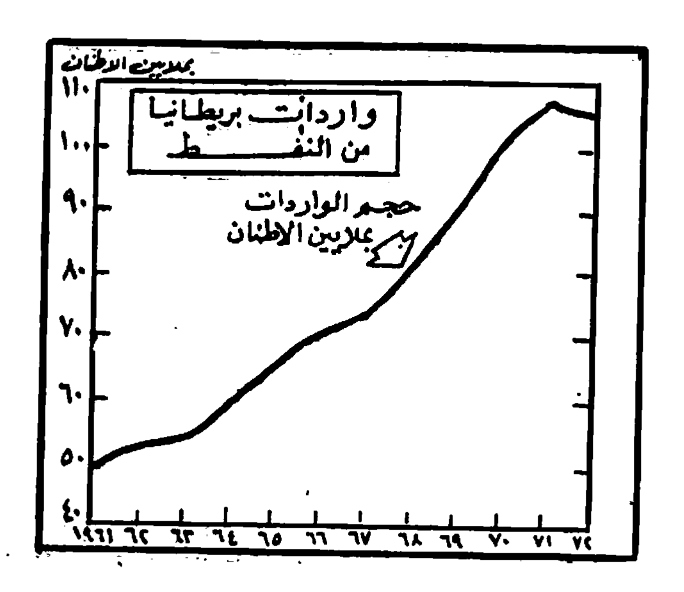
ان الولايات المتحدة تتميز بكثرة استخدام الوقود ، فبالرغم من ان سكانها يشكلو ن٦ ٪ فقط من سكان العالم .. الا انها تستهلك ٣٣ ٪ من الطاقة الموفرة في العالم ..

ويتصاعد استهلاك امريكا للطاقة بشكل مخيف . ففي عام ١٩٥٥ كان استهلاك الفرد العادي للطاقة يعادل ٤٢ برميلا من البترول . وفي عام ١٩٧٠ بلغ ٦١ برميلا . ويقدر ان يصبح الرقم ٩٧ برميلا عام ١٩٨٥ .

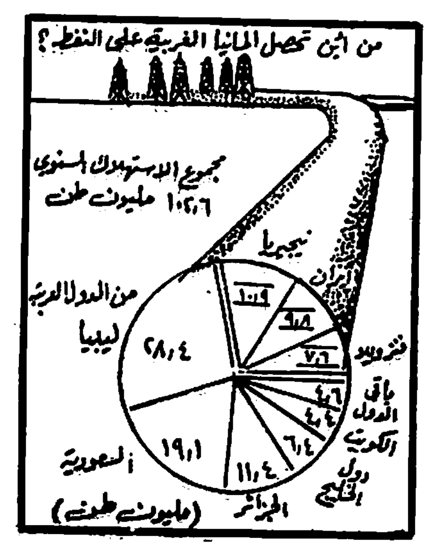


إنتاج النفط في الدول العربية بعد قرار التخفيض (بملايين البراميل يوميا)

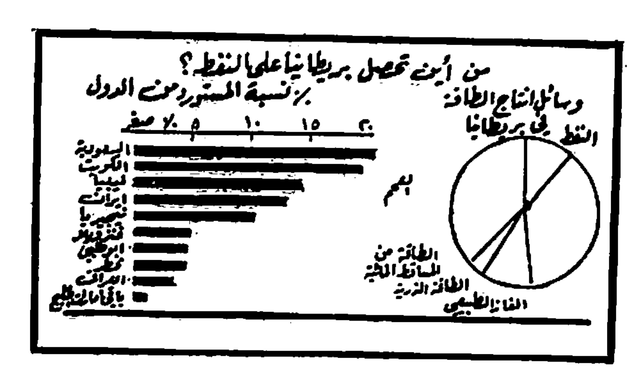
الدول العربية	انتاج سبتمبر	الانتاج بعد قرار التخفيض	ما فقده العالم
السعودية	٨٫٥	٦٫٤	٢٫١
الكويت	٣٫٣	٢٫٤	٠٫٩
ليبيا	٢٫٣	١٫٧	٠٫٦
العراق	٢٫١	١٫٩	٠٫٢
أبوظبي	١٫٤	١٫١	٠٫٣
الجزائر	١٫١	٠٫٨	٠٫٣
قطر	٠٫٦	٠٫٤	٠٫٢
دبي	٠٫٣	٠٫٢	٠٫١
عمان	٠٫٣	٠٫٢	٠٫١
سوريا	٠٫٢	٠٫١	٠٫١
البحرين	٠٫٠٦	٠٫٠٤	٠٫٠٢
المجموع	٢٠٫١٦	١٥٫٢٤	٤٫٩٢



بملايين الاطنان
واردات بريطانيا
من النفط
حجم الواردات
بملايين الاطنان
١١٠
١٠٠
٩٠
٨٠
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
١٩٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢



من اين تحصل المانيا الغربية على النفط ؟
مجموع الاستهلاك السنوي
١٠٢،٦ مليون طن
نيجيريا
ايران
فنزويلا
باقي الدول
الكويت
دول الخليج
الجزائر
السعودية
من الدول العربية
ليبيا
١٠،٩
٩،٨
٧،٦
٤،٦
٤،٤
٦،٤
١١،٤
١٩،١
٢٨،٤
(مليون طن)



من أين تحصل بريطانيا على النفط ؟
٪ نسبة المستورد من الدول
٪ صفر ٥ ١٠ ١٥ ٢٠
السعودية
الكويت
ليبيا
ايران
نيجيريا
فنزويلا
ابوظبي
قطر
العراق
وسائل انتاج الطاقة
في بريطانيا
النفط
الفحم
الطاقة من المساقط المائية
الطاقة الذرية
الغاز الطبيعي

ونتيجة لذلك زاد الاستيراد الامريكي للبترول من ٢٥ ٪ من مجموع استهلاك الولايات المتحدة للبترول عام ١٩٧٠ الى ٣٥ ٪ عام ١٩٧٣ .

وينتظر ان ترتفع هذه النسبة الى ٤٠ ٪ عام ١٩٧٥ .

ونتيجة لاستخدام آبار البترول الامريكية الى طاقتها القصوى فـان اعتماد امريكا على استيراد البترول من الخارج يتزايد يوما بعد يوم مـع تزايد الاستهلاك للبترول .

وقد كتب معلق صحيفة « الفاينانشيال تايمز » البريطانية ا. هاملتون مقالا جاء فيه : برغم اكتشاف منابع جديدة للبترول في الاسكا وبحـر الشمال وغيرها من الاماكن فان الطلب المتزايد بسرعة على الطاقة لا يمكـن ان يغطى الا بالاتجاه الى الاستيراد المتزايد الدائم من المصادر الضخمة في منطقة الخليج العربي .. »

ووفق ما جاء فـي رأي الاختصاصيين فـي مصرف روكفلـر « تشيز مانهاتن » فان حصة الدول العربية وايران في واردات الولايات المتحـدة النفطية ستزداد من ٣٠ مليون طن عام ١٩٧٠ الى ٣٠٠ مليون طن عـام ١٩٨٠ وهو ما يشكل ٥٠ ٪ من البترول المصدر لامريكا .

اما فيما يختص باوروبا الغربية واليابان فان البلدان العربية وايران تؤمن لها الان حوالي ٨٥ ٪ من مستورداتها من البترول .

ولقد كانت نتائج استخدام سلاح البترول مذهلة واكثر مما توقـع الكثيرون رغم هذه الحدود التي صدرت فيها قرارات مؤتمر وزراء البترول.

ان بيان دول السوق الاوروبية التسع مثلا يعتبر تحولا مهما لصالح العرب وان الحديث عن تقارب عربي ـ اوروبي بل عقد مؤتمر قمة اوروبي ـ عربي يعني تحولا ذا بال في ادراك اوروبـا الغربية لمصالحها مع العالـم العربي وخطورة اتباع سياسة ذيلية دائمة للولايات المتحدة السند الرئيسي لاسرائيل .

وقد كانت جريدة ليبراسيون الفرنسية على حق عندما قالت في ٧٣/١١/٧ « ان الدول الاوروبية التسع بدافع من اهتمامها بالا تواجه الاختناق بسبب الاغلاق التدريجي لتدفق البترول من الدول العربية قد اتخذت بهذا البيان وضعا متميزا تماما لاول مرة عن السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ».

وفي الولايات المتحـدة اتخذت قـرارات بتقنـين النفط . وسارت مظاهرات امريكية تقول « اعطونا البترول لا اسرائيـل » ..

اما اليابان فقد اتخذت لاول مرة قرارات سياسية تطالب اسرائيل بالانسحاب من الاراضي العربية المحتلة .

ودار المسئولون اليابانيون على كل الدول العربية يعرضون الصداقة والقروض والتعاون الاقتصادي مقابل البترول !

★ ★ ★

وقد ظهرت النتائج الاقتصادية الكاملة لاستخدام العرب لسلاح البترول في المعركة .

فقد ارتفعت اسعار البترول نتيجة هذا الاستخدام .. بل تبارت الدول المنتجة للبترول في رفع اسعاره . وهذه آية من آيات العصر تترجم التحول الخطير الذي حدث في العلاقة بين الدول الاستعمارية والدول التي تحررت حديثا . فالدول المنتجة للبترول تملك الان تخفيض الارباح الخيالية لاحتكارات البترول ، ومن قبل ما كان يمكن حدوث شيء كهذا والا تحركت « الارمادا » البحرية الانجليزية والامريكية لاحتلال منابع البترول الموجودة في البلاد النامية .

وما المعركة الحالية الا نموذج هذا . فها هو جيرالد فورد رئيس الولايات المتحدة الامريكية يهدد الدول العربية المنتجة للبترول باستخدام القوة اذا ما صممت على تنفيذ لاتجاه الحالي الذي يسود الدول المنتجة للبترول وهو رفع اسعاره اعتبارا من يناير ١٩٧٥ .

وها هو كيسينجر وزير خارجية الولايات المتحدة يطوف البلاد العربية محاولا الربط بين عدول الدول المنتجة للبترول عن اتجاهها لرفع الاسعار والضغط على اسرائيل للتراجع الى ما خلف الخطوط الحالية ..

ونحن نرى أن الدول العربية في مجموعها لم تهتز من التهديد الصادر عن رئيس الولايات المتحدة .. بل هاجمته الصحف العربية هجوما شديدا وان كان الميل لتخفيض اسعار البترول واضحا ، عند بعض البلاد.

لقد بدات الاحتكارات العالمية تفقد نفوذها التقليدي .. ولكن على العرب ان يظلوا يقظين .. فان ذلك لا يعني استبعاد استمرارها في محاولات تآمرية وانقلابية .

ان التهديد الامريكي اليوم ليس جديدا فقد سبق ان قام هنري كيسنجر في ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ بتحذير الدول العربية من امكانية قيام الولايات المتحدة باجراءات مضادة اذا استمرت حرب البترول العربية .

وقد حذر كيسنجر الدول الحليفة لامريكا من « تبديل سياستها وفقا

لمصالحها البترولية » ، وجاء الرد العربي على تحذيرات كيسنجر سريعا وحاسما اذ اعلن اليماني وزير البترول السعودي في اليوم التالي على الفور انه اذا عمدت الولايات المتحدة ودول اوربا واليابان الى اتخاذ تدابير مضادة مقابل قرار تخفيض وحظر النفط العربي فان السعودية قد تعمد الى تخفيض البترول الى ٨٠ ٪ . واذا ما لجأت الولايات المتحدة الى التدخل العسكري فان بلاده « ستعمد الى تفجير عدد من آبار البترول » .

وقد ظل الحظر على البترول مفروضا حتى اتفاقية الفصل بين القوات ..

ولكن ما زال السلاح مشهرا لاستخدامه عند الحاجة اليه ..

* * *

والارصدة العربية

كان المفروض ان يتوازى استخدام سلاح الارصدة المالية العربية في البنوك الغربية مع استخدام سلاح البترول ..

فهذه الارصدة ضخمة .. واختلف التقدير لها .. لكن اي تقدير على اي حال دائما في حدود ارقام فلكية . فمن قائل ان تلك الارصدة تساوي ٥٠ بليون دولار مودعة في بنوك أمريكا واوروبا .. ومن قائل انها ٧٠ بليون ومن قائل انها ثمانين .. وهكذا ..

لكن شيئا مؤكدا هو ان نصف الاموال الاجنبية المستثمرة في الولايات المتحدة هو اموال عربية .. اي حوالى عشرة مليار دولار هذا غير المودع في البنوك !

ولقد قدرت بعض المصادر المالية عندما خفض الدولار ان العرب فقدوا عشرة بلايين دولار من قيمة بلايين الدولارات المودعة لحسابهم في البنوك .

ويكفي للتدليل على قيمة هذا الرقم او هذه الارقام ان نعلم ان عجزا مقداره ستة بلايين ونصف بليون دولار في ميزان المدفوعات الامريكي قد خلق في امريكا كل الظروف الضرورية لاثارة ارتباك واضطراب اقتصاديين.

واستخدام سلاح الارصدة العربية في بنوك الغرب يعني سحب تلك الارصدة او بعضها .

وسيؤدي ذلك الى ارتباك في الاقتصاد الغربي كله .

على أنه تبين من التجربة العملية ان رءوس الاموال العربية المودعة

في البنوك مرتبطة تماما بالسوق الراسمالي العالمي .. وانها تدور دورتــه العادية المالوفة ولا يستطيع اصحابها الفكاك منها .

بل انهم يمضون كل يوم في استثمار المزيد من اموالهم في الغرب رغم حاجة العالم العربي وخصوصا البلاد التي اضيرت من الحرب مثل مصــر وسوريا .. فالبعض يشتري جزرا .. وعقارات .. وشوارع باكملها فــي مدن اوربية (اشترت الكويت في اكتوبر الماضي عدة مباني من بينها مركز البوليس الرئيســي في لندن بمائة وسبعة ملايين جنيه استرليني) .

انه لا يكفي سحب الارصدة .. بل المهم استخدامها ..

شراء آلات ومصانع واشياء لازمة للبناء والتصنيع في العالم العربي، ان الغرب يمكنه التهديد بمنع سحب الارصدة .. اما بقانون او بتخفيض قيمتها فيصيب اصحابها بخسارة كبيرة ..

ولكنه لا يستطيع اتخاذ اجراء مضاد لو ان العرب قرروا شراء آلات وسلع انتاجية منه . بالعكس سيجدون سندا من الشركات التي تبيعهم هذه السلــع ..

ويمكن شراء سلاح متطور يفيد في المعركة ..

ويقتضي هذا ان تنظم الدول العربيــة مشاريــع مشتركة ضخمــة لتغيير خريطة العالم العربي صناعيا وزراعيــا . ولا خوف من تأميــم او مصادرة .

في هذه الحالة يمكن انشاء بنك عالمي عربي .. وخلق عملة عربيــة ذات مركز قوي .. واقراض بلاد العالم علاوة على المساهمــة في تنميــة العالم العربي نفســه .

بل يمكن رد الجميل للدول الاشتراكية ذاتها فتقدم لها القــروض بالعملة العربية الصعبة .. هذه العملة التي يحتاج اليها في تعمير سيبيريا ومناطق الصين الشاسعة وتغنيه عن مخاطبة ود الولايات المتحدة والكونجرس الامريكي لتمرير قروض او تسهيلات اقتصادية معينة !!

ان المستقبل يحمل في طياته تطورات واحتمالات غير متصورة .. فقط لو استمر العرب في توحيد صفوفهم حتى حول الحــد الادنى مــن نقاط الاتفاق والقوا خلفهم بالخلافات التقليدية والتناقضات الاخرى غير المهمة في معركة المصير وتاكيد شخصية الانســان العربي وفاعليته .

٢٥

الثغرة .. الحقيقة عارية ؟!

معركة المزرعة الصينية

« بعد الثغرة لم يتغير شيء في الراي العام العالمي .. الذي كان يبدو الى جانب اسرائيل منذ حرب الايام الستة حيث ساد الاعتقاد ان اسرائيل تريد السلام واما العرب يعارضونه . لقد تغير هذا الرأي العام واصبح يبدو للكثيرين ان العرب هم اللذين يريدون السلام واما اسرائيل فمهتمة في الحقيقة باحتلال الاراضي .. »

مؤلفو كتاب التقصير الاسرائيلي

وقف جنود اسرائيليون في موقع اسرائيلي وقد امسك بعضهم بكتب في ايديهم يلوحون بها لجنود مصريين في موقع مقابل ويقولون بلغة عربية . الجامعات فتحت عندكم .. عاوزين نراجع نذاكر احنا كمان !.

الموقع الاسرائيلي كان في الضفة الغربية لقناة السويس في ديسمبر ١٩٧٣ .

صورة اخرى ..

عندما إستقال اريك شارون لاحظت المواقع المصرية المحاصرة للثغرة ان معظم الجنود في المواقع الاسرائيلية قد اخذوا يعزفون على الهارمونيكا ويرقصون ابتهاجا باستقالة « بطل » الثغرة ..

صورة ثالثــة

في الايام الاولى للثغرة .. كان الاسرائيليــون يكتبون على دباباتهــم وعرباتهم : **من تل ابيب الى السويس !** .

من تل ابيب الى افريقيا ؟!.

هكذا كانت البداية .. غرور وتفاؤلات ..

اما النهاية فكانت احساسا بالضياع .. والخطر .. وخوفا متوقعــا من عاقبة المغامــرة .

وهل هناك ادل على الخوف من ان الاسرائيليين غرسوا الغاما حول منطقتهم بمعدل ثمانية الغام في المتر الواحد بينمــا المعدل العــادي في كل الحروب ثلاثة ارباع لغم لكل متر ؟!

ان ما آلت اليه الثغرة في النهاية يكشف عن انهــا لم تعد ان تكون مغامرة منذ البداية .. وانها لم تكن الا « بالون » من السهل فرقعتهــا في اي لحظة على حد تعبير الجنرال بوفر ..

ولكني لست مع القائلين بان الهدف من الثغرة كان عملية تليفزيونية ومسرحية لاثارة انتباه العالم او الرأي العام الاسرائيلي بعد هزائم اسرائيــل المتتالية منذ العبور ..

هذا جانب من الصورة فقط . .ولكنه لم يكن الاساس ..

ان الاســاس يرجع الى بعيد .. الى ان القيادة الاسرائيلية وهي تبني خط بارليف كانت تعمل حسابا لاحتمــالات ان ينجــح المصريون في عبــور القناة ، فما العمل في تلك الحالة ؟ ..

لقد رأينا عند الحديث عن الاسلوب العسكــري الاسرائيلــي ان اهم وسائله في صد الهجوم هي القيام بهجوم مضاد يعتمــد على الاختــراق بالالتفاف ثم التطويق .

ولقد رأينا ان الاسرائيليين حاولوا عدة مرات القيام بهذه الهجمــات المضادة (اللواء ١٩٠ و ٦٠٠ وغيرهما) .. وفشلت هذه الهجمات جميعا . بل ان الذي كان وراء هجوم اللواء ١٩٠ كان الجنرال اريك شارون نفسه الذي تولى بعد ذلك قيادة الهجوم المضاد الذي نجح هذه المرة وفتح الثغرة..

وبعد الثغرة اتضحت حقائق كثيرة :

اولا : ان القيادة المصرية ذاتها كانت تتوقع مثل ذلك الهجوم المضاد

وفي المنطقة التي حدث فيها . وقد اكد لي ذلك المشير احمد اسماعيل في حديثه معي الذي نشر في مجلة صباح الخيرعندما سألته :

● **الم نكن نعرف باحتمال حدوث الثغرة ؟**

فاجاب المشير :

ـ كانت لدينا هذه المعرفة .. وثابت انني شخصيا لفت النظر في تعليمات ايام ٨ و ٩ و ١٠ اكتوبر (وهو وقت مبكر عن تاريخ حدوث الثغرة) وهي تعليمات مكتوبة ، ان العدو محتمل ان يفتح ثغرة وفي ذلك المكان بالذات .

ثانيا : لقد استفاد الاسرائيليون من غارتهم على الجانب الغربي للقناة عند العين السخنة في ١١ يوليو ١٩٧٠ والتي شبهوها بغارة « **دييب** » التي قام بها الحلفاء قبل الغزو في يونيه ١٩٤٤ كبروفة لعبور المانش ..

لقد عكف الخبراء الاسرائيليون على دراسة نتائج تلك الغارة واستخلصوا منها اشياء كثيرة تتعلق بعملية العبور اذا ما ارادوا يوما اختراق الخطوط المصرية غرب القناة .

وكانت خطة القيادة الاسرائيلية تقوم على نظرية محددة وهي نقل الحرب الى غرب القناة اذ ما تجدد القتال بهدف تدمير الشبكات المضادة للطائرات واحداث الاثر المعنوي المطلوب من حيث نقل القتال الى الدلتا او شرقيها .

وما زلنا نزكز التهديدات الاسرائيلية في فترة وقف اطلاق النار بعد مبادرة روجرز **بان الاسرائيليين لن يكتفوا بحرب استنزاف اذا ما عاود المصريون القيام بمثل تلك الحرب ، بل سينقلون الحرب الى العمق المصري ..**

وقد نشر وايزمان قائد سلاح الطيران الاسرائيلي مقالا اذاعته وكالات الانباء في حينه (خلال شهور وقف القتال الاولى عام ١٩٧٠) قال فيه بصراحة ان على اسرائيل « ان تضرب المصريين لانهم خرقوا وقف القتال بواسطة تقريب الصواريخ من خط القناة . والوصول الى مداخل القاهرة لكي يصبح بالامكان الوصول الى اتفاق للمدى البعيد اذا لم يؤد هذا الامر الى السلام » .

وقد عهد الى شارون بوضع الخطة المناسبة لاحتمال تجدد القتال . وقد وقع اختياره على عدة نقاط راى انها انسب لعبور القوات الاسرائيلية .

وكانت واحدة من تلك النقاط هي المنطقة التي تتصل فيها قناة السويس بالطرف الشمالي للبحيرة المرة الكبيرة في مواجهة الدفرسوار . ويتكيء طرف تلك المنطقة الجنوبي على « كتف » البحيرة التي تحميها من تلك الجهة .

واحتاط شارون للامر فعندما بدا الاسرائيليون في بناء خط بارليف كان يدرك ان كثافة الخط ستعوق قواته عن العبور ولذلك طلب من المهندسين ان يقللوا من تلك الكثافة في نقاط معينة ووضع طوبا احمر على تلك النقط قليلة الكثافة حتى يعرفها .

بل انه اعد منطقة منبسطة مساحتها ستمائة الف متر مربع .. بجانب ملتقى طريقين يوازيان القناة ويؤديان الى « الطاسه » في الصحراء حتى تكون المساحة منطقة حشد لقوات العبور .

اذن ان الاسرائيليين كانوا يفكرون في احداث الثغرة قبل قيام الجيش المصري بالعبور .. ونجاحه في ذلك .. هذا النجاح الذي لم يكن متوقعا في نظرهم في البداية ، ولم يدركوا سوء الموقف الا في اليوم الثالث للقتال.

ثالثا : بل انه تبين بعد ذلك ان الجنرال شارون قد قام بهجومه المضاد فعلا يوم ٨ اكتوبر محاولا شق طريقه الى القناة ..

وقد استطاعت المدرعات الاسرائيلية ان تصل الى بعد خمسة كيلومترات من القناة ولكن الخسائر الفادحة التي لحقت بالهجوم علاوة على التدمير المروع الذي اصاب قوات فرقة الجنرال « ادان » في الشمال عندما قام بهجوم مضاد هو الاخر .. جعل القيادة الاسرائيلية تعدل عن استمرار الهجوم وتراجع هجوم شارون الاول ..

الا ان الجنرال شارون قد اكتسب من ذلك الهجوم خبرة جديدة .. **لقد اكتشف المفصل** بين الجيشين الثاني والثالث في تلك المنطقة . وان القوات المصرية في ذلك المفصل ليست كبيرة .

ومنذ ذلك الوقت بدا الجنرال شارون في وضع خطته بالتفصيل للقيام بهجومه المضاد .

ويروى تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني ومؤلفو كتاب السانداي تايمس ان شارون وضع امام القيادة الاسرائيلية الاعتبارات الثلاث التالية للاسراع بالهجوم :

● انه لا توجد قوات مصرية كثيفة عند المفصل بين الجيشين الثاني والثالث مما سيسهل عملية الاختراق .

● ان العبور الى الضفة الغربية سيثير ارتباكا في القيادة المصرية بل في الجيش المصري كله . وبهذه الطريقة سيسهل ضرب المدرعات المصرية التي كانت لا تزال تنتظر غربي القناة .

● يسهل بعد ذلك تطويق الجيشين الثاني والثالث في الشرق والقضاء عليهما على مهل او ارغامهما على التسليم .

● ان ذلك الاختراق سيشل الكثير من بطاريات الصواريخ المصرية وبالتالي سيأخذ سلاح الطيران الاسرائيلي فرصته الذهبية في العمل بحرية في المنطقة وهي الحرية التي حرم منها على طول الجبهة منذ ٦ اكتوبر .

وقد حدث خلاف داخل القيادة الاسرائيلية حول تلك الخطة ويروى ان دافيد اليعازر رئيس الاركان الاسرائيلي حينذاك قال عن خطة شارون انها لعبة « بوكر » .. لن نراهن على اريك .. »

وقد ايده جونين قائد جبهة سيناء الذي اشتعل التناقض بينه وبين شارون منذ اللحظة الاولى التي التحق بها شارون بجبهة القتال .

لماذا التردد والخوف واعتبار خطة شارون لعبة « بوكر » ؟؟ ..

لن نجيب نحن .. بل سنترك لمؤلفي كتاب التقصير الاسرائيليين الاجابة يقولون بالحرف الواحد ، كان سحق قوات الجنرال برن .. قبل ذلك بيوم واحد بالقرب من منطقة الفردان .. لا يزال ماثلا في الاذهان ، فالخوف من احتمال سحق فرقة شارون ايضا كان موجوداً . وعندها لن تبقى وراءها قوات اخرى تستطيع صد المزيد من محاولات الاختراق المصرية . هذا الخوف كان العامل الحاسم لرفض فكرة شارون للعبور .

والحقيقة كما رأينا لقد واجهت كل الهجمات المضادة الاسرائيلية فشلاً ذريعا ومنيت بخسائر فادحة (راجع فصل الحرب ليست نزهة ..)

وكان هناك عامل اخر لرفض فكرة شارون وهو ان الفرقتين ٢١ و ٤ المدرعتين كانتا في الضفة الغربية ، وكان ذلك يعني احتمالا اكبر لسحق هجوم شارون .

ولذلك عندما قررت القيادة المصرية يوم ١٤ اكتوبر تطوير الهجوم كما ذكرنا في معركة الدبابات .. ونقلت الفرقة ٢١ الى الضفة الشرقية كان ذلك عاملا مساعدا لتشجيع ديان على قبول فكرة شارون في النهاية .

★ ★ ★

هذا هو التطور التاريخي لعملية الثغرة منذ كانت فكرة منذ ثـلاث سنوات في راس القيادة الاسرائيلية حتى اصبحت قرارا بدأ تنفيذه .

لم يكن يستهدف بها اذن عملا مسرحيا او تليفزيونيا بالدرجة الاولى.. ان هذا تهوين من الهدف الخبيث والمروع من ورائها .. ولعل الذين يقولون انها عمل مسرحي يقصدون انها لم تؤد الى النتيجة التي كانت تستهدفها .. وانما تحولت الى مجرد عمل مسرحي وتليفزيونـي واستعراضي .. وهـذا صحيح ..

ان الثغرة باختصار كانت تستهدف تدمير الجيش المصري .. تطويق الجيشين الثاني والثالث من الغرب ..

وكما يقول اللواء عبد رب النبي حافظ قائد الفرقة ١٦ التي تحملت عبئا رئيسيا في الشرق لصد الهجوم الاسرائيلـي .. ان الاسرائيليـين ارادوا بهجومهم المضاد ان تصاب القيادة المصرية بالفزع والارتباك وتعـود من جديد تكرر الامر التقليدي في حربي ٥٦ و ١٩٦٧ .. انسحـاب .. انسحـاب ..

وتنسحب القوات المصريـة .. ويمكـن تصور نتائج ذلك سياسيـا وعسكريا ؟.. انه كابوس مفزع لا يسمح المرء لنفسه ان يتمادى في تصوره!

تلك كانت الخطـة .

● ثم ان الاسرائيليين كانوا يستهدفون كامر احتياطي اذا لم يمكنهم اجبار المصريين على الانسحاب .. ان يقيموا نوعا من التوازن مع نجاح مصر في القناة بحيث لا تصبح مصر اليد العليا في المفاوضات لتسوية الازمة اذ ان اي مبتدىء في السياسة لا بد يعرف ان الدول الكبرى والعالم كلـه سيتدخل في اي نزاع في الشرق الاوسط لحساسية المنطقة ومن يكـن اليد العليا .. يكون في وضع يمكنه من فرض شروط افضل بالنسبة له ،

● ياتي بعد ذلك حفظ ماء وجه المؤسسة العسكريـة الاسرائيليـة امام الشعب الاسرائيلي الذي صدمته الهزائم المستمرة لجيش « الدفاع » الذي لا يقهر ..

البدايـــة

تحدث اول بلاغ حربي مصري عن عملية الاختراق الاسرائيلـي الى الغرب على انها عملية تسلل بسيطة قامت بها سبـع دبابات دمر بعضهـا وتشتت البعض التالـي ..

ومر الخبر دون اهتمام من احد .. وان كان بعض الناس قد تساءلوا عن معنى « تشتت » الى اين وكيف ؟..

وعندما كررت البلاغات بعد ذلك الحديث عن ذلك الاختراق كانت تصفه ايضا بالتسلل المحدود ..

وكان السؤال الذي واجهته وواجهه اي شخص له صلة بجبهة القتال .. هو اذا كان ذلك التسلل صغيرا ومحدودا .. لماذا لا يقضى عليه ؟..

كيف لا يمكن للجيش المصري .. بل والشعب المصري كله تطويق ذلك التسلل الصغير وابادته ؟..

واعترف اني كنت ارد ردودا لا تشفي غليل السائلين .. واعترف ايضا اننا نحن المراسلين الحربيين كنا لا نعرف حقيقة الوضع وظللنا — او ظللت انا — لا اعرفه لمدة يومين .. ونتصور او اتصور ان المسالة فعلا مسالة تسلل صغير .. بل احمق ومحكوم عليه بالفناء العاجل .. وكتبت رسالة الى مجلتي صباح الخير من الجبهة بهذا المعنى ..

وقد عرفت الحقيقة صدفة ..

كنت في الجبهة صباح يوم ١٨ اكتوبر .. وكنت اتحدث مع الضباط بينما كانت معركة الدبابات الكبرى تدور على اشدها .. ثم جاء عرضا حديث التسلل الاسرائيلي عبر القناة .. فسالته كيف استطاع الهليكوبتر الاسرائيلي انزال قوة المتسللين تلك .. لماذا لم يمكن اسقاط طائرات الهيلكوبتر ؟ !

سالني الضابط في دهشة ..

عن اي هيلكوبتر تتحدث ؟

قلت :

— الهيلكوبتر الذي نقل القوات الاسرائيلية من خلف الخطوط المصرية في شرق سيناء وطار بها عبر قناة السويس وهبط بها عند الدفرسوار بدباباتها ..

قال لي في دهشة اكبر ..

● الا تعلم ان القوات الاسرائيلية قد عبرت القناة ببرمائيات وعلى اطواف ؟ .. قفزت الحقيقة الى راسي فجاة ..

اذن فقد اخترق الاسرائيليون جيشنا من الضفة الشرقية ذو السبعة عشر كيلو مترا كثافة على الاقل ..

قال الضابط .. انها اخترقته فعلا ..

واعترف اني شعرت بالجزع .. فانا لست عسكريا .. وليس عندي ثبات العسكريين الذي كان يتحدث عن الامر كأنه مجرد خبر عادي عن شراء قميص او بدلة ..

كان ضابطا في جيش الواثقين حقا .. فالحرب في نظره كر وفر .. هزيمة وانتصار .. والنصر الحقيقي لمن يضحك اخيرا اي يكسب المعركة الاخيرة !

بدات ادراك الابعاد الحقيقية للموقف ..

لا يمكن ان تكون سبع دبابات فقط هي التي اخترقت جيشا بأسره بعمق خمسة عشر او سبعة عشر كيلو مترا .. لا بد انها قوات كبيرة .. ولا بد ان للعملية اهدافا اوسع من مجرد الدعاية والاعلام كما تصورنا جميعا في البداية ..

واذكر اني عدت الى صحيفتي مساء ذلك اليوم .. وسألني رئيس التحرير عن اخبار التسلل الاسرائيلي في الغرب ..

فقلت في هدوء وقد انتقلت الي عدوى الثبات والثقة بعد ان شاهدت من جديد طوال النهار بسالة وتفوق القوات المصرية في معركة الدبابات :

ــ كف عن ترديد كلمة التسلل الاسرائيلي .. فانه وجود اسرائيلي .. احتلال لمنطقة بمعنى الاحتلال !

★★★

وقبل الدخول في تفاصيل سير المعركة سنضع امامنا ثلاث نقاط تساعدنا على استكمال صورة الموقف .

● ثمة حكاية تكشف عن المزاج النفسي لدى القيادة المصرية .. في تلك الفترة .. بسبب الانتصارات المتتالية للجيش المصري خصوصا في صد الهجمات المضادة الاسرائيلية واحدا وراء الاخر .. مما جعل لديها تصورا يقلل من قيمة اي تسلل اسرائيلي غرب القناة وتحكم عليه مسبقا بانه عمل انتحاري ..

حدث اني كنت اتحدث مع ضابط مصري كبير في الجبهة اثناء ضرب الاسرائيليين العنيف لمدينة بور سعيد بالقنابل ..

فسألته : الا يحتمل ان يكون ذلك القصف الجوي مقدمة لانزال اسرائيل في المدينة او غربها ؟..

فقال لي في هدوء ..

ــ يا ريت ..

قلت في دهشة

● لمـــاذا ؟

قال .. ـ سنسحق عظامهم .. لانهم سيكونوا في « عبنا » . ! ..

وقد ذكرت هذه المناقشة بالتفصيل لانها تكشف عن « المزاج الفكري » الذي حكم عقلية بعض القادة في تلك المرحلة من الانتصارات المتتالية للجيش المصري .. وكان له اثره في تطور عملية الدفرسوار .

وقد ذكر الاستاذ يوسف الشريف المراسل الحربي لمجلة روز اليوسف بصدد موقف القيادة العسكرية المصرية من احتمال محاولة العـدو انزال قوات له في بور سعيد : « استطيع أن أؤكد ان القيادة المصرية لم تعـط هذه العملية التكتيكية ادنى أهتمام ليوقفها عن تنفيذ خطتها الاستراتيجية الموضوعة .. و .. تركت مهمة احباط محاولة العدو اذا ما بدأ في تنفيذها الى القوات العسكرية في بور سعيد والى الاحتياطي العسكري الكثيف غرب القنــاة .. »

● ان الولايات المتحدة حليفة اسرائيل والتي تلعب اسرائيل بالنسبة لها دور الشرطي لحماية مصالحها في المنطقة مـا كان بوسعها ان تتـرك اسرائيل وقد لحقت بها تلك الهزيمة ، ان ذلك يخل « بميزان القـوى في المنطقة » .. فعمدت الى تقديم اضخـم مساعـدات عسكرية ممكنــة الى اسرائيل اثناء القتال عبر جسور جوية بمعلل ٨٠٠ طن يوميا غير الجسور البحرية . وقد قدرت جريدة النيوزويك الامريكية المعونة التي وصلت ايام القتال فقط ببليون ونصف بليون دولار ! كما ان الصحف الاجنبية نشرت ان حوالي مائة طيار « يهودي » من انحاء العالم تطوعوا للقتال مع اسرائيل وتعويضها عما فقدته من طيارـــن .

هذا عدا البليونين ومائتي مليون دولار التي طلب نيكسون تقديمهـا لاسرائيل من الكونجرس .. ووافق عليها الكونجرس اخيرا ..

وغير ٧٥٠ مليون دولار جمعتها الجالية اليهودية في امريكا لاسرائيل..

خلاف ٦٤٢ مليون دولار جمعتها منظمة صهيونيـة اسمها منظمـة « النداء اليهودية » في الولايات المتحدة .

ومعروف دور الولايات المتحدة في عمليـة الدفرسوار عندما حلقـت طائرة الاستطلاع الامريكية الحديثة الطراز (س ٧١) فوق المنطقة قبـل الاختراق الاسرائيلي بأقل من ثمان واربعين ساعة ..

وقد رأيت مع قواتنا في منطقة الدفرسوار خريطة وقعت في حـوزة

القوات الخاصة ضمن « غنائم » معركة ضد مدرعات اسرائيلية دمرتها قرب قرية « ابو عطوة » توضح بشكل دقيق للغاية مواقع قواتنا واسلحتها ومعابرها بل والمزارع والترع في المنطقة كلها ..

وهي خريطة مصورة من الجو بواسطة الطائرات الامريكية للاستطلاع ..

● ان الطرفين بسواء المنتصر (المصريون) او المهزوم (اسرائيل قد خسر كل منهما قدرا كبيرا من العتاد والذخيرة في الحرب .. صحيح ان خسارة الاسرائيليين كانت اكبر خصوصا في معركة الدبابات الاخيرة والطيران .. الا ان الجيش المصري كما اوضحنا لم يكن في نزهة عسكرية .. بل كان يضرب العدو .. ويصيبه بخسائر .. ولكنه ايضا يصاب بخسائر . وهذه حقيقة لا تزعج العسكريين المصريين ويعتبرونها امرا طبيعيا ولا يخفونها .

ولا بد ان يفهم الناس هذه الحقيقة .. فقد لاحظت ان وهما يسيطر على الناس في مصر بالذات عن ان الجيش المصري المنتصر في الحرب لا يخسر .. وتجد مباراة بين الناس على المقاهي في تقليل خسائر قواتنا المسلحة «كأنما الخسارة في الحرب عيب» .. بينما لا بد من الاعتراف ان الناس في سوريا اكثر واقعية .. فكما سبق ان ذكرت هم يتحدثون عن خسائر القوات المسلحة السورية باعتبار ان ذلك شيئا من طبيعة الاشياء.. ولا يتوقفون عندها طويلا .. بل يؤكدون استعدادهم لتقديم المزيد من الخسائر .. لان المهم عندهم هو تدمير العدو مهما كانت التضحيات ..

والغريب ان احدا في مصر لا يخفي خسائر الحرب عن الشعب .. فالاستاذ حسنين هيكل في مقالاته قد ذكر هذه الخسائر وبالارقام .. عندما تحدث عن خسائر الطرفين في حرب اكتوبر ..

كما ان الرئيس السادات قد ذكر في حديثه لمجلة الاسبوع العربي اللبنانية ان خسائر مصر في الرجال كانت اكثر قليلا من ستة الاف جندي ..

وذكر في حديثه معي ومع صحفيين اخرين ان مصر قد خسرت مائة وعشرين طائرة ..

★ ★ ★

بعد هذه الحقائق التي ذكرناها .. والتي ستساعدنا على تفهم وتتبع سير عملية الاختراق الاسرائيلي الى الدفرسوار وتطوراتها بموضوعية

وبتقدير سليم لا يقلل من اهميتها او يبالغ من شأنها .. وهي عملية لم تعد سرا على احد .. وعرف الناس في العالم العربي كله مداها .. على الاقل عندما صدرت البنود الست في اتفاقية كيسينجر اثناء زيارته الاولى بعد وقف اطلاق النار ..

ولقد لفت الانظار ايامها البند المتعلق بتولي قوات الامم المتحدة ادارة نقط الحراسة على طريق القاهرة ــ السويس والسماح بتموين مدن السويس بالطعام والماء والدواء .. وكذلك نقل المؤن الى الجيش الثالث في سيناء بواسطة قوافل تابعة للامم المتحدة ..

كانت تلك البنود اعلانا عن حقيقة الثغرة ومداها والسيطرة التي اعطتها للاسرائيليين في تلك المنطقة .

☆ ☆ ☆

سير المعركة :

يروي لي قائد الفرقة ١٦ **اللواء عبد رب النبي حافظ** .. البداية:

قام العدو مساء ١٥ اكتوبر بهجوم من مائة دبابة في موجتين على الجانب الايمن للفرقة .. وامكن للفرقة صد الهجوم وتكبيد العدو خسائر فادحة لكن بعض دباباته تمكنت من التسلل .

وفي ساعة متأخرة من ليلة ١٦ اكتوبر تمكنت هذه الدبابات من عبور القناة والنزول على الشاطىء الغربي .

وصباح يوم ١٦ زاد من حشوده وقواته المهاجمة حتى وصلت الى ثلاثة لواءات مدرعة .. واستطاع العدو بعد معارك عنيفة مع الفرقة ١٦ في الشرق ان يستولي على ثغرة اتساعها ثلاث كيلومترات وبدات قواته في التدفق ..

وفي ١٨ اكتوبر نجح في اقامة معبر عند الدفرسوار واسترد نقطتين حصينتين من نقاط خط بارليف في المنطقة كان قد تم الاستيلاء عليهما بواسطة الجيش المصري يومي ٨ و ٩ اكتوبر .

وفي يوم ١٨ اكتوبر هذا نشبت معركة دبابات رهيبة في منطقة الدفرسوار شرقا خسر فيها خسارة ضخمة .

ولكن ذلك لم يمنع العدو من الاستمرار في تعزيز قواته .. حتى اصبح له شريط على الضفة الشرقية تجمعت فيه ثلاثة الوية من الدبابات وآلاف الجنود ، حتى وقف اطلاق النار .

يكمل اللواء احمد بدوي قائد الجيش الثالث الصورة .. يوم ٢٢ اكتوبر يوم وقف القتال الاول .

قبل وقف الاطلاق بدقائق .. فوجئت بحوالي عشرين دبابة اسرائيلية جنوب البحيرات على مسافة ٢٠٠ متر من القناة على الضفة الغربية تضرب قواتنا ..

أمرت على الفور بعبور مجموعات مشاة مسلحة باسلحة مضادة للدبابات لتتولى اقتناص تلك الدبابات ..

وكانت تلك اول مجموعة من الجيش المصري تهاجم العدو من الشرق الى الغرب !

واستطاع صائدو الدبابات الذين ارسلتهم ان يحاصروا الدبابات الاسرائيلية ويدمروا بعضها في كمائن وطلبت منها التسليم خصوصا ان ميعاد وقف اطلاق النار كان قد فات ..

ولكن دبابات العدو رفضت فدمرت جميعها . وهي الدبابات التي رآها صحفيو العالم كله صباح يوم ٢٣ اكتوبر عندما زاروا غرب القناة عند الدفرسوار .

وعندما اندفع العدو في اتجاه مدينة السويس بعد خرقه لوقف اطلاق النار كان تحركه الاول بلواء مدرع ولواء مشاة ميكانيكي فتصدت له قوات من الجيش الثالث ايضا ودارت معه معارك عنيفة تكبد فيها خسائر كبيرة كما تكبدنا نحن خسائر ايضا .



كيف كانت الصورة عند القيادة المصرية العليا في ذلك الوقت ؟

يجيب اللواء سعد مامون قائد الجيش الثاني حتى ١٤ اكتوبر ومساعد وزير الحربية حاليا على سؤالي :

● صباح يوم ١٤ اكتوبر بعد ان فاجأتني الازمة القلبية تولى زمام قيادة الجيش الثاني كما قلنا رئيس اركانه اللواء تيسير العقاد .

● مساء ١٥ اكتوبر بدأ التسلل الاسرائيلي الى الغرب ، وكان اللواء تيسير ما زال قائد للجيش .

● **صباح يوم ١٦ اكتوبر اعطى اللواء تيسير كقائد الجديد للجيش الثاني تقريرا الى القيادة العامة في غرفة العمليات عن هذا التسلل بانه « محدود وانه قادر على انهاء الموضوع محليا » .**

وتجدر الاشارة هنا الى ان كـل الكتـب الاجنبيـــة التي كتبـت عن موضوع الثغـرة حتى بموضوعيـة وقعـت في خطأ هو ان اللواء سعد مأمون كان قائدا للجيش اثناء بدء الثغرة وانه هو الذي اعطى هذا التقرير عن « محدودية التسلل » .

● لكن مساء يوم ١٦ اكتوبر اتضح للقيادة العامـة في القاهـرة ان المشكلة اخطر من ذلك بكثير . وكانت هذه اول مرة تتبين القيادة حقيقـة الثغرة الاسرائيليـة .

● اصدرت القيادة على الفور تعليمـات محددة باجراءات عسكريـة مختلفة تتخذها للقضاء على الثغرة وعينت اللواء عبد المنعم واصل قائـدا للجيش الثاني وكان قائدا له كما قلنا قبل اللواء سعد مامون .

● صباح يوم ١٨ اكتوبر كلفت القيادة الفريق سعد الشاذلي رئيس هيئة الاركان بالتوجه الى المنطقة والسيطرة على الموقف بانهاء الثغرة .

● عاد الفريق سعد الشاذلي من الجبهة قبل فجر يوم ٢٠ اكتوبر وقدم تقريرا هاما عن الموقف واقتراحاته . ولخطـورة التقريـر والاقتراحات اتصل « الفريق » احمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة بالرئيس انور السادات .

● جاء الرئيس السادات القائد الاعلى للقوات المسلحـة الى غرفة العمليات على الفور .

والواقع ان القائد المحلي قاوم « التسلل الاسرائيلي » مقاومة شديدة كما سنرى بعد ذلك ليس باعتراف المراسلين الاجانب فقط بل باعتـراف الاسرائيليين . فقد كانت كل محاولة من جانب الاسرائيليين لاقامة كوبري تقصف بشدة .. كما ان القائد الجديـد للجيش الثاني والفريق سعـد الشاذلي بذلا جهودا لمقاومة « التسلل » ايضا .

★ ★ ★

كيف اذن اخذت القـوات المصريـة على غرة وهي كانت تعلم مقدمـا باحتمال « التسلل » الاسرائيلي في تلك المنطقة بالذات كما اسلفنا ؟

لقد اجابني المشير احمد اسماعيل على تساؤلي .. في حديثه معـي فقـال :

ـ نحن لم نؤخذ على غرة .. العدو اراد الحصول على نصر سياسي

فركز قوات هائلة كانت تصله اولا باول من الولايات المتحدة . ورغم خسائره الفادحة في وجه المقاومة المصرية الا انه صمم .
من ناحية اخرى لقد وقعنا نحن في اخطاء .
واكد المشير في ذلك الحديث الوقائع التي سردها اللواء سعد مأمون حسب تسلسلها الذي ذكرناه من قبل .

★ ★ ★

والقائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس انور السادات ذكر ايضا في حديثه معي وفي احاديثه لعدد من الصحفيين الاخرين **حقيقة ايفاد القيادة العامة للقوات المسلحة لرئيس هيئة الاركان الفريق الشاذلي الذي « اضاع يوما ثمينا في مواجهة الثغرة دون جدوى »** .

★ ★ ★

والفريق حسني مبارك حكى لي تفاصيل عن دور سلاح الطيران في ان قوات التسلل الاسرائيلي نجحت فعلا في تعطيل بعض بطاريات الصواريخ في الضفة الغربية في منطقة التسلل . ومع ذلك امكن معالجة هذا الامر نسبيا وامكن الحاق خسائر بسلاح الطيران الاسرائيلي فيها .

★ ★ ★

والفريق حسني مبارك حكى لي تفاصيل عن دور سلاح الطيران في مقاومة « التسلل » الاسرائيلي في الثغرة .. رغم ان العدو كان قد استعوض كل خسائره . وكان « متفوقا علينا » اذ كانت لديه طائرات جديدة مجهزة اليكترونيا اكثر وطيارون مدربون في حرب فيتنام .
وقد بلغت الطلعات خلال ايام الثغرة اكثر من ثلاثة آلاف طلعة .
ولو ان الجهد البري في مقاومة الثغرة كان يتوازى مع الجهد الجوي لتغيرت الصورة ؟!

★ ★ ★

خطة « الغزاله »

في « ام خشيب » عقد اجتماع عسكري اسرائيلي صباح يوم ١٥ اكتوبر حضره الجنرال بارليف والجنرال اليعازر والجنرال جونين والجنرال شارون والجنرال اذان وثلاثون من كبار الضباط في قيادة سيناء .

وتحددت في ذلك الاجتماع تفاصيل الاختراق الاسرائيلي الذي سمي « بالغزالـه » ..

وكانت الخطة تتلخص فيما يلي :

☆ يقوم لواءان مدرعان اسرائيليان بمهاجمة القوات المصرية المرابطة في الضفة الشرقية في الشمال الغربي من «الطاسة» بغرض تضليلها وايهامها ان التحركات الاسرائيلية هجوم مضاد في تلك المنطقة ومن قبيل الروتين.

☆ تتسلل قوة اخرى ما بين المنطقة الشمالية التي يسيطر عليها الجيش الثاني والمنطقة الجنوبية التي يسيطر عليها الجيش الثالث (اي المفصل وتندفع باتجاه القنـاة .

★ تقيم تلك القوة راس جسر شمال البحيرات المـرة بعرض اربعة كيلومترات .

★ تتولى فرقة الجنرال ادان تعزيز وحماية فرقة شارون التي ستبدأ في التسلسـل .



معركة المزرعة الصينية

تنفيذا للخطة .. بعد الظهر بدأ لواء مدرع اسرائيلي يتحرك من منطقة « الطاسه » في اتجاه الشمال لشن الهجوم التضليلي على القوات المصريـة المرابطة في القطاع الاوسط .

واصطدمت به الدبابات المصرية بعد الخامسة في معركـة عنيفة كبدت خسـائر فادحـة .

★ في ذلك الوقت تحرك الجنرال شارون في اتجاه الغرب .. في اتجاه قناة السويس على راس لواءين مدرعين . اللـواء الاول من رجـال المظلات المحمولين في عربات مجنزرة مصفحة . وكانت مهمتهم الوصول الى ضفة القنال وعبورها بقوارب المطاط والرسو على الشاطـىء الغربي لهـا بهدف العمل على نصب جسر للعبـور .

اما اللواء الثانـي فمدرعـات عليهـا الاختراق حتى تصل الى الغرب

وتحمي معدات العبور التي يحملها وراءها فرقة الجنرال ادان . ثم بعد ان يمد الكوبري تعبر وتنضم الى لواء المظلات غرب القناة .

وكان على ذلك اللواء طبعا ان يصل الى المنطقة التي حددها شارون من قبل وهم يقيمون الساتر الترابي والساحة الواسعة التي هيأها لذلك اليوممنذ سنوات .

لقد عمل الاسرائيليون على استغلال المفصل بين الجيشين وهو المفصل الذي كانت تسيطر على طرفيه الدبابات المصرية . ولذلك كان عليهم ان يوسعوا المفصل بعد ان يسيطروا عليه .

★ ومن هنا فان شارون بعد ان وصل الى « الساحة » المذكورة بعث بلواء مدرع الى الشمال للتصدي للقوات المصرية في الجيش الثاني أذا ما حاولت التدخل .

والذي حدث ان القوات المصرية اصطدمت باللواء الاسرائيلي وكبدته خسائر فادحة اضطرت شارون الى ارسال مزيد من الدبابات لتعزيزه .

★ في هذه الاثناء بدأ الجنرال ادان تحركه على راس قوة مؤلفة من لواء مدرع ولواء مظلات مصطحبا معه ادوات العبور والجسور ومجموعة من الطوافات والعوامات الخشبية .

★ وعلى عجل ارسل الجنرال شارون مجموعة من الدبابات في اتجاه قوة مصرية كانت مرابطة في موقع لا يبعد كثيرا عن « الساحة » محاولا السيطرة على احد المعابر المصرية استعجالا منه للعبور قبل بناء الكوبري الاسرائيلي .. وقوبل بمقاومة شديدة ولكنه ترك المعركة واتجه الى النقطة التي يريد منها العبور .

وبعد ذلك ذكر الاسرائيليون ان تسرع شارون هذا كلفهم خسائر باهظة اذ اضطر الجنرال ادان الى القتال اربعين ساعة متوالية في وجه مقاومةمصرية عنيفة كادت تفشلعملية الغزالة كلها بعد أنتأخر الجنرال ادان في اللحاق بشارون .

وقد سخر الجنرال حاييم بارليف من اهمال شارون قائلا بعد ذلك « كان يريد الوصول الى القاهرة مهما كلف الامر لكنه نسي او لم يستطع احتلال الموقع المصري الرئيسي على ضفة سيناء » .

★ لكن في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وصلت بعض معدات العبور بتأخير ساعتين عما ورد في الخطة الاصلية . وتحركت ثلاثون دبابة مع وحدات من الكوماندوس ورجال المظلات الاسرائيليين الى الضفة الغربية.



معركة « المزرعة الصينية »

★ الاسود : الهجمات الاسرائيلية واتجاهها .

★ المنقط : الهجمات المصرية المضادة من الجيش الثاني والثالث .

وكانت قد سبقتهم وحدة من جنود المظلات نزلت بواسطة طائـرات هيلكوبتر الى الضفة الغربية في انتظار باقي المتسللين .

★ وفي نفس الوقت كانت قوات الجنرال ادان ما زالت مشتبكة مع القوات المصرية التي كانت تحاول سد الثغرة على بعد كيلومترات من نقطـة العبور . وهنا دفعت القيادة الاسرائيلية بقوات متزايدة في محاولة للتغلب على المقاومة المصرية .

في تلك المنطقة على الضفة الشرقية بضعة مبان كانت تستخدم فيما مضى كمحطة تجارب زراعية مصرية ، وجاء عدد مـن الخبراء الزراعيـين اليابانيين وعملوا فيها . وكان طبيعيا ان تكتب بعض العبارات والكلمـات اليابانية على الجدرا ن ..

وعندمااحتل الاسرائيليون سيناء عام ١٩٦٧ ظنوا ان الكلمات اليابانية ما هـي الا كلمات صينيـة .. **فسموها بالمزرعة الصينية** . ولم يكـن احد يتصور ان اسم محطة التجارب البسيطة هذه سيدخل التاريـخ من اوسع ابوابه كرمز على عنف مقاومة الجيش المصـري ضد الجيش الاسرائيلي . وقد استمـــرت المعركة اكثر مـن ثلاثة ايـام .. ووصفهـا الصحفيـون الاسرائيليون بانها **« ستدون في تاريخ حـروب اسرائيـل على انها اصعـب المعارك التي خاضتها اية قوة في الجيش الاسرائيلي »** .

لقد دخلت الدبابات في تلك المعارك في معارك تصادمية فريدة .. اذ تقاربت الدبابات مع بعضها البعض الى مسـافة عشرة امتار !! وهـذا شيء نادر الحدوث في اي حرب .

وفي بعض الاحوال تلامست مدافع الدبابات بعضها ببعض وهي تكاد تتناطح في القتـال .

وقد تراجعت القوة المدرعة الاسرائيلية الاولى التي هاجمت القـوات المصرية في تلك الموقعة .. بعد ان تكبـدت خسائـر فادحـة (الرواية هنا للاسرائيليين) واضطرت القيادة الاسرائيلية الى استدعاء لواء مظلات مـن منطقة ابو رديس فماذا جرى لهذا اللواء ؟..

نتـرك الاسرائيليـين يحكـون ايضا على لسان « روى يتسحاق » قائد لواء المظلات ذاته الذي استدعى لانقاذ الوضع الاسرائيلي المتدهور في معركة المزرعة الصينية :

« قالوا لنا بعد ان احضرونا بالهليكوبتر وعربـات النقـل ان صيادي الدبابات المصريين يحولون دون تنفيذ مهمتنا في عبور القنـاة ، « فانقضوا

عليهم ودمروهم بأسرع ما يمكن فان قواتنا الموجودة في الغرب تغلق تلك القوات المضادة للدبابات الطريق على وصول اية قوات لها .. »

سرنا على المحور لتنفيذ المهمة بضع مئات من الامتار وفجأة فتح علينا اتون من النيران

وصاح أحد القادة : يا الهي .. ماذا يجرى هنا ؟ ..

ولم يبق لنا الا الالتصاق بالارض والانتظار حتى تمر العاصفة .

ثم استمر السير الى الامام .. وكانت اجهزة اللاسلكي تهمهم طول الوقت : اسرعوا .. اسرعوا بسرعة اكبر .. بسرعة اكبر ..

وكانت ليلة قمرية .. وفجأة ابلغ احد قادة اللواء : ارى شيئا يشير الريبة .. سطح ابيض على الرمال ..

امتنع رجال المظلات عن اطلاق النار فقد خشوا ان يكون هناك رجال مدرعات اسرئيليون هربوا خلال النهار من دباباتهم المحترقة وجلسوا على الرمال .

واصلنا السير .. ولكننا فجأة وجدنا النار تنفتح علينا واصطادتنا ونحن مكتوفون على الكثبان الرملية .

وظهر بعد ذلك انه كان في تخوم ذلك المحور الذي فتحت منه النيران عشرة مراكز رشاشات وفصيلتان من الدبابات وسريتان من المشاة المصريين مزودتان بصواريخ مضادة للدبابات .. وخلف هذا الموقع موقع مصري اخر .. وكانت المزرعة الصينية مكانا بعيد المنال بالنسبة لنا ..

ولم يحدث ان مررنا بمثل تلك الكمية من النيران وكان عدد المصابين يزداد من لحظة لاخرى وقد اضيء الليل بقنابل مضيئة وقذائف الاشارة .

لقد فشلت محاولة انقاذ القوةالتي تقاتل المصريين في المزرعة الصينية. بل قتل قائدها .. واجبرنا نحن رجال المظلات على التزام الارض .. واستمرت عمليات انتشال الجرحى طول الليل .

وفي الفجر بعثت القيادة الاسرائيليون بلواء مدرع لانقاذ لواء مظلات المضروب . ثم لواء اخر .. واستمرت المعركة التي اصبحت واديا رهيبا لقتل البشر وتدمير المعدات اكثر من ثلاثة ايام . »

والقصة التي رواها قائد لواء المظلات نموذج لعشرات بل مئات القصص التي ذكرها جنود وضباط اسرائيليون لصحفيين من جميع انحاء العالم عن عنف المقاومة المصرية ضد ذلك الهجوم المضاد الاسرائيلي .

حتى **الجنرال ادان** نفسه قال « عبرنا الجسر في العاشرة ليلا ، وكانت ليلة قمرية جميلة ، وما كادت تمر ثلاث من دباباتنا حتى تعطل الجسر ، وبقي

متهاويا لوقت ما وبينما كنا متجمعين هناك ، تلقينا أشد قصف عرفناه » .
والحقيقة انه منذ اكتشف الجيش المصري حقيقة وجود الجسر وحجمه وجهت اليه المدفعية المصرية كل جهودها . . بل ان المدفعية بدات في القصف منذ ساعات الصباح الاولى يوم ١٦ اكتوبر بعد ساعتين من الاختراق الاسرائيلي .

★ وفي الصباح شاهدت بعض الوحدات المصرية رجال المظلات الاسرائيليين على الضفة الغربية وعدد من دباباتهم ولكن كما تبين بعد ذلك لم تتصور القيادة قيمة وخطورة العملية .

وظهر يوم ١٦ حلقت طائرة ميج في المنطقة . . وابلغت عن الصورة كما راتها .

★ ★ ★

تدمير قواعد الصواريخ

صباح يوم ١٦ اكتوبر بدات القوات الاسرائيلية التي اخترقت القناة في توسيع راس الجسر وكانت قد تخلصت من القوات المصرية القليلة المرابطة في تلك المنطقة . واستطاع اللواء الاسرائيلي الثالث الوصول الى الغرب في السابعة والنصف من يوم ١٦ . وكان اول اهدافه تدمير اربع بطاريات من الصواريخ المضادة للطائرات من نوع سام ٣

وتمكن الجنرال شارون طول النهار من التقدم خمسة عشر كيلو مترا فقط في تلك المنطقة في وجه مقاومة محدودة .

وحتى الان لم تكن هناك خطورة فعلية من وجود قوات اسرائيلية في الغرب لان الذي يحسم الموقف كان تلك المعارك في الشرق التي تستهدف غلق الثغرة . وهي معارك المزرعة الصينية وغيرها . وكان موقف الجنرال ادان فيها صعبا تماما .

وعندما أقدم الليل يوم ١٦ اكتوبر بدا الموقف صعبا امام القوات الاسرائيلية اذ فوجئت بانقضاض رجال الصاعقة المسلحين بالصواريخ المضادة للدبابات محدثين بها خسائر جسيمة .

ولكن شارون استمر يتقدم وسقطت في يده عدة قرى وقواعد عسكرية قوية في الدفرسوار وفايد وكبريت وكفريت والشلوفه .

★ ★ ★

صائدوا الدبابات في المعركة :

في اليوم الثالث يوم ١٧ اكتوبر استمر سلاح الطيران المصري في ضرب قوات الثغرة واشترك في الضرب القاذفات الاستراتيجية « ت يو ١٦ » . اذ ضربت الجسور والنقط التي تمركزت فيها القوات الاسرائيلية . .

ورغم ان سلاح الطيران الاسرائيلي قد بدأ يرتع في المنطقة بعد ضرب قواعد الصواريخ فان الطائرات المصرية تصدت له في معارك جوية عنيفة وبرزت في تلك المعارك ميزات الطائرة ميج ٢١ المعدلة الحديثة كما تقول مجلة فييشن ويك عدد ١٧ ديسمبر ١٩٧٣ . وقالت ان ميزة تلك الطائرة انها تملك خزانات وقود داخلية أوسع من الطرازات القديمة فضلا عن أنه بامكانها حمل اربع قنابل زنة كل واحدة خمسمائة وخمسين رطلا بدلا من قنبلتين فقط في الانواع السابقة .

هذا بالاضافة الى ان بامكان الميج ٢١ المعدلة التحليق في الجو لمدة اطول نسبيا .

ومنذ ذلك الوقت اصبح التركيز الاساسي للقوات الجوية هو القتال ضد قوات الثغرة الاسرائيلية .

ومن الملائم ان نقول هنا ان هذه القوات وجدت صعوبات كبيرة في انزال خسائر كبيرة بالاسرائيليين في الضفة الغربية لانها قد استفادت الى حد كبير بوجود التحصينات المصرية والملاجيء التي كانت القوات المصرية تستخدمها قبل بدء الحرب وكذلك ملاجيء الدبابات .

لقد تحصن الاسرائيليون بها فقللوا من خسائرهم التي كان يمكن ان تحدث نتيجة قصف المدفعية والطيران .

ومنذ ذلك اليوم بدأ الاسرائيليون يعانون من **تداخل القوات المصرية بقواتهم** نتيجة تدفق عدد كبير من الصاعقة في تلك المنطقة المأهولة بالسكان القادرين على مد هؤلاء الرجال بالطعام والشراب بالاضافة الى ان الدبابات المصرية بدأت تصل الى المنطقة .

ولا بد من التوقف هنا لحظة لنعرف معنى ذلك التداخل وحدوده

ان المنطقة التي احتلها الاسرائيليون غرب القناة منطقة مليئة بالمستنقعات التي تربط بينها جداول مائية متفرعة من البحيرات المرة ومن المصارف العديدة التي تصب هناك .

وتختلط فيها الحشائش الملفوفه (السافانا واشباهها) كأننا في

براري افريقيا ، وكذلك حدائق الفاكهة والرمال الرخوة والرمال الجافة ذات التلال المتموجة .

وهذه الطبيعة المفيدة هي التي تسببت فيما سمي بالتداخل بين القوات المصرية وقوات العدو .

ما معنى التداخل بين القوات ؟

من الناحية العسكرية معروف انه في الحروب يقبع كل فريق من المتحاربين في بقعة معينة من الارض يقيم عليها استحكاماته الدفاعية والهجومية ، وتكون « مرتكزا » لعملياته ان تقدما او تراجعا .

ويتبادل الفريقان الضرب بالاسلحة المختلفة حتى اذا ما تقدم المهاجمون احتلوا ارض الفريق الاخر ..

وربما حدث تلاحم وتداخل مباشر يختلط فيه الحابل بالنابل كما يقولون حتى ان الفريقين يمكن ان يتصارعا بالسلاح الابيض كما حدث في معارك الجولان ..

مثل هذا التداخل والتلاحم معروف . وهو عادة امر مؤقت اذ سرعان ما ينتهي بسيطرة الفريق المنتصر على الارض الجديدة واخلائها من الاعداء اما بقتلهم او اسرهم .

ولكن التداخل الذي حدث في غرب القناة .. هو تداخل من نوع اخر .. نظرا لطبيعة الارض فان عملية وجود القوات الاسرائيلية قد تخللتها ايضا عمليات وجود قوات مصرية في مواقع عديدة داخل وحول المواقع الاسرائيلية .

فمن الممكن ان توجد دبابات اسرائيلية قليلة العدد على تلة بينما توجد فصيلة مدرعات مصرية في حقل قريب .. ثم حقل من « الهيش » تختبىء فيه مدفعية اسرائيلية وهكذا ..

اي لم تكن في منطقة الاحتلال الاسرائيلي خطوط فاصلة بين القوات المتحاربة في عديد من المناطق في تلك الفترة .

وهذا التداخل بين القوات ليس جديدا في تاريخ الحروب .

لقد حدث في بعض معارك الحرب العالمية الاولى ، وفي الحرب العالمية الثانية وخاصة في معارك الصحراء حيث الحدود غير واضحة في تيه الصحراء في حرب (البروسيدر) المشهورة في شمال افريقيا عندما كانت قوات روميل الالمانية تتداخل مع القوات البريطانية حتى انه في بعض الاحيان كان رجال البوليس الحربي البريطاني الذين ينظمون حركة المرور يشيرون بالمرور لدبابات (البانزر) الالمانية المتداخلة في المنطقة بالمرور وهم لا يعرفون ! ! .

وقد اعطى هذا التداخل في البداية قبل وقف اطلاق النار للقوات الخاصة المصرية فرصة ذهبية .. فقد مكنها من نصب الكمائن لدبابات العدو ومدرعاته واصطيادها بالصواريخ المضادة للدبابات . علاوة على اصطياد الافراد انفسهم .



الحلم الاسرائيلي لتحطيم المعنوية

جن جنون الجنرال شارون وهو يرى المقاومة المصرية تتكاثف .. والجنود المصريون المراة الصدر يتصدون للدبابات في بسالة وجراة ويفرغون امعاءها المصهورة الى الارض .. وتصف المدفعية من الشرق والغرب ضده ..

فامر برفع علم اسرائيلي في كل بقمة وفوق كل مبنى يحتله الاسرائيليون في المنطقة .. قائلا انه سيرى الجيش المصري في الشرق اننا (اي اسرائيل) موجودة في الغرب خلفه ..

كان يهدف الى تحطيم الروح المعنوية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث واستمرت المقاومة عنيفة وعنيدة وتلحق بالاسرائيليين خسائر مروعة ..

فقد واصلت القيادة المصرية احضار المزيد من المدرعات والمدفعية وتولت توزيعها حول الجيب الاسرائيلي واستكمال استعداداتها قبل الاقدام على اية خطوة حاسمة ضد الثغرة .

لذلك دفعت بعدد كبير جديد من وحدات الصاعقة المجهزة بصواريخ بهدف تأخير تقدم الاسرائيليين ومنعهم من تثبيت اقدامهم حتى تنتهي

القيادة من الاستعدادات الضرورية قبل الشروع في هجوم مضاد هائل للقضاء على الجيب الاسرائيلي تماما .

واستمرت المدفعية والطائرات المصرية تقصف مواقع الاسرائيليين الذين وصلوا الى معسكر الشلوفه وسيطروا على جنيفه .

وبدا يتضح تخطيط القيادة الاسرائيلية ..

١ ـ لقد كانت تعمل على توسيع رقعة الارض التي تحتلها وتطهيرها من كل مقاومة .

٢ ـ تدمير اكبر عدد ممكن من قواعد الصواريخ الموزعة في المنطقة

٣ ـ الاندفاع جنوبا للوصول الى البحر الاحمر لمحاصرة الجيش الثالث العامل على الضفة الشرقية قبل تحقيق وقف اطلاق النار الذي بدا انه وشيك الوقوع .

وضطرت القيادة الاسرائيلية لتحقيق هذه الاهداف في وجه المقاومة المصرية المتزايدة ان تزيد من حجم قواتها في اليوم الخامس (يوم ١٩ اكتوبر) الى خمسة عشر الف جندي واربعمائة دبابة .

ولم تكن المقاومة المصرية قاصرة على الضفة الغربية انما كانت المحاولات مستمرة لغلق الثغرة في الشرق .

ففي يوم ٢٠ اكتوبر بدات القوات المصرية في شن هجمات قوية من الشمال تجاه البحيرات المرة ودارت معارك عنيفة بلغت حد استخدام السلاح الابيض .

ورافق الدبابات المصرية صائدو الدبابات وانتشروا بينها عندما تلاحمت وتمكنوا من الحاق افدح الخسائر بالدبابات الاسرائيلية .

وصباح ذلك اليوم جرب الاسرائيليون التمدد بقواتهم في غرب القناة ناحية الشمال .. ناحية الاسماعيلية ولكن التجربة باءت بالفشل الذريع نتيجة صد قوات الجيش الثاني لها وتخوف الاسرائيليين من طبيعةالارض الزراعية والقرى حول الاسماعيلية .

وركزت الطائرات المصرية هجماتها على خطوط المواصلات المؤدية من الممرات الى منطقة العبور في القطاع الاوسط ، وظلت تهاجم ارتال المدرعات الاسرائيلية بلا انقطاع ملحقة بها خسائر كبيرة .

ولقد اكتسب قائد الجسر الاسرائيلي عند الدفرسوار واسمه آموس شهرة في الكتابات التي كتبت عن الثغرة .. وهذه الشهرة اكتسبها لا بسبب براعته الحربية بل يسبب براعته في تصوير المقاومة المصرية للقوات الاسرائيلية .. لقد صور آموس هذه المقاومة في رسائل لزوجته .. قال في احدى تلك الرسائل :

« لقد كانت اكثر الامور رعبا هي عمليات القصف التي تلتها هجمات الطائرات .. وبالنسبة للقصف المدفعي فهذا امر تعودنا عليه .. ولكن عندما تشترك الطائرات .. فان ذلك امر غير محتمل .. لقد كان هناك قصف .. وفجاة صراخ : طائرات .. واغارت الطائرات .. اما انا فقد قفزت مذعورا .. وقد القت الطائرة بقنابل نابالم واصبت انا بشظاياها .. فركضت باتجاه الجسر .. والقنابل تسقط والصواريخ .. لقد كان المصريون عاقدين العزم في اصرار على تصفية راس الجسر .. فقد كان هناك تلة صغيرة داخل الساحة عليها نقالات ونقالات .. وهي مغطاة بالبطانيات ، وبمرورك من هناك تشاهد أحذية حمراء وسوداء وخضراء ، وتشاهد اطراف خصائل الشعر الاشقر والاسود .. كانوا هناك بالعشرات وخشيت ان ارفع بطانية ، فان رفعت بطانية رايت زميلا لي .. »

بعد وقف اطلاق النار :

كان الاسرائيليون يدركون بل يتابعون المحاولات الدولية لوقف اطلاق النار . فاندفعوا في اصرار ورغم الخسائر المروعة الى الجنوب محاولين الوصول الى طريق القاهرة السويس وميناء الادبية لتطويق الجيش الثالث ..

ان الاسرائيليين قد تبخرت احلامهم في تطويق الجيش المصري كله وارغامه على الانسحاب (ــ وكانك يا ابو زيد ما غزيت ! ــ) فاصبحوا الان يهدفون الى اتخاذ موقف ممتاز نسبيا في المباحثات المتوقع حدوثها بعد التدخل الدولي واعادة جزء من الهيبة المفقودة للجيش الاسرائيلي .

ولقد كان اللواء عبد رب النبي حافظ مصيبا عندما قال **ان المهم ليس في الاختراق انما ماذا بعد الاختراق ؟!** .

وفي يوم ٢٢ كتوبر يوم وقف اطلاق النار زادت كثافة المعارك في محاولة ضخمة من جانب الجيش المصري لاستعادة بعض ما فقده في الغرب . وتكثف هجوم الطيران المصري .. وعندما جاءت الساعة السابعة (ساعة

وقف اطلاق النار كانت القوات الاسرائيلية تسيطر على مساحة في منطقة الدفرسوار امتدت ثلاثة عشر كيلو مترا الى الغرب من القناة واربعين كيلو مترا على أمتداد قناة السويس شمال مدينة السويس .

ولم تتمكن القوات الاسرائيلية من السيطرة على الطريق الرئيسي المؤدي من القاهرة الى مدينة السويس ولا على المواقع الاستراتيجية الموجودة في المنطقة .

ومعنى ذلك فشل اسرائيل في تركيز راس الجسر في الضفة الغربية لقناة السويس وفي تحقيق المكاسب الاقليمية التي كانت تامل في ان تساعدها في المراحل القادمة .

واصبح القادة الاسرائيليون مقتنعين بان التوسع الذي تم في الغرب لن يرغم القادة المصريين على تقديم اية تنازلات ، بل انه في حالة تجدد القتال فان مسالة القضاء على « الجيب » مسالة وقت لا اكثر ولا اقل .

ومن هنا فالحقيقة ان القيادة الاسرائيلية لم تكن راضية بوقف اطلاق النار في ذلك الوقت بالتحديد .

وقال الجنرال دافيد اليعازر في امره للقوات الاسرائيلية وهو يأمرها ظاهريا باحترام وقف اطلاق النار « ان انتصارنا لم يكتمل بعد » .

كانت هذه العبارة تشير بان الاسرائيليين يدبرون امرا ، يدبشرون لخرق وقف اطلاق النار .

وهو ما حدث فعلا .. وقد ذكرت مجلة نيوزويك الامريكية
« طوال الليل بعد وقف اطلاق النار في السابعة مساء تدفقت الدبابات والامدادات الاسرائيلية عبر معابر اسرائيلية ثلاث ..

وعند الفجر فجر يوم ٢٣ اكتوبر صدرت التعليمات للجيش الاسرائيلي ببدء القتال .

وصرح قائد اسرائيلي ان هذا القتال الجديد يستهدف ما سماه بتطهير الخطوط من المصريين .. ولكن بعد قليل بدا واضحا انهم يريدون القضاء على الجيش الثالث .. »

لقد كان الهدف واضحا كما ذكرنا .. كسب مواقع في المساومة بعد ان فشل الهدف الرئيسي وهو انسحاب مصر من الشرق ..

ولذلك نجد هنري كيسنجر لا يخفي اغتباطه بذلك الوضع الجديد الذي اصبحت عليه اسرائيل عندما قال للاستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام حينذاك : لقد عبرتم نحو الشرق .. وعبر الاسرائيليون نحو الغرب ..

اي باختصار انه عبور اسرائيلي بعبور مصري ..

وسنجد على الفور متحدثا من البنتاغون يفرك كفيه اغتباطا وهو يقول للصحفيين :انه بعد عبور الاسرائيليين ناحية الغرب فان المصريين امامهم احد امرين : اما سحب قواتهم ودباباتهم من الشرق عبر القناة واما ان يتركوها تدمر ..

وهذا يتفق مع تصريح المتحدث العسكري الاسرائيلي « صوت سيده » وهو يقول للصحفيين ايضا : نحن على وشك تدمير الجيش المصري كله !..

★ ★ ★

على هذا اندفع الاسرائيليون صباح يوم ٢٣ يزحفون في اتجاه الجنوب .. وصدرت التعليمات للقوات المصرية باطلاق النار والتصدي للهجوم (**كان المشير احمد اسماعيل في بيانه بوقف اطلاق النار قد حذر الجيش من غدر العدو وطالبه باليقظة**) .

ودار القتال على اشده حول جبل « عويبد » وجبل « عتاقه » ومدينة السويس حيث دار القتال بالدبابات والسيارات المجنزرة ..

وبالتعزيزات التي تلقتها القوات الاسرائيلية تمكنت من التقدم والسيطرة على منافذ السويس والادبية وقطعت الطريق بين السويس والقاهرة وتمكنت من فرض حصار على السويس ومواقع الجيش الثالث التي حاول سلاح الطيران الاسرائيلي ضربها فتصدت له الطائرات المصرية في معركة جوية عنيفة .

وحاول الاسرائيليون الهجوم شمالا في اتجاه الاسماعيلية يوم ٢٣ اكتوبر ولكن ميزة وجود قرى عديدة واراض زراعية في المنطقة بدت في تلك المعركة العنيفة التي دارت بين قوات الجيش الثاني والاهالي من جانب والاسرائيليين من جانب اخر حيث ردوا على اعقابهم .

ويومي ٢٤ اكتوبر و ٢٥ اكتوبر استمرت معركة السويس . وكانت اخر محاولة اسرائيلية لاحتلال المدينة في صباح يوم ٢٥ اكتوبر حيث تقدمت بعض الوحدات المدرعة الاسرائيلية فهاجمتها للمرة الثالثة ولكن المحاولة فشلت كسابقتيها بعد ان تكبدت القوة الاسرائيلية خسائر كبيرة .

وقف اطلاق النـار :

وتوقف اطلاق النار تماما في الساعة الرابعة الا عشر بعد ظهر يـوم ٢٥ اكتوبر عندما ارتدت جميـع القوات الاسرائيليـة عـن مدينة السويس ورابطت على مشارفهـا ..

★ ★ ★

هذا ملخص تفصيلي ـ اذا جاز التعبير ـ لقصة الثغرة الاسرائيلية .. ولقد رفضت استخدام كلمة « عبور » لان استخدامها يعني مغالطة شديدة ومحاولة للتقليل من « عبور » الجيش المصري وتصوير الامر كمـا صوره كيسينجر (عبور اسرائيلي بعبور مصري) .

وقد حاولنا ان نقدم صورة تطور الثغرة بكل موضوعية ودقة ممكنـة واعتمدنا على ملاحظاتنا ومشاهدتنا للحـرب وعلى مناقشاتنا مع القـادة العسكريين في الجيش .. وعلى كل المصادر الاجنبيـة المتاحة لنا .. وعلى مناقشاتنا مع المعلقين السياسيين والعسكريين .

وابرز ما يلاحظ في العرض الذي قدمناه :

انه لا تناقض على الاطلاق في رواية القادة العسكريـين المصريين ومـا ذكرته المراجع والمصادر الاجنبيـة .

فقط ان هذه المصادر ـ بحكم عدم مسئوليتها عن الحرب ـ لا تتحرج في اذاعتهـا .

من ناحية اخرى ان هناك اجماعا حتى من الاسرائيليين كما رأينا على ان المقاومة المصرية كانت عنيفة .

وهذا هو الفارق الاساسي بين اليوم والامس ..

ان الجيش المصري اصبح ندا للجيش الاسرائيلـي .. يهجم عليـه ويهزمه (كما حدث في العبور) ويقاتله ويصمد في وجه هجماته (كمـا حدث في الثغرة) ..

☆ ☆ ★

ولكن سيطرح السؤال نفسه .. وهو السؤال الذي ينتظره القـارىء ولا شك .. لماذا لم يستطع الجيش المصري صد الثغرة من البدايـة .. وحصرها والقضاء عليهـا ؟

هل حدثت اخطاء ؟..

لقد سألت المشير احمد اسماعيل :

ان الناس تريد معرفة الاخطاء فقال :

ـ اعترافنا بالاخطاء في الثغرة ليس امرا جديدا .. فقد ذكرت ذلك بعد وقف القتال باسابيع قليلة .. كما اننا نظمنا مؤتمرا عسكريا على اعلى المستويات ناقشنا فيه اخطاءنا في الثغرة ..

ويوما ماستنشر هذه الدراسة لان المعركة لم تنته كما تعلم .

وعدت اسال : **ما هي الاخطاء التي يمكن التصريح بها الان ؟** .. فقال:

ـ ان القائد المحلي لم يقدر قوة العدو التقدير الحقيقي فتصور انها مجرد تسلل محدود . ومن ناحية اخرى بناء على ذلك قدر انه مستطيع ان يقضي عليها .

كما ان القيادة عندما تبينت خطورة الموقف ارسلت احد القادة لمعالجة الموقف فاضاع يوما كاملا .. كان هو اليوم الحاسم الذي استطاع فيه الاسرائيليون تدعيم قواتهم .

ولقد سبق للمشير احمد اسماعيل ان ذكر الاخطاء التيادت الى الثغرة في حديثه في نوفمبر ١٩٧٣ للاستاذ محمد حسنين هيكل في جريدة الاهرام وهو يفسر نجاح الاسرائيليين في عملية الاختراق هذه فيقول :

« ان صورة ماجرى فعلا كانت مهتزة امامنا لعدة اعتبارات . كانت المعلومات الاولى التي تلقيتها عن العملية يوم ١٦ اكتوبر تشير الى اعداد صغيرة متسللة من الدبابات البرمائية . وكان تقدير قيادتنا المحلية في موقع التسلل ان القضاء عليها بسرعة امر ممكن . وبالفعل فان القائد المحلي حرك كتيبة صاعقة واجهتها . كان هذا سببا .

« سبب اخر : هو ان المعلومات تقطعت نتيجة اعتبار يتصل بتبادل في المسئوليات اجريناه لظروف طارئة في بعض القيادات .

« سبب ثالث : ان العدو استطاع ان يخفي دباباته المتسللة في منطقة الثغرة في المراحل الحرجة من بداية عمليته . »

« سبب رابع : ان العدو استمات في فتح الثغرة ، ذلك انه القى بثقله كله فيها ، وكان على استعداد لتحمل اية خسائر لتحقيق هدفه .

وربما كان يريد ارغامنا على ان نسحب قواتنا في الشرق لنواجه به عملية في الغرب . وذلك ما لم اكن اريده .

وهناك سبب خامس : وهو ان العدو كان يعرف ان قرار وقف اطلاق

النار سوف يصدر . وبالتالي فإن هذا القرار وسريانه سوف يكون عنصر تامين له في مغامرة محفوفة بالمخاطر قام بها .

ولم يكن فى استطاعته بسبب انتشار قواته في الغرب وبسبب تبعثرها المقصود لاثره النفسي كحرب عصابات بالدبابات ان يحتفظ بها لوقت طويل .

ويتصل بهذا السبب الخامس ان العدو لم يأخذ قرار وقف اطلاق النار المنتظر كعنصر تامين لعمليته فقط . ولكنه كما راينا استغله بعد حدوثه لكي يجعل موقفه في الثغرة قابلا للاستمرار .

ولم يكن هذا الموقف قابلا للاستمرار الا بتضحيات رهيبة يدفعها لو ان القتال استمر .

ولقد كان قبولنا لقرار وقف اطلاق النار عملية تتصل بأسباب اوسع وموازين اكبر من عملية الثغرة .. »

انتهى كلام القائد العام للقوات المسلحة المصرية . وهو كلام صريح وواضح جدا .. ويعتبر نموذجا في كيفية مواجهة القادة والمسئولين للمواقف المختلفة ومن بينها الاخطاء والنواقص التي تحدث في المعركة .

وقد سبق ان اوضحنا من قبل ان القادة العسكريين في الجبهة يتناولون الامور بطريقة اكثر واقعية منا نحن المدنيين .. فالحرب في نظرهم كما قلنا .. كر وفر .. وانتصارات وهزائم .. واخطاء وتصحيح للاخطاء .. المهم الا يفقد القائد ثباته .

واذا كان بعض الثرثارين على مقاهي بيروت قد أبدوا « اعجابهم » بكيف يناقش الاسرائيليون اخطاء قيادتهم العسكرية بل يتصارع القادة علنا .. فانه من الغريب ان احدا لا يلتفت الى ان القيادة المصرية قد تحدثت بصراحة كثيرة في حدود الامن العسكري لا اكثر ولا اقل عن الاخطاء في عملية الاختراق الاسرائيلي .. بل انه اتخذت اجراءات جريئة بتلك التغييرات الهامة في قيادة الجيش المصري التي ادت الى تعيين الفريق محمد عبد الغني الجمسي رئيسا لاركان حرب القوات المسلحة واللواء حسن الجريدلي رئيسا لهيئة العمليات واللواء فؤاد عزيز غالي قائدا للجيش الثاني واللواء احمد سيد بدوي قائدا للجيش الثالث والفريق سعد الشاذلي مستشارا لرئيس الجمهورية فسفيرا في لندن .

ان احدا في الصحف العربية لم يعلق على هذه التغييرات ويشرح مغزاها الهام اللهم الا الاستاذ فؤاد مطر بجريدة النهار البيروتية الذي قال « ولقد حدثت التغييرات بعد عملية تقييم شاملة للحرب والنتائج .

ولا بد ان عملية التسلل الاسرائيلي الى الغرب كانت ابرز ما في هــذا التقييــم » .

كان ذلك التعليق ايامها في ديسمبر ١٩٧٣ .. اما الان فلم يعد سرا ان تلك التغييرات كان بعضها بسبب الثغرة .

فقد صرح الرئيس انور السادات عدة مــرات للصحفيــين .. بان **الفريق سعد الشاذلي قد عزل من منصبــه كرئيس للاركــان وعين مستشارا فسفيرا في لندن لانه اضاع يوما ثمينا عندما كلف بتدمير الثغرة .**

ولانه عاد يوم ٢٠ اكتوبر فقدم تقريرا بضرورة انسحاب الجيش المصري من الشرق بعد ان ترددت الاوضاع في الغــرب ويهدد الاسرائيليون الدلتــا التي يجب حمايتها .

وكان الفريق الشاذلي يبدو منزعجا وفقد ثباته مما دعا الرئيس بعد ان رفض اقتراحه الى تنحيته مــن منصبــه وتكليف الفريق عبد الغنــي الجمسي بتولي مكانه . ولم تذع تلك الاخبار وقتها لان المعركة كانت ما زالت مستمــرة .

وقال الرئيس السادات ان دور الشاذلي في المعركة والعبور معروف واشادت به الصحف الاجنبية ولكنه اخذ موقفا اثناء الثغرة فنقل من مكانه.

نعود بعد ذلك الى حديث الفريق احمد اسماعيل .

ان القاء بعض الاضواء على ذلك الحديث .. يكشف عن ان ما حدث في الحقيقة عند الدفرسوار هو تكرار للقصة المشهورة عــن السبــاق بين « الارنب والسلحفاة » .

لقد اشرنا في بداية هذا الفصل الى ان الانتصارات المتتالية للجيش المصري قد خلقت نوعا من الاستهانة حتى بانزال العدو لقواته في الغرب في بور سعيد مثلا لانه سيكون بذلك قــد غامر مغامــــرة انتحارية ويمكــن القضاء عليــه .

● لذلك نرى انه عندما بدأ « التسلل » الاسرائيلي .. حدث نوع من الاستهانة به وبخطورته .. فحدث تبليغ عنــه الى القائــد العام على انــه ظاهرة تافهة .. مقضي عليها حتماً .. دعهم يتسللــون .. وسندركهــم حتما في اي وقــت ..

ولا بأس ايضا من تركهم بعض الوقت وعدم الاستعجال لانجاز عمليــة القضاء عليهم .. دعنا « نتسلى » بهم ..

بل لا بأس ايضا من ان يزيد عددهم .. فذلك يعني أننا سنقضي على

عدد اكبر من العدو .. والهدف دائما من الحرب تدمير قوة العدو . ولقد كانت هناك اشاعات من حين لاخر في اليومين الاولين لذلــك « التسلل » الاسرائيلي : « كلها ساعات وستحضرون عملية استسلام من تبقى من هؤلاء المتسللين .. » والذين فكروا بهذه الطريقة لم يتصوروا قط ابعاد التسلل واهدافه الحقيقية وانما تصوروها مجرد غارة للكوماندوس الاسرائيلي بهدف تدمير قواعد الصواريخ .. او ما شابه ذلك .

ولكن الذين تصوروا الامر بهذا الشكل فوجئــوا بالسلحفاة تسبــق الارنب .. فوجئوا بأن التسلل قد تضاعف .. وتضخـــم .. واصبــح احتلالا وعندما جاء الهجوم او الهجمات المضادة القوية كان الوقت متأخرا .. .

● وساعد على ذلك ما ذكره القائد العــام من أن تبديــل المسئوليــات (لاسباب طارئة) قد احدث ارتباكا واضطرابــا طبعــا في تلك اللحظــات الحاسمة في المنطقة بين الجيشين الثاني والثالث وهي المنطقة التي احدث الاسرائيليون الثغرة فيها .

● ولا بد هنا من التساؤل .. هل ساهم الاسرائيليــون في تثبيــت هذه الفكرة بعمليات تضليل وخداع ؟ ..

مثلا التقطت اجهزة الاستماع المصرية استغاثات من قائــد « التسلل » الاسرائيلي يقول فيها ان مركزه حرج ويعاني ضربا عنيفا من القوات المصرية ولا يستطيع العودة ادراجه . ونصحته قيادته بالعودة باية طريقة ! ..

وسنرى معلقا مخضرما مثل حاييم هيرتزوج يقول في خبث معلقا على عملية الدفرسوار بعد ان اعلنت عنها جولدا مايير في الكنيست الاسرائيلي: لقد سمعنا البلاغ بشأن عمليات قواتنا في الجانب الاخر من القناة . ولكني في ضوء المعلومات والتقديرات المتوفرة لدي ، لا اريد ان اجعل من هذا البلاغ صوت البشير .

ومعروف ان هناك اهدافا مهمة خلف القناة تهمنــا بصورة خاصة اذ هناك مواقع الصواريخ خاصة القريبة نسبيا من القناة . ولكن قبــل ان نكون اذكياء اكثر من اللازم فانني لا انصح بان نصل الى تفسيرات بعيدة))!!..

ها هو المعلق الاسرائيلي يتثعلب .. ويحاول التقليل من العملية .. ويوحي بانها عمليات كوماندوس لتخريب الصواريخ فقط .. ، كان يوجه هيرتزوج تعليقــه ؟.

لقد تعودنا من العدو الاسرائيلــي التلون كالحربــاء .. والتثعلـــب والتماوت والتمسكن حتى التمكن و ... و... الكثير ..

● لقد قامت هجمات مضادة مصرية عديدة ولكن في راي معلقين عسكريين مختلفين ان تلك الهجمات كانت واحدة وراء الاخرى .. بمعنى انه كان يدفع في المعركة بلواء .. ثم لواء .. وكان ذلك يعطي للعدو فرصة الانفراد ببعضها ويلحق بها خسائر فادحة .

وكان هذا « التقطيع » في ارسال قوات لمواجهة الثغرة مرتبطا بقلة المعلومات وعدم تبين الموقف ومدى القوة الاسرائيلية .

وقد كان ذلك واضحا في الثغرة نفسها عند الشرق اذ لم يدفع الجيشان الثاني والثالث بكل قواتهما لغلق الثغرة ومنع عبور الاسرائيليين.

وربما كان ثمة حرص من القيادة الا تنصوف لمثل تلك المعركة وتعطي الاسرائيليين فرصة الهجوم المضاد الاكبر من الشرق .

ومع ذلك يقول هؤلاء المعلقون انه كان ممكنا تركيز عمليات جيش من الجيشين لغلق الثغرة بينما يستمر الجيش الثاني في مواجهة الاسرائيليين .

● لقد وضح فعلا ان معركة الدبابات لعبت دورا في عرقلة تركيز الجيش المصري في البداية في صد الثغرة ، ولكن معركة الدبابات كانت مهمة لتخفيف الضغط على سوريا .

ولقد اثار بعض المعلقين ايضا انتقادات لاخطاء قالوا ان الجيش المصري .. قد وقع فيها في معركة الثغرة . وقد ناقشت فيها المشير احمد اسماعيل ..

● هل حقا ان احد اسباب نجاح الاسرائيليين في فتح الثغرة هو اننا كنا قد نقلنا كل احتياطي الدبابات من الغرب الى الشرق بحيث اصبحت الضفة الغربية عارية ؟

اجاب المشير

ـ ليس هذا صحيحا فقد كانت الفرقة الرابعة موجودة مثلا .

● قيل ان من اخطائنا في المعركة اننا ثبتنا دبابات لنا في خنادق في الضفة الغربية لتكون بمثابة مدفعية . وان ذلك اعطى العدو الفرصة لتدمير تلك الدبابات وهي مثبتة على الارض ؟

ـ هذا من قبيل الاكاذيب التي حاول البعض بها تشويه الانتصار المصري .. فلم تكن لدينا في اي مكان اية دبابات مثبتة في خنادق كهذه . كان عندنا مدافع مثبتة على شاسيهات لدبابات قديمة .

● هل سقطت في يد العدو اية صواريخ مضادة للطائرات كما زعم الاسرائيليون؟

ـ لم يحدث قط .. ولعلك تابعت فضيحة مندوب احدى الوكالات الاجنبية الذي زعم أن السويس سقطت بينما كانت ترد الاسرائيليين على اعقابهم .

● قالت بعض المصادر الاجنبية ان الجيش المصري ما زال يعاني بيروقراطية تجعل الاتصال بين اطرافه صعبة ، واتخاذ القرار يحتاج الى وقت طويل .

ـ هذا غير صحيح .. فلا بيروقراطية بدليل ان خطة العبور وتفاصيلها اشترك فيها كثير من قادة الجيش والفرق . وكل قائد كانت له حرية الحركة وحرية اتخاذ القرار .

ولم ينقطع الاتصال بين غرفة العمليات وبين أي فرقة في الجيش ، والان فكيف تم الانتصار الكبير الذي تمثل في العبور . واقتحام خط بارليف ان كل واحد في الجيش كان يعرف دوره وموقعه بالضبط .



نهاية الثغرة .. نهاية مغامرة

في عنفوان الحملة الاسرائيلية الاعلامية عن الثغرة خرجت بجريدة الفيجارو الفرنسية المحافظة تقول في ٢٧ اكتوبر ١٩٧٣ : « ان القوات الاسرائيلية فيها ـ اي الثغرة ـ ستغدو رهينة في يد المصريين والجيش والشعب المصري كله !! » .

ولا احد ينكر ان موجة من القلق عمت مصر .. وعمت العالم العربي بعد حدوث الثغرة .. وكانت الثغرة زادا جديدا للمشككين .. ولكن اي معلق عسكري شبه محترم في العالم لم يفقد إدراكه للمصير المتوقع للثغرة ..

أن الثغرة كان يمكن ان تكون ناجحة لو انها حققت هدفها .. من اثارة حرب الفزع والفوضى في الجيش المصري ..

ولكن هذا النوع من الحرب يمكن ان يفلح مع جيش مهزوم ..

ولكن الجيش المصري كان جيشا منتصرا . فلم يفلح معه شيء من هذا .. ولم ينسحب .. ولم يدمر ..

يقول المشير احمد اسماعيل في حديثه معي :

ان اهم شيء في الحرب هو ان تكبد عدوك خسائر جسيمة . ان تحطم قوته العسكرية في نفس الوقت الذي تحتفظ فيه بقواتك سليمة وقد عانت اقل الخسائر .

اننا في حرب ١٩٦٧ لم تكن الهزيمة منعكسة فقط في احتلال الاسرائيليين لسيناء وغيرها من الارض العربية . انما الهزيمة كانت منعكسة في تدمير قواتنا المسلحة ، تشتيت الجيش وتمزيقه وسلب السلاح من الجنود .

فطالما قواتك العسكرية سليمة فعندك الفرصة دائما لضرب عدوك واستعادة ما احتله من الارض .

هذه بديهية عسكرية لكن ذهن الناس عادة ينصرف الى الارض واحتلالها .

والذي حدث في الثغرة ان الجيش المصري قاوم .. وخرج سليما .. وبدأ يستعد للقضاء عليها .. ووضعت خطة شاملة يقول عنها المشير احمد اسماعيل ايضا :

ـ كانت لدينا خطتان للقضاء على الثغرة . خطة محدودة .. ثم خطة اكبر توائم تطور الثغرة واتساعها .

لقد كانت لدينا خمس فرق للانقضاض على الاسرائيليين . وقد راى الامريكيون بواسطة أقمارهم الصناعية التجسسية استعداداتنا .

وكان حتما ان نقضي على الثغرة .. فقد كان الاسرائيليون اشبه « بحرامي في ايدينا » .

واعطيت السيد رئيس الجمهورية « تمام » قائلا ان وضعنا جيد قبل سفره لاسوان لولا ان تدخل الامريكيون وانسحب الاسرائيليون .

وسكت المشير لحظة ثم قال :

ـ لو كان وضع الاسرائيليين مريحا في الثغرة لما انسحبوا منها .. لكنهم ادركوا انها مغامرة منذ البداية .. وانهم مهددون بالفناء ..

★ ★ ★

ولم يعد سرا ان كيسينجر عندما جاء في ديسمبر والتقى بالرئيس السادات اوضح ان امريكا ستعمل على الضغط على اسرائيل للانسحاب من الثغرة وقال ان امريكا ستجد نفسها في موقف حرج اذ ستضطر الى مساعدة اسرائيل اذا ما هاجم المصريون قواتهم في الثغرة ..

وكان ذلك انذارا امريكيا مقنعا .. ولكنه ايضا تلويح بامكانية حل المسالة سلميا .

والاسرائيليون ادركوا حرج مركزهم فيما لو تراجعوا الى خطوط وقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر .. ومن هنا رحبوا بالانسحاب تماما من الغرب .

وللمرء ان يتامل الان كيف صممت القيادة المصرية وناورت بذكاء حتى اجلت جيشا باسره (مئات الدبابات وعشرات الالوف من الجنود) غرب القناة دون حرب .

ولكن في الحقيقة لقد ذاق الاسرائيليون طعم الحرب مع المصريين .. وادركوا معنى تجددها مرة اخرى لارغامهم على الجلاء .

واذا ما قرانا ما كتبته جريدة مثل « دافار » الاسرائيلية في ١٧ اكتوبر ١٩٧٣ لادركنا الهدف الاسرائيلي من تدمير الجيوش العربية اذ تقول :

ان هدف هذه الحرب ليس فقط قذف الجيش المصري والسوري بعيدا وراء خطوط وقف اطلاق النار ، بل تحطيم القوة العسكرية لهذين البلدين . وهذا الهدف لا ينبغي له ان يتوقف عند حد سحق المدرعات المعادية والقوات البرية المتواجدة في الميدان ، بل يقتضي تدميرا متواصلا ومخططا للمنشآت العسكرية في المواقع الخلفية في كل من مصر وسوريا والعراق ، كما يقتضي الاغارة على مختلف المنشآت الصناعية والعسكرية ووسائل النقل واحراق مستودعات الوقود ومصافي البترول ومحطات الطاقة » ..

ويصف مؤلفا كتاب ـ « العرب .. اليوم » عادل رفعت وبهجت النادي وهما كاتبان مصريان يعيشان في فرنسا ويكتبان بالفرنسية كتبا ومقالات باسم « محمود حسين » يصفان استغلال الدعاية الاسرائيلية للثغرة في اوروبا ويقولان :

« .. انه ترميم الاسطورة التي تحطمت يوم ٦ اكتوبر ، وعمل الاختراق على اخراس الشكوك وبعث المسلمات المترنحة ، فالجيش

الاسرائيلي قد استعاد صورته كقوة لا تغلب وهذا ما سيثبته بشكل صارح من ان الجيش الثالث المصري على وشك الاستسلام !.
وخيل للناس على مدى عدة ايام ان المصريين ما عادوا يملكون سوى هذا الجيش الثالث من اجل الصمود ، وانه اذا ما تم تطويقه ، انهـار خط الدفاع المصري كله ، فلا يظل امام القوات المسلحة المصرية وراء القناة الا القاء سلاحها بصورة عفوية بحيث لا يبقى للقاهرة من يذود عنها فتغدو مصر كلها تحت رحمة العـدو .
وعاد الاستخفاف الاسرائيلـي بالعـرب يطفـو على وجه الاحـداث فالمصريون في حقيقة امرهم ما كانوا قادرين يوم ٦ اكتوبر الا على تحقيـق وثبة واحدة .. وما ان عادت المبادرة مرة اخرى الى الاسرائيليين حتى اصبح المصريون مقضيا عليهم لا محالة !! . »



مقارنـة :

ثمة سؤال .. هل هناك براعة اسرائيليـة خارقة في عملية الثغـرة هـذه ؟ ..
العميد ضياء الدين زهدي باكاديمية ناصـر العسكرية يقـول ان اي فريق محارب يمكن بتركيز مكثف من قواته على منطقة معينـة ان يحدث ثغرة .. وهذا ما فعله الاسرائيليون ..
ويقول **المشير احمد اسماعيل** مجيبا على هذا التساؤل ..
الم نستطع نحن فتح خمس ثغرات .. على طول ١٧٠ كيلو متـرا في خطوط العدو الحصينة في الضفة الشرقية بل احتللنا الشريط كله ؟
ان العدو قد استطاع فتح ثغرة واحدة ..
ونحن فتحنا خمس ثغرات ..
والعدو استمر من يوم ١٥ اكتوبـر حتى ٢٢ يحـاول فتح الثغـرة واقامة راس الكوبري ولم يكن عندنا خط بارليف او ما اشبه .
اما نحن فقد فتحنا الثغرة في ست ساعات .. في بعض المواقع رغم تحصيناتـه المروعـة .
احتاج الاسرائيليون الى سبعة ايام لاقامة راس كوبـري اي كانـوا **يتقدمون بواقع كيلومترين فقط في اليوم .**

اذن حتى رغم نجاح الاسرائيليين في فتح الثغرة .. سقطت فيها ايضا اسطورة التفوق الاسرائيلي .

يبقى سؤال اخير قبل ان نختتم هذا الفصل :

ماذا كان يمكن ان يحدث لو لم تحدث الثغرة ؟.

وجهت هذا السؤال الى **المشير احمد اسماعيل** فاجاب :

ـ الثغرة بالونة كما قال لي الجنرال بوفر .. ومع ذلك لو لم تحدث لكان بامكاننا المضي في تطوير الهجوم بدلا من تركيز بعض قواتي على محاصرة الثغرة ومقاومتها مقاومة شرسة من البداية .

وعندما وجهت نفس السؤال الى الرئيس انور السادات اجابني بقوله :

ـ كنت افضل ان يكون السؤال : من الذي صنع الثغرة اصلا ؟.. ان امريكا هي التي صنعتها ، ولو لم تتدخل اسلحتها الجديدة ما استطاعت اسرائيل ان تخطو خطوة واحدة نحو الغرب .

ومع هذا فالثغرة كان محكوما عليها بالتصفية ، وكانت خطة تصفيتها جاهزة .. لولا ان اسرائيل آثرت السلامة وانسحبت منها ..

على انني ساجيب على سؤالك واقول ، انه لو لم تحدث الثغرة لاستفدنا من الوقت في تطوير هجوم قواتنا نحو الشرق ..

● سيادة الرئيس .. ان الفريق الشاذلي قد نقل من منصبه العسكري الى سفير في لندن .. ما هي حقيقه دوره في المعركة ولماذا تم هذا النقل ؟

ـ ان حكاية الفريق الشاذلي قد مطها الكثيرون .. واثاروا عنها كلاما كثيرا كانه من غرائب الامور ان يعفى قائد عسكري من منصبه وينقل الى مكان اخر .. بينما ان هذا امر طبيعي في كل الحروب .

ان الفريق الشاذلي قد ادى دورا كبيرا في التحضير للمعركة والعبور.. وقد اثارت قدرته على تنظيم الجيش ومعداته على الضفة الغربية للقناة حينذاك اعجاب المراسلين الاجانب حتى قال بعضهم ان الشاذلي كان ينظم المرور على معابر القناة بدقة تفضل تنظيم المرور في القاهرة ..

حسنا .. ان الشاذلي .. قد اخطأ بعد ذلك ، كما اخطأ من قبله وسيخطىء من بعده قادة عسكريون اخرون .

● ما هي اخطاؤه على وجه الدقة ؟

ـ اولا مسئوليته عن الثغرة كرئيس لاركان الحرب .. لقد اضاع يوما ـ كان هو اليوم الحاسم ـ في مواجهتها مما ادى الى استفحال امرها .

ثانيا : انه لما راى ان الامر قد استفحل والموقف قد بات خطيرا نتيجة لحجم الثغرة .. عاد الى غرفة العمليات بعد منتصف ليل ١٩ اكتوبر واقترح أن ينسحب الجيش من الشرق لمواجهة خطر الثغرة التي تهدد الجيوش الاسرائيلية منها بالزحف على شرق الدلتا .

ودعيت الى غرفة العمليات حيث اتيت فورا واستمعت الى اقتراح الشاذلي الذي كان باديا عليه الانزعاج وشبه الانهيار . ورفضت الاقتراح على الفور طبعا .

وقد جنبته المسئولية منذ ذلك الحين ولم اشأ ان اعلنها . ونقلنا الشاذلي الى عمل اخر يخدم فيه وطنه .. ما الغرابة في هذا ؟ ..

٢٦

حرب الشوارع في السويس

« كانت الساعة العاشرة صباحا والدبابات تتقدم ونحن من خلفها .. وكانت سيارة رجال المظلات مكشوفة ولكن تحميها في المقدمة والمؤخرة المجنزرات . وكانت القافلة تضم سيارتي اوتوبيس تحملان جنودا .. مررنا في الاحياء السكنية في مدخل المدينة ، ودخلنا الجزء القديم منها . وكله مهدم ومصاب .

وبعد حوالى كيلومتر ونصف بدأ « الاحتفال » بمقدمنا .. اطلقوا علينا النار من جميع البيوت .. ومن جميع الشبابيك والمنافذ .. بالاسلحة الخفيفة .. بالبازوكا .. بالقنابل اليدوية .

ودمرت لنا سيارات وسقط جرحى كثيرون ..

واتضح لنا ان الانطباع بأن مدينة السويس مدينة خالية كان انطباعا خاطئا . فبالاضافة الى السكان الذين يقيمون فيها ، اتجهت الى المدينة فلول الجيش الثالث غربي القناة والتحقت بها ثلاث كتائب كوماندوز مصرية كانت ترابط في المدينة واختبأت بين المنازل ولم تتوقف عن قنص الجنود الاسرائيليين المحاصرين حتى ساعات الليل . وتمدد الجرحى على الارصفة .. ولم يكن بالامكان التقاطهم . وقد جرح بعضهم مرات عديدة حيث كان يصيبهم في كل مرة المزيد من العيارات النارية ! » ..

هكذا وصف جندي اسرائيلي جانبا من معركة السويس لمؤلفي كتاب التقصير الاسرائيليين . وهو شرح يغني عن المزيد من التفاصيل لتصوير

بطولة المدينة ومقاومتها لثلاث هجمات متتالية من الجيش الاسرائيلي في ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ اكتوبـــر ويحكي العقيد فتحي عباس احـــد قـادة المقاومـة داخل المدينة ضد محاولات احتلالها كيف ان القيـادة العامة في القاهـرة اصدرت تعليماتها واضحة بالدفاع عن المدينة ومنـع الاستيلاء عليها بايـة طريقـة ..

وان الدفاع عن المدينة قامت به قوات من الجيش الثالث من الفرقة ١٩ .. واعضاء من منظمة سيناء الابطال والاهالي ايضا ..

ولقد حدث عندما طلب العدو من محافظ المدينة التسليم او ضرب المدينة بالطيران .. ان ابرق المحافظ الى القاهرة يسأل فجاءه الرد الحاسم بالا تسليـم ..

وانطلق الوعاظ ورجـال الجيش فـي الشوارع يحضون الناس على المقاومـة .

وكانت اهمية مدينة السويس ايضا تكمن في انها هي الوسيلة لافشال حصار الاسرائيليين للجيش الثالـث .

اذ كانت متصلة به وبينها وبينه معبر .. وعن طريقها كانت تصلـه مواد غذائية وميـاه .

حدث حريق في الزيتيه مثلا وانقذ الاهالي الفشوال دقيـق ارسلت بعد ذلك للجيش الثالـث .

عندما منع الاسرائيليون مياه الترعة عـن المدينة كانـت لديها آلاف الامتار المكعبة من المياه مختزنة ففضلت تحويل الجانب الاكبر منها للجيش الثالـث .

وكان اهل المدينة يدبرون الخبز والطعام للجنود ولو نصف رغيف في اليوم حتى باعة الحلوى امتنعوا عن بيعها لتصدير ما عندهم لرجال الجيش الثالـث ..

ومعركة السويس هي احدى ملاحم نضال الشعب المصري التي ستظل الاجيال تذكرها .. وربما كانت هي المدينة الوحيدة التي حاربت العـدو المحتل حرب شوارع حقيقية لمدة اربعة ايام بعد حرب مدينة رشيد ايـام حملة فريزر المشهورة :

وليس كشاهد عيان من يستطيع ان يروي لنـا ولو صورا مـن تلك الملحمة . وقد اشترك في تلك المعركة الضابط أحمد اسماعيل صبح وسجل ذكرياته عنها في مجلة روزاليوسف عدد ٧ اكتوبر ١٩٧٤ . فماذا يقول :

● ٢٣ اكتوبر .. في المسجد :

منذالايام الاولى من بداية القتال ، كان عملي يقتضي التنقل بين مواقع قواتنا في الشرق وفي الغرب ، وذات يوم انتقلت الى المستشفى ومعي عدد من الجنود الجرحى لاسعافهم وهناك قابلت رجلا ملتحيا يرتدي بدلة كاملة وطربوشا ، وجدته واقفا عند مدخل المستشفى وبجواره سلة كبيرة بها علب من الحلوى ، ابتسم الرجل ، وتعارفنا ، انه الشيخ حافظ سلامة امام مسجد الشهداء .. وبعد قليل تم نقل بعض المصابين من داخل المستشفى لتحويلهم الى القاهرة .. عندئذ تقدم الرجل ومعه بعض علب الحلوى يقدمها الى الجرحى يدا بيد وهو يسرى عنهم ، ويتلو لهم بعض آيات من القرآن الكريم .. وواصلنا حديثنا فعرفت ان عنده ما يقرب من مائة الف كعكة يريد ارسالها الى قواتنا في الشرق واتفقنا على كيفية ارسال هذه الهدية .

يوم ٢٣ اكتوبر ١٩٧٣ وصلت الى المسجد لنقل الاسلحة . وقابلت الرجل فوجدته‌حزينا ولكنه كان مطمئنا، تحدث عن الايمان بالله‌والصبر عند الشدائد ، ثم صلينا المغرب ودعانا الشيخ لتناول طعام الافطار .

كان بالمسجد مجموعة من الاهالي والمقاتلين ، جلسنا نتدبر الامر ، ماذا سنفعل في ليلنا ، وصباحنا ، كان الموقف غامضا ، لا نعلم ما يخبئه الغد لنا من احداث ، العدو خارج المدينة يقصفها بمدفعية دباباته ، وجنودنا منتشرون في كل مكان على مشارفها وداخلها . ولم تغمض جفوننا هذه الليلة .

بعد صلاة الفجر ، برز من بين المصلين مسئول كبير بالمدينة ، شرح الموقف العام وافاد بان العدو يحاول اقتحام السويس وان قواتنا المسلحة تحتشد الان لضرب محاولة العدو ، وعلينا جميعا ان نطمئن ، وان نستعد لمواجهة مسئوليتنا التاريخية .

● ٢٤ اكتوبر .. ماذا نفعل ؟

في الساعة السابعة صباح يوم ٢٤ اكتوبر نشط الطيران الاسرائيلي في غارات مكثفة تلقي حمولاتها زنة الالف رطل في اماكن متفرقة داخل المدينة لاخلاء الطريق امام الاقتحام المنتظر .

وبعد ما يقرب من ساعة وردت بالمسجد مكالمة تليفونية من احد المهندسين المدنيين بمبنى معمل البترول في الزيتيات ، والمتكلم يحذر من

بالمدينة من ان العدو سيقتحم السويس اليوم بالدبابات . وانه يقتل العسكريين ويأسر المدنيين . كما فعل بمنطقة الزيتيات .

وهناك في ركن من الغرفة كان يجلس رجل طويل القامة ترتسم على وجهه علامات ادراكه للمسئولية الضخمة التي يحملها ، في عينيه بريق عجيب ، واحيانا كنت اظنه تائها ، ولكنه كان اكثرنا تيقظا وانتباها ــ كما سيتضح فيما بعد ــ رفض الرجل أن يخلع رتبته العسكرية او يختبىء .

ماذا نفعل ؟

العدو داخل دباباته الضخمة وعرباته المدرعة في طريقه الان الى المدينة ، والجنود هنا معهم اسلحتهم الصغيرة بالاضافة الى بعض قنابل لاقتناص الدبابات .. انها من غير شك لا تكفي لمقاومة قوة العدو الهائلة .

وتساءلنا .. هل يمكن على ضوء ما لدينا من معلومات ، الدفاع عن المدينة بهذه الكيفية .. اننا نملك رغبة اكيدة لمنع العدو من التقدم .

وكيف نواجه تطور الموقف واحتمالاته المتوقعة وغير المتوقعة ؟

ثم تجمع كل الشباب القادر على استخدام السلاح ، واخذ كل رجل سلاحا مما احضرناه من المستشفى بالامس وتحول المسجد الى مركز للمقاومة الشعبية ، وتشكلت جماعات المقاومة ، وتم توزيعها سريعا على اماكن متفرقة من المدينة وعند مشارفها .. فقد اتخذنا القرار بالمقاومة مهما كانت القوتان غير متكافئتين .

تسربت دبابات العدو في الساعة الثامنة صباحا في رعونة ومجازفة حمقاء .. اعتقد القائد الاسرائيلي انه لن يجد امامه مقاومة في المدينة ، ذلك لان استطلاعاته .. وحساباته قد قدرت الموقف على المستوى المادي ، وحسبت التكافؤ من ناحية الاسلحة .

حاولت دبابات العدو اقتحام المدينة من ثلاث طرق رئيسية :

(أ) طريق الجناين شمال مدينة السويس ، وهذا الطريق يؤدي الى منطقة حوض الدرس على الضفة الغربية للقناة مباشرة ، وهناك يوجد احد معابرنا الموصلة الى الضفة الشرقية للقناة .

(ب) الطريق الرئيسي (مصر ــ السويس) : وامتداده يوصل الى قلب المدينة ، ومنه الى مدخل بور توفيق . ومنه ايضا تتفرع الاحياء الرئيسية للمدينة . وفي وسط الطريق شريط السكك الحديدية .

(ج) طريق الزيتيات : ويمتد من منطقة الزيتيات حيث توجد شركات البترول والمعمل والنوادي والاستاد ، ويوصل هذا الطريق الى قصر

الثقافة ومبنى المحافظة . وهو ممتد على كورنيش خليج السويس ويستمر الى الشارع المؤدي الى بور توفيق .

وعلى ضوء ما سبق فقد اندمجت جميع الفئات من الضباط والجنود والمواطنين من اهالي مدينة السويس ، واصبحت الجماعات على النحو التالي :

(أ) جماعات احتلت مشارف المدينة داخل المساكن والحوانيت .

(ب) جماعات احتلت مداخل الشوارع الرئيسية داخل المساكن والمساجد .

(ج) جماعات احتلت مداخل الشوارع الجانبية داخل المساكن .

(د) جماعات داخل مبنى المحافظة .

(هـ) جماعات اقتناص الدبابات منتشرة حول المدينة وعند مدخل بور توفيق .

ومما هو جدير بالذكر ان هذا التنظيم جاء في اغلب الاماكن تلقائيا بدون تخطيط مسبق .

اما بعض الوحدات شبه المتكاملة ، وهي قليلة بالنسبة للفئات السابقة . فقد قام قادتها من الضباط باجراءات تنظيمية سريعة تهدف الى انتشار العربات في اماكن متفرقة على مشارف المدينة وداخلها .

واصبح العامل المشترك الذي ينظم جميع الفئات العسكرية والمواطنين يعتمد على عنصرين رئيسيين ، الاول ان الجميع مصريون ، والثاني ان العسكريين ينتمون الى اسرة القوات المسلحة الكبيرة .

وفي الساعة الثامنة من صباح يوم الرابع والعشرين من اكتوبر اقتحمت مجموعة من الدبابات والعربات المدرعة مشارف المدينة من الطرق الثلاثة السابق ذكرها في نفس الوقت تقريبا ، فتصدت لها نيران الاسلحة الصغيرة بغزارة في كل مكان ، وعاودت مرة ثانية الدخول بقصف غزير من جميع اسلحة الدبابات ، وقد تمكن الجنود من ضرب عجلات العربات المدرعة في منطقة الزراير فعطلتها وسدت الطريق ، وآثرت بقية الدبابات في هذه المنطقة السلامة وتقهقرت الى الخلف .

● **بيان اسرائيلي :**

وفي الساعة التاسعة من صباح نفس اليوم دفع العدو بمجموعة من الدبابات والعربات المجنزرة في مشارف الطريق الرئيسي لمدينة السويس بقصد احتلال المدينة ، وفي نفس الوقت دفع بمجموعة اخرى من الدبابات

عن طريــق الزيتيــات ، واخذت الدبابــات تهطــل المدينة بنيران مدفعيتها ورشاشات النصف بوصة بكثافة شديدة ، فتهشمت البيوت وشبت الحرائق.

كان المشهد العام لاقتحام الدبابات الضخمة لمشارف المدينة ، امــرا ينبىء بسقوط مدينة السويس في أقل من ساعتين ، ذلك لان السلاح لــم يكن متكافئا ، وجنودنا لا تحميهم مدرعات ، كما ان كمية الاسلحة وقنابــل اقتناص الدبابات لم تكــن بالقدر الكافي لمواجهة هذه الاعداد الضخمــة من الدبابات والمدرعات .

ولكن الذي حدث وقتها جاوز القدرات العسكرية جميعا ، وكــان امتحانا حقيقيا للانسان المصري عندما يواجه المحنة الكبرى .

وهذه هي الوقائع التاريخية لاحداث يوم ٢٤ اكتوبر :

(أ) مجموعة الدبابات التي تسربــت عن الطريق الايسر (الزرايــر) واجهتها جماعات من الجنود واحد قناصة الدبابــات ، واصابت نــيران البنادق الصغيرة احدى العربات المدرعة فسدت الطريق امام الدبابــات فتقهقرت الى الوراء .

(ب) ومن الطريق الرئيسي على مشارف المدينـــة ، ومن الطريــق الجانبي ايضا تسللت مجموعتان من الدبابات والعربات المدرعة وعربــات الامداد بالذخيرة .

دبابتان من طراز سنتريون وباتون ضخمتان مــن احدث ما انتجــت امريكا . قادمتان بهالة ضخمة من القصف الشديد بجميع انواع اسلحتها دفعــة واحدة .

امام احد اقسام الشرطة المدنية عند مشارف المدينة .. وكان بداخل القسم جماعة من الضباط والجنود والمواطنين .. اعتقد قائد الدبابة الاولى بغرور وصلف ان اللقمة « سائغة » ، وان المكان مناسب لاحتــلال قسم الشرطة واتخاذه مقرا للقيادة العسكرية في المدينة ، وتحت ستار القصف الشديد ، دخل الضابط الاسرائيلي المبنى ومعه عدد من الجنود ، كل جندي يلصق ظهره في ظهر زميله وبأيديهم الرشاشات يطلقون منها النيران فــي صدور افراد المقاومة .. سقط شهداء كثيرون فــي هذه اللحظات وهــم يقاومون المعتدين ويحاولون منعهم من دخول المبنى . وعندما تمكنوا مــن اقتحام القسم من الداخل هددوا من بداخلــه بالرصاص وبـــدا الضابط الاسرائيلي يلقي تعليماته بلهجة فلسطينية ركيكة ، بان قيادة جيش الدفاع الاسرائيلي في هذه المنطقة قد تمكنت من السيطرة الكاملة على غرب القناة ،

وان وحدات اسرائيلية اخرى في طريقها الان الى القاهرة .. وقد سقطت مدينة السويس والاسماعيلية !

هناك في مكان من داخل قسم الشرطة ، جندي يوصف بانه شارد ، ولكنه لم يكن كذلك ، ولهذا الجندي المجهول قصة ينبغي تسجيلها .

يجوب الطرقات منذ امس ، يحمل سلاحه الصغير ، بندقية آلية ، يبحث لنفسه عن كمين يتمكن منه من توجيه نيران سلاحه صوب العدو ، لم يذق الطعام او الشراب منذ اكثر من يومين ، لم يغمض له جفن منذ ايام ، وجد غايته منذ الصباح ، صعد الجندي المجهول الى مبنى قسم الشرطة ، وتسلل فوق السطح ، يشاهد الطريق ، ويصوب بندقيته على الدبابات التي بدات تتسرب ، ولكن الطلقات لا تصيب احدا من الاعداء .

يطل براسه من مكانه فيشاهد الدبابتين تتربصان وتربضان امام باب القسم ينتقل بسرعة الى صحن المبنى فيرى مشهدا لم يصادف مثله من قبل ، ولكنه ادركه على الفور ، وعرف دلالته ومعناه .. رأى الضابط الاسرائيلي يلقي بيانا ركيكا كاذب المحتوى .. الجنود المعتدون داخل المبنى ملتصقي الظهور زائغي الابصار .

وما ان انتهى الضابط من بيانه حتى كان صاحبنا الجندي المجهول قد تمكن من تصويب بندقيته عليه وضغط على الزناد ، وسقط الضابط الاسرائيلي المعتدي قتيلا .. وفي نفس اللحظة صوب واحد من جنود العدو مدفعه الرشاش تجاه مصدر الطلقة فخرجت دفعة كاملة من الرصاصات تكفي لقتل عشرات الافراد .

وسقط الجندي المصري المجهول شهيدا .

● المقاومة من قسم الشرطة الى باب السويس :

ما ان راوا جثة قائدهم ملقاة فوق الارض ، حتى هرعوا الى الخارج مذعورين خائفين ، تركوا القائد القتيل ولاذوا بالفرار دون وعي او تفكير .

وما ان وصلوا الى خارج المبنى ، حتى تلقفتهم طلقات الاسلحة الصغيرة في ايدي الجنود وافراد المقاومة المنتشرين في كل مكان .. فقد كانوا منذ الصباح يوجهون نيران اسلحتهم المتواضعة صوب العدو .. وكنا نقول لهم لا تفرطوا في الذخيرة حتى لا تنفد ، كنا نتهمهم بعدم الحكمة في استخدام الذخيرة .. واتضح بعد ذلك انهم كانوا على حق ، وكان الناصحون مخطئين .

فقد تبين ان هذه الطلقات المستمرة من اسلحتهم الصغيرة .. كان

لها اثر عظيم ورد فعل قوي في الحالـة النفسـية والمعنويـة لقوات العدو الاسرائيلي المقتحم لديارنا .

تملك المعتدون الفزع والهلع عندما واجهوا هذه الطلقـات من كـل مكان ، ولم يتمكنوا من السيطرة على ما بأيديهم من اسلحة فتاكه تفوق ما بأيدي رجالنا الابطال .

ثم تساقطوا واحدا بعد الاخر امام باب القسم .

وظن العدو انه وقع في كمين خطير .

وفي نفس اللحظة التي سقطت فيها الدفعة الاولى من المعتدين .. وعندما شاهد من بداخل الدبابة الثانية الرابضة امـام القسم زملاءهـم ملقون فوق الارض ، قرر قائدها ان يلوذ بالفرار ، تحـرك بدبابته ليدور بها في اتجاه العودة ، ولكنه كان مذعـورا خائفا فلـم يتمكن من القيـادة السليمة واندفع بدبابته فوق الرصيف فاصطدم بالبناء الحديدي الضخم بعامود النور فكسره ، وسقط العامود الاجوف فوق الدبابة واحدث ارتطامه بها صوتا ، وفي نفس اللحظة تلامست اسلاك الكهرباء بعامود النور بجسم الدبابة فاحدث بها ماسا كهربائيا . وفجأة فتح افراد طاقم الدبابـة البرج وهرعوا الى الخارج للنجاة بانفسـهم من الحريق ، استجاروا من هـلاك المدرعة .. وما لبثوا ان واجهتهم الاسلحة الصغيرة بوابل مـن الرصاص فسقطوا فوق الارض بجانب زملائهم ما بين قتيل وجريح .

اللاحقون من طاقم الدبابة الثانيـة بجوار السابقـين من الدفعـة الاولـى .

الله اكبر .. الله اكبـر .

الجماهير في الشوارع .. الافرول العسكري . القميص والبنطلون . البيجامه ، الجلباب والطاقيـة ، العمامـة واللاسة والطربوش ، رجـال ونسـاء واطفال .. خرجوا جميعا عند مكان المعركة .. تحركهم ارادة قوية لمنع المعتدين من اقتحام المدينة .. انها ارادة الرفض .

وجاء التحول الكبير في دقائق .

فكيف حدث ذلك ؟

في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ امتنا المجيد .. اقول صراحـة انه لم يكن هناك متسـع من الوقت لاجراء تنظيـم دقيق وشامل لاعمـال المقاومة الشعبية ، ولم توضع خطط استراتيجية لحرب التحرير الشعبية بما فيها من تكتيكات او معدات ، ولم يحدث تدبير مسبق لهذه الاعمال ،

ولم يتول قيادة التنظيم الشعبي في المدينة قادة او مخططون لسير العملية ومتابعتها . ولم ينبثق من بين الجماهير زعيم له سطوة ونفوذ في نفوس المواطنين اصدر امرا وسارت وراءه الجماهير .. لم يحدث شيء من هذا، وانما حدث ان كل جندي اصبح مخططا ومنفذا وكل مواطن اصبح زعيما وقائدا ، وكل رجل دين اصبح موجها ومرشدا .

اما بقية طابور دبابات العدو ومصفحاته وعرباته ، فقد حدث لمن بداخل الدبابة الثالثة مثلما حدث لسابقيها ، واحدة تلو الاخرى حتى اخر الطابور ، قفزوا جميعا من داخل دباباتهم وعرباتهم خائفين من قنابل قنص الدبابات ، فتلقفتهم ثورة الجماهير ، ووقعوا في الغضب العظيم ، وسقطوا صرعى الاسلحة الصغيرة .

والذين مكثوا في دباباتهم قليلا عجلت بحياتهم هجمات قنابل القنص ، وتقدم بعض الاطفال لم تتجاوز اعمارهم الثانية عشرة بصدورهم نحو بعض الدبابات والقوا بداخلها خرقا مشتعلة بالكيروسين واستشهد منهم غلام بعد ان دمر دبابة ضخمة واشعل بمن في داخلها النيران .

خيم الظلام على المدينة ، ونام الناس بعد طول عناء ، بعد ان ادوا امانتهم نحو مدينتهم بل نحو مصر كلها ، وظل العدو خائفا مذعورا خارج المدينة ، ليس للامان عنده مكان .

ولكي يامنوا شر المخبوء .. اضاءوا المدينة بالمشاعل الكاشفة ليلا ، وقبل ان ينتهي مفعول المشعل يطلقون غيره ، وباتت المدينة كلها مضيئة .

ولكي يصبح الموقف واضحا للقارىء ، يحسن بنا ان نستكمل الرؤية، وتوجه عدسات التصوير الى منطقة الزيتيات حيث كان العدو يظن انه يسيطر على المنطقة ، وحيث عادت اليهم بعض دباباتهم مساء ٢٤ اكتوبر تجر اذيال الخيبة . وقد جمعت المعلومات الواردة في الصفحات التالية من بعض المهندسين والعمال الذين شاهدوا الوجود الاسرائيلي في هذه المنطقة.

بضع مئات من الاهالي المدنيين والعاملين بشركات البترول ومبنى المعمل يقعون تحت تهديد دبابات العدو ونيرانه داخل المباني . قال لي المهندس سعد الهاكع بعد ذلك ، وقد كان في هذه المنطقة ان تصرفات العدو منذ كان بالزيتيات اتسمت بالخوف والذعر ، واشتدت علامات خوفه يوم الرابع والعشرين من اكتوبر ، كان العدو يبدي في اول الامر ثقة مزيفة بقدرته على احتلال المدينة ، فاستخف بالاهالي يوم ٢٣ اكتوبر واذاع عليهم بيانات مضللة عن سيطرة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي على منطقة غرب القناة ، وان عملية احتلال مدينة السويس امر مفروغ منه .

وفجاة تغير اسلوبهم مساء يوم ٢٤ اكتوبر وحاولوا استمالة المدنيين. فقالوا انهم لا يريدون الحرب وانهم يبغــون السلام ، وان جولدا مائــير والرئيس المصري يزجون بشعوبهم في نيران الحرب . الخ .

وعندما لم يستجب لهم المواطنون واظهروا لهم احتقارا وسلبيــة ، عادوا ثانية الى اسلوب التهديد .. وفي تأرجحهم بين الاستمالة والتهديد انكشفت حالتهم النفسية الفعلية ، فضحوا انفسهم ولم يتمكنوا من تخبئة او مداراة خوفهم ، ولاحظ العاملون انه اذا تحرك احدهم حركة عاديــة انتاب افرادهم الاضطراب والخوف المفاجيء ، كانوا يخشون حركة المواطنين العزل من السلاح بينمــا هم يصوبــون فوهات رشاشاتهــم في صدور الاهالي .. تظهر على الحارس علامات الاضطراب ثم يامر المصري بعــدم التحرك ، وقد عرف العاملون بذكائهم المصري الفطري ان شيئا قد حدث لجنود العدو في مدينة السويس ، وان الموقف اصبح ليس في صالحهم تماما ، فاخذ بعضهم يقوم بحركات مقصودة مثل السعال او وضع اليــد فوق الفم عند التثاؤب .. فيهتز الحراس يمينا ويسارا ، وقد اثار هــذا الموقف الصعب سخرية الرجال فاخذوا يسرون عن انفسهم في هذا الموقف الصعب بالمبالغة في الحركات والالتفاتات ويسلون انفسهم بمشاهدة الحراس المضطربــين .

واستدعى القائد الاسرائيلي في منطقة الزيتيات المهندس المسئــول عن جماعة الموظفين والعمال ، واخبره ان المياه لا تصل الى الصنابير ، وطلب منه الكشف عن المحابس وفتحها ، وقد ادرك المهندس ان الفرصة متاحة للكشف عن موقف العدو وتخويفه ، فاخبره ان صهاريج المياه فوق سطح المبنى وانه (اي الضابط الاسرائيلي) يمكنه الصعود وفتــح المحابس . ومرة اخرى كشف العدو عن موقفه اذ رفض ذلك وطلب من المهندس ان يصعد وحده الى السطح لفتح محابس المــاء .

ونفذ المهندس الذكي الاوامر ، ولكنه بدلا من ان يفتح محابس الميــاه التي تجعل الماء يتدفق الى المبنى والمباني المجــاورة احكم اغلاقها ، وقــام بفتح المحابس التي تجعل مخزون الميــاه في الصهاريــج يتدفــق عائدا الى خزانات المياه الموجودة لمدينة السويس . وكان لهذا التصرف العبقري بالغ الاثر بعد ذلك على حياة الناس في المدينة كما سياتي ذكره بعد .

وعاد الرجل الى مكان الضابط يبلغه ان العملية معقدة ، وانه لــم يتمكن من عمل شيء ، وانه (اي الضابط) يمكنه ان يصعــد بنفسه الى السطح لمعالجة المحابس ، ولكن العدو الخائف آثر السلامة على العطش .

● ١٠ دقائق و ١٠ رجال :

جاء آخر ايام رمضان ، الموافق ٢٥ من اكتوبر .. ومنذ الصباح الباكر وقذائف الدبابات لم ينقطع سقوطها فوق المدينة ، الحرائق تشتعل في المنازل .. والناس في الشوارع يعملون مثل خلية النحل .. منذ ليلة امس ادرك المواطنون والجنود ان لا فرق بين الافرول وبين الجلباب .. عمل مشترك وعدو واحد ، كل فرد يعلم دوره جيداً .. الجنود يندفعون الى مداخل الطرق والى الاماكن التي يحتمل ان يتسرب منها العدو مرة ثانية.. القنابل اليدوية توزع على الناس .. قنابل المولوتوف تصنع في البيوت ومحلات الجزارة والبقالة .. آخرون ينقلون المواد التموينية من مخازنها المحترقة الى اماكن اخرى .

المزارعون في منطقة الجناين حيث يوجد العدو منذ يومين .. لا يهابون الموت ولا يخشون باس العدو واسلحته الفتاكة ، تجاهلوا افراده تماما واخذوا على عواتقهم المسئولية المناسبة .. هم يعلمون ان الجنود المصريين داخل المدينة يتعرضون لدباباتهم وهجماتهم القاتلة .. الكرم المصري في دمائهم والذكاء الفطري من سماتهم .. ما عليهم الا ان ينقلوا الاقفاص المملوءة بفاكهة الموسم .. البلح السويسي الشهير بانواعه المتعددة ومذاقه الحلو .. والبرتقال الاخضر .. وفوق الحمير توضع اقفاص الفاكهة والخضر وما تصنعه وتحتفظ به الزوجات والامهات في البيوت الريفية من خبز وجبن وزبد وعسل ، يمتطي الفلاح حماره يتحرك به بين دبابات العدو كأن الامر لا يعنيه والعدو داخل حصنه المنيع يشاهد هذه التحركات في مواقعها الزراعية فلا يستطيع ان يصنع شيئا .. فلا هو قادر على ترك دبابته ومنع هذه التحركات خشية من التعرض للمخاطر المخبوءة .. ولا هو عنده القدرة على التصرف العسكري بتصويب مدفعية الدبابات عليها .

طلب الاسرائيليون من المحافظ الاستسلام

رفع الرجل سماعة التليفون ، وادار القرص وقال كلمتين بارادة حسنة : اخترنا المقاومة .

ونظر الينا قائلا : (انتشروا في البيوت المجاورة .. لا تتكدسوا هكذا في مكان واحد) .. من الواضح تماما اننا اخترنا الموت .. فالطيران الاسرائيلي لا يعرف المزح ، علينا ان نواجه مصيرنا بشجاعة .

ثم بدأ تنفيذ تهديد الامس .. الساعة تقرب من السابعة صباحا . اسراب الطائرات المعادية تقصف مدينة السويس بالقنابل .. الطيران يقوم بما لم تستطع ان تقوم به الدبابات اول امس .. دوي الطائرات شديد وقريب والقنابل تدك المدينة دكا .. وكلما مرقت طائرة سمعنا اصواتا هائلة تهز الارض من تحت اقدامنا .. وبلغ من شدة الصوت وعنفه وقربه ان آذاننا كادت تصم مع سماع صفير وشعور برعشة بدنية قريبة الاحساس بالماس الكهربائي .

استمر قصف الطيران حتى قرب الظهر .. والقيت فوق مدينة السويس مئات الاطنان من القنابل بانواعها المختلفة .. ودكت احياء باكملها واشتعلت النيران في المدينة .

تهدمت المساكن المجاورة للمسجد .. والقيت قنابل الالف رطل في الشوارع ففجرت المياه من باطن الارض .. وهناك على امتداد الشارع تهدم مسكن اسرة وكانوا جميعا في الدور الاسفل من المنزل فلم يصبهم اذى .. يا لهم من ابطال .. النساء والاطفال يجابهون قصف طيران العدو في اول العيد .. واثناء قصف المدينة بالطيران رايت الناس في المدينة يتحركون ويعملون ويساعدون .

● **نفذ العدو وعده :**

توقفت غارات الطائرات حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر .

ومثلما فعلنا في اليومين السابقين بعد معارك الدبابات وسط شوارع المدينة ، خرجنا اليوم ايضا للبحث تحت الانقاض عن المصابين والشهداء وجمعنا عددا لا يزيد عن العشرة . ما زالت الحرائق مشتعلة في البيوت منذ يومين وقد اضيفت نيران اخرى اكثر عددا واشتعالا اليوم .. وفي الطريق شاهدنا القنابل الزمنية تتفجر واخرى اسطوانية لم تنفجر بعد .. وغيرها كروية الشكل فارغة من حمولتها ، وقنابل البلى .. واشكالا غريبة من مستحدثات التكنولوجيا الامريكية .. وفوق الفوارغ ارقام انجليزية وعلامات أمريكية توضح تاريخ الانتاج في اواسط عام ١٩٧٣ ، متى انتجت ومتى شحنت ؟ لا بد ان امريكا قد امدت اسرائيل بهذه الشحنات فور انتاجها .. وربما شحنت من أمريكا داخل الطائرات فوق حاملاتها، ومنها لتسقط فوق مدينة السويس.. الشوارع مملوءة بالفجوات التي احدثتها القنابل الثقيلة ، والارض مغطاة بشظايا القنابل باحجام واشكال مختلفة .. وان شظية واحدة مهما كانت صغيرة قد تودي بحياة

الانسان في لحظة واحدة ، وقد تحدث به عاهة مستديمه .. وقد تخترق مجموعة من اجهزة الجسم وتشل وظائفها .. آثار الدمار في كل مكان .. لا يوجد بيت واحد لم تصبه قذائف الدبابات او الطيران .. كل بيت وكل مسكن بل كل حائط اخذ نصيبا من القذائف .

وهناك عند مدخل المدينة ، في حي العوايد قنبلة زنة الالف رطل جوار شريط السكة الحديد . وحفرت فجوة ضخمة امتلأت بمياه معدنية جوفية ملونة .. ونتج عنها تمزيق شريط السكة الحديد وانثناء الشريط الاخر وارتفاعه الى اعلى حتى استقر طرفه الاخر داخل غرفة بالدور الثالث لاحد البيوت المجاورة .

لقد نفذ العدو وعده بالامس متاخرا عن موعده ما يقرب من عشرين ساعة .. وماذا حدث ؟ مزيد من المساكن قد هدمت .. واشتعلت الحرائق واستشهد عشرة مواطنين شرفاء .. ولم يحقق العدو هدفه ، لم يتمكن من احتلال المدينة ولم ينل من الروح المعنوية للرجال .

وفي صباح يوم ١٠/٢٧ ، قمنا بتوزيع معلبات الطعام على المواطنين والعسكريين وتجمع الناس في طوابير .. وتم صرف ثلاثة معلبات لكل فرد مع تعليمات باستهلاكها في مدى عشرة ايام .

واستدعانا القائد العسكري حيث اطلعنا على تقسيم مدينة السويس الى قطاعات .. وتسلمنا المهمة الموكولة الينا .. وكانت تتركز في القيام بمهام اعادة تنظيم المقاتلين بالمدينة : ايواؤهم ، وبحث احتياجاتهم الضرورية ، الموقف الراهن يقتضي القيام بواجبات مناسبة حسب الضرورات اللازمة للقوات .

قمنا بالبحث عن مكان لنتولى فيه تنفيذ المهام الجديدة ، الناس يسيرون في الطرقات غير عابئين بالمخاطر المحيطة بهم .. منهم من يبحث عن مكان للاقامة ومن يحمل طعاما .. رأيت بعض المحلات التجارية المحطمة يحاول اصحابها اصلاحها واعادتها كما كانت .. دبت الحياة بسرعة في المدينة بشكل مثير للدهشة حقا .. لم اجد احدا لا يعمل .. افراد الكمائن يخرجون من مواقعهم بعد استبدال الافراد ويبحثون عن الطعام ...

٢٧

جيش محاصر .. وغير محاصر

يسمي اللواء يوسف عفيفي معركة الجيش الثالث مع الحصار الاسرائيلي بانها معركة المائة يوم .. وتبدأ من ١٧ اكتوبر ٧٣ حتى ٢٥ يناير ١٩٧٤ .

فالواقع ان القتال لم يتوقف قط الا في ١٨ يناير ٧٤ رغم قرارات وقف القتال العديدة ورغم اتفاقية النقاط الست في ١١ نوفمبر ١٩٧٣ ..

وقد نجحت قوات الجيش الثالث في الاستيلاء على مواقع جديدة عيون موسى وشرقي ممر متلا .

منذ ٣٢ اكتوبر عندما تمكن العدو من قطع الامدادات عن الجيش الثالث شرق القناة تذكرت صمود الفالوجا منذ ٢٥ عاما عندما كنت ملازما بالكتيبة الثانية مشاة .

واخذت احكي بطولات الصمود في الفالوجا للضباط والجنود .. وكان ذلك يشدهم ويشجعهم .

ووضع قائد الفرقة ١٩ خطة شاملة لمواجهة الحصار وهي تشمل :

التعيينات والذخيرة والمعدات والوقود والشحومات والمهمات والملبوسات والمركبات والنواحي الفنية والعناية الطبية الصحية والتدريب القتالي والتجهيز الهندسي والوقاية .. والشئون المعنوية قبل هذا كله

ولم يكن لدى الفرقة احتياطي في الطعام والمياه سوى ما يكفي ستة ايام .. فكانت الخطة تقضي اولا تدبير احتياطي يكفي لمدة شهر على الاقل.

وبدات الفرقة توزع علبة الطعام المحفوظ على خمسة جنود (في الاصل هي تكفي لواحد) . وارتفعت شعارات مثل « المشاركة بركة » !
وبدءوا يستخدمون القش وما يمكن جمعه من الصحراء بدلا من الوقود للخبز والطهي . حتى الطعام ذو المادة السكرية اكثر زادا منه لتعويض الجسم بالطاقة الحرارية .. فاصبح الجنود ياكلون سد الحنك ولقمة القاضي .
وقائد الفرقة وضباطه يضربون الامثال .. فيصومون .. وياكلون ما ياكله الجندي العادي ..
اما الجنود المكلفون بصيد الدبابات فكانت تصرف لهم تعيينات كاملة حتى يستطيعوا القيام بمهمتهم الصعبة .
وخفضت المياه من ٥ لتر للفرد في اليوم الى ٨٠٠ جرام فقط (اللتر الف جرام) .
وعمل المهندسون على تجميع مياه السيول والامطار وتخزينها وجمعوا ٣٥٠ مترامكعبا في بركة ، واستطاعوا حفر اربعة آبار جديدة .
وخلال هذا كله بدات عملية تحصين للمواقع وتدريب على القتال باقل ذخيرة .. بل عمد القائد الى جعل التدريب عمليا فاخذ يناوش قوات العدو ويتقدم الى مواقع جديدة ، وكان يضرب بذلك عصفورين بحجر واحد .. رفع معنوية الرجال وارهاب العدو الذي كان يعجب لاصرار جيش محاصر على القتال . بل ان عملية ارهاب العدو وخداعه كانت تصل الى مستوى تخصيص سيارات تتحرك ذهابا وايابا امامه ليرى كيف ان الوقود متوفر !
ويمكن اليوم ان نذيع سرا لاول مرة ان المياه كانت تصل للجيش الثالث من بور سودان !.

★ ★ ★

ويقول اللواء احمد بدوي ان الجيش الثالث تعرض للقصف الشديد من جانب الطيران الاسرائيلي حيث لم تكن هناك اية حماية من الصواريخ .
كما ان الطيارات الاسرائيلية دمرت مستودعات الوقود التي انشئت في الضفة الشرقية .. ولم يستطع رجال الجيش الثالث الا انقاذ القليل منها.
واستطاع الجيش الثالث انقاذ الذخيرة من الضرب بتشوين صناديق ذخيرة خالية في حفر اخرى استهلكت جزءا كبيرا من ضرب الطيران ولم تصب الذخائر بخسارة ما .
ونجح الجيش الثالث في الاحتفاظ بروحه الهجومية فكان يدفع

بدوريات الى اعماق للعدو بل وقام القناصة بدور خطير في اصطياد قوات العـــدو .

ويمكن القول ان قوات الجيش الثالث قد اصابت العدو بخسائر اكثر مما اصيبت هي به خلال فترة الحصار .

وعندما حاصر العدو **المنطقة القوية في كبريت** في الاسبوع الاول من نوفمبر كان جيش احمد بدوي يمدها بالمئونة والعتاد عن طريق البحيرة المرة الصغرى بواسطة المعديات واللنشات ولهذا صمدت كبريت ١٣٤ يوما ولم تسلم الى ان وصلت اليها القوات المصرية بعد تنفيذ اتفاقية وقف اطلاق النـــار .

ويمكن المقارنة بين صمود كبريت واستسلام النقطة القوية في لسان بور توفيق التي لم تتحمل الحصار سبعة ايام .



وقد اسقط العدو منشورات على رجال الجيش الثالث موقعة مـن الجنرال جونين وفيها عبارات كهذه :

يا رجال الفرقتين السابعة والتاسعة عشر .

لقد اديتم واجبكم وحاربتم ببسالة .. ولكن الموت يتهددكم والجوع يتربص بكم بعد انقطاع خطوط مواصلاتكم فانفصلتم عن الغرب . انتم محاصرون . سلموا انفسكم والمنشور عبارة عـن بطاقة امان في ايديكم !!

ولقد كان الجنود يسخرون من تلك المنشورات كما كان يسخر مـن ميكروفونات العدو وهي تصرخ :

ستموتون من الجوع .. من العطش .. سلموا ..

كان الجنود يفعلون شيئا غريبا . يأخذون زمزمية المياه ويسكبونها على الارض صائحين عندنا مياه تكفينا وتشربكم كمان سلموا انتم !

(لم يكن بين الجنود من الجانبين في بعض المواقع اكثر من ٨٠ مترا !)

ولم يحدث ان أسر الاسرائيليون جنديا مصريا واحدا من رجال الجيش الثالث اثناء الحصار .

ان الاسرى الذين اسروا كانوا في الغـرب وكانوا مـن رجال الشئون الادارية اساسا .

ولكي ترفع القيادة الروح المعنوية للجنود اقامت معارض للغنائم اثناء الحصار تضم قطعا من الفانتوم ومدافع أسرائيلية ودانات مدافع ودبابات..

بل عمد بعض الجنود الى صناعة خواتم ودبل وطفايات سجاير من مخلفات العدو ..

وتكونت فرق مسرحية بين الجنود ومنهم فنانون كمخرجي تليفزيون واذاعة .. واصبحت هناك فرق تحمل اسماء مثل فرقة اولاد المر (نسبة الى جبل المر) وفريق متلا ..

وكانت تلك الفرق تعبر في الليل الى مدينة السويس وتقدم فنها للجمهور والجنود هناك .

وكذلك ، كان الجنود يزورون الجرحى في المستشفيات في السويس ويقدمون لهم الهدايا رغم حالة الضنك التي يعيشون فيها .

هل كان العدو يهاجمهم ؟

احيانا على محاور عيون موسى ومتلا بدبابات قليلة . وكانوا يردون عليه في حذر حتى لا يفقدون ذخيرتهم . ويتقدمون .

لماذا لم يضرب الاسرائيليون الجيش الثالث ؟

ما كان بوسعهم الا بواسطة حرب شاملة . اذا كان الجيش الثالث حوالى ٥٠ الف جندي .

وكانت الحرب تعني محاولة احتلال السويس التي كانت ستكلفهم حسب تقديرات العسكريين عندهم عشرة آلاف جندي .

★ ★ ★

ومن خلال المعارك والحصار .. برز فنانون وشعراء من رجال الفرقة ١٩ الى القارىء بعض نماذج منها :

انا ابن الفرقة ١٩ بايماني وشرفي وجهادي
حققت الامجاد لبلادي

وقال شاعر اخر يتغزل في علبة فول المدمس

مررت بقوم مجلسهم	صمت وتحفز جوعان
خمس قد جلسوا حلقة	وثمان مثل الحيطان!
هممت بان افتح ثغرة	واموت او احيا سيان
فلمحت العلبة قد جلست	والله تمثل السلطان
فحططت لاقرا ورقتها	فلكزني احد الغيلان
ورايت العلبة قد فتحت	شيء كحبوب المرجان
تسبح في بحر من ذهب	سبحان من جلال الرحمن
وعيون ترمقها شذرا	وضجيج صرير الاسنان

وشاعر اخر يتغزل في علبة باميـــة في قصيدة سماهـــا « القصيدة السامية في اكل البامية » . فيصفها بقوله :

هـي قمع من عسـل صافي ترقـد فـي سحر ودلال
خضـراء كفانيـــة الملهـى تسعى في طلـب الاكـال
ملساء كعذرى قـد خلعـت الوابهـــا الامـــن شال

وهكذا كانت روح الفكاهة تسيطر على الجميع جنبا الى جنب روح البسالة والفداء حيث قدمت فرقتا الجيش الثالث شهداء وابطالا .. مثل محمد محمد زرد ومحمد الفاتح كريم ومحمد مختار عثمـان .. وعشرات غيرهـم ..

وخلال الحصار اسقطت الفرقة التاسعة عشر وحدها ثلاثا وثلاثين طائرة اسرائيليـة ..

وانتهى الحصار وعادت الفرحة الى الجميع .. والحقيقة ان الجيش الثالث كان محاصرا وغير محاصر في نفس الوقـت .. فقـد كانت صلته بالسويس لا تنقطع .. ومعنوية رجاله كانت اقوى من اي حصار .

٢٨

الجراحة في حرب فيتنام .. وحرب اكتوبر

اعلن الاطباء الامريكيون اثناء حرب فيتنام في زهو على العالم انهم استطاعوا ان ينخفضوا بنسبة الوفيات في الجراحات التي يقومون بها للجنود المصابين في جبهة القتال الى مستوى ٢ و ١١ ٪ .

وعللوا ذلك ان اسلوب « اخلاء » الجرحى بالهليكوبتر من ميدان القتال قد تقدم كثيرا .. علاوة على ان تلك الهليكوبتر قد اصبحت بمثابة عربة اسعاف طائرة حتى يصل الجرحى الى المستشفى .

ولامكان المقارنة فانه اثناء الحرب العالمية الثانيه كان الجراحون الانجليز يباهون زملاءهم في العالم بانهم استطاعوا ان يصلوا بنسبة الوفيات بين الجرحى الى ٨ر ١٢ ٪ فقط .. منهم ٤ر٨ ٪ ماتوا قبل اجراء اية جراحة لهم ذلك لان معظم الحالات كانت لا تصل الى المستشفى الا بعد ٢٤ و ٥٦ ساعة ! ..

ولما كانت إصابة الراس هي اخطر الاصابات في الحروب .. فان نسبة الوفيات في المصابين كانت اعلى النسب في حرب فيتنام اذ وصلت الى ٩ر٣١ ٪ ..



هذا في امريكا .. اكثر بلاد العالم تكنولوجيا .. واغناها امكانيات ..

ماذا عن مصر .. اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ؟.. ونحن بلد نام .. وحال

المستشفيات عندنا حال لا تسر فالامكانيات محدودة .. حتى المرضون والمرضات عددهم غير كاف رغم توفر البشر عندنا .

ان الاطباء المصريين الذين كانوا في الميدان تابعين للسلاح الطبي قد حققوا معجزات ..

ان نسبة الوفيات انخفضت الى ١٢ ٪ من بين حالات المقاتلين المصابين بعدة جراح في الجسم .. وهم مثلوا ٢٤ ٪ من جميع الجرحى ..

وثمة عمليات خطيرة اجريت تضاهي اخطر الجراحات في العالم قام بها اطباء مصريون نفخر بهم ونباهي بهم اعظم اطباء العالم مثل الدكاترة سيد الجندي ومحمود عبد الرازق وزكريا الباز وعمر بليغ وحسن رضا وعبد الوهاب رضا مبروك .. ومصطفى الشيتي .. وغيرهم ..

عمليات في جراحة المخ .. والاعصاب .. تعديل مسار الوريد الرئيسي في المخ وخراريج في المخ واصابات بالشلل وعمليات ترقيع الشريان .. واستخراج الجلطة من الشرايين و .. الخ بحر زاخر من انواع العمليات الدقيقة والغريبة في الاوعية الدموية ..

واي زيارة لمستشفى المعادي او غيرها من مستشفيات القوات المسلحة سيرى الشاهد نماذج للمعجزات الطبية التي حققها اطباؤنا ..

وقد حدث ان اضطر الجراحون المصريون الى اعادة فتح العمليات التي اجريت للكثير من جرحانا في اسرائيل وقاموا بها مرة اخرى .

وبلغ من دقة ومهارة الاطباء المصريين ان بعض الجرحى ممن كان مفروضا ان يستكملوا علاجهم في الخارج عادوا فطلبوا ان يستمر علاجهم في مصر .

كيف تحقق هذا ؟..

لقد وضعت عدة قواعد قبل الحرب .. حدث تنظيم لكل شيء قبل ساعة الصفر .. واستفاد سلاح الخدمات الطبية من تجارب حرب الاستنزاف .. علاوة على خبرة حرب ١٩٦٧ التي كشفت عن قلة العدد اللازم من المتخصصين في الجراحات الخطيرة .

والتي كشفت عن النقص في وسائل نقل الجرحى .. فاستقدمت القوات المسلحة عربات الاسعاف المجنزرة .. وهذه لعبت دورا هاما في الخطوط الامامية اذ كانت اشبه بوحدات مقاتلة لما لديها من دروع للحماية ..

واقيمت في الخطوط الامامية مستشفيات تحت الارض مثل سائر جيوش العالم ..

ان الخدمات الطبية تستهدف امرين في الحرب :

- انقاذ اكبر عدد من الجرحى .
- اعادة المصاب الى وحدته في اقرب وقت سليما ليستانف مهمته المقدسة وهي القتال ضد العدو ..

ومن هنا زود السلاح بسيارات مخصصة لانقاذ الجرحى الذين ينزفون دما في الميدان .. سيارات مزودة بثلاجات تدفع للامام حيث الجرحى وتجري لهم عمليات نقل دم في نفس المكان قبل النقل للمستشفى والتاريخ لن ينسى ما فعله اطباء وممرضات مستشفيات السويس اثناء محاولة احتلالها ..

تحت وابل من النيران كان الجميع ينقلون الجرحى الى المستشفيات .. ويجرون لهم العمليات تحت اضواء الشموع ..

ويقول للواء الدكتور محمود عبد الرازق .. ان الروح الفدائية التي شملت الاطباء وهيئة التمريض هي جزء من الروح الفدائية العامة التي شملت الشعب كله .. يضاف الى ذلك التدريب الشاق في ظروف القتال الطبيعية ايام حرب الاستنزاف .

والحديث عن دور الطب في حرب اكتوبر يكون ناقصا اذا لم نتحدث عن دور السيدة جيهان السادات في الوصول بعشرات الالوف من الجنود المصابين الى بر السلامة والاستقرار النفسي بعد معاناة ويلات الحرب ..

ان السيدة جيهان التي تمارس العمل العام منذ سنوات طويلة .. والتي ساهمت في رعاية الجرحى عام ١٩٦٧ .. قد كرست كل وقتها خلال حرب اكتوبر وبعدها للعناية بجرحى الحرب والمصابين .. وطورت تلك الرعاية الى ما بعد الشفاء بفكرة مدينة الوفاء والامل .. وهي في عملها هذا قد وفرت الكثير من الوقت لرئيس الجمهورية ليتابع القيادة السياسية والعسكرية .. وهي قد ضربت مثلا لاجتذاب المراة والفتاة المصرية الى حقل الخدمة العامة ..

٢٩

الاعلام عن خسائرهم وخسائرنا ..

«اني اتوقع الا تستمر الحرب اشهرا او اسابيع أو حتى اياما» ـ **دايان**

« حسب معلوماتنا ووعينا فان استئناف العدوان المصري السوري ما هو الا عمل جنوني ... » ـ **جولدا مايير .**

« ان جميع قادة المدرعات المصريين يذكرون جيدا ان سيناء كانت اكثر من مرة مقبرة لمدرعاتهم .. » ـ **حاييم هيرتزوج ..**

الراديو الاسرائيلي لاول مرة يذيع في هستيريا بيانات ونداءات مثل :

« سنحيل ايامكم الى ليال سوداء .. سنريكم النجوم في الظهر .. وسنضع انوفكم في الوحل .. سنجعل قادة العدو يدفعون الثمن غاليا .. سنسحق عظامكم .. » ! ...

لقد اختفت النغمة الهادئة الواثقة التي كانت جولدا مايير وموشى ديان يتحدثان بها الساعات الاولى لبدء القتال ..

واختفت مثل تلك الاعلانات الوهمية التي كان يفضي بها دافيد اليعازر رئيس اركان الحرب الاسرائيلي عندما جمع المراسلين في تل ابيب ليقول لهم في لامبالاة في اليوم الثالث للقتال : ايها السادة : لقد بدأنا في تدمير الجيش المصري ..

كان يتكلم في لهجة الرجل الذي تعود على النصر دائما ..

انتهت هذه الفترة التي حفلت بالبلاغات الحربية الكاذبة حتى لم يعد العالم في الغرب نفسه يصدقها ..

انتهت السكينة والثقة المزيفة .. ليحل محلها الهستيريا والتشنج من أمثال تلك العبارات التي كان يرددها راديو اسرائيل ..

وكان معنى هذا ان الاسرائيليين يتلقون « علقة ساخنة » في صحراء سيناء .. والجولان لاول مرة في حياتهم .. مما اضطر هارون ياريف الى ان يقول :

ـ على الاسرائيليين الا يتوقعوا نصرا سهلا .. بعد ان تهاوت الفانتوم وصهرت الدبابات السنتوريون والباتون ..

وما قاله هارون ياريف كان بعد ايام من بدء القتال .. اما قبلها فان الاسرائيليين عمدوا الى « تهويش » العالم العربي وتخويفه مستغلين اساطير التفوق الاسرائيلي وهزائم حربي ٥٦ و ١٩٦٧ .

لقد كانت خطة الاعلام الاسرائيلي تجاه البلاد العربية ذات اربع شعب .

(١) التقليل من المبادرة العربية العسكرية واظهارها كمغامرة جنوبية محكوم عليها بالفشل .

(٢ الضرب على وتر الخلافات العربية ومحاولة اثارتها .

(٣) محاولة شق الصداقة العربية السوفيتية

(٤ التهديد بالولايات المتحدة التي يتحرك اسطولها السادس وعلى اهبة الاستعداد .

وتجاه العالم كله اخفاء الخسائر الاسرائيلية .. والتركيز على ان اسرائيل قد اعتدى عليها وان اسرائيل لم تشأ ان تكون البادئة بالقتال حرصا منها على السلام .

اما اخفاء الخسائر فنكتفي هنا بنقل فقرة من كتاب « التقصير » الذي يقول مؤلفوه : **ان وسائل الاعلام الاسرائيلية اضطرت طوال ايام الحرب بناء على تعليمات من اعلى الى ان ترسم للمواطنين صورة معقمة للحرب ، ودبابات العدو وطائراته هي وحدها التي تصاب وتدمر ، والعدو وحده يتراجع . والجيش الاسرائيلي فقط هو الذي « يحسن المواقع الى الوراء » كان محظورا نشر كل ما هو قائم على الحقائق ، وينتقص من الصورة الوردية للنجاحات والانجازات التي حاول قادة إسرائيل رسمها امام الجماهير . ولقد منعت الرقابة نشر فظائع الحرب » .**

وبالمناسبة كيف يرى مؤلفو «التقصير» الاعلام العربي في حرب اكتوبر :
ننقل هنا ما قالوه بالحرف الواحد :

بعث المراسلون الاجانب بتقاريرهم الى صحفهم قائلين ان اسرائيل تخفي حقيقة ما يجري في ميادين القتال . ومقابل البيانات الاسرائيلية غير الموثوق بها ، اذاع الناطق العسكري المصري من القاهرة بيانات تطابقت مع الواقع اكثر كثيرا ! .

كان من السهل على المصريين والسوريين في هذه المرحلة ان يكونوا ملتزمين بالحقيقة نوعا ما . فالانجازات التي احرزتها الجيوش العربية في الجبهات اثرت في الدعاية العربية بصورة مباشرة .

فالمراقب الذي سمع بيانات الناطق العسكري المصري لم يستطع تجنب الشعور بان هذه البيانات وضعت سلفا قبل بداية الحرب ، ولكن الانجازات في هذه المرحلة تجاوزت التوقعات .

فمثلا كان من المقرر بناء على خطة الهجوم السوري في هضبة الجولان ان تصل الوحدات المدرعة السورية الى مفرق « نفاخ » في الهضبة بعد نحو ثلاثين ساعة من ابتداء الحرب ، ولكنها وصلت الى هناك بعد ١٨ ساعة وهذا ما ابلغت به قيادة الجيش السوري العليا . فالقادة السوريون الذين خشوا ان تكون التقارير من ميدان القتال مزيفة كما حصل في عام ١٩٦٧ لم يصدقوا تقارير الوحدات ! » ..

ما راي الكتاب الاسرائيليين في بلاغات مصر وسوريا عن خسائر جيشيهما ؟.

يقول المؤلفون ايضا بالحرف الواحد :

« لم يتوقف الامر عند هذ الحد .. بل ان السوريين والمصريين استطاعوا في هذه المرحلة ان يعلنوا من اجهزة اعلامهم بالاضافة الى انجازاتهم عن خسائرهم ايضا .

ومهما كانت الخسائر ، فقد بدت ان لها ما يبررها ، ومتواضعة بالنسبة الى الانجازات الرائعة التي منحتها اياهم « حرب رمضان » .. وبالاضافة الى الاعلان عن خسائر الجيوش العربية برز في بيانات الناطقين العرب انعدام التباهي الذي كان سمة مميزة لهم في الماضي . **فالانضباط الواضح الذي اظهرته اجهزة الاعلام العربية في بداية المعارك والذي قارب التقليل من انجازات جيوشها نال اعجاب المستمعين في جميع انحاء العالم العربي ..**

اذا كان يقال ان الفضل فيما شهدت به الاعداء فلا مجال للتعقيب على ما اورده الصحفيون الاسرائيليون .

والحقيقة أن الاعلام الاسرائيلي ظل يكذب ويخفي خسائره وفي حالة انتكاس وابتئاس .. فمن تهديدٍ في الايام الاولى بسحق العرب الى حديث عن طول الحرب .. الى لهجة حزينة من ديان تنذر بقرب هزيمة اسرائيل لو لم تتدخل الولايات المتحدة ..

ولكن ها ! الاعلام انتفش كالدجاجة عندما حدثت الثغرة .. لقد كانت بمثابة رد الروح اليه .. وحاول المبالغة فيها .. وقدم لها افلاما تليفزيونية وسينمائية ... وبدأت تنتعش الاسطورة التي ماتت عشرة ايام ..

ولكن الاعلام الاسرائيلي لم يكد يفرح طويلا .. بعد ان فشل في تحقيق اهداف الثغرة الاساسية ..

فعاد حاييم هيرتزوج في ١٠/٢١ ووقف اطلاق النار يلوح في الافق دون حسم لانتصار اسرائيل ، ذلك الحسم الذي كانوا يبشرون به يومي ١٨ و ١٩ اكتوبر « ان اسرائيل استطاعت خلق الظروف اللازمة للحصول على حسم في جبهة القناة ـ دافيد اليعازر » .

عاد هيرتزوج يقول للمستمعين الاسرائيليين : وتجب الاشارة الى ان هذا الجيش المصري يقاتل ويعمل كجيش منظم وان جزءا من قواته مرابط في مواجهة قواتنا دون ان يدخل المعركة الشاملة .. واضاف « من المهم ان نذكر هذا لندرك اننا نصل الى الحسم فقط عند تدمير قوت العدو . هذه القوات الموجود الجزء الاساسي منها في سيناء دون وجود مؤشر لامكانية زحزحتها ! » .

في نفس الوقت كان الاعلام العربي رزينا لا يتحدث عن الانتصارات بزهو .. ولا عن خسائر الاسرائيليين بمبالغة . وترك للعالم ان يحكم .

وبدأت الصحف في العالم تتحدث عن خسائر الاسرائيليين في الاسبوع الاول للقتال .. فتحددها حتى اشد المصادر موالاة لاسرائيل بانها ٦٠٠ جندي قتيل و ١٥٠٠ جريح واكثر من مائة طائرة و ٦٠٠ دبابة . وتعقد المقارنات بينها وبين خسائر الولايات المتحدة في فيتنام . وتقول انها اكثر منها او توازيها على الاقل ..

وبعد اسبوعين قدرت نفس المصادر الموالية لاسرائيل ان الخسائر تزيد عن ثلاثة آلاف قتيل.. وخمسة آلاف جريح.. وثمانمائة دبابة.. اكثر من خسائر القوات الامريكية في الحرب العالمية الثانية في السنتين الاخيرتين من الحرب بالمقارنة مع عدد السكان في كلا من اسرائيل وامريكا ..

وقرانا في الصحف كيف ان احد خبراء الحلف الاطلنطي صرح بـأن قوة حلف الاطلنطي المدرعة ستفقد قيمتها كلها اذا ما لحقت بها خسائر مثل تلك التي الحقت بالاسرائيليين ..

ثم قرانا تقدير النيوزويك الامريكية ان جملة خسائر اسرائيل فـي الحرب في المعدات فقط تزيد عن خمسة بلايين وخمسمائة مليون دولار .. وهو مبلغ يزيد عن ميزانية اسرائيل كلها لعام ١٩٧٣ .

ومع هذا الحديث عن الخسائر الاسرائيلية من مصادر غربية .. فقد كان مثيرا للدهشة والتساؤل ايضا بـين الناس في القاهرة .. هذه الارقام عن الخسائر التي تلحق بالاسرائيليين الواردة في البلاغات الحربية المصرية..

استمرت هذه الدهشة والتساؤل .. طـوال الايام الثلاثـة الاولى فقط .. حتى اعلن عن تدمير اللواء الاسرائيلي المدرع ١٩٠ واسر قائـده عساف ياجوري . وظهر على شاشة التليفزيون .

قبل ذلك كان البلاغ العسكري المصري يقول مثلا عن خسائر العـدو الاسرائيلي في اليوم الاول ستين دبابة .. و ٢٤ طائـرة .. فيستغـرب الناس .. وهكـذا .

ولكنا نحن المراسلين الحربيين كنا في الجبهة نعرف الحقيقـة .. وهي حقيقة غريبة .. حقا ..

ان العادة ان الدول المتحاربة تبالغ في ذكر خسائر اعدائها ..

ولكن ما كان يجري في القيادة العامة المسلحة المصرية شيء اخر ..

لقد كانت هناك خطة تقضي بعدم ذكر الخسائر الحقيقية للعدو؟!..

كانت قواتنا تسقط خمس عشرة طائرة للعدو مثلا .. فيعلن البـلاغ العسكري اننا اسقطنا اثنتي عشرة طائرة فقط ! ...

ولقد اكتشفت هذه الحقيقة ونحن نزور مدينة القنطرة شرق بعـد تحريرها مباشرة .. في الايام الاولى للقتال ..

وظللنا نتجول فيها مع الجنود والضباط ورئيس المدينة المقاتل طاهر الاسمر الذي بدا يباشر مهمته بعد التحرير مباشرة ..

ولفت نظري العدد الكبـير من دبابات العـدو وسياراتـه المحطمـة والمحترقة .. بالعشرات .. في شوارع المدينة وفي اطرافها ..

وعندما راجعت بيان القيادة عن تحريرها .. لاحظت ان عدد الدبابات والسيارات المجنزرة المذكور اقل مما اراه فـلا .. بل بعملية احصائيـة قمت بها مع رئيس المدينة تبين ان ما ذكر لا يمثل اكثر من ثلثي الخسائر التي رايناها بعيوننا !!

جلست اتحدث مع بعض القادة العسكريين .. عن سر هذه الظاهرة..
وكان التفسير بسيطا ..

اننا نتوقع ان الولايات المتحدة ستبادر بعد نشوب القتال الى مساعدة اسرائيل عسكريا ومدها بالعتاد عوضا عما تفقده .. وقد هدفت القيادة الى تعطيل هذه « المبادرة » الامريكية الى اكبر مدى ممكن .. وذلك بالتقليل من الخسائر لان خسائر الاسرائيليين في الايام الاولى للقتال كانت ضخمة .. كانت خسائر «استفزازية » لحلفائهم ان صح التعبير ..

هذا جانب من المشكلة ..

الجانب الاخر .. ان ذكرى المبالغات في خسائر العدو الوهمية عام ١٩٦٧ ما زالت ماثلة في الاذهان .. والاثر السيء الذي تركه ذلك في نفسية الجماهير بعد ان اتضحت الحقيقة .

ومن هنا فان القيادة كانت حريصة جدا وتدقق في التقارير التي تصلها عن الخسائر .. وتحذف ما ليس مؤكدا مائه في المائة .. كما امتد تطرفها في بعض الاحيان الى المبالغة في الحرص ..

مرة ابلغ قائد سلاح الطيران عن تدميره ١٥ طائرة اسرائيلية في معارك جوية فوق الدلتا .. واضاف ان هناك ثلاث طائرات اخرى دمرت لكن كاميرات التصوير في الطائرات المصرية لم تصورها متفجرة في الجو .. وانما مصابة في الذيل او الجناح ..

قالت له القيادة اذن خسائر العدو خمسة عشر فقط ..

ضحك قائد سلاح الطيران وقال ..

— يعني الباقي فكة ! ...

اما الجانب الثالث فان عدم ذكر الخسائر الحقيقية للعدو يثير ارتباكا في صفوف العدو نفسه ..

اذا كانت قد دمرت خمسون دبابة وقال البلاغ المصري انها خمسة واربعون .. فاين ذهبت الخمسة ؟ ..

وهذه الخطة لم تكن متبعة الا في مصر .. وساعد عليها الخطة الذكية والحكيمة التي شملت سياسة الاعلام المصري كلها اثناء المعركة .. لا مبالغة ولا تهويل .. والدقة والصدق ..

وقد تولى دفة الاعلام خلال الحرب الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراءللاعلام والثقافة حينذاك ، وكان المتحدث العسكري بلسان الجيش اللواء عز الدين مختار .

واذا كان البعض يأخذ على الاعلام المصري خطاه منذ بدأت الثغرة ، اذ هون منها . فالحقيقة انه كما تبين لنا من شرح تطوراتها ان ذلك الخطأ لم يكن مقصودا .. اذ ان القيادة العامة نفسها قد وصلتها معلومات غير دقيقــة .. من القيادة المحلية في البداية .

اما المتتبع بعد ذلك للبيانات العسكرية وغيرها .. يجد انها كانــت تعكس اتساع الثغرة .. وليس ادل مــن صدق الاعلام المصري ان بيــان رئيس الجمهورية الذي طالب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بارسال قوات لهما لارغام اسرائيل على وقف القتال قد اذيع ونشر .. كمــا ان بيانه بدعوة المقاومة الشعبية للدفاع عن السويس قد اذيع ونشر ..

لقد كانت الجماهير تتابع تدهور الموقف في الثغرة دون قلق .. لانها كانت تثق تماما في قيادتها .. وفي جيشها .. جيش الواثقين حقا ..



٣٠

القائد العام للقوات المسلحة يتحدث

ونحن نختتم هذا القسم من الكتاب عن الحرب .. بعد ان سجلنا تطوراتها ومعاركها .. يجيب المشير احمد اسماعيل على بعض الاسئلة التي تنتظر اجابة .. ليستكمل القارىء الصورة عن الحرب بقدر الامكان .

كنت قد فرغت من اللقاءات التي امر بتنظيمها لي مع اكثر من خمسة وعشرين قائدا في الجيش من مختلف الرتب لاستكمال الصورة العسكرية لهذا الكتاب .

وكنت قد عدت ايضا منذ فترة قصيرة من رحلة الى بعض عواصم اوربا الغربية حيث اطلعت على معظم ما نشر من كتب عن الحرب ، واجريت مناقشات مع اساتذة معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن وكثير من المعلقين السياسيين .

ومن هنا ومن هناك كانت تتجمع امامي علامات استفهام تبحث لها عن اجابة عند القائد العام للقوات المسلحة المشير احمد اسماعيل علي .

قال لي بصوته الهادىء العميق والودود .

لعل هذه اللقاءات اعطتك فكرة عن الفرق بين الجيش بعد حرب ١٩٧٣ والجيش بعد يونيه ١٩٦٧ .. بين النصر والهزيمة ..

واستطرد يقول

ان اهم شيء في الحرب هو ان تكبد عدوك خسائر جسيمة .. أن

تحطم قوته العسكرية في نفس الوقت الذي تحتفظ به بقواتك سليمة وقد عانت اقل الخسائر ..

اننا في حرب ١٩٦٧ لم تكن الهزيمة منعكسة فقط في احتلال الاسرائيليين لسيناء وغيرها من الارض العربية ، انما الهزيمة كانت منعكسة في تدمير قواتنا المسلحة .. تشتيت الجيش وتمزيقه وسلب السلاح من الجنود ..

فطالما قواتك العسكرية سليمة .. فعندك الفرصة دائما لضرب عدوك واستعادة ما احتله من الارض ..

قلت :

ان هذه القاعدة .. التي هي بديهية اولى من بدائه الحرب غير معروفة جيدا للناس .. فالذهن يذهب دائما الى مسالة احتلال ارض كالمقياس الاساسي في تحديد النصر او الهزيمة .

وبناء على هذا المقياس .. اود ان اناقش معك قضيتين اساسيتين اثيرتا في كثير مما كتب عن الحرب بواسطة الكتاب الاجانب .

ان اشد خصومنا عداوة .. لم يستطيعوا ان ينكروا قط ان العرب قد حققوا نصرا في حرب ٦ اكتوبر والحقوا بالاسرائيليين خسائر فادحة .

ان نجاح العرب كان مفاجاة اذ كان الجميع يتوقعون ان الاسرائيليين سيبادرون بتاديب الجيوش العربية في ايام قليلة ولكن ما يثار هو :

● لماذا لم يتقدم الجيش المصري بعد العبور واقامة رءوس الكباري نحو ممرات سيناء المشهورة لاحتلالها واكتفى باحتلال مساحة على طول الشاطىء الشرقي للقناة بعمق ما بين عشرة وخمسة عشر كيلو مترا ؟

اجاب المشير :

لاول مرة في تاريخ العسكرية المصرية تخرج توجيهات سياسية مكتوبة للقائد العام للقوات المسلحة بجانب التوجيهات العسكرية توضح طبيعة المهمة والعملية . وليس ثمة مجال لنشر تلك التوجيهات .

ولكن ليس سرا ان نقول ان واحدا من اهم تلك التوجيهات هو الحاق اكبر خسائر ممكنة بالعدو .. مع تقليل خسائرنا قدر الامكان . بصرف النظر عن مساحة الارض التي تحتلها .

ان الهدف هو ضرب نظرية الامن الاسرائيلي بكسر التفوق الاسرائيلي الاسطوري المزعوم .

وقد نجحنا في تحقيق ذلك .

قلـت :

● **هذا حسن ولكن اذا كنا قد نجحنا في الحاق خسائر فادحة بالعدو وهو ما اعترف به الخصوم قبل الاصدقاء سيظـل السؤال يلح ، لماذا لـم نتقدم الى ابعد .. ان كتاب السانداي تايمز يقول مثلا : ان المصريين اضاعوا انتصارهم الذي احرزوه في الاسبوع الاول من الحرب ؟**

ــ كان هناك امامنا طريقان .. او اسلوبان !

اما ان نتقدم بعد ان اقمنا رءوس الكباري الى الامـام وسنتعرض عندئذ لخطريــن :

ــ سنكون تحت رحمة سلاح الطيران الاسرائيلي الذي هو متفـوق على سلاح الطيران عندنا من ناحية الكم والكيف اي عدد الطائرات ونوعيتها.

ان طيارينا اثبتوا انهم متفوقون على الطيارين الاسرائيليين ، ولكـن يبقى تفوق الطيران الاسرائيلي .. هذه مسالة يجب الا ينساها احد عنـد مناقشة حرب اكتوبر .

ــ من ناحية اخرى ستطول خطوط مواصلاتنا الى داخل سيناء .

قلـت :

● **اما كان ممكنا نقل شبكة الصواريخ او حائط الصواريخ من الغرب الى الشرق لحماية تقدمنـا .**

ــ ممكن لكن هذا ياخذ وقتا .. ومرتبط ايضا بالمدد والعون الخارجي.

واستطرد المشير يقـول :

ــ نعود الى الطريقين امامنـا :

الطريق الثاني هو ان نقوم بعملياتنا العسكرية على مراحـل .. اي نتقدم على طريقة الوثبـات .

اننا طبعا نتوقع ان يقوم العدو بهجمات مضادة بمجرد اطلاق الطلعـة الاولى للعبور . وقد حدث ذلك فعـلا .

كانت مهمتي استدراج العدو وانا ثابت في موقعي . لا داعـي لان اخرج من مواقعي وادخل معـه في معركة تصادمية بعيدا عـــن حمايـة الصواريـخ .

وقد نجحت هذه الطريقة .. فدمرنا له اللواء ١٩٠ مثلا ودمرنا الوية اخرى في الجنوب جزئيـا .

وقد سمى الاسرائيليون هذه الطريقة « مفرمة اللحمة » .

ولقد كنا نتقدم ونوسع خطوطنا بعمق هـذه الخطوط ببطء ولكن بثبات .

● **ولكن البعض يقول انه كان متوقعا ان نخسر في العبور نصف القوات التي عبرت اي اكثر من عشرين الف جندي بينما الذي حدث اننا خسرنا بضع مئات فقط . لماذا لم نتقدم ولم نكن نخسر ما كان مفروضا ان نخسره عند العبور ؟**

ـ الحرب ليست مغامرة .. وانما حسابات .. وانه من الاستخفاف بعقول وارواح الناس ان نقول انه كان لا بد ان نخسر عشرين الفا في جميع الاحوال رغم انه كان بوسعي ان احقق اهدافي دون هذه الخسارة الجسيمة .

ان الاعداد المتزايدة من قتلى الاسرائيليين واسراهم هي خير دليل على نجاح تكتيك « مفرمة اللحمة » هذا (**قدر المشير احمد اسماعيل في ندوة الرواد العسكريين والسياسيين بنقابة الصحفيين يوم ١٣ اكتوبر ٧٤ خسائر اسرائيل بانها لا تقل عن عشرة آلاف قتيل وعشرين الف جريح**) .

ثم اننا كنا نتقدم ايضا ونوسع ما كسبناه من ارض .. وكنا اعددنا انفسنا لتطوير الهجوم والقيام بوثبة اوسع واعمق في سيناء بعد ان درسنا اسلوب العدو وفهمنا تكتيكه وطباعه .

واستطرد المشير يقول :

لو اتبعنا هذا الاسلوب المغامر وخسرنا قوات عديدة في سيناء لما كان بامكاننا ان نحاصر الثغرة بمجرد حدوثها .

● **هل لي ان افهم كيف حدثت معركة الدبابات الشهيرة ؟**

ـ قلت لك اننا كنا نعد انفسنا لتطوير الهجوم .. وقد كانت خطتنا بدء هذا التطوير يوم ١٥ اكتوبر . ولكننا بكرنا الموعد يوما واحدا وذلك لتخفيف الضغط على الجبهة السورية .

من ناحية اخرى كان الاسرائيليون قد بدءوا يحصلون على المدد من الولايات المتحدة ومنذ يوم ١١ اكتوبر بد الجسر الجوي الامريكي فعززوا قواتهم للقيام بهجوم مضاد كبير .

● **لماذا تعتبر هذه المعركة من اشرس معارك الدبابات في التاريخ ؟**

ـ لانه اشترك فيها في معارك تصادمية (اي دبابات تواجه دبابات) اكثر من ١٦٠٠ دبابة .. وحدثت فيها خسائر جسيمة للعدو .

● وخسائرنا نحـن ؟

ـ نحن لم ننكر قط اننا ايضا خسرنا .. ففي الحرب يخسر الطرفان المتحاربان . فقط ان الارقام التي ذكرها بعض الكتاب الاجانب مبالغ فيها.

● هل كسبنا في تلك المعركة ؟

ـ نعم رغم خسائرنا فقد كبدنا العدو خسائر مروعة . كما تقدمنـا ايضا بضع كيلو مترات الى الامام علاوة على تخفيـف الضغـط فعلا على زملائنا في سوريا .

● تقول بعض المراجع الاجنبية اننا اخطأنا في معركة الدبابات هـذه باننا لم نستخدم المشاة من حاملي الصواريخ الذين يدمرون الدبابات كما تعودنا على استخدامهم منذ بداية الحرب واثبتوا فعاليتهم ؟

ـ ان اية قيادة لا يمكن ان تستخدم اسلوبا واحدا في الحرب دائما..
لقدكان استخدام المشاة مفاجاة للعدو في البداية ونجح ..
ولكن بعد بضعة ايام كان لا بد من تغيير التكتيك .
وساضرب لك مثلا بالعبور ذاته :
اننا نعلم ان العدو نفوق علينا جويا كما قلنا .. فاتبعنا عدة وسائـل للتغلب على هذا التفوق .
كان عبورنا على طول خط المواجهة ١٧٠ كيلو مترا فاضطررنا العدو الى توزيع قواته الجوية .. وبعثرة دباباته حيث لا يعرف نقاط التركيز.
ثم هي بعد ذلك سقطت في شراك شبكة الصواريخ .. وايضا لـم اتحرك بسرعة الى عمق يبعد عن هذه الشبكـة .
بعد ان استقررنا . بدانا نغير التكتيك ... وهو انتظار العدو ليأتينا ونضربـه .
بعد ذلك بدانا نتقدم لتطوير الهجوم .
قلت :

● قبل ان ندخل في مناقشة الموضوع الثاني وهو الثغرة . اود ان نعرف شيئا عن معنى « المفصل » بين الجيشين ..

اجاب المشير :
المفصل هو المسافة بين اي جيشين يرابطان على جبهة واحدة .

● لماذا لا يكونا متلاحمين ..

ـ لانه تضييع المسئولية في منطقة التلاحم .

● كيف اذن يؤمن كل من الجيشين منطقة المفصل ..

ـ التعليمات تقضي بان على كل جيش ان يؤمن جانبه من ناحية المفصل .

● كيف اذن استطاع الاسرائيليون النفاذ من هذا المفصل .. حتى وصلوا الى الشاطىء الشرقي للقناة ثم عبروا ؟

لا بد ان يعرف الناس ان اي جيش يمكنه بالتصميم وتركيز قوات هائلة ان يفتح ثغرة في اي مكان ..

نحن قد استطعنا فتح خمس ثغرات على طول ١٧٠ كيلو مترا في الضفة الشرقية بل احتللنا الشريط كله .

والعدو استطاع عمل ثغرة واحدة .

ونحن قد فتحنا الثغرات الخمس ما بين ست ساعات و ٣٦ ساعة . . اما العدو فقد ظل يقاتل من ١٥ اكتوبر حتى ٢٢ اكتوبر ليفتح ثغرة واحدة عند الدفرسوار .. اي احتاج لسبعة ايام .. ولم يكن عندنا خط بارليف او ما اشبه .

يعني انه كان يتقدم كيلو مترين فقط في اليوم .

● الم تكن تعرف باحتمال حدوث الثغرة ؟

ـ كان لدينا هذه المعرفة .. وثابت انني شخصيا لفت النظر في تعليمات ايام ٨ و ٩ و ١٠ وهي تعليمات مكتوبة انه محتمل ان يفتح العدو ثغرة وفي هذا المكان بالذات .

● كيف اذن اخذنا على غرة وفتح العدو الثغرة ؟

ـ نحن لم نؤخذ على غرة .. العدو اراد الحصول على نصر سياسي فركز قوات هائلة كانت تصله اولا بأول من الولايات المتحدة .. ورغم خسائره الفادحة في وجه المقاومة المصرية . الا انه صمم .

من ناحية اخرى لقد وقعنا نحن في اخطاء .

قلت :

ـ ان الناس تريد معرفة هذه الاخطاء ..

قال المشير ..

ـ اعترافنا بالاخطاء في الثغرة ليس امرا جديدا .. فقد ذكرت ذلك بعد وقف القتال باسابيع قليلة ..

كما اننا قد نظمنا مؤتمرا عسكريا على أعلى المستويات ناقشنا فيه

اخطاءنا في الثغرة .. ويوما ما ستنشر هـذه الدراسة . لان المعركـة لم تنته كما تعلـم .

وعدت اسال ..

● **ما هي الاخطاء التي يمكن التصريح بها الان ؟**

ــ اولا ان القائـدالمحلي لم يقدر قوة العدو التقدير الحقيقي فتصور انها مجرد تسلل محـدود .

ومن ناحية اخرى بناء على ذلك قدر انه مستطيع ان يقضي عليها .

وركنت القيادة الى هذا التقرير وهذا هو الخطأ الثاني .

والخطأ الثالث ان القيادة عندما تبينت خطورة الموقف ارسلت باحـد القادة لمعالجة الموقف فاضاع يوما كاملا .. كان هو اليوم الحاسم الـذي استطاع فيه الاسرائيليون تدعيم قواتهم .

● **هل حقا ان احد اسباب نجاح الاسرائيليين في فتح الثغرة هو اننا كنا قد نقلنا كل احتياطي الدبابات من الغرب الى الشرق بحيث اصبحـت الضفة الغربية عاريـة ؟**

ــ ليس هذا صحيحا فقد كانت الفرقة الرابعة موجودة مثلا .

● **ماذا كان يهدف العدو من الثغرة بجانب المظاهرة السياسية ؟**

ــ كان يريد ان تتكرر اللغة المالوفة الانسحاب ..

كانت الثغرة طعما ..

ولكننا لم نتحرك على النغم الذي عزفه العدو .. ولم نسحب جنديا واحدا من الشرق بل بالعكس اثناء مقاومتنا العنيفة في الغرب كنا نوسع الاراضي التي نحتلها في الشرق .

● **قيل ان من اخطائنا في المعركة اننا ثبتنا دبابات لنا في خنادق في الضفة الغربية لتكون بمثابةمدفعية ، وان ذلك اعطى العدو الفرصة لتدمير هذه الدبابات وهي مثبتة في الارض ؟**

ــ هذا من قبيل الاكاذيب التي حاول البعض بها تشويـه الانتصار المصري .. فلم تكن لدينا في اي مكان اية دبابات مثبتة في خنادق كهذه ، كان عندنا مدافع مثبتة على شاسيهات للدبابات قديمة .

● **هل سقطت في يد العدو اية صواريخ مضادة الطائرات كما زعـم الاسرائيليون ؟**

ــ لم يحدث قط .. ولعلك تابعت فضيحة مندوب احدى الوكالات

الاجنبية الذي زعم ان السويس سقطت بينما كانت ترد الاسرائيليين على اعقابهـم ..

● بمناسبة السويس ما الذي حدث فعلا ؟

ـ لقد حاول العدو احتلالها عدة مرات وفشل .. رغم انه وصل الى حد احتلال قسم البوليس .

واستطرد المشير يقول :

ـ ان البعض يتصور انه لم يكن هناك جيش في تلك المنطقة .. وهذا غير صحيح .. ان الجيش الثالث لم يكن كله فـي الشرق .. لقد كـان عندنا عشرة الاف جندي في الغرب .. وهـؤلاء قاوموا العدو مع اهـل السويس وهزموا محاولتـه .

● ما تفاصيل خطة القضاء على الثغرة ؟

ـ لا يمكن ذكرها الان .. ولكن يكفي ان تعلم انه كان لدينا خطتـان للقضاء عليهـا .. خطة محدودة .. ثم خطـة اكبر توائـم تطور الثغرة واتساعها . لقـد كانت لدينـا خمس فـرق مستعـدة للانقضاض على الاسرائيليين .. وقـد راى الامريكيون بواسطـة اقمارهـم التجسسية استعدادنـا ..

وكان حتما سيقضى على الثغرة .. فقد كـان الاسرائيليون اشبـه « بحرامي في ايدينا » واعطيـت السيد رئيس الجمهوريـة(تمام) قائـلا ان وضعنا جيد .. قبل سفره لاسوان .. لولا أن تدخل الامريكيون وانسحب الاسرائيليـون .

وسكت المشير لحظة وقال :

لو كان وضع الاسرائيليين مريحا في الثغرة لما انسحبوا منها ابدا .. لكنهم ادركوا انها مغامرة منذ البدايـة .. وانهم مهـددون بالفنـاء ..

● حسنا .. ماذا كان يمكن ان يحدث لو لم تحدث الثغرة ؟

ـ الثغرة بالونة كما قال لي الجنرال بوفر ومع ذلك لو لـم تحدث لكان بامكاننا المضي في تطوير الهجوم بدلا من تركيـز بعض قواتـي على محاصرة الثغرة ومقاومتها مقاومة شرسة في البداية .

● قالت بعض المصادر الاجنبية ان الجيش المصـري ما زال يعانـي بيروقراطية تجعل الاتصال بين اطرافه صعبة .. واتخاذ القرار يحتاج الى وقـت اطول .

ـ هذا غير صحيح ..

فلا بيروقراطية بدليل ان خطة العبور وتفاصيلها اشترك فيها كثير من قادة الجيش والفـرق .

وكل قائد كان له حرية الحركة وحرية اتخاذ القرار .

ولم ينقطع الاتصال بين غرفة العمليات وبين اي فرقة في الجيش ، والا فكيف تم الانتصار الكبير الذي تمثل في العبور .. واقتحام خـط بارليف .. ان كل واحد في الجيش كان يعرف دوره وموقعه بالضبط .

● ما رأيك كقائد عام للقوات المسلحة في كفاءة السلاح السوفيتـي ازاء السلاح الامريكي ؟

ابتسم المشير في هدوء وقال :

ـ لقد كان رايي دائما .. ان العبرة بالرجل خلف السلاح .

ان الامريكيين متفوقون في انواع من السلاح على السوفيت والعكس صحيح ايضا .

والسلاح السوفيتي قوي .. وخشن . بينما السلاح الامريكي قـوي ومرنه اذا جاز التعبير .. كوجود تكييف هواء في الدبابة مثلا .

والامريكيون يحاولون بعد حرب اكتوبـــر اد خال تحسينات فـي اسلحتهم على ضوء خبرة الاسرائيليين بمواجهة السلاح السوفيتي .

انـا عندما استعملنا السلاح السوفيتي وعرفنا خصائصه استخدمناه بكفاءة ١٠٠ ٪ .

والمهم هو الرجل خلف السلاح . وقد اثبتت حرب اكتوبر ذلك .

● الى اي مدى يمكن تحقيــق الحلم العربي باقامـة ترسانـة عربية لانتاج السلاح ببلايين الدولارات العربية المكدسة في البنوك الاجنبية ؟

ـ اذا اتحدنا نحن العرب .. والظروف امامنا مواتية .

عندنا الخبراء الفنيـون .

عندنا الايدي العاملة الارخص من اوروبا وامريكا .

وعندنا راس المـال .

بل حتى عندنا السوق لبيع السلاح اذا فاض عن حاجتنا وهو الدول الافريقيـة .

● ما موقفنا العسكري الان بعد مرور عام من حرب اكتوبر ؟

ـ لقد خرجنا بدروس جعلتنا اكثر قوة .. الخبرة .. المعنويات .. التدريب .. ونحن اقوى اليوم على مواجهة الاسرائيليـين اذا ما ركبـوا رءوسهم .. فاطمئنوا .

حرب ساخنة .. وراء الكواليس

من ٢٢ - ٢٥ اكتوبر

قصة وقف اطلاق النار قصة مثيرة . لم تتوقف الحرب وانما استمرت فيها بشكل اخر .. حرب وراء الكواليس .. وبالاساليب الدبلوماسية .. وهي الانتقالات والاتصالات والمناقشات ..

كيسنجر يقول لجولدا مایر سیدتي انت تلعبين بمستقبل شعبك .. وجولدا مایر تطلب من كيسنجر ان يكون يهوديا .. واقوال عن كيسنجر انه تلكأ في الاستجابة لطلبات اسرائيل من الاسلحة اسبوعا كاملا .. وانذار سوفيتي عن غير طريق الخط الاحمر .. وخمسون الف جندي سوفيتي يتحركون في اتجاه الشرق الاوسط .. وتهديد سوفيتي بفك الحصار عن الجيش الثالث .. والقمر الصناعي السوفيتي يكشف ابعاد الثغرة وتقرير لكوسيجين اثناء زيارته للقاهرة ..

كيف فتح السادات الباب على مصراعيه للولايات المتحدة للتراجع .. وكيف حقق نداء فلاح مصر الذكي للسوفيت والامريكان اهدافه ؟

ونبدا هذا القسم بحديث مع الرئيس انور السادات يلقي اضواء على كثير من المسائل .

٣١

قائد معركة العبور يتحدث

بابتسامة صريحة ، بسيطة ، قال لي الرئيس انور السادات :

ــ تشرب ابه الاول . . وبعدها هات ما عندك !

كان الوقت مساء ، واللقاء في شرفة البيت . والرئيس على سجيته ، يؤدي ــ باستمتاع ــ مهمة المضيف المصري الودود .

وجاءت اكواب الليمــون .

وتأملت في سكون الليل ملامح الرئيس وعيناه تنظران بعيدا ، عبــر الفضاء الممتد ، كانما تستشرفان آفاق المستقبل ، فانتهزت الفرصة ، وبدات الحديــث . . .

مسئوليتنا . . لا مسئولية امريكــا

● سيادة الرئيس . . كيف ترى المستقبل ؟ هل تعتقد انه ستنشب حرب جديدة ؟ ان اسرائيل لا تكف عن اصدار تصريحات تتحدث فيها عــن حرب خامسة .

قال الرئيس :

ــ لا افهم لماذا يهتز بعض الناس من مثل هذه التصريحات . انــي اعتقد ان معظمها للاستهلاك المحلي ، وان المؤسســة العسكرية في اسرائيــل ستفكر مرتين ، بل عشر مرات ، قبل ان تخوض مغامرة عسكريــة جديدة ضدنا . ويوم تقرر ان تخوضها ستجدنا مستعدين .

لقد خاضت اسرائيل ضدنا اربع حروب . كسبت ثلاثا منها ، ثم خسرت الرابعة . وهذه الخسارة غيرت الاوضاع التي ترتبت على الحروب الثلاثة السابقة . وخلقت في الشرق الاوسط وضعا جديدا تماما ، لا تملك اسرائيل ـ ولا غير اسرائيل ـ ان تتجاهله .

● لكن اسرائيل ، يا سيادة الرئيس ، تعمل جاهدة لتصفية هذا الوضع الجديد الذي ترتب على حرب اكتوبر . وبعض المراقبين يرون أن يد الصهيونية لعبت دورا في اسقاط الرئيس نيكسون ، كجزء من هذه التصفية . فما رايكم ؟

قال الرئيس :

ـ مما يؤسف له ان الصهيونية ليست وحدها التي تحاول تصفية ثمار اكتوبر . ان بعض الاخوة العرب ايضا يقومون بنفس المحاولة ، ويشككون في مغزى انتصار اكتوبر ، وفي التغيرات الضخمة التي احدثها محليا وعالميا . ولكن هذه ملاحظة هامشية . ولنعد الى سؤالك .

ان الواقع الجديد الذي فرضته معركة اكتوبر لن يغيره سقوط هذا او ذاك من الحكام فهذا الواقع صنعناه نحن . وكل تطور يطرا عليه سنكون نحن العامل الاول والعنصر الاساسي فيه . ان اكتوبر قد وضع ارادتنا على خريطة الاحداث لاول مرة ، والى الابد .

قد يجعلني سقوط هذا او ذاك من الحكام اغير خططي . وانا في السياسة لا اضع اوراقي على المائدة دفعة واحدة . ولهذا لا اهتم كل هذا الاهتمام بموضوع سقوط نيكسون . ولن احمل حملي لاحد .

● ماذا تعني بهذا التعبير يا سيادة الرئيس ؟

قال الرئيس :

ـ اعني انه اذا غيرت امريكا سياستها ، او تنصلت من وعودها ، لن اعتذر بأن نيكسون تغير ، وبأنه كان قد وعدني بكذا وبكذا . ان قضية التحرير مسئوليتنا ، وليست مسئولية نيكسون او فورد او كيسنجر

عندما كان اسماعيل فهمي (وزير الخارجية) في الولايات المتحدة ، اكد له الرئيس الامريكي جيرالد فورد ، ووزير الخارجية هنري كيسنجر ، ان امريكا ستظل ملتزمة بسياسة نيكسون . وهذا حسن . ولكننا ايضا مستعدون لاي احتمال اخر . لان القضية كما قلت قضيتنا ، ونحن المسئولون عنها ، لا الولايات المتحدة .

الهدوء ما زال سائدا . وكوب الليمون فرغ . والرئيس يلاحظ هذا ويطلب كوبا جديدا لي . لا يريد ان يتخلى عن دور المضيف الريفي الودود الكريـم .

● سيادة الرئيس ... ما تزال نظرتك الى دور الولايات المتحدة في حاجة الى تفصيل اكبر . لقد صرحت اكثر من مرة ، وكررت التصريـح اثناء زيارة الرئيس نيكسون للقاهـرة ، بان الولايـات المتحـدة قد غيرت سياستها نحو مصر . فما المعنى الذي قصدته بالدقة ، وما هي ابعاد هذا التغيير ... خاصة واننا نـرى الولايـات المتحدة مستمـرة في تسليـح اسرائيل ، وبنفس الحماس القديم ؟

قال الرئيس :

ـ ومن قال ان امريكا لن تواصل تسليح اسرائيل . لقد سلحتها قبل الحرب واثناءها ، وبعدها . ان الدبابات التي اسرعت مـن العريش الى ميدان القتال راسا كانت امريكية . وكل طائرة فانتوم اسقطناها او افلتت منا كانت امريكيـة .

لقد اكدت اكثر من مرة ان التغيـير في السياسة الامريكيـة ليس تحولا عن مسـاندة اسرائيل الى مسـاندة العرب . ولست اظن انه سيكون كذلك ابدا .. على الاقل في حياة جيلنا الحالي .

ان التغيير في السياسة الامريكية هو باختصار : رد فعل جديـد امام حقيقة عربية جديدة .. نحن غيرنا الصورة ، فتغير رد الفعل . قبـل اكتوبر لم تبال الولايات المتحدة حتى بالاستماع الينا ، ورفضت ان تحمل قضيتنا على محمل الجد ، او حتى ان تدرجها في جدول اعمال اهتماماتها، فلما عبر الجندي المصري القناة ، وحطم خط بارليف ، وحطم معه نظرية الامن الاسرائيلي وفوجئت الولايات المتحدة بمصالحها البترولية عاريـة بلا حماية .. كان لا بد ان تعيد النظر في سياستها وان تسرع الى تغييرها . وهو تغيير مصدره نحن . ويجب أن نستفيد منه ، ونطوره .

● الى اي مدى تتوقع ان نطوره ياسيادة الرئيس ؟ البعض يقولون ان مصر هي التي غيرت موقفها وليس الولايات المتحدة . وهم يستشهدون بحديث سابق لسيادتكم ، قلتم فيه انكم كتبتم الى الرئيس حافظ الاسد تقولون ان امريكا دخلت بثقلها في الحرب .. واننـا على غير استعـداد لمحاربة امريكـا .

قال الرئيس :

ـ نعم قلت هذا . وكانت امريكا هي التـــي تحاربنا فعلا . ولكـن كيسنجر كان في نفس الوقت يوقظ المستر هيث ، رئيس وزراء بريطانيا وقتها ، ليرجوه ان يتصل بنا لنقبل ايقاف القتال . حدث هذا فـي ١٣ اكتوبر ، في عز انتصار قواتنا واندحار القوات الاسرائيلية ، وفي الوقـت الذي بدأت فيه امريكا تدخل بكل ثقلها ، وباسلحة جديدة تماما ، ميـدان المعركـة

ماذا كنت تفعل انت وقتها ؟

امريكا قررت ان تحاربك . وفي نفس الوقت تلح على وقف القتال . معنى هذا انها بدأت تدرك ما لم تكن تدركه من قبل . وانها مستعدة لفهم جديد ، ولتبني سياسة جديدة .

هل كان علي وقتها ان أستمر في الحرب ، بما يتبعها من دمار ، ام استفيد من هذا التراجع الامريكي ؟

انني واثق من ان التاريخ سيحاسبني لو واصلت القتال ضد امريكا، بدلا من ان استفيد من تراجعها ، واشجعه ،واعمقه . وهذا ببساطة هو ما فعلت . واعتقد اننا حتى الان كسبنا من هـذه السياسة ، ولـم نخسر شيئـا .

● **هذا صحيح يا سيادة الرئيس . ويكفي ان سبعة الوية اسرائيلية، واربعمائة دبابة ، سحبت نفسها من غرب القنـاة بلا قتال بفضل هـــذه السياسة. ولكن تصريحكم عن عدم الاستعداد لمحاربة امريكا اثار بعض القلق. ولهذا احـب ان اسال : مـاذا لو ان امريكا غـــزت ارضنا غـزوا سريعا بقواتها و ...**

فلم يدعني الرئيس اواصل ، وقاطعني قائلا :

ـ وهل هذا سؤال ؟ هل تشك في اننا عندئذ سنقاتـل جميعا ... ابتداء من رئيس الجمهورية وانتهاء الى اصغـر طفل ؟

الثغرة .. والحرب المحدودة

وكوب الليمون الثاني لم يفرغ بعد . والرئيس يتأمل الاضواء البعيدة في ظلام الليل ويبدو واضحا ان حديثنا اثار في صدره بعض شجون المعركة، وبعض ذكرياتهـا .

● سيادة الرئيس ... عندما وجهتم نداء الى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لارسال قواتهما الى مصر ، وارغام اسرائيل على احترام وقف اطلاق النار ... هل كان وضعنا العسكري متدهورا بحيث احتاج الى هذا النداء ؟

قال الرئيس :

ــ لم يكن متدهورا على الاطلاق . انما اردت بهذا النداء ان اسجل التزام الدولتين الكبيرتين بحل القضية على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ... الذي يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة . وقد احدث النداء اثره . واجبرت اسرائيل على احترام وقف اطلاق النار ، والانسحاب من غرب القناة ، ثم الارتداد شرقا في سيناء .

● ولكن ... يقال يا سيادة الرئيس ان اسرائيل كانت قادرة على احتلال السويس عسكريا ، لولا تدخل رجال السياسة والضغط الدولي .

قال الرئيس :

ــ يرد على هذا الزعم حطام ٣٢ دبابة اسرائيلية ، ما تزال موجودة على مشارف السويس . ان هذا الحطام هو حصيلة المحاولة الاسرائيلية لاحتلال المدينة . واعتقد انه رد كاف على سؤالك .

● سيادة الرئيس ... ماذا كان يمكن ان تكون عليه الصورة العسكرية ما لم تحدث الثغرة ؟

قال الرئيس :

ــ كنت افضل ان يكون السؤال : من الذي صنع الثغرة اصلا ؟ ان امريكا هي التي صنعتها ، ولو لم تتدخل اسلحتها الجديدة ما استطاعت اسرائيل ان تخطو خطوة واحدة نحو الغرب . ومع هذا فالثغرة كان محكوما عليها بالتصفية ، وكانت خطة تصفيتها جاهزة ، لولا ان اسرائيل آثرت السلامة وانسحبت منها .

على انني ساجيب على سؤالك ، واقول : انه لو لم تحدث الثغرة لاستفدنا من الوقت في تطوير هجوم قواتنا ناحية الشرق .

● سيادة الرئيس .. اثار البعض كلاما حول هدف المعركة . فقالوا انها كانت معركة للتحريك لا التحرير . وانها كانت حربا محدودة فما هي الحقيقة ؟

قال الرئيس :

ـ هذه عبارات من قبيل التلاعب واصطناع الشعارات . ما التناقض بين التحريك والتحرير ؟ ان التحرير هو هدفنا من المعركة .. والتحريك هو احد وسائلنا ، وهو يعني صدم العدو ومن يقف خلفه والعالم كله وايقاظه بالنسبة لقضيتنا لارغام العدو على التراجع .

اننا نعلم وندرك ابعاد التوازن الدولي وحساسية منطقة الشرق الاوسط واهميتها بالنسبة للغرب والشرق .

ولذلك فان حرب اكتوبر كانت حربا محدودة تضرب نظرية الامن الاسرائيلي في الصميم لادراكنا ان ذلك سيتبعه تغييرات هامة تخطو بنا نحو التحرير الكامل للارض .

وفي الامر الاستراتيجي الذي اصدرته للقائد العام للقوات المسلحة حددت له اهداف هذه الحرب المحدودة في اربع نقاط :

★ ارغام اسرائيل على الحرب فيجبهتين .
★ الحاق خسائر بها لم تتكبد مثلها من قبل .
★ الزامها بالتعبئة العسكرية اطول مدة ممكنة .
★ ايقاظ التضامن العربي بحيث يستخدم العرب لاول مرة كافة اسلحتهم في المعركة .

وقد تحققت كل هذه الاهداف في حرب اكتوبر واثبتنا للعالم فساد نظرية الامن الاسرائيلية .

وابتسم الرئيسلحظة ثم اضاف ضاحكا :

ـ كنا ونحن اطفال في القرية نتصور ان الملك يلبس قبقابا من ذهب وقبل اكتوبر كانت نظرية الامن الاسرائيلية قبقابا ذهبيا من هذا النوع الموهوم . والان يعرف العالم كله كما يعرف اصحاب القبقاب انفسهم انه من خشب .. وان تحطيمه ممكن !

● ولكن يا سيادة الرئيس .. لماذا اخترتم ان تكون الخطة اصلا خطة حرب محدودة ؟

قال الرئيس :

ـ لا تستطيع اية قيادة ان تصنع خطة تتجاوز الظروف والامكانيات. ان الشرق الاوسط منطقة ساخنة جدا .. ومجرد تحريك مشكلته يكفي لايقاظ العالم كله . وكل خطة مسئولة يجب ان تضع في حسابها الظروف الدولية والامكانيات .

مصر والسوفيت :

سرح الرئيس ببصره عبر حاجز الشرفة ، واحسست للحظات انه نسيني ، فانتظرت بعض الوقت قبل ان استأنف سؤاله .

● سيادة الرئيس ... هل الامكانيات التي تشير اليها هي السلاح ؟

قال الرئيس :

ـ نعم .. لم يكن تسليحنا على خير حال .. وسأقول لك سرا لم يعرفه احد حتى الان . لقد دخلنا المعركة ونصف طائرات الهليكوبتر التي عندنا معطلة ، بسبب نقص في قطع غيارها .. وهي قطع كان يكفي لاستيعابها صندوقان تحملهما طائرة ركاب عادية ، ولكن الاصدقاء السوفيت لم يسعفونا بها .

● يقودنا هذا ، يا سيادة الرئيس الى مسألة العلاقات المصرية السوفيتية بصفة عامة . لقد سمعت كثيرين ، اثناء جولة اخيرة قمت بها في عدد من بلدان العالم ، يلقون تبعة الفتور بين مصر والاتحاد السوفياتي على عاتق مصر .. ويشيرون بوجه خاص الى انمصر سلطت الاضواء على كل من ساهم بدور في انتصار اكتوبر ، الا الاتحاد السوفياتي .

قال الرئيس :

ـ من قال اننا لم نسلط الضوء على الدور السوفيتي ؟

ان من يقول هذا يستطيع ببساطة ان يعود الى الصحف ، ليرى كيف تحدثت ، وكم مرة تحدثت انا عن دور السوفيت في مساعدتنا .. لقد صرحت ، والمعارك قائمة ، بأننا عبرنا بالسلاح السوفيتيواكدت اكثر من مرة ، وفي قمة تجمد العلاقات بيننا ، اننا نقدر دور الاتحاد السوفيتي ومساعداته ومناصرته .

● ما هي المشكلة اذن ؟

قال الرئيس :

ـ المشكلة كانت دائما حول موقف الاتحاد السوفيتي من تسليحنا ، ولهذه المشكلة تاريخ طويل سبق ان شرحته ، ولا اجد فائدة في تكراره ، واثناء الحرب امدت امريكا الجيش الاسرائيلي باسلحة تعوض كل ما فقده ، وبأسلحة جديدة لم تكن لديه ، بينما الجسر الجوي السوفيتي كان ينقل

الينا صفقات سبق الاتفاق عليها ، وتأخر تنفيذها ، وكان مفروضا ان تصل قبل ٦ اكتوبــر .

وقد رحبت ، مع ذلك .. بهذا الجسر اروع ترحيب ، وعندما زارنا كوسيجين اثناء القتال ، قلت له : هذا حقا هــو الاسلوب الــذي ينبغي ان يسود علاقاتنا .. ولننس ما فــات

ولكن ما كاد القتال يتوقف حتى توقف ورود الاسلحة ، حتى المتفق عليها ، والمتبقية من العقود السابقــة ، بينما أستمــر الجسر الجــــوي الامريكي يعوض اسرائيل عن كل ما فقدته .. لم نحصل نحــن على طائــرة واحدة من الطائرات التي فقدناها ، ولم يبدءوا في تعويض الدبابات الا بعد اسبوع من وقف القتال .. رغم حاجتنا الشديدة الى الدبابات اثناء معركة « الثغــرة » .

وسكت الرئيس لحظة .. ثم اضاف :

ـ لقد جمد السوفيت مساعداتهم حتى في غير المسائل العسكرية .. هل تتصور انهم طالبوني بثمانين مليون دولار من فوائد الديون في نفس الاسبوع الذي اعتمد فيه الكونجرس الامريكي ۲۲۰۰ مليون دولار لاسرائيل؟

● ما السبب يا سيادة الرئيس ؟

قال الرئيس :

ـ انهم حتى الان لم يشرحوا السبب .

● لكننا نعلم ان من المبادىء المقررة في السياسة المصرية ان الصداقة المصرية السوفيتية صداقة استراتيجيــة . فهل تغير هــذا ، خاصة وان الاحاديث تتردد كثيرا عن سياسة اكثر توازنا ما بين الشرق والغرب ؟

قال الرئيس :

ـ من جانبنا لم يتغير شيء .. وموقفنا من الصداقة مع السوفيت ما يزال نفس الموقف .. والدليل على هذا هو تجديدي للتسهيلات الممنوحة للاسطول السوفيتي عندنــا .

ان جوهر المشكلة هو موقف السوفيت انفسهم وضرورة ان يتفهموا مضمون الصداقة بيننا ، وحرصنا على طابع الندية فيها .

اننا حريصون على الصداقة المصرية السوفيتيــة وعلى تجاوز كــل اسباب سوء التفاهم .. ومهما حدث ، فلا جدال في ان هذه الصداقــة

قائمة ومجسدة في السد العالي في اسوان ، ومجمع الحديد والصلب في حلوان ، وفي تزويدنا بالسلاح منذ عام ١٩٥٥ .
لكنني اكرر مرة اخرى .. ينبغي على السوفيت ان يتفهموا جوهر صداقتنا ، وطابع الندية فيها .

● هل تحسنت العلاقات بعد مقابلة الدكتور حجازي للرئيس بودجورني ، والرسالة التي حملها منه ، خاصة وقد ذكرت الصحف ان الرئيس بودجورني قال للدكتور حجازي : ان الطريق الى صداقة العالم العربي يجب أن يمر بمصر .

قال الرئيس :

ـ اعتقد ان التفاهم بيننا يتزايد .. وان العلاقات الان تتقدم وتتحسن .

سياسة المحاور

● سيادة الرئيس .. ماذا عن علاقاتنا العربية ؟

لقد نجحتم حقا في خلق وتدعيم اوسع جبهة بين الدول العربية قبل الحرب واثناءها .. ولكن البعض ياخذ علينا اننا بدونا منحازين لدول عربية اخرى ، فما قول سيادتكم ؟

ابتسم الرئيس وقال :

ـ انني اعتبر التضامن بين العرب في حرب اكتوبر من اروع فصول هذه الحرب ومن اهم نتائجها . ويكفي اعتراف اساتذة الاستراتيجية في العالم بان العرب قد اصبحوا يشكلون بعد اكتوبر « قوة عالمية سادسة » وهذا تعبيرهم ، وليس من عندي .
اما الذين تحدثوا ويتحدثون عن انحيازنا لدول عربية اخرى ، فهم ما زالوا متاثرين بنظرية « المحاور » القديمة .. ومن هنا حديثهم عن محور « مصر ـ السعودية » مثلا . وهو حديث لا يستند الى اساس ، وينطوي على خطأ في فهم الواقع وظروف المعركة .
اننا جميعا نخوض معركة مصير عربي واحد وقد فرضت ظروف هذه المعركة ، وقدر التاريخ ان تكون مصر القاعدة العسكرية الاساسية وان تكون السعودية مالكة ستين في المائة من الاحتياطي البترول العربي .. فلما تساندت قدرة مصر العسكرية وسلطان السعودية البترولي بدا كل منهما

اكثر فعالية . ولكن النصر في اكتوبر كان للعرب جميعا .. وشاركت في انجازه كل المساهمات العربية على اختلاف مصادرها وانواعها واحجامها .

ان من حقائق المعركة ان السعودية ، بحكم سيطرتها البترولية ، تملك تاثيرا هاما على الحسابات الامريكية وساضرب مثلا : عندما جاء كيسنجر ، خاطبني بافاضة حول الحظر العربي على البترول ، وكيف انه يضر بالمصالح الامريكية ضررا بالغا .. وطبيعي انه لم يكن يحدثني بشأن البترول المصري .. فمصر لا تملك بترولا .. وانما السعودية هي التي تملك ٦٠ في المائة من بترول العرب ، كما قلت لك .. وقدتخاطبت بعد ذلك مع الملك فيصل في الموضوع واتفقنا على موقف جديد ، كان له بالفعل اثر بالـغ .

هل يمكن ان نطلق على شيء كهذا تعبير « محور مصر ـ السعودية » ؟

اننا لسنا من انصار المحاور ولا نؤمن بجدواها وسياستنا هي السعي الى تضامن عربي شامل وتنقية الجو العربي دائما من الشوائب .. ولا اتصور ان هناك سياسة اخرى يمكن ان تخدم العرب في وقت يواجهون فيه معركة تحريـر كبرى .

● **وما حال التضامن الان في راي سيادتكم ؟**

قال الرئيس :

ـ في ازهى صوره .

● **كيف الحال مع العراق ؟**

قـال :

ـ علاقاتنا بالعراق طيبة جدا .. وتتحسن كل يوم .

● **وليبيـا ؟**

قـال :

ـ المشكلة الجوهرية في علاقاتنا مع الجمهورية العربية الليبية انها تريد ان تلعب دورا اكبر من حجمها وطاقتها .. وستظل هنـاك مشكلـة طالما العقيد معمر القذافي مصر على اتباع هذه السياسة .

● **وماذا جرى في زيارته الاخيرة ؟**

قـال الرئيس :

ـ لقد جاء وصفينا الحساب معا .. بمعنى اننا حصرنا ما كان لـه عندنا من اسلحة وودائع ..

الوقت يمتد بنا .. وموعد العشاء قد فات .. ونائب رئيس الوزراء ممدوح سالم ، وصل منذ فترة وانضم الينا .. واسئلتي لم تفرغ بعد .. والرئيس يصبر .. لانني ضيفه .

● سيادة الرئيس .. هناك مسائل داخلية يلح الـراي العام فـي الاستفسار عنها ، وفي مقدمتها موضوع « الانفتاح » .. ما مغزى هـذا الشعار ؟ وما علاقته بالمعركة ؟

قال الرئيس :

ـ اظنني اوضحت في احاديث سابقة ان سنوات الصمـود الست كانت قد هبطت بوضعنا الاقتصادي الى مستوى سيء جدا .. وبعد المعركـة كان طبيعيا ان تطفو الى السـطح مشاكل اقتصادية جديدة كالتعمير مثلا .. وشعار الانفتاح يهدف بالتحديد الى مواجهة هذه الظروف .

ان العالم كله ينفتح على بعضه البعض ... الاتحاد السوفيتي ينفتح على الغرب ويتفق على قروض بمليارات الدولارات .. ودول عربية بترولية مثل العراق تحصل على قروض من فرنسا واليابان و.. فلم لا نتبع نفس السياسة نحن ايضا لنطور اقتصادنا ، دون ان يمس ذلك بالطبع استقلالنا ؟

لقد اعلنا ، وما زلنا نعلن ، اننا نرحـب في المقـام الاول برءوس الاموال العربية .. فهي اولى واجدر بالمساهمة في التنمية على النطـاق العربي كله .. وهي بذلك تساهم في خلق السوق العربية المشتركة ، وفي تدعيم وتعزيز التضامن العربي .

ولا باس لدينا ، في نفس الوقت ، من الاستعانة برءوس الامـوال الاجنبية وتشجيعها ، خاصة في مشاريع التعمير .. ودائما بشرط عـدم التفريط في استقلالنا او في خطط التنمية التي نضعها لبلادنا .. هذا هـو مغزى الانفتاح ومفهومه .

● يقودنا هذا ، ياسيادة الرئيس الى قضية التعمير ذاتها . ان هناك من يتساءلون كيف تعمرون وتنفقون الملايين على مدن القناة بينما الحرب لم تنته بعد ، وما نبنيه اليوم قد يدمر غدا ؟

قال الرئيس :

ـ سمعت هذا السؤال كثيرا .. وآخر من اثاروه معي كانوا الاخوة الصحفيين من الخليج العربي .. لكنني ارد على السؤال بسؤال آخر : هل

يمكن ان اترك مليون مهجر يعانون التعاسة والغربة والضياع سبع سنوات. ثم اطالبهم بمزيد من الانتظار ؟..

ولنفرض ان الحرب اشتعلت من جديد . وهذا احتمال قائم طبعا ، فقد سبق ان اعلنت ان مدن القناة اصبحت من مدن عمق الجمهورية .. وان اي ضرب لها سارد عليه بالضرب في مدن العمق في اسرائيل

ثم من قال ان الاستعداد للقتال ، او توقفه ينفي المضي في البناء ، لقد رفعنا من زمن طويل شعار « يد تبني ويد ترفع السلاح » .. وجاء تطور الاحداث يثبت انه شعار سليم تماما . فما بنيناه في سنوات الصمود كان دعامة معركة اكتوبر وبالذات القطاع العام المدني .. الذي لعب دورا اساسيا في كسبها وزودنا بمعظم احتياجاتها .

ان المعركة لم تكن ابدا ، ولن تكون ، حجة للكف عن البناء والتراخي فيه .

● ولكن .. من اين المال ؟

قال الرئيس بحسم :

ـ من امكانياتنا اولا .. من عرقنا وكدحنا . ثم من التمويل الخارجي.

الحوار .. والاحزاب

بقي سؤال لا ادري كيف اطرحه .. سؤال عن الحوار الساخن الدائر في هذه الايام حول التطوير السياسي . فكرت ان امهد له بالاشارة الى بعض ما تنشر « روز اليوسف » فاذا به يعلق على عددها الاخير المخصص لعيد الفلاح .. ويبدي اعجابه بمقال صلاح حافظ الافتتاحي عن « مصر الاخرى » .. مصر الفلاحين ، ويقول لممدوح سالم : هذا هو الكلام الذي يجب ان يقال .. هذه مصر الحقيقة التي تعمل وتضحي وتطعم الاخرين، ولا يشغلها ما يشغلهم .

ووجدت الفرصة سانحة عندئذ لالقي بسؤالي .

● سيادة الرئيس .. ما رايكم الشخصي فيما يدور الان من حوار حول الاتحاد الاشتراكي ، والاحزاب ، والمنابر ، ونسبة العمال والفلاحين في مقاعد المنظمات السياسية و ....

واذا بالرئيس يقاطعني :

ـ هذا هو السؤال الذي لن اجيب عليه ! انني اتابع الحوار ، واقرا كل ما ينشر حوله .. ولكني ارفض ان اقول رايي الان ، حتى لا تتأثر حرية المناقشة . ان الحوار ظاهرة صحية ... والديمقراطية هي العمود الفقري للوحدة الوطنية التي اثبتت وجودها ، وتجلت كاروع ما تكون ايام المعركة . ونحن في حاجة الى هذه الوحدة ... لان المعركة لم تنته بعد .. واكرر : لم تنته بعد .

● سؤال اخير يا سيادة الرئيس ، طرا على ذهني الان وانت تقول ان المعركة لم تنته بعد .. لقد شاهدت اخيرا عملية عبور قامت بها قواتنا المسلحة في منطقة القناة ما هو انطباعكم بعدها ؟

قال الرئيس :

ـ ان العالم الذي راى حال جيشنا في يونيو ١٩٦٧ قد ذهل عندما رآه في اكتوبر ١٩٧٣ ... لقد نفذ جيشنا قرار وقف القتال وهو سليم وقوي وبعد بيان العبور ثبت انه ازداد قوة .

انا بهذا البيان قلنا للعالم : ها نحن نمد يدنا للسلام ونحن اقوياء . وسنذهب الى جنيف ونحن اقوياء .

اننا لسنا « ديماجوجيين » وليس لدينا ما نقول للاستهلاك المحلي.. فالمعركة لم تنته .. وقرارات مجلس الامن لتسوية عادلة ، موجودة . وضمان وتعهد الدولتين الكبيرتين موجود .. فاذا ركبت اسرائيل راسها فسنحارب ولن نكف حتى يخرج آخر جندي اسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة .. وكل شيء في طريق هذا الهدف محسوب ، وكل الاحتمالات نحن مستعدون لها وقادرون تماما على مواجهتها .

● شكرا سيادة الرئيس .. لم تبق عندي اسئلة .

ـ اذن .. تبقى للعشاء !

٣٢

آثَار .. ودُروس ..

« في العالم المتحضر كله ليس لنا سوى صديق واحد هو الولايـات المتحـدة »

« جولدا مايير »

ان لحرب اكتوبر آثار ونتائج عسكريـة وسياسيـة واقتصاديـة واجتماعية ، وقد تناولت ورقة اكتوبر التي صدرت في مصر التغيـيرات التي حدثت في اوضاع منطقة الشرق الاوسط والعلاقات الدولية بعد حرب الساعات الست ..

عكفت كل معاهد الدراسات الاكاديمية والعسكرية على دراسة آثـار تلك الحرب ودروسهـا ..

ولقد قيل كلام كثير عن ان واحدا من ابرز نتائـج تلك الحرب هـو تحطيم نظرية الامن الاسرائيلي .. الا ان القليل جدا كتب عن هذه النظرية : ما هي ، فحواها .. هل هي باطلة ام صحيحـة ؟

نظرية الامـن الاسرائيلـي

لنقرأ معا التصريحات التالية لمسئولين اسرائيليين لنستطيع تفهم تلك النظريـة :

قالت جولدا ماير مرة في ٩ يوليو ١٩٦٩ « ان أمن وتطور دولة اسرائيل يقضي باقامة كيبوتزات جديدة في الاراضي المحتلة » .
ثم اضافت : ان هذه الكيبوتزات يجب اقامتها باسرع ما يمكن في الجنوب والشمال والشرق » .
وهذه العبارة يمكن قراءتها او ترجمتها على النحو التالي : سيناء وسوريا والاردن . وصرح اسرائيل غاليلي في جيروليزم بوست في ٢٥ يوليو بقوله « ان اقامة المستعمرات واعمال التوطين لا تفرضها فقط اعتبارات الامن ولكن تفرضها ايضا الحقوق التاريخية » .
وقال موشى ديان في نادي الصحافة في ٢٧ ديسمبر ١٩٦٨ :
ليس لاقامة المستعمرات اهمية كبيرة من وجهة نظر امن الدولة واعتقد ان التوطين ذا اهمية كبرى ووزن حاسم فيما يتعلق بخلق الاوضاع السياسية القائمة انطلاقا من المبدأ الذي اكده رئيس الحكومة وهو ان اي مكان يتوطن فيه مركز سكاني أو مستعمرة زراعية لن يتم التخلي عنه .. »
واذا ما تركنا هذه التصريحات التي تنضح بالنزعة التوسعية النهمة والوقحة ايضا .. لنرى ايضا بعض التصرفات العملية ولنتأمل مغزاها فاننا سنفهم نظرياتهم الجديدة والقديمة معا ..

● محت اسرائيل من الخرائط الاسرائيلية اسم شرم الشيخ من الطرف الجنوبي من سيناء المصرية وسمت المنطقة باسم جديد هو « اوفيرا » وهو اسم ورد في التوراة .

● انشئت ٤٤ مستعمرة في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧

● ذكر اريك رولو رئيس قسم الشرق الاوسط بجريدة الموند الفرنسية في ٩ يناير ١٩٧١ ان الضفة الغربية اصبحت ثاني عميل عالمي للمنتجات الاسرائيلية باستبعاد صادرات الماس بعد الولايات المتحدة وقبل بريطانيا .
وقد وصلت الاجور المدفوعة للعمال العرب العاملين في اسرائيل في تلك السنة الى ٣٠٠ مليون ليرة .
كما وصلت الصادرات الى الضفة الغربية والى غزة الى ٣٨٠ مليون ليرة .

● في بداية ١٩٧٣ ناقشت الحكومة الاسرائيلية خطة بناء مدينة يهودية باسم « يا ميت » في بتاح رفح . وهجروا فيها ٣٥٠ اسرة من يهود الاتحاد السوفيتي بعد طرد ٤٥٠ اسرة عربية .

ثم ان العالم كله قد قرأ بدهشة العريضة التي وقع عليها موشى ديان والتي تطالب بتوطين الاسرائيليين في الضفة الغربية وطرد « الاجانب » منها اي العرب سكانها الاصليون !

ليس صعبا بعد ذلك ان نستنتج نظرية الامن الاسرائيلي هذه وفحواها ..

في الاصل ان اسرائيل قائمة على اغتصاب ارض لا تملكها .. ثم على التوسع في تلك الارض ، فالحلم الصهيوني القديم هو استيراد سبعة عشر مليون يهودي مبعثرين في العالم .. ليشكلوا دولة صهيون (اسرائيل) .

ومن الطبيعي ان اقامة مثل تلك الدولة الكبيرة لا يمكن تحقيقه على شريط ضيق من الارض (ارض فلسطين التي تغتصبها اسرائيل الان بل لا بد من مزيد من الارض .. اي مزيد من التوسع ..

وهذا التوسع لا بد من تامينه ، اي حمايته ناهيك عن تأمين الاغتصاب الاصلي ذاته .

ولما كان الاغتصاب قد تم لارض عربية — ولما كان التوسع لا مجال له الا في ارض عربية ايضا .. فان التأمين يجب ان يكون ضد العرب .

والتأمين يعتمد على القوة المسلحة الرادعة التي تتكون كما بينا عند مناقشة النظام العسكري الاسرائيلي من التفوق الجوي والمدرعات وانهاء الحرب في اقصى فترة ممكنة وتحاشي مجابهة العرب مجتمعين وضمان مؤازرة دولة كبرى بصفة مستمرة .

ولا بد للتامين من حدود آمنة . فما هي الحدود الآمنة في نظر القيادة الصهيونية ؟

استولي على ارض جديدة لاكون في وضع اكثر ملاءمة للدفاع عن نفسي (لاحظ ان اسرائيل لم تحدد قط حتى الان في خريطة ما حدودها هي بالضبط ولكن العالم يعرفها وهي تعرف نفسها بحدودها الحالية قبل عدوان ١٩٦٧

ولكن ضم ارض لحماية كيانها سرعان ما يحول تلك الارض الى جزء من الكيان ذاته ..

ومن ثم تحتاج القيادة الاسرائيلية الى ارض جديدة لتكون في وضع اكثر ملاءمة للدفاع عما ضمته من قبل .. وهكذا حلقة مفرغة لا تنتهي .. والتوسع لا ينتهي ..

من هذا يتضح ان اسرائيل كيان هلامي غير ثابت وحكاية الحدود الآمنة

هلامية ايضا . فاي دولة في العالم عندما تتكلم عن الحدود الآمنة تقصد حدودها الدولية المعترف بها .

اما عند اسرائيل شيء غير هذا . .

كي يكون الحد آمنا لا بد ان يعتمد على مانع طبيعي او صناعي يدعمه بنظام عسكري دائم .

مانع لا يمكن اختراقه .. ولا بد ان يكون بعيدا عن عمق الدولة الحالية .. وقريبا من عمق الدول العربية (نهر الاردن مثلا .. الممرات في سيناء .. بعض المناطق في الجولان وعلى اي حال راجع مشروع جاليلي وغيره من القادة الاسرائيليين) .

اما النظام العسكري فيجب ان يكون رهيبا لاحداث تاثير نفسي على الجندي العربي حتى يستطيع تحطيمه .

ماذا يعني العرب عندما يقولون نحن حطمنا نظرية الامن الاسرايلي ؟

نعني اننا حطمنا فكرة الحدود الآمنة .. البعيدة عن الحدود الدولية لاسرائيل اي يمكن ان يسترد العرب الاراضي المحتلة .

واننا استطعنا ان نضرب النظام العسكري الاسرائيلي في الصميم ونسبب له خسائر فادحة دون ان ينفعه التفوق الجوي او المدرعات او .. الخ .

ويترتب على ذلك اربع نتائج مهمة :

اولاها ان العالم سيرى ان نظرية اسرائيل عن الحدود الآمنة بالتوسع في اراضي الغير شيء لا يمكن قبوله دائما لان اصحاب الارض سيعودون لاستعادتها بالقوة ويثيرون اخطارا على السلام العالمي .

ثانيا : ان الولايات المتحدة الحليفة لاسرائيل والتي تستخدمها كاداة ضد الحركة الوطنية العربية سترى ان هذه الاداة غير صالحة تماما لان هناك من هو اقوى منها او من هو ند لها او من يمكن ان يضربها ضربات موجعة وذلك يرغم الولايات المتحدة على اعادة النظر في سياستها في المنطقة (وهو ما قد حدث كما سنرى بيانه فيما بعد) .

ثالثا : ان المؤسسة العسكرية ذاتها في اسرائيل قد ضعف شانها وهذا يجعلها اقل غطرسة .. واكثر استعداد لتقبل ضغط الولايات المتحدة عندما تعدل سياستها نسبيا .

استمع الى موشى ديان في الكنيست الاسرائيلي وهو يرد على اعضاء جماعة ليكود اليمينية وهم يصرخون غاضبين منتقدين الحكومة الاسرائيلية لقبول الضغط الامريكي بشأن تموين الجيش الثالث المحاصر .

قال موشي ديان متوجعا : اني افهمكم ولكن لم يكن لنا خيار !

رابعا : وهذا يتعلق بالكيان الاسرائيلي نفسه ، فقد توهمت اسرائيل بفضل نظرية الامن الاسرائيلية تلك انها ستغدو قوية وستحصل على المجال الحيوي بحيث تتمكن من الانفتاح لاستيعاب ملايين جديدة من المهاجرين اليهود اما عن طريق التشبث المتعاظم بالاراضي الجديدة التي احتلتها بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ او بفضل عقد معاهدة صلح مع جيرانها العرب اذا ما ارغمتهم على الاستسلام . .

ولقد كان اليهود في العالم يجتذبون الى اسرائيل « ارض الميعاد » حالمين بحياة افضل ، اذ كانوا يرون في تلك الدولة الصغيرة بلدا قويا ومزدهرا في نفس الوقت . . امتدادا لاوربا في صحراء العرب القاحلة . اي بلاد مؤهلة ان تضمن لهم الامن والحياة على النمط الغربي .

اما الان وقد تحطمت نظرية الامن الاسرائيلي بعد ان تهاوت طائراتهم المنيعة وقتل منهم الالوف . . فلم يعد بالامكان اعطاء ضمانة للهجرة .

ولندع الارقام التي اذاعتها وكالات الانباء الغربية ذاتها في ١٧ اكتوبر ١٩٧٤ تتحدث :

• انخفضت الهجرة الى اسرائيل بنسبة ٣٣ ٪ في الاشهر الستة الاولى من عام ١٩٧٤ نتيجة لما احدثته حرب اكتوبر الماضي من اضطراب اقتصادي وعدم استقرار سياسي ، وذلك على عكس ما حدث في اعقاب حرب يونيو عام ١٩٦٧ اذ كانت الهجرة الى اسرائيل قد ارتفعت بصورة ملحوظة .

ولقد ادت حرب اكتوبر التي لم تكن في صالح اسرائيل الى ان يعدل كثيرون من اليهود عن عزمهم على الهجرة الى اسرائيل .

وفي رأي المسئولين عن الهجرة ان مزيجا من التضخم الاقتصادي الذي تربو نسبته على ٣٠ ٪ ، وضرائب الحرب الجديدة ، والتقشف الذي فرضته الحكومة وكذلك احتمال تجدد القتال في المنطقة قد حمل الالوف من المهاجرين المحتملين على العدول عن عزمهم .

وقال يوزى ثاركيس رئيس ادارة الهجرة في الوكالة اليهودية « علينا ان نواجه الوضع ، فان الموقف في اسرائيل اليوم ليس على افضل ما يكون ، وانه من الصعب الاقامة في اسرائيل الان ، والناس قلقون ازاء احتمال نشوب حرب جديدة في المستقبل القريب » .

وحتى تدفق المهاجرين السوفيت الذي يمثل اكثر من نصف مجموع المهاجرين في السنة الماضية . انخفض بنسبة نحو ٥٠ ٪ منذ شهر يناير الماضي .

وعلى عكس ذلك ارتفعت بسورة مطردة منـذ شهر اكتوبـر الماضي نسبة اليهود السوفيت الذين اختاروا الهجرة الى الولايات المتحدة ، وكندا، ودول اخرى بدلا من اسرائيل ، ويقول المسئولون في ادارة الهجرة ان نسبة هجرة هؤلاء اليهود قد قفزت الى ٢٢ ٪ في الشهـر الماضي ، مقابـل ٤ ٪ في شهر يوليو عام ١٩٧٣ .

وقد بلغ مجموع المهاجرين الذيـن وصلوا الى اسرائيـل بين شهري يناير ويونيو من العام الحالي ١٦٫٨٥٣ مقابل ٢٤٫٣٧٤ حلال المدة نفسهـا من العام الماضي ، وذلك وفقا للارقام التي اعلنتها الوكالة اليهودية المسئولة عن ادارة استيعاب المهاجرين .

نمو التناقضات الاجتماعية داخل اسرائيل :

يترتب على تحطيم نظرية الامن الاسرائيلي بما تحويه من اسطـورة التفوق للجيش الذي لا يقهر .. الخ .. وثبوت نديـة الجيوش العربيـة للجيش الاسرائيلي حرمان حكومة اسرائيل من عنصر اساسي كانت تمتص به التناقضات الداخلية ، وتبـرر به التضحيـات التـي تفرضهـا على جماهيرها .. فقد اعتمدت الحكومة على ان انتصارات الجيش الاسرائيلي وامجاده تستحق كل القيود والتضحيـات المفروضة على سكانها لتوفـير الاحتياجات العسكرية .

لكن الهزيمة لا تصلح مبررا لتقديم تلك التضحيات !

إن مناخ هزيمة المؤسسة العسكرية هو افضل اطار لتفجر التناقضات الطبقية والعنصرية في اسرائيل والتي كانت الانتصارات تطغى عليها وتغطيها وتعطي الدولة مبررا لقمع مثيريها .

ان الاسير الاسرائيلـي الافغانـي الاصل الذي تحدث في التليفزيـون المصري ايام الحرب ما كان يمكن ان ينقد التفرقة العنصرية في بلده وما كان يمكن ان يرفض توجيه اي حديث لقادته لو ان الجيش الاسرائيلي كان جيشا منتصـرا .

ولقد رأينا كيف عبر اسرائيليون كثـيرون ليسوا الا صهاينة فـي الاصل عن قلقهم وتبرمهم وسخطهم على حكومتهم .. بل وبدعوا يتحدثون عن السلام وحقوق شعب فلسطين . وقد قدمنا نماذج لافكارهم وخواطرهم في الفصل الخاص بهل العسكري الاسرائيلي جبان ؟ .

ابتزاز اليهود في العالم :

حدثت الحكاية الطريفة التالية .. توجه عدد من اليهود المقيمين في بلد اوربي غربي وكانوا اصلا يهودا مصريين وخرجوا من مصر في اعوام ٤٨ — ٤٩ — ٥٦ — ١٩٥٧ . وطلبوا مقابلة السفير وقابلوه . ودهش عندما قالوا له اننا نهنئكم على نجاحكم ضد اسرائيل لانكم ستكفون ايديهم عنا قليلا . اذ هم دائما يبتزوننا بطلب التبرعات .. اما الان فسنقول لهم لا .. وليس لهم عين يطالبوننا بشيء ..

من المؤكد ان هؤلاء اليهود انفسهم أو معظمهم كانوا يصفقون لانتصار اسرائيل عام ١٩٦٧ ويهتفون في شوارع اوربا : المانيا معنا.. فرنسا معنا.. انجلترا معنا .. ايطاليا معنا .

يقصدون انهم كيهود ليسوا فرنسيين أو انجليز أو ايطاليين .. انما يهود .. مرتبطون باسرائيل الوطن الام لكل يهود العالم ! ..

اما النتائج العسكرية ..

فلقد تحدث المشير احمد اسماعيل عنها في ندوة الرواد العسكريين والسياسيين بنقابة الصحفيين في ١٣ اكتوبر ١٩٧٤ فقال عن تلك النتائج والدروس المستفادة من الحرب :

● ثبت أن الدفاع مهما كان قويا يمكن اختراقه ، ان هذا درس قديم لكن الجديد في هذا المبدأ ، اننا كنا نواجه مانعا كقناة السويس ، كخط بارليف ، واختراقه بهجوم مجهز ، لقد كنا نواجه بعضنا على مسافة قليلة واستطعنا مفاجأة العدو بهجوم قوي ، رهذا مبدأ جديد في معركة جديدة ، لم ولن تحدث في التاريخ .

● كانت القوات الجوية هي العامل الحاسم . اثبتنا العكس ، استطعنا بشبكة الدفاع الجوي ، والمقاتلات ان نحيد القوات الجوية ، هذا مبدأ جديد ، واليوم يدور النقاش حول ، هل يتم تدعيم الصواريخ ، هل يتم تدعيم المقاتلات ، ما هي نسبة هذا الى ذاك ؟

● المشاة والمدرعات ، لقد دمرنا دبابات العدو بالصواريخ المضادة التي يحملها مشاة ، الفكر العسكري اليوم يناقش دور الدبابة ، هل يتم تطوير الدبابة ام تطوير الصاروخ ، لقد استخدم العدو الصواريخ المضادة للدبابات عام ٦٧ ، لكنه لم يغير دور الدبابات . أن طريقة استخدامنا

للصواريخ ، حشدنا لها ، كيف قاتلنا بها ، هذا هو الفن . نحن نعلم ان مشاتنا كانت ستعبر وتقضي فترة بدون مدرعات ، كان لا بد من تدعيمها بالاسلحة المضادة للدبابات بأسلوب معين ، ان بعض الدول اوقفت انتاج الدبابات حتى تنتهي المناقشة الدائرة حولها .

● كانت اسرائيل تقول ان المدفعية غير مهمة ، وان الدبابة تكفي ، اليوم نجدها بتعمل العكس ، تدعم المدفعية كنتيجة لحربنا في اكتوبر .

● اصبح يدور اليوم حديث طويل ، حول ، هل يتم تزويد الجيوش بسلاح حديث وغالي الثمن ، ودقيق ، بحيث ان الطلقة تصيب هدفها بدقة ، أم تزود الجيوش باسلحة رخيصة وكثيرة ، بحيث تنتج كمية نيران ضخمة ، واذا حدثت خسائر في بعضها لا تؤثر ، ان هذا الموضوع ما زال يناقش كل جانب له وجهة نظر ، هذه هي بعض النقاط الجديدة التي طرحت على الفكر الاستراتيجي العالمي كنتيجة لحرب اكتوبر .

وواقع الامر ان التكتيكات العسكرية المصرية قد تخطت الاطار المحلي للصراع العربي الاسرائيلي المسلح الى الاطار العسكري الدولي خاصة في الدوائر الغربية (البنتاجون وحلف الاطلنطي .

وفي هذا الصدد يقول المعلق العسكري المصري الاستاذ محمود عزمي:

« وهكذا بلورت الدماء العربية للمرة الاولى ، وعلى نطاق واسع وفعال ، خبرات قتالية ثمينة ذات قيمة حقيقية شكلت اساسا لتطوير قدرات الجيوش العربية (متى توفر لها دائما التسليح والاعداد المناسب) في المستقبل ، واصبحت تمثل اللبنة الاولى في التراث العسكري العربي الحديث . وذلك بعد ان كانت الدماء العربية في حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ مجرد حقل تجارب لنظريات الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية وعقائدها التكتيكية واساليب ادارتها للعمليات ، يتبلور فيه فن الحرب الاسرائيلي بشكل يجعل له بريقا يلفت انتباه كبار الكتاب الاستراتيجيين في العالم الغربي امثال « ليدل هارت » و « اندريه بوفر » ، ويثير حنق العسكريين السوفيات في الوقت ذاته ، لان اسلحتهم وخبراتهم التدريبية تبدو عاجزة أمام فن الحرب الاسرائيلي » .

ومن النتائج العسكرية ايضا لحرب اكتوبر أن الحاجز الصيني بين الاسلحة الدفاعية والاسلحة الهجومية قدسقط .

وقد وصف احد قادة المدرعات الاسرائيلية في حرب ١٩٧٣ كيف فوجئوا

بتكتيك المشاة المصرية الجديد في استخدام صواريخ « ساجر » المضادة للدبابات بشكل كثيف ومن مسافة كيلومترين او ثلاثة ، برغم علم القيادة الاسرائيلية المسبق بوجود هذه الصواريخ ضمن تسليح الجيش المصري ، فيقول انهم « كانوا يتحركون على شاكلة « الفيالق » الرومانية (اي اللوجيونات) . كتلة من الجنود تتوسطها الصواريخ والدبابات . وهكذا كانوا يتوقفون ويتحركون الى الامام والى الخلف . فيلق روماني كثيف جدا » وقدمت مظلة صواريخ « سام ٦ » و « سام ٢ ، ٣ » ، التي دعمتها صواريخ الكتف الصغيرة « سام ٧ » ونيران الرشاشات الرباعية المواسير والموجهة بالرادار والمركبة على شاسيهات دبابات معروفة باسم « زدس يو ـ ٢٣ » (وهي ذات معدل مرتفع من النيران يبلغ ٤٠٠٠ طلقة في الدقيقة ، قدمت الحماية اللازمة ضد الطيران الاسرائيلي الذي لا تستطيع المدرعات الاسرائيلية ان تعمل بدونه بفاعلية في معظم الاحوال على ضوء خبرات ١٩٦٧ .

كما يصف قائد اخر للمدرعات الاسرائيلية هجوم رجال «الكوماندوس» المصريين اي « الصاعقة » ، على الدبابات الاحتياطية المتوجهة الى جبهة القناة خلال الايام الاولى للحرب ، بواسطة الكمائن التي اقاموها في عمق محاور التقدم في سيناء بعد ان انزلتهم طائرات الهليكوبتر خلال الليل ، فيقول « لقد قاتلوا بصورة انتحارية . خرجوا نحونا من مسافة امتار قليلة ، وسددوا بازوكاتهم الى الدبابات (يقصد قذائف «الار بي جي ٧»)، ولم يخشوا شيئا ، كانوا يتدحرجون بعد كل قذيفة ، بين المجلات فعلا ، ويستترون تحت شجرة في جانب الطريق ، ويلقمون البازوكا بطلقة اخرى».

لقد اكدت براعة استخدام القيادة العسكرية المصرية لهذه الاسلحة وبراعة المقاتل المصري العنيد ، ان الصاروخ والقذيفة المضادة للدبابات والصواريخ المضادة للطائرات والمدافع بانواعها كلها اسلحة تصلح للهجوم كما تصلح للدفاع من خلال اقدام وشجاعة الجنود وتفوق العدو العسكري وكفاءة تنظيم اساليب القتال المختلفة .

وبهذه الطريقة استطاع العرب ان يردوا على التفوق الجوي الاسرائيلي والحرب الخاطفة الاسرائيلية .

● ومن ناحية اخرى ان حرب اكتوبر اكدت احتياج الحرب الحديثة الى معين لا ينضب من الامداد بالذخائر فان فاعلية الاسلحة الحديثة المتطورة قد ادت الى تعاظم الخسائر في الطائرات والدبابات وفي وقت قصير .

لقد جاء وقت صرح فيه موشي ديان ان اسرائيل على وشك ان تخسر الحرب ما لم تمدها الولايات المتحدة بالاسلحـة .

وفي حديث الرئيس أنور السادات كما رأينا ان الجيش المصري كـان يعاني نقصا في عدد طائرات الهليكوبتر اللازمة لعمليات « ابرار » واسعـة خلف خطوط العـدو . .

كما ان مصر قد عانت كثيرا في معركة الثغرة من نقص عدد طائراتهـا اذا لم تستعوض بطائرة واحدة خلال الحرب من المائة وعشرين طائرة التي فقدتهـا .

وهذا كله حدث رغم الجسر الجوي السوفيتي .

كما ان حجم الجسر الجوي الامريكي الكبير يكشف عن مدى الخسـارة الهائلة التي خسرتها اسرائيل خلال الحرب .

وقد ذكرت المصادر الامريكية ان مخزون الولايات المتحدة من طائرات الفانتوم ودبابات « ام ــ ٦٠ » والصواريخ بانواعها قد اوشك على النفاد نتيجة الاستنزاف الشديد للاسلحة الامريكية في الحرب .

واعلن لاول مرة ان كل الانتـاج الاسرائيلي الحربي الذي طالما طنطنت به الدعايةالصهيونية لا يكفي انتاج عام منه سوى حرب يوم واحد .

وقد اوشكت صواريخ سام ٦ ان تنفد في مصر ايام الحرب لولا المدد السوفيتي خلال الحرب لكل من سوريا ومصر .

● **البشر قبل التكنولوجيا :** ولقد كان يقال كلام كثير قبل الحرب عن فداحة آثار التكنولوجيا في الحـرب حتى أوشك البعض ان يتصور ان الحرب القادمة بيننـا وبين اسرائيـل ستكون حـرب ازرار . . يتفـوق الاسرائيليون فيها طبعا باعتبار ان لديهم ازرار اكثر كما ونوعا !

ولقد اكدت حرب اكتوبر انه رغـم دور التكنولوجيا الهـام . . الا ان الاسلحة التقليدية كالرشاشات والمدافـع الهاونـات والقذائـف المضادة للدبابات بالاضافة الى العنصر البشري لها دورها الاباسي . .

عندما استخدم الاسرائيليون الهليكوبتر قاذفة الصواريخ ضد الدبابات المصرية على الشاشة التليفزيونية ، لم يقلل ذلك من قدرة المصريـين على تدمير اكبر عدد من الدبابات الاسرائيليـة . . ولـم يـردع المشاة صائـدي الدبابات عن ان يستمروا في الهجوم على تلك الدبابات بشراسة .

ان الاسلحة التقليدية لم يسقط دورها أمام التكنولوجيا بل بالعكس تعاظم هذا الدور ولقد كان جوبير وزير خارجية فرنسـا السابق محقا عندما قـال :

ان حرب الشرق الاوسط اوضحت الحاجة الى « اعادة تقييم استخدام الاسلحة التقليدية الآخذة في ان تصبح اكثر صلاحية وتدميرا ..

بل ان هذا الدور للاسلحة التقليدية قد اثر في المباحثات بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية حول تحديد السلاح .. وتخفيض قوات حلفي وارسو والاطلنطي .

« الوفاق » الدولي ..

بل يمكن القول ان اثر حرب اكتوبر لم يقتصر فقط على المباحثات حول السلاح وخفض قوات المعسكرين المتصارعين .. بل انه اثر على الانفراج الدولي ذاته .. فان وقوف كل من المعسكرين بجانب فريق من المتحاربين : الولايات المتحدة بجانب اسرائيل . والدول الاشتراكية وعلى راسها الاتحاد السوفيتي في جانب اخر ..

وتصاعدت هذه المساندة حتى اوشكت ان تؤدي الى مواجهة بين العملاقين الكبيرين .. يؤكد ذلك :

انه رغم كل الاتفاقات التي ادت وتؤدي الى الانفراج الدولي الذي هو في الحقيقة انتصار لسياسة التعايش السلمي التي تنادي بها الكتلة الاشتراكية ودول عدم الانحياز منذ سنين طويلة .. فان هذه الاتفاقات لم تلغ التناقضات الرئيسية بين المعسكرين .

ان ما يسمونه « بالوفاق » ليس مؤامرة على نضال الشعوب او على حساب الدول الصغرى .. او تفريط من الكتلة الاشتراكية مثلا في التزامها بمساندة النضال الوطني في العالم .

اضف الى ذلك ان ذلك « الوفاق » لم يمنع الدول التي تريد النضال لتحرير نفسها من الاحتلال من ان تستخدم القوة المسلحة لتحقيق ذلك الهدف .

ولقد اتخذت كل من سوريا ومصر قرارهما التاريخي بالحرب ضد العدو دون « اذن » من احد .. كان قرارا مصريا سوريا مائة في المائة ..

بل ان الرئيس السادات صرح عدة مرات ان الاتحاد السوفيتى كان يفضل الحل السلمي .

ومع ذلك اتخذت مصر قرارها بأرادتها الحرة وحدها دون مشاورة احد رغم وجود معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي ..

ولم يمنع ذلك من أن الاتحاد السوفيتي وقف الى جانبها وجانب

سوريا . بينما وقف الامريكيون في الجانب الاخر .. جانب اعداء العـرب رغم انف ما يسمى « الوفاق » الدولي .

ان الرئيس السابق نيكسون لم يتعد الحقيقة عندما قال « ان للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي مصالح متباينة واهداف مختلفة فـي الشرق الاوسط » .

خلاصة القول ان الحرب قد اثبتت ان الانفراج الدولي يمكن ان يمحي في لحظة طالما توجد بؤر للتوتر وخاصة في الشرق الاوسط .

لقد حدث في تلك الحرب ان رفعت دبلوماسية القوة أو الحرب الباردة الى مستويات جديدة فقد تم تبادل واستخدام التهديدات والضغوط بالنسبة للدول الكبرى .

وقد كان التاهب النووي الامريكي بمثابة تذكير للعالم انــه ما زالـت هناك امكانية قوية للعودة الى سياسة الردع الشامل .. وتذكـيرا بفلسـفة الحرب الباردة وحافة الهاوية للمرحوم دالاس ..

التناقض في الجبهة الاستعمارية :

على ان اثر حرب اكتوبر امتد ايضا ليهز لا الوفاق بل الترابط فـي داخل المجموعة الغربية ذاتها .

فقد حدث تفكك .. اذ لم تسر الدول الغربية في ذيل الولايات المتحدة كما حدث في حرب ١٩٦٧ **(من هنا تكمـن اهمية الانتصار العربـي اذ على الارجح كانت معظم الدول الغربية ستقف صفا واحدا مع الولايات المتحدة لو كان العرب قد هزموا) .**

واعرب كيسـنجر عن غضبه من الموقف الاوربي الغربي علنا .. وكذلك جوزيف سيسكو .. بل ايضا نيكسون : الذي قال ساخرا :

ان الاوروبيين لم يكونوا متعاونين معنا ولعل السبب ان جرمان اوربا من البترول هددها بان تموت من البرد !

وقال ماكلوسكي المتحدث الرسمي :

« كنا في مرحلة حرجة جدا ، اثرت فينا جميعا واثرت في حلفائنا في الغرب ، فقد فاجأنا بعض حلفائنا بانهم يعزلون انفسهم عنا .

ويثير هذا الموقف تساؤلا كيف يتفق هذا مع ما يعرب عنه الاوربيون دائما من ان ما يربط بيننا وبينهم هو الامن ؟ ..

★★★

لقد اعلنت بريطانيا حيادها في النزاع وحظرت تصدير الاسلحة الى المنطقة (وكان ذلك يعني عمليا وقف تصديرها الى اسرائيل) .

ودعت بريطانيا صراحة الى الاعتراف بحق العرب في استخلاص اراضيهم .

اما فرنسا فكان تأييدها واضحا ..

ومعظم الدول الاوربية تنصلت من الانحياز الاعمى وراء امريكا حفاظا على مصالحها التي هددها العمل العربي الموحد لاول مرة .

بل أن كندا اعلنت انها ستوقف صادراتها من البترول الى امريكا احتراما لقرارات وزراء الخارجية العرب .

والذي اغضب دول اوربا الغربية ايضا ذلك الاعلان لحالة الطوارىء الذي اعلنه نيكسون دون مشورة مع حلفائه في حلف الاطلنطي الذي توجد في بلادهم تلك قواعده التي اعلن فيها حالة التاهب .

واعتبر الكثيرون انه لم تكن هناك ضرورة لمثل ذلك الاستعداد ازاء خطر سوفيتي موهوم ..

★ ★ ★

هذه بعض اثار ودروس حرب الساعات الست .. ولا حاجة الى تكرار اثرها الاقتصادي على اسرائيل .. فقد عاد ٢٠٠ الف جندي اسرائيلي الى مصانعهم ومزارعهم بعد اعلان اتفاق الفصل بين القوات ..

ولا حاجة للحديث عن اثر تلك الحرب بالنسبة للعرب انفسهم .. يكفي انهم استردوا شعورهم بالكرامة واحتلال مكان محترم تحت الشمس في مجتمع الدول .. وان العالم الآن يتحدث عن القوة العالمية السادسة اي العرب التي بزغت بعد الحرب . ولكن هذا البزوغ لا يجب ان يترك عفويا .. وانما بمجهودات واعية ودائبة يمكن ان يصبح العرب القوة السادسة حقا وصدقا ...

اخيرا اذا كان فيديل كاسترو قد ذكر ان حرب ١٩٥٦ تمثل تحديا لدولة صغيرة مثل مصر ضد اعتداء ثلاث دول منها دولتان كبيرتان قد علم الشعوب المناضلة ان مقاومة الفيلان الكبار امر غير صعب ..

فان حرب ١٩٧٣ .. قد اكدت ان هزيمة الكلاب المسعورة ومن ورائهم من الفيلان الكبار امر ممكن .. لاي شعب يصمم .. ويحزم امره على القتال .

دبلوماسية « المكوك » ..

توقف القتال مرتين .. مرة في ٢٢ اكتوبر .. ليعود مرة اخرى فجر ٢٣ اكتوبر .. ثم يتوقف للمرة الثانية يوم ٢٥ اكتوبر .. ولكن من جديد.. خلال فترات التوقف جنبا الى جنب الاشتباكات العسكرية المتناثرة .. كانت الحرب تدور بشكل اخر .. بشكل سياسي .. كان ابرزه طيران كيسنجر المستمر من بلد لاخر في المنطقة .. حتى اطلق على نشاطه « دبلوماسية المكوك » . ثم كان هناك الانذار السوفيتي .. و.. و..

كيف .. دارت .. وما موقف الاطراف الاخرى فيها .. الامريكان.. والسوفيت .. حتى تم الوصول الى اتفاقيات محددة .. توقف القتال بعدها فعلا .. حتى بدأت نذر الحرب الخامسة تتجمع من جديد بعد عام . من توقف القتال ؟!

نبدأ القصة بحوار مثير بين مايير وهنري كيسنجر في منزل سمحا دينتس السفير الاسرائيلي في واشنطون !.

جولدا مابير : يا مستر كيسينجر .. انت ولدت في مدينة فير .. على مقربة من افران الغاز في داخاو (اشارة الى معتقل داخاو بالمانيا الهتلرية .. حيث تم هناك افناء الملايين من ابناء شعبنا (لاحظ المبالغة في رقم الملايين في معتقل واحد ! .. وعليك ان تدرك جيدا اسباب وجود شعب اسرائيل وقلقه من اجل امنه على حياته وسلامته !..

كيسينجر : سيدتي رئيسة الوزراء .. اننا هنا لسنا بصدد البحث عن المعتقدات الدينية .. اننا نبحث عن اساليب عملية لحل مشكلات تواجهنا ..

ويروي الصحفيون الاسرائيليون الذين نقلوا هذا الحوار الذي سمعوه بآذانهم في بيت سمحا دنيتز السفير الاسرائيلي في واشنطون الذي كان قد اقام حفلة عشاء يوم الخميس ١٠ نوفمبر حتى يوفر جوا من « العائلية » للحديث بين جولدا مابير ووزير الخارجية الامريكي . ان رئيسة وزراء اسرائيل في ذلك الحين كانت تتحدث الى كيسينجر بطرية « أموية » بينما كان الاخير يرد عليها بطريقة جافة وبلكنة المانية كانما ليؤكد اصله الالماني وليس اليهودي !

وذكر هؤلاء الصحفيون ان الجو في بيت السفير الاسرائيلي قد خيم عليه جو ثقيل بعد هذا الحوار غير الودي ..

ولم يكن الوضع عند نيكسون بأفضل حالا .. اذ ان نيكسون عندما التقى بجولدا مابير اكد لها ثقته بهنري كيسينجر ..

ما السبب في هذا الجو غير الودي .. ما هي الخلفية السياسية وراءه .. كيف يتجهم وزير خارجية الدولة الحليفة لاسرائيل .. والتي ساعدتها على النشوء .. ثم النمو .. ثم العدوان .. حتى حرب ١٩٧٣ هي التي انقذتها من هزيمة محققة على يد الجيوش العربية ؟

وراء ذلك تخلخل ميزان القوى لغير صالح اسرائيل .. ولغير صالح الولايات المتحدة ..

وهذا التخلخل نتج من موقفين :

- **صمود القيادة المصرية وتكتيكاتها البارعة .**

- **مساعدة الاتحاد السوفيتي للقيادتين في مصر وسوريا وتصديه للولايات المتحدة .**

ولنبدأ القصة من اولها ..

راينا من عرض تطور الثغرة .. ان القيادة المصرية لم تكن تدري

على وجه الدقة حقيقة خطورة الثغرة وابعادها .. وعندما كان الرئيس انور السادات يلقي خطابه الموضوعي ضحى يوم ١٦ اكتوبر في مجلس الشعب كان واضحا ان الحقيقة كانت مجهولة فعلا ..

بعد ذلك جاء الكسي كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي الى القاهرة ونشرت الصحف اثناء وجوده في القاهرة (الذي استمر حتى ١٩ اكتوبر) انه اجرى عدة اتصالات بحكومته من السفارة السوفيتية ..

ويمكن اليوم ان يقام ان هذه الاتصالات كانت تشمل امرين :

الامر الاول تقارير الاقمار الصناعية السوفيتية (اطلق السوفيت قبل حرب اكتوبر واثناءها اربعة اقمار عن حجم الثغرة الاسرائيلية في الدفرسوار ومداها . واطلع كوسيجين في الحال القياده المصرية السياسية على تلك التقارير .

الامر الثاني اخبارا من الكرملين عن الاتصالات المستمرة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بشأن حصر الموقف ووقف طلاق نار .

الثابت ان الاتحاد السوفيتي كما ذكر الرئيس انور السادات قد اقترح على مصر مرتين من قبل على الاقل الموافقة على اطلاق النار .. وفي تلك المرات كان الظرف مواتيا تماما لمصر .. في حدود انها حرب محدودة لتحريك القضية .. ومن بين تلك المرات الاقتراح بوقف اطلاق النار في ١٣ اكتوبر الذي اتفق عليه السوفيت مع الامريكيين مباشرة .. وطلب كيسينجر من هيث ان يتصل بالرئيس السادات بشأنه (لم يكن الرئيس قد علم بالاتفاق بعد) .

وفي المرتين رفضت مصر .. الموافقة على وقف اطلاق النار ..

ولما كان قرار المعركة والاستمرار فيها قرارا مصريا بحتا .. فان الاتحاد السوفيتي استمر يدعم مصر وسوريا عسكريا **دون اي ضغط من اي نوع لوقف اطلاق النار .**

ونحن نؤكد هذا المعنى لان الذين حاولوا الصيد في الماء العكر روجوا كذبا ان العرب قبلوا وقف اطلاق النار نتيجة لضغط سوفيتي ، بينما يؤكد تطور الاحداث بعد ذلك أنه لم يكن هناك مثل هذا الضبط .. وان وقف اطلاق النار تم نتيجة ادراك من القيادة السياسية في مصر لابعاد الموقف بعد الثغرة .. وتشوفها امكانية حل المشكلة دون مزيد من الخسائر كما جاء في حديث الرئيس السادات لمجلة الاسبوع العربي اذ قال :

« وقد تمكنت من المحافظة على قوتي سليمة نتيجة الذي حصل بالنسبة لوقف اطلاق النار . لانه كان من الممكن جدا ان نخرج مهشمين وبنفس النتيجة او تاخرنا في قبولنا لوقف اطلاق النار » .

ولقد كان الاتحاد السوفيتي على نطاق الدبلوماسية العالمية يؤيد اصرار مصر على رفض وقف القتال (قبل تفاقم امر الثغرة) اذ يروي صحفيو الصانداي تايمز والبروفسور لاكور ان هنري كيسينجر كان كلما تحدث مع دوبرينين السفير السوفيتي في واشنطون عن ضرورة وقف اطلاق النار في الشرق الاوسط كان دوبرينين يشترط تعهد اسرائيل بالانسحاب الى حدود يونيه ١٩٦٧ . وكان كيسينجر لا يكف عن ترديد عبارة **« يجب عدم ربط قضية وقف القتال بالانسحاب » ..**

★ ★ ★

يوم الجمعة ١٩ اكتوبر وكانت اخبار تقدم القوات الاسرائيلية غرب القناة .. رغم المقاومة المصرية الباسلة بشتى الوسائل .. تتوالى على موسكو .. اجتمع المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي في الكريملين واتخذ قرارا هاما .. بناء على اتفاق مع مصر بعد عودة كوسيجين منها . **لا بد من وقف القتال ..**

وكان معروفا لدى كل من مصر والاتحاد السوفيتي ان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية لاتريد وقف القتال الان .. لان هدفها واضح هو محاصرة الجيش الثالث ان لم يكن شق طريق لها الى مدن شرق الدلتا ..

وقد كانت مصر تعرف انها قادرة عسكريا على افشال هذا المخطط فقد كانت هناك قوات عسكرية لم تدخل المعركة بعد ..

وقد كان هناك الاستعداد السوفيتي لتقديم العون الى إخر مدى ..

ولكن كان معروفا ايضا ان ذلك يعني اطالة لامد الحرب مع خسائر فادحة بعد مساهمة الحكومة الامريكية الفاضحة في الحرب واحتمالا ايضا لمواجهة ذرية بين الدولتين الكبيرتين .. ومع ذلك فان القيادة السياسية في مصر كان بوسعها ان تلقي عرض الحائط بهذه الاخطار وتستمر في القتال مهما كانت النتيجة .. لتكون حرب تحرير طويلة ..

ولكن اذا كانت هناك بادرة او فرصة لتحقيق اهداف الحرب دون استمرار الحرب .. الا تقتنص الفرصة ؟

نعود فنذكر اولئك الذين لا يستطيعون ان يتفهموا هذا الموقف المعقد المركب .. باساليب القيادة الوطنية للحركة الوطنية المصرية مع مداها

التاريخي في مواجهة الاحتلال والاستعمار .. بل باساليب القيادات الوطنية للحركات الوطنية في العالم كله .. السلاح في يد واليد الاخرى تمتد للمفاوضة .. ويعود السيف الى غمده .. وتبدأ المفاوضات ›› اذا ما فشلت عاد الى الايدي مرة اخرى .. وهذه القيادات الوطنية لا تلجأ اصلا الى السلاح الا اذا فشلت تماما في الوصول الى حل سلمي .

والحكم في مثل هذه الاحوال .. لنتائج تلك السياسة والتاريخ ..

ومن هنا .. نجد الرئيس انور السادات في ١٩ اكتوبر يوفد الدكتور عزيز صدقي مساعد رئيس الجمهورية الى سوريا .. حاملا رسالة الى الرئيس حافظ الاسد يعلنه فيها انه لن يواصل الحرب ضد الولايات المتحدة ..

ولم تكن تلك رسالة سرية .. بل ان مصر نشرتها على العالم كله بعدها بفترة ليست طويلة .

لقد ناقش السادات حساباته :

● الموقف عسكريا مستعد لابتلاع تضحيات جسيمة من البشر والسلاح.

● المدد الامريكي للسلاح لا حدود له ويفوق المدد السوفيتي بحكم الفرق بين القدرة الامريكية والقدرة السوفيتية .. وطبيعة العلاقة بين امريكا واسرائيل .

● هناك فرصة لتلافي تلك التضحيات .

● وميزان الموقف في يده ما زال .. فالتضامن العربي بدأ يؤتي ثماره (بدأ تدفق السلاح والجنود العرب . وسلاح البترول يستخدم لاول مرة .. ثم هناك المؤازرة السوفيتية التي اذا ما اضيفت الى موقف اوربا المتناقض مع موقف امريكا لامكن تصور وجود وزن للضغط السوفيتي هذه المرة .

● ان الولايات المتحدة نفسها نتيجة لتحطم اسطورة التفوق الاسرائيلي يبدو انها بدات تعيد حساباتها هي الاخرى .. بدليل محاولات كيسينجر لحث مصر على وقف اطلاق النار اثناء انتصارها على اسرائيل وقبل الثغرة.

وسنرى بل لقد رأى العالم كله كيف كانت هذه السياسة بعيدة النظر وحققت اهدافها تقريبا .

الهم .. استخدم الكريملين يوم ١٩ اكتوبر « الخط الاحمر » لاول مرة منذ بدأ القتال .. في مخاطبة الرئيس نيكسون ..

وكان القادة السوفيت واضحين .. ضرورة وقف اطلاق النار .. والا فان الاتحاد السوفيتي يواجه اتخاذ قرار « لا تراجع عنه » .

وفي نفس الوقت فتح السوفيت الباب بان طلبوا حضور كيسينجر على عجل الى موسكو .. ووافق نيكسون .. وطار كيسينجر الى موسكو ..

وخلال عشر ساعات من الاجتماعات المتواصلة في يوم ٢٠ اكتوبر توصل كيسينجر مع برزنيف الى اتفاق لوقف القتال مكون من ثلاث نقاط..

وكان ذلك الاتفاق انعكاسا لمحصلة توازن القوى في ميدان القتال . وبين حليفي طرفا القتال ايضا : العرب واسرائيل .

فقد وافق الامريكيون لاول مرة على تطبيق قرار مجلس الامن ٢٤٢ فورا . ووافقوا على الا تكون المفاوضات بين العرب واسرائيل مباشرة مقتصرة على الاثنين بل تحت « اشراف مناسب » ، مما يعني اشتراك الدولتين الكبيرتين فيهـا .

وعندما نقول محصلة توازن القوى في ميدان القتـال .. فاننا نعنـي امريـن :

● ان الولايات المتحدة كانت تخشى استمرار القتال وما يؤدي اليه من نتائـج خطيرة سنعرض لها تفصيلا فـي الفصل الخاص « بالتراجـع الامريكي .. لماذا والى اين » ..

● انه لو لم تكن هناك الثغـرة الاسرائيلية لكانـت اهداف الحـرب المحدودة قد تحققت بالكامل وعلى الفـور .. اذ لاصبح العرب هم اليـد العليا في اية مفاوضات مع العدو تحـت الاشراف الدولـي بعد تحريـك القضيـة .. ولكان مثل ذلك الاتفاق قد شمل مثلا تحديد جدول زمنـي بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة ، او لكان قد صدر تفسير لقرار مجلس الامن ٢٤٢ نفسه اذ المعروف أن عبارة « ارض احتلت » هذه تثير لغطا كبيرا وتعتبر تكاة للامريكيين للتصديق على اطماع توسعية لاسرائيل في الاراضي العربية المحتلـة .

ماذا كان موقف اسرائيل من هذا الاتفاق ؟

لقد قدم نيكسون الاتفاق الى جولدا مايير في رسالة ذكـر فيها ان وقف القتال « يلائم دائما حروب اسرائيل » .

وتحدث نيكسون عن القرار ٢٤٢ دون تفسير كما ذكر في نص الاتفاق غامضا ايضا .

وابرز ان السوفيت قد وافقوا لاول مرة على مفاوضات للسلام بين العرب واسرائيل ..

واكد نيكسون ان ارسال المعدات العسكرية الامريكية سيظل مستمرا حتى بعد وقف القتال ..

ولم ينس نيكسون في رسالته ان يذكر « **الحرب الرائعة التي خاضها جنود اسرائيل** » .

وكانت رسالة نيكسون .. واجتماع الجنرال الكسندر هيج مع السفير الاسرائيلي في واشنطون تعنيان ان امريكا مصممة على تنفيذ الاتفاق.. الذي اقره مجلس الامن في صباح يوم ٢٢ اكتوبر على ان يتوقف اطلاق النار بعد اثنتي عشرة ساعة اي في السابعة مساء اليوم .. وكان القرار المعروف برقم ٣٣٨ .

ووافق مجلس الوزراء الاسرائيلي على وقف اطلاق النار « استجابة لمطلب الولايات المتحدة الامريكية » . وهي ترجمة مهذبة لعبارة الرضوخ « للضغط » الامريكي :

اتفاق سري ؟

وفي مصر اعلن الرئيس انور السادات موافقته على القرار .. في الثالثة بعد ظهر يوم ٢٢ اكتوبر .. بينما تجاهلت اذاعة دمشق الاتفاق والقرار ..

وقد أعلن السادات في حيثيات قراره بالموافقة ان ذلك تم بناء على تأكيدات من الاتحاد السوفيتي بان القرار ٢٤٢ سينفذ .

فما مصدر تلك التاكيدات ؟. هل تم اتفاق سري بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا اثناء زيارة كيسينجر بشان هذه المسالة ؟..

ان الصحفي الاسرائيلي ايتان هيفر المراسل العسكري لصحيفة « بديعوت احرونوت » يقول ان جولدا مايير طرحت نفس السؤال على هنري كيسنجر عندما زار اسرائيل زيارة خاطفة يوم ٢٢ اكتوبر .. فاجاب كيسنجر على الفور : بالطبع لا . فالنصوص التي اعرضها عليك هي كل شيء ..

ولكن الصحفي الاسرائيلي يضيف قائلا : « انه اتضح فيما بعد ان

كيسينجر اخفى جزءا هاما من الحقيقة .. وهو الذي يتعلق بمحادثاته في موسكو **عندما اتفق مع القيادة السوفيتية على اجتماع مؤتمر السلام .. يتقرر فيه انسحاب اسرائيل من سيناء كلها على مراحل !؟..**

★★★

ماذا كان يتوقع انور السادات بعد هذا الاتفاق على وقف اطلاق النار؟

لم يكن الجيش الثالث قد حوصر .. ولم تكن الثغرة حينذاك قد استشرى امرها (لم تكن قد وصلت الى السويس وانما الى ما تواضع العالم على تسميته بعد ذلك بحدود ٢٢ اكتوبر) .

وكانت القوات المصرية سليمة .. سواء في الشرق او الغرب .. اي ان القدرة القتالية للجيش المصري موجودة مع وضع في الاعتبار التفوق الاسرائيلي الجديد في السلاح .

والعالم كله قد ابدى اهتماما بالقضية .. لقد نجحت الحرب في تحريك المجتمع الدولي سواء على نطاق الدول .. او الشعوب ..

اذن فان الظروف مهيئة تماما لعقد المؤتمر الاولي المتفق عليه بين الدولتين الكبيرتين اللتين تعهدتا بوضعه موضع التنفيذ وجاء مجلس الامن فدشن ذلك الاتفاق

لذلك فان القيادة السياسية المصرية كانت تتوقع انعقاد المؤتمر فورا ــ والحديد ساخن ــ ويتم الاتفاق والجلاء في ظرف بضعة شهور ..

ولم يكن هناك تخوف من المماطلة .. فقد كانت القيادة ترى ان وجود الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية رهينة .. وورقة للضغط على الامريكيين والاسرائيليين ..اذا ما ظهر اتجاه للمماطلة ، فمثل هذا الجيش كما بينا عند الحديث عن الثغرة .. كان في وضع سيء بعد ان حشدت مصر الحشود اللازمة لحصاره وتحطيمه .. وما كان بوسع الاسرائيليين ان يتحملوا عملية ابادة خمسة عشر الف جندي دفعة واحدة، بينما تستطيع مصر تحمل خسارة اضعاف هذا الرقم .

انذار سوفيتي :

عاد الاسرائيليون فجر يوم ٢٣ اكتوبر الى استئناف القتال من جديد راجع فصل الثغرة) .. وتقدمت جيوشهم حتى شاطىء خليج السويس

عند الادبية وحاولت احتلال مدينة السويس (راجع فصل معركة المدينة) وقطعت عن الجيش الثالث مصادر امداداته الخلفية .

وقالت المصادر الامريكية ان كيسينجر اتصل تليفونيا من واشنطون بجولدا مايير مساء الثلاثاء (اي بعد ١٤ ساعة من خرق الاسرائيليين لقرار مجلس الامن بوقف القتال) وطالبها بايقاف المعارك فورا لانه « التزم امام الروس بان يبدأ وقف القتال مساء ٢٢ اكتوبر بالضبط » ..

وهنا لا بد أن يتساءل المرء هل اغمضت الولايات المتحدة عينيها عن ذلك « الزحف » الاسرائيلي الجديد ؟ لمدة اربعة عشر ساعة ؟.. ام ان القيادة الاسرائيلية تمردت على الضغط الامريكي ولم يكد يجف توقيعها على قبول قرار وقف اطلاق النار ؟..

انه كان واضحا ان المؤسسة العسكرية الاسرائيلية مقتنعة بان التوسع الذي تم في غرب القناة (خطوط ٢٢ اكتوبر) لن يرغم المصريين على اعطاء اية تنازلات ، بل ان هذا التوسع كما بينا مهدد بخطر اذا ما استطاع المصريون تجميع قواهم وحشدها في الغرب لاحكام الطوق حول قوات الثغرة الاسرائيلية من الشرق والغرب معا ..

كان اذن على تلك القيادة ان تستغل الموقف قبل فوات الاوان خاصة وان الظروف العسكرية والسياسية مواتية ..

فها قد تنفس العالم الصعداء بعد وقف اطلاق النار .. وذهب برزنيف لينام بعد ان شدت اعصابه اياما (راجع مقال هيكل في الاهرام في تلك الايام .. وكيسينجر عاد الى واشنطون ..

وفي مثل تلك الاحوال (احوال وقف اطلاق النار بين المتحاربين) يحدث كثيرا ان تنطلق رصاصة من هنا أو هناك وتكون تكئة لاستئناف القتال من جديد ..

فهل اعطى الامريكيون الضوء الاخضر للاسرائيليين تقديرا منهم لان موقف حليفتهم في ميزان المساومة لن يكون ممتازا او متكافئا ؟ .. هل كان من مصلحتهم ان « يتمدد » الجيب الاسرائيلي حتى يصبح الامر كما قال كيسينجر لمحمد حسنين هيكل انه « عبور بعبور » ؟!.. فيكون الطرفان متكافئان على مائدة المفاوضات ؟..

نعتقد ان هذا هو ما حدث .. ونستدل على ذلك .. بتسلسل الوقائع : اولا ان كيسينجر لم يتدخل لطلب توقف المعارك الا بعد ١٤ ساعة من استئنافها على حد ما ذكرته المصادر الامريكية ذاتها .

ثانيا ان كيسنجر صاحب سياسة « التوازن » المعروفة استبعد تماما فكرة ارغام اسرائيل بالقوة على وقف القتال مرتين :

المرة الاولى بناء على طلب مصر .. عندما وجه الرئيس انور السادات نداءه المشهور لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بارسال قواتهما لارغام اسرائيل ـ التي كانت قواتها تطرق في عنف ابواب مدينة السويس ـ على احترام ارادة المجتمع الدولي ..

فقد رفض كيسينجر ذلك رفضا باتا .. زاعما انه ليس من مصلحة السلام ارسال قوات الدولتين الكبيرتين الى المنطقة

ولو فرضنا ان هذا صحيح .. فقد كان بوسع الولايات المتحدة الضغط على اسرائيل فور تفجر القتال صبيحة يوم ٢٢ اكتوبر للتوقف عنه بدلا من الاكتفاء بالموافقة على قرار جديد لمجلس الامن (قرار ٢٣٩) الذي صدر مساء ٢٣ اكتوبر بناء على طلب مصر ويقضي وقف اطلاق النار وانسحاب قوات الطرفين الى الخطوط التي كانت تحتلها في السابعة من مساء ٢٢ اكتوبر .

والمرة الثانية التي رفضت فيها الولايات المتحدة ذلك كانت عندما اتصل السوفيت مباشرة بها .. لنفس الفرض ..

فعندما استمرت اسرائيل في خرق وقف اطلاق النار رغم صدور القرار الجديد لمجلس الامن (لاحظ ان الامريكيين لم يستخدموا ضغطا على اسرائيل مع هذا) .. بعث الرئيس انور السادات برسالة شخصية الى الرفيق برزنيف السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي يوم ٢٤ اكتوبر ، وطلب منه ارسال قوة سوفيتية لاجبار اسرائيل على وقف القتال باعتبار ان برزنيف اكد له شخصيا ان الاسرائيليين سيجبرون على تنفيذ قرار مجلس الامن ٢٤٢ كما وعد الامريكيون في محادثات كيسنجر في موسكو .

وتلا هذه الرسالة بعد ذلك نداء الرئيس السادات للدولتين الكبيرتين بارسال جيوشهما الى المنطقة لتحقيق نفس الفرض .

وعلى الفور .. بعث برزنيف رسالة الى نيكسون عن طريق السفير السوفيتي دوبرينين وليس عن طريق الخط الاحمر المباشر ..

ولقد تساءل الكثير من المعلقين السياسيين عن السبب في عدم استخدام الخط الاحمر لتوصيل تلك الرسالة التي كانت انذارا في الحقيقة .

ونعتقد ان الامر لا يحتاج الى تساؤل .. فيبدو ان السوفيت ارادوا كسب بعض الوقت ريثما يتخذوا بعض التدابير العسكرية التي تساند

الانذار المكتوب بحيــث يكتسب ذلك الانذار مدلـولا واقعيا تكون اجهـزة المخابرات الامريكيـة قد رصدته كما دلت على ذلك وقائع الاحوال بعد ذلك.

ولقد جاء في رسالة برزنيف انه « نظرا لخرق وقف اطلاق النار فانه يجب ارسال قوات روسية وامريكية الى الشرق الاوسط لضمان احترام ايقاف القتــال » .

ولكن الفقرة « الانذارية » في رسالة برزنيف هي تلك التي قال فيها بصراحة انه **« اذا كانت الولايات المتحدة لا ترغـب في التعـاون فسيدرس الاتحاد السوفيتي امكان التصرف وحده وحسبما يرى ، وسنضطـر الى النظر في مسالة اتخاذ التدابير اللائمة من جانب واحد .. »**

ان السناتور جاكسـون الامريكي الموالي للصهيونيـة وصف الرسالـة السوفيتية بان ما يقلق فيها « هو الطريقة التي صيغت بها الرسالة ، فكلماتها فظة وقاسية وتحمل في سطورها تهديدا بان السوفيت سيتدخلون لوحدهم ولا شيء اخـر .

لقد رفضت الولايات المتحدة الاقتراح الروسي الذي هو اقتراح مصري اصلا .. ولم تشأ ان تتخذ ضد اسرائيل اجراء عنيفا ..

ولكن التقارير تواردت الى واشنطون تفيد ان ثمة تحركات عسكريـة سوفيتية « مريبة » او ذات مغزى .

ان السفير دوبرينين السفير السوفيتي في واشنطـون تسلم رسالـة فورية من الرئيس نيكسون ردا على رسالة برزنيف يقول فيها **« انه ينبغـي على الدول العظمى تجنب اوضاع قـد تؤدي الى مواجهـة شاملة بينها .. ولذلك فان الولايات المتحدة ترفض ارسال قوات روسيـة وامريكيـة الى الشرق الاوسط .. وسنعارض ايضا ارسال مثل تلك القوات من طـرف واحـد ..**

ولم تكتـف الولايـات المتحدة بهذا الرفض .. بـل قـررت جمـع مجلس الامن القومي برئاسة هنري كيسينجر وبحضور جيمس شليزنجر وزير الدفاع ووليم كولبى رئيس المخابرات والاميرال توماس مورر رئيس هيئة الاركان .. واعلن المجلس بعد دراسة التقاريـر التى توفرت امامـه اعلان حالة الطوارىء في جميع القواعد الامريكية في العالم دون التشـاور مع حليفات امريكا في حلف الاطلنطي او غيره من الاحلاف !

ماذا جاء في تلك التقارير ؟.

إنه منذ يوم ٢١ اكتوبر اعلنت حالة الطوارىء في وحدات الجيش الاحمر الموجودة في دول حلف وارسو ..

وفي يوم ٢٤ اكتوبر بد جسر جوي من ناقلات الجنود السوفيتية بنقل ألوية مظلات الى جنوب المجر ومن هناك الى الشرق الاوسط عبر يوغوسلافيا .. (قدرت القوات بخمسين الف جندي) .

واستأذن السوفيت القيادة اليوغوسلافية في عبور المجال الجوي اليوغوسلافي .. بل وايضا النزول في جنوب يوغوسلافيا للتزود بالوقود .

وجمع تيتو المكتب السياسي لرابطة الشيوعيين اليوغوسلاف عى عجل وعندما عارض بعض الاعضاء السماح للروس بهذا العبور والنزول .. قال تيتو :

انني افعل ذلك من اجل مصر لا من اجل الاتحاد السوفيتي .

وقالت التقارير الامريكية ان ستة آلاف جندي سوفيتي تم نقلهم في ثلاثين طائرة هبطت فعلا في مطار عسكري بجنوب يوغوسلافيا .

(فيما بعد في شهر اكتوبر ١٩٧٤ أكد الفريق طلاس وزير الدفاع السوري صحة هذه التقارير عندما صرح بان الاتحاد السوفيتي كان قد اعد جيشا تعداده خمسة وخمسين الف جندي للنزول في الشرق الاوسط لارغام اسرائيل على وقف اطلاق النار) .

اصبح العالم يواجه خطر مواجهة وصدام بين العملاقين الكبيرين .. وتم الاتصال بينهما على اعلى المستويات .. وانفضت الازمة .. ولم تأت القوات السوفيتية الى الشرق الاوسط .. وانحلت حالة الطوارىء الامريكية . فهل اتى الانذار السوفيتي بشيء .. هل حقق هدفا ما ؟..

ان هدف مصر والسوفيت لم يكن فقط وقف القتال بل ايضا رفع الحصار عن الجيش الثالث الذي كان قد حوصر .

لنستعرض رأي جولدا مايير في ذلك الانذار ومقارنتها اياه بالانذار السوفيتي عام ١٩٥٦ لبن جوريون وبريطانيا وفرنسا : « انه في تلك الفترة ــ اي عام ١٩٥٦ ــ قد قبل الانذار فكيف لا يقبل الان ؟ والمعطيات قد تبدلت والتصميم على تنفيذه يبدو اكثر احتمالا » ..

ثم اضافت متوجعة « ان السوفيت يتصرفون بلا رحمة ولا شفقة » .

ان الامريكيين قد ادركوا هذه المرة جدية السوفيت في انذارهم .. ولقد بدا واضحا ان هناك ثلاثة عوامل مواتية في صفهم :

● ان اوربا الغربية لا تتفق مع الولايات المتحدة في مؤازرتها الكاملة لاسرائيل وبدا التناقض واضحا في صفوف الغرب .

● ان اسرائيل تبدو امام العالم كمحطم لقراراته الدولية التي تكررت

في ثلاثة ايام متوالية ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ اكتوبر (قرار ثالث رقم ٢٤٠ . وقد بدا ذلك في حماس اعضاء مجلس الامن لجاكوب مالك عندما اصطدم في مشادة كلامية عنيفة بجون اسكالي المندوب الامريكي ليلة ٢٤ اكتوبر .

● ان الحضور السوفيتي للمنطقة يتم بناء على طلب العرب وحكوماتهم الرسمية . وذلك يعطي مبررا شرعيا للحضور .

واذا ما جردنا الانذار السوفيتي من الجدية لنريح اولئك الذين اخذوا على عاتقهم التشكيك دائما في جدية الانذارات السوفيتية .. فان هذا الانذار « التهويشي » وتلك المناورة .. قد حققت اهدافها تماما .. **فالنتيجة ان الامريكيين قد اضطروا الى الضغط على حلفائهم الاسرائيليين لوقف القتال .. وهذا كل ما كان يريده الرئيس السادات وحقق له السوفيت رغبته سواء بانذار جدي او غير جدي .. فلهم الشكر على اي حال .. وان لم يكن الشكر فعلى الاقل الكف عن سبهم وشتمهم .. وهو اضعف الايمان ! ..**

وهنا سنترك لمؤلفي كتاب التقصير الاسرائيليين يتحدثون عما جرى من ضغط امريكي على اسرائيل بعد ذلك الانذار :

● يقول المؤلفون ان كيسنجر ابلغ السفير الاسرائيلي في واشنطون بالموقف « ويبدو ان كيسنجر تعمد المبالغة في وصف التهديد السوفيتي في التقديرات التي ابلغها لاسرائيل . وهكذا اعتقدت على أي حال الاجهزة الاعلامية الامريكية بعد وقت قصير من ذلك » .

● اتصل كيسنجر بجولدا ماير تليفونيا وطلب منها السماح بنقل الامدادات الى الجيش الثالث بعد وقف القتال .. وكانت المكالمة منفعلة وصاخبة .. تخللتها عبارات كهذه من كيسنجر :

« سيدتي .. انت تلعبين بمستقبل شعبك » .

« وهل تفضلين ان ترسل الامدادات الى الجيش الثالث بالهليكوبتر السوفيتي ؟ » ..

ذلك لان السوفيت كانوا قد انذروا في محادثاتهم (بين دوبرينين وكيسنجر) بانهم سيقتحمون الخطوط الاسرائيلية وينزلون الامدادات والتموين بطائراتهم الى الجيش الثالث . (لاحظ ان السيطرة الجوية في تلك المنطقة حينذاك كانت للطيران الاسرائيلي) .

● اكد كيسنجر للمسئولين الاسرائيليين انه مرتبط مع السوفيت بضرورة ايقاف القتال ..

* * *

محادثات الكيلو ١٠٥ :

اخيرا امتثل الاسرائيليون للضغط الامريكي فابلغوا قائد قوات الطوارىء الدولية (التي صدر قرار بتشكيلها من مجلس الامن بموجب القرار ٣٤٠) بانهم سينفذون قرار مجلس الامن يوم ٢٤ اكتوبر ..

ولكنهم عمليا لم ينفذوا ذلك اذ كما بينا من قبل حاولوا يوم ٢٥ اكتوبر الهجوم على مدينة السويس للمرة الثالثة وفشلوا بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة . ودافعت كل من مصر واسرائيل على عقد اجتماع بين ضباط كل من البلدين تحت اشراف الجنرال سيلاسفو قائد قوة الطوارىء الدولية على بعد اربعة كيلو مترات من خط وقف اطلاق النار (الكيلو ١٠٥) . وكان ذلك في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليل السبت ٢٧ اكتوبر ..

مثل مصر الفريق عبد الغني الجمسي ومثل اسرائيل الجنرال أهارون ياريف .

وكانت تلك اول مرة يجتمع فيها ضباط مصريون مع ضباط اسرائيليين منذ لجان الهدنة عام ٤٨ — ٤٩ .

كانت النقطة التي بحثها الضابطان هي توصيل الامدادات للجيش الثالث .. بينما كانت هناك ثلاثين سيارة نقل تحمل الطعام والماء والمواد الطبية تنتظر عند الكيلو ١٠١ منتظرة نتيجة المباحثات بين الفريقين .. لكي تنطلق الى مدينة السويس فالجيش الثالث ..

وتم الاتفاق .. وطلب الاسرائيليون اطلاق سراح الاسرى الاسرائيليين ووعدت مصر باعطاء قائمة باسمائهم .

واستمر انتقال سيارات النقل حاملة المؤن الى السويس ، بينما يستعجل الاسرائيليون عودة الاسرى .. حتى طارت جولدا مائير الى واشنطون لاجراء مباحثات هناك يوم ٣١ اكتوبر .

مباحثات اسماعيل فهمي :

في ذلك الوقت كان اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر يعقد اجتماعات مع هنري كيسينجر في واشنطون .

وذكرت الصحف ووكالات الانباء العالمية ايامها ان الولايات المتحدة اوضحت في تلك المباحثات :

● انها تؤيد اجراء مباحثات للسلام في اسرع وقت .
● انها توافق على رفع الحصار عن الجيش الثالث بمعنى السماح بمده بالمؤن .
● انها توافق على مشروع روجرز الذي كان يعني الانسحاب الاسرائيلي .

واوضح كيسينجر في تلك المباحثات انه يرى ضرورة الفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية أولا على اساس تبادل الاسرى بصورة عاجلة . .

تعثر المباحثات العسكرية :

في اول نوفمبر عقد الاجتماع الثالث بين الجانبين المصري والاسرائيلي، وحضر عن الاسرائيليين تلك المرة الجنرال « اسرائيل تال » مساعد رئيس الاركان وحضر عن الجانب المصري « اللواء » الجمسي . .

ودار البحث بالتفصيل حول قضية الاسرى وقضايا وقف اطلاق النار. ولقد ظل الجانب الاسرائيلي يتهرب من البحث في مسالة العودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر حتى رفعت الجلسة دون التوصل لشيء . .

ويقول الفريق الجمسي ان المباحثات مع الاسرائيليين وتفاصيلها تحتاج الى كتاب خاص ينوي ان يؤلفه هو في المستقبل بعد تحقيق التحرير الكامل . .

الا انه ليس من الصعب معرفة حقيقة ودوافع الموقف الاسرائيلي المراوغ . . فقد كانت العودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر تعني امرين :

ـ رفع حالة الحصار عن الجيش الثالث ومدينة السويس ويفقد الاسرائيليون بذلك وضعا عسكريا ملائما .

ان وضع القوات الاسرائيلية بالعودة الى تلك الخطوط يجعلها في وضع فار في مصيدة ، ومصيدة ضيقة بالنسبة للحصار المصري الذي سيفرض عليها في تلك الحالة من الشرق والغرب .

ومن هنا جاءت التصريحات الاسرائيلية المتتالية على لسان جولدا مايير وغيرها التي تدعى في « استهبال » على العالم كله أن خطوط ٢٢ اكتوبر لا يمكن تحديدها !! . . رغم أن الرئيس السادات في مناورة ذكية اعلن استعداده لترك عشرة كيلومترات زيادة عن تلك الخطوط .

وواقع الامر ان القيادة الاسرائيلية كانت تدرك الوضع الذي لا تحسد عليه قواتها في الثغرة كلها . . فالها كانت معرضة لحرب استنزاف

يومية لا تقوى على تحملها .. **لقد كانت في فم التمساح على حد تشبيه الصحفي البريطاني جون سبنسر .**

ولهذا حاولت الضغط والمساومة اطول مدة ممكنة في محاولة لتحقيق انسحاب مصري مقابل من الضفة الشرقية ! ..

والمرء يدهش في الحقيقة لسذاجة التفكير الاسرائيلي .. لانه منذ ايام قليلة فقط .. كان القائد الاعلى للقوات المسلحة المصرية قد رفض اقتراحا من الفريق الشاذلي بانسحاب القوات المصرية من الشرق لمواجهة قوات الثغرة (راجع الفصل الخاص بالثغرة) .

وكان واضحا ان مثل ذلك الانسحاب يعني هزيمة سياسية مروعة للعرب والنظام المصري بالذات اذ كان ذلك يعني ان حرب اكتوبر كانت عبثا وتضحيات الالوف كانت هدرا .. وعدنا من جديد للشعار التقليدي : انسحب .. أنج سعد فقد هلك سعيد !!..

كان الاسرائيليون ما زالوا في غيبوبة الشعور التاريخي بالغرور والتفوق .. ولم يدركوا بعد التغير الذي الم بالعدو الذي يحاربونه !

ظل الطرفان أذن المصري والاسرائيلي يدوران في حلقة مفرغة حتى طلبت مصر تأجيل اجتماع كان مجدد له اليوم الرابع من نوفمبر ..

مباحثات كيسنجر والسادات :

وطار كيسنجر الى مصر ووصلها بعد زيارة لمراكش يوم ٦ نوفمبر .. ودارت مناقشات صريحة بينه وبين الرئيس السادات الذي أستقبله استقبالا حارا .. حتى ان الصحفيين الامريكيين الذين كانوا برفقته رووا انه اي كيسينجر قال لاحد الصحفيين الامريكان من اصدقائه « ان الجو يبدو حسنا هنا اكثر مما ينبغي ! .. » ..

وسنعرض في الفصل الخاص « بالتراجع الامريكي » اسلوب ومنطق القيادة السياسية المصرية في التعامل مع الولايات المتحدة .. بتلك اللقاءات مع كيسينجر .

المهم ان تلك المباحثات ادت في النهاية الى اتفاقية النقاط الست المعروفة :

● توافق كل من مصر واسرائيل على المحافظة على وقف اطلاق النار تنفيذا لقرارات مجلس الامن ارقام ٣٣٨/٣٣٩/٣٤٠ .

● يوافق الطرفان على بدء المحادثات فورا لتسوية مسألة العودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر في نطاق اتفاقية فصل بين القوات باشراف الامم المتحدة.

⊛ تتلقى مدينة السويس مؤنا يومية من المواد الغذائية والمياه والادوية وسيجري اجلاء جميع المواطنين الجرحى من المدينة .
⊛ لا تعترض القوات الاسرائيلية على نقل مواد غير عسكرية الى الجيش الثالث .
⊛ يتم استبدال نقاط التفتيش الاسرائيلية على طريق القاهرة ـ السويس بنقاط مراقبة تابعة لهيئة الامم المتحدة .
⊛ بعد اقامة نقاط المراقبة على طريق القاهرة السويس مباشرة تجري عملية تبادل لجميع الاسرى .

وطار جوزيف سيسكو مساعد كيسينجر الى تل ابيب للحصول على موافقة الحكومة الاسرائيلية على الاتفاق كاملا .

واثار الاسرائيليون مسألة الحصار على باب المندب فافهمهم الامريكيون ان ذلك الحصار قد الغى بطبيعة الحال بعد وقف القتال برا وبحرا وجوا كما ان مصر لم تعلن فرض الحصار رسميا ومن ثم فلا معنى لاعلان رفعه رسميا .

واعلن الفريق الجمسي أن مصر ترى أن اشراف الامم المتحدة على نقاط المراقبة الاسرائيلية على طريق القاهرة ـ السويس يعني اشراف الهيئة على الطريق كله وليس على نقاط مراقبة فقط .

في النهاية تم التوقيع بين مصر واسرائيل على اتفاق النقاط الست في ١١ نوفمبر ..

الاسرى المصريون :

وفي اجتماع ١٤ نوفمبر تم الاتفاق على تبادل الاسرى وجلاء الجنود والمواطنين الجرحى من السويس .

وكان قد عرف أن لدى الاسرائيليين حوالى ثمانية آلاف أسير مصري مقابل حوالى ٢٨٠ أسير اسرائيلي .

ومعظم هؤلاء الاسرى المصريين .. اسروا بعد الثغرة فحسب معلومات مراسلي جريدة الصانداي تيمس كان لدى الاسرائيليين قبل الثغرة حوالى ستين اسيرا مصريا فقط ..

وقفز الرقم الى ثمانية الاف بعد الثغرة لسببين :

تمكن الاسرائيليون باتباع تكتيك حرب دبابات المصابات من أسر قوات ادارية (وهي القوات التي تكون في مؤخرة الجيوش للقيام بالخدمات

التموينية وحفظ الذخيرة وغيرها وهي عادة قوات غير مهيئة للقتال بشـكل جيـد) .

وسرعة الزحف وحصار السويس .. مكنت الاسرائيليين من اسر عدد كبير من هذه القوات الادارية التي باغتها واثر في معنوياتها ولا شك هذا الزحف الاسرائيلي الخاطف وقرار وقف اطلاق النار .

من ناحية اخرى اسر الاسرائيليون عددا من اهالي منطقة غرب القناة اما تصوروا منهم انهم جنود متخفون .. او خوفا من ان يقوموا بدور حرب عصابات ضدهـم .

وفي هذا الصدد ارتكب الاسرائيليون اعمـالا وحشية ضد السكـان المدنيين اذ طردوا منهم المئات هم ومواشيهم حاملين اثاثهم .. كأنهم لاجئون وحملتهم سيارات نقل واوتوبيس اعدتها السلطات المصرية لهم على عجل ..

ومن الثابت ان الاسرائيليين لم يستطيعوا اسر الا عدد قليل (بضع عشرات) من هذا العدد الكبير من بين القوات التي قاتلتهم فعلا وحاولت صد زحفهم سواء في الشرق او الغرب .

ان هؤلاء كانوا جنودا مدربين على القتال .. وذوي معنوية عاليـة حقـا ..

فشل مباحثات الكيلو ١٠١

استمر الوفدان المصري والاسرائيلي في عقد اجتماعات عند الكيلـو ١٠١ .. وظلت اسرائيل تـراوغ في موضوع الانسحـاب الى خطوط ٢٢ اكتوبر .. ثم في جلسة ٢١ نوفمبر طرح الاسرائيليـون لاول مرة فكـرة النظر في فك الارتباط بين القوات على طول جبهة القتال ..

ولكنهم راوغوا من جديد .. حتى اعلنت مصر في ٢٩ نوفمبر انسحابها من محادثات الكيلو ١٠١ بسبب « تهرب اسرائيل من تنفيذ البند الثاني في اتفاق وقف اطلاق النار الذي تم التوقيع عليه في ١١ نوفمبر »

حرب استنزاف من جديد

كان للاسرائيليين ما بين عشرين وخمسة وعشرين الف جندي مدعمين بخمسمائة دبابة على الاقل في الضفة الغربية للقناة .. وهي قوات كمـا راينا كانت تحاصر السويس والجيش الثالث .. وهي ايضا كانت تسيطـر على المدخل الجنوبي للقناة ..

ولكن القيادة المصرية لم تنزعج رغم سوء الوضع كما يبدو .. ولعبت دورها في « برود » كما يقولون ..

في ظرف اسبوع واحد بعد توقف القتال كانت القوات الاسرائيلية التي تحاصر السويس هي نفسها محاصرة حصارا دقيقا.. بقوات مصرية كافية تماما للانقضاض عليها ..

واعلن مسئولون مصريون في هدوء تام على العالم كله ان الجيب الاسرائيلي يمكن القاؤه خلف خطوط ٢٢ اكتوبر ..

ويمكن القول ان القيادة السياسية المصرية اتبعت نفس تكتيك قيادة ثورة ٢٣ يوليو مع القوات البريطانية في القناة (٨٠ الف جندي وقواعد عسكرية مهولة) ..

الضغط عسكريا بحرب استنزاف محدوده .. ومد اليد للمفاوضة في نفس الوقت .. لتحقيق الهدف المحدد .. وهو جلاء القوات المحتلة عن مواقعها ..

وفي ٣ نوفمبر مثلا ساد التوتر منطقة الدفرسوار وجرى اشتباك بين القوات المصرية والاسرائيلية في منطقة الشط مقابل مدينة السويس .. ودام الاشتباك ساعة .

وفي نفس اليوم حدث اشتباك لمدة ست ساعات عند الطرف الجنوبي لقناة السويس .

● وفي ٥ نوفمبر استعدت مصر لاستقبال زيارة كيسينجر ، اذ حركت جيشها الذي اعيد تنظيمه مع قوات جزائرية كانت قد وصلت اخيرا في اتجاه الدفرسوار ، وتحركت ١٥٠ دبابة مصرية في المنطقة جنوب السويس كما تحرك اكثر من عشرين الف جندي مصري شمال الاسماعيلية .. وبدا ان الجيش كله في حالة تأهب قصوى .. والموقف على وشك الانفجار ..

ولم يمنع هذا الرئيس السادات من استقبال كيسينجر بحرارة بل والموافقة على اعادة العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة ! .

● في ٩ نوفمبر اسقطت الصواريخ المصرية طائرة فانتوم حلقت فوق الجبهة .

● وتبع ذلك ما ادعته جريدة الديلي تلغراف البريطانية من ان حوالى ثلاثة آلاف خبير سوفيتي عادوا من جديد الى مصر بعد وقف اطلاق النار للمساهمة في اصلاح معدات مصر العسكرية .

● وفي ١٣ نوفمبر حدث اشتباك لمدة ثلاثة ارباع الساعة بين القوات المصرية والاسرائيلية ..

وتكررت الاشتباكات كل يوم تقريبا .. واعلن الاسرائيليون عدة مرات ان القوات المصرية تتقدم الى مواقع جديدة كل يوم ..

وتزايدت الاشتباكات بعد انتهاء مؤتمر القمة العربي في الجزائر وهو المؤتمر الذي وافق على سياسة الرئيس السادات وقرر الاستمرار في تدعيم كل من سوريا ومصر عسكريا وماليا .

وقتل جنود اسرائيليون كثيرون واسقطت طائرة فانتوم اسرائيلية جديدة في معركة جوية يوم ٦ ديسمبر ، وكانت قد اسقطت طائرة اخرى قبلها بيوم واحد بواسطة الصواريخ .

ودعا عضو مجلس الامة ورئيس لجنة الاقتراحات محمود ابو وافية الى تنظيم حركة واسعة لرحلات صيد وقنص للقوات الاسرائيلية في القناة.

ومهما كان الراي في نوعية هذا « الكفاح المسلح » ضد قوات الاحتلال فانه كان نذيرا للاستعمار والصهيونية ببدء هذا الكفاح .. وتوسعه في المستقبل .. فلا احد يستطيع التحكم في مثل هذا النوع من النضال .. طالما ظلت اسبابه ومبرراته باقية .. انه مجرد شرارة .. ومن الشرارة يندلع اللهب !

وجاء كيسينجر الى المنطقة من جديد .. ونذر الحرب تتجمع فيها .. بل ان الاقمار الصناعية الامريكية أكدت وجود حشود مصرية للانقضاض على الثغرة كما بينا من قبل ..

وقال كيسينجر بصراحة انه اذا حدث مثل ذلك الانقضاض فان امريكا ستجد نفسها مضطرة لمساندة اسرائيل صراحة ..

وقيل له في القاهرة اذن دعوهم ينسحبوا .. والا فلن يكون امامنا من طريق غير القتال ..

وكانت القاهرة تعرف ان تهديد كيسينجر من الصعب وضعه موضع التنفيذ فقد كان اي تدخل امريكي مباشر سيؤدي الى مواجهة مع الاتحاد السوفيتي .

ولكن القاهرة كانت تعرف ان التدخل الامريكي يمكن ان يتخذ شكل مدد هائل من السلاح ينزل في مطارات فايد ذاتها ..

وفي هذه الزيارة وعد كيسينجر وعدا قاطعا بان الاسرائيليون سينسحبون من الثغرة ..

وعندما انعقد مؤتمر جنيف في ٢١ ديسمبر بحضور كل من مصر والاردن واسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كان الموضوع الاساسي الذي حققه هو تكوين لجنة عسكرية مشتركة للتباحث حول الفصل بين القوات وانتهت هذه الاجتماعات بجلاء القوات الاسرائيلية عن الثغرة .. وازيح جيش باسره وتحقق الهدف التكتيكي للقيادة السياسية المصرية .. لا بعودة القوات الاسرائيلية الى خطوط ٢٢ اكتوبر فقط بل الى الشرق على بعد ثلاثين كيلو متراً من قناة السويس !.

وراحت القيادة تكرس نفسها للاستعداد دبلوماسيا وعسكريا لتحقيق الهدف الاستراتيجي وهو التحرير الكامل لكل الاراضي العربية المحتلة وتحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

* * *

٣٣

التراجع الأمريكي .. إلى أين ؟

ان « مبدا نيكسون » سيظل مطبقا في السنوات القادمة .. وهـو المبدا الذي يقضي بالمحافظة على المصالح الامريكية عن طريق وكيل .. وفي الشرق الاوسط اعتمد نيكسون اسرائيل تماما كوكيل للولايات المتحدة ... »

رينيه بودوك في الفيجارو ٩ نوفمبر ١٩٧٢

« الطريقة الوحيدة لرفع الحظر عن البترول هي ان نجعل اسرائيـل تتصرف بمعقولية ... اني اكره استخدام كلمة ابتزاز ، ولكن يجب علينا ان نفعل شيئا لنجعلهم يحسنون السلوك ! »

الرئيس السابق نيكسون في ١٣ ديسمبر ١٩٧٣ في حديث مع عدد من حكام الولايات



لم تثر احداث ما بعد حرب اكتوبر من بين ما اثارت من ضجة وخلاف وجدل عنيف احيانا .. قدر ما اثارت حول السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ، أو على وجه الدقة العلاقات المصرية الامريكية .

ان تلك الاحداث قد اثارت جدلا حول قضايا عديدة كان ابرزها اربع قضايـا :

● **وقف القتال** . وقد تحدثنا عنه وعن ظروفه في الفصل السابق وبينا كيف ان ذلك الايقاف للقتال لا يطمس ولا يمكن ان يطمس الانتصار العربي في تلك الحرب .. وانه لا يعني سوى تغيير في الاساليب والتكتيك ـ في ضوء ظروف جديدة ـ من اجل تحقيق الهدف الاستراتيجي وهو التحريـر الذي لم يحدث تنازل عنه .

● **السياسة الامريكية** وموقف القيادة السياسية في مصر منها .

● **العلاقات المصرية ـ السوفيتية** وموقف الاتحاد السوفيتي بشكل عام

● **القضية الفلسطينيـة** .

والقضايا الثلاث الاخيرة هي التي سنتناولها في الفصول القادمة .

★ ★ ★

اننا « نزعم » ان الولايات المتحدة قد غيرت سياستها بعد حرب اكتوبر والواقع انه اذا كان البعض يتصور ان الولايات المتحدة لم تغير هذه السياسة **فهو في واقع الامر لا يؤمن بان العـرب قد حققوا اي نـوع من الانتصار في تلك الحرب .. وان حال العرب والدنيا بعد الساعة الثانيـة يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣ هو نفس حالهم قبل ساعة الصفر بدقائق ..**

ولكن لا بد من الاعتراف انه لا يوجـد شخص واحد من الوطنيين العرب الذين يعارضون القول بان الولايـات المتحدة قد غيرت سياستها ، يقول بانه لم يحدث انتصار عربي في ٦ اكتوبر .

ان كل الفرقاء اللذين تواضع الناس على تسميتهم بجبهة الرفض (وهي جزء اصيل من القوى الوطنية العربية رغم خلافنا معها) يسلمون بان ٦ اكتوبر كان انتصارا للعرب .. بل وبعضهم مثل الرفاق في العراق يرون انه كان لزاما وممكنا بناء على ذلك الانتصار الاستمرار في الحرب حتى دحر العدو الاسرائيلي تمامـا ..

واذا اتبعنا لغة المنطق والجدل .. فاننا سنقول حسنا اذا كان هناك انتصار .. فهو انتصار على عدو موجود وليس على شيء وهمي .. وعـدو العرب هو الصهيونية والامبريالية ..

ولكل انتصار نتيجة .. وهو تراجع العدو .. بشكل ما .. والى اي

مدى .. ولو كان محدودا .. اي بقدر حجم الانتصار .. ونحن نعرف ونسلم بان انتصار العرب في حرب اكتوبر لم يكن انتصارا كاملا ..

ومع ذلك لندع جانبا اسلوب الجدل والكلام .. ولنأت الى الواقع الصلب والحي معا ..

الى اي مدى غيرت الولايات المتحدة سياستها ؟ .. وما هو الهدف من ذلك التغيير .. واهم من ذلك ما هو موقف اي قيادة سياسية في مواجهة تغيير العدو لسياسته ؟ ..

★ ★ ★

لنستعرض سياسة الولايات المتحدة قبل ٦ اكتوبر في المنطقة .. ولنطرح السؤال التالي .. ما هي معالم الاستراتيجية الامريكية فيها ؟.

شيء معروف .. ومن قبيل التكرار ترديده ..

ان للولايات المتحدة مصالح اقتصادية هائلة في المنطقة (البترول اساسا) .. كما ان لها مصالح استراتيجية في المنطقة من زاوية الصراع العالمي بين المعسكرين الكبيرين : المعسكر الاشتراكي والمعسكر الامبريالي (القواعد العسكرية .. خطوط المواصلات العالمية .. الخ .

وهي من اجل ذلك تتبع سياسة تقوم على ثلاث ركائز :

● **الحيلولة دون ظهور قوة عظمى جديدة في المنطقة تتمثل في العالم العربي موحدا في دولة كبيرة ذات قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية كبرى ..**

لان ذلك يعني ان تلك الدولة العربية الموحدة ستتحكم في مصادر الطاقة وتستردها من الاحتكارات الامريكية ، كما ستتحكم في طرق المواصلات العالمية في تلك المنطقة الاستراتيجية الهامة من العالم .

والولايات المتحدة اذا ما كان المد الوحدوي اقوى من ارادتها ومؤامراتها فهي تحاول ان تؤثر عليه وتحرفه الى مسار يؤدي الى وحدة غير ديمقراطية لا تراعي الفوارق الاقليمية والتاريخية وتؤدي الى نمو المتناقضات بين اجزاء الامة العربية وانفجارها بعد ذلك وليس الى ذوبانها..

● **تدعيم التحالف مع اسرائيل الصهيونية وتقويتها عسكريا اقتصاديا وسياسيا .. لانها :**

★ عازل بين نصف الدول العربية ونصفها الآخر وتحول دون اي اتصال برى مما يضعف روابط الوحدة والتكامل الاقتصادي .

★ وهــي سوط « ايجابــي » لضرب حركــة التحرير العربية الوطنية والاجتماعية معا كلما استفحل امرها (حارس مغارة علي بابا) !.

فهي تحارب بالوكالة عن الولايات المتحدة ضد العرب وفقا للسياسة الامريكية التي تقضي بمد انصارها بالسلاح ليحاربوا هم لها بدلا من الجنود الامريكيين مثل شعار «الفتنمة» .

واسرائيل فوق هذا تستنزف طاقة الدول العربية الاقتصادية وتعوق بذلك تطور البلاد المتقدمة منهــا بالذات اقتصاديــا وبالتالــي تبقيها فــي انشوطة السوق الراسمالي العالمي دائما ..

● **عزل هذه المنطقة (العالم العربي) عن المعسكر الاخر المناوئ للولايات المتحدة وهو المعسكر الاشتراكي وبالذات الاتحاد السوفيتي اقوى** دوله لأنــه يساعد بلاد المنطقة على تحقيق اهدافها المناقضة تماما للاهداف الامريكيــة (التحرر الكامل . الانسلاخ عن السوق الراسمالية العالمية) .

انه كلما توثقت عرى الصداقة بين الاتحاد السوفيتي والبلاد العربية كلما تعززت مكانة وقــوة وقدرة الجبهــة العالمية المعادية للاستعمار فــي العالم .. مما يعني اقتراب يوم النهاية الحتمية للاستعمار في العالم ..

وهذه الاستراتيجية الامريكية معلنة على المــلأ لا بواسطــة خصوم امريكا ، بل بواسطة سياسييها وكتابها . وهي ليست سياسة « رد فعــل » وإنما هي سياسة اصيلة بحكم طبيعة وتركيــب الولايات المتحدة وبنيانهــا الاقتصادي والسياسي .

واذا ما استعرضنا هــذه الاستراتيجية فــي تطبيقاتهــا في منطقتنا العربية لوجدنا « امانة » امريكية دقيقة في ذلك التطبيق !..

وسنضرب بعض الأمثلــة :

★ ساعدت امريكا اسرائيل على القيام بعدوان ١٩٦٧ وهــذه قصة قديمة . وبعد ذلك عمدت الى افشـال اي محاولـــة اراد المجتمع الدولــي انتهاجها لتنفيذ قرار مجلس الامن ، من مهمة يارنج الى اجتماعات الاربعة الكبار الى بعثة الوساطة الافريقية .

★ ثم قدمت مبادرة روجرز لكسب الوقت وانقاذ اسرائيل من حــرب الاستنزاف ثم تنكرت لها بعد ذلك .

★ في نفس الوقت دابت باصرار على مد اسرائيل بالاسلحة وتدعيمها عسكريا ومساندتها ضد النضال الفلسطيني المشروع ضد الاحتلال والاغتصاب الاسرائيلي .

وفي كل المحادثات التي كانت تدور بين مبعوثين عرب والمسئولين الامريكان كان نيكسون او كيسينجر يؤكدان عجز الولايات المتحدة عن ممارسة اي ضغط على اسرائيل ، ويرفض كل منهما القيام بمجرد تشاور او مناقشة مع الحكومة الاسرائيلية لتنفيذ قرار مجلس الامن .

وعندما قابل **حافظ اسماعيل** مستشار الامن القومي للرئيس السادات في ذلك الوقت (سفيرنا في موسكو الان) نيكسون في ٢٣ فبراير ١٩٧٣ ليعرض عليه القضية مطالبا الولايات المتحدة بتحمل مسئوليتها لاجبار اسرائيل على تنفيذ القرار الذي شاركت في صنعه (القرار ٢٤٢) . اجاب نيكسون بقوله انه « يتوق الى ان يرى مفاوضات مباشرة تجري بين العرب واسرائيل » ! بينما تحدث **روجرز** وزير الخارجية حينذاك بدوره عن ضرورة اجراء مفاوضات مع اسرائيل لتنظيم كيفية فتح قناة السويس على الفور! وصرح **جوزيف سيسكو** في ٢٥ فبراير ان الولايات المتحدة ليس في نيتها استخدام اي ضغط على اسرائيل .

وواكبت هذه النغمة الامريكية معزوفة مكررة من جولدا مابير تعلن فيها عن رغبتها في لقاء الرئيس السادات والتفاوض معه في اي مكان !.. وعندما رفض حافظ اسماعيل كلا من اقتراح نيكسون وروجرز .. باعتبارهما تسليما باستمرار الاحتلال الاسرائيلي .. اعلن الاثنان بعد ايام مد اسرائيل بثمان واربعين طائرة فانتوم !

وفي تلك المقابلة اطلق نيكسون عبارته المشهورة ان الشرق الاوسط في حاجة الى اعادة « **تخريطه** » اي تعديل الحدود فيه بحيث توجد خريطة جديدة له . وبمعنى اوضح الموافقة على راي اسرائيل في ضم والحاق بعض الاراضي العربية التي احتلتها بعد ٥ يونيه ١٩٦٧ .



هكذا كان الموقف قبل ٦ اكتوبر ..

ولكننا نجد صورة مختلفة بعد ٦ اكتوبر .. **تتمثل اكثر ما تتمثل في التحرك الامريكي الواسع والنشط بين الاطراف المتحاربة تحت شعار محاولة ايجاد تسوية للازمة .**

فقد رأينا في الفصل السابق عن « وقف اطلاق النار » كيف تحركت الولايات المتحدة منذ الايام الاولى للقتال ، وعملت على وقف اطلاق النار .. وطار كيسينجر الى موسكو .. واتفق على القرار ٣٣٨ لمجلس الامن ،

وكيف ضغطت امريكا على اسرائيل لوقف القتال في ٢٥ اكتوبر وفك الحصار عن الجيش الثالث .. والفصل بين القوات ..

وما زال كيسينجر يزور المنطقة العربية ويقدم مشاريع مختلفة اخرها ما قدمه في نوفمبر ١٩٧٤ بشأن انسحاب اسرائيلي جديد ..

ان الولايات المتحدة باختصار اصبحت منغمسة في مشكلة الشرق الاوسط تحاول او على الاقل تتظاهر بمحاولة ايجاد تسوية لها وعندما نقول تتظاهر نقصد تتظاهر بايجاد تسوية عادلة . لان من المقطوع به انها تحاول ايجاد تسوية .. وتسوية في صالحها اولا .

والبارز في هذا النشاط الامريكي هو أن الولايات المتحدة مارست ضغطا من نوع ما على اسرائيل وبدرجة ما . بعد ان كانت ترفض القيام بشيء كهذا .. اي ان في استطاعتها ممارسة ذلك الضغط .

فما الذي اجبرها على هذا ؟..

ان ذلك احد نتائج حرب اكتوبر ولا شك .

ان الولايات المتحدة بادرت الى التدخل والموافقة على وقف اطلاق النار بل والضغط على اسرائيل و .. الخ ..

لانه لم يكن من صالحها استمرار الحرب . ان حرب اكتوبر لو استمرت وطالت كانت ستؤدي الى نتائج خطيرة بعد ان استبان من تطوراتها **انها لم تكن ستؤدي بالقطع الى هزيمة للعرب حتى رغم حدوث الثغرة .**

في البداية عندما علم كيسينجر بنشوب الحرب وترأس « مجموعة العمل الخاصة » أبلغه ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل انه طبقا لتقدير القادة الاسرائيليين سوف تنتهي الحرب في اربعة او خمسة ايام !.

ولم يدهش كيسينجر — كما قال هو بعد ذلك — من ذلك الجواب لان « نبوءة » ايبان كانت تتفق مع تحليل الموقف الذي قام به الاميرال توماس مورر قائد الاركان للقوات المسلحة الامريكية .

وذكر كيسينجر في زيارته الاولى لمصر لمحمد حسنين هيكل « ان كل خبرائنا قد آمنوا انكم اذا بدأتم حربا فان اسرائيل ستوجه لكم ضربة قاصمة .. ولكن عندما نشبت الحرب بدا واضحا بعد فترة ان كل حساباتنا خاطئة .. » .

وعندما اتهم كاتبان امريكيان (مارفن وبرنارد كالب مراسلا محطة « سي. ب. اس » للاذاعة الامريكية في كتاب لهما للبنتاجون الامريكي انه ماطل في ارسال الاسلحة لاسرائيل من اليوم الاول لنشوب القتال « لتجنب

اتساع الهوة بين الولايات المتحدة والدول العربية » ، بادر شليزنجر وزير الدفاع الامريكي بتنفيذ ذلك الادعاء وقال ان معدل ارسال المعدات العسكرية الامريكية كان بطيئا في البداية لان الاتجاه الذي كان سائدا هو ان في قدرة اسرائيل رد العرب بدون مساعدات امريكية ضخمة . ولما تبين عكس ذلك بدأت وزارة الدفاع في تعبئة كل امكانياتها للاستمداد لجسر جوي امريكي) .

وجاء في تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني حول نفس الموضوع ان الامريكيين كانوا واثقين من ان الاسرائيليين سيقلبون الموائد على العرب ، وأنه رغم عنصر المفاجأة الذي واجه القوات الاسرائيلية فانها قادرة على اعادة التجميع وهزيمة المصريين والسوريين .

ولكن الحرب استمرت .. وكل يوم يمر يلحق العرب هزائم بالجيش الذي لا يقهر .. ان الحرب الخاطفة ليس لها مكان .. وكان على الولايات المتحدة ان تحاول حصر الحرب وانهائها .. لماذا ؟.

● ان استمرار تلك الحرب كان سيؤدي الى تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة في المنطقة .. ان الاستمرار يعني اشتراك الشعوب اكثر بدور في الحرب وتحمل لويلاتها .. مما يعني في النهاية مشاركة في توجيه شئون المجتمع بعد الحرب .. مما يعني باختصار اتجاها نحو مزيد من اليسار والراديكالية . وفي هذا خطر تام على المصالح الامريكية التي كان واحدا من حوافزها للحرب ضد ثورة ٢٣ يوليو هو اتجاهاتها الاجتماعية المتقدمة ورفعها شعار الاشتراكية .

وهي لم تكف يوما واحدا عن محاصرة تلك الاتجاهات والشعارات المتقدمة باية وسيلة سواء بالتشويه او التخريب من الداخل لتفريغها من مضمونها .. او حتى بالحرب (من المعلوم ان واحدا من اهداف حرب ١٩٦٧ هو هدم النظم التقدمية لثورة ٢٣ يوليو والنظام في سوريا

والمتتبع للتحركات والمبادرات الجماهيرية على نطاق الشعوب العربية كلها في حربي ١٩٥٦ و ١٩٧٣ يستطيع ان يلمس مدى الخطورة من تطور تلك التحركات والمشاركة الجماهيرية في تحديد مسار التطور على المصالح الاستعمارية والرجعية في المنطقة .

لذلك كان من مصلحة الامريكيين الحيلولة دون استمرار تلك الحرب باية وسيلة .

● أن التضامن العربي الرائع الذي برز في حرب اكتوبر .. كان انذارا مخيفا للولايات المتحدة اذ ان استمرار تلك الحرب سيؤدي الى تضاعف ذلك التضامن الذي شاركت فيه بلاد عربية بقوات كبيرة وليس رمزية مثل (العراق والجزائر والمغرب) ، وكان ممكنا أن تتزايد تلك المشاركة العسكرية والمادية وبالبترول ايضا . مما يرصف الطريق نحو وحدة عربية ديمقراطية تشارك في صنعها الشعوب العربية التي شاركت بدمائها في المعركة .

ومثل تلك الوحدة الديمقراطية تمثل اكبر خطر على الاستعمار العالمي كله في المنطقة . هذا الاستعمار الذي يمتلك البترول فيها .

يقول الكولونيل ناريان الهندي في كتابه الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة « لقد عاش الامريكيون دائما على اعتقاد ان التضامن العربي لن يكون حقيقة يوما ما .. وانه يكفيهم تسليح اسرائيل لكي يضمنوا مصالحهم البترولية في المنطقة ، ولذلك كان من الصعب عليهم ان يصدقوا ان دولا مختلفة كالجزائر والمغرب وتونس والسودان وليبيا ستسارع الى التنافس في مساعدة مصر وسوريا في الحرب ، وان سلاح البترول سيدخل المعركة، لتفقد اسرائيل لاول مرة منذ قيامها قدرتها على القيام بدور حامي المصالح الامريكية وبدلا من ان تحميها ،تصبح هي نفسها في حاجة الى حماية امريكية عاجلة ! »

● ان استمرار الحرب كان سيؤدي بطبيعة الحال الى ازدياد عمق الصداقةالعربية السوفيتية.. اذ سيستمر التأييد السوفيتيمعنويا وعسكريا. بينما تنكشف الولايات المتحدة الامريكية كالحليف والمساند الاول لاسرائيل.

● اضف الى ذلك انه كان متوقعا ان يزداد التناقض اتساعا بين الولايات المتحدة ودول اوربا الغربية طالما استمرت هذه الحرب . بعد اذ بدا ذلك التناقض من اول يوم قامت فيه الحرب ..

● ان استمرار الحرب يهدد الكيان الاسرائيلي ذاته .. فمعنى مواصلة القتال ان يتكبد الاقتصاد الاسرائيلي خسائر فادحة وتتفاقم التناقضات الداخلية بين فئات اليهود المختلفة اضف الى ذلك ان طرد القوات الاسرائيلية بالقوة العربية من الارض المحتلة يضعف من اسرائيل الى الابد في المنطقة ويضعها في حجمها الحقيقي كدولة صغيرة مهزومة وعليها ان تلزم « حدود الادب » مع جيرانها العرب الاقوياء .

وفي هذا ما له من نتائج وخيمة على احلام التوسع الاسرائيلي .. وعلى الهجرة الى اسرائيل .. بل وفيه الغاء لدور « خفير » المصالح

الامريكية في المنطقة كما انه يهدد الكيان نفسه بالضعف والتفكك .. فالافضل اذن ان تنتهي الحرب واسرائيل مهزومة نصف هزيمة .

● يبقى بعد ذلك خوف الولايات المتحدة من ان استمرار الحرب قد يؤدي في الغالب الى الصدام مع الاتحاد السوفيتي . وهو صدام تخشاه امريكا وان كانت تستخدمه كسلاح للابتزاز .

لهذه الاسباب اساسا عمدت الولايات المتحدة الى السعي لوقف القتال .. ومصدر هذه الاسباب كلها هو نتيجة حرب ٦ اكتوبر .. اي الانتصار (ولو الجزئي) الذي حققه العرب على عدو كان هو المنتصر دائما (راجع الفصل الخاص بنتائج الحرب) .

مدى التغيير :

هل غيرت الولايات المتحدة استراتيجيتها ؟..

بالطبع لا .. انما هي غيرت التكتيك .. ان اهدافها الاستراتيجية ما زالت كما هي .. بل راينا ان الاسباب التي دفعتها لتغيير سياستها هي اسباب متناقضة مع تلك الاهداف بل تهددها .

لقد اجبرت حرب ٦ اكتوبر الولايات المتحدة على رؤية انه يجب الضغط من اجل تسوية لمشكلة الشرق الاوسط التي انفجرت ويمكن ان تنفجر مرة اخرى دون امكانية السيطرة عليها .. بل وممارسة الضغط على اسرائيل .

والضغط الامريكي على اسرائيل ليس جديدا فقد سبق ان مارست الولايات المتحدة ايام ايزنهاور ذلك الضغط من اجل مصالحها الاستعمارية نعم .. ولكنه ضغط افاد حركة التحرير العربية ايامها .. ورفضت تلك الحركة بقيادة عبد الناصر مشروع ايزنهاور « لسد الفراغ » في الشرق الاوسط .

يقول الكاتب السياسي ابراهيم عامر مراسل جريدة بوليتيكا اليوغوسلافية في الشرق الاوسط ومدير تحرير جريدة السفير اللبنانية حول ذلك التغيير في السياسة الامريكية » .. وبعبارات اكثر تحديدا فقد تؤدي نتائج حرب اكتوبر الى اعتراف الولايات المتحدة بصورة نهائية بحدود قوتها وسلطتها .

وبما ان المصالح البترولية والاستراتيجية الامريكية اصبحت موضع خطر ، ليس فقط بحكم السياسات الآنية وانما ايضا بحكم ميكانيزم هذه

السياسات في المستقبل ، فقد يصبح على واشنطون ان تغير نظرتها الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي .

وهي ان لم تفعل هذا فانها لا تغامر بالشرق الاوسط فحسب ، وانما باوربا الغربية واليابان وسياسة الوفاق الدولي .. »

ولا بد ان نحاول تفهم الوضع داخل الولايات المتحدة نفسه والصراع بين الاحتكارات فيها . فليس الوضع السياسي هناك وضعا مسطحا ، وانما هناك صراع عنيف بل دموي بين تلك الاحتكارات وبعضها البعض .

ان نيكسون وكيسينجر يمثلان ما يمكن تسميته ، « **بالامبرياليين الجدد** » الذين يرون حقائق العصر الحالي .. من تقدم في المعسكر الاشتراكي ونمو لحركة التحرر الوطنية في العالم .. فيضطرون الى التعايش بصورة ما مع ذلك الوضع الجديد مع استمرار عمليات التخريب والتآمر من الداخل بدلا من التورط العسكري وطرح هذا الاتجاه الذي تدعمه احتكارات معينة وخاصة احتكارات البترول شعار « المفاوضة بدلا من الصدام » .. ومن هنا نستطيع ان نفهم لماذا اتجه نيكسون الى بكين وموسكو .. وبدأ في تطبيق سياسة الانفراج الدولي التي تسمى بالوفاق. ثم اتجه الى البلاد العربية بنفس الشعار بعد ان تبين جدية تلك البلاد في الصدام !

ولقد حاول الرئيس **جون كنيدي** تطبيق تلك السياسة منذ فترة طويلة بعد ان استشف ببصيرته مآل التطور في تلك الفترة المبكرة (١٩٦٢) ولكن الاحتكارات المحافظة ومن بينها احتكارات السلاح والمال (التي كان ايزنهاور قد كشف امرها في خطاب وداعه لمنصب الرئاسة عام ١٩٦١) بادرت فقتلت كنيدي كما تقتل كلبا .

وما حدث لنيكسون هو شيء كهذا .. ولكن بدلا من القتل كان من حظه ان هناك قضية ووترجيت التي تبرر طرده بسبب نقص في نزاهته (هذا النقص الذي هو طابع الحياة السياسية كلها في الولايات المتحدة ..

بعد حرب اكتوبر اصبح صوت انصار الاهتمام بالمصالح الامريكية في المنطقة عاليا .. (بعض اعضاء الكونجرس . جمعية الشرق الاوسط . احتكارات البترول التي جربت محاولة الضغط بعد انتخاب نيكسون عام ١٩٦٨ .

هؤلاء الانصار الذين تصرخ باسمهم جريدة الهيرالد تريبيون الامريكية في نوفمبر ١٩٧٤ فتقول « بالنسبة للولايات المتحدة فان ثمن العلاقات الخاصة مع اسرائيل يرتفع باضطراد يوميا .

وانه ليس هناك سبب للشك في ان هذه العلاقة ستكف عن ان تكون

علاقة خاصة حتى على الرغم من ان بعض مخططي السياسة حول الرئيس فررد يهمسون بان هده العلاقة تنطوي على اخطار اكبر تهدد المصالح الامريكية وتتجاوز اسرائيل نفسها »

وهم هؤلاء الذين تقول نفس الجريدة ان بعض الدبلوماسيين فكروا في اشتراط اعادة الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ كثمن لتزويدها بالاسلحة التي تحتاج اليها في الاسبوع الاول من الحرب ! ..

عندما تبدا السياسة الامريكية في التغيير .. وعندما ترى القيادة السياسية المصرية ذلك الاتجاه للتغيير واضعة في حساباتها موازين القوى داخل الولايات المتحدة نفسها ماذا يكون عليه الموقف؟ ؟ ..

سياسة السادات :

ان الرئيس السادات قد اجاب على ذلك التساؤل بلغة بسيطة جدا.. عندما سالته عن معنى قوله للرئيس حافظ الاسد انه لن يحارب الولايات المتحدة ؟.

قال انه في الوقت الذي كانت امريكا هي صانعة الثغرة .. وهي التي تحاربنا بسلاحها في سيناء والقنال .. كان واضحا انها تريد وقف القتال .. والتراجع ؟.

وما صنعه الرئيس السادات ببساطة ـ انه فتح الباب لهذا التراجع.. تشوف موقف العدو .. واعطاه الفرصة للتوقف عن القتال .. لان استمرار القتال كان يعني مزيدا من التضحيات يمكن ادخارها ..

ولقد كان ذكاء من القيادة السياسية المصرية انها فتحت الابواب على مصراعيها لكيسينجر ونيكسون .. واستقبلتهما بالترحاب والحرارة ..

ان احد مشاكل الامريكيين في الانسحاب من فيتنام كان الانسحاب بما يحفظ ماء الوجه الامريكي ..

وهكذا .. اعطى السادات الولايات المتحدة الفرصة .. فهو الذي عوض اعادة العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة ..

وهو الذي دعا الولايات المتحدة الى أن تلعب دورا نشيطا في حل المشكلة بمنطق « ما فات قد مات » ..

وهو الذي اكد ان مصر راغبة في صداقة الولايات المتحدة ، طالما الولايات المتحدة لا تعادينا .

لقد كان السادات يقوي ذلك الجناح الآخر في الولايات المتحدة الذي يدعو الى الاهتمام بالمصالح الامريكية في مواجهة الجناح المحافظ المدعم بالصهيونية . ولقد قيل كلام كثير عن استقبال نيكسون .. واتهم الشعب المصري في وعيه بالنسبة لحرارة ذلك الاستقبال لرئيس اكبر دولة استعمارية في العالم ..

واسلم باديء ذي بدء ان ثمة مبالغة في تلك الحرارة التي قوبل بها نيكسون .. والمسئول عن هذه المبالغة هو الاجهزة السياسية في مصر .. التي لم تحاول فرملة حماس الجماهير بنوع من التوعية ولو المحدود بطبيعة الولايات المتحدة الاستعمارية ..

وايضا يشارك في المسئولية اليمين المصري الذي لا يناور مع الولايات المتحدة انما يريد استعادة نفوذها في البلاد بما نشره من اشاعات وآمال حول « الفرج » الامريكي القريب ..

ومن الطريف ان صحفيا امريكيا من مرافقي نيكسون قال يوما في القاهرة ان هذا الاستقبال الحماسي لنيكسون مؤامرة شيوعية ؟!..

فلما سئل في دهشة عما يقصد . قال : ان الشيوعيين هم الذين ملئوا عقول الجماهير اوهاما واحلاما عما ستقدمه امريكا لهم .. ولذلك تحمس الناس هكذا . بينما نحن غير قادرين فعلا على تحقيق معظم تلك الاحلام.. وعندما يكتشف الناس عجزنا .. سيشتموننا .. ويكفرون بصداقتنا ..

وهذا التفسير الامريكي الفورستالي (نسبة الى فورستال وزير الدفاع الامريكي الذي كان يرى الشيوعية في كل شيء ومكان) .. رغم طرافته فان له مغزى .

وواقع الامر ان حماسة الجماهير المصرية لاستقبال نيكسون كان **تعبيرا عن شعور الجماهير بالانتصار الذي ارغم قائد الولايات المتحدة على زيارة مصر .. بعد وزير خارجيته بطل دبلوماسية المكوك ..**

وفي المحك العملي .. لقد اعلن الرئيس السادات ثلاث مرات في ثلاث خطب متتالية وسط ذلك الاحتفال الحار بنيكسون ان الولايات المتحدة هي التي غيرت سياستها نتيجة لحرب اكتوبر . واكد السادات تصميمه على التحرير الكامل وحقوق الشعب الفلسطيني .

لم يحدث تنازل قط عن شيء ..

وتفسير سياسة السادات ازاء منح الولايات المتحدة الفرصة للتراجع وتغيير سياسها لا يكون كاملا اذا اغفلنا عنصرا اخر له اهميته .. وهو عنصر **التجربة ..**

ان ثورة ٢٣ يوليو عمدت دائما الى منهج التجريب (اكد قائد الثورة عبد الناصر ذلك عدة مرات) ..

وقد جرب عبد الناصر نفسه بعد هزيمة ١٩٦٧ التفاهم مع الولايات المتحدة (قبول مبادرة روجرز وغيرها) .. رغم انه لم تكن هنـاك قاعدة من نصر عربي (حدث في اكتوبر ٧٣ بعد ذلك) ..

لماذا لا يجرب السادات اعطاء الولايات المتحـدة الفرصة مـن اوسع الابواب .. **وهو يقف على قاعدة من انتصار ٦ اكتوبر الذي احدث تغيرات في موقف الولايات المتحدة ذاتها ؟.**

انه لن يتنازل عن شيء من اهداف معركة التحرير ..

وهو قد مضى في التجربة الى ابعد مدى عندما لوح لليمين المصـري ببعض المكاسب في سبيل الضغط على الولايات المتحدة ايضا لتضغط هي على اسرائيل .

ولا يمكن فهم ما يجري في الصحف المصرية من مناقشات حول ثورة ٢٣ يوليو وحول الانفتاح .. الا في هذا الضوء ..

انها تنازلات لا تتعدى بعض الحريـة لليمـين .. في اطار الاتجـاه الديمقراطي العام لحركة التصحيح منذ مايو ١٩٧١ ليعبر عن آماله واحلامه بتذويب مكاسب ثورة ٢٣ يوليو باية وسيلة .. وفي نفس الوقت لليسار ان يرد على هذا كلـه ..

لقد الغى السادات ظاهرة « تاميم الصراع الطبقي » .. كما تسمى مجازا .. وهذه ظاهرة صحية وفي صالح التطور الاجتماعي ليتطور بطريقة طبيعية وليس بطريقة علوية تعسفية تحمل بذور الانهيار والتفكك .

ولكن السؤال .. هل تنازل السادات عن شيء ؟..

هل مست انجازات ثورة ٢٣ يوليو التقدمية ؟.. لا ..

ولقد اكد السادات عشرات المرات في وجه الحملة اللامبدئية الضارية ضد الزعيم عبد الناصر مسئوليته عن كل ما اتخذ من قرارات .

واكد اصراره على صيغة تحالف قوى الشعب (ورقة اكتوبر) ..

واكد دائما اصراره على الصداقة العربية السوفيتية .

ان الانفتاح وما تضمنه ولا شك مـن تنازلات للرأسمالية المصريـة شيء ليس بغريب على اكثر القوى تقدمية وثورية .

اذا ارتبط باطار خطة متقدمة للتنمية .. انه عامل مساعد في مواجهة ظروف صعبة معينـة ..

ثم انه لا بد من ان نضع في الاعتبار اننا نسعى الى اجتذاب رأس المال العربي للمساهمة في التنمية . ورأس المال العربي يوجد اساسا في دول راسمالية .. فلا بد من تقديم بعض التنازلات المحدودة ..

ولكن من الحق لنا ان نتخوف من هجمة اليمين المصري والعربي ومحاولاته لحرف تطور مصر في مسار رأسمالي بحت .. ومن حرف مسار مصر الى التبعية للولايات المتحدة والمعسكر الاستعماري بشكل عام ..

هذا خطر موجود والمحاولات مستمرة .. والصراع حولها موجود .. ولكن حتى الآن كما تبين في مؤتمرات الطلبة والعمال والمثقفين .. ان اليقظة الشعبية موجودة والمعركة مستمرة بعد سقوط « تاميم الصراع الطبقي » ! ..

وسيحرز اليمين مكاسب في تلك المعركة .. كما احرز في معركة وكلاء الفبارك العالمية مما ينذر بتكوين طبقة من الوكلاء (**الكومبرادور**) ادنى انواع الرأسمالية واشدها انحطاطا ومعاداة للحركة الوطنية والديمقراطية بحكم معيشتهم على الارباح الطفيلية من الاحتكارات العالمية.. ولكن المعركة مستمرة ..

والقيادة السياسية لثورة ٢٣ يوليو تحافظ على المكاسب الاساسية للثورة .. ولا احد يدري ماذا سيحدث عندما تحقق تلك القيادة التحرير الكامل للارض العربية المحتلة ؟!..

ولنذكر دائما .. ان جمال عبد الناصر انطلق في معركة التقدم الاجتماعي بعد تحرير مصر بعد عام ١٩٦٥ ..

ولنذكر دائما ان انور السادات رفيق جمال عبد الناصر وشريكه في السلطة والحكم .. ولم يتواتر قط طوال زمالة السادات لعبد الناصر ان السادات كان له راي ضد التقدم الاجتماعي كما كان رأي بعض زملائه وزملاء عبد الناصر ؟!



الى اين قادت التجربة

ان وكالات الانباء كلها اكدت ان نيكسون وكيسينجر وعدا الرئيس السادات بالضغط على اسرائيل ..

وفي نفس الوقت نحن نعلم ان الولايات المتحدة اذا مارست ذلك

الضغط لاجلاء الاسرائيليين .. فانما ستمارسه بطريقة امريكية .. اي بطريقة تحقق مصالحها التي لم تتخل عنها ..

ان نظرية كيسينجر السياسية لمواجهة المشاكل وهي المسجلة في كتبه تقوم على اسس اربعة :

★ ان الصراع الذي يحكم العالم هو الصراع بين روسيا وامريكا وهو صراع لا يمكن حله الا بانهيار احد الطرفين .

★ ان الصراعات الاخرى في العالم صراعات محلية وهي تنتمي الى الصراع الرئيسي بشكل او بآخر ..

★ لا يمكن حل تلك الصراعات المحلية حلا جذريا ترتيبا على ذلك الا بحل الصراع الرئيسي وذلك لاستحالة المواجهة بين العملاقين .

★ وبالتالي فان الممكن الوحيد في حالة الصراعات المحلية هو تهبيط الصراع المحلي بحيث لا يتصاعد ليصبح صراعا عالميا .

وقد طبق كيسينجر ذلك مثلا في مشكلة فيتنام اذ لم ينته الصراع فيها بين الشمال والجنوب وان كان قد انتفى خطر المواجهة .

● وهو خلال هذا العام ايضا حاول تجزئة المشكلة اقليميا بمعنى ان الشرق الاوسط بالاتفاقيات المختلفة عن الفصل بين القوات ..

● وهو خلال هذا العام ايضا حاول تجزئة المشكلة اقليميا بمعنى ان الانسحاب يأتي على مراحل .. على امل ان عند اي مرحلة يهبط الصراع وتنام القضية ..

● وهو حاول تجزئة المشكلة بين الدول العربية ذاتها .. وهو ما يسمى بالحلول المنفردة ..

● وهو حاول ابعاد الاتحاد السوفيتي عن المنطقة بعدم اشراكه في حل المشكلة ومنع عقد مؤتمر جنيف .

● وهو حاول تنمية وهم بين العرب يساعده فيه اليمين العربي على ان العرب بوسعهم الاعتماد على الولايات المتحدة بدلا من الاعتماد على انفسهم وعلى صداقتهم بالسوفيت ..

● وهو حاول ابراز دور قيادي لاصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة .

● واخيرا حاول قتل القضية المحورية للنزاع وهي قضية فلسطين وقصرها على الارض المحتلة العربية بعد ٥ يونيه ١٩٦٧ .

ماذا كان مآل تلك المحاولات ؟..

★ انه رغم نجاحه في تحقيق انسحاب مرحلي (اتفاق الفصل بين القوات في مصر وسوريا) وتلويحه الان بانسحاب مرحلي جديد .. فان القضية لم تهبط . بل أن مصر وسوريا استفادتا من الوقت لتدعيم قواتهما عسكريا وتبذلان جهودا مستميتة للحصول على سلاح من اي مكان بما فيها الضغط المصري على الاتحاد السوفيتي لتسليحها باحدث الاسلحة .. وتلوح كل يوم باستخدام القوة لتحرير ارضها .

★ انه ليس هناك دولة عربية واحدة تقبل ما يسمى بالحلول المنفردة .

ورغم كل المحاولات الامريكية .. والارجافات والمزاعم عن ان مصر ستقبل حلا منفردا فان شيئا من ذلك لم يتحقق ولن يتحقق .

ولن نناقش هنا هذه المزاعم فهي افتئات على الحق وانكار لتاريخ ماض وحاضر ناصع في النضال والدفاع عن العرب جميعا ..

ومصر هي اكثر بلد عربي قدم تضحيات ومساعدات بالدم والمال من اجل كل بلد عربي من الجزائر الى اليمن الى ثورة لبنان ١٩٥٨ الى شعب فلسطين ..

ومثل تلك المناقشة يشعر المرء انها نوع من التجديف والكفر .

★ **وفشلت السياسةالامريكية في عزل الاتحادالسوفيتي عن المنطقة..**
ورغم كل المزاعم عن نهاية الصداقة العربية وبالذات المصرية مع الاتحاد السو فيتي.. تبين ان ذلك كله وهم.. والسلاح السو فيتي يتدفق على البلاد العربية سوريا والجزائر والعراق وسيتدفق ان لم يكن تدفق فعلا على القاهرة ..

وكل الاطراف العربية المقاتلة تؤكد على ضرورة عقد مؤتمر جنيف .

★ **وتاكد للعرب بعد عام ان ليس بوسعهم الاعتماد على الولايات المتحدة** .. بل الاعتماد على انفسهم اولا وعلى من يصادقهم بعد ذلك .. ومن هنا بدءوا يتجهون الى اقامة صناعات حربية .. وبدءوا يرصدون بلايين الدولارات لشراء اسلحة (وتدفع السعودية دولارات للاتحاد السوفيتي وفرنسا لشراء اسلحة لمصر وسوريا) .

★ **وفي مؤتمر القمة العربي الاخير (اكتوبر ١٩٧٤)** .. لم يكن هناك اصدقاء للولايات المتحدة يلعبون دورا قياديا .. بل كان هناك تضامن

عربي .. ورؤساء عرب مثل السادات وحافظ الاسد وبومدين والملك الحسن .. قدموا اقتراحات متقدمة لتدعيم ذلك التضامن ..

★ **اما قضية فلسطين** .. فلم يسبق ان حققت انتصارا عالميا كما حققته في العام الذي حاولت الولايات المتحدة قتلها فيه .. وعلى اعواد منابر الامم المتحدة دوى صوت فلسطين لاول مرة .. والدولة الفلسطينية اصبحت امرا معترفا به عربيا حتى من الملك حسين .. ودوليا حتى من دول غربية مثل فرنسا ..

★ ★ ★

هكذا كان حصاد السياسة الامريكية خلال اكثر من عام بعد وقف اطلاق النار .. رغم الفرصة التي اخذتها .. **ورغم المبالغة (ولا بد من الاعتراف بهذه المبالغة التي ادت الى ما يشبه وضع البيض كله او معظمه على الاقل في السلة الامريكية) في منحها تلك الفرصة ..**

ولكننا لم نخسر شيئا .. وما زال الباب مفتوحا .. للامريكيين ليحولوا دون تجدد القتال بالضغط على اسرائيل لتنفيذ قرارات الامم المتحدة .

وان كان الجناح الاخر – الاكثر مرونة – في الولايات المتحدة قد اصيب بضربة في الانتخابات الامريكية للكونجرس اخيرا كما عبر عن ذلك بصراحة مذهلة عضو الكونجرس الامريكي الديمقراطي جون مورفي للصحفيين من تل ابيب في نوفمبر ١٩٧٤ بقوله .

« ان السياسة الامريكية ازاءكم كانت مواليه تماما الا ان الديمقراطيين كانوا دائما وهذا خط تقليدي اقرب لاسرائيل خاصة وان الحزب الجمهوري متاثر لحد كبير بمصالح شركات البترول الكبرى . (كذا) » .

وعبر عن ذلك بصراحة ايضا .. حاكم ولاية ماريلاند الديمقراطي عندما قال « ان انتخابات هذا الاسبوع (يقصد انتخابات الكونجرس وحكام الولايات – نوفمبر ١٩٧٤) قد عززت القوى المؤيدة لاسرائيل في الولايات المتحدة . فقد حقق الديمقراطيون عدة انتصارات مهمة وتلقى اصدقاء اسرائيل قوة جديدة في مختلف انحاء البلاد .. » .

ومع ذلك فان النضال العربي لن يسقط في انشوطة الاجنحة المختلفة .. ولا يعول عليها كثيرا وكما قال الرئيس السادات بصراحة **« اني لن القي بحملي على احد .. وسياستي ليست مرتبطة بذهاب رئيس ومجيء رئيس .. »**

ان النضال العربي سيعتمد دائما على قدراتــــه وتضحياته هــو ..
وما زالت الولايــات المتحـدة حتى الآن تعلن تمسكهــــا بسياسة نيكسون
وما زال كيسينجر يقوم بنشاطه .. رغم ان مركزه يتزعزع يوما بعــد يوم
في الولايات المتحدة ..

ونحن نسمع ديان يطوف بالولايات المتحدة ويخطب قائلا .. **لا تتخاذلوا وتضعطوا علينا وتحجبوا عنا السلاح مقابـل صداقة الــعرب على حساب اسرائيــل . »**

وهو يحاول ضرب سياسة « الوفـاق » فيقول صارخـا كمجرمي الحرب « **اذا تركتم السوفيت يفعلون ما يريدون لمجرد انكم لا تريـدون ان تصبحوا شرطي العالم .. سيصبح العالم كله في حالة مؤسفة » ..**

عندما نسمع كلاما كهذا نفهم ان ميزان القوى ليس في صالح اسرائيل تماما وان الموسسة العسكرية فيها في مازق حقيقي .

وعندما نقرأ أنباء عن تبرم البنتاجـون الامريكـي من طلب تزويــد اسرائيل بمئات من الدبابات الجديدة .. نفهم ذلك ايضا ..

ولكنا ابدا لن نغمض عيوننـــا .. عن الحقيقة التــي لفت السادات النظر اليها دائما : « ان الولايات المتحدة لن تقــف الى جانبنــا قط على الاقل في جيلنا الحالي » .. انما نريد تخفيف تأييدها لاسرائيل لا اكثــر ولا اقــل ..

ونحن نرى بعيون واسعة مفتوحة الامــدادات العسكرية الامريكيــة المستمرة الى اسرائيل والطائرات الحديثة ف ١٥ و ف ١٤ التي لا تستطيع مواجهتها الا الميج ٢٥ . وطلبات التسلح الجديدة بسبعة عشر بليون دولار في مدى اربع سنوات ومن قبل راينا الجسر الجوي الهائل ..

نحن نذكر هذا كله .. ونحن نفتــح الباب للامريكيــين ان يغــيروا سياستهم التي اجبرناهم على تغييرها بفضل انتصارنا ..

ومستعدون .. تماما لتحقيق انتصاراكبر من انتصار ٦ اكتوبر اذا كان ذلك هو السبيل الوحيد اذا نكصت عن التغيير او تلكات فيه ..

٣٤

الموقف السوفيتي .. في الميزان؟

● معالجة الموقف السوفيتي في حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما بعدها .. والعلاقات المصرية ـ السوفيتية مسألة تحتاج لا الى الدقة فحسب بل الى الموضوعية شبه المطلقة (باعتبار انه ليس هناك مطلق في هذا العالم) .

وهناك سببان لضرورة التزام هذا المنهج فوق أن الامانة العلمية تقتضيه اصلا في تناول اي مشكلة لا مشكلة الموقف السوفيتي فحسب :

السبب الاول اننا نتناول ظاهرة نعيش فيها نحن الشعوب العربية وبالذات الشعب المصري منذ عام ١٩٥٥ تقريبا .. وهي ظاهرة الصداقة العربية السوفيتية التي تطورت من عملية التسليح لمواجهة الاعتداءات الصهيونية والاستعمارية الى صداقة استراتيجية كانت ابرز الصداقات بين دول العالم الثالث في الجبهة العالمية المتحدة المعادية للاستعمار والتخلف التي تشمل الاقطار الوطنية المتحررة والمعسكر الاشتراكي وحركات التحرر الوطني .

ومثل هذه الصداقة التي توطدت يوما بعد اخر بحكم الاحداث والعوامل الموضوعية والتاريخية تؤدي الى حساسية شديدة احيانا من حيث توقع وترقب وقياس مستوى المعونات المختلفة بين اطراف الصداقة .

السبب الثاني اننا نناقش هذه الظاهرة ونحن الطرف في الصداقة المتورط في مشكلة الاحتلال الاجنبي لمناطق من بلادنا .. ومن ثم فان

المشاعر القومية الملتهبة لدينا تجعلنا في وضع من ينظر الى الامور بنظرة ذاتية اكثر منها موضوعية .

وهذه النظرة الذاتية قد تؤدي الى ـ نتيجة مواقف الطرف الاخر من الصداقة ـ الى الكفر بها .. او الى موقف عكسي يجعلنا اسراها باعتمادنا عليها اعتمادا كاملا كافرين بقوانا الذاتية ، وهنا لا تتهدد الاخطار استقلاليتنا فحسب بل يتهددنا لفناء والتلاشي لكياننا ذاته .

ولقد استغل خصوم الصداقة المصرية السوفيتية التناقض بين القيادة المصرية والقيادة السوفيتية في بعض الامور وابرزها قضية التسلح ..

وهذا التناقض طبيعي .. ويحدث بين الاصدقاء واكثر الدول صداقة وارتباطا (نظرة الى ما يجري من خلافات بين حتى الدول الاشتراكية الاوربية تؤكد ذلك) ..

لقد تلقف البعض هذا التناقض .. وحاولوا ان يضخموه .. ويبالغوا فيه .. بهدف واحد .. هو القضاء على الصداقة العربية السوفيتية ؛ وهو هدف ـ كما راينا ـ من اهداف الولايات المتحدة الامريكية ..

ولم يكن يكفي لايقاف هؤلاء الناس عن الاستمرار في محاولاتهم التخريبية تاكيد القيادة المصرية وبالذات الرئيس السادات في كل فرصة يتناول فيها بالنقد موقف القيادة السوفيتية ، انه حريص على استمرار تلك الصداقة وتنقيتها من الشوائب .. بل دعا دائما الى عقد اجتماعات تتوج باجتماع قمة لتصفية الجو .. واصر اصرارا عجيبا على ذلك حتى تحقق له ما اراد .

★ ★ ★

المعادلة العجيبة :

لقد وضع هؤلاء الناس معادلة غريبة بعد حرب اكتوبر ..

« **امريكا بسلاحها** » + اسرائيل = قتل ابنائنا في الحرب = « **صديقة لمصر ؟** »

« **الاتحاد السوفيتي بسلاحه** » + العرب = الانتصار على اسرائيل = « **عدو لمصر ؟!!** » .

وكان شيئا عجيبا ان يدق هؤلاء الطبول بعد الحرب للولايات المتحدة التي قتل شبابنا بقنابلها التليفزيونية وغير التليفزيونية .. والتي غيرت مجرى الحرب نسبيا بمسئوليتها عن الثغرة (راجع تصريحات الرئيس السادات) .. بينما تتعالى الصرخات والهجمات ضد الاتحاد السوفيتي

الذي حمل مقاتلونا البواسل سلاحه في طريقهم لتحقيق النصر لتلك الامة .. حتى لان احد الكتاب تحمس فوصف السوفيت « بنجار الحروب » !!..

ولا بد من الاعتراف ان هؤلاء الناس قد حققوا بعض النجاح للوصول الى غرضهم .. فان اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري عندما زار موسكو في اكتوبر ١٩٧٤ وجد امام الرفاق السوفيت ملفا بما كتبته بعض الصحف المصرية عن تلك المعادلة الغريبة المزيفة .. هذا في الوقت الذي ابرزت فيه هذه الصحف مساعدة ومؤازرة كل بلاد العالم للعرب في معركتهم ايا كان مدى تلك المؤازرة !

وعندما يتناول المعلق السياسي المنصف بالدراسة العلاقات العربية السوفيتية .. فعليه ان يضع مثل هذا الامر في الاعتبار .

لا لان السوفيت سيشعرون بان اصدقاءهم ناكرون للجميل او ما شابه ذلك .. فتلك قضية ليست رئيسية ..

انما القضية ان مثل ذلك الكلام يسبب للقيادة السوفيتية متاعب شديدة داخل الحزب وداخل الشعب نفسه ..

ماذا كانت تقول الاذاعات الصهيونية والاستعمارية لشعوب الدول الاشتراكية بعد هزيمة ١٩٦٧ :

كانت تقول : هؤلاء هم العرب حلفاؤكم .. غير الشجعان .. غير القادرين على القتال .. الذين يهربون ويتركون لنا السلاح .. السلاح الذي انتزع ثمنه من اجوركم .. انهم حلفاء لا يمكن الاعتماد عليهم !! (راجع كتاب اوربا والعدوان الاسرائيلي للمؤلف طبعة ٦٨ و ٦٩) .

وعندما اخرجت مصر الخبراء السوفيت خرجت جريدة « كوريري دي لاسيرا » وهي جريدة رجعية محافظة لسان حال حلف الاطلنطي في ايطاليا . وقد سرها طبعا خروج أولئك الخبراء .. ولكنها خرجت بمانشت عريض : هؤلاء هم العرب غير الاوفياء !.. واذيعت ترجمة ذلك المقال باللغة الروسية في كل الاذاعات الغربية الموجهة الى الاتحاد السوفيتي !.

وبالمثل .. ان ما نشر في الصحف المصرية او العربية عموما ضد الاتحاد السوفيتي بعد حرب ١٩٦٧ اذاعته الاذاعات الغربية واذاعة اسرائيل موجها الى شعوب الاتحاد السوفيتي .. هذا هو رأي الذين تقدمون لهم المساعدات ! ..

ونحن نسرد هذه الحقائق .. لا بهدف الدفاع عن الاتحاد السوفيتي.. وانما لنضعها موضوعيا امام القارىء . وامام صانعي السياسة حسني النية..

اننا لا بد ان نتعرف الى وجهة نظر صديقنا .. ونحن نختلف معه .. حتى نكون اقدر على حل ذلك الخلاف أن كان في مصلحتنا حله ..

ان الشعب السوفيتي قد أمضى ٥٧ عاما في ظل الاشتراكية .. ورغم التقدم الهائل الذي احرزه بحيث اصبح في وقت قليل نسبيا واحدا من القوتين الرئيسيتين في العالم.. الا انه يرى بعينيه أن مستوى المعيشة عنده بعد فتح الابواب ــ في ظل التعايش السلمي ــ اقل من اي دولة غربية اوربية.. بل ان مستوى المعيشة في جمهورية المانيا الديمقراطية الاشتراكية اعلى منه في الاتحاد السوفيتي .

وصحيح أن الحزب والحكومة ربتا الشعب السوفيتي على ضرورة التعاون مع شعوب العالم . والتعاون الاممي .. الخ . لكن لا يستطيع احد ان ينكر اثر الدعاية المضادة اذا ادت التضحيات التي يقدمها ذلك الشعب ــ بموجب ذلك التعاون ــ الى نتائج عكسية .

وجهة النظرالسوفيتية :

واستكمالا للصورة نمضي في عرض وجهة النظر السوفيتية وملابساتها ثم نعرض لوجهة نظرنا (مصر) .. فليس افضل من ذلك منهجا للتوصل الى حل جذري لسوء التفاهم .

ليست الدعاية المضادة هي التي تؤثر في الشعب السوفيتي فقط ، وانما ايضا هناك اتجاهات داخل الحزب الشيوعي السوفيتي بل داخل الحركة الشيوعية العالمية تتعلق بالموقف من معاونة الدول المستقلة حديثا. جميع الاتجاهات متفقة على التضامن الاممي والتعاون الدولي ، الا ان ثمة اتجاها يرى ان تقبض الدول الاشتراكية عموما يدها بعض الشيء عن مساعدة تلك الدول المستقلة حديثا .

لقد كانت الفكرة في البداية تطرح بديلا لذلك السخاء في التعاون هو اقامة نوع من « توزيع الثروة » بين الدول الاشتراكية جميعا بصرف النظر عن مستوى نموها الاقتصادي لكفالة نوع من المساواة في ذلك النمو بينها . اي باختصار تطبيق نوع من المجتمع الشيوعي قبل نضوج المرحلة السابقة له وهي الاشتراكية .

ولن نستطرد طويلا في شرح الفكرة اشفاقا على القارىء من متاهات فكرية وايديولوجية لا تهمنا الان ..

وانما ما يمنا حقا .. هو ان ذلك الاتجاه استخدم سلاحا هاما لتاكيد وجهة نظره بعد احداث السودان ١٩٧١ . بل دارت في كل الاحزاب

الشيوعية العالمية مناقشة واسعة وحادة حول مغزى مساعدة الدول المستقلة حديثا وهي تستخدم السلاح السوفيتي لضرب انقلابات يسارية في بلاد مجاورة ؟ ..

لقد القت احداث السودان وملابساتها بظلال على العلاقات المصرية ـ السوفيتية ولا شك حتى سوى الموقف في زيارة الرئيس السادات في اكتوبر ١٩٧١ . لكن هذه الاحداث كانت « زادا » لتقوية جانب الجناح المتشدد لا في الاتحاد السوفيتي وحده بل في كل التنظيمات الحزبية او الجماهيرية في العالم كله .

● على أنه اذا كان لقاء القمة المصري ـ السوفيتي في اكتوبر ١٩٧١ قد نجح في ان تعبر العلاقات بين البلدين الازمة الطارئة فان السوفيت قد اشتكوا عدة مرات من اصرار قائد الجيش السابق الفريق محمد صادق على اثارة حملة مستمرة ومتصاعدة ضد الاتحاد السوفيتي بل وضد السلاح السوفيتي وقيمته وجدواه واشتكوا ايضا من ان بعض اخطاء الخبراء السوفيت (وهي طبيعية بين آلاف من الخبراء) كانت تستغل لاثارة نعرة وطنية معادية لهؤلاء الخبراء كما لو كانوا جيش احتلال ، بينما هم مستقدمون بناء على طلب وطلب ملح من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في عام ١٩٧٠ .

ولعله بعد نشر الوثيقة الهامة عن اجتماع المجلس الاعلى للقوات المسلحة في كتاب موسى صبري « وثائق حرب اكتوبر » يمكن الان تفهم مغزى تلك الحملة ودوافعها .

● والسوفيت لا ينكرون انهم كانوا من انصار الحل السلمي او الحل السياسي .. وعندما كنت في موسكو عام ١٩٧٢ جرت بيننا وبين عدد من المعلقين السياسيين مناقشات صريحة حول هذا الموضوع .

ان وجهة نظرهم في تفضيل الحل السياسي انهم كانوا يخشون من ان تتكرر هزيمة العرب كما بينا في الصفحات الاولى من هذا الكتاب .. وهذه الخشية كانت منبعثة من تجارب الحروب السابقة علاوة على مظاهر التسيب والتخلخل الذي كانت الصحف المصرية نفسها تنقدها بعنف (ذكر برزنيف مثلا في احدى المناقشات عدد الكباريهات التي فتحت بعد هزيمة ١٩٦٧ وتساءل عما اذا كان ذلك يساعد على الاعداد للحرب ؟!)

ولكن السوفيت كانوا يؤكدون دائما ان هذه مجرد وجهة نظرهم .. وان قرار المعركة قرار مصري مائة في المائة . وانهم سيؤيدون العرب اذا ما صمموا على دخول حرب (وقد حدث ذلك فعلا) . ولذلك لم يكن يروقهم تحميلهم مسئولية تأخير بدء الحرب ، كما حدث في عام الحسم .

ولكن هل حقا اقتصر الامر على مجرد ابداء وجهة نظر كما يبدي الاصدقاء بعضهم لبعض آرائهم .. ام اتخذت خطوات عملية تتمشى مع وجهة النظر هذه ؟!

هذا ما سنراه عندما نعرض لوجهة نظرنا المصرية والموضوعية ايضا .

● ولقد أثار الشكوك السوفيتية اندفاع اليمين المصري في حماس شديد واهوج نحو دفع البلاد الى طريق تطور رأسمالي بحت .. وتمزيق العلاقات العربية ـ السوفيتية . وتشويه كل ما انجز من اعمال رائعة لصالح الجماهير الشعبية في العشرين عاما الماضية .

وربما ان ذلك اليمين يحاول احتواء ثورة ٢٣ يوليو وحركة التصحيح.. وحاول باستماتة ان يحتوي قائد الثورة ذاته الرئيس السادات ويقدمه للعالم العربي بالذات كرجل اليمين الذي يتناقض تناقضا جذريا ورئيسيا مع رفيق نضاله جمال عبد الناصر . ففي الوقت الذي كان يقول فيه السادات تفسيرا للاستغناء عن الخبراء السوفيت انها وقفة مع الصديق كان اليمين المصري يصفها بانها عملية لتحرير مصر ، كانما مصر كانت محتلة بقوات سوفيتية وليست ـ حتى الان ـ بقوات اسرائيلية ؟!.

وحاولوا ان يلووا سياسة الانفتاح المقصود بها انقاذ وضع اقتصادي متدهور الى سياسة « سداح مداح » على حد تعبير احمد بهاء الدين رئيس تحرير الاهرام .. بينما يؤكد السادات على استمرار المسيرة في اتجاه الاشتراكية ..

والامثلة عديدة .. على ذلك ..

ولا شك ان واحدا من اهم الاسباب « لسخاء » الاتحاد السوفيتي في تقديم معوناته العسكرية والاقتصادية هو مساعدة مصر على بناء اقتصادها الوطني المستقل . وقد كان الكتاب والمسئولون السوفيت منذ زمن طويل أكثر كتاب العالم تأييدا او حماسا **لخطوات ثورة ٢٣ يوليو على طريق التقدم الاجتماعي بصرف النظر عن موقفها من الشيوعية وزجها بالشيوعيين في السجون .**

وبمعنى اوضح ان احدا لا يستطيع ان يطالب السوفيت بتقديم مساعدات وقروض دون حساب لتنمية تعتمد على رءوس الاموال الاستعمارية ولحساب مصالح حفنة من الاحتكاريين الاجانب والرأسمالية المحلية الشرهة او « المستغلة » .

ولقد برز نشاط اليمين بعد ايقاف القتال ، وتحرك الولايات المتحدة اذ تصور ان الحل السلمي على الابواب ومن ثم فلا حاجة للسلاح الروسي

ولا لاصحابه .. والطريق الرأسمالي للتنمية اصبح مفتوحا فلا حاجة للمصانع الثقيلة ـ شرط التنمية الحقيقية ـ واصحابها ! .. ومن هنا ازدادت الحملة على الاتحاد السوفيتي .

فحاولوا غداة اطلاق النار تحميل الاتحاد السوفيتي مسئولية قبول وقف اطلاق النار مع ان هذا القبول كما هو ثابت لدى كل قائد عربي وكما عرضنا في ذلك الكتاب قبول عربي مائة في المائة .. ويمكن القول دون مبالغة ان تحركِ الاتحاد السوفيتي في هذا المجال لم يتم الا باتفاق تام مع الاطراف العربية المعنية .

★ ★ ★

● ثم هؤلاء الذين يتحدثون عن دفع ثمن السلاح للاتحاد السوفيتي.. هل يريدون ان يعطيه للعرب مجانا ؟ .. لماذا ؟ ..

ومن هم العرب بالنسبة للاتحاد السوفيتي .. هل هم بلد تابع .. او جمهورية سوفيتية ؟ انهم بلاد عربية مستقلة « لا شرقية ولا غربية » .. وتتعامل مع دول العالم كله بطريقة ندية ..

والعرب اغنياء .. لديهم بلايين الدولارات وليس ملايينها .. لماذا لا يدفعون ثمن السلاح الذي نشتريه ..

وأليست هي معركتهم هم .. يقاتلون من اجلها ويجب ان يضحوا من اجلها .. وشكرا لكل من يساعدهم .. ولو يبيع لهم بندقية ؟!

من المؤكد انه لو حدث ان العرب حصلوا على السلاح السوفيتي مجانا .. لتصايح هؤلاء الناس انفسهم وقالوا : انظروا ان البلاد العربية اصبحت تابعة للاتحاد السوفيتي .. او باعت استقلالها .. او ان السوفيت اعطوهم السلاح مجانا ليكون العرب وقود حرب في الحرب الباردة مع امريكا (ويومها سيتناسون كلامهم عن الوفاق الدولي !) .

غريب ان يسعى العزب لكسب صداقة بريطانيا وفرنسا وتحييد اوروبا الغربية كلها واليابان .. ويأتي بعض الناس ليدفعوا القيادات السياسية العربية الوطنية لمعاداة الاتحاد السوفيتي ! ! ..

● واذا كان السوفيت قد استقبلوا بامتعاض قرار الاستغناء عن خبرائهم في يوليو ١٩٧٢ . الا ان ذلك عندهم لا يتوازى مع الاستغناء عنهم في المفاوضات التي تلت وقف اطلاق النار .

لقد بدا لهم ان مصر قد وضعت البيض كله في السلة الامريكية (راجع الفصل الخاص بالتراجع الامريكي لماذا والى اين ؟) ..

ومن هنا كان اصرارهم على عقد مؤتمر جنيف ورفض منهج الاتصالات الثنائية . وهم يرون في ذلك الاستغناء تهديدا بدخول النفوذ الامريكي في المنطقة من جديد وتناسيا لمعاهدة الصداقة المصرية السوفيتية .

ان السوفيت عندما يتحدثون عن المصالح المشتركة بينهم وبين البلاد المستقلة حديثا .. يقصدون بالدرجة الاولى ان مصلحتهم في معاونة تلك البلاد على تدعيم استقلالها السياسي والاقتصادي هي اقصاء النفوذ الاستعماري الظاهري (كالقواعد العسكرية) او المستتر (كرءوس الاموال) منهـا .

ولما كان ذلك يتفق مع مصالح تلك البلاد نفسها .. فلا تناقض اذن مع المصالح السوفيتية .

وجهة النظر المصريـة :

بصرف النظر عن محاولات الرجعية العربية عموما ، فان موقف القيادة السياسية المصرية كان ثابتا عند نقطتين :

★ التمسك بالصداقة المصرية ـ السوفيتية في احلك الظروف التي وصلت فيها العلاقات الى منتهى التوتر .

★ السعي الى حل الخلافات الموجودة اما عن طريق الاجتماعات على جميع المستويات او اثارة هذه الخلافات ذاتها علنا .

● إنه اذا كان الاتحاد السوفيتي قد رأى (قبل حرب اكتوبر) أن الحل السياسي هو الشيء الممكن الوحيد . فالقاهرة لا تعترض على حق الاتحادالسوفيتي في ان يكون له ما يشاء من الاراء بحكم نظرته الدولية ومصالحه المختلفة في اطار العلاقات الدولية المتشابكة . الا انه بفرض صحة هذه الفكرة فانه مما يمهد للحل السياسي ويقربه هو ان يكون العرب على قدر كاف من التسلح يوازي قوة العدو على الاقل بحيث يشكل هذا التسلح عامل ضغط كاف من اجل التوصل لذلك الحل .

● انا من الثابت ان الاتحاد السوفيتي لم يلب كل طلبات مصر من السلاح وقطع الغيار . وتاخر في توريد بعض الشحنات رغم الحاجة الماسة اليها ورغم التعاقد على مواعيد محددة لها . وقد ضرب الرئيس انور السادات بعض الامثلة مثل طائرات الهيلكوبتر وقطع غيارها . ومثل رفض الطلبات المتعددة المسجلة في رسائل مختلفة بعث بها الى القيادة السوفيتية (قبل خروج الخبراء السوفيت) ..

وتفاقم الامر بعد حرب اكتوبر عندما كف الاتحاد السوفيتي عن شحن اسلحة وتعويض الطائرات التي خسرتها مصر .

● اثناء الحرب اشادت وسائل الاعلام بدور الاتحاد السوفيتي في مساندة مصر والعرب .. ونشر على لسان الرئيس السادات انه قال للسفير السوفيتي « اننا حاربنا بالسلاح السوفيتي » .. كما نشر ايضا انه اعرب عن اغتباطه للرفيق كوسيجين بالجسر الجوي اثناء الحرب ودعا الى نسيان الماضي ..

● صحيح ان بعض الاقلام قد هاجمت الاتحاد السوفيتي ، ولكن لماذا القلق والتوتر ، وحركة التصحيح في مايو ١٩٧١ قد فتحت باب الحرية للاتجاهات المختلفة لتعبر عن نفسها .. وقد تصدى للاقلام التي هاجمت الاتحاد السوفيتي اقلام دافعت عنه واشادت بدوره .

● ان الاتصالات بالولايات المتحدة وتركيز تلك الاتصالات معها بعد وقف اطلاق النار مرتبط بامرين :

★ انها اي الولايات المتحدة هي القوة الفعالة المؤثرة على اسرائيل والتي يمكن الضغط عليها بحكم مصالحها .

★ ان هذه الاتصالات جرت على قاعدة من الانتصار العربي في حرب اكتوبر ، هذا الانتصار الذي كانت الاسلحة السوفيتية والتايد السوفيتي بعض دعائمه ومسبباته الاساسية .

ومن ناحية اخرى ان القيادة السوفيتية تجري اتصالات مع الولايات المتحدة وترتب اسسا عملية لتعايش سلمي او وفاق دولي يقوم على علاقات تجارية وسياسية ونزع للسلاح .. الخ .

ولقد كان الاصدقاء السوفيت يشيرون على الرئيس جمال عبد الناصر ان يجري اتصالات مع الولايات المتحدة بهدف تحريكها للضغط على اسرائيل ، وكان السوفيت يشاركون في هذه الاتصالات لنفس الهدف ايضا .

● اما عن التنسيق مع الاتحاد السوفيتي ، او الاتهام باخراجه من الصورة فان الحقيقة ان الذين حاولوا تخريب العلاقات المصرية ـ السوفيتية لعبوا دورا هاما في تضخيم الموقف . فقد كان اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري على اتصال مستمر بالمسئولين السوفيت في مؤتمر جنيف في ديسمبر ١٩٧٣ .. وفي نيويورك .. والاتصالات كانت مستمرة مع السفير السوفيتي في القاهرة .. وكان اسماعيل فهمي على

وشك السفر الى الاتحاد السوفيتي في يوليو ١٩٧٤ لولا تأجيل السوفيت للزيــارة .

هذا علاوة على الاتصالات التي كانت تتم بواسطـة مسئولين عـرب آخرين مع الاتحاد السوفيتي لتصفية الخلافات .

● ان القاهرة لاحظت ان الاتحاد السوفيتي اثناء توتر العلاقة بينـه وبين القاهرة اتجه لتدعيم علاقته اكثر بكل من العـراق وسوريا وليبيـا والمقاومة الفلسطينية . وصحيح ان هذه العلاقات (ما عدا ليبيا) علاقات صداقة قديمة .. وصحيح ان مصر يسعدها توطيد العلاقة بين الاتحـاد السوفيتي الصديق الاول للعرب مع اي دولة عربية وقد اسعدها انه كان يمد سوريا بكل الاسلحة المتقدمة اثناء حرب الاستنزاف بعد اكتوبر .

الا انها تلاحظ ان ذلك الموقف خروج عـــن السياسة السوفيتيـة التقليدية وهي اعتبار ان الطريق لقلوب العرب جميعا يمر عبر القاهرة .

وان تعزيز علاقات الصداقة مع القاهـرة يعزز الصداقـة مع سائـر البلاد العربيــة .

★★★

ولا بد هنامن التعليق على وجهتي النظر بعد ان قدمناهما للقارىء ..

ان الصداقة العربية ــ السوفينيـــة ضـرورة استراتيجيـة للاتحـاد السوفيتي كما هي للعرب ..

وانه من الطبيعي الا يحدث تطابق في وجهات النظر بين الاصدقاء ، فحتى في البلاد الاشتراكية المتطابقة ايدولوجيتها تثور التناقضات .. بل تطورت الخلافات حتى صارت تناقضا عدائيا حـــادا مؤسفا بين الاتحـاد السوفيتي والصين الشعبيـة .

لكن اذا كان بوسع الصين بحكم حجمها ووضعها كدولة كبرة ان تطـور خلافاتها مع الاتحاد السوفيتي الى تناقض رئيسـي (وهذا خطأ لا نوافـق عليه) .. فانه لبس من مصلحة الدول النامية ان يتطور الخلاف الى مثل ذلك الحد .. بل من مصلحتها حصر الخلاف وتضييق شقته خصوصا انـه لم يثبت حتى الان ان الاتحادالسوفيتي او الدول الاشتراكية عموما حاولت تسريب اي نفوذ استعماري الى اي بلد نـامٍ .

اما الافكار فموجودة على الارصفة في الشوارع وفي وسائل الاعـلام عبر الاثـير !

من هنا فان اليمين العربي مسئول عن تطوير الخلاف بين مصر والاتحاد السوفيتي .. للاسباب التي ذكرناها ..

ولقد ذكر الرئيس حافظ الاسد مرة في حديث صحفي انه تحدث خلافات بالطبع بينه وبين الاتحادالسوفيتي ولكنه يحاول حصرها دائما .. لانها خلافات بين اصدقاء ..

وهكذا كان مسلك القيادة المصرية لولا تلك التصرفات التي اشرنا اليها من قبل . **ولقد ذكرنا في الفصل الخاص بموقف الولايات المتحدة انه حدثت مبالغة في « وضع البيض كله في السلة الامريكية » خلال فترة الاتصالات مع الولايات المتحدة في العام الماضي .. وهذا صحيح .**

وقد يكون ما برر ذلك الوعود الامريكية من كيسنجر ونيكسون .. ولكن في الحقيقة ان تصور ان امريكا وحدها تملك مفاتيح حل الازمة تصور خاطىء ذلك ان **القوة** وحدها اثبتت فعاليتها في استرداد ما اخذ **بالقوة .** وما لم يواصل العرب ممارسة **قوتهم** او ابراز ما يملكون من عناصر **القوة** عسكرية او غير عسكرية فلن يتحقق الامل العربي في الوصول الى تسوية سلمية عادلة ..

واحد مصادر **قوة** العرب هو صداقتهم بالاتحاد السوفيتي الذي يمدهم بالسلاح .. ويساعدهم على التنمية الاقتصادية دعامة النفس الطويل في الحرب .

ولقد حرص السوريون على ان يواصلوا اتصالاتهم ومشاوراتهم مع السوفيت اثناء مباحثاتهم مع كيسينجر وتنسيقهم مع القاهرة ايضا .

ولا بد ان نضع في الاعتبار ان السوفيت يسعدهم كثيرا الثناء على اعمالهم الطيبة ، اذكر ان مسئولاسوفيتيا قال مرة لمسئول مصري بعد ابرام اتفاقية ناجحة .. كلاما معناه قولوا كلمتين « كويسين كده عنا .. » ..
ولا يجب تصور هذا على انه مسالة بسيطة .. انما هذا الكلام هو رد فعل الاخرين لسياسةطيبة .. هو كلام يصلح للتوعية لشعوب الاتحاد السوفيتي في اهمية معاونةالشعوب الاخرى .



ثمة خطأ يقع فيه بعض العرب عندما يتحدثون عن صداقة المصرية ـ السوفيتية .. انهم يقارنون بين العلاقة الامريكية ـ الاسرائيلية .. والعلاقة العربية ـ السوفيتية .. مع ان الفارق بينهما شاسع ..

فاسرائيل عميلة وحليف وكلب حراسة للمصالح الامريكية .. اما مصر

وسوريا فاصدقاء انداد للاتحاد السوفيتي .. وكل صديق يقدم لصديقه قدر ما يستطيع من المعونة. ان اسرائيل لا كيان ولا حياة لها الا بفضل مساندة امريكا لها حتى انهم يقولون انها الولاية رقم كذا في الولايات المتحدة الامريكية .

اما البلاد العربية فموجودة قبل ظهور دولة الاتحاد السوفيتي الاشتراكية ذاتها ، وجذورها عريقة عراقة التاريخ . وستظل موجودة وتستطيع المضي في الحياة ومقاومة التحديات حتى لو لم يوجد الاتحاد السوفيتي ذاته .

اما عن التسليح السوفيتي .. فواقع الامر انه رغم عدم تلبية السوفيت لكل الطلبات العربية فاننا في النهاية قد حاربنا بسلاح سوفيتي.

ولقد ذكر تقرير اللجنة الفرعية الخاصة بالشرق الاوسط المنبثقة عن لجنة الخدمات العسكرية للكونجرس الامريكي والتي زارت اسرائيل من ١٧ الى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٣ وزارت مصر من ٢١ ــ ٢٤ نوفمبر برئاسة السناتور صموئيل شتراتون !

« ترى اللجنة ان الاسلحة التي اعطاها السوفيات للعرب كانت ذات طبيعة مثمرة وكثيفة للغاية . ويمكن القول بأن الكمية الضخمة من الاسلحة الممنوحة للعرب ، وليست الطبيعة الفنية الخاصة ، هي التي كانت موضع ملاحظة اللجنة .. واكد الاسرائيليون ان المصريين والسوريين حصلوا على دبابات (ت ٦٢) وبعض الطائرات التي لم يعطها الاتحاد السوفياتي حتى لحلفائه في دول اوروبا الشرقية . كما حصل المصريون على الصاروخ طويل المدى الذي يمكنه بلوغ تل ابيب من مصر »

« .. واشار قائد القوات الجوية الاسرائيلية الى ان السوفيات زودوا العرب بالطائرات ذات الجناح المتحرك « سوخوي ــ ٢٠ » وهي من احدث ما وصل اليه السوفيات من انتاج الطائرات الحربية . كما اشار القائد الاسرائيلي الى تزويد السوفيات العرب بالطائرات « ت يو ١٦ » المزودة بالصواريخ « كلت » . واعتقد الاسرائيليون في بادىء الامر ان هذا النوع من الطائرات منح للعرب لافزاع الاسطول السادس الاميركي . ولكنهم في النهاية اكتشفوا ان استنتاجهم لم يكن صحيحا . فقد اكدوا للجنة ان صاروخا من نوع « كلت » وهو صاروخ يصل مداه الى تل ابيب ، اطلق على اسرائيل في الحرب ..

وكان لدى العرب صواريخ سام المضادة للطائرات ، وعدد لا يصدق من الصواريخ المضادة للدبابات بما يبطل فعالية وكفاءة الجيش الاسرائيلي » .

وتشير كافة التقارير الي ان هذه الاسلحة كانــت في يد القــوات المصرية والسورية قبل حرب اكتوبر .

اما الجسر الجوي السوفيتي فقد اصبحت تفاصيله معروفة للعالم كلــه .

ولكن ألم يخطىء الاتحاد السوفيتي معنا ؟

نعم .. اخطأ الاتحاد السوفيتي ، وليس في هذا غرابة .. ولا شذوذ فعلاقة طويلة وعميقة مثل العلاقة التي بينه وبــين مصر .. التي ظفــرت بمعونات سوفيتية اكثر من اي بلد من بلاد العالم الثالث (حتى الهند) .. لا بد ان تتخللها اخطاء . ونحن في مصر قد اخطأنا كما ذكرنا .

● انه ايا كانــت المناقشات والتيارات داخــل الحــزب الشيوعــي السوفيتي والحركة الشيوعية العالمية حول الموقف من معاونة بلاد العالــم الثالــث ..

فانه من غير المتصور والمعقول .. ان يحدث تراجع عن السياسة التي اتبعت منذ بدات العلاقات تتنامى بين المعسكــر الاشتراكــي ودول عــدم الانحيــاز .

ان هذه السياسة هي المسئول الاول عن تمتع العالم الاشتراكي بسلام ممتد طويل .. بعد ان عزلت تلك البلاد عن ان تكون احتياطيا للاستعمــار العالمــي . اذن فالذبذبــة في تلك السياسة الان تأتــي بافدح الاخطــار . وتشجع قوى اليمين في داخل البلاد المستقلة على الاتجاه الى الاستعمــار العالمي .. ويعيد التاريخ سيرته الاولى ..



والخطأ الاكبر هو ان يتطور تجميد الموقف من جانب الاتحاد السوفيتي مع اي دولة مستقلة الى السلاح .. انه عندما يكون شعب في حالة قتال ضد عدو محتل او غاصب .. فان حجب السلاح او الضغط بحجب السلاح هــو لعبة خطرة .. هو موقف يؤدي الى اثارة النعرة القومية بشكــل حاد .. ويساعد على تضخيم الخلاف واعطائها حجما غير حجمها الحقيقي ..

ان حجب السلاح يعني ترك الشعب اعزل او ضعيفا على الاقل في مواجهة العدو ..

انه مفهوم ان يحجب الاتحاد السوفيتي معونة اقتصادية بحجــة ان موارده لا تكفي .. اما السلاح والشعوب العربية في قتال فامر غير مفهوم

ولا يؤدي الى تصفية المواقف وتقوية الصداقة .. بل انه يقوي جانب خصوم الصداقة العربية السوفيتية ثم ان حجب السلاح في ظروف كتلك التي كان الاتحاد السوفيتي فيها يحبذ الحل السياسي ويدعو « للاسترخاء » العسكري في بيان مشترك مع الولايات المتحدة توجد شبهات قوية لها اساس موضوعي في ان ذلك الحجب للسلاح نوع من الضغط لمنع العرب من استخدام القوة لتحرير ارضهم . او على الاقل اعتبار معركة التحرر العربي نقطة محدودة على خريطة اهتماماته العالمية .

ولو ان السوفيت تجاوبوا مع مصر في تقديم ما تشاء من سلاح لما كان قد اثير اي غبار كثيف حول الصداقة العربية ـ السوفيتية .. فكل ما عدا هذه القضية ان هو الا فرعيات وتوافه لم تكن لتسلح اليمين العربي بما تسلح بـه .



نهاية الازمـة ..

ولان الصداقة العربية ـ السوفيتية صداقة استراتيجية فقد حرصت القيادتان في القاهرة وموسكو على تخطي الصعوبات .. والخلافات .. كما يبين من خطاب اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري الذي حدد الاسس الكلاسيكية للصداقة المصرية ـ السوفيتية في خطابه في موسكو الذي وجهه الى الصديق العزيز جروميكو ..

قال اسماعيل فهمي :

« تعلمون اننا في مصر نكن لشعب الاتحاد السوفيتي وقيادته كل تقدير ومحبة ونحيي فيه التزامه المبدئي بمناصرة الشعوب المناضلة في سبيل التحرر والتقدم لبناء مجتمع افضل تستطيع فيه الجماهير ان تعبر عن طاقاتها الخلاقة بعيداً عن الاستغلال والسيطرة والتحكم ..

كما ان الامة العربية التي تتميز بالاصالة والعرفان **لا يمكن ان تنسى ان الاتحاد السوفيتي قد وقف الى جانبها في اخطر لحظات تاريخها وقدم لها الدعم المادي والمعنوي** سواء في معركتها الضارية التي خاضتها ومـا زالت تخوضها ضد قوى الصهيونية العنصرية التوسعية او في كفاحها المتواصل من اجل اعادة بناء المجتمع العربي على اسس تحقق الكفاية والعدل وتضمن مصالح الجماهير .

ولعل في الحديث الذي القاه الرفيق بريجنيف منذ ايام في كشينييف وما سمعته منه شخصيا عندما قابلته بالامس ابلغ دليل على ان التزام الاتحاد السوفيتي بتأييد الكفاح العادل للامة العربية هو **انتزام مبدئي استراتيجي** وانه ينبع ليس فقط من اهمية ادراك العلاقات العربية السوفيتية بل ايضا بالوعي العميق بطبيعة الكفاح الذي نخوضه ، وحقيقة ابعاده وآثاره العديدة على المسرح الدولي كله .. ولعل ما شاهدته جبهة القتال منذ عام واحد في سيناء والجولان .. قد جسد المعنى العميق للالتحام بيننا وتواكب **قوة السلاح السوفيتي مع قدرة المحارب العربي . »**

« كذلك فاننا نرى ان الالتزام المتبادل باحكام وروح معاهدة الصداقة والتعاون التي وقعناها في القاهرة في ٢٧ مايو ١٩٧١ هو امر ضروري يتفق مع المبادىء العليا التي تحكم سياستنا وتحركنا .. » كما انه كفيل بتحقيق مصالح الشعبين .

« وقد قدمنا في هذا السبيل تضحيات كنا احوج ما تكون الى توجيهها للجهد الذي نبذله من اجل تعميق التحول الاجتماعي والاقتصادي على طريق الاشتراكية والتقدم .. كما اننا واجهنا معارك عنيفة متتابعة ، ولم تهن عزيمتنا ولم نتخل قط عن اي قدر من المسئولية » .

« ايها الاصدقاء الاعزاء .. انه ليصعب علينا ان نتصور قيام اي تناقض حقيقي بين بلدين تلك مبادئهما وسياستهما الا اذا كنا نستسلم للشكوك والاوهام ، ونقع فريسة المناورات والمزايدات .

ونحن نؤمن ايمانا كاملا بان الثغرات التي اسفرت عنها التجربة لا تمس من قريب او بعيد نجاح التجربة ووجوب استمرارها بل ان كل ما تعنيه هو ان علينا ان تكفل مزيدا من اليقظة وان نتجه الى مزيد من المصارحة والتفاهم المتبادل المستمر » .

« لقد قال الرئيس محمد انور السادات للشعب المصري والامة العربية (لعيوب الاشتراكية مزيد من الاشتراكية ولعيوب التطبيق مزيد من الممارسة والتجربة) . وما احوجنا في هذا المنعطف الهام من اتباع هذا المنهج في محاولتنا للتعرف على الاسلوب الامثل للحفاظ على علاقات الصداقة والتعاون بيننا ، والرسالة من كل هذا لا تحتاج الى اجتهاد ، ولا تحتمل التأويل والمناورة .. لا بديل للتعاون والصداقة الحقيقية التي تنعكس ليس فقط في الشعارات التي نطرحها بل ايضا واساسا في تعاملنا اليومي المستمر » .

٣٥

احتمالات الحرب الخامسة ؟

لقد جئتكم بغصن الزيتون مع بندقية الثائر .. فلا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي .. لا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي .. لا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي .

ياسر عرفات امام الامم المتحدة في ١٣ نوفمبر ٧٤ ١٩

كرر ياسر عرفات عبارة لا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي ثلاث مرات .. وكانت انذارا صريحا للمتعنتين في العالم .. وايقاظا للسلبيين فيه لينتبهوا الى ان الحرب الخامسة على الابواب .. ان لم يستجب المجتمع الدولي لنداء العدل بتحقيق الحقوق القومية للشعب الفلسطيني .

وواقع الامر ان قضية الشرق الاوسط تتطور الان .. بحيث تصبح مسالة فلسطين هي المحك الرئيسي لجدية الطرف الامريكي بالذات في العمل من اجل تسوية عادلة كما يكرر كيسينجر دائما ..

وقد اكد ذلك انور السادات في رسالته للرئيس فورد الامريكي يوم طار عرفات الى نيويورك ..

واكده رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في خطابه امام الجمعية العمومية للامم المتحدة عندما اختتم خطابه بقوله :

سيادة الرئيس : ان الحرب تندلع من فلسطين .. والسلم يبدا من فلسطين . واحتمال تجدد القتال بسبب « فلسطين » يجرنا الى الحديث عن ما هي القضية اولا .. وما هو المطلوب الان لفلسطين بصراحة كاملة فهي مربط الفرس كما يقال .

القضية الفلسطينية :

منذ انتهاء حرب ١٩٦٧ ، برز دور المقاومة الفلسطينية كتعبير عن نضال الشعب الفلسطيني من اجل تقرير مصيره ، وكانت هذه المقاومة قد بدأت منذ الفاتح من يناير عام ١٩٦٥ .

وهذه المقاومة التي تمثل انبل واعظم ما انتجه الشعب الفلسطيني شأن اي مقاومة شعبية في العالم ، احاط بها نفر ممن يمكن تسميتهم « بالمنتفعين » بالكفاح المسلح الفلسطيني سواء من السياسيين أو الكتاب او الصحفيين .

وهو أمر تتعرض له كل الثورات وحركات المقاومة .

يتصدى هؤلاء « المنتفعون » في مجالات الاعلام باسم المقاومة .. ومجال الاعلام هو اسهل المجالات فهو غالبا نوع من « كفاح الفنادق » وثرثرات المقاهي والولائم والحفلات التي لا تنتهي ..

وهؤلاء قد مارسوا المزايدة على الثورة الفلسطينية .. وزينوا لها شعارات لا تعدو ان تكون نوعا من الاوهام السياسية من اجل النصب والاحتيال ..

ان المقاومة الفلسطينية تضع لنفسها هدفا .. هو تحرير كامل التراب الفلسطيني من الاغتصاب الصهيوني . واقامة دولة فلسطينية علمانية ديمقراطية .

وهذا في حدود انه شعار استراتيجي شعار ثوري سليم . ولكن المشكلة نشأت وتنشأ في السياسة عن مسألة كيف يمكن تحقيق الشعار الاستراتيجي ..

ولنضرب مثلا .. او امثلة ..

ان الثورة الفيتنامية تضع لنفسها شعارا استراتيجيا : تحرير كل التراب الفيتنامي من الاستعمار والرجعية وتوحيده .

ومع ذلك فان هذه الثورة قبلت عام ١٩٥٤ بانشاء دولة فيتنامية ديمقراطية في الشمال وتركت الجنوب يرزح تحت أعباء النظام الرجعي..

ثم ساندت الشعب هناك في ثورته حتى وصلت الى تسوية في عام ١٩٧٢ باخراج القوات الامريكية من الجنوب . ولكن ما زال النظام الرجعي قائما في سايجون جنبا الى جنب الحكومة الثورية المؤقتة في جنوب فيتنام. وابرم اتفاق بوقف اطلاق النار .

ولم يعن ذلك ان الثورة الفيتنامية قد تخلت عن شعارها الاستراتيجي .

والثورة لم تتخـل عن شعارها الاستراتيجي السليم بتوحيد كوريـا الجنوبية والشمالية رغم توقف القتال منذ عام ١٩٥٣ .

وامثلة اخرى مثل شعار الثورة الصينية ذاتهـا عن تحرير الصـين كلها .. ولكنها توقفت عند شواطىء فورموزا . وما زالت عملية تحريـر فورموزا مؤجلة حتى اليوم رغم احتلال الصين لمقعدها في مجلس الامن .

والثورة الكوبية ما زالت تاركة قاعدة جوانتنامـو في يد الامريكيـين حتى اليـوم .

ولم يقل احد ان الثورتـين الصينية والكوبيـة قد انحرفتا عـن اهدافهما . ولكن الجميع يدرك ان تحقيق اي هدف استراتيجي يتحقـق بخطوات ويتخذ اشكالا مرحليـة .

★ ★ ★

المشكلة بالنسبة للمقاومـة الفلسطينيـة أن اولئك المتنفعـين زينوا للمقاومة رفض اي حل مرحلـي .

وساعدوها وشجعوها على طرح شعـار القضاء على اسرائيـل الان وبالقتال الدائم المستمـر .

بل حتى عندما غيرت المقاومة شعار القضاء على اسرائيل الى شعـار اقامة الدولة الفلسطينية العلمانية الديمقرطية حولـوه الى شعار القضاء على اسرائيل من الباب الخلفي . اذ دعـوا الى أستمـرار الكفاح المسلـح والحرب واقتحام الكيان الصهيوني لاقتلاع الصهيونية من جذورها واقامة الدولـة الفلسطينية العلمانية الديمقراطية .

ولا بد من الاعتراف هنا بان اليسار الجديد الاوروبي من الماويين الى التروتسكيين الى غيرهم قد ساهموا في تزيين وتسهيل مثل هذا الشعار الوهمي على بعض رجال المقاومة الفلسطينية .

فقد كـان المناضل الفلسطينـي يسافر الى اوروبا .. فيلتقـي بهؤلاء اليساريين الجدد المتحمسين الذين يؤكدون له مساندتهم للنضال الفلسطيني للقضاء على اسرائيل .. ويدعونهم الى مواصلة ذلك النضال .. ثم يثنـون بمهاجمة النظم التقدمية العربية (وعلى رأسها النظـام المصري بزعامـة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر) لانها تبيـع الفلسطينيـين للاستعمار والصهيونية وتتهادن معها لان تلك النظم « توافـق على بقاء الدولـة الاسرائيلية بقبولها القرار ٢٤٢ الشهير .. »

ويسكر المقاوم الفلسطيني بخمر التأييـد .. ويتصور ان العالـم كله .. والراي العام الاوروبي معه .. فماذا بقي ؟..

ولا باس من ان يزدري هذا المناضل الاحزاب الشيوعية الاوروبية التي لا توافق على القضاء على اسرائيل .. ويتهمها بالمحافظة والتخلف ان لم يكن الموالاة للصهيونية مع ان هذه الاحزاب هي اقوى فرق اليسار في اوروبا وهي القوة الفعالة الاساسية لتأييد النضال العربي !..

شعار وهمي :

ان القضاء على اسرائيل الان شعار وهمي .. لماذا ؟..

ان محاولة تحقيق ذلك تعني ان العالم العربي سيصطدم في حرب طويلة او قصيرة مع الولايات المتحدة الامريكية تدمر كل ما شيدته البلاد العربية وتسفك دماء مئات الالوف ان لم يكن الملايين (حرب فيتنام ضحاياها ٣ مليون) .

والولايات المتحدة واضحة في هذه المسالة منذ عام ١٩٥٧ .

☆ ان العرب اذا حاولوا تحقيق ذلك الهدف فانهم لن يظفروا بأي تأييد من الحليف الرئيسي لحركة التحرير العربية وهو الاتحاد السوفيتي الذي لا يوافق قط على هذا الشعار .

بل الارجح انه لن يقف مكتوف اليدين اذا ما اندفع العرب في حرب كهذه بل سيعارض .

وهذا سيعطي الولايات المتحدة فرصة اضخم للاستمرار في الحرب دفاعا عن اسرائيل .

☆ ان العالم كله (معظم اعضاء الامم المتحدة) سيقف ضد العرب اذا ما حاولوا القضاء على اسرائيل العضو في الامم المتحدة .

وكما قال الاستاذ احمد بهاء الدين في جريدة الاهرام والانوار اللبنانية « لو ان العرب في حرب ١٩٦٧ حاولوا ذلك لوقف العالم كله ضدنا ولمنعنا » .

☆ ان معظم الدول الديمقراطية في العالم ستقف الى جانب اسرائيل تحت شعار الدفاع عن دولة صغيرة . وربما تكونت فرق متطوعين اشبه بتلك الفرق الدولية التي تكونت ايام الحرب الاهلية الاسبانية .

☆ انه حتى العالم العربي ليس موحدا حول تلك القضية .. بمعنى ان اقساما كبيرة ومؤثرة من القوى الوطنية العربية لا توافق على تنفيذ ذلك الشعار .

ويلاحظ هنا اننا اغفلنا مقاومة الشعب الاسرائيلي ذاته ازاء محاولة تحقيق هذا الهدف .

واذا كان هناك من يؤملون في مساندة الصين الشعبية لتحقيق مثل هذه « الفتنمة » للوضع في الشرق الاوسط . فان يد الصين ما زالت قصيرة عن عمل شيء جدي في مجال المساعدة حتى الان .

نخلص من هذا انه مرحليا لا يمكن تحرير كامل التراب الفلسطيني .

متى اذن يمكن انجاز هذا التحرير .

اولا : عندما تتم وحدة العالم العربي ويبني العرب دولة عصرية ديمقراطية متقدمة في المنطقة تلعب دورا عالميا بارزا .

ثانيا : عندما يضعف الاستعمار بازدياد ونمو حركة التحرير العالمية وتحقيقها لانتصارات . فيضعف السند الرئيسي لاسرائيل .

ثالثا : نمو المتناقضات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع الاسرائيلي ذاته في صالح القوى التي تناضل ضد الصهيونية والامبريالية . في مثل هذه الحال سيصبح من السهل على حركة التحرير العربية التي تمثلها دولة الوحدة الكبرى الديمقراطية إن تساند النضال الداخلي في اسرائيل وتسقط الصهيونية والتبعية للاستعمار .

ويمكن تجميع العرب واليهود في دولة فلسطين تكون جزءا من الدولة العربية الموحدة .. او اذا اراد اليهود وقد تخلصوا من الصهيونية والتبعية للاستعمار ان يستمروا في بلد مسالم مثل مقاطعة موناكو في ظل الدولة العربية الموحدة .. فليبقوا . فلاخطر منهم ازاء الدولة العربية الموحدة القوية .

ولكن الى ان يتحقق ذلك فما العمل ؟ ..

لا بد ان يوجد للفلسطيني وطن .. دولة .. كيان .. سيكون هو قاعدة الشعب الفلسطيني .. وقاعدة للدولة الفلسطينية العلمانية الديمقراطية المستقبلة .

ولقد جاء وقت هاجم فيه بعض ممثلو المقاومة الفلسطينية من دعوا الى تكوين مثل تلك الدولة الفلسطينية .. ووصفوا الفكرة بانها فكرة من اختراع المخابرات الامريكية بل **هوجم احمد بهاء الدين الكاتب العربي الطليعي الذي دعا الى اقامة الدولة الفلسطينية بمبادرة خلاقه بعد ١٩٦٧ رغم مرارة الهزيمة في الحلوق ..**

وكانوا يتصورون أن امريكا واسرائيل يمكن ان تقبل ذلك الحل بسهولة .. وها هي الايام تكشف عن معارضة اسرائيل لهذا الحل والولايات المتحدة تتردد على الاقل .

لان الصهاينة ليسوا سذجا .. انهم يتصورون انهم قد شتتوا الشعب

الفلسطيني حتى لم يبق هناك شيء اسمه « شعب فلسطين » على حد تعبير جولدا مايير .. فهم لا يريدون اذن ان تقوم لهذا الشعب قائمة .. ويكون له دولة مجاورة لدولتهم العنصرية .. وما سيتبع ذلك من تشجيع للقوى الديمقراطية فى اسرائيل .. واستمرار حلم الفلسطيني بتكوين الدولة الفلسطينية الديمقراطية المتحررة من الصهيونية والرجعية وما قد يؤدي اليه من قيام قاعدة تهديد مسلح ضد الصهيونيين ذاتهم . وما الوحشية التي تصرف بها اليهود في بيسان ضد جثث الشهداء الفدائيين الفلسطينيين الابطال الا نموذج للذعر الاسرائيلي من اقامة دولة فلسطينية تكون خنجرا مصوبا في ظهر اغتصابهم للارض واحلامهم التوسعية . ولقد رأينا كيف ان موشى ديان يذهب الى نيويورك ليقود المظاهرات الصهيونية ضد اعتراف هيئة الامم بمنظمة التحرير الفلسطينية .

قرار التقسيم

ان خطأ العرب الاكبر هو انهم لم يقبلوا بقرار التقسيم عام ١٩٤٧ بل ان الرجعية العربية تعاونت مع الصهاينة والاستعمار على تحطيم الشخصية الفلسطينية .. ولا بد من تحية اولئك الذين قبلوا ذلك القرار في تلك الايام باعتباره ((الممكن الوطني)) الوحيد او احسن الحلول السيئة !!..

وعندما تساءل جروميكو في مجلس الامن في صيف عام ١٩٤٨ .

لقد انشأنا الدولة الاسرائيلية فاين هي الدولة العربية ؟..

جاءه الرد .. بالتآمر العربي الاسرائيلي الاستعماري .. فمزقت فلسطين اربا .. جزء لشرق الاردن .. وجزء لاسرائيل يمثل ثلث المساحة المقررة لها بموجب قرارات الامم المتحدة وسلخت غزة لتوضع تحت الادارة المصرية ..

لم يكن من صالح الرجعية العربية ان تنشأ دولة فلسطين مستقلة في ذلك الوقت خصوصا أن تلك الدولة كانت ستكون دولة ثورية فقد حمل شعبها السلاح سنوات طوالا ضد عصابات الصهاينة وقوات الاحتلال البريطاني .

ومن عجب ان هذه الدول سيرت الجيوش العربية بدعوى تحرير فلسطين من العصابات الصهيونية ومر الجيش المصري مثلا بالجيش الانجليزي المرابط في القناة .. وقد فتح ذلك الجيش الاخير له الابواب للمرور طبعا .. وكذلك الامر في العراق .. وايضا في الاردن حيث كان يراس الجيش الاردني الجنرال جلوب البريطاني المشهور ..

وكانت نتيجة تلك الحرب ضياع فلسطين كلها بما فيها الجزء الذي اقره العالم للشعب الفلسطيني .. جنبا الى جنب ضرب الحركات الوطنية كلها في مصر والعراق وشرق الاردن ..

الان .. يطالب اكثر الزعماء العرب بتنفيذ قرار التقسيم . ولكن دون تحقيق ذلك صعوبات كثيرة جدا جدا . بل أن تحقيق الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة يواجه صعوبات حتى الان .

☆ ☆ ☆

لقد كان نايف حواتمة احد قادة الجبهة الديمقراطية الفلسطينية واقعيا وثوريا عندما اعلن لاول مرة في ديسمبر ١٩٧٣ قبوله مشروع الدولة الفلسطينية على ما بقي من التراب الفلسطيني (الضفة الغربية وغزة وصرح بقوله :

« ان قبول الجبهة الديمقراطية بمبدأ قيام « دولة فلسطينية » ينطلق من نظراتها القائلة بمرحلية القضية . **فهذه الدولة هي المرحلة الاولى من المكاسب القومية بفلسطين .**

اما المراحل الاخرى فتأتي بواسطة الكفاح الديمقراطي بالتعاون مع الفئات الديمقرطية في قلب اسرائيل والمتساند في سبيل قلب نظام الحكم الصهيوني واقامة دولة فلسطينية موحدة ديمقراطية يتعايش فيها اليهود والعرب المسلمون والمسيحيون ضمن فرص عمل وعلم متكافئة .. وواجبات حقوق متساوية .. »

لابأس هنا لتكملة الفائدة من ان نعطي القارىء نموذجا من نضال تلك الفئات الديمقراطية في اسرائيل .

انها فئات صغيرة حقا .. ولكن لا بأس من ان نكرر استخدام الحكمة السياسية المعروفة من الشرارة يندلع اللهيب .

ولا بأس من التذكرة ايضا بأن كل ثورة بدأت بقلة من المناضلين بما فيها الثورة الفلسطينية نفسها ..

ومن عجب ان المقاومة الفلسطينية ظلت تتجاهل هذه القوى الديمقراطية الاسرائيلية انطلاقا طبعا من موقف انه ما دام المرء يقر انه اسرائيلي فهو اذن صهيوني .. ولا يجب التعاون معه ! .. حتى لو كان يقاتل ضد الصهيونية او حتى ضد الاحتلال الاسرائيلي الذي من مصلحتي حتى مرحليا تحرير ارضي منه !

وقد كان نتيجة هذا تصرفات غريبة .. مثل في مؤتمر بولونيا من اجل السلام والعدل الذي عقد في مدينة بولونيا عام ١٩٧٣ ومنظمة حركة

السلام بالتعاون مع اليسار العالمي .. قوطع هذا المؤتمر من قوى ثورية عربية لانه ضم وفدا اسرائيليا هاجم حكومته علنا وطالب بجلاء القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة وطالب بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني (في اطار اقامة دولة له) .. وحتى القوى الثورية العربية التي حضرت المؤتمر تكتمت امر حضورها ولم تشر اجهزة الاعلام العربية بكلمة واحدة الى المؤتمر . وكنت انا الصحفي العربي الوحيد في المؤتمر !..

الان يهرع كل صحفي عربي الى جنيف لحضور مؤتمر عالمي للحوار مع صهاينة توسعيين . وتحتل اخباره الصفحات الاولى من انصحف !!

لماذا ؟ ..

لاننا ما تحررنا من عقدة الخوف والنقص ازاء اسرائيل بعبورنا واقتحامنا خط بارليف !

في الكنيست الاسرائيلي اربعة نواب شيوعيين .. منهم يهودي اسمه ماير فلنر .. وهو سكرتير الحزب الشيوعي الاسرائيلي مع توفيق طوبي العربي المسيحي ..

واثناء حرب ١٩٦٧ وبعدها ورغم انتصار اسرائيل فيها ظل الحزب يطالب بالانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة ، ويفضح الطابع العدواني والعنصري لدولة اسرائيل وعلاقتها بالامبريالية الامريكية ، مما عرضه لمزيد من الاعتداءات التي نظمتها الاحزاب اليمينية الحاكمة ودوائر المخابرات ..

وكان الشاعر محمود درويش (الذي كان عضوا بذلك الحزب) احد ضحايا الاضطهاد .. والشاعر سميح القاسم وزياد وغيرهم من شعراء الارض المحتلة الذين يتغنى بشعرهم العالم العربي هم اعضاء في ذلك الحزب .

واثناء حرب اكتوبر الاخيرة .. ازدادت الاصوات المؤيدة للحزب في مواقفه السياسية بعد سقوط العديد من الاوهام التي زرعتها حكومة جولدا ماير وجنرالات تل ابيب .

ونضرب مثلا على نضال اولئك المناضلين الابطال ضد الصهيونية داخل اسرائيل يهودا كانوا او عربا ..

ان الشاعر توفيق زياد انتخب عضوا في الكنيست الاسرائيلي من بين حزب « راكاح » الشيوعي ..

هذا الشاعر طلب البرلمان الاسرائيلي تجريدة من الحصانة البرلمانية ليقدم للمحاكمة على قصيدة كتبها تعبيرا عن ابتهاجه بالعبور في حرب اكتوبر .
وقد جاء في القصيدة التي اثارت الصهاينة وخاصة كتلة ليكود اليمينية :

والدنيا لم تعد الدنيا
وجميع اساطير العهر النظري
عن ((الشعب الارقى)) و ((الشعب الادنى))
انهارت في نصف نهار .

★ ★ ★

كان العبور مقدسا ، والشمس في عز الظهيرة
والوجوه السمر تطعم لحمها للارض ، والنظرات
اصرار ، وكاتيوشا ، وعشق ، والسواعد ، والبنادق
والمدافع ، والجنازير الثقيلة ، والنسور المعدنية
تمضغ الباطون (المسلح) في بارليف ، والاعلام تخفق

★ ★ ★

كان العبور مقدسا
ومقدسا يبقى الوطـن ..
ومقدسا يبقى الثمن ..

★ ★ ★

وليس الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) هو الوحيد الذي يتخذ موقفا مبدئيا من العدوان الصهيوني .. فهناك ايضا قوى اخرى ديمقراطية ومعادية للتوسع بدرجات متفاوتة مثل النائب يوري افنيزي الذي تطورت افكاره كثيرا منذ كتب كتابه « اسرائيل بلا صهيونية ».. وجماعة الماتسبن التي تناهض وجود الكيان الصهيوني نفسه . وحركة انصار السلام واليسار الجديد ..

هذه قوى مهما بلغت من الضعف فهي تؤرق العدو الصهيوني .. وهي قطعا لها المستقبل .. وان كان يبدو بعيدا جدا .

بداية الطريق .

وقد بدأ الاتجاه الواقعي في الانتشار بين صفوف المقاومة الفلسطينية.. وما الاتجاه الى الامم المتحدة لعرض القضية ، وما القبول بسلطة وطنية على ما يتحرر من ارض فلسطين الاسير في ذلك الاتجاه .

ولقد كانت القيادة السياسية في مصر بعيدة النظر بعدما اصرت منذ البداية على تصفية الجو بين المقاومة الفلسطينية والاردن حتى لا يستغل العدو التناقض . فقد كان معروفا من قبل ان الاردن تعارض اقامة الدولة الفلسطينية .. وها هي الان توافق على اقامتها .

واذا كان تحقيق ذلك المطلب اصبح الان قريب المنال فذلك لم يتحقق الا بفضل النضال المستمر للمقاومة الفلسطينية ، **وقبل هذا وذاك بحرب اكتوبر ١٩٧٣ التي خاضها الشعب المصري والشعب السوري اساسا .**

ان اعتراف العالم بمنظمة التحرير الفلسطينية واصغاءه لبيان رئيسها .. انما هو احد نتائج حرب اكتوبر الحاسمة ، **ولو لم يكن انتصار اكتوبر لما حدث هذا ولانتظر العرب عشرين سنة او تزيد !!..**

ولسنا نريد بذلك ان نفصل بين النضال الشريف للمقاومة الفلسطينية وبين الحرب النظامية التي خاضتها الجيوش العربية .. ان النضال العربي كل متلاحم ويكمل بعضه بعضا ..

ولكنا نود ان نوضح لاولئك الذين شككوا دائما في مواقف القيادة المصرية (راجع فصل قضايا اثارتها المعركة) .. وان نوضح أن الحرب ضد اسرائيل تقوم بها اساسا النظم العربية وبالذات مصر التي تحملت وتتحمل وستتحمل العبء الاكبر والقسط الاكبر من الكفاح التحرري العربي : هذا قدرها بحكم عوامل تاريخية وواقعية مختلفة .

فليكف اولئك الذين حاولوا الفصل بين النضال الفلسطيني والنضال المصري الزعم ان النضال الفلسطيني هو طليعة النضال العربي كله وقمته وقيادته و.. الخ .

ان الوضع الصحيح للمسالة ان القضية الفلسطينية قضية عربية .. ومسئولية العرب جميعا النضال من اجلها .. بالعمل لا بالكلام .. وقد قدم العرب هذه المرة الدم لا الكلمات (راجع الفصل الخاص بذلك) ..

وقد قدمت مصر الدم متواصلا منذ ١٩٤٨ حتى الان .. وراح اكثر من مائة الف شهيد مصري في المعارك ودفع الشعب المصري من عرقه وجهده اكثر من عشرة بلايين من الجنيهات ، رغم انه من اقل الشعوب العربية دخلا .

ليتوقف الحديث اذن عن الطليعة .. وعن التهاون والتصفوية والاستسلامية بمنطق .. انه اما ان يتحقق كل شيء والا لا شيء . الم تكن

القاهرة هي التي اتصلت بالملك حسين اثناء حرب اكتوبر وطلبت منه ان يسمح للفدائيين الفلسطينيين بالعمل عبر الاردن ، بل اوفد الرئيس السادات احد القادة العسكريين مرتين بشكل سري ليطلب نفس الطلب من الملك ؟ بل حتى طلب منه السماح لاي فدائيين يرتضيهم ..

الم تكن القاهرة هي التي جعلت الملك حسين يخطو الخطوة الاولى لتصفية الموقف مع المقاومة باعترافه جزئيا بانها الممثل للشعب الفلسطيني ويومها قامت ضجة بدعوى ان القاهرة تهادنت ؟!

ها هم اصحاب القضية في سبيلهم الى ان يقبلوا دولة فلسطينية ستكون القاعدة للدولة الفلسطينية الموحدة في المستقبل .. الذي لا يبدو قريبا أبدا الان ..

ولكي تكسب المقاومة الارض .. ولكي تضع اسرائيل في مازق امام العالم فعليها أن ترفع شعار تنفيذ قرار الامم المتحدة بالتقسيم عام ١٩٤٧.
ان ذلك الشعار يمكن ان يحشد حوله اقساما من الراي العام العالمي.. ويمهد لتوسيع قاعدة الدولة الفلسطينية التي ستنشأ قريبا ..

ورفع هذا الشعار هو التكتيك الملائم الوحيد الان .. فليس من المتوقع عندما يرغم المجتمع الدولي اسرائيل والولايات المتحدة على تقبل اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة .. ليس متوقعا ان يسمح العالم ان تكون هذه الدولة قاعدة لشن غارات على اسرائيل طالما الاخيرة لا تعتدي على العرب .

ان الآفاق تتسع امام المقاومة والشعب الفلسطيني .. وان القيادة الفلسطينية لتبدي مرونة حاليا وتفهما للاوضاع والتوازن العالمي ..
ومن المؤكد انه اذا لم يستجب العالم لهذه المرونة والتفهم ستقوم الحرب الخامسة .

التهديد الاسرائيلي

يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه القيم «٦ اكتوبر في الاستراتيجية العالمية» ان التاريخ « لم يعرف واحدا من اصحاب الاحلام الامبريالية قد تخلى عن احلامه بنصف هزيمة او حتى بثلاثة ارباع هزيمة . وليست اسرائيل بدعا في هذا بين اصحاب الاحلام المجنونة .

وهي اذا فقدت دورها العسكري في المنطقة تفقد مبرر وجودها السياسي تجاه كل الحركات المعادية للعروبة والوحدة العربية » .

وما يقوله الدكتور جمال حمدان صحيح .. فواقع الامر ان اسرائيل لم تهزم هزيمة كاملة في حرب اكتوبر ..

وجنرالات اسرائيل بالمؤسسة العسكرية هم اشبه الان « سيكولوجيا » بالانتقاميين الالمان من جنرالات هتلر .. الذين يودون الانتقام ولو اشعلوا الدنيا كلها حربا .

ان الرياح تسير ضد المؤسسة .. ولاول مرة يقاتل ممثلوها في الشارع (موشى ديان) لصد ريح الراي العام العالمي ضد اسرائيل .. (الامم المتحدة . موقف فرنسا . تصريحات فولبرايت .. الضغوط الامريكية .. الخ .) .

ولقد تفاقمت التناقضات الاجتماعية داخل اسرائيل (خفض سعر الليرة .. مظاهرات واضرابات الجماهير والصدام مع البوليس .. عودة عدد من المهاجرين ..)

لقد حطمت حرب اكتوبر « اسطورة بروسيا الشرق الاوسط » على حد تعبير الصحفي الفرنسي المعروف اريك رولو في الموند الفرنسية « واستعادت الدولة الصهيونية في نظر اعدائها ابعادا اكثر انسجاما من واقع بلد صغير ذا موارد محدودة ويعتمد في قوته على دعم الولايات المتحدة » .

من هنا فان المؤسسة العسكرية قد تشن حربا خامسة مفاجئة ضد العرب لتحقيق اهداف محددة :

★ تأكيد انها اليد العليا في المنطقة واستعادة دورها كحليف واداة قوية في يد الولايات المتحدة وبذلك تقوى المجموعات الصهيونية والاحتكارات الموالية لها هناك .

★ تثبيت حدود آمنة حسبما تريد هي (**في المشروعات التي قدمها كيسينجر تصر اسرائيل على مجرد انسحاب محدود من الجولان ، وقدمت للملك حسين مشروعا مهينا على حد تعبيره مع الملوك والرؤساء في مؤتمر الرباط . اما سيناء فهي تريد شرم الشيخ على الاقل) .**

★ تحويل صورة اسرائيل الى القوة الاساسية في المنطقة لتعود فتصبح محور جذب ليهود العالم لتحقيق احلام التوسع الصهيونية عن اسرائيل الكبرى .

باختصار اجهاض نتائج حرب اكتوبر . وقد عبر شيمون بيريز عن ذلك بقوله ان اي حرب عربية اسرائيلية جديدة ستكون مواجهة بين القوى الموجودة اكثر منها حربا للحصول على ارض جديدة . والمنتصر فيها سيربح مركز قوة جديد وليس اراض ..

ويعتقد الخبراء العسكريون ان الحرب الخامسة التي ستشنها اسرائيل غالبا ستاخذ شكل هجوم خاطف كاسح على سوريا بالذات لتحتل ضواحي دمشق وتعود القوات الاسرائيلية في ظرف يومين او ثلاثة بعد ان تكون قد حققت اهدافها المعنوية والعسكرية (العسكرية هي ضربة اجهاض للاستعدادات السورية .

وربما ارتبط بذلك هجوم على جنوب لبنان ايضا .

ويامل الاسرائيليون الا يعطوا مصر فرصة للتدخل بمثل هذه السرعة .

وربما قاموا بغارات طيران مكثفة خاطفة ضد الاستعدادات العسكرية المصرية . ولكنه امام هذه الخطة الاسرائيلية مخاطر عديدة :

ان مصر وسوريا متنبهتان لهذا . وتوعد حافظ الاسد اسرائيل بانها ستواجه ما لا تتوقعه اذا هاجمت سوريا . واكد السادات للاسد مشاركة مصر على الفور في صد اي اعتداء اسرائيلي .

ـ انه لن تسمح سوريا ومصر ان تكون الحرب خاطفة لمدة يومين او ثلاثة .. اي انه بفرض نزول القوات الاسرائيلية في ضواحي دمشق ثم عودتها بعد يومين ، فان السوريين والمصريين **ان يوقفوا الحرب ويحمدوا الله على عودة الاسرائيليين الى قواعدهم !..**

ـ في هذه المرة ستكون المساهمة العربية اكبر واوسع واضخم وربما كان مثل ذلك الهجوم الاسرائيلي الخاطف على سوريا دافعا لتغييرات سياسية خطيرة في المنطقة كوحدة فورية بين سوريا والعراق (كاد ان يتم ذلك اثناء حرب اكتوبر) .

ـ ان اسرائيل ستعزل عالميا اكثر ولنقرأ ما تقوله جريدة جويش كرونيكل الصهيونية ان اسرائيل برفضها عقد محادثات مع منظمة التحرير تدفع نفسها الى الانعزال عن العالم !.

ان اصدقاء اسرائيل انفسهم في الخارج اخذوا يتضجرون من موقفها المتعصب الذي لا مرونة فيه فما بالك بحرب جديدة تشنها . **حالة واحدة هي التي يمكن ان تكسب منها اسرائيل بمثل هذه الحرب .. هي ان يهزم العرب وان يتخاذلوا .**

وهذا لن يحدث .. ولقد كانت حرب اكتوبر فاصلا بين عهدين .

والان بعد ان جرب الجندي العربي القتال مع الجندي الاسرائيلي اصبح واثقا في نفسه اكثر .. وقادرا على الحاق الهزيمة به . علاوة على ان عقبة عبور القناة قد زالت .

وعيون القيادة العربية مفتوحة . **كما صرح الفريق عبد الغني الجمسي** اننا نتابع بيقظة كاملة وعيون مفتوحة لا تغفل ابدا كل ما يدور على الجانب الاخر للعدو ونضعه تحت المراقبة المستمرة ، وندرس باهتمام تصريحات قادته وتصرفات قواته وما تقوم به من تعبئة جزئية واستدعاء للاحتياطي» .

العرب والحرب الخامسة :

لا يكف القادة العرب عن تاكيد انها هي الحرب مره خامسة وسادسة وعاشرة ان لم ينفذ الاسرائيليون قرارات الامم المتحدة .

هذا امر لا يخفى .. بل ان المشير احمد اسماعيل دخل في التفاصيل عندما تعهد علنا في احدى الندوات ان القيادة العسكرية ستوفر عنصر المفاجاة ايضا في الحرب الخامسة بطريقة غير متوقعة !

وليس التهديد العربي بالحرب الخامسة من قبيل الاستهلاك المحلي .. فانه من المحتم على القيادات الوطنية العربية ان تطرد المحتلين من الارض العربية .

والوضع سيكون اكثر مواتاة بالنسبة للعرب :

فعلاوة على حاجز التهيب من الجيش الاسرائيلي .. وتعود القتال معه .. وتخطي عقبة عبور قناة السويس فان العرب اصبحوا اكثر استعدادا من الناحية العسكرية .. واءتمدوا بلايين الدولارات لذلك التدعيم .

وحققوا كسبا كبيرا عالميا .. يتزايد يوما بعد يوم ..

وجربوا سلاح البترول واتى بنتائج تجعل كثيرا من دول العالم تقف ضد التعنت الاسرائيلي حتى لان فرنسا تبيعهم الميراج الآن

والدور الفلسطيني سيكون بعد الاعتراف الدولي بفلسطين وبعد التصالح مع الاردن كبيرا في مثل تلك الحرب واكثر فعالية عما كان في حرب اكتوبر .. والدعم السوفيتي سيكون في مثل تلك الحرب اقوى واخطر بعد ان استنفد العرب كل الوسائل السلمية .

ويمكن القول ان فتح القيادة المصرية البــاب على مصراعيه للولايــات المتحدة لتتراجع وتتخذ موقفا واقعيا تجاه أزمة الشرق الاوسط هو فــي حد ذاته تعبئة للراي العام العالمي ضد اسرائيل ومن يشجعها على تحدي ذلك الراي العام .

ان التعنت الاسرائيلي ما زال حادا .. فثمة مواقع ثلاث يتشبث بهم الاسرائيليون تماما .. شرم الشيخ . معظم الجولان . القدس . ولا يبدو ان الامريكيين حتى الان مستعدون للضغط كفايــة على المؤسسة الاسرائيليــة للتراجع عن هذه المواقع الثلاث . وهذا ما يجعل احتمال التسوية السلمية صعبا تماما حتى الان .. ومما يرجــح احتمال الجولــة الخامسة لحسم الموقف واجبار الاسرائيليين على التراجع .



هذه اذن احتمالات الحرب الخامسة .. من الجانبــين .. الجانــب الاسرائيلي .. وجانبنا العربي ..

ولا احد يستطيع القول ما اذا كان حتما ان تنشب مثل تلك الحرب ، ومتى تنشب .. ولكن شيئا مؤكدا يمكن قوله .. انه اذا قامت الحــرب الخامسة .. فان نتائجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ستكون اوسع مدى مما يتوقع الكثيرون .. وستكتشف الولايات المتحدة ان تخوفها مــن استمرار حرب اكتوبر ١٩٧٣ كان في محله تماما .. وانها اخطات غاية الخطا .. في حق مصالحها هي عندما لم ترغم دميتها وصنيعتها على الانسحاب مــن الارض العربية المحتلة وتحقيق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

٣٦

.. وأخيرًا.. الطّريق؟

كان انور السادات يحارب من اجل الحرب .. في عام ١٩٧٢ .. بينما كان معظم الناس يشككون في جدية احاديثه عن الحرب (فصل ساعة الصفر السياسية) ..

لقد كان رئيس الجمهورية يقاتل داخل « السلطة » من اجل اقناع افراد فيها بضرورة دخول الحرب لتحقيق التحرير ، وكان بعض القاده العسكريين الكبار يعارضون ويشككون ويبالغون في قوة العدو .. ويقللون من قدرة مصر ..

ودخل السادات الحرب .. وانتصرنا .. ولو جزئيا .. وان كانت كلمة جزئيا لا تعبر عن الحقيقة فالنتائج والمتغيرات التي احدثتها حرب ٦ اكتوبر تجعل هذه الكلمة قاصرة عن تحديد حجم النصر الحقيقي .

وعندما حدثت الثغرة .. تشكك البعض ايضا ..

ولكن السادات قضى على الثغرة .. (اين هي الان ؟) ..

وقيل كلام كثير عن الصلح المنفرد .. واشياء اخرى تعرضنا لها في ذلك الكتاب .. وثبت تاريخيا خطؤها ..

علينا اذن ان نتريـــث في اطلاق الاحكــام .. وان نثـق في القيادة الوطنيــة .

وهذا ليس دعوة للسلبية وتسليم زمام الامور « للزعيم الذي اعفى القاعدة من التفكير » .. فهذا ابعد ما يمكــن ان نفكر فيه بل نحن نخطىء ذلك المنهج ونجرمه .. بل نحن مع اطلاق الحريات النسبي في مصر دون جزع من استغلال القوى المضادة لثورة ٢٣ يوليو له ، لان ذلك يشحذ همة الجماهير للوعي بمصالحها .. وينفض عنها سلبية عاشت فيها اعواما طويلة بعيدة عن معترك العمل السياسي ، وهذا التخلص مــن السلبية بدايــة الايجابية في العمل والمشاركة في توجيه مسار التطـور والاحداث في البلاد .

انما نحن ندعو الى الاستفادة مــن دروس الماضي وعبر التاريــخ .. والثقة بالقيادة لا تتعارض مع نقد تصرفاتها وسياستها .

ولكن النقد النابع من الثقة هو النقد البناء .. والنقد الذي يدعــو الموجه اليه الى الاصغــاء اليــه والتامــل فيه واحترامــــه حتى لو لــم يأخذ بــه .

والقوى الوطنية التي تفقد الثقة بقيادتها لا ترتكب خطا سوء التقديــر فحسب .. بل انها تخلى الطريق للقوى الرجعية لاحتواء تلك القيادة ثــم هدمها والتخلص منها .. والعودة بالبلاد كلها الى الوراء .

ان القوى الوطنية المصرية والعربية مدعوة اليوم الى الالتفاف حــول قيادة ثورة ٢٣ يوليو .. وانور السادات بالذات قائدها وخليفة عبد الناصر .

ومدعوة الى النضال من اجل توسيع الديمقراطية فمن المضحك أن اعلى الناس صوتا في الدعوة الى الديمقراطية هم خصوم ثورة ٢٣ يوليو .. بينما بعض القوى الوطنية الاخرى تكتفي بالفرجة .. وبالولولة من استغلال هؤلاء الخصوم للديمقراطية ..

والديمقراطية ممارسة .. وليس هناك باب مكتوب عليه « مسموح باستخدام الديمقراطية » .. وهي تتســع بالممارسة .. وبالمعانــاة .. وبالتضحية من اجلها ..

والديمقراطية هي الطريق لتوحيد الشعب وتعبئته معنويا وعسكريــا في الاحياء والقرى والمصانع والجامعــات والمدارس بحيــث يكون هنــاك

جيش تان مسلح بالأسلحة الخفيفة ومدرب على حــرب المدن والعصابــات لمواجهة اي عمليات « ابرار » للعدو اذا ما قامت الحرب الخامسة . وتوقعا لغارات العمــق .

وهي تعبئة لازمة ايضا لأعادة بناء المجتمع المصري وتعميره اذا ما حلت المسألة سلميــا .

● ولكي خطو خطوة جديدة حقيقية على طريــق الديمقراطية فــان **تطوير الاتحاد الاشتراكي العربي** يجب ان يتم بسرعة بحيث يمكن تعدد المنابر الســياسية داخله حتى يكتسب حيوية ويكون تعبيرا عن تحالف قوى الشعب حقا .. وان تمارس القوى الوطنية داخله حوارا حرا حتى لا تظل احدى تلك القوى (الرأسمالية الوطنية) مسيطرة عليه ..

★ ★ ★

ولقدأثبتت الحرب اهمية الاعلام وفاعليته .. والاعلام الخارجي له اهميته الفائقة .. ويجب ان تتوقف التلقائية والعفوية فيه .

ان ارسال الوفود السياسية والثقافية والصحفية والفنية ضرورة الى كل بلاد العالم .. واستقدام الوفود من كل الاتجاهات ايضا امر مفيد ولكن يبقى امران .. وقد سبق أن أشرنا اليهما في كتاب « اوروبا والعــدوان الاسرائيلي » الصادر عام ١٩٦٨ ..

الامر الاول : ان هذه العملية لتبادل الوفود يجب أن تنظم مــن كادر سياسي وأن يكون هنــاك جهاز يحفظ الاتصالات التي تتم ويــداوم على الاتصال بها سواء كانت هيئات او احزاب او افراد .. بحيث يتم اطلاعها على حقائق الأمور ووجهة النظر العربية . لان الذي يحدث ان تتم زيارات بطريقة موسمية .. ثم ينتهي كل شيء وينسى كل شيء .

الامر الثاني : انه آن الأوان لأن نقوم بعمــل جدي بعد طول كــلام واجتماعات ومناقشات .. عمل جــدي لتنظيم هذا الجيش المجانــي من السفراء المصريين والعرب جميعا في الخــارج .. المبعوثــون الدارسون والعاملون في أوروبا وامريكا وكل ركن في الدنيا .. حتى كندا واستراليا .

ان هناك عشرات الالوف من المصريين ومئات الالوف من العرب في المهجر مثلا ..

هؤلاء المواطنين لهم اتصال بالراى العام العالمي في مجالات عملهم ودراساتهم .. ولديهم امكانياتهم المادية التي تكفل لهم القدرة على القيام بالاعلام ..

فقط يلزم تنظيمهم وتوجيههم ومدهم بالمعلومات ..

لا بد من تنمية شعور الانتماء التنظيمي بينهم . ولا بد من خلق رابطة تنظيمية لهم وبالذات مجلة نصف شهرية في البداية تصدرها جهة غير رسمية حتى لا تكون نشرة دعائية ممجوجة ..

انها يجب ان تكون مجلة تعبر عنهم وعن آرائهم على اختلافها وملاحظاتهم وانتقاداتهم ..

انها يجب أن تكون مجلة وحدة لا تفريق .. وحدة وطنية غير « فرضية » . ولا بد ان يتصدى لهذا العمل كوادر سياسية واعية واسعة الصدر تدرك الفرق بين عقلية وسيكولوجية المواطن الذي يعيش في بلد يتمتع بالديمقراطية البرجوازية منذ ٣٠٠ عام .. وبين المواطن الذي يعيش في بلد نام مستقل حديثا .

يجب تلافي اخطاء الماضي جميعا في معاملة المبعوثين هذه الاخطاء التي تركزت في الاساليب البوليسية والارهابية والترغيب والتهديد والتفرقة والتقسيم والرشوة . وانا اتكلم عن خبرة عملية من رحلاتي العديدة الى الخارج .

ليكن شعار العمل بين المبعوثين والعاملين في الخارج : تعالوا الى كلمة سواء من اجل مواجهة العدو اعلاميا .. ولتكن أفكاركم وعقائدكم كما تكون فذلك مجال للصراع في الوطن . اما هنا فصف واحد ضد الصهيونية حول قضايا محددة لا اختلاف عليها .

وهذا الجيش من السفراء المجانيين يكتسب اهمية فائقة في هذه الايام

في ظروف الضغط للحل السياسي وظروف انعـــزال اسرائيل كثـــيرا

وان وحدة الصف العربي هي المسألة الاساسية في كل خططنا للانتصار في المعركة وليختلف العرب وليتصارعوا ولكن بمنهج اخوي فنحن في مرحلة وطنية ضد اعداء العرب جميعا .. ولنعدل عن سياسة مقاطعة الاجتماعات.

انه كان افضل لو ان العقيد القذافـــي قائد ثورة ليبيا قد حضـــر اجتماع الرباط للقمة العربي .. وساهم برأيه في ذلك الاجتماع .. خصوصا ان تجربة كشف الخلاف بصوت عال طوال العام الماضي لم تات بنتيجـــة لصالح التحرر العربي او الوحدة العربية بل جاءت بنتائج معاكسة لذلـــك تماما ليس هنا مجال التعرض لهـــا .

★ ★ ★

ومع هذا كله فان الشعب الفلسطينـــــي ما زال ينتظره دوره العظيم بعـــد الاعتراف العالمي به .. كي يشدد نضاله من اجل تحقيق اهدافه القومية .

والمقاومة الفلسطينية طليعة هذا الشعب مدعوة لتوطيد وحدتها اكثـــر والتمسك بها كمقلة العـــين .

ومدعوة ايضا لمضاعفة عملياتها المسلحة داخل الارض المحتلة وداخل اسرائيل ذاتهـــا .

إن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية يجب الا نتركها تركن للراحـــة .. ويجب أن يتأكد الإسرائيليون انه لا توجد فـــي المنطقة اية احتمـــالات للإستقرار والأمن طالما هم أداة للإمبريالية وطالما هم يغتصبـــون الارض العربية ويشردون الشعب الفلسطيني .. وطالما يمارسون الاساليب الفاشتية التي هم كانوا ضحايا لها اثناء الحرب العالمية الثانية .. ثم عادوا يطبقونها هم بطريقة عنصرية وضيعة .

ان الكفاح المسلح ضدالعدو الصهيوني يجب ان يستمر .. ويتضاعف.. في مسار ضد العدو ذاته بعيدا عن اي اتجاهات مغامرة تستفز ال اي العام العالمي الذي يجب ان نحافظ على مساندتهم المتزايدة ـ ولو ببطء ـ الآن للحق العربي .



وبعد مرور اكثر من عام على وقف القتال .. وتتبـــع ما احرزتــه القضية من تقدم خلال تلك الفترة .. لتتجدد ثقتنا اكثر في اننا سننتصر حتمـا .. فتلك مشيئة التاريخ لكل شعب يحمل السلاح ويقاتل من اجـل قضية عادلة مهما طال الاجل ..

وفي النهاية نرجو ان يكون هذا القلم قد تمكن من المساهمة بشكـل متواضع في معركة التحرر بمحاولة التعبير عن ملاحـم الابطال العرب في سيناء والجولان هذه الملاحم التي تحتاج دائما الى المزيد من كتابات الكتاب والمؤرخين والابداع الفني للفنانين على اختلاف اتجاهاتهم ..
هؤلاء الابطال العرب الذين بفضل ثباتهم وتضحياتهم ما زلنا نسير على درب الحرية .. والتقدم الاجتماعي .. والوحدة العربية الديمقراطية .. والسلام ..

عبد الستار الطويله

القاهرة　　　　　　　　٢١ نوفمبر ١٩٧٤

الفهرس

صدر للمؤلف

- اوربا والعدوان الاسرائيلي
- اليسار الاوربي
- المعجزة الالمانية الحقيقية
- الانسان الاوربي في الجد واللعب
- فلاح من سنتريس في باريس
- دليل المسافر الذكي إلى اوربا
- المسيح أسمى النجوم (مسرحية مترجمة مع دراسة
- حرب الساعات الست في يوميات مراسل حربي

تحت الطبع

● **رفض الرفض**

حوار أخوي مع جبهة الرفض العربية واليسـار الجديد

● **الرجل الذي يعدو**

رواية مصرية جرت أحداثها عام ١٩٥٤

● **الشعر**

(ترجمة للمسـرحية المشهورة مع دراسة)



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٢٠٤٧

I.S.B.N- 977 - 01 - 5075 - 4